فيض الخاطر

وهو

مجموع مقالات أدبية واجتماعية

كتبه

أحمد أمين

الجزء الأول

الطبعة الثانية

القاهرة

مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر

مقدمة

هذه مقالات نشر بعضها فى مجلة « الرسالة » وبعضها فى مجلة « الهلال » وبعضها لم ينشر فى هذه ولا تلك ، استحسنت أن أجمعها فى كتاب ، لا لأنها بدائع أو روائع ، ولا لأن الناس ألحوا علىّ فى جمعها ، فنزلت على حكمهم ، وائتمرت بأمرهم ، ولا لأنها ستفتح فى الأدب فتحاً جديداً لا عهد للناس به ، ولكن لأنها قِطَع من نفسى أحرص عليها حرصى على الحياة ، وأجتهد فى تسجيلها إجابة لغريزة حبّ البقاء ، وهى — مجموعةً — أدل منها مفرّقة ، وفى كتابٍ أبين منها فى « أعداد » .

ثم لعلى أقع على قراء مزاجهم من طبيعة مزاجى ، وعقليتهم من جنس عقلى ، وفنهم من فنى ، يجدون فيها صورة من نفوسهم وضربا من ضروب تفكيرهم ، فيشعرون بشىء من الفائدة فى قراءتها ، واللذة فى مطالعتها ، فيزيدنى ذلك غبطة ويملؤنى سروراً .

بعض هذه المقالات وليد مطالعات هادئة ، وبعضها نتيجة عاطفة مائجة ، وكلها تعبيرات صادقة .

أصدق كاتب فى نظرى من احتفظ بشخصيته ، وجعل أفكاره وعواطفه تمتزج امتزاجا تامًّا بأسلوبه ، وخير أسلوب عندى ما أدى

أكثر ما يمكن من أفكار وعواطف فى أقل ما يمكن من عسر وغموض والتواء ، وراعك بجمال معانيه أكثر مما شغلك بزينة لفظه ، وكان كالغانية تستغنى بطبيعة جمالها عن كثرة حليها .

ولم يكن لى شرف إدراك هذه الغاية ، ولكن كان لى شرف السير فى سبيلها .

٦ رمضان سنة ١٣٥٧ — أحمد أمين

فهرس الكتاب

الرأى والعقيدة

فرق كبير بين أن ترى الرأى وأن تعتقدَه ؛ إذا رأيت الرأى فقد أدخلته فى دائرة معلوماتك ، وإذا اعتقدته جرى فى دمك ، وسرى فى مخ عظامك ، وتغلغل إلى أعماق قلبك .

ذو الرأى فيلسوف ، يقول إنى أرى الرأى صوابا وقد يكون فى الواقع باطلا ، وهذا ما قامت الأدلة عليه اليوم وقد تقوم الأدلة على عكسه غداً ، وقد أكون مخطئا فيه وقد أكون مصيبا . أما ذو العقيدة فجازم باتٌّ لا شك عنده ولا ظن ، عقيدته هى الحق لا محالة ، هى الحق اليوم وهى الحق غداً ، خرجَتْ عن أن تكون مجالا للدليل ، وسَمَتْ عن معترك الشكوك والظنون .

ذو الرأى فاتر أو بارد ، إن تحقق ما رأى ابتسم ابتسامة هادئة رزينة ، وإن لم يتحقق ما رأى فلا بأس ، فقد احترز من قبل بأنّ رأيه صواب يحتمل الخطأ ، ورأىَ غيره خطأ يحتمل الصواب . وذو العقيدة حار متحمس لا يهدأ إلا إذا حقق عقيدته ؛ هو حرج الصدر ، لهيف القلب ، تتناجى فى صدره الهموم ، أرّق جفنه وأطال ليله تفكيره فى عقيدته ، كيف يعمل لها ، ويدعو إليها ؛ وهو طلق المحيا مُشْرِق الجبين ، إذا أدرك غايته ، أو قارب بغيته .

ذو الرأى سهل أن يتحول ويتحور ، هو عبد الدليل ، أو عبد المصلحة تظهر فى شكل دليل . أما ذو العقيدة فخير مظهر له ما قاله رسول الله : « لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى شمالى على أن أدع هذا الذى جئت به ما تركته » ، وكما يتجلى فى دعاء عمر : « اللهم إيماناً كإيمان العجائز » .

لقد رووا عن « سقراط » أنه قال : « إن الفضيلة هى المعرفة » . وناقشوه

فى رأيه ، وأبانوا خطأه ، واستدلوا بأن العلم قد يكون فى ناحية والعمل فى ناحية . وكثيراً ما رأينا أعرف الناس بمضار الخمر شاربها ، وبمضار القمار لاعبه ؛ ولكن لو قال سقراط إن الفضيلة هى العقيدة ، لم أعرف وجهاً للرد عليه ؛ فالعقيدة تستتبع العمل على وَفْقها لا محالة — قد ترى أن الكرم فضيلة ثم تبخل ، والشجاعة خيراً ثم تجبن ؛ ولكن محال أن تؤمن بالشجاعة والكرم ، ثم تجبن أو تبخل .

العقيدة حق مشاع بين الناس على السواء ، تجدها فى السُّذَّج ، وفى الأوساط ، وفى الفلاسفة — أما الرأى فليس إلا للخاصة الذين يعرفون الدليل وأنواعه ، والقياس وأشكاله ؛ والناس يسيرون فى الحياة بعقيدتهم ، أكثر مما يسيرون بآرائهم ؛ والمؤمن يرى بعقيدته ما لا يرى الباحثُ برأيه ، قد مُنح المؤمن من الحواس الباطنة والذوق ما قصر عن إدراكه القياس والدليل .

لقد ضلّ من طلب الإيمان بعلم الكلام وحججه وبراهينه ، فنتيجة ذلك كله عواصف فى الدماغ أقصى غايتها أن تنتج رأيا ؛ أما الإيمان والعقيدة فوطنهما القلب ، ووسائلهما مدّ خيوط بين الأشجار والأزهار والبحار والأنهار وبين قلب الإنسان ؛ ومن أجل هذا كانت « أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خُلِقَتْ وإلى السماء كيف رُفعت وإلى الجبال كيف نُصبت وإلى الأرض كيف سُطِحَتْ » أفعل فى الإيمان من قولهم : « العالم متغير وكل متغير حادث » ؛ فالأول عقيدة والثانى رأى .

الناس إنما يخضعون لذى العقيدة . وليس ذوو الرأى إلا ثرثارين ، عُنوا بظواهر الحجج أكثر مما عنوا بالواقع ، لا يزالون يتجادلون فى آرائهم حتى يأتى ذو العقيدة فيكتسحهم .

قد يجود الرأى ، وقد ينفع ، وقد ينير الظلام ، وقد يُظهر الصواب ؛ ولكن

لا قيمة لذلك كله ما لم تدعمه العقيدة ، وقلّ أن تؤتى أمة من نقص فى الرأى ، ولكن أكثر ما تُؤْتى من ضعف فى العقيدة ، بل قد تؤتى من قِبَل كثرة الآراء أكثر مما تؤتى من قلتها .

الرأى جثة هامدة ، لا حياة لها ما لم تنفخ فيها العقيدة من روحها ، والرأى كهف مظلم لا ينير حتى تلقِى عليه العقيدة من أشعتها ، والرأى مستنقَع راكد يبيض فوقه البعوض ؛ والعقيدة بحر زاخر لا يسمح للهوامّ الوضيعة أن تتولد على سطحه ؛ والرأى سديم يتكوّن ، والعقيدة نجم يتألق .

ذو الرأى يخضع للظالم وللقوى ، لأنه يرى أن للظالم والقوى رأيا كرأيه ؛ ولكنّ ذا العقيدة يأبى الضيم ويمقت الظلم ، لأنه يؤمن أن ما يعتقده من عدل وإباء هو الحق ، ولا حق غيره .

من العقيدة ينبثق نور باطنى يضىء جوانب النفس ، ويبعث فيها القوة والحياة ، يستعذب صاحبها العذاب ، ويستصغر العظائم ، ويستخف بالأهوال ؛ وما المصلحون الصادقون فى كل أمة إلا أصحاب العقائد فيها .

الرأى يخلق المصاعب ، ويضع العقبات ، ويصغى لأمانى الجسد ، ويثير الشبهات ، ويبعث على التردد ؛ والعقيدة تقتحم الأخطار ، وتزلزل الجبال ، وتلفت وجه الدهر ، وتغير سير التاريخ ، وتنسف الشك والتردد ، وتبعث الحزم واليقين ، ولا تسمح إلا لمُرَاد الروح .

ليس ينقص الشرقَ لنهوضه رأى ، ولكن تنقصه العقيدة ؛ فلو منح الشرق عظماء يعتقدون ما يقولون لتغير وجهه وحال حاله ، وأصبح شيئاً آخر .

وبعدُ ، فهل حُرِم الإيمان مهبط الإيمان ؟

الكيف لا الكم

رُوى أن ابن « سينا » كان يسأل الله أن يهبه حياة عريضة وإن لم تكن طويلة ؛ ولعله يعنى بالحياة العريضة حياةً غنية بالتفكير والإنتاج ؛ ويرى أن هذا هو المقياس الصحيح للحياة ؛ وليس مقياسَها طولُها إذا كان الطول فى غير إنتاج ؛ فكثير من الناس ليست حياتهم إلا يوما واحدا متكررا ، برنامجهم فى الحياة : أكل وشرب ونوم ؛ أمسهم كيومهم ، ويومهم كغدهم ؛ هؤلاء إن عُمِّروا مائة عام فابن سينا يقدره بيوم واحد ؛ على حين أنه قد يقدِّر يوما واحدا — طوله أربع وعشرون ساعة — بعشرات السنين إذا كان عريضا فى منتهى العرض ؛ فقد يوفَّق المفكر فى يومه إلى فكرة تُسعد الناس أجيالا ، أو إلى عمل يسعد آلافا ؛ فحياة هذا — وإن قصرت — تساوى أعمار آلاف ، بل قد تساوى عمر أمة ، لأن العبرة بالكيف لا بالكم .

وليس على الله بمستنكَرٍ أن يجمعَ العالَمَ فى واحِدِ

ولعل ساعة اجتمع فيها أقطاب الأمم الأربعة ، فانتهوا فيها إلى السلم ، وأنقذوا أرواح الملايين من البشر ، ومنعوا من الكوارث ما لا يعلم هَوْلَه إلا الله ، خيرٌ آلاف آلاف من سنين صرفت فى التسلّح وما إليه .

وتقدير الأشياء بالكيف لا بالكم ، منزلة لا يصل إليها العقل إلا بعد نضجه . أما الطفل فى نشأته ، والأمة فى طفولتها ، فأكثر ما يعجبهما الكم ؛ فالريفى خير « الخيار » عنده ما كبر حجمه وبيعَ بالكوم ، والمدنى خير « الخيار » عنده ما نَحف جسمه وكان « كالقشة » وبيع بالرطل . والطفل وأشباهه يرغبون

بكثرة العَدَد لا بجودة الصنف ؛ فحيثما مررت فى الشارع أو زرت متجراً رأيت أكثر الترغيب بالكم « فأربعون ظرفاً وجواباً بتعريفة » ، و « دستة أقلام رصاص بصاغ » ، وهكذا ؛ وسبب هذا أن البيع والشراء يعتمدان على أدق قوانين علم النفس ، والباعة من أعرف الناس بهذه القوانين التى تتصل بعقلية الجمهور ؛ فهم يعلمون أنهم أكثر تقويماً للكم ، وأكثر انخداعاً بالعدد ؛ فهم يأتونهم من نواحى ضعفهم وموضع المرض منهم ؛ وقلّ أن يرغّبوهم فى الشئ بأنه من « العال » أو « عال العال » ، لأن هذا تقدير للكيف ، وليس يقدره إلا الخاصة .

وكل إنسان قد مر بدور الطفولة ، والأمم جميعها مرت كذلك بهذا الدور ؛ فعَلِق بأذهانهم تقدير الكم ، ولم يستطيعوا أن يتحرروا منه مهما ارتَقَوْا ؛ وأصبحوا — حتى الخاصة منهم — ينخدعون بالكم من غير شعور وبلا وعى ؛ وصار هذا مرضاً ملازماً ، إنما يتحرر منه الفلاسفة وإلى حد . ألا ترانا نرى الرجل الضخم حسن الهيئة جميل الطلعة فنمنحه الاحترام ولو لم نعرف قيمته ؛ ونرى الرجل صغير الجسم غير مهندم الثياب فنحتقره أول وهلة من غير أن نعرفه ؛ وأساس معاملتنا بالإجمال احترام ذوى المظاهر الجميلة حتى يثبت العكس ، واحتقار ذوى المظاهر الوضيعة حتى يثبت العكس ، وليس ذلك إلا من خداع الكم ؛ ولو أنصفنا لوقفنا على الحياد من الجميع حتى نتبين الكيف .

ونرى ذا العمامة الكبيرة واللحية الطويلة ، فنعتقد فيه العلم والدين ، مع أنه لا علاقة بين كبر العمامة وطول اللحية وبين العلم والدين ؛ وإن كانت ثمة علاقة فعلاقة الضدية ، لأن الدين محله القلب ، والعلم موطنه الدماغ ؛ وإذا ملئ القلب ديناً والدماغ علماً احتقر المظهر وأبى أن يدل على دينه أو علمه بمظهر خارجي ؛ بل هو إن امتلأ ديناً وعلماً أنكر على نفسه الدين والعلم ، واعتقد أنه

أبعد ما يكون عما ينشده من دين وعلم ؛ وكذلك الشأن فى اللباس الجامعى واللباس الكهنوتى .

وقديماً أدرك العرب خداع الكم ، فقالوا : « ترى الفتيان كالنّخْل وما يُدْريك ما الدَّخل » .

وقال شاعرهم :

ترى الرجلَ النحيفَ فتزدريه   وفى أثوابِهِ أسَدٌ مَزِيرُ (١)

ويُعجبك الطّرِيرُ فتبتليهِ   فيُخْلِفُ ظنَّك الرجلُ الطريرُ

وفى كل شأن من شؤون الحياة ، وضرب من ضروب العلم والفن ترى خداع الكم .

فالمؤلفون يعلنون عن كتبهم أنها فى أربعمائة صفحة — مثلا — من القطع الكبير ، والمتعلمون كثيراً ما باهوا بكثرة ما قرأوا ، والكتّاب بكثرة ما كتبوا ؛ والصحافة كثيراً ما خدعت القراء بالكم ، فكان مما اصطنعته زيادة عدد الصفحات فى الجرائد والمجلات ، مع أن الصفحات وحدها كمٌّ ، ولا قيمة لها مالم يصحبها الكيف . وكم أتمنى أن أرى جريدة أو مجلة تُرَغّب قراءها بالكيف فقط ، وإن كنت أجزم بأن مصيرها الفشل ، لأن أكثر الناس لم يُمْنَحوا — بعدُ — ميزان الكيف .

وقد جرّت كثرة الصفحات فى الجرائد والمجلات إلى تحوير الأسلوب إلى ما يناسبها ؛ فكان الأسلوب أحياناً كالعِهْن المنفوش ، يصاغ منه فى صفحة ما يصح أن يصاغ فى عمود ، وفى عمود ما يصح أن يصاغ فى سطر — ولست أدرى لم كان الناس إذا أرسلوا برْقية ، تخيروا أوجز الألفاظ لأغزر المعانى ؛ ولم يفعلوا من ذلك شيئا فى كتبهم ورسائلهم ومقالاتهم ؛ ولعلهم يفعلون ذلك لأن الكلمات

(١) المزير : الشديد القوى .

فى البرقية تقدر بالقروش ، وليس كذلك فيما عداها — إن كان هذا هو السبب دل على تقدير القرش أكثر مما يقدر زمن القارئ والكاتب ؛ وفى هذا منتهى الشر ، وفى هذا أقسى مثل لغفلة الناس فى تقدير الكم لا الكيف .

وقديماً عرض علماء البلاغة للكيف والكم فى الأدب ، وسموها اسما خاصا هو الإيجاز والإطناب ؛ وعدُّوا الإيجاز أشرف الكلام ، والإجادة فيه بعيدة المنال لما فيه من لفظ قليل يدل على معنى كثير ، ومثلوا للإيجاز والإطناب بالجوهرة الواحدة بالنسبة إلى الدراهم الكثيرة ؛ فمن ينظر إلى طول الألفاظ يؤثر الدراهم لكثرتها ، ومن ينظر إلى شرف المعانى يؤثر الجوهرة الواحدة لنفاستها ، ولا يعدل عن الإيجاز إلى الإطناب إلا لإيضاح معنى أو تأكيد رأى .

والحق أن الأدب العربى فى هذا الباب من خير الآداب ، فأكثر ما صدر فى عصوره الأولى حبات من المطر تجمعت من سحاب منتشر ، أو قطرات من العطر استُخْلصت من كثير من الزهر .

وبعد ، فلست أحب أن تكون كتابتنا كلها بَرْقيّات ، وإذاً لعدمنا ما للأسلوب من جمال ، وما لتوضيح الفكرة وتجليتها وتحليتها من قيمة ؛ وإنما أريد أن يكون المعنى هو القصد وهو المقياس ، فإن أطنبنا فللمعنى ، وإن أوجزنا فللمعنى .

وأريد أن يقوّم الناس الكيف للكيف ، وإذا قدروا الكم فللكيف .

ولعل من ألطف ما كان أنى حين بلغت هذا الموضع من مقالتى أخذت أعد صفحات ما كتبت ، فوجدتها قليلة العدد ، فآلمنى ذلك لأنى لم أبلغ ما حَزَرْتُ أن يكون ، وفرحت بهذه الملاحظة لأنها سدت فراغا فى المقالة يُكَمِّل بعض ما فيها من قصر . ألسنا جميعاً عُبّاد (كم) ، أوليس هذا من نوع تقدير الخيار « بالكوم » ؟

صديق

لى صديق ، اصطلحت عليه الأضداد ، وأتلفت فيه المتناقضات ، سواء فى ذلك خَلْقه وخُلُقه وعلمه .

حيي خجول ، يغشى المجلس فيتعثر فى مِشْيَته ، ويضطرب فى حركته ، ويصادف أول مقعد فيرمى بنفسه فيه ، ويجلس وقد اف الحياء رأسه ، وغض الخجل طَرْفه ، وتقدم له القهوة فترتعش يده ، وترتجف أعصابه ؛ وقد يدارى ذلك فيتظاهر أن ليس له فيها رغبة ، ولا به إليها حاجة ؛ وقد يشعل لفافته فيحمله خجله أن ينفضها كل حين ، وهى لا تحترق بهذا القدر كل حين ؛ وقد يهرب من هذا كله فيتحدث إلى جليسه لينسى نفسه وخجله ، ولكن سرعان ما تعاوده الفكرة فيعاود الهرب ؛ وهكذا دواليك حتى يحين موعد الانصراف ، فيخرج كما دخل ، ويتنفس الصُّعَداء حامداً الله على أنه لم يخرّ صعِقاً ، ولم يدركه حَيْنه كرباً وقلقاً .

من أجل هذا أكره شىء عنده أن يشترك فى عزاء أو هناء . أو يُدعى إلى وليمة أو يدعو إليها ، يشعر أنه عبء ثقيل على الناس وأنهم عبء عليه ، يحب العزلة لا كرهاً للناس ولكن ستراً لنفسه ، ويأنس بالوحدة وهى تضنيه وتبريه .

ثم هو — مع هذا — جرىء إلى الوقاحة ، يخطب فلا يهاب ، ويتكلم فى مسألة علمية فلا ينضبُ ماؤه ، ولا يَنْدَى جبينه ، ويعرض عليه الأمر فى جمع حافل فيدلى برأيه فى غير هيبة ولا وجل ، وقد تبلغ به الجرأة أن يجرح حسهم ، ويدمى شعورهم ، فلا يأبه لذلك ، ويرسل نفسه على سجيتها فلا يتحفظ ولا يتحرز . يحكم من يراه فى حالته الأولى أنه أحيا من مخدَّرة ، وَمن يراه فى الثانية

أنه أوقح من ذئب وأصلب من صخر ، ومن يراه فيهما أنه شجاع القلب ، جبان الوجه .

***

وهو طموح قنوع ، نابه خامل ، يرمى بهمته إلى أبعد مرمًى ، وتَنْزِع نفسه إلى أسنى المراتب ، وتحفزه إلى أبعد المدارك ؛ فيوفر على ذلك همه ، ويجمع له نفسه ، ويتحمل فيه أشق العناء ، وأكبر البلاء ، ولا يسأم ولا يضجر ؛ وكلما نال منزلة مَلَّها وطلب أسْمى منها . وبينا هو فى جده وكده ، وحزمه وعزمه ، إذ طاف به طائف من التصوف ، فاحتقر الدنيا وشؤونها ، والنعيم والبؤس ، والشقاء والهناء . وسمع قول المتنبى :

ولا تَحْسَبَنَّ المجدَ زِقًّا وقَيْنَةً   فما المجدُ إلا السيفُ والطَّعْنَةُ البِكْرُ

وتَرْكُكَ فى الدُّنْيا دَوِيًّا كأنما   تَدَاوَلَ سَمْعَ المرءِ أَنْمُلُهُ العَشْرُ

فهزئ به وسخر منه ، واستوطأ مهاد الخمول ورضى من زمانه بما قسم له . وبينا يأمل أن يكون أشهر من قمر ، ومن نار على علم ، يسافر فى الشرق والغرب ذكره ، ويطوى المراحل اسمه ، إذا به يخجل يوم ينشر اسمه فى صحيفة ، ويذوب حين يشار إليه فى حَفْل ، ويردد مع الصوفية قولهم : « ادفن وجودك فى أرض الخمول ، فما نبت مما لم يُدْفن لا يتم نتاجه » يَعْجَبُ من يراه مُجِدًّا خاملا ، ومعرفة نكرة ، وعاملا مغموراً .

وأغرب ما فيه أنه متكبر يتجاوز قدرَه ، ويعدو طوره . ومتواضع ينخفض جناحُه ، وتتضاءل نفسه . يتكبر حيث يصغر الكبراء . ويتصاغر حيث يكبر الصغراء . يتأله على العظماء حتى تظن أنه نسل الأكاسرة ووارث الجبابرة ، ويجلس إلى الفقير المسكين يؤاكله ويستذل له ؛ هو نَسر أمام الأغنياء ، وبغاث لدى الفقراء ، لا تلين قناته لكبير ، ويخزم أنفه الصغير .

يحب الناس جملة ، ويكرههم جملة . يدعوه الحب أن يندمج فيهم ، ويدعوه الكره أن يفر منهم ، حار فى أمره ، فامتزج الحب بالكره ، فاستهان بهم فى غير احتقار .

صحيح الجسم مريضه . ليس فيه موضع ضعف ، ولكن كذلك ليس فيه موضع قوة . يشكو المرض . فيحار فى شأنه الطبيب ، فيحنق على الأطباء ويرميهم بالعجز ، وما العاجز إلا جسمه لم يستطع أن ينوء بنفسه .

كذلك كان رأسه : مضطرب ، مرتبك ، كأنه مخزن مهوش ، أو دكان مبعثر ، وضعت فيه النعل القديمة بجانب الحجر الكريم ، يؤمن بقول الفقهاء : القديم على قِدَمه ، ثم يدعو إلى التجديد . ويتلاقى فيه مذهب أهل السنة بمذهب أهل النشوء والارتقاء ، ومذهب الاختيار بمذهب الجبر ، وحب الغنى بمذهب « أبى ذَرّ » . وتجتمع فى مكتبته كتب خطية قديمة قد أكلتها الأرضة ، ونسج الزمان عليها خيوطه ، وأحدثُ الكتب الأوربية فكراً وطبعاً وتجليداً . ولكل من هذين ظل فى عقله ، وأثر فى رأسه . يسره « تأبط شرًّا » فى بداوته وصعلكته ، و « جوته » فى حضارته وإمارته ، ويؤمن بشاعرية هذا وذاك . يسمع إلى الملحدين فيصغى إليهم . وإلى المؤمنين فيحن شوقاً لذكراهم ، يهمل فى صلاته ويحافظ على صومه إن ألحد فكره لم تطاوعه طبيعته ، وإن كفر عقله آمن قلبه . ومن أصدقائه السكير والزاهد ، والفاجر الداعر والعابد ؛ وكلهم على اختلاف مذاهبهم يصفه بأنه يجيد الإصغاء كما يجيد البليغُ الكلام .

* * *

سرت معه سيرةً من جنسه ، فأحببته وكرهته ، ونقمت منه ورحمته ، وكنت آنس به وأستوحش منه ؛ يبعد عنى فأتوق إليه ، ويطول مقامى معه فأتبرم به .

وأخيراً ، لم يقو جسمه على هذه الأضداد مؤتلفة ، والمتناقضات مجتمعة .

فعاجله الشيب فى شبابه ، وتقوس ظهره فى ربيع عمره ، وأصبح مترهّل العضل ، منسرقَ القوى ، يظنه من رآه أنه بلغ أرذل العمر ، ولِدَاته فى رونق الشباب ومَيْعة النشاط .

بلغنى مرضه ، فلم أدركه إلا جنازة ، فشيعته إلى أن أنزل حفرته ، وأُجِنَّ فى رمسه ونفضت من ترابه الأيدى !

وعدت موجَع القلب باكياً ، ضيق الصدر ، مكروب النفس ، أخذنى من الحزن عليه ما تنقض منه الجوانح ، وتنشقُّ له المرائر ؛ فعلمت أن حبى له كان أعمق من كرهى إياه ، وأن نقمتى عليه لم تكن إلا مظهراً من عطفى عليه ، وأنى كنت أقسو عليه رحمة به !

رحمة الله عليه فقد حطم بعضه بعضاً ، ومضى قتيل روحه وشهيد نفسه

مشروع مقالة

جلست إلى مكتبى وأمسكت بالقلم واستعرضت ما مر على أثناء الأسبوع لأختار منه موضوعاً أكتب فيه ، فخطر لى :

١

أن أكتب فى المساجلات الأدبية التى دارت بين شيخ العروبة والأستاذ مسعود فى (الطرطوشى ولاَرِدَة) ، و بين الدكتور زكى مبارك والأستاذ عبد الله عفيفى فى كتاب (زهرات منثورة) ، و بين الدكتور طه حسين والأستاذ العقاد فى (اللاتينيين والسكسونيين) . وقلت إن هذا موضوع طريف جدير أن يكتب فيه الكاتب ويعرض فيه لنوعى النقد اللذين ظهرا فى كتابة هؤلاء الأدباء ؛ فأحد النوعين قاس عنيف . حتى يخيل إلى أن أصحابه لم يبق لهم إلا أن يتسابّوا بالآباء ، أو يتضاربوا بالأكف ، أو يتبارزوا بالسيوف ! والآخر عفيف خفيف فيه لذع ، ولكن بالإيماء والإشارة ، وفيه مهاجمة عنيفة ، ولكن للفكرة لا لقائلها ؛ ويخيل إلى أنهما إذا تقابلا تعانقا ، ومهما أطالا فلن يتباغضا ، وليس فى أسلوبهما إدلال وفخر وإعجاب وعجب ، وليس فيه إسفاف وتنابذ بالألقاب ، وإدخال للعمامة والقبعة فى وسط المعمعة ، يدعو أحدهما الآخر إلى التلمذة له ، ويلقى كلاهما درساً فى النحو على أخيه .

وقلت من الحق أن تصرخ فى وجه هؤلاء ، وأن تعلن أن نقدهم يعجبك موضوعا ولا يعجبك شكلا ، وأن الذوق إذا رقى اكتفى فى الخصام بلمحة ، وأن الأديب يعجبه التعريض والتلميح ، ويشمئز من الهجو المكشوف والتصريح ، وأن العامة إذا تسابّوا أقذعوا ، وأن أولى الذوق إذا تخاصموا كان لهم فى الكناية

ومراتبها ، والإيماء ودرجاته ، والتعريض ومقاماته ، مندوحة من الأسلوب العريان والصراحة المخزية ، وأن الحقيقة الواحدة يمكن أن تقال على ألف وجه ، يتخير الأديب أحسنها ، على حين لا يعرف العامى إلا وجهاً واحداً يتلوه الضرب ، وأن فى أعناق شيوخ الأدب حقا للناشئة من المتعلمين الذين يضربون على قالبهم ويسيرون على منوالهم ، وإن هؤلاء الناشئة ليجدون فى هذه الصحف والمجلات مدرسة تثقفهم وتغذيهم ، ثم هم بعدُ قادة الأدب وهداة الأمة ؛ فلو أنا علمنا النشء هذا النقد الذى لا يرعى صداقة ولا يأبه لوفاء كان علينا وزرهم ، ووزر الأجيال بعدهم ، وكانت مدرستنا التى ننشئها قاسية البرامج فاسدة الطريقة .

وقلت : إن هذه الطريقة لا تخدم الحق كما يزعم أصحابها ، فلسنا نطلب منهم أن يسكتوا على باطل ، وأن يغمضوا عن خطأ ؛ بل نحمد منهم جدهم فى خدمة الحق ، وسهرهم فى كشف الصواب ، ولكنهم يسيئون إلى الحق إذا ظنوا أنه لا يؤدَّى إلا بهُجْر ، ولا يكشف إلا بسباب . والحق إذا عرض فى أدب كان أجمل وأجدى على رُوَّاده ، وإذا عرض فى سفه حمل المُعَاند أن يصر على عناده ، وحمل الخجول أن يكتم آراءه فى نفسه حتى لا يُنهَشَ عِرْضُه ولا تبتذل كرامته ، فقلَّ التأليف وضعف الإنتاج .

جال كل هذا فى نفسى ، ولكنى خفت أن أكتب مقالتى فى هذا الموضوع ، وقلت إنك إن فعلت هاجوا بك ، وتركوا خصومتهم لخصومتك ، وتصادقوا لعداوتك ، وقالوا أتلقى علينا درساً فى الأدب ونحن أساتذة الأدب ؟ ومن أنت وما شأنك ؟ وجلسوا منى مجلس الملكين يسألون ويسفهون . وأنت ما أغناك عن هذا الموقف ! وما أبعدك من هذا المأزق ! فتركت هذا الموضوع ، وعدلت عن المشروع .

ففيم أكتب إذاً ؟

٢

كنت فى الترام عصر يوم من هذا الأسبوع ، فصاح بائع الجرائد : المقطم ! البلاغ ! فلم ألتفت إليه لأنى كنت قرأتهما ، فلم يصدق أنى سمعت ، فصاح صيحة أنكر من الأولى ، فكان موقفى منه موقفى ، فأمعن فى الصراخ وأمعنت فى البرود ؛ فما وسعه إلا أن صعد الترام ، ومسنى بالمقطم والبلاغ ، فاضطررت إلى أن أقول إنى قرأتهما ليصدق أنى سمعت وفهمت .

وقلت : إن هذا موضوع للكتابة طريف ، أدعو فيه إلى دقة الحس ورقة الشعور وظرف المعاملة ؛ فإن ذلك لو كان لأغنانا عن كثير مما نلاقى من عناء وجفاء ؛ وما معاملاتنا إلا كالآلة بلا زيت : تسير ولكن تصدّع .

على أنى قلت إن هذا الموضوع من جنس الأول ، فلو أن أساتذة الأدب رقُّوا فى نقدهم ، لرق بائعو الجرائد فى عرضهم ، فأعرضت عن هذه إذ أعرضت عن تلك .

٣

وجلست فى مجلس يجمع طائفة مختارة من الأدباء ، فعُرِضَت بعض القصائد والمقالات ، فما من قصيدة أو مقالة إلا استحسنها قوم واستهجنها آخرون ؛ ورأيت من استحسن لم يستطع أن يُقْنِع من استهجن ، ولا من استهجن قد استطاع أن يقيم الدليل على من استحسن ؛ ورأيتهم إذا تناقشوا فى المعقولات أطالوا حججهم وسددوا براهينهم ، وذكروا لقولهم الأسباب والنتائج ، وهم أعجز ما يكونون عن ذلك فى الفنون والآداب .

فقلت هذا موضوع جيد ، أليس من الممكن أن يوضع للذوق منطق كما وضع أرسطو للعقل منطقاً ، فلتكتب فى « الذوق الفنى » ، ولتحاول أن تبين أسباب الخلاف ووجه الصواب ووجه الخطأ . وترسم سُلما للرقى فى الذوق تعرّف به من

أخطأ ومن أصاب ، وتبين به علة الخطأ فى المخطئ والإصابة للمصيب ، وكيف تحكم على ذوق بأنه أرقى من ذوق ، كما تحكم على عقل بأنه أرقى من عقل .

ولكنى رأيت الموضوع عميقاً يحتاج أن أفرغ له ، وأهجم عليه ابتداء من غير أن أشتت فكرى فى موضوعات مختلفة ، فأرجأته إلى حين .

وقلت : ما الذى يمنع أن أجعل مشروع المقالة مقالة ؟ فليكن !

أدب القوة وأدب الضعف

يَرْوُون أن جماعة من آل الزُّبَيْر كانوا يجتمعون إلى مغنية فيسمعون ويطربون . حتى إذا استخف الطربُ أحدهم (وهو عبد الله بن مصعب بن ثابت ابن عبد الله بن الزبير) قال فيها :

أحلفُ بالله يميناً ومنْ   يحلفُ بالله فقد أخْلَصا
لو أنها تدعو إلى بَيْعةٍ   بايعتُها ثم شَقَقْتُ العصا

فبلغت هذه الأبيات أبا جعفرٍ المنصور ، فدعاه إليه وعنفه على قوله ، وعيره بضعف آل الزبير من هذه الناحية ، إلى أن قال له : « حتى صرتَ أنتَ آخر الحمقى تبايع المغنيات ، فدونكم يا آل الزبير وهذا المرتع الوخيم ! » .

وسخر المنصور من هذا الضرب من القول ، وهذا النوع من الحياة ، وقال : إنما يعجبنى أن يُحْدَى لى بهذه الأبيات :

إن قَناتى لنبعٌ لا يُؤَيِّسُها   غمزُ الثِّقَاف ولا دُهْنٌ ولا نارُ (١)
متى أُجِرْ خائفاً تأمَنْ مَسارحُه   وإن أُخِفْ آمناً تقْلَقْ به الدارُ

هذه القصة تمثل نوعين من الأدب : فنوع يصح أن تسميه أدباً رقيقاً ، وإن كنتَ أشدَّ صراحة فسمه أدباً ضعيفاً أو أدباً « مائعاً » كما يصح أن تسمى النوع الثانى أدباً قويا أو أدباً رصيناً .

ولست أعنى بالضعف أو القوة ضعف الأدب أو قوته من الناحية الفنية ، وإنما أعنى ضعفه وقوته من الناحية الخلقية والاجتماعية ، فقد يكون هذا النوع

---

(١) أيس القناة : لينها .

الذى أسميه ضعيفاً أو مائعاً فى منتهى الرقى من الناحيـة الفنية ، كما قد يكون الأدب القوى ليس قويا بالمقياس الفنى .

وهذه القصة تمثل لنا أيضاً أن الأدب المائع والقوى أثر من آثار الحوادث والظروف ، فقد فشل آل الزبير سياسيا ولم تتحقق مطامعهم . فاستولى عليهم اليأس وانصرفوا إلى اللهو وأنِسُوا بالسماع وما إليه ، واحتقروا الخلافة حتى ليهمون أن يبايعوا جارية مغنية ؛ ويحدث عبد الله بن مصعب هذا عن نفسه فيقول : إذا غنتنى هذه الجارية :

حسبتُ أنى مالكٌ جالس   حُفَّتْ به الأملاك والموكبُ
فلا أبالى وإلهِ الورى   أشرَّقَ العالَمُ أم غرَّبوا

أما المنصور فنجح وأسس ملكاً ضخماً ، ووصل إلى هـذا النجاح بقوّته وحزمه ، فكان أحب شعر إليه شعر القوة والعظمة والحَمِيّة .

***

يخيل إلىّ أنّا إذا ألقينا نظرة عامة على الأدب العربى من هذه الناحية رأينا الأدب الجاهلى قويا — كجلمود صخر حطه السيل من عل — حماسة قوية ، وفخر قوى ، بل وغزل قوى ؛ والأدب الإسلامى إلى آخر العهد الأموى ، أدب قوى فيه عزة الفاتح ، وإعجاب الظافر ، ونشوة المنتصر ؛ وإن كان فيه نغمات ضعف فنغمات الحزب الذى غُلِب على أمره ، أو المحب الذى يئس فى حبه ؛ أما ما عدا هذا ففخر و إعجاب ، وهجاء فى أعلى درجات القوة .

فإذا نحن انتقلنا إلى العصر العباسى رأينا العزة العربية تأخذ فى الضعف ، ورأينا الانهماك فى اللهو يبعث أدبا جميلا فى فنه ضعيفاً فى روحه ، فيقول رئيس المجددين فى عصره بشار بن برد :

قد عشت بين الرَّيحان والراح والـ   ـمِزْهَرِ فى ظـلّ مجلس حَسَنِ

وقد ملأتُ البلاد ما بين فُغْفُور(١) إلى القَيْرَوان فاليمنِ
شعراً تُصلّى له العواتق والـ ـثّيبُ صلاة الغوانى للوثن

وتوالت النكبات على الشرق من ظلم وجور، وسوء فى كل نظم الحياة الاجتماعية؛ فكان الأدب العربى ظلاً لهذه الحياة — كان أدباً ضعيفاً، إن أنت حصرته وجدته بين باك على مصائب الدهر كأبى العلاء، ومادح للولاة والأمراء والأغنياء. ومستهتر يصف استهتاره وصفاً أنيقاً بديعاً يرضى الفن ولا يرضى الروح؛ وما اخترع من الفنون كان من هذا الضرب، مقامات للبديع والحريرى بُنيت على التسول والاستجداء، وإفراط فى المجون، أو إفراط فى التصوف، وكلاهما فرار من حياة الجد. والنثر حُمّل كل أنواع الزينة من سجع وبديع، فكان كالفتاة تسرف فى التجمل الصناعى لما شعرت بنقص جمالها الطبيعى.

ولم يظفر العالم العربى من العهد العباسى إلا بأفراد قلائل منحوا من القوة فى أدبهم ما كان موضع الإعجاب كالمتنبى والبارودى، وكلاهما كانت قوته صدى لحياته: فالمتنبى فارس شجاع، كان فى أكثر شعره يسجل وقائع سيف الدولة مع الروم، ويدوّن مظاهر القوة والفروسية؛ والبارودى كذلك رب سيف وقلم، فكان قلمه مسجلاً لآثار سيفه؛ وأمثال هؤلاء قليل، وإلا فخبرنى عن شعر البطولة والفروسية والحياة والقوة بعد؛ وأين الشعر الغنائى الذى صدر عن شعور بالعزة القومية فى الأدب العربى؟ أليس عجيباً أن نرى شعر «البهاء زهير» وقد كان فى أسمى منصب من مناصب الدولة، وكان مشرفاً على الحروب الصليبية ومساهماً فى تدبير شؤونها — لا يذكر لنا فى شعره شيئاً من أغانى الفروسية؟ ثم ينصرف بكله إلى الغزل المائع! على حين أن الصليبيين خلفوا لقومهم أغانى وأشعاراً صليبية قوية؛ ولم يخلف لنا الأدب العربى فى هذا الباب إلا ما كان

---

(١) فغفور: ملك الصين.

تافها ضعيفا — لعل السبب فى هذا أن المسلمين كان موقفهم فى هذا موقف دفاع لا هجوم « وما غُزِىَ قومٌ فى عُقْرِ دارِهِمْ إلا ذَلُّوا » .

وبعد ، فكل عاطفة من عواطف الإنسان — على كثرتها وتعددها — موضوع للأدب ، وخير الأدب ما انبعث عن عاطفة صحيحة لا مريضة ؛ فالشعر المتناهى فى وصف ما يلاقى المحب من عذاب والذى يذوب رقة وحنانا ، ليس — فى نظرى — مؤسساً على عاطفة صحيحة ، كالذى فى شعر العباس بن الأحنف وأمثاله ؛ وهذا الشعر وإن أرضى الجمهور ولذَّهم هو فى كثير من الأحيان أجوف ، وهو فى كثير من الأحيان نتاج عاطفة مريضة . وليس من الحق أن يبيع الإنسان عواطفه بهذه السهولة — والشاعر المجيد هو الذى يثير العواطف بقدر ، ويبنيها على أساس عميق ؛ أما إن هو غالى فى ذلك وأثار عواطف حادة لأسباب واهية كان أدبه أدباً خفيفاً ضعيف القيمة مهما استلذه الناس وأعجبوا به .

هناك عواطف حنان ، وعواطف إجلال ، وعواطف جمال ، وعواطف قوة ؛ وهناك ما يثير الحزن ، وما يثير السرور ، وما يثير الشهوة ، وما يثير البطولة ، وما يدفع إلى المجد ، وما يدفع إلى اللهو ؛ وكلها صالحة للأدب ، وكلها فى نظر الأدب سواء ، وإن اختلفت قيمتها فى نظر الأخلاق ونظر دعاة الإصلاح ؛ فالأخلاق يرى أن الأدب الذى يثير لذة حسية أقل رقيا من أدب يثير شعوراً أخلاقيا ، كالإعجاب بالبطولة ، واحتمال الآلام فى سبيل أعمال جليلة — وأرقى الأدب فى نظرنا ما أحيا الضمير وزاد حياة الناس قوة .

وأغرب ما فى الأمر أن أدباءنا الذين انتفعوا بالأدب الغربى ، وعملوا على نقله إلى الأدب العربى أفرطوا فى نقل هذا النوع من الأدب المائع ، وفرّطوا فى نقل الأدب القوى ؛ وسبب ذلك أنهم جاروا ميول الجمهور ، وسايروا رغباته ؛ فكانوا تجاراً أكثر منهم قادة ؛ والجمهور إنما استلذ هذا النوع لأنه من قديم

أَلِفَ البكاء ، وكانت حالته الاجتماعية تدعو إليه ، ولأنه ترك جده على كاهل غيره ففرغ للهو .

وكان هذا النوع من الأدب أضر بالشرق من ضرره بالغربي : لأن الغربي عنده بجانب هذا الأدب الضعيف أدب آخر قوى ؛ فإذا بعث الأول حناناً ورقة ، بعث الآخر قوة وجلَدا ، فتعادلت حياته وتغذت نواحي عواطفه ؛ أما الشرقى فليس له تراث حاضر من أدب قوى يسند ضعفه ويحيي نفسه . وسبب آخر وهو أن الشرقى — على العموم — ذو عاطفة أحدّ ، وهو لها أقل ضبطا ؛ فإذا نحن غذيناه دائماً بهذا الأدب الحاد ، زادت عواطفه ميوعة ، مع أنه أحوج ما يكون إلى ما يقوى عاطفته ويضبط جموحها .

***

الحق أن الأدب عود ذو أوتار ، ويجب أن تكون أوتاره على نظام ما عند الإنسان من عواطف جدية وهزلية ، ورقيقة وقوية ، وضاحكة وباكية ، ورخيصة وغالية . والعود الذى يوقع عليه الأديب الشرقى ناقص الأوتار ، تنقصه الأوتار القوية ، والأوتار التى تبعث الحياة ، والأوتار التى تبعث الضحك ليتلوه جد ، والأوتار التى تهز النفس لتملأها أملا ، والأوتار التى تبعث النغم يصور بطولة ، والتى تبعث النغم ليوقظ من سبات — عود الأديب الشرقى على نحو عود المغنى الشرقى ، أشجى أغانيه أحزنها ، وخير نغماته أبكاها .

فهل يتقى الله الفنانون والأدباء فى الجيل الناشئ فيصلحوا أغانيهم ويكملوا ما نقص من أوتارهم ، ويستدركوا ما فاتهم ، وينشدوا طويلا نشـيد الحياة ، كما أنشدوا من قبل طويلا نشيد الموت ؟

من غير عنوان

أكلت أكلة ساء هضمها ، فانقبضت نفسى ، وغاضت بشاشتى ، وتقطب ما بين عينىّ ، وسئمت كل شىء حولى ، وبرمت بمخالطة الناس كما برمت بالعزلة عنهم ، وكرهت السكوت كما كرهت الكلام .

ونظرت إلى العالم فتجهمته ، رأيته ثقيل الروح ، فاسد المنطق ، يمجّ السمعُ نغماتِه ، ويعاف الطبعُ منظرَه ، وتأخذ بخِنَاقِ ألاعيبُه وأحداثُه .

أى شىء فيه يَسُرّ ؟ إن هو إلا جيفة تنبحها الكلاب ، وميتة يتساقط عليها الذباب ، عدوّ كل ألفة ، ومُصَدِّع كل شمل ، يُبلِي الجديدَ ولا يُجِدُّ البالى ، ليست لذته إلا ألماً مفضّضاً ، ولا مسرّته إلا حزناً مبهرجا !

ودَعَوْتُ ربِّى بالسلامةِ جاهداً ليُصِحَّنِى فإذا السَّلامَةُ داء

ما حالُ من آفتهُ بقاؤهُ نغَّصَ عيشى كلَّه فناؤهُ

أليس عجيباً ألا تكون لذة حتى يحُدَّها ألمَان ، ولا راحة حتى يكتنفها عنا آن ؟

سعيد وشقى ، وفقير وغنى ، وذكى وغبى ، ليست إلا ألفاظاً اصطُلحَ عليها ، فإن أنت تأملتها لم تجد كبير فرق بين مدلولاتها .

ما الظَّافِرُون بعِزِّها ويَسَارِها إلا قريبُو الحال من خُيَّابها

أكبرَ الناسُ قيمةَ الأشياء وأضاعها الموت ! وتفاوتوا فى الجاه والثراء ، وسوّى بينهم القبر !

ومن ضمه جَدَثٌ لم يُبَلْ على ما أَفادَ ولا ما اقتنَى

يصيرُ تراباً سواءٌ عليه مَسُّ الحرير وطَعْنُ القَنَا !

ليست الدنيا إلا قطرة من شهد فى بحار من علقم ، وذرّة من سعادة فى أمواج

من شقاء ، يمعن الدهر فى بؤسه وعنته ؛ حتى إذا استيأست النفس وبلغت الروح التراقى سخا بقبس من نعيم ثم أطفأه بريح عاتية من عذاب !

قد فاضتِ الدُّنيا بأَدْناسِها ... عَلَى بَرَايَاهَا وأَجْنَاسِها
وكلُّ حيّ فوقَها ظَـالمٌ ... وما بِهَا أَظلمُ مِن نَاسِها

نظام كله فوضى ! وحياة كلها فساد ، رذيلة تُسْعِد وفضيلة تُشْقى !

والناسُ شتّى فيعطى المَقْتَ صادِقُهُمْ ... عَنِ الأمورِ ويُحْبى الكاذِبُ المَلِقُ

بحار تشكو الرّى ، وصحراء تشكو الظمأ ، وماء ولا شارب ، وشارب ولا ماء ! وغنى عقيم ، وفقير عائل :

سبحانَ مَن قَسَمَ الحُظُو ... ظَ فلا عِتابَ ولا مَلامَهْ !
أَعمى وأَعْشَى ثم ذُو ... بَصَرٍ وَزَرْقَاءُ اليَمامَهْ !

عيش كله هذيان ، أعاليل بأباطيل ، والدنيا تلعب بنا لعب الكرة !

تُرِينا الدُّجى فى هَيْئَةِ النُّورِ خُدْعَةً ... وَتُطْعِمُنا صَاباً فَنَحْسَبُه شَهْدا

كذب المؤرخون فسمّوا زمناً سلماً وزمناً حرباً ، وما السلم إلا حرب صامتة شر من الحرب الناطقة ! كل شىء فى العالم مفترس ، أسد يفترس ذئباً ، وذئب يفترس حملاً ، وإنسان يفترس كل شىء حتى نفسه !

كان العالم عالم سوء فتوّج الإنسانُ شروره :

كلما أنبتَ الزمانُ قَنَاةً ... رَكَّبَ المرءُ فى القَنَاةِ سِنَانَا

عالم كله أحاجىّ وألغاز ، وعقل قاصر عنيد ، منذ خلقه الله يحاول أن يفهم فلا يفهم ، يحوم حول العالم يريد أن يعرف الغرض منه فلا هو يصل ولا هو يعدل .

نفارقُ العَيْشَ لم نَظْفَرْ بمعرِفةٍ ... أىُّ المعانى بأهلِ الأرضِ مقصود

الله صوّرَنى ولَسْتُ بعالِمٍ ... لِمَ ذاكَ ، سبحانَ القديرِ الواحدِ !

حياة حار فيها الحكيم وضل فيها الفيلسوف ؛ مبادئ تتضارب ، وصور تتنازع ، وكلام مزخرف ، ظاهره جميل وباطنه مزيف ، وكلما ظنوا أن قد حلّوا مشكلة نجمت مشكلات . وقديماً قضى الفلاسفة حياتهم فى الجوهر والعرض والكمية والكيفية وأيس وليس ، ثم عادوا آخر المطاف يعترفون بالفشل ويقرون بالعجز ويقولون مع القائل :

نهايةُ إقدام العقولِ عِقَالُ ... وأكثرُ سَعْيِ العالَمِينَ ضَلَالُ
وأرواحُنا فى وَحْشَةٍ مِن جسومنا ... وحاصلُ دُنيانا أذًى ووَبال
ولم نستفِدْ من بَحْثِنا طولَ عمْرِنَا ... سِوَى أَنْ جمعْنا فيه قيلَ وقالُوا

زاد تلبُّك معدتى ، فزادت من الحياة نقمتى !

فيا موتُ زُرْ إنَّ الحياةَ ذَميمَةٌ ... ويا نفسُ جِدِّى إنَّ دهْرَكِ هازِلُ

* * *

تناولت دواء هاضماً فأخذت أهَشُّ للحياة وأَبَشّ ، وبدأْت أنظر إلى العالم بوجه منطلق ، ومحيَّا منبسط . ها هو ذا قد تألَّقت صفحته ، وأسفرت غُرَّتُه ، وانقشعت غمامته .

الحق أن العالم جميل ، فهذا نسيم يعطِّر الجو بعَرْفه ، ويحيِي النفوس برقَّته ولطفه ؛ وهذا الربيع نزهة العين ، ومنطق الطير ؛ وهذه الحديقة عقد منظوم ، ووَشْىٌ مرقوم :

أصبحت الدنيا تروقُ مَنْ نظَرْ ... بمنظرٍ فيه جَلاء للبَصَرْ
والأرض فى رَوْض كأفوافِ الحِبَرْ ... تبرَّجت بعد حياء وخَفَرْ

كل شىء حولى يضحك ! ليس فى الإمكان أبدع مما كان :

قلبىَ وَثَّابٌ إلى ذَا وذَا ... ليس يَرَى شيئاً فيأباهُ
يَهيمُ بالحُسْنِ كما ينْبَغى ... ويَرْحَمُ القُبْحَ فيَهْوَاهُ !

إنّ الحياة غنيةٌ باللذائذ ، وليست الآلام فيها إلا توابل تهيّئ لاستمراء اللذة .

وَالشَّوْكُ فى شَجَرَاتِ الوَرْدِ مُحْتَمَلُ

ما الدنيا إلا قِيثارةٌ يوقَّع عليها شجيّ الألحان ! أو مائدة شهية صُفِّفت عليها صنوف الألوان !

وقد تُخمِدُ الشمسُ الصباحَ بضوئها   تفاوَتَتِ الأنوارُ والكلٌّ رائقُ

إن كان فى الدنيا سخف وهذيان ، فكن الفيلسوف الضاحك ، ولا تكن الفيلسوف الباكى !

وإن كانت الدنيا ألغازاً وأحاجيّ ، فكم نجح العقل فى حلها واستجلاء غامضها . وكل يوم تتسع دائرة المعلوم ، وتضيق دائرة المجهول . والعقل يَلَذّه البحث ولو لم يصل ، ويشعر بالغبطة ولو لم ينل . وفى نجاحه فيما أدرك ، عدة له فيما لم يدرك .

***

رحماك اللهم ! إن كان درهم من دواء هاضم يُغيّر وجه العالم ، ويحيل السواد بياضاً ، والشقاء سعادة ، والقبح جمالا ، والظلام نوراً ، والحزن سروراً ، فأين الحق ؟

الإشعاع

كتب أخى الدكتور أحمد زكى فى مجلة الرسالة مقالا ممتعاً فى الإشعاع العلمى ، تكلم فيه عن إشعاع الشمعة والنجوم والشمس ، والإشعاع اللاسلكى وموجات الضوء واختلافها ، فأوحت مقالته إلى معانى فى الإشعاع النفسى .

إن للنفوس والعقول إشعاعات لا تقل جمالا عن إشعاعات النجوم والكواكب ، نشعر بها وقد لا نستطيع التعبير عنها ، وهى أشد غموضاً وتعقداً من الإشعاع الحسى ، وهى مختلفة أكثر من الاختلاف بين أشعة الألوان ، من حمراء و بنفسجية وتحت الحمراء وفوق البنفسجية وما بين ذلك ، وهى مختلفة فى القوة أشد من اختلاف المصابيح الكهربائية ؛ فلئن كانت قوة المصباح شمعة أو شمعتين أو ألفاً أو ألفين فللنفوس قوًى تختلف إلى ما لا نهاية له صغراً وضآلة ، وإلى ما لا نهاية عظمة وسناء .

لعلك تشعر معى أنك ترى الرجل أو تحادثه أو تجالسه أو تسمع لمحاضرته ، فيُشِعّ عليك نوعا من الإشعاع يخالف الآخر كل المخالفة ، قد تحسن التعبير عنه وقد لا تحسن ؛ فهذا يشع عليك سرورا وأريحية واطمئنانا ، وهذا يشع حزنا ووجدا ورقة وحنانا ، وذاك يشع هيبة وجلالا ووقارا ، وآخر يشع ضعة وذلة وهوانا ؛ وقد تحس من رجل بنوع من الأشعة تدركه وتستطعمه ولكنك لا تستطيع وصفه ، كما إذا أكلت كُمَّثْرَى وتذوقتها وأردت أن تصف طعمها لمن لم يذقها .

فى الناس من إذا جالسته أشع عليك نوراً أضاء لك ما بين جوانبك فأدركت نفسك ، وأشع نوراً على العالم الذى حولك ، فتبينته وعرفت محاسنه ومساويه ، وأدركت مكانك منه ، ورأيت كل شىء حولك صافيا بيّنا كأنك

تنظر إليه من مصباح « المصباح فى زجاجة ، الزجاجة كأنها كوكب دُرِّىٌّ يوقَدُ من شجرة مباركة زيتونة لا شرقيةٍ ولا غربيةٍ ، يكاد زيتها يُضىء ولو لم تَمسَسْه نار »

وفى الناس من يجالسك فتتلقى منه أشعة مظلمة تنقبض لها نفسك ، وتظلم جوانبها ، وتحس بميل إلى الفرار منها ، وتتنفس الصُّعَداء إذا بعدت عنها ونجوت من ظلامها وخرجت إلى النور .

قديماً قالوا : « درَّةُ عمر أهيب من سيف الحَجاج » ذلك لأن عصا عمر كان معها يد عمر ومعها نفس عمر ؛ وهى تشع جلالا وعظمة ، وتخضع أمام أشعتها نفوس الجبابرة ، ويُحس كل من وقعت عليه هذه الأشعة أنها صادرة من مستودع قوى دونه المصباح الكهربائى ، البالغ ما وصل إليه العلم من القوة . وأما سيف الحجاج فمعه نفس الحجاج ، وهى تشع من غير شك قوة ، ولكنها قوة على الجسم لا على الروح ، قوة تُخاف وترهب ، ولكن لا تحترم ولا تحب ؛ أشعة عمر كانت تطاع سراً وعلنا ، وأشعة الحجاج تطاع علنا لا سراً ؛ لذلك كفت عمر عصاه ، ولم يغن الحجاجَ سيفه .

هذا الإشعاع هو السر فى أنك تلقى عظيما فيملؤك حياة ويملؤك قوة ، بهيئته و بنبرات صوته و بطريقة تعبيره و بنظراته ، و بإشارته و بهزة رأسه و بحركة يديه ؛ فكأن فى كل عمل من هذه الأعمال يوصل بينك و بينه تياراً كهربائيا قويا يهزك هزاً عنيفاً . قد لا يحدثك طويلا ، وقد لا يكون لكلامه فى الواقع قيمة ذاتية ؛ ولكنه يوقظ نفسك ويحيى روحك ، وتبقى رنات كلماته فى الأذن الأيام والليالى ، تعمل عملها فى هدوء حينا وعنف حينا . وأصدقك إنى لقيت عظيما من هذا النوع يوماً فخرجت من مجلسه مملوءا حماسة وقوة وحياة ، حتى إذا بلغت إلى محطة الترام لأركبه إلى مسافة بعيدة عِفْتُ الركوب لأنه يبعث على السكون ،

ونفسى ثائرة ، والمشى فى شدة القيظ ظهرا أفضل لها وأكثر موافقة لما هى فيه من نشاط وقوة — إذا ذكرت الآن كلامه لم أجده ذا قيمة ؛ وكثير من الناس يتكلمونه ويتكلمون خيراً منه وأسمى وأعمق ، ولكنّ أحدا منهم ليس له هذا الإشعاع ولا قوته وعظمته . وحدثنى من أثق به أن الأستاذ جمال الدين الأفغانى كان يرتطن عجمة ، ولم يكن فصيح اللسان ولا سلِس القول ؛ ولكن تجلس معه فيشعلك ناراً دونها فصاحة الفصيح و بلاغة البليغ ؛ لأنها النفس مستودع كهربائى قوى يصعق أحيانا ، ويضىء أحيانا ، ويدفع للحركة أحيانا .

والرجل العظيم ، أو الكاتب الكبير ، أو المؤلف القدير ، يُخرج ما ينتجه كتلة من الأشعة من جنس نفسه . ألست تقرأ المقالة أو الكتاب فيشع عليك معانى مختلفة ، منها الهادئ الرزين ، ومنها القوى المتين ، منها المضحك ، ومنها المبكى ، منها الذى يأخذ بيدك فيصعد بك إلى السماء ، ومنها ما يدفعك إلى الحضيض ؟ وآية هذا الإشعاع أنك تقرأ المقالة أو الكتاب فيبعث عندك من المعانى ما لا تدل عليه الألفاظ من طريق الحقيقة ولا المجاز ، بل ما بين السطور يشع كالسطور نفسها ؛ أو لست ترى مقالة الإشعاع فى باب العلوم أشعّت علىّ معانى فى باب الأدب ؟

ليسمّ هذا علماء النفس تداعى المعانى ، أو ليسموه إيعازا أو اقتراحا ، أو ليسموه ما شاءوا ، فليست إلا إشعاعات نفسية من جنس الإشعاعات التى يشعها الأشخاص فى كلامهم وحديثهم وحركاتهم فتلقفُ منها من المعانى ما يقرب وما يبعد .

وفى الأماكن كذلك أشعة مختلفة ؛ فشارع عماد الدين يشع رغبة فى اللهو وميلا إلى مسرات الحياة ، والمساجد تشع ميلا للعبادة ، وتمجيداً لله ، والبحر الجليل يشع عظمةً وجلالا ، ونجوم السماء تشع حسنا وجمالا ، والبنك يشع حباً فى المال ، والجامعة تشع حبا فى العلم ، بل وكل بلد يشع نوعا من الأخلاق ؛ وإلا فلِمَ يذهب

المصرى إلى إنجلترا وقد اعتاد الفوضى فى حياته ومواعيده وصحوه ونومه ، فما هو إلا أن يطأ أرضها حتى ينقلب خَلقاً آخر ، دقيقا فى نظامه ، دقيقا فى معيشته ؟ ويذهب المصرى إلى ألمانيا فيكون فى بيئة علمية ، فيشرب من مشربهم ويسير سيرتهم ؛ فإذا عاد هذا وذاك إلى مصر عادا سيرتهما الأولى ! ما هو إلا الجو النفسى تلقى فيه أشعة نفسية مختلفة الأثر ، مختلفة الألوان .

ومن قوانين هذا الإشعاع النفسى أنه فى كثير من الأحيان يعتمد على الفاعل والقابل معاً ، واعتماده على القابل أبين فيه من الإشعاع الحسى ؛ فاللون الأبيض أبيض عند كل الناس ، والأحمر أحمر عند كل الناس ، إلا من أصيب بعمى اللون ؛ وليس كذلك الإشعاع النفسى ؛ فالخطيب يخطب وإشعاعه يختلف باختلاف السامعين ، والكلمة قد تهدى ضالا ، وقد تضل هاديا ، كما يقول المثل الإنجليزى : « إن الليل الذى يغمض عين الدجاج يفتح عين الخفاش » ؛ وهذا هو السبب فى أنك تستخف روح إنسان وغيرك يستثقله ، وتعجَب بقول متحدث ومن بجانبك يستسخفه ، وتتفتح نفسك لكتاب وغيرك ينقبض منه ؛ ما هذا إلا لأن الإشعاع الواحد يختلف باختلاف من وقع عليه الشعاع ، وأن هناك تفاعلا قويا بين مصدر الإشعاع وقابله ؛ ومن أجل هذا قد ترى لصا فى مسجد وعابدا فى حانة .

وموسى الذى رباه جبريلُ كافرٌ وموسَى الذى ربَّاه فرعونُ مُرْسَلُ

والأرض يمطرها السحاب ، فمنها جنان ناضرة ، ومنها صحراء مجدبة قاحلة ، والنار تضىء للسارى فيهتدى والفَراش فيحترق .

لقد أثبت العلم الإشعاع اللاسلكى ، وأصبحنا نسمع الآن من الراديو أصوات الموسيقى فى أوربا ، وسنسمعها من أمريكا ، وسنسمعها من أنحاء العالم ؛ ومعنى هذا أن فى جو مصر تموجات من أوربا وأمريكا وأنحاء العالم ؛ وإذا كان هذا فى المادة فإشعاع النفوس أبعد مدى ، وأنفذ شعاعا ، وأسرع سيراً ؛ وإذا كان فى

حجرتى أمواج هوائية من مناحي العالم يظهرها الراديو ، وإن فى حجرتى ملايين وأكثر من الملايين من إشعاعات نفسية تشع من السماء ومن الأرض ومن النفوس البشرية ، ومما لا يعلمه إلا الله . وما الفكرة تصدر عنى ، ولا الإلهام أُلْهَم به فلست أعرف له مصدراً وليس يخضع لقوانين المنطق ، ولا نظريات الاستنتاج ، ولا الظواهر النفسية تتعاقب علىّ فلا أعرف تعليلها من انقباض وانبساط ، وسمو وانحطاط ، وكدورة وصفاء ، وظلمة وضياء ، إلا أثر من هذا الإشعاع .

إن وراء هذا العالم المادى عالما روحانيا نفسيا أسنى وأبهى ؛ وإذا كان للأجسام والحواس جو يحيط بها قد امتلأ أشعة من نجوم وكواكب وشموع ومصابيح ، فللنفس جو يحيط بها اشتبكت فيه أشعة نفسية لا عداد لها ؛ وإذا كان للعين أفق يختلف باختلاف النظر قصرا وطولا ، فللنفوس أفق يختلف كذلك ؛ فبعضها ينفذ إلى ما وراء الحجب ، ويستمد منه ما يستخرج العجب ، وبعضها قصير المدى قريب المتناول ؛ ولئن كانت قوانين الإشعاع الحسى لمّا يُسْتَكْشَفْ منها إلا قليل ، فقوانين الإشعاع النفسى أشد تعقدا وأكثر التواء وغموضا ، والعاكفون على دراستها ، والموفقون لاستكشاف بعضها أقل وأندر . خضع كل الناس للإشعاع المادى ، وخضع كل الناس للإشعاع النفسى ، ولكن آمن بالأول كل الناس ، وما آمن بالثانى إلا قليل .

هل تنبعث من عالم النفس شرارة قوية تضىء جوانب النفوس ؟ وهل يبعث العالم النفسى موجة قوية تم العالم وتهزه هزة عنيفة فتنبهه من سباته ، ويهبّ علماؤه لتنظيم الحياة الروحية كما نظموا الحياة المادية ، ويتخصص علماء النفس لاستكشاف قوانين الإشعاع النفسى كما استكشف الماديون قوانين الإشعاع الحسى ، ثم ينتفعون وينفعون الناس ، كما انتفعوا بقوانين الضوء وما إليه ، وإذ ذاك يكون الناس أسعد حالا وأهدأ بالا وأكثر اطمئنانا ؟ من يدرى ؟!!

حلقة مفقودة

فى مصر حلقة مفقودة لا نكاد نشعر بوجودها فى البيئات العلمية ، مع أنها ركن من أقوى الأركان التى نبنى عليها نهضتنا ، وفِقْدانها سبب من أسباب فقرنا فى الإنتاج القيم والغذاء الصالح .

تلك الحلقة هى طائفة من العلماء جمعوا بين الثقافة العربية الإسلامية العميقة ، والثقافة الأوربية العلمية الدقيقة ؛ وهؤلاء يعوزنا الكثير منهم ، ولا يتسنى لنا أن ننهض إلا بهم ، ولا نسلك الطريق إلا على ضوئهم .

إن أكثر من عندنا قوم تثقفوا ثقافة عربية إسلامية بحتة ، وهم جاهلون كل الجهل بما يجرى فى العصر الحديث من آراء ونظريات فى العلم والأدب والفلسفة ؛ لا يسمعون بكَانْتْ ، وبرْجْسُون ، ولا بأدباء أوربا وشعرائها ، ولا بعلمائها وأبحاثهم ، إلا أسماء تذكر فى المجلات والجرائد والكتب الخفيفة ، لا تغنى فتيلا ولا تستوجب علما . وطائفة أخرى تثقفت ثقافة أجنبيه بحتة ، يعرفون آخر ما وصلت إليه نظريات العلم فى الطبيعة والكيمياء والرياضة ، ويتبعون تطورات الأدب الأوربى الحديث ، وما أنتج من كتب وروايات وأشعار ، ويعلمون نشوء الآراء الفلسفية وارتقاءها إلى عصرنا ؛ ولكنهم يجهلون الثقافة العربيـة الإسلامية كل الجهل ؛ فإن حدثتهم عن جرير والفرزدق والأخطل ، أشاحوا بوجوههم وأعرضوا عنك ، كأنك تتكلم فى عالم غير عالمنا ، وإن ذكرت الكندى والفارابى وابن سينا ، قالوا إن هى إلا أسماء سميتموها ما لنا بها من علم ، وماذا نحصل من هؤلاء إلا على جمل غامضة ومعان مبهمة ، لا تفيد علما ولا تبعث حياة ؟ وبالأمس كنتُ أتحدث مع طائفة من المتعلمين

عن « البَيْرونى » العالم الإسلامى الرياضى المتوفى سنة ٤٤٠ هـ ، وما كشف من نظريات رياضية وفلكية ، وأن المستشرق الألمانى « سخاو » يقرر أنه أكبر عقلية عرفها التاريخ فى كل عصوره ، وأنه يدعو إلى تأليف جمعية لتمجيده وإحياء ذكره تسمى جمعية «البَيْرونى» ، فحدثنى أكثرهم أنه لم يسمع بهذا الاسم ، ولم يصادفه فى جميع قراآته ، وهو يعرف عن ديكارت و بيكون وهْيُوم وچون سْتْوَارْتْ مِلْ كثيراً ، ولكنه لا يعرف شيئاً عن فلاسفة الإسلام ، ومثل ذلك قل فى الأدب العربى والأوربى ، والعلم العربى والأوربى ؛ كل ثقافته العربية تنحصر فى كتاب القواعد وأدب اللغة للمدارس الثانوية ، إن كان قد بقى منها شىء فى ذاكرته .

هاتان الطائفتان عندنا ؛ يمثل الأولى خريجو الأزهر ودار العلوم ومدرسة القضاء ، ويمثل الأخرى نوابغ خريجى المدارس العصرية والبعثات الأوربية . أما الذين حذقوا العربية والعلوم الإسلامية ، ونالوا حظا وافراً من الثقافة الأجنبية ، فأولئك هم الحلقة المفقودة فى مصر ، وفقدانها سبب الركود فى الحياة العقلية والأدبية .

ذلك أن الأولين إذا أنتجوا ، فعيب إنتاجهم أنهم لم يستطيعوا أن يفهموا روح العصر ، ولا لغة العصر ، ولا أسلوب العصر ؛ وإنما التزموا التعبير القديم فى الكتابة ، والنمط القديم فى التأليف ، وتحجرت أمثلتهم ؛ ومَلَّ الناس بلاغتهم ، وعمادها رأيت أسداً فى الحمّام ، وعضَّت على العناب بالبرَد ، وعشرة أمثلة من هذا الطراز ! ومَلَّ الناس نَحْوَهُم ، ومداره ضرب زيد عمراً ، ورأيت زيداً حسناً وجهه ؛ وسئم الناس منطقهم ، وكله الإنسان حيوان ، وكل حيوان يموت ، فالإنسان يموت ؛ وهذا حجر ، وكل حجر جماد ، فهذا جماد — ضجوا بالشكوى لأن الناس لا يسمعون منهم ، وضج الناس بالشكوى لأنهم لا يأتون

بجديد ، ولا يضعون القديم فى شكل جذاب ، ولا يلمسون الحياة التى يحيَوْنها ، ولا البيئة التى يعيشون فيها ؛ فانصرفوا عن الناس ، وانصرف الناس عنهم ، ورضوا أن يعيشوا فى جوهم الخاص ، ورضى الناس منهم بذلك ، وسلكوا سبيلا غير سبيلهم ، واتبعوا دليلا غير دليلهم .

وأما الآخرون فضعفت ثقافتهم العربية الإسلامية ، فلما أرادوا أن يخرجوا شيئاً لقومهم وأمتهم أعجزهم الأسلوب والروح الإسلامى ، فلم يستطيعوا التأليف ولا الترجمة ، وحاولوا ذلك مراراً ، فلم يفهم الناس منهم ما يريدون ، وسبُّوا القراء ورموهم بالضعف والانحطاط ، وسبهم القراء ورموهم بالعى ، وأنهم لا يفهمون ما يكتبون ، فعاشوا فى أنفسهم ولأنفسهم ، ورضوا من ذلك بالإياب .

كان من نتيجة ذلك أن الأدب العربى الإسلامى ، والعلم العربى الإسلامى ، والفلسفة العربية الإسلامية على غناها ، ظلت مهجورة لا ينتفع بها ، تنتظر جيلا جديدا يسيغها ويهضمها ، ويبرزها فى شكل يألفه الناس ؛ وأن الأدب الغربى ، والعلم الغربى ، والفلسفة الغربية ، حُرم منها أكثر الشرقيين ، ولم يصل إليهم إلا نوع خفيف ينشر فى المجلات والجرائد وأمثالها ، يقرؤه الناس ليطردوا به الضجر ، أو يستعطفوا به النوم ؛ وأما أدب غزير ، وعلم عميق ، وكتب محترمة ، ومجلات قيمة ، فقليل نادر .

والذى جر إلى فقدان هذه الحلقة أن التعليم عندنا سار فى خطين متوازيين لم يلتقيا : فالتعليم العربى الإسلامى سار فى خط ، والتعليم المدنى الحديث سار فى خط آخر ، ولم تكن هناك محاولات جدية لتلاقى الخطين أو ربط بعضهما ببعض .

لا أمل فى إصلاح هـذه الحال إلا بالعمل على إيجاد الحلقة المفقودة ، وهى تذوق الثقافتين ، والاغتراف من المنهلين ، وإخراج أدب وعلم وفلسفة غذيت بما للعرب والإسلام من ثقافة ، ولقحت بما للأوربيين من ثقافة ومنهج ، فيها

اللغة العربية قوية رصينة ، وروح الإسلام قوية متينة . وفيها ما للأوربيين من عرض للمسائل جذاب ، ونهج فى الكتابة رشيق ، وفيها مقارنة شهية بين ما أنتجه الأولون والآخرون .

لو تم ذلك لرأيت التاريخ الإسلامى يُعْرَض على القراء فى شكل محبوب يقرءونه ويستسيغونه ، ورأيت الأدب العربى يقدم إلى الجمهور فى ثوبه الجديد فيألفونه ويحبونه ، ورأيت الفلسفة الإسلامية يغاص عليها غوصا عميقا ثم تخرج من أصدافها وتجلى للقراء درة لامعة .

هذا هو السبب فى نجاح رفاعة باشا ومدرسته ، فأنتجت إنتاجا غذى عصرهم بل كان فوق كفايتهم ؛ فقد أرسل رفاعة إلى فرنسا بعد أن درس فى الأزهر وتعمق فى العربية والعلوم الإسلامية ، فلما حصل على الثقافة الفرنسية وضع يده على المنبعين فأخرج هو ومدرسته للناس ما استساغوه وأحبوه ونهضوا به ، ولم يكن كذلك من لحق بهم وخلف من بعدهم .

وقد كان إخواننا الهنود أسبق منا إلى إيجاد هـذه الحلقة والانتفاع بها . أخرجوا التاريخ الإسلامى فى ثوب جديد على نمط ما يكتب الغربيون ولكن بروح إسلامى ، وكتبوا فى الدين الإسلامى والفقه الإسلامى بلغة العصر ، وروح العصر ، ونظام العصر ، كما فعل السيد أمير على والسيد محمد إقبال ؛ فقد تضلع هذان العالمان الجليلان من الثقافة الإسلامية والأوربية ، وأشرب قلباهما حب الإسلام ، فأخرجا كتباً يقرؤها الشباب المثقف فيحبها ويحب موضوعها ، ويستزيد منها ، ويقرأها الشباب المتعلم المتخصص فى الطبيعة والكيمياء ، فيجدها تتمشى مع العلم الذى تثقفه ، والنهج الذى ألفه — وتقرأ للسيد محمد إقبال ، فتجده يعرض لفلسفة « كانت » ، فإذا هو فيها دارس عميق ، والغزالى فإذا هو باحث دقيق ، ويقارن بين النصرانية والإسلام فيكشف

عن باحث خبير فيما يكتب ، ويعرض لشعراء الألمان كجوته فيحلله تحليلا يدعو إلى الإعجاب ، ويتكلم فى المعتزلة والصوفية فإذا هو قد تغلغل فى أعماقهم ، واستبطن دخائلهم ، ثم عرض تعاليمهم كما يعرض الأوربى فلسفة قومه شائقة عذبة لذيذة .

ولكن الهنود يعرضون ذلك باللغة الإنجليزية ، فلا يغذون جمهورنا ، ولا يسدّون حاجة العالم العربى ؛ إنما يتغذى الشرق بهذا يوم توجد هذه الحلقة المفقودة فى العالم العربى كمصر والشام ، فتُحيي آثار الأولين بأسلوب الآخرين ، ويوم يكسر هذا الحاجز الذى يحجز بين علم الشرق وعلم الغرب ، ويوم يلوى الخطان المتوازيان فيلتقيان .

شاعر

شاعرنا اليوم نشأ جاهليا ، ونشأ فى الطائف . والطائف مدينة فى الجنوب الشرقى من مكة ، تبعد عنها خمسة وسبعين ميلا ، اشتهرت بطيب هوائها وجودة مزارعها . وقد اعتاد المترفون من العرب أن يقضوا الصيف بها ، والشتاء بمكة . قال النُّمَيْرِىّ يصف أخت الحجاج بالنعمة :

تشتو بمكة نِعْمَةً ومَصيفُها بالطائف

أخصبت أرضها ، وجرى الماء فى وديانها ، فكثرت مزارعها ، وجادت فواكهها . بها جبل يقال له « غزْوان » كثرت كرومه ، وكان عنبه العذب وزبيبه الحلو مضرب المثل جودة وكثرة ، حتى ليروون أن سليمان بن عبد الملك لما حج رأى بيادر الزبيب فظنها حِرارًا [1] .

وقد حسدهم العرب على ما هم فيه من نعمة ، فسوّروا بلدتهم وحصنوها من أعدائهم ، فصارت ملجأ الهارب ومَلَاذ الخائف ، وضُرب المثل بمناعتها حتى قال القائل :

مَنَعْنَا أَرْضَنَا من كل حَيٍّ كما امْتَنَعَتْ بطائِفِها ثقيفُ

كان يسكن الطائف قبيلة ثَقِيف ، وقد أكسبتهم أرضهم وثروتهم وطبيعة بلادهم وجوّهم رقيًا فى الحياة من الناحيتين الاجتماعية والعقلية ، فاقوا فيهما مَن حولهم من السكان ، وشعروا بعظمتهم فأكثروا من الفخر بأنفسهم ؛ وقال قائلهم :

وقد عَلِمَتْ قبائلُ جِذْمِ قيْس وليس ذَوو الجَهالة كالعليم

---

(١) الحرار جمع حرة أرض بركانية سوداء ، وبلاد العرب حرار كثيرة .

بأنّا نُصْبح الأعداء قِدْماً ... سِجَالَ الموت بالكأس الوخيم
وأنّا نَبْتَنِي شرف المعالى ... ونُنْعِشُ عثْرَةَ المولَى العديم
وأنّا لم نزل لَجأ وكهفاً ... كذاك الكهلُ منا والفطيم

وقد أنجبت ثقيف شعراء مجيدين فى الجاهلية والإسلام ، كما أنجبت ساسة وقادة نبه ذكرهم ، وعظم أمرهم ؛ فاشتهر منها من شعراء الجاهلية الشاعر المتأله أُميّة بن أبى الصَّلْت ، وفى العصر الأموى الشاعر الشريف طُرَيح الثقفى ، والشاعر الحكيم الأجرد الثقفى — واشتهر من أمرائها وساستها وقادتها الأمير القوىّ الحجاج بن يوسف الثقفى ، والقائد الشاب محمد بن القاسم الثقفى فاتح السِّند ولم يكتمل العشرين ، والذى قال فيه القائل :

ساسَ الجُيوشَ لسبع عشْرَةَ حِجَّةً ... يا قُرْبَ ذلكَ سُؤدداً من مَوْلِدِ

كما أن ثروتهم وحضارتهم استتبعت شهرتهم بالفجور والربا ، حتى إن رسول الله لما صالحهم كان من شروط الصلح أن يُسْلِموا وألا يَزْنوا ولا يُرْبوا .

كذلك كانت كثرة العنب والزبيب فى بلادهم سبباً فى شيوع الخمر بينهم وولوع أهلها بشربها .

وقد كانت الخمر شائعة بين العرب فى الجاهلية ، ولكن بين خاصتهم لا بين عامتهم ، إذ أن عامتهم قد عَدِموا القوت وحُرِموا ضرورات العيش . أما المترفون فشربوا كثيراً وقالوا فى شربها كثيراً . وقلّ أن نجد شاعراً جاهليًّا لم يتمدح بشربها وإتلاف ماله فى سبيلها .

وكانت الخمر تأتيهم من الشام ومن اليمن ومن الطائف ، وكان الأعشى الشاعر يتجر فيها ، وكان له بقرية فى اليمن يقال لها « أثافِت » مِعْصَرة يعصر فيها ما يقدم له من أعناب .

ونلاحظ من تاريخ العرب فى الجاهلية وتراجم رجالها أنْ قد كان هناك طبقة

من الشباب اعتادت أن تتلف مالها فى الشراب ؛ هم فئة من أولاد السَّراة ، نشأوا فى ثروة وجاه ، وألّفت بينهم وحدة النزعة ، يجتمعون فى المواسم والأعياد والمناسبات فينحرون الجزُور ويهيأ لهم ، ويشربون عليه وتغنيهم القيان أو الموالى من الفرس والروم والأحباش ؛ ولكن هذه الطبقة لم تفقد مع شربها ولهوها شرفها وإباءها ؛ فهى مع ذلك كله نبيلة كل النبل شريفة كل الشرف — ثارت على كل شىء إلا قانون المروءة ، وقانون المروءة يتلخص فى الشجاعة والكرم . لا يعبأون بالحياة يبذلونها — فى سخاء — لإنجاد من استنجد بهم ، ونصرة الضعيف يستصرخهم ويلجأ إليهم ؛ لا قيمة لحياتهم إذا مُسَّت كرامتهم أو كرامة قبيلتهم أو اعتدى أحد على جارهم أو حليفهم أو عبدهم ، ولا قيمة للمال يوم يسألهم سائل أو يدعوهم لبذله داع ، ولا بأس بالفقر يَحُل بهم وينزل بساحتهم ، ولا ضرر إذا خسروا المال وكسبوا الشرف ؛ وويل لزوجاتهم إذا لمنهم فى الاستهتار بالحياة أو إتلاف المال ، إذ ذاك يصبون عليهن نقمتهم ، ويملأون الدنيا شعراً فى لومهن وتأنيبهن .

شاعرنا اليوم كان من هذه الطبقة ، فتى ، غنى ، من ثقيف ، من الطائف ، شجاع ، كريم ، يُكثر الشراب ، ويُتلف المال ويحتفظ بالمروءة ويقول :

لا تَسْأَلِى الناس عن مالى وكثرته ... وسائلى الناس عن حَزْمى وعن خُلُقى
القوم أَعْلَمُ أنى من سراتِهِمُ ... إذا تطيش يدُ الرِّعْدِيدَةِ الفَرِقِ (١)
قد أركب الهَوْلَ مَسْدولاً عساكره ... وأكتم السِّرَّ فيه ضَرْبَةَ العنق
عَفٌّ المطالب عما لستُ نائلَه ... وإن ظُلمتُ شديدُ الحِقْد والحَنق
وقد أجودُ وما مالِى بذى فَنَعٍ (٢) ... وقد أكُرُّ وراء المُجْحَرِ البَرِق (٣)

---

(١) الرعديدة : الجبان ، والفرق : الفزع .
(٢) الفنع : زيادة المال ، ومال ذو فنع : « كثير » .
(٣) المجحر : الهارب الذى ألجئ إلى الجحر ، والبرق : الشاخص البصر المتحير .

سيكثر المـالُ يوماً بعـد قلته   ويَكْتَسى الْعودُ بَعْدَ الجَدْب بالْوَرَقِ

ظلت ثقيف على جاهليتها لا تذعن لدعوة الإسـلام حتى أسلم من حولها ورأت نفسها بمعزل ، فاضطُرَّت إلى الإسلام فى السنة التاسعة للهجرة . وسمع شاعرنا بالإسلام وتعاليمه فوقف حائراً ؛ إن الإسـلام يدعو إلى المروءة ، وهو ذو مروءة ، والإسلام يدعو إلى الصدق ومكارم الأخلاق ، وكل هـذا حسن « فليسلم » ولـكنه يأمر المؤمنين أن يَغضّوا من أبصارهم ، ولا يمدوا أعينهم إلى نساء غيرهم ، كما ينهى عن الخمر و يعاقب على شربها ؛ فكيف يسلم وقد ألف الغزل ؟ وكيف يهجر الخمر ولاحياة له بغير الخمر ؟ وقف قليلا ولـكنه أسلم مع قومه وفوض إلى الله أمره ؛ ولم نسمع عنه فى حياة رسول الله وأبى بكر شيئا ، ولـكنا نراه اصطدم مع عمر وهو الشديد فى الحق لاتأخذه فيه هوَادة ؛ فعاد شاعرنا يتغزل ويشرب ، يرى امرأة من الأنصار تسمى « الشَّمُوس » فيحبها ويحاول رؤيتها بكل حيلة فلايستطيع ، فيؤجر نفسه و يعمل فى حائط يُبْنى بجانب منزلها ، ويُطِلّ عليها من كُوَّة البستان و يقول :

ولقد نظرت إلى الشَّمُوس ودونها   حَرَجٌ من الرحمن، غـيرُ قليل

و يشرب ويقول الشعر فى الخمر :

إن كانت الخمر قدعَزَّت وقدمُنعَتْ   وحَالَ من دُونِها الإسلامُ والْحَرَجُ
فقـد أُبَاكِرُها صِرفاً وأَمْزُجها   رِيًّا وأطرَبُ أحياناً وأَمْتزِجُ

فيحده عمر حد الشراب ، فيفكر شاعرنا و يطيل التفكير : هل يترك الغزل والخمر ؟ — لقد كان ذلك قبل الحد أما بعـده فلا . إن من العار أن يتحدث الناس أنى تركت الخمر خوفا من العقوبة وأنا الأبىّ الشجاع الذى لا يعبأ بالحياة — إذاً فلأشرب وليحُدَّنى عمر — وفعلا شرب فحُدّ ، وشرب فحد ، و بلغ ذلك سبع مرات أو ثمانيا ، وهو لا يزال على رأيه ، مصمم على تفكيره ، ماض فى غز

وشربه ، حتى يئس عمر من علاجه وضاق به ذرعاً ، فقرر أن ينفيه فى جزيرة كانت تَنفى فيها العرب فى الجاهلية خُلعَاءها ، وبعث معه حَرَسيًّا يحافظ عليه حتى لا يهرُبَ ، وأوصاه ألا يأخذ سجينُه سيفاً معه ؛ وقد عرف عمر كيف ينتقم ، فلم يألم شاعرنا من شىء ألمه من هذا الرأى — سيكون فى جزيرة وحده لا غزل ولا شراب ؛ ولكن ليس هذا ما آلم نفسه وأدمى قلبه ، إنما آلمه أن يعيش عيشة الضعفاء المساكين والرجال فى غزوات الحرب يَقتُلون ويُقتَلون ، وأن يعيش عيشة النساء فى خدورهن وهو الفارس الكمىّ . لا . لا . الموت أهون من هذا .

تظاهر شاعرنا بأنه يحمل غِرَارتين ملئتا دقيقاً ، وعمَد إلى سيفه فجعل نصله فى غرارة ، وجفنه فى غرارة ، ودفنهما فى الدقيق ؛ حتى إذا جاوز هو والحرسى المدينة ولقيا من سفرهما هذا نَصَباً جلسا للغَدَاء ، فقام شاعرنا يوهم أنه يخرج دقيقاً فأخرج سيفه ووثب على الحرسى فخرج يعدو على بعيره راجعاً إلى المدينة ، وظل صاحبنا وحده . الآن ، لا أعود إلى المدينة وفيها عمر ، ولا أطوّف فى البلاد ألهو فلست بعد اليوم لاهياً ؛ ولكن إلى حيث يحيا الرجال والفرسان حياة النجدة والشهامة — إلى مواقع الغزوات ، إلى أشدها هولاً ، وأصعبها مراساً ، إلى « القادسية » حيث المواقع الفاصلة بين سيادة العرب وسيادة الفرس .

ولكن عمر الساهر على كل شىء فى مملكته ، لم يخفَ عليه أمر شاعرنا ، فعرف أين توجه ؛ فما وصل إلى القادسية إلا وقد سبقه كتاب عمر يأمر سعد بن أبى وقاص بحبسه ، ففعل ذلك وحبسه فى قصره وقيَّدَه ؛ فمشى يرسُف فى قيوده ويستعطف سعداً أن يطلقه فيأبى ؛ فذهب إلى سلمى زوج سعد وقال لها : هل لك إلىّ خير ؟ قالت : وما ذاك ؟ قال : تخلّين عنى وتعيرينى البلقاء (فرس سعد) فلله علىّ إن سلمنى الله أن أرجع إليك حتى تضعى رجلىّ فى قيدى . فأبت ، فقام ثائراً حزيناً ، يرى القتال على الباب وهو يرسف فى القيد ، وانطلق لسانه بهذه الأبيات :

كفى حزَناً أن تطعُنَ الخيلُ بالقنا وأُتركَ مَشدوداً علىّ وثاقِيا
إذا قمتُ عَنَّانى الحديد وغُلِّقَتْ مَغَاليق مِنْ دونى تصِمُّ المنادِيا
وقد كنت ذا أهلٍ كثير وإخوة فقد تركونى واحدا لا أخا ليا
هلم سلاحى لا أبا لكِ إننى أرى الحربَ لا تزداد إلا تمادِيا
ولله عهد لا أخيس بِعَهْدِهِ لئن فُرِجَتْ ألاَّ أزورَ الحَوانِيا (١)

سمعت سلمى هذا الشعر فرثت له ، ورأت الصدق فى قوله فأطلقته ، واقتاد فرسَ سعد وخرج إلى موطن القتال وإذا به أمام الناس يقف بين الصفين ويحمل على العدو حملات صادقة ، حتى عجب الناس من أمره ، ورأوا الفرس فرس سعد والطاعن لم يشهد الحرب معهم قبل اليوم ، حتى إذا انتصف الليل وتحاجز العسكران رجع صاحبنا إلى القصر وأعاد رجليه فى القيد !

فلما أصبح الصباح تحدث الناس به وأخبرت سلمى سعدا بما كان منه ، فأطلقه وعاهده ألا يحده أبدا إذا شرب .

الآن ظهرت نفس شاعرنا فى شرفها ونبلها وقال لسعد : كنت آنف أن أتركها من أجل الحد ، فأما إذا بهرجتنى فلا والله لا أشربها أبداً .

***

لقد كان مما أخذه عمر عليه قوله :

إذا متُّ فادفنّى إلى أصلِ كرْمَةٍ تروِّى عظامى بعد موتى عُرُوقُها
ولا تدفنَنّى بالفَلاة فإننى أخافُ إذا ما مِتُّ ألا أذوقها

ويشاء قاصٌّ من الظرفاء فيروى أنه رآى قبره بنواحى أذربيجان أوجرجان وقد نبتت عليه ثلاث كروم قد طالت وأثمرت واعترشت ، وعلى قبره مكتوب : —

هذا قبر أبى مِحْجَن الثقفى .

أفاض الله عليه سِجَال رحمته فقد كان رجلا وكان نبيلا .

---

(١) خاس بعهده : نقضه ، الحوانى جمع حانية وهى الحانوت .

الذوق العام

يظهر لى أن للأمة ذوقاً عاما ، كما أن لها رأياً عاما وعرفاً عاما ، ولكلٍّ دائرة اختصاص لا يتعداها .

فالرأى العام مداره الآراء والأفكار والمعقولات ، والعرف العام مداره العادات ، أما الذوق العام فمداره الفن والجمال .

وكما أن هناك قدراً مشتركا بين المصريين فى لونهم وتقاطيع وجوههم وملامحهم ، حتى لنستطيع فى سهولة ويسر أن نميز المصرى من الأجنبى ؛ وكما أن هناك قدراً مشتركا فى الرأى العام المصرى فى النواحى السياسية والاجتماعية يميزه عن غيره من الرأى العام الأوربى ، فكذلك الشأن فى الذوق العام .

يتجلى هذا فى كل أنواع الفنون كالطعوم ، فلكل أمة أنواع من الطعوم تستلذها وتُغْرَم بها ، هى نتيجة ذوقها ؛ ومن أجل هذا كان طهى كل أمة يخالف طهى الأمة الأخرى ؛ ولا يقتصر هذا على نوع المأكول ، بل يتعداه إلى كيفية إعداده ؛ وبذا نستطيع أن نحكم على الأمة بأنها تستجيد كذا من ألوان الطعام وأنواعه ، على حين أن الأمة الأخرى لا تستسيغه ولا تتذوقه .

ومثل الطعوم غيرها من الفنون ؛ فالذوق العام المصرى يقدر الموسيقى المصرية أكثر مما يقدر الموسيقى الغربية ، بل لا يستلذها ولا يرى فيها جمالا ، كما أن أكثر الغربيين لا يجد فى الموسيقى الشرقية طعما ، ولا يقيم لها وزناً .

وكذلك أشكال البناء وما يستجاد منها وما لا يستجاد ، وأنواع الملابس وألوانها وما يُستجمل منها وما يستهجن : كلها خاضعة للذوق العام فى الأمة ،

ولكل أمة فى هذه الشؤون ذوقها ؛ يميزها من غيرها ويضعها فى درجة خاصة من سلم الرق .

وهذا الذوق العام فى كل أمة هو الذى يقوّم الأدب ويتذوقه ؛ وهو الذى يجعل لكل أمة أدباً خاصا ؛ فالأدب المصرى مثله مثل الطعوم المصرية ، والغناء المصرى ، والبناء المصرى ، إنما يتذوقه المصريون بذوقهم العام ، ولا يتذوقه الغربيون بذوقهم العام ، كما لا يتذوقون طعومنا وغناءنا ؛ فالنوادر المصرية التى تُعجِب المصرى حتى تبعثه على أشد الضحك وأعمقه ، قد لا تحمل الأجنبى على التبسم ، والقصص و « الحواديت » المصرية التى تسترق لب المصرى وتستهويه ، قد لا يأبه لها الأوربى ولا يعيرها التفاتاً إذا ترجمت له . نعم قد يعجب المصرى بآيات من الآداب الغربية ، ولكنه لا يتم له ذلك إلا بعد أن يحوّر ذوقه ويمرنه تمريناً طويلا على تذوّق هذا الأدب ، كما يمرن المصرى ذوقه على استجادة الموسيقى الغربية ، فيستجيدها بعد طول المران ، ولكن هذا ليس من الذوق العام فى شىء .

كما لا نستطيع أن ننكر أن هناك نوعاً من الآداب عالميا ، إذا ترجم إلى أى لغة استجيد ، كنوع من القصص ونوع من الأمثال ؛ ولكن سبب ذلك أن هناك قدراً مشتركا بين الأذواق ، كما أن هناك قدراً مشتركا بين العقول ؛ فاستجادة المصريين لبعض الأدب الغربى ، أو الغربيين لبعض الأدب العربى ، شأنها كشأن اشتراك الناس جميعاً فى استجادة بعض الطعوم أو بعض قطع الموسيقى ؛ وهذا لا يغير فيما ادعينا شيئاً من أن لكل أمة ذوقاً عاما خاصا بها .

وهذا الذوق العام للأمة يستبد بالأفراد استبداداً لا حدَّ له ؛ فالناس جميعاً خاضعون لأنواع شتى من الاستبداد ، كاستبداد النظم السياسية ، واستبداد العقول ، واستبداد الرؤساء ، ولكن هذه كلها محدودة الدائرة . أما استبداد

الذوق العام فلا حد له ، ولا سلطان يشبه سلطانه ؛ ذلك أنه بجانب الذوق العام للأمة ذوق خاص بالفرد ؛ فكل فرد له ذوقه الخاص يستجيد به بعض الأشياء ولا يستجيد بعضا ، ويستحسن به ويستهجن ، ويستجمل ويستقبح ؛ ولكنه فى كل ذلك مسلوب الحرية خاضع خضوعا تاما للذوق العام . قد يشتد الحر فلا يطيق الإنسان نفسه ، وقد يكون فى نوع من الثياب ما يخفف وطأته ويكسر من حدته ؛ ولكن لا بد أن يخضع للذوق العام ، فيلبس الخناق أو رباط الرقبة وما إلى ذلك ، خضوعا للذوق العام وخشية من استهجانه ؛ فليس إنسان يلبس ما يحب ولا يأكل ما يحب على النمط الذى يحب ، ولا يتكلم كما يحب على النمط الذى يحب ؛ إنما هو فى كل ذلك عبد أسير ذليل مقيد مغلول ، فى كل خطوة يخطوها ، وفى كل نفَس يتنفسه . لقد قيدتنا القوانين بأعمال يجب أن نعملها ، وأعمال يجب أن نتجنبها ، ولكنها ليست شيئاً بجانب أوامر الذوق العام ونواهيه . وعقوباتُ الذوق العام سريعة فاتكة متنوعة ، فهو يعاقب بالاحتقار والازدراء ، ويعاقب بالنظر الشزر ، والكلمة الجارحة القاسية ، ويعاقب بالنقد والتجريح ؛ وهو فى كل ذلك لا يسمع دفاعا ، ولا يقبل عذرا ، ولا يؤجل عقوبة ، ولا يقبل حكمه نقضا ، ولا يعرف حكما مع وقف التنفيذ — لا شىء من ذلك كله ، ولكن حكمه حكم صارم ، قاس ظالم

وكذلك الشأن فى كل نوع من أنواع الفنون ؛ فإذا اشتهر مغن وأعجب ذوق الجمهور فلا حق لك أن تعيبه ، وإذا عبته فعبه سراً ، وحذار أن تجهر بذلك فيكون دليلا على فساد ذوقك وضعف حسك .

ومثل ذلك فى الأدب — إذا قال الناس إن سحبان وائل خطيب يضرب به المثل فى البيان ، فيقال أفصح من سحبان ، فقل مثلهم ، وإن كنت لم تقف على شىء يثبت فصاحته ويبرهن على بلاغته ، وإن فتشت عن كل أقواله فلم تجد

إلا أسطرا ثلاثة قال فيها (إن الدنيا دار بلاغ ، والآخرة دار قرار) الخ . ولم تستجد هذا فاتهم ذوقك وكرر قولهم : «أبلغ من سحبان» .

وإذا قالوا إن من أبلغ خطب العرب خطبة قس بن ساعدة (أيها الناس ، اسمعوا وعوا ، وإذا وعيتم فانتفعوا) الخ ، فقل كما قالوا ، وإن لم تتذوق .

وكذلك فاخضع دائما لحكمهم وذوقهم ؛ فمن قالوا فيه إنه إمام الأدب أو سيد الشعراء غير مدافَع ، أو قالوا إنه شاعر متكلف ، أو أديب متخلف ، فإياك أن تحدثك نفسك بأن تقلب أوضاعهم أو تخالف إجماعهم .

هكذا استبداد الذوق العام ، ولست تستطيع الخروج عليه وإعلانَ استقلال ذوقك عنه إلا بثورة عنيفة على الذوق ، وتعرض لكل أنواع العقوبات الذوقية .

***

ثم إن كل ما ترى فى الأمة من مظاهر القبح علته ضعف الذوق العام ؛ فإذا رأيت الأمة تصدف عما فى بلادها من أزهار ، ولا يخفق قلبها لرؤية جمالها وجمال طبيعتها ، ولا تتغزل فى محاسنها ، فاعلم أن سبب ذلك ضعف الذوق العام ؛ وإذا رأيت الأمة لا تقدس النظافة ، ولا تشمئز من القذارة اشمئزازها من أبغض شىء وأقبحه ، فعلل ذلك بضعف الذوق العام ؛ وإذا رأيتنا فى المجتمعات لا نرعى نظاما ، ولا ننصت لفن ، ولا نتقيد بآداب اللياقة ، فقل إنه ضعف الذوق العام ، وهكذا . . .

ومن غريب الأمر أن هذا الذوق العام ، الذى يستبد بى فى مأكلى وملبسى ومسمعى — كما رأيت — لا يستبد فى هذه الأشياء ، ولا يبدى أى سلطان على هذا النوع من الضعف ، فهو لا يحتقر المرء لا يقوّم الزهر ، ولا يزدرى من يسىء فى المجتمعات العامة ؛ ولكن يزدرينى إذا خرجت من غير طربوش أو رباط

رقبة فى يوم حار ؛ وسبب ذلك أن الذوق العام لا يعاقب إلا على ما يتذوق ، وفى دائرة ما يفهم ؛ فهو إذا قوّم مناظر الطبيعة عاقب من لم يتذوقها ؛ وإذا أدرك جمال النظام وآداب المجتمعات عاقب من مسها بسوء ، ولمّا يصلْ إلى هذه الدرجة .

***

وبعد فشأن الذوق العام شأن الرأى العام : كلاهما قابل للإصلاح والرقى ؛ فالرأى العام ضعيف وسخيف إذا صدر عن أمة جاهلة ، ويرقى الرأى العام بانتشار الثقافة وتعميم التربية ؛ ويدل تاريخ كل أمة على أنها فى أول أمرها لا يكون لها رأى عام ، ثم تمنح أفرادا قليلين أقوياء ، زعماء مثقفين يوفقون فى دعوتهم فيخلقون رأيا عاما ، وإن هؤلاء القادة يجب أن يسْبَقوا بنوع من الثقافة العامة فى الأمة حتى تستطيع أن تَفْهَم قادتها وآراءهم ، فيأتى هؤلاء القادة فيكوّنون إرادة عامة للأمة ، ويؤلفون بين اتجاهاتها ويكوّنون منها وحدة .

ومما نأسف له أن مجهودات كبيرة بذلت فى ترقية الثقافة العقلية ، وبرامج كثيرة وضعت فى تعميم التربية العقلية وفى تكوين الرأى العام ، ولكن لم توضع برامج لتربية الذوق العام ، ولا بذل مجهود فى ترقيته ورفع مستواه ، فكان لنا زعماء سياسيون وزعماء عقليون ، ولكن لم يكن لنا زعماء فنيون .

وفى ظنى أن الذين يبحثون فى ترقية الفنون عامة من موسيقى ونقش وتصوير وأدب مخطئون كل الخطأ ، لأنهم يحاولون أن يصلحوا النتائج من غير أن يصلحوا المقدمات ؛ فليس الفنان فى الأمة إلا صدى لذوقها العام ، فإذا صح الذوق صح الفن وإلا فلا . ليس الفن والأدب من جنس النباتات التى تنبت من تلقاء نفسها ، ولا هو مما يظهر مصادفة واتفاقا ؛ وإنما هو نتيجة لازمة لعوامل طبيعية سأحاول أن أبينها

كيف يرقى الأدب

أشرت فى مقالى السابق إلى العلاقة بين الذوق العام ورقى الأدب ، وأعود الآن إلى هذه العلاقة ، أزيدها بسطا و إيضاحا .

يذهب بعض المفكرين إلى أن الفنون — ومنها الأدب — ترتقى وتنحط ، وتعلو وتسفل ، وتتقدم وتتأخر ، فى الأمم اعتباطا من غير أن يكون لذلك أسباب ، أو على الأقل أسباب ظاهرة ؛ فالناظر لتاريخ الفنون فى العالم يرى أن أمة فى عصر من العصور قد ترقى فى فن من الفنون كالموسيقى أو الحفر أو التصوير أو الشعر ، على حين أن أمة أخرى ترقى فى فن آخر من هذه الفنون ، ثم بعد رقى عظيم تنحط الأمة فى هذا الفن ، ويحل محل الفن فن آخر ، أو لا يحل محله شىء ؛ وتتبادل الأمم ذلك من غير أن يكون لهذا التقدم وهذا التأخر علة مفهومة . وشأن الفنون شأن النابغين الفنانين ، فقد ينبغ النابغ فى أمة ولا نعرف لِمَ نبغ وكيف نبغ ؛ وتحاول الأمة أن تخلق نابغين فلا ينخلقوا — بل ترى الأمر عجبا ؛ فقد يوجد النابغة والأمة على أسوإ ما يكون من ضعف فى الخُلق ، وضعف فى العقل ؛ ثم ترقى الأمة عقلا وترقى خلقا وتتلفت فلا تجد نبوغا ، وكان مقتضى هذا أن يكثر عدد النابغين فيها ويزدادوا نبوغا بازدياد الأمة رقيا ؛ ولكن ينعكس الأمر حتى لتجد الأمة وأعضاؤها قوية ولا رأس ، بينما كان لها فى حال ضعفها رأس قوى ولا أعضاء — ما ذاك إلا لأن النابغة يوهب ولا يُخْلق ؛ وقد قال هؤلاء إن الفنون فى ذلك ليست كالعلوم ، فالرقى فى العلوم سبيله ميسور ممهد ، وتستطيع الأمة أن تضع لها خطة تسير عليها لترقى فى الطبيعة أو الكيمياء والرياضة ، فإذا هى جدّت فى ذلك وصلت إلى درجة من الرقى تناسب جدِّها

واستعدادها ؛ ولكنها لا تستطيع أن تضع خطة تسير عليها للرقى فى الشعر والموسيقى والتصوير ، لأن ذلك نوع من الإلهام ، والإلهام بيد الله ، يمنحه من يشاء كيف شاء متى شاء . ولعل الكاتب يشعر بهذا تمام الشعور فى نوع ما يكتب ؛ فهو إذا أراد أن يكتب بحثاً علميا ، أو يحقق لفظا لغويا ، أو يحرر حادثا تاريخياً ، فهو فى أكثر أوقاته مستعد لذلك ، ما لم يكن مريضاً أو مهموما ؛ ولكنه إذا شاء أن يكتب قطعة فنية أدبية إنشائية لا يستطيع ذلك إلا فى حالة نفسية صافية ، ومزاج يتناسب والقطعة الفنية التى ينشئها ، من حزن أو سرور ، وحلم أو غضب ؛ ويصادفه وقت هو كما يسميه الصوفية — وقت تجلّ ، يجيد فيه ويغزر ، ويسمو فيه ويصفو . ويعجب كيف أجاد وكيف غزر ؛ ثم هو يحاول بعد مراراً أن يخلق مثل هـذا التجلى ، فيفشل ثم يفشل ؛ ويحار فى تعليل ذلك ، وتعليله ما قاله علماء الكلام « ولم تكن نُبوّة مكتسبة » — هو فى العلم مالك وقته يصرّفه كما يشاء ، وهو فى الأدب ينتظر الإلهام .

وقالوا إن رقى الأمة فى الأدب لا يرتبط بدرجة ثقافتها ، ولا برقيها العقلى ، ولا بأى سبب من الأسباب ؛ فالأمة المصرية — قديما — رقيت فى فنون النحت والنقش والبناء رقيا بديعا جعلها من أساتذة العالم فى هذا الباب ، وخلّفت على مر الأزمان ثروة لا تقوّم ؛ ولا تزال قبلة الفنانين إلى الآن تستخرج إعجابهم ، وتلهم أذواقهم ؛ والمصريون الآن ليسوا أساتذة فى الفن ، حتى ولا تلامذة ، مع أن أحداً لا يستطيع أن يقول إن المصريين القدماء كانوا أرقى منا عقلا وأعلى ثقافة ؛ وكذلك يشكو كثير من الأوربيين من أن الفن — ما عدا الموسيقى — أخذ يتدهور من القرن السادس عشر ، مع أن أنواع العلوم فى رقى مستمر ، وعقليات الأمم فى تقدم دائم ؛ ولو كان الأمر بالعلل والأسباب المنطقية لوجب أن يكون المصريون اليوم أعلى فنا وأكثر نبوغاً ، ولكان الفن الأوربى الآن أسمى وأتم

منه فى القرون الوسطى . فأما وقد عجز المنطق عن تقديم مقدمات ونتائج صحيحة فليس إلا الإلهام ، وليس للأمة إلا أن تنتظر ما يأتى به القدر .

هكذا قالوا ، أو حاولوا أن يقولوا ، وبذا احتجوا ، أو حاولوا أن يحتجوا ؛ ولكن هل هذا صحيح ؟ — إن فى هذا الرأى غلوا مفرطا ؛ فهو يخرج الأدب عن دائرة الإرادة ، ويجعله مجرد انتظار للوحى والإلهام ؛ ومن الحق أن للأدب خطة تُنْتَهَج كمنهج العلم ، وأن من نُعده للأدب يجب أن نثقفه ثقافة خاصة كالذى نعده للعلم ؛ ولكن من الحق أيضاً أننا لا نخلق الأديب ببرنامجنا ، بل لا بد أن تكون قد هيأته الطبيعة ومنحته استعدادات خاصة ، وكفايات ممتازة ، وتهيؤا لقبول الإلهام ؛ ولكنه فى كل ذلك كالعالِم ، فبرنامج العلم لا يخلق نابغة فى العلم إنما يُعده ، والعالم لا بد أن يكون مهيأ للإلهام كالأديب ؛ وأكثر المخترعات والمستكشفات فى العالم كانت نتيجة إلهام أكثر منها نتيجة لمقدمات منطقية وتجارب عملية ؛ وإنما التجارب تهيئ للإلهام وتحقق ما يأتى به ، وتبين صحيحه من فاسده ، وتسمى هذه الإلهامات فروضاً .

ويظهر أن اتجاه هؤلاء الباحثين هذا الاتجاه سببه عقيدة سادت بين رجال الفن عهداً طويلاً ، وهى « أن الذوق لا يعلَّل » ؛ فالناظر ينظر إلى الصورة فيستجملها أو يستقبحها ، فإن أنت سألته : لِمَ استجملها أو لِمَ استقبحها ؟ لم يُحِرِ جواباً ؛ وإذا أجاب أجاب بكلمات منمقة ، ولكنها جوفاء ، لا تحوى علة ولا توضح سبباً ؛ وإنما هى نفس الدعوى بألفاظ رشيقة جميلة ؛ وإذا رأيت طاقة من الزهر قلت ما أجملها ، ولكن إن سئلت : لِمَ كانت جميلة ؟ قلت : إنها منسقة ، إنها بديعة الألوان ، إن نفسى لترتاح إلى رؤيتها ، إنها لتسر النظر ، وتَبْهَر العقل ؛ وأنت غنىٌّ بعدُ عن أن أقول لك إن هذه ألفاظ وجمل قد تُرضى البلاغة ، ولكن لا ترضى المنطق ؛ وقد تَعْرِض صورة أو يظهر إنسان

أمام جمع من النظَّارة ؛ فهذا يستحسنه وذاك يستقبحه ، وثالث لا يستحسنه ولا يستقبحه ، فإذا سألت من استحسن لِمَ استحسن ، ومن استهجن لِمَ استهجن ، ومن حايد لِمَ حايد ؟ كانت الإجابات مثاراً للعجب ، وموضعاً للضحك . وقد ترى إنساناً وكل عضو من أعضائه على انفراده جميل ، ولكنه ليس جميلا ككل ، فما الذى كوَّنه هذا التكوين ؟ وما الذى وضعه هذا الوضع ؟ ولِمَ استحسنْتَه مفرقا ، ولِمَ تستحسنه جملة ؟ لا شىء فى الحقيقة إلا الذوق الذى لا يعلل ، وهذا هو الشأن فى الأدب ؛ وأظهر مثل لذلك ما فعله عبد القاهر الجرجانى فى أسرار البلاغة ودلائل الإعجاز ، فماذا صنع ؟ إنه يأتى بالبيت الجميل ثم يقف ويتساءل : فيم كان جماله ؟ فما هو إلا أن يصوغ لك جملا رشيقة ، فيقول : إن هذا اللفظ يروقك ويؤنسك ، وغيره يثقل عليك ويوحشك ، وهذا الوضع يَبْهرُك جماله ، وهذا النظم يأخذ بلبك ما فيه من نسج وصياغة ، ووشى وتحبير ؛ ويعلل سبب ذلك أحياناً بالتقديم والتأخير ، وأحياناً بالفصل والوصل — وكلها علل لا تصلح ، فأنا كفيل بأن آتيك بتقديم يحسن ، وتقديم مثله يقبح ، وفصل يروعك ، وفصل مثله يسوءك ، وقد تحاول أن تفرق بينهما فلا تستطيع ، ثم تسلم سلاحك وتكتفى بأن تقول هذا جميل ، وهذا قبيح ، وهذا يحسن فى ذوق وهذا لا يحسن ؛ وبذلك تكون قد قطعت شوطاً بعيداً ، ثم فى آخر الأمر عدت إلى النقطة التى بدأت منها سيرك . وما علوم البلاغة كلها إلا محاولة لتعليل الذوق الأدبى ، ولكن هل أفلحت فى التعليل ؟ إنا لنخشى أن تكون قد دارت حول نفسها ، ولم تأت بشىء «لأن الذوق لا يعلل» .

وإذا كان الذوق لا يعلل فكل ما ترتب عليه لا يعلل ، وإذا كان الفن وليد الذوق فالفن لا يعلل ، لا يعلَّل كيف ظهر وكيف قَوِىَ وكيف ضعف .

هكذا أيضاً قالوا أو يصح أن يقولوا — وهذه الآراء — وإن كان فيها شية

من الحق — ليست حقا كلها ، وليست حقا فى أساسها ؛ وقد بذل بعض العلماء المحدَثين مجهوداً حميداً فى بيان مافيها من حق و باطل ، وحاولوا أن يفلسفوا الذوق، و يفلسفوا الجمال ، ووضعوا للذوق والجمال علماً ، وعدُّوه فرعاً من فروع الفلسفة ، وحاربوا فيه الفكرة السائدة : « إن الذوق لا يعلل » ووضعوا قواعد لتعليله نجحوا فيها أحياناً وفشلوا أحياناً ، ولا يزال مجال البحث أمامهم فسيحاً ؛ وكان لهذا الاتجاه الجديد فى علم الجمال أثر كبير فى خلق نظريات فى الأدب ، ووضع أسس جديدة للبلاغة والنقد الأدبى مما ليس هذا موضعه .

والذى أميل إليه أن الفن نتيجة الذوق لا محالة ، وأن الذوق يمكن تربيته وترقيته ؛ فالطفل إذا لُفِتَ نظره إلى الأزهار وجمالها تكوّن فيه الميل إلى حبها والاستمتاع بها ؛ فإذا كان بعدُ أديباً اتصلت حياته الأدبية بها ، وظهر فى نتاجه الفنى هذا الحب وهذا التقدير .

والذوق العام للأمة فى قوته وضعفه ورقيه وانحطاطه ، ليس يظهر فجأة ولا هو نتيجة المصادفة البحتة ، إنما هو نتيجة لكل مايحيط بالأمة من ظروف وأحداث، هو نتيجة النظم السياسية ، والحياة الاقتصادية والاجتماعية ، والثقافة العقلية وغير ذلك . وإن شئت فقل إن ذوق الأمة هو تعبيرها عما تُقَوِّم ؛ فالأمة إذا قوّمتْ المناظر الطبيعية تذوقتها ، وإذا قومت جمال الأزهار تذوقته ، وإذا لم تقوم النظام فى المجتمعات لم تتذوقه ، ولم يجرح ذوقها تهويش على محاضر أو مغن أو ممثل — والفنان ليس إلا معبراً عن ذوق الأمة ، والأديب ليس إلا الموقّع للأصوات التى تستلذها الأمة .

ومن أهم أسباب ضعف الأدب العربى مسألتان تتصلان بهذه الحقيقة : الأولى أن الأدب العربى لا يتصل بالذوق العام للأمة اتصالا وثيقاً ، لأنه يصاغ بلغة غير لغة الشعوب ، ولا يتصل إلا بذوق خاص وهو ذوق محترفى الأدب ،

ومن تكوّن ذوقهم تكوّنا «كلاسيكيا» ؛ ولا أمل فى نجاحه إلا أن نعمل بأى شكل كان على أن نصل الأدب أو أكثره بالذوق العام . والثانية تتصل بالأولى ، وهى أن الآداب فى أكثر الأمم كانت أرستقراطية النزعة يوم كانت القوة فى يد الأرستقراطيين ؛ فلما انتشرت الديمقراطية تبعها الأدب ، فأصبح ديمقراطى الموضوع ، ديمقراطى النزعة . أما الأدب العربى فقد أصبح أرستقراطيا منذ العهد الأموى ، وأصبح أهم أنواع الأدب إنما ينشأ حول قصور الأمراء والأغنياء ، وفى الموضوعات التى تناسبهم من مديح لهم وهجاء لأعدائهم ؛ فلما عمت النزعة الديمقراطية العالم لم تؤثر فى الأدب العربى أثرها فى غيره من الآداب ، بل ظل محتفظاً إلى حد ما بأرستقراطيته ، وهذا قلل من غير شك اتصاله بالذوق العام للأمة .

على كل حال لا وسيلة لترقية الفن ومنه الأدب إلا بترقية الذوق ، وربط الفن به ، ولذلك وسائل :

من أهمها التأذين فى الناس بصوت عال يهزهم هزاً عنيفاً حتى يشعروا بأن أذواقهم مريضة ، لا يشعرون بالجمال كما ينبغى ، ولا يهيمون بالحسن كما يجب ؛ ولست أعنى جمال الوجوه وحدها ، ولكن جمال الأزهار ، وجمال الطبيعة ، وجمال الموسيقى ، وجمال الحركة ، وجمال النظام ، وجمال النظافة ، وجمال المعانى . ويجب ألا يقتصر دعاة الفن على الدعوة لجمال الكرنك وأنس الوجود والمساجد الأثرية ؛ بل يجمعون إلى الدعوة لجمال الماضى جمال الحاضر — وهذا أكثر وضوحا فى الأدب ؛ فدعوة الأدباء دائماً وقول الأدباء دائماً إنما هو إلى الماضى وفى الماضى ، وهذا حسَن لدرجة ما ، ولكن يجب أن يقرن به الدعوة القوية أيضاً إلى النظر إلى أنفسنا والقول فى أنفسنا .

يجب أن نغير تسعيرة الأشياء ، ونضع تسعيرة جديدة لما يدور حولنا ، ونضع أمام ناشئتنا قِيَما جديدة لما يقع عليه نظرهم ؛ فإذا كانت بيوتنا تعنى بكمية الأكل

وتعطيها أكبر قيمة ، وجب أن نرفع قيمة الـكيفية فنضع قيمة كبرى للأزهار على المائدة ولجمال الترتيب والنظام ولجمال الحديث

يجب أن نوجه إرادتنا فى ترقية الذوق كما نوجه إرادتنا لترقية العلم ولترقية النظام السياسى ، ونضع للذوق برامج كالتى نضع لبرامج التعليم .

إنا إن فعلنا ذلك تمخض المجتمع عن فنان ماهر ، وأديب قادر .

بين اليأس والرجاء

صوتان لا بد أن يرتفعا فى كل أمة ويجب أن يتوازنا حتى لا يطغى أحدهما على الآخر : صوت يبين عيوب الأمة فى رفق وهوادة ، ويستحث على التخلص منها والتحرر من قيودها ، وصوت يُظْهر محاسنها ويشجّع على الاحتفاظ بها والاستزادة منها . والصوتان معاً إذا اعتدلا كوّنا موسيقى جميلة منسقة تحدو الأمة إلى السير إلى الأمام دائماً ؛ هى موسيقى الجيش تبعث الرجاء والأمل ، وتمنّى بالنصر والظفر ؛ فإن بغى أحد الصوتين على الآخر كانت موسيقى مضطربة تهوش النفس وتدعو إلى الفوضى والارتباك ؛ وإذا كان « الدور » فى الموسيقى يكون منسجماً كله ، ويشذ أحد أصواته لحظة فيكون « نشازا » يخدش السمع ويجرح النفس ، فما ظنك « بدور » كله « نشاز » ؟

***

مما يدعو إلى الأسف أن صوتا فى الشرق علا كل صوت ، وهو ليس خير الأصوات وأحبها إلى النفس ، هو صوت اليأس والتثبيط يتغنى به كل أصناف الدعاة ؛ فخطيب المسجد تدور خطبته دائما على أن من يخطبهم ليسوا مؤمنين حقاً ، فقد ارتكبوا من الأوزار ، واجترموا من الآثام ما أخرجهم عن الإيمان الحق ، وأبعدهم عن الدين الصحيح ، ولو آخذهم الله بأعمالهم لأمطرهم حجارة من السماء ، أو خسف بهم الأرض ؛ ثم يَصُب هذا المعنى كل أسبوع فى قالب ، وكل القوالب متشابهة متقاربة ، ويخرج السامع دائما وقد ملأه اليأس ، وانقطع به الرجاء ، إلا أن يتداركه الله بعفو ليس جزاء على عمل .

ودعاة اللغة والأدب يلحون فى أن اللغات الأجنبية خير من اللغة العربية ،

وأن الأدب الأجنبي أدب الثقافة والفن والعلم ، ولا شيء من ذلك فى الأدب العربى ، وأن من شاء أن يفتح عينيه فليفتحهما على أدب أجنبى ولغة أجنبية ، وإلا ظل أعمى ؛ وموجز دعوتهم أن يتحول الشرق فى لغته وأدبه إلى الغرب فى لغته وأدبه ، لا أن يختار من لغة الغرب وأدب الغرب ما تلقح به لغة العرب وأدب العرب .

ودعاة الاجتماع أدهى وأمر ، فليس فى الشرق كله ما يسر ، قد جرده الله من كل حسن ، فلا طبيعته جميلة ولا مناظره جذابة ، ولا شيء فيه يأخذ باللب ويدعو إلى الإعجاب ، والقمر فى الغرب أنور منه فى الشرق ، والبحر الأبيض قد جمل منه مالامس الغرب ، وقبح ما لامس الشرق ، وكل شيء فى عادات الشرق وتقاليده تعافه النفس ، وينفر منه الطبع ؛ وعلى الجملة فالله تعالى الواهب ما شاء لمن شاء قد جمع الحسن كله فى ناحية ، وقال له كن الغرب فكان ، وجمع القبح كله فى ناحية ، وقال له كن الشرق فكان ؛ وهم إذا لم يقولوا ذلك كله جهاراً آمنوا به إيماناً ، وصدرت عنه أفعالهم ، واتجهت إليه حياتهم .

ودعاة العلم من هذا الطراز ، فكتب العلم العربى إنما تصلح لدارس التاريخ أو طعمة للنار ، وماذا فيها إلا تخريف أو تحريف ؟ قد كانت نتاج القرون الوسطى ، ونحن نتاج العصر الحديث . ومجالسنا صدى لهذا الصوت ، فإذا استثنيْتَ عُشر معشارها فكلها نقد للأخلاق ، وطعن فى حياة الشرق ، وتهجّم على حال أمتهم ، وتجهمٌ لكل ما يصدر منهم . وقلّ أن تسمع صوتاً ينطق بمدح أو يعجب ببطولة ، أو يتغنى بعمل مجيد .

هذه نغمة مملولة كانت أجنى على الشرق من كل عيوبه ، ولن تفلح أمة من غير ذخيرة تعتزّ بها ، ومجد طارف وتليد تعتد به ، ونُعْرَة قومية تدعوها إلى الفخر والإعجاب . ولأمر ما قال تعالى : « كنتم خير أمة أخرجت للناس » . وليس

عبثا أن يكون فى أناشيد الألمان « ألمانيا فوق الجميع » وأن يعتقد بعض الأمم فى أنفسهم أنهم شعب الله المختار ، ونحو هذا مما ينعش الأمل ، ويدعو إلى العمل

تلك ظاهرة نفسية لا مجال لإنكارها ؛ فاعتقد الغباوة فى طفلك وكرر عليه اعتقادك تقتل كل ما فيه من ذكاء ، وأعلن أنه ذكى وشجعه على ما يبدر منه من ضروب الذكاء تستخرج أقصى ما عنده من عقل . وفى المثل الإنجليزى « دَعَوا الكلب عقورا فشُنِق » يعنون أنهم اعتقدوا فى كلبٍ سوءا وسموه عقوراً وظلوا يطلقون عليه هذا الاسم حتى صدر منه من أفعال السوء ما استوجب قتله . وفى أمثالنا العامية « قالوا للفلاح يا حرامى شرشر منجله » ذلك أن الاتهام يحمل على ارتكاب الجريمة من ناحيتين : من ناحية الإيعاز ، فمن اتهمته فقد أوعزت إليه واقترحت عليه العمل ، وأظهرت له الجريمة ماثلة أمام عينيه حيناً بعد حين . ومن ناحية أن أكبر ما كان يمنعه من الشر خوفه أن يتهم بالشر ، فإذا اتهمته فقد كان ما يخشاه ، وأقدم على ما كان يتحاماه ؛ هذا إلى ما يوحيه الاتهام الدائم من شعور باطنى يسيره نحو العمل وفق الاتهام ؛ وهذا هو السر فى أن بعض القوانين تُسَن لمعاقبة بعض أنواع الإجرام فتكون سبباً لكثرة الإجرام ، ثم ترفع فيقل الإجرام ، لأن وجود القوانين كان موعِزاً بارتكابها . ولعل أنواعا من الآثام زادت بكثرة الكلام فيها من جهلة الوعاظ ممن لم يحسنوا دراسة النفوس وقوانينها .

إذا سقط الفتى فأريته أن سقطته قابلة للعلاج ، وأخذت بيده لانتشاله ، كفّر عن سقطته وعاد إلى حاله ؛ وإن أنت أريته أن سقطته لا تغتفر ، وأنه لم يصبح إنسانا ، استمر يسقط أبدا — وكثير من الساقطين والساقطات لو أحسوا فى الناس استعداداً لقبولهم ، وشعروا أنهم يفسحون لهم فى صدورهم ، لعدلوا عن سقطتهم ، ونهضوا من عثرتهم .

***

وبعد فليس الشرق بدعا من الخلق ، إن اعتز أحد بماض فليس أمجد من ماضيه . وإن كان لكل أمة غربية محاسن ومَساو فللشرق محاسنه ومساويه ، وإن كانت مساوى الغرب لم تمنعه من نهوضه فلِمَ تمنع الشرق مساويه من نهوضه ؟ ليس أعوق للشرق من هذا الصوت الكريه يصدر من دعاته فيبعث اليأس وينفث السم !

أيها الدعاة : كسروا قيثارتكم هذه التي لا توقع إلا نغمة واحدة بغيضة ؛ واستبدلوا بها قيثارة ذات ألحان صنعها طَبٌّ بأدواء النفوس عليم ؛ وأكثروا من ألحان تبعث الأمل ، وتدعو إلى العمل ، وتزيد الحياة قوة ؛ ولا تُشَهِّرُوا برذيلة إلا إذا أشدتم بفضيلة ، ولا تسمعونا صوت المعاول إلا إذا أريتمونا حجر البناء .

سيبويه المصرى

شخصية غريبة كانت فى مصر فى عهد الدولة الإخشيدية قبل بناء القاهرة، وكان يدوّى اسمها فى الفسطاط والقطائع وما بينهما قبيل مجىء الفاطميين؛ كانت شخصية تُرْهَب وتُحَب، ويُضْحك منها، ويعتبر بها، إن شئت علماً فعالم، أو شعراً فشاعر، أو أدبا فأديب، أو وعظاً فواعظ، أو فكاهة ففكِه، أو نقداً مقذعا فناقد، أو جنوناً فمجنون.

وُلد بمصر سنة ٢٨٤ ﻫ، وعاش أربعا وسبعين سنة، وأتقن النحو حتى لقب بسيبويه.

ألطف ما فيه لَوْثة كانت بعقله، هى سر عظمته، فقد جرّأَه على مالم يجرؤ عليه أحد فى عصره؛ كان معتزليا يقف فى المسجد وفى الشارع فيصرح بآرائه فى الاعتزال، ويصيح بأن القرآن مخلوق، فيقولون مجنون، ويتركونه يقول ما شاء، حيث لا يقول أحد شيئا من ذلك إلا همساً، أو من وراء حجاب؛ ويتعرض للناس بالقول اللاذع، سواء فى ذلك كافور الإخشيد أو وزيره، أو العلماء أو التجار، فيتضاحكون منه ويتقون لسانه ببره والإهداء إليه سراً وجهراً.

كانت نوادره كثيرة، تتلقفها الألسنة، ويتناقلها الرواة، فتشيع فى الناس، وتكون سلوتهم ومثار ضحكهم.

وقديماً عرف المصريون بالفكاهة الحلوة والنادرة اللطيفة، كما عرفوا بالإعجاب بها والجد فى طلبها والإمعان فى الضحك منها.

من أجل هذا ألّف ابن زولاق المصرى كتابه اللطيف فى نوادر سيبويه،

لم يذكر فيه إلا قليلا عن علمه ، ولم يذكر شيئا عن نحوه ولا عن جده ، وإنما ملأه كله بفكاهته ولَوْثته .

عُرف منذ شب بهذه اللوثة ، تظهر فى حركاته ورمش عينه ، وزادت بتردّيه فى بئر أمام بيته ، يهيج أحياناً فيطرح ثيابه ويمشى عارياً فى الطريق ، على عورته خرقة ، وعلى أكتافه خرقة ، وبيده عصا ومصحف ، ويروح إلى الجامع وهو على هذا الحال يعظ ويتزهد ؛ وأحياناً تهدأ ثائرته فينادم الأمراء والوزراء ، ويعجبون بلطفه وظرفه ، وتقول زوجه : إنه إنما كان يهيج إذا لم يأكل اللحم والدسم ، فإذا أكلهما هدأ .

قلت إن لوثته سر عظمته ، فإذا هاج أتى بالنوادر الطريفة والكلم السيّار ، ولذلك قالوا فيه : « إنه إذا لم يكن له من يهيجه لم يخرج علمه » .

سبّ مرة خازن الإخشيد أو وزير ماليته ، فأخذه وعذبه ، ثم أطلقه وأجرى عليه الرزق ؛ فكان الصبيان أحياناً إذا رأوه يتصايحون : « ياخازن أُخرج عليه » فيهيج ما به وينطق بالقول اللطيف .

كان يقول القول على سجيته ، لا يرهب أحدا ولا يخشى سلطانا ، قد أُدخل مرة مستشفى المجاذيب ، ثم أخرجه كافور الإخشيد ، فلما مثل بين يديه قال له سيبويه : « ما مثلك يصطنع بعشرين ألف دينار ولا بثلاثين ألفا إذا كنت عادلا ، فأما إذا كنت جائراً فأسود بعشرة دنانير يقوم مقامك » .

وكان أكثر قوله سجعاً ، ومن ثم كان أكثر دوراناً على الألسنة وأسهل حفظا .

لقى المحتسب وبين يديه أجراسه فقال : « ما هذه الأجراس يا أنجاس ، والله ما ثَمّ حق أقمتموه ، ولا سعر أصلحتموه ، ولا جان أدبتموه ، ولا ذو حسب وقرتموه ؛ وما هى إلا أجراس تسمع ، لباطل يوضع ، وأقفاء تصفع ، وبراطيل

تقطع ، لا حفظ الله من جعلك محتسباً ، ولا رحم لك ولا له أماً ولا أبا » .

وكان مَخْشِيَّ اللسان ، يهرُب الوجهاء والأعيان إذا سمعوا صوته من بعيد ، حتى لا يقذفهم بقذيفة من لذعاته تسير فى الناس ؛ وكان كافور يعجب كيف يسكت المصريون على سبه ويقول : «سبحان من سلط سيبويه عليكم ينتقم منكم وما تقدرون على الانتصار» .

وما السبب فى هذا إلا أنه كان يعمد إلى الرؤساء فيرميهم بكلماته القارصة ، تصيب منهم مقتلا ، ويُسَر الشعب من هـذا لأنه يعبر عما فى نفوسهم ، وينتقم من خصومهم ، ويجرؤ بجنونه على ما لم يجرؤ عليه عقلاؤهم ؛ وكان يستطيع بلسانه أن يصل إلى ما يتحرج من ذكره المتدينون . لقد كان يوماً يؤاكل ابن المادرانى الوزير وعنده هارون العباسى ، فقدمت هريسة ، فقال هارون أَكْثِرْ منها يا سيبويه فإنها تذهب بالوسواس من رأسك ؛ فكف سيبويه عن الطعام وأخذ يفكر ، فقالوا : فيم تفكر ؟ قال : أفكر فى امتناع إبليس عن السجود لآدم ، والآن ظهر عذره — علم إبليس أن هذا فى صلب آدم فلم يسجد له ، ولو عُرض على كلاب اليهود أن تسجد لنسمة هذا فى ظهرها ما فعلت .

ونحو هذا من أنواع الهجاء القاسى .

وهو مع هذا أديب ظريف ، له نظرات فى الأدب جميلة يقول : إن أفضل الكلام ما اعتدلت مبانيه ، وعذبت معانيـه ، واستسلس على ألسنة ناطقيه ، ولم يستأذن على آذان سامعيه .

وقد هجا بعضُ الناس شيخاً من شيوخه فقال سيبويه :

ما يَضُرُّ البحرَ أمسى زاخراً أنْ رَمَى فيه صبيٌّ بحجرْ

وسمع بيت المتنبى :

ومِنْ نكَدِ الدُّنيا عَلَى الحُرِّ أن يَرَى عَدُوًّا له ما مِنْ صَدَاقته بُدُّ

فقال : هذا كلام فاسد ، لأن الصداقة ضد العداوة ، ولو قال :

ومن نكد الدنيا على الحر أن يرى عدوا له ما من مداراته بد

لكان أحسن وأجود .

وبلغ المتنبي هـذا النقد فذهب إلى سيبويه وسمعه منه فتبسم وانصرف ، فصاح سيبويه : « انبكم ! » .

ومع هذا فلما سمع قول المتنبي :

ما كنتُ آملُ قبل نَعْشِكَ أَنْ أَرَى رَضْوَى عَلَى أَيْدِي الْأَنام تَسِيرُ الخ

صاح سيبويه : لبيك لبيك ! أنا عبد هذه الأبيات .

مما يدل على ذوق حسن ونقد صحيح وتقدير للأدب .

ولقـد كان عالى النفس ، دقيق الحس ، يرى الناس كلهم دونه ، فلا يذل لعظيم ، ولا يهين لـكبير . طلبه أنوجور بن الإخشيد أمير مصر لينادمه ، فقال : على شرط أن أنزل حيث تنزل ، وأركب حيث تركب ، وأجلس متكئاً . فأجابه إلى شرطه .

وكان سيبويه يُحدِّث عظيماً فجاء خادم يُسِرُّ حديثاً إلى هذا الجليس فسمع له وقطع الاستماع لسيبويه . فقام سيبويه مُغْضَباً ، فسأله : إلى أين ؟ قال : لا تجالسن من لا يرى مجالستك رفعة ، ولا تحدِّثن من لا يرى حديثك متعة ، ولا تسألن من لا تأمن منعه ، ولا تأمرن من لا تأمن طوعه .

ولما ماتت أم سيبويه حضر فى جنازتها كل كبير فى مصر إلا ابن المادرانى الوزير ، وعاد والناس حوله ، فأخذ سيبويه يطلق لسانه فى هجاء ابن المادرانى ، وما نجاه من لسانه إلا أن لقيه فى الطريق يأتى مسرعاً ليدرك الجنازة .

وعلى الجملة كان سيبويه طرفة مصر فى عصره علماً وأدباً وفكاهة

وجنونا — كان يقوم فيهم مقام العالم والواعظ والأديب ، ومقام الجريدة السيارة الناقدة اللذاعة ؛ وكان منظره بديعاً ، يدور فى الأسواق على حماره أو حمار غيره ، وما أكثر من كان يتقى لسانه بتقديم حماره !

فبحق قال « جوهر الصقلى » لما دخل مصر وذكرت له أخباره : « لو أدركْتُه لأهديته إلى مولانا المعز فى جملة الهدية » .

وبحق لما سمع به « فاتك » ممدوح المتنبى قال : « ذكرونى به لعلى أستدعيه فإنه نزهة » .

القلب

رمتنى آنسة « بأن لا قلب لى ، وإن كان فليس يخفق » لأنى كتبت موضوعا فى مجلة الرسالة عنوانه « أدب القوة وأدب الضعف » سميت فيه الأدب الذى يضعف النفس ويمرض العاطفة أدباً ضعيفاً مائعاً .

لك الله يا آنسة ! أفتدرين أنّ أشنع سُبة يسب بها إنسان : أنه لا قلب له ؟ وهل المرء إلا قلبه ؟

ليس الإنسان جسما بعضه القلب ، لكنه قلب غلافه الجسم .

لقد قالوا : « إن المرء بأصغريه قلبه ولسانه » ولكنهم — بقولهم — قد رفعوا من شأن اللسان إذ قرنوه بالقلب ، ووضعوا من قيمة القلب إذ قرنوه باللسان . وهل اللسان إلا حاكٍ بكىء لأحط حركات القلب وانفعالاته ؟ وكيف يعبر المُحْدَث عن القديم ؟ أم كيف يحيط المحدود باللامحدود ؟ وأين يقع معجم اللغة من معجم العالم .

إن القلب يقرأ ما رسمه الله على السماء والأرض من أشعار ، ولا يسمح منها للسان إلا بالقليل التافه ، وما الشعر الملفوظ بجانب الشعر المحسوس ؟ .

القلب لا يكذب أبداً واللسان لا يصدقُ إلا قليلا ،

لعلك يا آنسة إن فتشت عن أعجب ما خلق الله فى السماء وفى الأرض لم تجدى أعجب ولا أروع ولا أدق ولا أجمل من قلب الإنسان — تصلح أوتاره فيفيض رحمة وشفقة وحباً وحناناً ، ومعانى لطافاً وشعوراً رقيقاً ، حتى يتجاوز فى سموه الملائكة المقربين ؛ وتفسد أوتاره فينضح قسوة وسوءا حتى يَهْوِى إلى أسفل سافلين .

حوى على دقته كنه العالم ، فما أدقه وأجله ! وما أصغره وأعظمه ! .

يكبر — ولا نرى كبره — فيتضاءل أمامه كل كبير ، ويصغر — ولا نرى صغره — فيتعاظم عليه كل صغير .

اتحد شكل القلب واختلفت معانيه ؛ فقلب كالجوهر الكريم صفا لونه . وراق ماؤه ، يتلقى الإشعاع ويعكسه وهو على أشد ما يكون ضوءاً ولمعاناً ، وقلب كالصخر قوى متين ، ينفع ولا يلمع ، وقلب هواء ، خف وزنه ، وحال لونه ، وقلب . . . وقلب . . . مما لا يحصيها إلا خالقها . إن اتحدت عيون الناس وآذانهم ووجوههم ورءوسهم نوعاً من الاتحاد فإن لكل إنسان قلباً وحده ، ينبض بنوع من حب وكره ، وقسوة وحنان ، وإعظام واحتقار ، ورفعة وانحطاط لا يشركه فيه قلب آخر ؛ وبهذا — وبهذا وحده — اختلفت قِيَمُ الناس وتعددت مراتبهم .

يموت القلب ثم يحيا ، ويحيا ثم يموت ، ويرتفع إلى الأوج ، ويهبط إلى الحضيض ؛ وبينا هو يسامى النجوم رفعة ، إذا به قد لامس القاع ضعة ، وهكذا يتذبذب فى لحظة بين السماء والأرض والطول والعرض ؛ وخير الناس من احتفظ برفعة قلبه ، وسمو نفسه .

هو إن شئت فردوس ، وإن شئت جحيم ، هو إن شئت مَلَكٌ ، وإن شئت شيطان ، هو إن شئت نار تتقد بالحب :

هَلِ الوَجدُ إلا أنَّ قلبِيَ لو دنا ... من الجَمْرِ قِيدَ الرُّمْحِ لاحترق الجَمْرُ

وإن شئت سلا فكان برْداً وسلاماً :

وقلتُ لقلبى حين لَجَّ به الهوى ... وكلَّفنى مالا أُطيقُ من الحب
ألا أيُّها القلبُ الذى قادَهُ الهوى ... أفِقْ لا أقرَّ اللهُ عَيْنَكَ من قلبِ

القلب مركز العاطفة ، والرأس مركز العقل ، وما العقل لولا العاطفة ؟ إن

العقل أكثر ما ينفع للهدم ، والقلب أكثر ما ينفع للبناء ؛ إن القلب يؤمن والعقل يلحد ، والقلب يحب ، والعقل يحذّر .

القلب يؤسس العالم ، والعقل يسكنه ، والقلب يخلق الشيء ، والعقل يغصبه .

سلي التاريخ : أليس أعظم بناة العالم قد امتازوا بكبر القلب ، وصدق الشعور ، وقوة الإرادة ، أكثر مما امتازوا بسعة العقل وقوة الإدراك ؟

القلب بَنى البناء والعقل نَقَدَه ، والقلب أحيا الشعور والعقل حدّه .

هل تعلمين — يا آنسة — أن من وجد كل شيء وفقد قلبه لم يجد شيئاً ، وأن من جُرِّد من قلبه لا يعرف صداقة ولا يدين بوطنية ولا يشعر بحنان ، ولا ينطوى على إيمان ؟

أوتعلمين أن من سُلِب القلب فقد سُلب الفن والأدب ، لأن الفن مناطه القلب ، والعلم مناطه العقل ؟ وقد سئل مصور ماهر : كيف تمزج ألوانك ؟ فقال : أمزجها بدم قلبي ؛ وكذلك الأدب الحق ، هو ما كان ذوب القلب .

يا آنسة لقد رَمَيْتِ فأصْمَيْتِ ، ولشد ما خفق قلبي لسُبتك ، كأنه يريد أن يثبت وجوده

الجامعة كما أتصورها

للجامعة — كما أتصور — وظيفتان : وظيفة علميــة ووظيفة خلقية ، وكلتا الوظيفتين متصــلة بالأخرى أتم اتصال ؛ فالضعف العلمى يتبعه ضعف خلق والعكس ، كما أن القوة العلمية تتبعها قوة خلقية والعكس .

فمن الناحية العلمية أرى أن وظيفتها تخالف الوظيفة العلمية للمدارس الابتدائية والثانوية ؛ ففيهما توجه العناية إلى وسائل التعليم أولاً ، وكمية من العلم أثبت العلم صحتها ثانياً . أما فى الجامعة فوسائل التعليم فيها ثانوية ، وإنما القصد الأول إلى البحث العلمى ووضع القضايا العلمية والأدبية موضع البحث والنظر ؛ من أجل هذا لا يمكنك أن تتصور مدرسة ابتدائية أو ثانوية من غير طلبة ، لأنه لا يمكن تعليم من غير متعلم ؛ ولـكن يمكننى أن أتصور دراسة فى كلية أو جامعة من غير طلبة ، وذلك بعكوف طائفة من العلماء ومساعديهم يبحثون وينقبون — بل ولو كان هناك طلبة فالجزء الأهم من الجامعة لا يُقْضى بين الفصول ، ولـكنه يقضى فى مكاتب الأساتذة والمـكاتب العامة والمعامل .

وقديماً قالوا : « العلم لا يعطيك بعضه إلا إذا أعطيته كلك » وهذا أكثر انطباقاً على العلم الجامعى والبحث الجامعى .

فأستاذية الجامعة — كما أتصورها — نوع من الرهبنة ؛ فكما ينقطع الراهب للعبادة فى دير ينقطع الأستاذ للعلم وخدمته ، أو بعبارة أخرى إن الراهب يعبد الله عن طريق الصوم والصلاة ، وهذا يعبده عن طريق العلم أيضاً .

فإذا شُغل الراهب بالمـال وطرق تحصيله وحب الشهرة والرياسة والجاه فهو راهب فسد ، كذلك العالم إذا شغلته العلاوات والدرجات وحب الشهرة والجاه

فهو عالم فسد ؛ إنما يجب على الأمة والحكومة أن توفرا له وسائل راحته الضرورية التي تتناسب مع تفرغه للعلم وتضحيته لذائذ الحياة من أجل العلم ، فإن هو بعد ذلك ضل عن منهجه العلمى فاللوم عليه .

هذا العالم — فى هذا الوضع — قد وطّن نفسه على خدمة العلم ، وخدمة الأمة من طريق العلم ، وخدمة الإنسانية من طريق العلم ، لا غرض له فى الحياة إلا ذلك ؛ العلم مثله الأعلى ، والعلم لذته العظمى ، والعلم يشغل أهم جزء فى مخه ، فى أكله وشربه وراحته ورياضته وأحياناً فى نومه ؛ هو يحب الحقيقة كما أحب المجنون ليلى ؛ يرى أنه لا يخفف آلام الإنسانية إلا الإخلاص فى الفكر ، والإخلاص للعلم ، ومواجهة الحقائق كما تبدو له ، كائنة ما كانت ولو خالف الناس جميعاً .

من أجل هذا كله تتطلب حياته الاستقلال التام ، بل إن الاستقلال له ألزم من الاستقلال السياسى ، لأن العلم لا يمكن أن ينهض إلا إذا كان حرا ؛ والعالم لا يعد عالماً إلا إذا عشق الحق ، سواء كان ما اعتقده حقيقةً يرضى الحكومة أو لا يرضيها ، يرضى السياسة أو لا يرضيها ، يرضى الآراء الشائعة أو لا يرضيها . إن كانت السياسة تعترف بأن من وسائلها المشروعة تقريبَ وجهات النظر فالعلم لا يعرف ذلك ، إنما يعرف أن هذا أسود أو أبيض ولا شىء غير ذلك . أما أن يكون أغبش فلا — لا يبيع رأيه بمال ولا بجاه ولا بمنصب بل ولا بالدنيا كلها بل ولا بحياته ، فكثير ضحوا حياتهم لنظريتهم العلمية .

هذا ما أتصوره فى الأستاذ الجامعى ، فإن انحرف عن هذا النهج لم يكن أستاذاً بحتاً ، بل كان أستاذاً وتاجراً ، وكل ما فى الأمر أنه تاجر بعلمه والآخر تاجر بسلعته ؛ بل هو شر من التاجر البحت ، لأنه اتخذ من العلم سلعة فقابَ الوضع وتاجَرَ فى غير متجر .

مثل هذا الأستاذ عزيز ، وإذا ظفرنا بواحد من هذا الصنف فى كل بيئة جامعية ضمنا نجاحها ، لأنه إذ ذاك يصبح مناراً يهتـدى به المدرسون والطلبة فى الظلمات ؛ هو مثل حى للتضحية ، ومثل حى فى سمو الخلق ، ومثل حى لغلبة المعنويات على الماديات ، هو خير على العلم والخلق جميعاً .

هناك عامل آخر فى البناء الخلقى الجامعى يعين الأستاذ على تحقيق مثله ، هو الجامعة كـكل ، ممثلة فى مجالس كلياتها ومجلس جامعتها ومديرها و إدارتها .

وهى أن تكون متمشية مع الأستاذ فى استقلاله ، تعمل الواجب بقطع النظر عن كل اعتبار آخر ، لا تخدم إلا شيئين : العلم والخلق ، ليست تخدم حزباً سياسياً ، ولا تخدم رغبة وزير ؛ إنما تخدم العلم كعلم عالمى لا وطن له ، وتخدم الخلق كخلق إنسانى ؛ فإن كان ولا بد من حصر هذه الدائرة الخلقية فإنها تخدم أمتها كـكل ، تتخذ لنفسها مركز النجم فى السماء يسترشد به السارى ، سواء أكان مؤمناً أم كافراً ، وسواء أكان لونه السياسى أبيض أم أسود ، تعتقد أنها الجامعة المصرية لا الجامعة السياسية الحزبية ؛ فإذا هى موضع التقديس من كل حزب ، وموضع الإكبار من كل هيئة ؛ ومتى اتخذت هـذا الوضع كانت كل العواصف السياسية والحزبية تهُبّ بعيداً عنها ولا تلمسها ، تهب حولها لا عليها ؛ فإن أريد منها أن تتنحى قِيدَ شعرة عن هذا النهج قال كل من فيها « لا » بملء فيه ، حرة فى معالجة مسائلها ، حرة فى وضع برامجها ، حرة فى تصريف مالهـا فى حدود ميزانيتها ، حرة فى معالجة مشكلاتها كما يتراءى لها ؛ قد تخطئ فى ذلك ولـكنها تتعلم من الخطأ كما تتعلم من الصواب ، وتسترشد بضلالهـا كما تسترشد بهدايتها ، وهى بهذا تنمو من الداخل لا تنمو من الخارج ، تكون كالإنسان يكبر ويترعرع من الأكل الصـحى والهواء الصحى ، لا كإنسـان يضخم بكثرة الملابس عليه .

إن الجامعة إن فعلت ذلك كانت مثلا للطلبة يحتذى فى تصرفاتهم . إنهم يخجلون أن يتحزبوا إذا كان كل الجو الجامعى حولهم لا يتحزب . إنهم يعودون إلى آبائهم الروحيين إذا لعبت بهم الأهواء . إنهم يسمعون نبضات قلوب أساتذتهم كما يسمعون دقات ساعاتهم ، يضبطون بأعمال أساتذتهم أخلاقهم كما يضبطون على ساعة الجامعة ساعاتهم . أما إن عكس الوضع وسَيّر الخارجُ الأساتذة وسير الطلبة الأساتذةَ والخارجَ ، كان ذلك هرماً مقلوباً أو كان رجلا يمشى على رأسه ، أو كان ضبطاً لساعة المرصد على ساعة رجل الشارع ، وفى ذلك إنذار بالخيبة .

بجانب أستاذ الجامعة وهيئة الأساتذة والإدارة عامل آخر كبير من عوامل الخلق الجامعى ، هو تكوين رأى عام بين الطلبة يشعر بالواجب ويقدر المسئولية ؛ وأعتقد أن تسعين فى المائة من زلات الطلبة ترجع إلى فِقدان هذا العامل الهام ؛ فلو أن هناك رأياً عاما يحتقر الطالب إذا كلم فتاة كلمة نابية أو نظر إليها نظرة شاذة فهل يجرؤ الطالب على ارتكاب هذا الخطأ ؟ وإذا كان الرأى العام بين الطلبة يحتقر الكاذب ويحتقر المستهتر ويحتقر الهازل فما أعظم الإصلاح الذى يرجى من وراء ذلك !

إن معظم الزلات الخلقية من الطلبة لاتقع تحت سلطان القانون ، فليس القانون يؤاخذ على كذبة ولا نظرة نابية ولا كلمة جارحة ولا ضحكة مستهترة ولا نحو ذلك من الشرور ؛ إنما يترك ذلك كله للرأى الجامعى يعاقب عليه بالازدراء والاحتقار والمقت ؛ فما لم يوجد رأى عام من هذا القبيل واكتفى بالقانون فلا أمل فى النجاح .

لا بد من الإكثار من اجتماع الطلبة بمناسبات مختلفة يتعرضون فيها للخطأ ، ويهيأ الرأى العام فيها للنقد على هذا الخطأ ، حتى يتبلور الرأى العام ويأخذ سبيله فى سلطانه على النفوس — يجب أن يعوّدوا أن يحكموا أنفسهم بتكوين قضاة منهم يحكمون على زلاتهم وينفذون قضاءهم بأيديهم وألسنتهم ؛ بهذا يسود فى

الطلبة الشعور بالشرف والندم على الهفوة — يجب أن يكون للجامعة تقاليد قد أسست على قانون الشرف، يخشى كل طالب من كسرها كما يخشى من ارتكاب السرقة أو الخيانة.

حكى لى أستاذى المرحوم عاطف بركات باشا أنه لما سافر فى بعثة إلى جامعة من جامعات إنجلترا، وكان حديث عهد بها، دخن فى حجرة كان التدخين فيها محرماً، فمر بعض رجال الجامعة فى هذه الحجرة وشم رائحة الدخان، فسأل: مَن المدخن؟ فلم يجب أحد ولا عاطف بركات، فتركهم الأستاذ وانصرف. قال عاطف باشا: فأحسست أن كل من حولى من الطلبة ينظرون إلىّ نظرة فيها شئ كثير من الاحتقار. فمن ذلك اليوم عظم شأن الصدق فى نفسى واستفظعت غلطتى ولم أعد بعد إلى مثلها.

ومما يتصل بهذا بث الروح بين الطلبة بشدة ارتباطهم بكليتهم؛ فيفخرون بأستاذهم الشهير بعلمه ومؤلفاته، ويفخرون بالنابغة فيها من أساتذتهم وطلبتهم، وبانتصار كليتهم فى الألعاب وفى جميع أفعال البطولة وفى ميادين الأعمال الشريفة؛ ويستهجنون أعمال النذالة والسلوك الوضيع، وعلى الجملة يشعر كل طالب بأنه جزء من كل، يعتز بعزة الكل ويهون بهوانه.

***

أستاذ صالح يقوم مقام المنارة فى الكلية، وهيئة صالحة من الأساتذة والإدارة، ورأى عام من الطلبة له سلطان على نفوسهم، هى أهم ما أرى من عوامل الإصلاح للخلق الجامعى والعلم الجامعى.

سلطة الآباء

رحم الله زماناً كان الأب فيه الآمر الناهى ، والحاكم المطلق ، والملك غير المتوج ؛ ينادى فيتسابق من فى البيت إلى ندائه ، ويشير فإشارته أمر ، وطاعته غنم ؛ تحدثه الزوجة فى خفَر وحياء ، ويحدثه الابن فى إكبار وإجلال ؛ من سوء الأدب أن يرفع إليه بصره ، أو يردّ عليه قوله ، أو يراجعه فى رأى ، أو يجادله فى أمر . أما البنت فإذا حدثها لف الحياء رأسها ، وغض الخجل طرفها ؛ قليلة الكلام متحفظة الضحك ، خافضة الصوت ، تتوهم أنها أخطأت فى التافه من الأمر فيندَى جبينها ، ويصبغ الخجل وجهها ؛ وإذا جاء حديث الزوج والزواج فإلى أمها الحديث لا إلى أبيها ، وبالتلويح والتلميح لا بالتصريح ، والأمر إلى الأب فيما يقبل وفيما يرفض ، وفيما يفعل ومالا يفعل .

فى جملة الأمر أن البيت ينقسم إلى قسمين : حاكم وهو الأب ، ومحكوم وهو سائر الأسرة ، منه الأمر ومنهم الطاعة ، له السيادة وعليهم الخضوع ، يرسم الخطط وهم ينفذونها ، يجلب الرزق ويتولى الإنفاق وهم يسيرون على ما رسم ، وويل لمن عارض أو تبرم ! فإن أحس الابن حاجة ملحّة إلى مال ، أو شعر بضرورة ملجئة إلى أكثر مما أخذ ، لم يجرؤ أن يجابه بالطلب ، إنما يحاور ويداور ويلمح ويرمز ؛ فإن أعياه الأمر وسَّط الأم لعلها تستطيع أن تعبر تعبيراً أوضح وأصرح ، وقل أن تنجح .

وبجانب سلطة الأب الدنيوية كانت سلطته الدينية . فهو يوقظهم قبل الشمس ليصلوا الصبح أداء لا قضاء ، ويسائلهم فى أكثر الأوقات عن صلاتهم كيف صلوا ، وعن وضوئهم كيف توضأوا ، يعلّم الجاهل ويقوّم المتعلم ، ويجمعهم حوله

من آن لآن يصلى بهم ، ويذكرهم ويعظهم ، ويقص عليهم قصص الأنبياء ، وحكايات الأولياء والصالحين . وإن أنْسَ لا أنسَ جمال المواسم الدينية — كيوم نصف شعبان ، إذ تشعر فى البيت من الصباح بحركة غير عادية : هذه ترتب البيت ، وهذه تعد الأكل الحافل ، ويتهيأ الجميع قبل الغروب استعداداً لصلاة المغرب ، قد لبس النساء البياض ؛ وتقنعن بالشاش الأبيض ، وإذا رب البيت يؤم جميع من فى البيت ، ثم يُخرِج دعاء نصف شعبان من جيبه ويتلوه عليهم ، يقول جملة فيرددونها ، ويبتهل معهم إلى الله أن يسعده ويسعدهم ، ويصلحه ويصلحهم ، ويبارك له فى ماله وفى نفسه وفى ذريته ، ثم يأخذون حظهم لبطونهم ، كما أخذوا حظهم لأرواحهم ، وشملتهم السعادة ، وعمهم البشر والهناءة .

***

لقد ودعْنا ذاك الزمان بخيره وشره ، وحلوه ومره ، واستقبلنا زماناً صار فيه الأبناء آباء ، والمرءوس رئيساً والرئيس مرءوساً .

قالت الخطيبة لخطيبها : الناس أحرار ، وأنا إنسانة وأنت إنسان ، فإن اعتززْتَ بالكسب اعتززتُ بالإنفاق ، وإن اعتززتَ بالرجولة اعتززتُ بالأنوثة ، وإن اعتززت بأى شىء فأنا أعتز بمثله وبخير منه ؛ فأنا وأنت شريكان لا سيد وأمة ، ولا مالك ومملوك ، لى كل الحقوق التى لك ، وقد يكون علىَّ بعض الواجبات التى عليك ؛ فإن سفرتَ سفرتُ ، وإن غشيتَ دور الملاهى غشيتُها ؛ عليك أن تحصّل المال وعلىَّ الإنفاق ، ولك السلطان التام فى اختيار طرق التحصيل ، ولى الخيار التام فى وجوه التبديد . أنت للبيت والبيت لى ؛ إن كان لك أمّ فقد شَبِعَتْ سلطة فى الماضى أيام كانت زوجة ، فلا حق لها أن تنعم بسلطانها وسلطان غيرها ، فليس لها الحق إلا أن تأكل ، كما ليس لك الحق فى حبها ؛ فالحب كله للزوجة ، إنما لك أن ترحمها . والدين لا شأن لك فيه بتاتاً ،

فهوَ علاقة بين العبد وربه ؛ وكل إنسان حر أن يحدد هذه العلاقة كما يوحى إليه قلبه ؛ فإن شئت أنت أن تتدين فتديَّنْ ، على شرط ألا تقلب نظام البيت ، وتقلق راحتى وراحة الخدم .

ورأى الرجل أن الأحكام قاسية ، والشروط فادحة ، وهام يبحث بين المدنّات عمن يرضى به زوجاً على الشروط القديمة فأعياه البحث .

وأخيراً نزل على حكم القضاء ، وأسلم نفسه لسلطان الزمان ، وقدم الطاعة للزوجة ، بعد أن كانت هى تقدم الطاعة له ، ولا يزال فى دار الآثار فى المحاكم الشرعية قضايا اسمها قضايا الطاعة ، يحكم فيها للأزواج على الزوجات ، حفظ شكلها و بطل روحها ؛ ولو كانت المحاكم محاكم عصرية لحكمت بالطاعة على الزوج لزوجته وحكمت بالنفقة على الزوجة لزوجها .

وتم الزواج ، وفرحت الزوجة بالظفر فغالت فى الطلب ، وابتدعت كل يوم مطلباً جديداً ، وأرادت أن تنتقم لأمهاتها من آبائه فى شخصه ، فطالما أطَعْن وطالما خضعن ، فليطع دائماً وليخضع دائماً ، جزاء وفاقاً على ما جنى آباؤه وأجداده .

قالت : إن رقصتَ رقصتُ ، فذلك حقك وحق . قال : نعم . قالت : بل إن لم ترقص رقصتُ لأنك إن أضعت حقك لم أُضع حقى ، وإن خالتَ خالتُ فالجزاء من جنس العمل ، بل إن لم تخالل ربما خالت ، لأن حياة الزوجية البحتة قد يعتريها الركود والسأم والملل ؛ فصرخ ولفَّ الغضبُ وجهه ، وحاول أن ينكل بها فتراجعت ، وسجلت مطلبها الأخير ، ورأت الحكمة أن تتريث بعض الشىء حتى يبلع ريقه من أثر الصدمة الأولى ، ويستعد للصدمة الثانية ، فإن لم يسعفها الزمان أوصت بناتها بشروطها الجديدة .

قالت : وسيكون أول ما أوصى به ابنتى أن تتخذ قياس خطيبها ، ثم

يكون من أول جهازها أن تفصل له بَرذَعَة ولجاماً على قدره ، فتضع البردعة عليه وتركبه إذا شاءت ، وتشكمه باللجام إذا حاول أن يتحرك يميناً أو شمالا على غير رغبتها .

***

وشاء الله أن يُرْزَقا بنين و بنات .

وقد رأوا أن الأم لا تُجِل الأب فلم يُجِلّوه ، ولم تُعره كبير التفات فلم يعيروه ، ورأوها تبذر فى مال الأب فبذروا ، ورأوها حرة التصرف فتحرروا ، ورأوها تخرج من البيت من غير إذن الأب فخرجوا خروجها ، وتعود متى شاءت ففعلوا فعلها ، ورأوها لا تتدين فلم يتـديـنوا ، ورأوها تطالب الأب ألّا يفتح رسائلها فطالبوا ، ورأوها تتكلم فى المسائل الدقيقة أمام أبنائها و بناتها فى صراحة فتفتحت شهواتهم ، وتحركت رغباتهم وجمحت تخيلاتهم .

وقال الأبناء لأبيهم : إنا مخلوقون لزمان غير زمانك فاخضع لحكم الزمان ، وقد نشأنا فى زمن حرية فى الآراء ، وحرية فى الأعمال ، وحرية فى التصرف ، لا كما نشأتَ فى جو من الطاعة والقيد والأسر والتقاليد ، فمحال أن يسع ثوبك الضيّق أبداننا ، وتقاليدك العتيقة البالية نفوسنا ، فإن حاولت ذلك فانما تحاول إدخال الثور فى قارورة ، أو لف القصر الـكبير بمنديل صغير ! قال : نعم . قالوا : وأنت الذى سمح لنا بادئ ذى بدء أن نغشى دور السينما والتمثيل ، وأن نسمع الأغانى البلدية ، ونشاهد المراقص الأوربية ، فاذا أقررت المقدمة فلا تهرُب من النتيجة . وأنت الذى عودنا ألا نضع للبيت « ميزانية » فأنت تعطى « ماهيتك » لأمِّنا تنفق من غير حساب ، فان انتهت فى نصف الشهر طلبَتْ منك أن تقترض فاقترضت ، وأن تشترى ما لا حاجة لنا به فاشتريت ، وأن تقدم الـكمالىّ على الضرورى فأطعت ؛ فليس لك أن تطالبنا بالاقتصاد فى الجدول الصغير ، والنهر

الكبير ليس له ضابط . وخُرْقٌ أن تحاول أن تضع ميزانية دقيقة لمصلحة ، وميزانيةُ الدولة مبعثرة ! قال : نعم . قالوا : وقد أضعت سيادتك على أمنا فلِمَ تفرض سيادتك علينا ؟ ورضيت بالخضوع لها فلِمَ تأباه علينا ، وهى أم الحاضر وأنت أبو الماضى ونحن رجال المستقبل ؟ قال : نعم . قالوا : وأنت نشأت فى زمن خضوع تام : خضعت لأبيك فى المهد صبيا ، وخضعت للفقيه فى المكتب وللمدرس فى المدرسة ، فإذا قلت برأسك هكذا ، قال الأستاذ بعصاه هكذا ، فنكست رأسك ، وغضضت بصرك ، وأسعفتك عينك بالبكاء ، ولم يسعفك لسانك بالقول ؛ فلما صرت « موظفا » وقفت من رئيسك موقفك من أبيك وأستاذك ، تنفذ دائما وتطيع دائما ؛ ولم يجرِ على ذهنك يوما تفكير فى استقلال ، ولا على لسانك نداء بحرية . أما نحن فحريتنا فى بيتنا حرَّرَتْنَا على أساتذتنا ، وناديناا بالحرية القومية فتبعتمونا فى شىء من الرياء ، تظهرون الطاعة لرؤسائكم ، وتبطنون الرضا عن حركاتنا ، وتريدون أن تجمعوا بين الحرص على ماهيتكم والحرص على وطنيتكم المكبوتة . قال : نعم . قالوا : فلما قدناك وقدنا رجالنا فى السياسة فلنقدكم جميعاً فى كل شىء : فى البيت وفى المال وفى العلم وفى رسم الخطط ، ولنقلب الوضع فنكون قادة وتكونوا جنوداً ، وإلا لم نرض عنكم جنوداً ولا قادة .

وقالت البنات لأبيهن :

يا أبانا الذى ليس فى السماء ! رقَصتْ أمنا فرقصْنا ، وشربت أمنا فشربنا ، وشربتْ سراً فلتسمح لنا بحكم تقدم الزمان أن نشرب جهراً ، ورأينا فى روايات السينما والتمثيل حباً فأحببنا ، ورأينا عريا على الشواطئ فتعرينا ، وتزوجت أمنا بإذن أبيها فلنتزوج نحن بإذننا . قال : نعم . قلن : وقد أوصتنا أمنا أن نركب الزوج ، ولكننا أمام مشكلة يشغلنا حلها . فإنا نرى شبان اليوم متمردين لا يخضعون خضوعك ولا يستسلمون استسلامك ، فإرادتهم قوية كإرادتنا ، وهم يحبون

السلطة حبنا ؛ فهم أحرار ونحن حرائر ، وهم مستبدون ونحن مستبدات ، فكيف نتفق ؟ هل يمكن أن يبقى البيت بعدة استبدادات ؟ ولكن لا بأس يا أبانا ! هل البيت ضرورة من ضرورات الحياة ؟ أو ليس نظام الأسرة نظاماً عتيقاً من آثار القرون الوسطى ؟ قال : نعم . قلن : على كل حال فيصح أن يجرّب جيل النساء الجديد مع جيل الرجال الجديد ، فان وقع ما خشينا عشنا حرائر وعاشوا أحراراً ، وطالبنا بتسهيل الطلاق و بهدم المحاكم الشرعية على رءوس أصحابها ، وتعاقدنا تعاقداً مدنيا . قال الأب : وماذا تفعلن بما ترزقن من أبناء و بنات ؟ قلن : لك الله يا أبانا ! إنك لا تزال تفكر بعقل جدنا وجدتنا ! لقد كنت أنت وأبوك وجدك تحمّلون أنفسكم عناء كبيراً فى التفكير فى الأولاد ، وتضحّون بأنفسكم وأموالكم فى سبيلهم ، وتعيشون لهم لا لكم . أما عقليتنا أهل الجيل الحاضر فأن نعيش لأنفسنا لا لغيرنا . لقد ضحك عليكم الدين والأخلاق ففهمتم أن الواجب كل شىء ، وكشفنا اللعبة ففهمنا أن اللذة كل شىء ، فنحن نمنع النسل ، فاذا جاء قسراً فليعش كما يشاء القدر ؛ ولنقدم حظنا على حظه ، وسعادتنا على سعادته ، ولا نفكر فيه طويلا ، ولا يتدخل فى شؤوننا كثيراً ولا قليلا .

قال الأب : وأمر المال كيف يدبَّر ؟ كيف تعشن أنتن وأولادكن إذا كان طلاق وكان فراق ؟ قلن : هذا ظل آخر ظريف من ظلال تفكيرك ، دع هذا يا أبانا والبركة أخيراً فيك

***

أما بعد فقد خلا الأب يوماً إلى نفسه ، وأجال النظر فى يومه وأمسه ، فبكى على أطلال سلطته المنهارة ، وعزته الزائلة ، ورأى أنهم خدعوه بنظرياتهم الحديثة ؛ وتعاليمهم الجديدة — قال : لقد قالوا إن زمان الاستبداد قد فات ومات ، فلا استبداد فى الحكومة ، ولا استبداد فى المدرسة ، فيجب ألا يكون

استبداد فى البيت ؛ إنما هناك ديمقراطية فى كل شىء ، فيجب أن يكون البيت برلماناً صغيراً يسمع فيه الأب رأى ابنه ورأى بنته ورأى زوجه ، وتؤخذ الأصوات بالأغلبية فى العمل وفى المال وفى كل شىء ؛ وقالوا تنازلْ عن سلطتك طوعاً ، وإلا تنازلتَ عنها كرهاً ، وقالوا إن هذا أسعد للبيت ، وأبعث للراحة والطمأنينة ، وقالوا إن هذا يخفف العبء عنك ، فنحن نقسم البيت إلى مناطق نفوذ : فمنطقة نفوذ للمرأة ، وأخرى للرجل ، وثالثة للأولاد ، وكلهم يتعاونون فى الرأى ويتبادلون المشورة . سمعت وأطعت فماذا رأيت ؟ رأيت كل إنسان فى البيت له منطقة نفوذ إلا شخصى ، ولم أر البيت برلماناً ، بل رأيته حماما بلا ماء ، وسوقاً بلا نظام ، إن حصلتُ على مال أرادَتْهُ المرأة فستاناً ، وأرادته البنت بيانو ، وأراده الابن سيارة ؛ ولا تسل عما يحدث بعد ذلك من نزاع وخصام . وإن أردنا راحة فى الصيف أردت رأس البر لأستريح ، وأرادت الأم والبنت الإسكندرية قريباً من ستانلى باى ، وأراد الابن أوربا ؛ إلى ما لا يحصى ، ولا يمكن أن يستقصى ؛ وأخيراً يتفقون على كل شىء إلا على رأيى . فوالله لو استقبلت من أمرى ما استدبرت ما تزوجت ، فان كان ولا بد ففلاحة صعيدية ، لم تسمع يوماً بمدنية ، ولم تركب يوماً قطاراً إلى القاهرة والإسكندرية ، لها يد صناع فى عمل «الأقراص» ورأس صناع فى حمل «البلاص» .

أيتها الزوجة ! ويا أيها الأبناء والبنات ! ارحموا عزيز قوم ٍ ذلّ !

والراديو أخيرا !

نشأتُ فى حى وطنى ، لم يأخذ من المدنيــة الحديثة بحظ قليل ولا كثير ، يعيش أهله عيشة وادعة هادئة بطيئة ، لم تتغير عن معيشة القرون الوسطى إلا قليلا ، ولم تنقطع الصلة بينهم و بين آبائهم وأجدادهم ؛ إذا عرضت عليهم صفحة من حياة مصر قبل بضع مئات من السنين فهموها حق الفهم ، وقرءوها فى أنفسهم وفى معيشتهم ، فكانت الصلة بينى و بين سكان القاهرة فى عهــد الفاطميين أو الأيو بيــين أو المماليك أقربَ من الصلة بين ابنى وعهد إسماعيل ؛ فالحياة فى السنين الأخيرة غَيَّرت سكان المدن تغييراً كبيراً ، ونقلتهم نقلة مفاجئة سريعة ، حتى ليحملق الطفل فى عينك استغراباً إذا حدثته بحديث يتصل بالحياة الاجتماعية فى عهد جده أو جدته ، و يرى كأن الدنيا خلقت خلقاً جديداً .

كانت حارتنا تمثل طبقات الشعب المختلفة : يسكنها البائع الجوال ، يظل نهاره وشطراً من ليله متنقلا فى الحارات والشوارع ، ينادى على البلح فى موسم البلح ، والخيار فى موسم الخيار . وأسرته وأقار به يعيشون جماعات فى بيت كبير عيشة بائسة تعسة ، كل جماعة فى حجرة .

وطائفة من الموظفــين من رئيس قلم فى وزارة الأوقاف ، وكاتب فى وزارة الأشغال يمثلون الطبقة الوسطى فى حياتهم الاجتماعية والمدنية .

و بيت أرستقراطى واحد ، كان ر به نائب المحكمة الشرعية العليا ، وكان متقدماً فى السن ، عظيم الجاه ، وافر المال ، له الخدم والحشم ، يرهبه الـكبير ، والصغير ، وله عربة فخمة ، تضرب خيولُها الأرض بأرجلها فتملأ القلوب هيبة ؛ وكان كل سكان الحارة يسمونه « الشيخ » من غير حاجة إلى ذكر اسم ،

فالشيخ ركب ، والشيخ جاء ، وعند بيت الشيخ — وكان الشيخ نعمة على الحارة ، فلا تستطيع امرأة أن ترمى ماء قذراً أمام بيتها خوفاً من الشيخ ، ولا يستطيع قوم أن يرفعوا أصواتهم فى السباب والنزاع خوفاً من الشيخ ؛ ولذلك امتازت حارتنا عن مثيلاتها وعما يجاورها بالنظافة والهدوء .

كان بين سكان الحارة رابطةٌ تشبه الرابطةَ بين أفراد القبيلة ، يعتز الأولاد بحارتهم ويهتفون بها فى النداء ، ويكون بينهم و بين أولاد الحارة الأخرى منافرة فيحتكمون إلى القوة ، و يعتز ون بالناشئ الشجاع يظهر بينهم يذود عنهم ، ويجلب النصر لحارتهم — ويرعى سكان الحارة حق الجوار بأدق معانيه ، يعودون أحدهم إذا مرض ، ويهنئونه إذا عوفى ، و يواسـونه فى مأتمه ، ويشاركونه فى أفراحه ، وهم فى ذلك سَوَاسِيَة ، لا يتعاظم غنىٌ لغناه ، ولا يتضاءل فقير لفقره .

وكان لـكل بيت من بيوت الطبقة الوسطى منظرة (مندرة) لاجتماع الأصـدقاء فى إحداها . فيسمرون فيها السمر الحلو اللطيف ، وأحياناً يجتمعون فيحلو لهم العشاء معاً فيرسل كلٌ رسولا إلى بيته يحضر منه خير ما عنده ، وأحياناً يحيون الليلة فى سماع قرآن أو حفلة طرب ؛ ولحسن حظى كان بجوار بيتنا موظف فى الأوقاف يهوَى الناى ويتقنه ، فـكان كثيراً ما يحيي أصدقاؤه فى منظرته حفلات شائقة بديعة ، إليها يعود الفضل فيما لى من أذن موسيقية ، وميل لسماع الغناء والافتتان به .

* * *

كان من المناظر التى لا أنساها طائفة من الرجال ، قد لبس كل منهم على جلبابه الأزرق ميدعة من الجلد ، يحمل القربة على ظهره ويمشى بها فى ركوع ، وهم يغدون فى الحارة و يروحون ، ينادى أحدهم بعد أن يُفرِغ قربته فى الزير : « سقا عوّض » ، وهى كلمة كنت أفهم منها المناداة على الماء ، ولـكن ما كنت

أفهم معناها تفصيلا ، بل لعلنى لم أفهمه إلى الآن . فاذا سمعته سيدة أطلتْ من الشباك وأمرته أن يأتى لها بقربة حلوة أحيانا ، ومالحة أحيانا ، وربما تصنعت فى مناداتها فرققت من صوتها وتدللت فى نغمتها ، فكانت فتنة للسامعين .

وكثيرا ما طال النزاع بين السقاء وربة البيت ؛ فهو يقول إن القِرَب صارت سبعا ، وهى تأبى إلا ستا ، ويطول الحوار والجدل والقَسَمُ بالأيمان ، وأحيانا يتفادى السقاء هذا الجدل بطريقة من طريقتين : إحداهما أن يوزع خرزا من نوع خاص على صاحبة البيت عشرا عشرا ، أو عشرين عشرين ، وكلما أتى أخذ خرزة ، فإذا فرغ الخرز علم أنه تم العدد فأخذ حسابه . وثانيتهما أنه كلما أتى بقربة خط على الباب بحجر أبيض خطا — ولم يكن يعرف الطباشير ولا كتابة الأرقام — وأحياناً يتهم السقاء ربة البيت بأنها مسحت خطا ، وأحياناً تتهمه هى أنه خط خطين لقربة واحدة ، فاذا تكرر مثل ذلك أبى السقاء معاملة هذا البيت إلا أن يأخذ نصف القرش ثمن القربة الحلوة قبل أن يتحرك من مركزه أمام باب الحارة .

وفى يوم من الأيام حول سنة ١٩٠٠ رأيت الحارة قد مزقت وحفرت فيها الحفر طولا وعرضاً ، ومُدّت المواسير وأدخلت فى بيتنا الحنفية واستغنينا عن السقاء ، وأراحنا الله من سماع النزاع حولنا ، وأصبح الماء فى كل طبقة من بيتنا ، فى أسفله وأوسطه وأعلاه ، وشعرت أن البيت قد دبت فيه الحياة . فالله يقول : « وجعلنا من الماء كلّ شيء حى » . وما أنْسَ لا أنس خادما أتت منزلنا إذ ذاك من قرية من قرى الفلاحين فعَجِبَتْ أشد العجب من الماء يخرج من الحائط ثم لا ينقطع إلا إذا شئنا ، وحارت فى تعليل ذلك ، وأظنها حائرة إلى اليوم إن كانت على قيد الحياة .

***

وألفنا الماء يخرج من الحائط ، وذهب الإلف بالعجب ، ولكن ظللنا نستضىء بالجاز ، وهو ما يسميه سادتنا العلماء زيت البترول ، وكان لمضايقاته أشكال من العذاب وألوان ، فيوما ضُرِبْتُ لأنى أرسلت لأشترى زجاجة لمبة فكسرت منى فى الطريق ، وكثيراً ما فسد مفتاحها ، فإذا أدرناه يميناً أخذ يرتفع اللهب ثم يرمينا بالهباب ، وإذا أدرناه شمالا أخذ يهبط حتى لا نرى ، وهكذا دواليك ، حتى يضيق الصدر ونذهب إلى النوم قبل الموعد . وكثيرا ما نكون فى سمر لذيذ أو حديث ظريف أو قراءة مُلِحّة ، ثم نسمع الزجاجة كسرت فينكسر قلبنا لأن الوقت ليس وقت بيع وشراء ، أو ننظر فإذا الجاز قد فرغ ولا جاز لنا !

ثم رأينا الأسلاك تحزم البيت ، وتحزم كل حجرة فيه وتدخل بيتنا الكهربا ، فندير المفتاح مرة فتضىء الحجرة ، ونديره مرة فتظلم . وأبى الله إلا أن يرزقنا هذه المرة أيضاً بخادم خطبت فى قريتها وأرادت السفر لتتزوج ، فطلبت منا أن نعطيها لمبة من اللمبات الكهربائية أو لمبتين لتنيرهما فى حجرتها ليلة زفافها ؛ وكان لهذه الخادم فصل أظرف من هذا وألطف ؛ فقد نظرت أول ما أتت من قريتها إلى السقف فلم تر فيه عروقا تحمل ألواح الخشب (لأنه كان من الأسمنت المسلح) فصعدت إلى السطح لتحقق الأمر لعل السقف مقلوب ، ولعل العروق من فوق والأخشاب من تحت ، فلما لم تر عروقاً فوق ولا تحت ، أحست بالخيبة فى تعليلها ، وفوضت إلى الله أمرها ! . .

***

ثم دار الزمن دورته وإذا بعامل يأتى ليحزم البيت من جديد ، وإذا بالأسلاك تمتد وآلة صغيرة تركب وجرس يدق ، وإذا بالتليفون ، وإذا بنا نتصل بمن فى القاهرة وضواحيها ، بل بمن فى أنحاء القطر ، ويتصل بنا من أحب ؛ وأحسست إذ ذاك أن البيت قد استوفى حظه من الحياة كما يستوفيها الجسم الحى

الراق من شرايين وأوردة على أدق ما تكون من نظام — وكان لى مع التليفون متاعب أود معها لو لم يكن ، وأحيانا محامد أحمد الله أن كان — فقد كنت قاضيا ، وبقى وحده من بين القضاة فيه تليفون يصلنى برئيس المحكمة ، فقد يتغيب قاض فجأة عن الجلسة فيدق التليفون — آلو — انتدبنا كم اليوم لمحكمة العياط ، ومرة أخرى لمحكمة الصف ، وقد يكون الجو قاسياً ، حر يذيب رأس الضب ، أو برد يقفّ منه الجلد ، على كل حال ، كثيراً ما كان نذيراً بشرّ ، وكثيراً ما كان بشيراً بخير .

* * *

وأخيراً أتى العامل أول أمس يزيد الأحزمة حزاماً ، ولكنه فى هذه المرة حزام ناقص — خط رأسى وخط أفقى ، وآلة لا يأبه لها النظر ، وفى ذلك سر عجب ، هذا هو الراديو — فيه علم إن شئت ، وفن إن أردت ، وناطق إن أصغيت ، وساكت إن أعرضت ، ومتحدث بكل لسان ، وواصلك بكل مكان . إن شئت معلما فعلم ، أو غناء فمغن ، أو فنا ففنان — يهزل حيث تحب الهزل ، ويجِدّ حيث تهوَى الجِد ، يمتاز عن التليفون بأن التليفون طالب ومطلوب ، فاذا كان طالباً فقد يفجعك بخبر ، أو يوقظك من نوم ، أو يحملك مطلباً يشق عليك ، أو يصلك بمحدث يثقل على نفسك ، ثم تريد أن تتخلص منه فلا تستطيع فقد لزم الأمر ، وحُمّ القضاء . أما الراديو فليس إلا مطلوباً ، هو عبد مطيع ، وخادم أمين . إما ساكت أو متكلم بما أحببت ، نديم ظريف ، جُهَيْنَةَ أخبار ، وحقيبة أسرار ، تِرْياق الهم ، ورُقْية الأحزان ، قد تكون له مساو لم أتعرفها ، فإن جربتها فسأحدثك عنها .

أين أنتِ أيتها الخادم التى عجبت من حنفية الماء ، وأين أنتِ أيتها الأخرى التى عجبت من مصباح الكهرباء ، لو كنتما اليوم فى بيتنا لشاركتكما العجب ،

ولوقفت معكما حائراً من العلم الحديث ، والفن الحديث ، ولانفردْتُ عنكما بالحزن العميق على أن ليس لنا من هــذه المخترعات إلا المشاركة فى الاستهلاك لا فى الإنتاج ، وأننا — فى مواسير المــاء ومصابيح الـكهرباء ، وآلات الراديو والتليفون ، وما إلى ذلك من شؤون المدنية — لنا أن نشترى وليس لنا أن نبيع ، لنا أن نكون من النَّظَّارة ، ولـكن ليس لنا أن نكون من الممثلين ، ولنا أن نستورد ولـكن ليس لنا أن نصدر .

إن كنت أيها الراديو قد دخلت البيت أخيراً فلست آخر ما يدخل ، فهم يحدثوننا عن سلك آخر سيدخل قريباً يحمل الصور كما تحمل أنت الصوت ؛ فإن كنا الآن نسمع لك فسنسمع بعــدُ ونرى . ومن يدرى ! لعل أسلاكا أخرى تدخل فتوزع الحرارة والبرودة بقدر ، وأسلاكا وأسلاكا ؛ بل لعل هــذه الأسلاك لا تعجب الجيل القادم فيراها بعد أن يتحرر رمزاً لعصر بغيض أولــع الناس فيه بالقيود حتى سلسلوا بيوتهم بهذه السلاسل ، وسيهزأون بهذا النوع من الحياة الساذجة التى تستعين على الرغبات بالمواسير والأسلاك ، وسينظرون إلينا كما ننظر نحن إلى سكان ما قبل التاريخ ، وسيعجبون إذ فرحنا باتصالنا بأهل الأرض مع أنهم اتصلوا بأهل السماء . وستعود البيوت من غير أسلاك ، ولـكنها وافية بالمطالب التى نستمتع بها ، والتى نصبو إليها ، والتى لا يقدر جيالنا الآن حتى على الحلم بها ، ويخلق ما لا تعلمون .

عدو الديمقراطية

لندع الديمقراطية السياسية ، فلها نظرياتها ورجالها ، ولها نزاعها الحار بين أنصارها وأعدائها .

ولنتكلم فى الديمقراطية الاجتماعية وأعدائها — فأكبر مظاهرها الاشتراك فى مرافق الحياة من غير أن تتميز طبقة من طبقة ؛ فاذا رأيت فى القطار درجة أولى وثانية وثالثة فهذا مظهر أرستقراطى ، وإذا رأيت ذلك فى عربات الترام والسيارات العامة والسينما والتمثيل فهذا أيضا مظهر من مظاهر الأرستقراطية ؛ وإذا رأيت أحياء يعنى فيها بالكنس والرش والنور ، وأحياء لا يعنى فيها هذه العناية ، فهذا مظهر من مظاهر الأرستقراطية ؛ وإذا رأيت فى المآتم والأفراح كراسىّ ضخمة مذهبة ، وأخرى بسيطة ساذجة ، وقوما يستقبلهم آل الميت وآل العرس بالحفاوة فيجلسونهم فى الصدر ، وآخرين يُستقبلون فى غير حفاوة فيُجلَسون فى الذيل ، فهذا أيضاً مظهر من مظاهر الأرستقراطية ؛ وإذا رأيت فى قاعات المحاضرات أماكن حجزت لكبار المدعُوِّين ، وأخرى حقا مشاعا للدهماء ، فهذا كذلك مظهر من مظاهر الأرستقراطية ؛ وإذا رأيت الحُجّاب على الأبواب يفتحونها لمن نزل من سيارة ، ويغلقونها فى وجه ذى الجلباب الأزرق ، فذلك نوع من الأرستقراطية ؛ وإذا رأيت مقهى أفرنجيا فيه فنجان القهوة بخمسة قروش أو تزيد ، ومقهى بلديا فيه فنجان القهوة بخمسة مليات أو تنقص ، فهذا مظهر من مظاهر الأرستقراطية ؛ ولا أسترسل فى ذلك ، فلعلك — ياصاحبى — فهمت مظاهر الأرستقراطية والديمقراطية ، وعلمت أنك فى كل خطوة تخطوها ترى هذه المظاهر فى أشكالها المختلفة ، وألوانها المتعددة .

وهناك دعاة يدعون إلى هـذه الديمقراطية الاجتماعية ، كما أن هناك دعاة يدعون إلى الديمقراطية السياسية ، ولهم على ذلك حجج وبراهين .

ولكن لعل أعدى أعداء الديمقراطية وأهم طعنة توجه إلى دعاتها ، وأقوى حجة يتسلح بها دعاة الأرستقراطية شيء واحد هو «القذارة» ؛ فأكثر تصرفات الأرستقراطيين وأشباههم عذرهم فيها طلب النظافة والترفع عن القذارة .

قد يركب راكبٌ الدرجة الأولى فى القطار أو الترام أو السيارات طلباً للوجاهة وخشية أن يراه الناس بين جمهور الفقراء ، أو نحو ذلك من أعذار كلها سخيفة ، ولكن عذراً واحداً يصح أن يقام له وزن ، وهو قذارة بعض ركاب الدرجة الثالثة والخوف من أذاهم ومن عدواهم .

وقد يتطلب بعض الناس أغلى مطعم وأغلى مقهى حبا فى الظهور ورغبة فى الجاه ، وطلباً لمخالطة العظماء ، ولكن العذر الصحيح أنه ينشد النظافة فى هـذا المطعم وهذا المقهى ، ويفر من قذارة المطاعم الرخيصة والمقاهى الرخيصة .

فلو عنى الناس بالنظافة ، وكان من لَبِسَ لَبِسَ نظيفاً ، ومن فتح مطعما أو مقهى عنى بنظافتـه ، وكان الفرق بين لبس الغنى والفقير ، والمطعم الغنى والفقير ليس فرقاً فى الكيف ، فالكل نظيف ، وإنما هو فرق فى النوع والكم ، لانهارت الأرستقراطية الاجتماعية فى كثير من نواحيها ، ولما تقززت أوساط الناس وخيارهم من أن يخالطوا الفقراء فى مأكلهم ومشربهم ومركبهم ، ولسلّحوا الديمقراطية بسلاح قوى متين ، ولهذا ترى الأمم التى عنيت بالنظافة والتزمتها فى صغيرها وكبيرها ، وفى فقرها وغناها قد أفسحت الطريق أمام محبى المساواة ودعاة الديمقراطية . وتراهم وقد قضوا على اختلاف الدرجات فى السيارات العامة ، وقلَّ منهم من يركب الدرجة الأولى فى القطار ، وقلَّ من يتطلب أفخم مطعم وأغلى مقهى ، علماً منهم بأن الكل نظيف والكل مريح ، وأن الذين يركبون بجوارهم أو يجلسون

بجانبهم لا يؤذونهم بمنظرهم ولا بروائحهم ولا بأى شىء فيهم ، إنما تتميز هذه الطبقات بوضوح وجلاء ، فى مرافق الحياة الاجتماعية حيث تفشو القذارة .

إن عقلاء الناس يحتملون الديمقراطية الاجتماعية بل يتعشقونها ، ولكن إذا وصل الأمر إلى احتمال عدوى مرض ، أو آلمت أنوفهم رائحة كريهة ، أو آلم عيونهم منظر بغيض ، سهل عليهم بيع الديمقراطية للأرستقراطية .

***

لو جرى الأمر على المعقول لكان المسلم من أنظف الناس فى العالم ، فقد رُبطت صلواته الخمس بالوضوء ، وفُرض عليه الاستحمام فى أوقات ، وكان أول باب من أبواب فقهه باب الطهارة .

وأغتبط إذ أسمع وصف « ابن سَعِيد » لمسلمى الأندلس فيقول فيهم : « إنهم أشد خلق الله اعتناء بنظافة ما يلبسون وما يفرشون ، وغير ذلك مما يتعلق بهم . وفيهم من لا يكون عنده إلا ما يقوته يومه فيطويه صائماً ، ويبتاع صابوناً يغسل به ثيابه ، ولا يظهر فيها ساعة على حالة تنبو العين عنها » .

ويؤلمنى أشد الألم ما ذكره ابن سعيد نفسه ، وقد زار القاهرة ، وركب منها حماراً إلى الفسطاط إذ يقول : « فأثار الحمار من الغبار الأسود ما أعمى عينى ، ودنس ثيابى ، وعاينت ما كرهت ، وقلت :

لقِيتُ بمصر أشَدَّ البوارْ ركوبَ الحِمارِ وكُحْلَ الغُبار »

أَلِمَ من منظر الفسطاط ، وقال إنه رأى شوارعها غير مستقيمة ، ورأى حول أبوابها من التراب الأسود والأزبال ما يقبض نفس النظيف ، ويغض طرف الظريف ، ورأى البياعين يبيعون فى مسجد عمرو ، والناس يأكلون فيه ، ورأى فى زوايا المسجد العنكبوت ، قد عظم نسجه فى السقوف والأركان والحيطان ، ورأى حيطانه مكتوباً عليها بالفحم والحمرة بخطوط قبيحة مختلفة من كتابة فقراء العامة ، الخ . . .

آلمنى هذا الوصف لمصر ، ولو زارها اليوم لما عثر بحماره ، ولأقلته سيارة فخمة من باب زويلة إلى الفسطاط فى أرض معبدة ممهدة ، لا تثير غباراً ولا تدنس ثيابا ، ولرأى مسجد عمرو نظيفاً ، لا يأكل فيه آكل ، ولا يكتب على حيطانه كاتب .

ولكن هل كان يعدل عن حكمه القاسى فى مقارنته بين أهل مصر وأهل الأندلس فى النظافة ؟ ذلك ما أشك فيه كل الشك .

لست أدرى لِمَ لم يلتفت الدعاة إلى هذا الأمر فى الأمة ، فيدعون ويلحون فى الدعوة إلى النظافة ، ويضعون الخطط الدقيقة لها ، فإنها خير وسيلة للتقريب بين طبقات الأمة ، فلا يأنف بعدُ مثقف أن يجلس مع غير المثقفين ، ولا متعلم أن يجالس غير المتعلمين ، وفى هذا الاختلاط نشر للثقافة ، ودعوة للآداب العامة ، وغلبة للعنصر المهذب .

يظن الناس أن النظافة غالية ، وأنها مرتبطة بالغنى ، وهذا خطأ بيّن ، فكم من غنىّ قذر ، ومن فقير نظيف ؛ والأمر يتوقف على تعوّد النظافة أكثر مما يتوقف على المال ، فليست النظافة أن تلبس أغلى اللباس ، وأن تأكل أفخم الطعام ، وإنما النظافة أن تلبس نظيفاً ولو كان أحقر الثياب ، وأن تأكل نظيفاً ولو كان أحقر الطعام .

هذه بديهات أولية ، ولكنا مع الأسف مضطرون أن نقولها .

***

لعل الأمر فى العلماء والأدباء على نحو ما بينا فى الماديات ؛ فالذى يفرق بين عالم أرستقراطى وعالم ديمقراطى ، وأديب أرستقراطى وأديب ديمقراطى، هو نظافة آراء الأولين وأفكارهم وأسلوبهم ؛ وعكس ذلك فى الآخرين . ولو التزم كل العلماء والأدباء نظافة نظرياتهم ، ونظافة كتابتهم مهما اختلفت فى النوع والقيمة لانهارت الأرستقراطية العلمية والأدبية أيضاً ، ولكان الكل سواء فى الاحترام .

الموت والحياة[1]

أبت علىّ نفسى أن تكتب اليوم إلا فى الموت . وهل نتاج الكاتب إلا قطعة من نفسه ؟ يفرح فيرقص قلمه ، وينقبض فيسيل قلمه بالدمع ، وقد كرهت للقراء عنوان الموت ، فأضفت إلى الموت الحياة ، ولست أدرى لمَ يُلطِّف ذكر الحياة الموت ، ولا يلطف ذكر الموت الحياة !

دعا إلى هذا أنى فجعت هذه الأيام بموت أصدقاء كأنهم كانوا على ميعاد ، وكأن لموت الأصدقاء أيضاً موسماً كسائر المواسم وإن لم يحدد زمنه ويعرف مداه .

تنفكّ تسمع ما حيـ ـتَ بهالكٍ حتى تَكُونَهْ
والمرء قد يرجو الحيا ةَ مُؤَمِّلاً والموتُ دُونَهْ

وكان آخرهم صديق استعجل الموت فأنشب فى المنية أظفاره قبل أن تُنْشب فيه أظفارها ، وقَطَعَ حظه من الدنيا قبل أن تستوفى حظها منه ، لم يصبه سهم القضاء فأخذ السهم منه ورماه بنفسه فى نفسه ، فمضى سابقاً أجله — غربت شمسه ضحى ، واستكملت ساعته دقاتها قبل ميعادها .

كان سرىّ النفس ، نبيل الخلق ، طيب العنصر ، يغبطه كل من عرفه على ما وهب من خلال ، وما تهيأ له من وسائل الرفاهة وأسباب النعيم ؛ وما دروا أن الأمر فى السعادة والشقاء إلى ما فى داخل النفس لا ما فى خارجها ، وأن نفوساً قد تشقى فى النعيم ، ونفوساً قد تسعد فى الشقاء .

جزعت لموته واستكنت للعبرة ، وفقدت بفقده السلطان على دمعى وقلبى ، فرحمه الله ورحمنى .

***

(١) كتبت على أثر انتحار أستاذ فى الحقوق صديق .

ولكن ما الجزع من الموت وقد طال عهدنا به ، وعرفه بنو آدم منذ عرفوا الحياة ؟ ولِمَ لم يألفوه كما ألفوا كثيراً من المر حتى اعتادوه ؟ وليس الموت فى ذاته مرًّا ولا أليماً ، وكما قال أحد الرواقيين : « إن الموت هو وحده المصيبة التى لا تمسنا ، فنى حياتنا لا موت ، وإذا جاء الموت فلا حياة » . وقد نظم المتنبى هذا المعنى فقال :

والأسَى قبلَ فُرْقةِ الرُّوحِ عَجْزٌ والأسَى لا يَكُونُ بَعْدَ الْفِرَاقِ

ولكن أعظمَ الناسُ شأن الموت لما أحاط به من ظروف ، وما اتصل به من خيالات ، وأثير حوله من رعب — بالغ بعض رجال الدين فى تفظيع الموت ، وهولوا من شأنه تهويلا تنخلع له القلوب ، وتقشعرّ منه الجلود ، لأنهم رأوا فى ذلك درساً قاسياً يردع المجرم عن إجرامه ، ويزع الآثم عن إثمه ؛ ولكن أخشى أن يكونوا قد أفرطوا إفراطا شل النفس وأشاع فيها اليأس ، وأنهم — وقد عهد إليهم أن يعادلوا بين الترغيب والترهيب — قد أرهقوا كفة الترهيب حتى ثقلت وهوت ، وخففوا كفة الترغيب حتى شالت وعات ؛ ولعل هذا كان من الأسباب التى جعلتنا نتسخط الحياة ونتبرم بها . ثم ما هذه الأخلاق التى هى أشبه ما تكون بأخلاق العبيد ! لا نُدْعى للخير إلا بالعصا ، ولا تطلب منا الفضيلة إلا بالسياط ؟ — أليس خيراً من ذلك أن يحدونا إلى الخير الحب ، لا أن يسوقنا إليه الرعب ؟

ثم زاد الموت سوءاً ما أحاطه به الأحياء من مظاهر الفزع والألم ؛ فصراخ تنفطر له المرائر ، وبكاء يذيب لفائف القلوب ، والناس حول الميت بين ساهم البصر ، ومطرق الطرف ، ومكروب النفس ، وناكس الرأس ، يتأوه الآهة تنقصف منها ضلوعه ، ويزفر الزفرة تتصدع منها نفسه . لست أظن أن هذا وأمثاله من طبيعة الإنسان ، قد يكون من طبيعته الحزن على فقد القريب

والصديق ، ولكن ليس من طبيعته الجزع ؛ فلو اعتاد قوم أن يقابلوا الموت كما يقابلون أى ظاهرة طبيعية فى الحياة لزال الجزع وخف الألم ، كما حدث عند بعض الأمم ، استطاعوا أن يضبطوا عواطفهم وينفقوا من الحزن بقدر ، وأن يرددوا قول القائل : « مات الميت فليحى الحى » وتفاخروا بالجلد كما نتفاخر بالجزع ، وتواسَوْا بالثبات ، كما نتواسى بالهلع .

ثم كان من الأدباء ما كان من رجال الدين : حزنوا للشيب إذ فقدوا الشباب أكثر مما فرحوا بالشباب يوم أن كان ، ووقفوا فى مراثيهم موقف النادبات فى المآتم ، يعجبون كيف كان الموت وكيف نزل ، ويلهبون عواطف الناس ، ويثيرون أشجانهم ، ويعدون أقدرهم على القول وأقربهم إلى الإجادة من عرف كيف يستخرج الدمع ويستنزف الشئون ، فكان من هذا وذاك إفساد عواطف الناس من الموت ودفعهم إلى المغالاة فى المشاعر .

ثم أخطأ الناس فى القياس ، فظنوا أن النفس تألم فى الحياة الأخرى بما تألم به فى الحياة الدنيا ؛ ظنوا أن القبر يوحش بعزلته كما يستوحش الحى من عزلته ، وأن القبر يرهب بضيقه وظلمته ، كما يتبرم الحى بضيق المكان وظلمته ، وأن الميت يألم من البرد القارس كما نألم ، ويضجر من الحر القاسى كما نضجر ، وغاب عنهم إدراك الفرق بين الحياتين ، والاختلاف الواسع بين الطبيعتين :

إذا افترقت أجزاء جسمى لم أبَلْ حلولَ الرَّزَايا فى مَصِيفٍ ولا مَشْتَى

* * *

إن تفظيع الموت يدعو إلى نوع من الحياة لا هو حياة ولا هو موت . ولعل كثيراً من رذائل الشرق سببه ما اعتاده قادتهم من تهويل الموت وتفظيع شأنه ؛ وإلا فما الذى يجعلنا نرضى بالعيش الذليل بين أحضان آبائنا وأمهاتنا ، ولا نتطلب العيش السعيد بالهجرة والارتحال ؟ وما الذى يدعونا إلى الفرار من المغامرة فى

شؤون الحياة ، والركون إلى عيش الدعة والاطمئنان ، إلى كثير من أمثال ذلك ؟
لا شيء إلا المغالاة فى الخوف من الموت ، للمغالاة فى تهويل الموت .

لقد جَلَّ خَطْبُ الحياة إن كان كلما مات قريب أو صديق ذابت النفس حسرات ، وأظلمت فى وجوهنا الدنيا ، وتطرق إلينا اليأس .

لا . لا . اعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً ، وتبًّا لهؤلاء الذين يخلعون قلوبنا بالموت فنكون طعمة لمن يحبون الحياة .

ولنبدأ دعوة جديدة قوامها العمل للحياة « ولا بأس بالموت إذا الموت نزل » .

الضحك

ما أحوجني إلى ضَحْكة تَخْرُج من أعماق صدرى فيدوّى بها جوّى! ضحكة حيّة صافية عالية ، ليست من جنس التبسم ، ولا من قبيل السخرية والاستهزاء ؛ ولا هى ضحكة صفراء لا تعبر عما فى القلب ؛ وإنما أريدها ضحكة أمسك منها صدرى ، وأخص منها الأرض برجلى ، ضحكة تملأ شدقىّ ، وتُبدى ناجذىّ ، وتفرّج كربى ، وتكشف همى .

ولست أدرى لماذا تجيبنى الدمعة ، وتستعصى علىّ الضحكة ، ويسرع إلىّ الحزن ، ويبطئ عنى السرور ، حتى لئن كان تسعة وتسعون سبباً تدعو إلى الضحكة وسبب واحد يدعو إلى الدمعة ، غَلَب الدمع وانهزم الضحك ، وأطاع القلب داعى الحزن ولم يطع دواعى السرور !

ولى نفس قد مَهَرت فى خلق أسباب الحزن ، ونبغت فى اقتناص دواعيه ، تخلقها من الكثير ، ومن القليل ، ومن لا شىء ، بل وتخلقها من دواعى الفرح أيضاً ؛ وليست لها هذه المهارة ولا بعضها فى خلق أسباب السرور ، كأن فى نفسى مستودعاً كبيراً من اللون الأسود ، لا يظهر مَظْهر أمام العين حتى تسرع النفس فتغترف منه غرْفة تسوّد بها كل المناظر التى تعرض لها ؛ ثم ليس لها مثل هذا المستودع من اللون الأحمر أو اللون الأبيض !

يقولون لى : اضحك يدخل على قلبك السرور . وأنا أقول لهم : أَدْخِلوا السرور على قلبى أضحك . فهى المسألة « دَوْر » ، كما يقول علماء الكلام ، وكما يقول الشاعر :

مسألة « الدّوْر » جرَتْ بينى وبين من أحِب

لولا مَشيبي ما جَفَا لولا جفاهُ لم أشِب

وإلى الآن لم أدر مَن المصيب ! هل الضحك يبعث السرور ، أو السرور يبعث الضحك ؟ ودخلت المسألة فى دور من الفلسفة مظلم كالعادة ، وانتقلت إلى بحث بيزنطى ، فلنغلق هذا الباب ، ولنعد إلى « الضحك » .

يقول المناطقة فى أحد تعريفاتهم للإنسان : « الإنسان حيوان ضاحك » ، وهذا عندى أظرف من تعريفهم الآخر : « الإنسان حيوان ناطق » ، فالإنسان فى هذا الزمان أحوج إلى الضحك منه إلى التفكير ، أو على الأصح نحن أحوج ما نكون إلى التفكير والضحك معاً .

ولكن لِمَ خصت الطبيعة الإنسان بالضحك ؟

السبب بسيط جداً . فالطبيعة لم تحمّل حيواناً آخر من الهموم ما حمّلته الإنسان ، فَهَمُّ الحمار والكلب والقرد وسائر أنواع الحيوان أكْلَة يأكلها فى سذاجة وبساطة ، وشرْبة يشربها فى سذاجة وبساطة أيضاً ؛ فإذا نال الحمار قبضة من تبن وحفنة من فول وغرفة من ماء ، فعلى الدنيا العفاء ؛ ولكن تعال معى فانظر إلى الإنسان المعقد المركب ! يحسب حساب غده كما يحسب حساب يومه ، وكما يحسب حساب أمسه ؛ ويخلق من هموم الحياة ما لا طاقة له به ، فيحب ويهيم بالحب حتى الجنون ، ويشتهى ويعقّدشهواته حتى لا يكون لعقدها حل ، فإذا حُلّت من ناحية عقّدها من ناحية ؛ ثم إذا سذجت اللذة وتبسطت لم تعجبه ، بل أخرجها من باب اللذة ، وعقد أمله على لذة معقدة ؛ وإذا تفلسف — والعياذ بالله من فلسفته — خرج بها عن المعقول ، وحاول أن ينال ما فوق عقله ، ولم تعجبه الأرض والسموٰات مجالاً لبحثه ؛ إنما يريد الحقيقة والماهية والكُنْه ، وويل له من كل ذلك ! أستغفر الله ؛ فقد نسيت أن أذكر هموم الموظف بالعلاوات والترقيات ، وما كان منها استثنائيا ، وما كان غير استثنائى ،

وما يترتب على ذلك من معاشات وحساب تمغة ، وما إلى ذلك من أمور لا تنتهى ، وهذا أيضاً من ضروب الفلسفة المظلمة ، فلنعد إلى الضحك .

أقول إن الطبيعة عودتنا أن تجعل لكل باب مفتاحا ، ولكل كرب خلاصا ، ولكل عقدة حلا ، ولكل شدة فرجا ؛ فلما رأت الإنسان يكثر من الهموم ويخلق لنفسه المشكلات والمتاعب التى لا حد لها ، أوجدت لكل ذلك علاجا ، فكان الضحك .

والطبيعة ليست مسرفة فى المِنَح ، فلما لم تجد للحيوانات كلها هموما لم تضحكها ، ولما وجدت الإنسان وحده هو المهموم المغموم ، جعلته وحده هو الحيوان الضاحك .

***

لو أنصف الناس لاستغنوا عن ثلاثة أرباع ما فى «الصيدليات» بالضحك ، فضحكة واحدة خير ألف مرة من « برشامة اسبيرين » وحبة « كينين » وماشئت من أسماء أعجمية وعربية ؛ ذلك لأن الضحكة علاج الطبيعة ، والأسبيرين وما إليه علاج الإنسان ؛ والطبيعة أمهر علاجا وأصدق نظراً وأكثرُ حُنكة . ألا ترى كيف تعالج الطبيعة جسم الإنسان بما تُمده من حرارة وبرودة ، وكرات حُمر وبيض ، وآلاف من الأشياء يعالج بها الجسم نفسه ليتغلب على المرض ويعود إلى الصحة ، ولا يقاس بذلك شىء من العلاج المصطنع .

فانفجار الإنسان بضحكة يُجرى فى عروقه الدم ، ولذلك يحمر وجهه ، وتنتفخ عروقه ؛ وفوق هذا كله فللضحكة فعل سحرى فى شفاء النفس وكشف الغم ، وإعادة الحياة والنشاط للروح والبدن ، وإعداد الإنسان لأن يستقبل الحياة ومتاعبها بالبشر والترحاب .

ولو أنصفنا — أيضا — لعددنا مؤلفى الروايات المضحكة والنكت والنوادر

البارعة التى تستخرج منك الضحك وتثير فيك الإعجاب والطرب ، وهؤلاء الذين يُضْحكون بأشكالهم وألاعيبهم وحركاتهم — أقول لو أنصفنا لعددنا كل هؤلاء أطباء يداوون النفوس ، ويعالجون الأرواح ، ويزيحون عنا آلاما أكثر مما يفعل أطباء الأجسام ، ولعددنا من يستكشف الضحكات فى عداد من يستكشف دواء للسل أو للسرطان أو نحو ذلك من الأدواء المستعصية ؛ فكلاهما منقذ للإنسانية من آلام ، مصلح لما ينتابها من أمراض .

والضحك بَلْسم الهموم ومرهم الأحزان ؛ وله طريقة عجيبة يستطيع بها أن يحمل عنك الأثقال ، ويحط عنك الصعاب ، ويفك منك الأغلال — ولو إلى حين — حتى يقوى ظهرك على النهوض بها ، وتشتد سواعدك لحملها .

* * *

ومن مظاهر رقى الأمم أن نجد نواحى المضحكات ملائمة لاختلاف الطبقات : فللأطفال قصصهم وألاعيبهم ومضحكاتهم ، ولعامة الشعب مثل ذلك ، وللخاصة وذوى العقول الراقية المثقفة ملاهيهم وأنديتهم ومضحكاتهم . فإن رأيت أمما — كأممنا الشرقية — حُرِمَ مثقفوها من معاهد الضحك ، وكانت مسلاتهم الوحيدة أن ينحطوا ليضحكوا ، أو يرتشفوا من الأدب الغربى والتمثيل الغربى ليضحكوا ، فهى أمم ناقصة فى أدبها ، فقيرة فى معاهدها ؛ وهذا أيضا ضرب من ضروب الفلسفة المظلمة ، فلنعد إلى الضحك .

* * *

تعال معى نتعاهد على أن نرعى فى حياتنا جانب الضحك كما نرعى جوانب الصحة والمرض ، وجانب الهزل بجوار جانب الجد ، ولنتخذ علاجاً فى بعض أمورنا .

قال لى صديق مرة إنه حاول أن يتغلب على همومه وأحزانه بعلاج بسيط فنجح ؛ ذلك أنه إذا اشتد به الكرب ، وتعقدت أمامه الأمور حتى لا يَظُن

لها حلاً ، انفجر بضحكة مصطنعة فسُرِّى عنه وتبخرت همومه .

ويروى أنه كان عند اليونان فيلسوفان يلقب أحدهما الفيلسوف الضاحك ، والآخر الفيلسوف الباكى ؛ كان أولهما يضحك من كل شيء ضحِكَ جِدّ أحيانا ، وضحك سخرية أحياناً : يضحك من سخف الناس ومن وضاعتهم وحقارتهم ، ويبكى الثانى مما يضحك منه الأول .

وقرأت مرة قصة لطيفة أن بئراً ركّب عليها دلوان ، ينزل أحدهما فارغا ، ويطلع الآخر ملآن ؛ فلما تقابلا فى منتصف البئر سأل الفارغ الملآن : مِمَّ تبكى ؟ فقال : ومالى لا أبكى ؟ أخذ الرجل مائى وسيأخذه وسيعيدنى إلى قاع البئر المظلم ! وأنت مم تضحك وترقص ؟ فقال الفارغ : ومالى لا أضحك ؟ سأنزل البئر وأمتلىء ماء صافياً وأطلع بعدُ إلى النور والضياء .

وقد أراد مؤلف القصة أن يصور نفس الموقفين اللذين وقفهما الفيلسوف الضاحك والفيلسوف الباكى ، وأن الحياة مليئة بأشخاص يتولون عملا واحداً ، ثم هذا ينظر إليه من الجانب السار الفرح ، وذاك ينظر إليه من الجانب الحزين القابض .

فكن الفيلسوف الضاحك ، ولا تكن الفيلسوف الباكى . وكن الدلو الراقص ، ولا تكن الدلو الدامع . وجرّب أن تلقى الحياة باسما أحيانا ، ضاحكا أحيانا ، ولأجرب معك !

سيدنا

كان لسيدنا الشيخ « سيد عبد الرحمن » كتّاب فى حى وطنى فى قسم الخليفة ، أسلمنى له أبى وأنا فى السادسة من عمرى .

كان هذا الكتاب بيتاً من بيوت الوقف ، يتكون من طابقين ، طابق أرضىّ فيه حجرتان إحداهما « سبيل » لسقى الماء كان قد هجر عندما ذهبت إليه ، والأخرى لسيدنا ينام فيها أحياناً ؛ وفى الطابق العلوى حجرتان كذلك ، إحداهما لأولاد الكُتاب يقرءون فيها ، والأخرى لسيدنا أيضاً ، و بين الحجرتين « فَسَحة » فى أحد أركانها زير ماء لا تعرف لونه مما توالى عليه من أحداث الزمان ، وعليه غطاء من خشب ، قد كسر ولم يهتم أحد بإصلاحه ، وعلى الغطاء كوز صفيح قد شد بحبل فى مسمار فى الحائط ، حتى لا يذهب به الأولاد من مكان إلى مكان ، وخشية أن يقع الكوز فى أسفل الزير ، فإذا كان مربوطا ووقع استطعنا أن نشده بالحبل ، والماء إن تلوث بوقوع الحبل فيه ، فهو أقل ضرراً من مد اليد عارية وغوصها لاستخراجه .

وأدوات الكُتّاب : حصير فرش على البلاط ، يبلى أحياناً فتتناثر عيدانه ، ومع ذلك يبقى إلى أن يحنن الله على سيدنا فيشترى حصيراً جديداً ، وصندوق من صناديق السكر أو الجاز وضع فى زاوية من زوايا الحجرة ، نضع فيه ألواحنا ؛ وهذه الألواح أكثرها من صفيح ، تسوَدّ أحياناً ويذهب طلاؤها حتى لا نتبين الكتابة منها — وكيف يبين أسود من أسود ؟ وأقلها خشب قد طلى بدهان أبيض ، وله إطار لُوِّن بلون بُنى ، وذلك خاص بأولاد الذوات وأشباههم .

هذا كل ما بالكُتاب من أدوات ؛ ومعاذ الله أن أنسى شيئاً أهم من ذلك

كله ، وهو مجموعة عِصِىّ من جريد النخل ، تختلف طولاً وقصراً . أما القصيرة فيستعملها سيدنا لمن يُسَمّع عليه اللوح أو « الماضى » فيخطئ فتدركه هذه العصا . وأما الطويلة فعندما يرى سيدنا طفلاً فى آخر الحجرة لا يهتز وقت قراءته أو يتهاون فى حفظه ، فما يشعر إلا والعصا الطويلة نزلت عليه وصحبها من سيدنا « اهتز يا ولد » . وقد كان لهذه العصى — ما طال منها وما قصر — أثر فى نفوسنا لا ينكر ، فكثيراً ما رعبنا لأن خيالنا صوّر لنا أن سيدنا يريد أن يهوِىَ علينا بعصاه ؛ وفى الواقع لم يكن شىء من ذلك ، وإنما هو الرعب ملك نفوسنا ؛ ويحصل هذا أحياناً حتى فى البيت ، فننسى أننا خرجنا من الكتّاب ، وأننا بين أهلينا ، فنرتجف بغتة لحركة تشبه حركة سيدنا فى الكتّاب .

وإلى جانب هذه العصى « فلقة » ، وهى عصا غليظة من خشب متين قد ثقب فى وسطها ثقبان يبعد ما بينهما نحو شبر ، ورُكّب فى هذين الثقبين سير من جلد أو نحوه ؛ فإذا شكا الولدَ أبوه أو غضب عليه سيدنا أدخل رجليه فى هذا السير ولواه عليهما ، وأمسك بطرفى الفلقة ولدان كبيران شديدان من أولاد الكتّاب ، فلم تستطع الرجلان حركة ، وانهال عليه سيدنا ضرباً بالعصا والولد يصيح : « فى عرضك يا سيدنا » « حرّمت » « أتوب » ! ولست أنسى مرة أفرط فيها سيدنا فشق عقبى وسال منه الدم ، وكان عزائى الوحيد أنى مكثت بعيداً عن سيدنا نحو أسبوعين .

وهذا كل ما كان فى الكتّاب من « موبيليات » .

كان سيدنا يحفظ القرآن حفظاً جيداً ، ويكتب كتابة عاجزة ، وهذا هو ما له من ثقافة ؛ كان يطوف فى الصباح على البيوت يقرأ فيها ما تيسر من القرآن ويخرج من بيت إلى بيت حتى يتم دورته ، وكان موظفاً فى مسجد يؤذّن فيه ، فإذا حان وقت الظهر أو العصر خرج من الكتّاب للأذان والصلاة ؛ وفى

غيابه صباحاً أو ظهراً أو عصراً يتركنا لعريف يقوم مقامه ، ولكن كان العريف ولله الحمد أهون علينا من سيدنا ، فكنا نتنفس الصُّعَدَاء إذا خرج ، ونصاب بالرعشة إذا حضر .

وكان برنامج الكتاب ينحصر فى كلمة هى « تحفيظ القرآن » فيبتدئ بتعليم حروف الهجاء على طريقة غريبة ، فأول درس كان هو « أ ألف » وهى كلمة حفظتها ولم أفهمها إلا وأنا طالب فى مدرسة القضاء . إذ فهمت أننا لو تهجينا كلمة ألف لكانت ألفاً ولاماً وفاء ، وما أدرى ما السر فى هذا البدء على هذا الوضع — حتى إذا عرف الولد شيئاً من القراءة والكتابة بدأ بكتابة جزء من القرآن فى اللوح يحفظه كل يوم ، وهو فى أثناء ذلك « يُثَبِّت الماضى » ويمضى النهار كله فى هذا الباب ، فلا إملاء ولا حساب ، ولا يعرف سيدنا شيئاً من ذلك ، ولا نستريح من هذا العمل إلا وقت الغداء .

فإذا حان الظهر جمع « سيدنا » من كل ولد مليمين أو ثلاثة أو خمسة ، ثم بعث بولد كبير فأتى له بماجورين مملوءين : أحدهما فيه قليل من فول نابت وكثير من مرق ، والآخر مملوء مخللا بمائه وخله ؛ وتحلق الأولاد حلقة ، وأخرج كلٌّ رغيفه ، وكان قد أحضره معه فى الصباح تحت إبطه ، وضربوا بأيديهم فى الماجورين وأكلوا هنيئاً مريئاً ؛ وقد رحمنى الله من تمثيل هذا الفصل إذ كان بيتنا بجوار الكتاب أستطيع أن آكل فيه وأعود — وبين هؤلاء المريضُ والقذِر ومن تلوثت يده بالحبر ومن أُصيب بعاهة .

لا تعجبنْ من هالك كيف ثَوَى بل فاعْجَبَنْ من سالمٍ كيف نجا

* * *

كان سيدنا غريب الأطوار ، عرف فى الحى باسم الشيخ سيد المجذوب ، يلبس المرقع من الثياب ، فلم أره يوما يلبس « مركوباً » جديداً ولا عمة نظيفة

ولا قباء ولا عباءة جديدين ، فكأنه كان يتحرى القديم من كل شيء ويشتريه ؛ كان يتزهد فى أكله ولبسه وحديثه ، ويهزأ بالناس ولا يعيرهم التفاتاً ؛ فهو يمشى مشياً يشبه الجرى ، ويأكل فى الشارع وهو على هذه الحال ، وإذا ناداه منادٍ لا يلتفت إليه ؛ فكان بذلك يلفت أنظار النـاس والأطفال ، ويعجب منه بعضهم ، ويتبرك به بعضهم ، وكان فى المجالس العامة غريباً ينتحى ناحية وحده ويفر من الناس ويستوحش منهم ، وفى مجالسه الخاصة واعياً أنيساً لطيفاً .

لم أره مرة يقرأ فى كتاب ، وما أظنه كان يعرف ذلك ، ولـكنى مع هـذا أذكر له حادثة حيرتنى حقا — فقد خرجت من كُتّابه ، وأتممت التعليم فى مدرسة ابتدائية ، ثم قطعت مرحلة بعدها فى التعـليم ، ثم ذهبت إلى مدرسة القضاء ومكثت فيها نحو أربع سنوات ؛ ثم لقيت سيدنا فى الطريق فسلمت عليه فى احترام وإجلال اعترافاً بفضله علىّ فى أول مراحل التعليم ، ولـكنى أطوى بين جنبىّ إدلالاً بنفسى عليه ، فأين هو الآن منى ؟ لقد درست طبيعة وكيمياء ، ودرست رياضة نظرية واسعة من حساب المثلثات وتوافيق وتراتيب لوغارتمات ، ودرست علوماً دينية مختلفة الأشكال والأنواع ، وعلوماً مدنية من تاريخ وأصول قوانين ونظام إدارة وما إلى ذلك — فأين سيدنا من هذا كله وهو لا حظّ له من علم إلا أن يحفظ القرآن ؟ ولـكن ما أدهشنى حقا أنه أخذ يسألنى عن حالى ، وجرى من ذلك إلى الإدلاء برأيه فى العالم وفلسفة الـكون عن طريق صوفى ، فإذا أنا أسير معه ملتذا من حديثه معجباً بقوله إعجاباً يفوق ما كنت أضمره لأساتذتى فى المدارس العالية ، وإذا أنا أذهب معه حيث يذهب وأجلس معه حيث يجلس حتى أتم حديثه الممتع اللذيذ فى ساعتين أو أكثر ، ولوددت أنه أطال أكثر مما كان — لست أذكر الآن حديثه وقوله ، ولا أذكر ماذا كانت نظراته فى الحياة ، ولـكنى أذكر لذة حديثه وفائدة درسه .

***

ثم ذهبتْ أيام وجاءت أيام ، وإذا لى ولد ، و إذا بى أرسله إلى « روضة الأطفال » ، و إذا مكان الـكُتّاب ذى السبيل والحصر ، بناء فسيح ذو حديقة غناء ، وتخت وأدوات شتى ، ومكان العصى و « الفلقة » بيانو وآلات موسيقية ، ومكان مواجير الفول والمخلل ، لبن و بسكوت فى الساعة العاشرة ، وأكل نظيف يشرف عليه الطبيب فى الظهر ، ومكان برنامج كتابنا الذى ليس فيه إلا حفظ القرآن برنامج دقيق مفصل محدود بالساعة والدقيقة ، فيه غناء وفيه لعب ، وفيه مبادئ القراءة ، وفيه ماشئت من تنوع واختلاف ، ومكان سيدنا الشيخ سيد عبد الرحمن آنسات عزيزات .

وأتى ابنى يوما يقول إن « أبلة » فلانة علمتهم اليوم درساً جديداً قالت : هذه «ستّى» ا ، وهذه «ستى» ب ، وستى ا لا شىء عليها ، وستى ب من تحتها نقطة ؛ فقلت « أين هذا مما كنا نتعلمه من أ ألف ، با باليف ، بو با واو ، بى با يه » ؟

ورأيته ينشد أناشيد « سمير الأطفال » ونحوها فقلت أين أنت من أبيك ، وقد كان ينشد فى العصر قبل الذهاب إلى البيت الأناشيد الدينية .

ورأيته يزكم فيجلس فى البيت ، ثم يذهب إلى المدرسة فتأبى عليه إلا أن يأتى بشهادة طبيب بأنه برىء ولم يكن مرضه معديا ، فقلت لحا الله زمانا لم نكن نعرف فيه طبيبا ، وكان حولنا فى الـكتّاب مرضى لا يعرفون أن الزكام مرض ، وكان أصحاؤهم ومرضاهم يشربون من زير واحد بكوز واحد .

ورأيته فى سنه لا يحفظ شيئا ، وكنت وأنا فى سنه أحفظ جزءاً كبيراً من القرآن .

ورأيته يعرف من الأشغال اليدوية والرسم والتلوين ما لا أعرفه إلى اليوم .

ورأيته ورأيته ، ورأيتنى ورأيتنى .

***

أخشى أن نكون فى كلا الحالين مُفْرطين ومُفَرِّطين ، وأن نكون فى « كتّابنا » قد غلونا وفى « رياض أطفالنا » قد غلونا .

أخشى أن يكون الكتّاب قسا وأسرف فى القسوة ، ورياض الأطفال ماعت وأسرفت فى الميوعة . أخشى أن نكون فى كتّابنا قد وضعنا أمام الطفل كل العقبات فلم يستطع أن يجتازها إلا القليل ، ونحينا فى « رياض الأطفال » كل العقبات فاجتازوها جميعاً ؛ ولكنهم خرجوا لا يعرفون كيف يجتازون عقبة عرضت ، ولا يصبرون على شدة ألمّت ، ولا يتحملون مشقات العلم ومعاناة الدرس ، ولا يعالجون ما يعن من مصاعب الحياة ؛ وآية ذلك أن الجيل السابق — مع كثرة من تخلف — كانوا أصبر على الدرس وأحمل للمكاره والمشاق ، وأن الجيل الحاضر أنعم وأظرف وألبق ، ولكنهم لا يصبرون على مكروه حتى العلم .

نعمة الألم

لندع الآن جانبا وصف ما كان من الخلاف بين علماء النفس فى الألم ، والفرق بينه وبين اللذة ؛ ولندع كذلك بحوثهم الطويلة فى تقسيم الألم إلى أنواع : فنوع منه كالذى نشعر به عند وجع الأسنان ، ونوع كالذى نشعر به عند الفشل فى محاولة ، ونوع كالذى نشعر به عند مواجهة ما نكره . . . الخ .

ولندع أيضاً بحوث علماء الأخلاق فى أن الإنسان فى جميع أفعاله يطلب اللذة ، ولا يطلب شيئاً غيرها ، ويهرب من الألم ، ولا يهرب من شىء غيره ؛ وأنه حين يفر من لذة فإنما يفعل ذلك لطلب لذة أكبر منها ، وأنه حين يتحمل الألم ، فإنما هو يفر من ألم أكبر منه ، أو يتطلب بألمه لذة أكبر مما تحمّل — ولندع التعرض لما قام حول هذه النظرية من نزاع .

لندع هذا كله ، ولننظر إلى أثر اللذة فى الحياة العامة وأثر الألم فيها ، فيخيل إلىّ أنا مدينون للألم بأكثر مما نحن مدينون للذة ؛ وأن فضل الألم على العالم أكبر من فضل اللذة .

إن شئت فتعال معى نبحث فى عالم الأدب : أليس أكثره وخيره وليد الألم ؟ أو ليس الغزل الرقيق نتيجة لألم الهجر أو الصد أو الفراق ؟ ذلك الألم الطويل العريض العميق تتخلله لحظات قصيرة من وصال لذيذ ؛ وليس هذا الوصال اللذيذ بمنتج أدباً كالذى ينتجه ألم الفراق . وإن الأديب كلما صهره الحب ، وبرّح به الألم ، كان أرق أدبا ، وأصدق قولا ، وأشد فى نفوس السامعين أثرا . ولو عشق الأديب فوفق كل التوفيق فى عشقه ، وأسعفه الحبيب دائما ، ومتعه بما يرغب دائما ، ووجد كل ما يطلب حاضرا دائما لسئم وملّ ،

وتبلدت نفسه ، وجمدت قريحته ، ولم يخلّف لنا أدبا ولا شبه أدب ؛ ولو كان مكان مجنون ليلى عاقل ليلى لكان كسائر العقلاء — وإنما فَضَل المجنون لأن نفسه كانت أشد حسا وأكثر ألما .

لولا علو همة المتنبى ما كان شعره ، وما علو همته ؟ أليست كراهية الحياة الدون ، والألم من أن يُعَدّ من سَقَط المتاع ، والتطلع لأن يكون له الصدر أو القبر ؟ وعلى هذا المحور دارت حياته ، ودار شعره ؛ ولو نشأ قانعاً لما فارق بلدته ، ولكان سَقّاء كأبيه يروى الماء ولا يروى الشعر .

وما قيمة المعرى لولا ألمه من الفقر والعمى ؟ لو كان غنيا بصيرا لما رأيت لزومياته ولا أُعجِبْت بكلماته ، ولكان إنساناً آخر ذهب فيمن ذهب ؛ إنما خلده ألم نفسه ، وأبقى اسمه قوة حسه .

ولو شئتُ لعددتُ كثيرا من أدباء العرب والغرب ، أنطقهم بالأدب حيناً ألم الفقر ، وحيناً ألم الحب ، وحيناً ألم النفى ، وحيناً ألم الحنين إلى الأوطان ، إلى غير هذا من أنواع الآلام .

ثم قد أَجْدَت اللذة على الأدب كثيرا — لقد أنتجت لهو امرئ القيس وطَرَفة ، وخمر أبى نواس ، ونخر أبى فراس ، ومجون الماجنين ، وفكاهة العابثين ؛ وكان غِنَى ابن المعتز ولذته ينبوعا صافيا لحسن التشبيهات ، وجمال الاستعارات — وخلفت لذة هؤلاء أدبا ضاحكا ، كما خلف الألم أدبا باكياً . خلفت اللذة أدب المسلاة (الكوميديا) ، وخلف الألم أدب المأساة (التراجيديا) ؛ ولكن أى الأدبين أفعل فى النفس ؟ وأيهما أدل على صدق الحس ؟ وأيهما أنبل عاطفة ؟ وأيهما أكرم شعوراً ؟ أى النفسين خير : أَمَنْ يبكى من رؤية البائسين ، أم من ضحك من رؤية الساخرين ، أَمَنْ رأى فقيرا فعطف عليه ، أو هُزْأة نضحك منه ؟ !

***

على أنى أخشى أن تكون اللذة التى أخرجت الأدب الضاحك ليست إلا ألما مفضضاً أو علقما مبهرجاً . أليست خمر أبى نواس محورها « وداونى بالتى كانت هى الداء » ؟ أو ليس قد هام بها فراراً من ألم الدنيا ومتاعب الحياة ؟

ولو فتشت عن دخيلة ابن المعتز ، لرأيت ألمًا قد بطن بلذة ، وجحيما فى ثوب نعيم .

***

ثم تعال إلى الحياة الاجتماعية ، ألست ترى معى أن خير الأمم من تألم للشر يصيبه ، والضر يلحق به ؟ وهل تحاول أمة أن تصلح ما بها إلا إذا بدأت فأحست بالألم ؟ أو ليس من علامة تماثل المريض للشفاء أن يحس بالألم بعد الغيبوبة ؟ ثم من هو المصلح : أليس أكثر قومه ألمًا مما هم فيه ؟ أو ليس هو أبعدهم نظراً وأصدقهم حسا ! دعته رؤية مالم يروا ، وإحساسه ما لم يحسوا ، أن يكون أعمق منهم ألمًا وأشد منهم سخطاً ، فلم يسعه إلا أن يجهر بالإصلاح ، وأن يتحمل عن رضى ما يصيبه من ألم ، لأن ألم نفسه مما يرى بهم ، أكبر من أى ألم يناله منهم ؟ — وما الوطنية ؟ أليست شعوراً بألم يتطلب العمل ؟

ومن نعم الله أن أوجد أنواعاً من الألم هى آلام لذيذة تتطلبها النفوس الراقية وتتعشّقها . ولو عُرض عليها أن تعوَّض عنها لذائذ صرفة لما قبلتها . فلو عرض على الفيلسوف المتألم لذة غنى جاهل لرفض فى غير تردد ، ولو خُيِّر المصلح المجاهد ينغص عليه قومه ، وينغص عليه بُعْد نظره ، وينغص عليه قوة شعوره ، ما اختار من حياته بديلا — ذلك لأن آلامه سرى فيها نوع من اللذة لا يدركه إلا العارفون ، وأصبح يهيم بهذا الألم اللذيذ ، ويرى اللذة الصرفة لذة ألمية — وكلٌ مُيَسَّر لما خلق له .

ديمقراطية الطبيعة

يعجبنى البحر فى جماله وبهائه ، وجلاله ولانهايته ؛ ويعجبنى كذلك فى ديمقراطيته ، فهو لا يسمح لأحد أن ينغمس فى مائه إلا إذا تجرد من كل المظاهر الكاذبة التى خلقتها المدنية : من ملابسه التى تميز بين الغنى والفقير ، ومن ريائه ونفاقه ومظاهره التى اصطنعها ليجعل من الناس طبقات يتحكم بعضها فى بعض . ففى البحر تتساوى الرءوس ، لا غنىّ ولا فقير ، ولا ذو جاه ولا عديم الجاه ، ولا عالم ولا جاهل ، ولا حاكم ولا محكوم ، لا يتميزون بشىء إلا بلباس البحر. وفى الحقيقة ليس هو لباس البحر ، وإنما هو لباس البر ، فليس للبحر لباس إلا ماؤه . ودليل أنه لباس البر أن الناس حاولوا به أن يتميز بعضهم من بعض ، واتخذوا منه شعاراً للغنى والأناقة واللباقة والوجاهة ؛ والبحر لا يعرف شيئاً من ذلك ، إنما يعرف ذلك البر ؛ ومن أجل هذا لا يكاد ينغمس الناس فى البحر ، حتى يسدل — بمائه الأزرق الجميل — ستاراً على كل أثواب الرياء ، فلا ترى بعد إلا رءوساً عارية لا يميز بينها شىء من الصنعة ؛ ثم هو يرسل أمواجه تداعب الناس على السواء ، فتغازل الأسود كما تغازل الأبيض ، وتصفع الجميل كما تصفع القبيح ، وتعبث بلحية العالم كما تلعب برأس الجاهل ؛ وأحياناً يهيج هائجه ، وتثور حفيظته ، فيزفر من الغضب ، حتى ليكاد يخرج من إهابه ، ويطفر من ثيابه ، ويربدّ وجهه فيلفظ بالزبد ، وينتفخ ويرتعد ، ويرقص من غير طرب ؛ وهو فى هذه الحال لاينسى ديمقراطيته ؛ يأتى للباخرة الضخمة قد أخذت زخرفها وازّينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها فيبتلعها فى لحظة ؛ لا تغنى عنه محصنات العلم القديم ولا الحديث ، كما يبتلع أحياناً صبيا وديعاً وشيخاً ضعيفاً ، ليبرهن

نه لا يعبأ بقوة ولا ضعف ، ولا يخشى بأس كمىّ ، ولا يرحم ضعف أعزل ؛ سواء هو فى هزله وجده ، وسواء هو فى حلمه وغضبه . ما أجمل البحر . وما أجله ، وما ألطفه ، وما أقساه !

على أنه يظهر لى أن الطبيعة فى جملتها ديمقراطية لا أرستقراطية ، ولا أرستقراطية إلا فى الإنسان الكاذب ؛ فالشمس ترسل أشعتها الذهبية ، والقمر أشعته الفضية على الناس سواء : على المؤمن والكافر ، والأسود والأبيض ، والغنىّ والفقير ، والكوخ الحقير ، والقصر الكبير .

ويأتى الجوّ بريح سموم فتلفح وجوه الناس على السواء ، لا تميز عظيماً ولا حقيراً ، ولا شريفاً ولا وضيعاً ؛ ثم يأتى بريح طيبة تنعش الناس كذلك ، لا يعرف فى شىء من ذلك محاباة ، ولا يعرف طبقات ، ولا يعرف أى نوع من أنواع التفاوت التى تواضع عليها الناس ؛ ويرسل فى الصيف شواظاً من نار فيدخل على الأمير فى قصره ، وعلى الفقير فى كوخه ، فلا يهاب عظيما ، ولا يحتقر وضيعاً ؛ ويرسل فى الشتاء برده القارس ، فلا يستطيع أن يتقيه الغنى بصوفه وملابسه . ولا بمدفأته وناره ، كما لا يتقيه الفقير فى عدمه وبؤسه ؛ ثم تطلع شمس جميلة ، ويعتدل الجو ، فتحضن الطبيعة الناس على السواء ، وتكون لهم جميعاً أمّا حنوناً ، مشفقة بارّة . إن تحدَّثَ الباشا أو البك فى نفسه بأنه فوق طبقات العامة ، وأنه يستطيع فى شرع العرف والعادة أن ينعم بما لم ينعموا ، فتُفسح له الطريق ، وتخلى له السبيل ، وتفتح له أبواب المجتمعات ، ويعامل أولاده وأقاربه بما لا يعامل به الفقراء — فلن تحدثه نفسه أن يمتاز من الفقير فى حر ولا برد ، ولا نور ولا ظلام ؛ فإن أخطأ فى ذلك وظن أنه يغالب الطبيعة فى شىء من قوانينها صفعته صفعةً آمن بعدها بالقدر خيره وشره ، حلوه ومره ، وأدرك أنه إن

علا الناس بماله أو جاهه ، وإن تلاعب بأوضاع الناس لسخف الناس ، فهو أمام أوضاع الطبيعة حقير ذليل .

***

ثم يأتى القدر فينثر نعمه ونقمه ، وشره وخيره على الناس جميعاً ، فصحة فى الأغنياء والفقراء ، ومرض فى الأغنياء والفقراء . وتجد غنيا فاتر القوى منقوف الوجه ، يبيت يتضور من الألم ، ودَّ لو خرج عن كل ماله وجاهه لتعود إليه صحته ؛ وبجانبه فقير مستحكم الخلقة ، متين البنية ، ممتلئ قوة وشدة وصلابة — وتجد جمالاً فى الأغنياء والفقراء ، وقبحاً فى الأغنياء والفقراء ؛ فهذه فقيرة مشرقة الجبين صافية الأديم ، مفرطة الجمال ، معتدلة القوام ، لا تُفتح العين على أجمل منها حسناً ؛ وهذه سيدتها الغنية دميمة الخلقة ، منكرة الطلعة ، تنبو عن منظرها الأحداق ، وتتفادى من مرآها الأبصار ، تريد أن تتجمل بالصناعة والأصباغ والحلى والملابس فلا يزيدها ذلك كله إلا قبحاً ، على حين أن جارتها الفقيرة جميلة فى طبيعتها ، جميلة فى بساطتها ، جميلة حتى فى ثيابها المهلهلة .

وللقدر فى ذلك بِدَع — فأشهر طبيب فى القلب يموت بالقلب ، وأعظم جراح يموت بالتسمم ، وتلد الفلاحة الفقيرة فى الطريق وهى حاملة جرّتها مملوءة ماء على رأسها ، وتحمل طفلها وتذهب إلى بيتها سالمة غانمة ؛ وسيدتها الغنية يحلَّل دمها وغير دمها قبل الوضع ، ويعقم كل شىء فى حجرة ولادتها ، ويقف مشهورو الأطباء والطبيبات على بابها ؛ حتى إذا آذنت ساعة الولادة بالقدوم استخدم كل ما وصل إليه الطب الحديث ، والكيمياء الحديثة ، والعلم الحديث ، وأمعنت جمهرة الأطباء فى التطهير والنظافة واتخاذ وسائل الراحة والحصانة ، وغير ذلك مما لم أذكر منه إلا قليلا ؛ ثم هى بعد تصيبها حُمَّى النفاس ، ويقف كل من

الطب والعلم دهشاً حائراً ، ثم تسلم الروح إلى ربها ، والقدر يهزأ بكل ذلك

***

وهناك نوع من الأرستقراطية غريب : هو الأرستقراطية العلمية، فالمتعلمون ذوو الشهادات يعدون أنفسهم — وربما عدهم الناس أيضاً — نوعا ممتازاً من الناس ، يختلفون عنهم نوعا من الاختلاف ، ويرتفعون عليهم نوعا من الرفعة ، كما ترتفع طبقة الأغنياء وكما ترتفع طبقة الأمراء : فالمتعلم ينظر إلى أخيه الشقيق الجاهل نظرة فيها شيء من التعاظم ، وشيء من الازدراء ، وشيء من الغرور ، وإن ساواه فى الدم ، وإن ساواه فى الغنى أو الفقر ؛ وهو لغروره يظن أن شهادته تخوله الحق أن تكون آراؤه فى كل شيء خير الآراء ، وأن غير ذوى الشهادات لا يحق له أن يبدى رأياً بجانب رأيه حتى فيما ليس له اختصاص فيه .

وهو كذلك نوع من الأرستقراطية الكاذبة لا تعبأ به الطبيعة ولا تعيره أى التفات ، فقد جعلتْ بين المتعلمين أذكياء وأغبياء ، وجعلت بين الأميين أذكياء وأغبياء ؛ بل من غرور المتعلمين أن يسموا من لم يقرأ ولا يكتب جاهلا وأميا ونحو ذلك من الأسماء ، ويسمُّوا من يقرأ ويكتب متعلماً ، كأن وسيلة العلم والحكمة والعقل القراءة والكتابة وحدهما ! ونحن لو نحينا غرور المتعلمين جانباً لهزئنا بالقراءة والكتابة فى كثير من الأحيان ، ولوجدناهما وسيلة من وسائل الرقى ولكن بجانبهما وسائل أخرى ، ولوجدنا أنهما لا تستحقان هذا الغرور الذى ينشئ نوعا من الأرستقراطية ؛ فالحكمة فى تصريف الأمور لا تعتمد على التعليم الجامعى وسعة العلم كما تعتمد على الفطرة البشرية ، والغريزة الإنسانية ؛ ومن ثم قد ترى الجامعى الحائز لأرقى الشهادات العلمية ، وهو أخرق فى الحياة ، سفيه التصرف ، وأخاه — الذى يسمونه جاهلا أميًّا — حكيما فى تصرفه مدبراً لشؤونه وشؤون إخوته الجامعيين ، وترى الأمة قد تصاب على أيدى متعلميها فى

أحوالها السياسية والاجتماعية أكثر مما تصاب على أيدى جاهليها ؛ والفلاح القروى الأمى قد يرزق من الحزم فى تصريفه ، وبعد النظر فى آرائه ، وصدق الشعور فى وطنيته ، ما لا يرزقه أخوه الأستاذ فى الجامعة أو العالم الحائز لأرقى الدرجات العلمية ، بل قد يصدر من الرأى العام الجاهل فى شؤون وطنه وفى المسائل الهامة التى تعرض عليه ما يفوق رأى متفلسفة المشرعين ، وحيل القانونيين .

إن نظرنا إلى الذكاء ، فالذكاء مشاع بين المتعلم والجاهل ؛ وإن نظرنا إلى حكمة التصرف ، والحزم فى إدارة الأمور ، وتدبير شؤون الحياة — فذلك أيضاً أمر مشاع بين الناس ؛ ففيم غرور المتعلمين وإنشاؤهم أرستقراطية بجانب أرستقراطية الأموال والأعمال والطبقات ؟ يطالبون أن يكال لهم المال جزافاً ، ويطالبون ألا يهينوا أنفسهم فى عمل ، ويطالبون أن يكون ميراثهم من آبائهم أكبر نصيب ، ويطالبون أن يكون زبدة ما تخرجه الأمة لهم ، وحثالته لما يسمونه الجاهلين .

ما أسعد الأمة تخفف من غلوها فى أرستقراطيتها — بجميع أنواعها — وتقلد الطبيعة فى ديمقراطيتها واعتدالها !

ما فعلت الأيام

عرفته بالإسكندرية منذ عشرين عاماً ، شابا رقيق البدن ، ضئيل الجسم ، مسنون الوجه ، شاحب اللون ، أظهر مميزاته الرقة والتواضع والتدين ، حيّ الطبع ، شديد الخجل ؛ إن جلس فى قوم اعتقل لسانه ، وأطرق رأسه وأرخى عينيه ؛ وإن صدرت منه هفوة أو شيء ظنه هفوة تمنى لو ساخت به الأرض ، وظل يحاسب نفسه ويطيل تأنيبها ؛ فآثر الانفراد وأخلد إلى الوحدة ، واستأنس بالوحشة ؛ فقلّت معرفته بالناس ، وقلّت معرفة الناس به ؛ لا يعرف من العالم إلا مدرسته التى يُدَرِّس فيها ، وبيته الذى يأوى إليه ، ومسجده الذى يتعبد فيه ؛ فأما الحياة وشؤونها ، وجدها وهزلها ، وملاهيها وألاعيبها ، فلا يدرى منها شيئاً . لا يجلس فى مقهى لأنه يخلّ بمروءته ، ولا يذهب إلى تمثيل أو سينما لأنهما لا يخلوان من امرأة سافرة ، ولا يشترى شيئاً من بقال عنده لحم خنزير خوفاً من أن تكون سكينه التى يقطع بها الجبن والحلوى قد مست الخنزير ، فلا يطهرها مسح ، إنما يطهرها غسلٌ سبع مرات إحداهن بالتراب ، ويغض طرفه إذا سار حذر أن تقع عينه على امرأة .

أعز شيء عليه فى الوجود دينه ، ومثله الأعلى رجل ظهارته دين ، وبطانته دين . تفتير عينيه فى خشوع دليل على أنه قضى شطر ليله فى عبادة ومناجاة . أسبل عليه الدين نوعاً لطيفاً من الرضى بالقضاء والقدر ، فلا يأسى على فائت ، ولا يجزع على ميت ، ولا يستخفه الفرح لخير ، ولا يغلو فى الحزن على شر ؛ راض بما كان وما يكون ، فكل شيء بقضاء وقدر حتى العجز والكيس ؛ الرجل الطيب عنده من تدين ، ورجل السوء من لم يتدين ، ويستحيل على

رجل أن يكون طيباً إذا شرب كأساً من خمر ، أو لعب لعبة ميسر ، أو ترك صلاة أو زكاة . يوفق دائماً بين أعماله فى الحياة وأوامر الدين — إذا أراد الرياضة ذهب إلى سيدى بشر لزيارته ، أو لسيدى جابر لصلاة الجمعة فيه ، أو أخذ جزءاً من « الإحياء » وذهب إلى ربوة عالية يخلو فيها بنفسه ودينه وكتاب « الإحياء » . وإن أراد أن يحفظ شيئاً من الأدب حفظ فى « نهج البلاغة » لأنه يجمع بين البلاغة والدين ، وإن عرضت فرصة فى دراسته للغة العربية خرج من اللغة إلى الدين ، وانقلب واعظاً لتلاميذه ، حتى استطاع أن يكوّن منهم فرقة دينية تلتزم الصلاة والصوم وشعائر الدين .

عرفته اتفاقاً ، ولست أدرى الآن سبب المعرفة وكيف كانت ، وكل ما أذكره أنى عرفته ، وفى لمحة تحولت المعرفة إلى صداقة فحب ، فكان من خاصة إخوانى وأقربهم مودة إلى قلبى ، يأنس بى وآنس به ، ويُفضى إلىّ بدخيلة نفسه وكامن أسراره ، عطفنى عليه ظرف فيه ، وأرانى به رقة حواشيه ، وملأ نفسى رحمة عليه قسوته على نفسه وأخذه لها فى كل شىء بالأشد الأحزم . قد ملك الدين عليه نفسه ، فروّعه من كل نعيم خشية الحساب ، وهوّل عليه كل لذة خوف العقاب ، وغلبت عليه فى كل تصرفٍ فكرة الموت مخافة ما بعده ، إن قال له قائل : « ولا تنس نصيبك من الدنيا » قال : « ثم لتُسألُن يومئذ عن النعيم » .

على كل حال نعمنا بالصداقة حيناً تساهمنا فيه الوفاء ، وتقاسمنا الصفاء ، أسافر إلى الإسكندرية فأرى أول واجب علىّ أن أزوره ، ويحضر إلى القاهرة فيرى أول واجب عليه أن يزورنى ، وأكتب إليه ، ويكتب إلىّ ، ثم عفّى الزمان على الصداقة ففترت حرارتها ، وخمدت جذوتها ، لا لسبب إلا أن الصداقة ككل حىّ إذا لم تُغذّ بالمقابلة والمكاتبة أسرع إليها الذبول فالفناء .

* * *

ثم دارت الأيام دورتها ، وتعرفت فى الإسكندرية بانسان جديد ، فإذا هو صديقى القديم ، هو فى هذه المرة بدين بطين ، مطهم الوجه ، ريان السواعد ؛ كنت فى أيامى الأولى أقرأ فى أرنبة أنفه وصنماء جبهته آيات السذاجة والإخلاص ، وكنت أرى فى وجهه وجلسته عزوفاً عن الدنيا ، وزهداً فى الاستكثار منها ، ورضى بميسورها ؛ وكنت ألمح فى فتور عينه حياء العذراء وخجل المخدرات ؛ وكنت أرى فى نبرات صوته وحركات جفونه ونظرات عينه ديناً وورعاً ، فاذا كل ذلك قد استحال كما يستحيل الماء إلى ثلج ؛ وعلمت أنه قد ورث من أبيه فأثرى ، وسمحت لى الظروف بمخالطته فأدهشنى ما رأيت من تغير وانقلاب — رأيته وقد أماط عن وجهه قناع الحياء ، وخلع ربقة الحشمة ، يداخل الناس ويمازجهم ، حسن الصحبة ، جميل العشرة ، يضرب بسهم وافر فى المفاكهة والتنادر ، جيد القصص ، حسن الحديث ، لا يأنف من حديث فاجر إذا كانت فيه نكتة حلوة ، كثرت أصحابه على اختلاف منازعهم وطبقاتهم ؛ وهو عند كل جماعة منهم قطب الرحى ، يمتزج بأرواحهم ويتصل بقلوبهم ، خبير كل الخبرة بأندية اللهو وما إليها ، يعرف جد المعرفة برامج السينما فى كل أسبوع ، وما يمثل من روايات فى كل فصل من الفصول ، وعنده الخبر اليقين عن كل مغن ومغنية وفنان وفنانة أتت من مصر إلى الإسكندرية تغنى أو تمثل ، ذهب عنه خفر عينيه وأصبح يتعشق الجمال ويتتبعه ، ويحملق فيه ويشتهيه ؛ شغلت المسائل المالية جزءاً كبيراً من عقله ، فهو كثير التفكير فيها ، له ديون وعليه ديون ، وله قضايا وعليه قضايا ، وله دفاتر حساب دقيقة ، وله آمال مالية واسعة .

حادثته مرة ، وكان أشد ما أريد استطلاعه منه أن أعرف حال دينه الذى كان يملك عليه قلبه وعقله ، والذى كان يغمر حياته ويسيطر على كل خطوة من خطواته ؛ فاذا عقله حر شديد الحرية فى تفكيره ، قد تحرر من كل

قيد ، يعجب بالمدنية الحديثة ويستلهمها الرأى ويستوحيها النظر ، ويتخذ عماد منطقه ومصدر حكمه على الأشياء ما يفعله الأوربيون وما لا يفعلون . قد يعارض ما يراه من ضروب المدنية مبدأً من مبادئ دينه فيظهر عليه نوع من الارتباك والحيرة ، ويجمجم فى القول ويتبين فى قوله الاضطراب بين دين خالط لحمه ودمه شطراً من حياته ، وبين عقل نزع إلى الحرية فى آخر أيامه ، ويشعر بثقل الموقف على نفسه فيجتهد فى تحوير الحديث ، وتغيير مجرى القول إلى حيث يسترد كامل رأيه ، ومنتهى حريته . هـذا عقـله ، وأما قلبه فدينه فى رف من رفوفه ، لم يملأه ولم يخلُ منـه ، لذلك حِرت أن أسميه مؤمناً أو كافراً ، ماشَيْته مرة على البحر فرآه جميلاً جليلاً ، ورأى القمر يسطع عليه بنوره الساحر ، فصاح : هذا موضع سجود ، فصلى على الرمل ؛ ودعانى مرة إلى ملهى فكان فيـه كمن لا يؤمن بحساب ولا عقاب ؛ وهكذا تذبذبت حيـاته بين نزعة قديمة ، ونزعة جديدة ، ودين نشأ عليه ، وتحرر مال حديثاً إليه ؛ حيناً يتحرك دينه وينتفش حتى يعم قلبه ، وحيناً ينكمش وينكمش حتى لا يكاد يرى أو يحس .

***

حننت إليه لما بيننا من حب قديم ، ولـكن لست أدرى لم لم تتأكد بيننا الصداقة فى هذه المرة كما تأكدت من قبل ، أكان يعطفنى عليه دينه وقد رق ؟ أم كان يحننى عليه ما فيه من ضعف — مظهره الحياء والخجل ، وقد قوى فلا حياء ولا خجل ؟ أم كانت تؤلف بيننا وحدة فتعددت ، وأسلوب واحد فى الحياة فتفرقت بنا السبل ؟ لعله شىء من ذلك ، ولعله كل ذلك ، ولعله شىء غير ذلك ؛ على كل حال تركته وبيننا ودّ دخله العقل نخف ، وصداقة جال فى نواحيهـا الفكر ففترت .

لقد خليته ، وأنا أفكر فى شأنه ، لقد عاش شيخاً وهو شاب ، وعاش شابا

وهو شيخ . عصَى هواه صغيراً وأطاعه كبيراً ، فليته وُلدَ كبيراً ثم عاد صغيراً . وليت شعرى هو فى أى حاليه أسعد : أيومَ فرّ من العالم إلى دينه ، أم يوم فر من دينه إلى العالم ؟ — إنه ليمثل فى حياته العالَمَ خير تمثيل ، موجة دين تتبعها موجة إلحاد ، وموجة روحانية تتلوها موجة مادية ، وهكذا دواليك ؛ وما أدرى أيقف صديقنا فى تطوره عند هذا الحد ، أم يعود سيرته الأولى ، أم يختط مسلكا جديداً لا هو هذا ولا هو ذاك ؟ الله أعلم .

لذة الشراء

بالأمس ضحك منى بائع الكتب القديمة ، إذ رآنى أقلّب فى الكتب ، وأذهب ذات اليمين وذات الشمال ، وأصعد على الكرسى وأنزل من عليه ، والكتب بعضها بال عتيق قد غلف بالتراب وأكلته الأرضة ، وكلها وضعت حيثما اتفق ، لم يُعْنَ فيها بترتيب حسب الموضوع ولا حسب الحجم ولا حسب أى شىء ، ولم يُبْذَل أى جهد فى تنظيفها وعرضها ؛ فكتبٌ فى الأرض ، وكتب فى السماء ، وكتب فى الرف ، وكتب على المقاعد ، وكتب فى الممشى ؛ والبائع رجل تقدمت به السن ، زهدَ البيع وزهد الشراء ، وإنما يبيع ويشترى لأنه اعتاد أن يبيع ويشترى ؛ كل ما فى أمره أنه فضّلَ أن يجلس فى الدكان على أن يجلس فى البيت ، إذ يرى الرائحين والغادين ، ويستقبل الزائرين ، ومن حين إلى حين يبيع كتاباً أو كتابين .

وسط هذه المكتبة المغمورة بالكتب ، والمغمورة بالتراب ، والمغمورة بالفوضى انغمست ببذلتى البيضاء ، القريبة العهد بالكوّاء . أبحث عن كتب نادرة أشتريها ، وأتصفح كتباً أتعرف قيمتها ، فضحك إذ رأى غراماً بالكتب يشبه الجنون ، ورغبة فى البحث والشراء تشبه الخبل .

لا تضحك — ياسيدى — فإنما هى لذة الشراء أصيب الناس بها جميعاً ، وإن اختلفوا فى مقدار الإصابة ، فقد تهور فيها قوم ، واعتدل فيها آخرون ؛ وهى ظاهرة فى منتهى القوة والغرابة ، تتجلى بأجلى مظاهرها فى الهواة ؛ فهذا هاوى سجاجيد يُجَن جنونه إذ يرى سَجّادة قديمة ، صنعت فى أصفهان فى القرن الخامس عشر أو السادس عشر ، يحتقرها الرائى العادى ، ولا يرضى أن يأخذها ولا بالمجان ،

ويشمئز أن يراها فى بيته ، فإذا الهاوى يجرى ريقه ويتحلب فمه ، كأنه جائع سغب أمام أكلة لذيذة ، ولا يجد ثمنها فيستدينه ؛ وقد ينقصه الضرورى من وسائل العيش ومرافق الحياة فيغمَى عنه ، ولا يرى أمامه إلا السجادة وشراءها ولتكن النتيجة بعدُ ما تكون ، وسيتكفل الزمن بأداء الدين ، وليحمل الزمن وحده عبء ما يحتاج إليه من ضرورات العيش ، بل سواء أحلها أم لم يحلها ، فليس فى الوجود ما يعدل هذه السجادة .

وكذلك الشأن فى هاوى طوابع البريد ، وهاوى الكتب ، وكل الهواة ، نمَتْ عندهم على مر الزمان لذة الشراء لما يهوون ، وغذاها كثرة الشراء وأحاديث أمثالهم الذين يحيطون بهم و إظهارهم الإعجاب الشديد بما اقتنوا ، فإذا نظروا إلى سجادة عجبوا من لونها الباهت ، وخيوطها التى هلهلها الزمن ، وصُوَرِها غير المنسجمة ، ونحو ذلك مما يدل على إمعانها فى القدم ؛ وكلما كان خيطها أبلى ، ونسيجها أبسط ، وتصويرها أتفه ، كانت أشد استخراجاً للعجب ؛ وكانوا أكثر لها تقويماً ، وأشد لها إعظاماً ، وكانت لذة الشراء عند الهواة أشد طغيانا ، وهم أمامها أشد ضعفاً .

هذه اللذة — لذة الشراء — يستغلها أرباب « المزاد » فهم يثيرونها إلى أقصى حدودها ، و يبلغون بها مبلغاً جنونيًا ، فتحتدم اللذات ، ويخضع الشارون لتأثير الاستهواء ، و يغالون فى أثمان ما يُعْرَض حتى قد تفوق أثمان الشىء الجديد ؛ ولكن الشىء الجديد يُشْتَرَى والعقل الواعى فى سلطانه ، وأما أشياء « المزاد » فتشرى والعقل الواعى قد أسدل عليه ستار من الاستغواء والاستهواء ؛ ومن أغرب ما فى هذا النوع أنك ترى الكثيرين يندمون إذا اشتروا ، ويندمون إذا لم يشتروا !

ولذة الشراء هى السبب فى أنك تشترى لزوجتك و بناتك الثوب الجميل ،

أو الحذاء الظريف ، فتعرضه عليهن فلا يعجبهن ، ثم يخرجن ويشترين ما هو أقل منه جمالا وظرفاً ويعدن راضيات ؛ قد يكون السبب أن ما اشتريته ليس على ذوقهن ، وأن هناك فرقا كبيراً بين ذوق الرجال وذوق النساء ، وأنك إذ تشترى لهن تحكّم ذوقك فى ذوقهن ؛ ولكن يظهر لى أن ذلك فى كثير من الأحيان ليس السبب الصحيح ؛ وإنما السبب الصحيح أنك إذ تشترى لهن تحرمهن لذة الشراء وهى فى نفسها قد تفوق الشيء المشترى نفسه ؛ ويفسر هذا أن السيدة قد تخرج وليس فى نفسها شيء معين تشتريه ولا تحس حاجة إلى شيء يُشْترى ، وإنما هى — فى أعماق نفسها — تريد أن تغذى لذة الشراء عندها ، فما هى إلا أن تمر فى دكان سمعان أو شملا أو شيكوريل حتى تشترى ، وتشترى كثيراً ، وتشترى مالم يخطر لها على بال ، ثم ترجع راضية لأنها أشبعت لذة الشراء عندها .

ولو أن الناس — وخاصة السيدات — اقتصروا على شراء ما هم فى حاجة إليه لأغلقت دكاكين كثيرة ، ولقل العرض وقل الطلب ؛ ولكن لذة الشراء عندهم دفعتهم أن يشتروا مالم يحتاجوا ، وأوهمتهم فى كثير من الأحيان بالحاجة إلى ما ليس لهم به حاجة ؛ وإلا فما حاجتى إلى شراء كل هذه الكتب والمكتبات العامة مفتحة الأبواب ؟ وما الحاجة إلى شراء نسختين من كتاب واحد والتعلل فى ذلك بأتفه الأسباب ؟ وما الحاجة إلى ملء البيت بهذا الأثاث وأقل منه يكفى ويزيده حسناً ؟ وما الحاجة إلى شراء المرأة هذه الثياب المختلفة الألوان والأنواع ، وقد لا تحتاج إليها مرة فى الحياة ؟ — لاشيء إلا لذة الشراء .

ويحدث فى هذا الباب غرائب ؛ فما وقوفك على الدكاكين واستعراضك ما فيها إلا نوع مما تدعو إليه هذه اللذة ، فإن اشتريت فبها ، وإلا فهو نوع من

ظل اللذة ، كالسكير يتلذذ قليلا من رؤية الشار بين ولو لم يشرب معهم ، والمحب يسر بعض الشيء من رؤية المحبين يتواصلون ولو هجره هو حبيبه .

***

قد كان من المعقول والطبيعي أن الناس — وهم يتلذذون هذه اللذة الشديدة القوية بالشراء — يتلذذون كذلك لذة شديدة قوية بالمِلْكية ثم يستمرون على التنعم بها ، والتمتع الدائم بملكها ، ولكن جرى الأمر فى هذا العالم على غير ما يُتوقع ، فهم راغبون أشد الرغبة فى ملك الأشياء ، والملكية تذهب بلذتها . فالناس مولعون أشد الولع بالملكية حتى لو استطاعوا أن يملكوا القمر فى السماء لملكوه ، ولو ملكوه لحرموا جماله ؛ وهم مولعون أن يملكوا كل شيء إلى درجة الجنون ، حتى لو استطاعوا أن يسلبوا السماء زرقتها ، والمزارع بهجتها ، والبحار جمالها ليجعلوها فى حوزتهم لفعلوا ؛ وقد أدرك مَهَرة الباعة هذا الجنون فى الإنسان فتفننوا فى عرض ما يبيعون بحسن الوضع وتزويق المعروض وإيهام الترخيص ؛ وكثرة الإعلان فى شكل جذاب يوقع فى الوهم أن الشراء فرصة لن تعود ، وأن ملكية الشيء تملأ الحياة سعادة وغبطة . ولو أنك دخلت بيوت الأغنياء والطبقة الوسطى لرأيت كثيراً مما فيها لا حاجة بالبيت إليه ، بل قد حُمِّل أكثر مما يُطيق حتى ذهبت بساطته ، وزاد تعقده ، واحتاج إلى زيادة الخَدَم والأتباع للعناية بنظافته وترتيبه ، وجَعَل الحياة أكثر تعقداً وأشد ارتباكا ؛ وما دعا إلى هذا كله إلا لذة الشراء وجنون الملكية ؛ وما قصر الفقراء فى هذا إلا أنهم لا يجدون ما يطلبون ، ولو أتيح لهم ذلك لأفرطوا فى الشراء إفراط الأغنياء ؛ ولولا جنون الملكية لكانت الحياة أبسط ، ووسائل العيش أيسر ، والتنعم بها أتم .

وكأن الطبيعة العادلة أرادت أن تعاقب على هذا النوع من الجنون

فسلبت المالك أكثر ما يتصور من لذة ؛ فالشيء جميل لذيذ ممتع ، فيه كل ما يتمنى المرء من سعادة ما لم يُملك ، فإذا مُلك لم يجد فيه المالك كل ما يتصور ويتخيل ، وأصبح أقل قيمة مما أمّل ، ولا تزال قيمته فى نقصان حتى يصبح عاديا تافها كأنه والحرمان سواء .

فالقصر الجميل هو أجمل ما يكون فى عين من يمرّ به ، ويقل جماله شيئاً فشيئاً فى عين من له به علاقة ما ، حتى إذا بلغت المالك وجدْتَ القصر لا قيمة له فى نظره ، ووجدت شعوره به كشعور الفلاح نحو كوخه ، والفقير نحو عشه ؛ وكلما طال الزمن بالغنىّ تفه القصر فى نظره ، وحرم حرماناً تاما من لذة الملكية ، وصارت لذته خيالا فقط لمن يمر به ويتصور نعيم سكانه أو ملاكه .

وهذه قاعدة الحياة ؛ فأجمل أيام الزوجية قبيل الزواج ، أيام يتخيل المرء أو المرأة ما ينتظر من نعيم مقيم . وأيام يسبح خياله أو خيالها فى الآمال والأمانى التى لا حد لها ، ثم تصدمه أو تصدمها الملكية أو شبه الملكية ، فإذا كل شيء مألوف .

وأُجَنّ بالكتاب قبيل شرائه وعند شرائه ، وأبيت ليلة وأنا أحلم به ، ولا أسمح لنفسى بالنوم ليلة الشراء قبل تصفحه ومعرفة ما فيه أو على الأقل عناوينه ، ثم يوضع فى المكتبة وينسى وكأنه لم يملك .

والأملاك الواسعة والغنى الوافر أمل الناس جميعاً ؛ ولو درسوا — فى دقة — حال الأغنياء وشعورهم لوجدوا الفرق الواسع بين ما يتخيلون وما يدرسون ، ولوجدوا أن أكثر الأغنياء يعانون الكثير من غناهم ؛ ولو عقلوا وخف عنهم جنون الملكية لنزلوا للمجتمع عن شيء مما يملكون ويعانون ، فسعدوا وأسعدوا .

أليس عجيباً فى هذه الحياة أن ألذ شيء فى الملكية خيالها ؟

صندوق السكتاكيت

كان أمس من أيام الشتاء المشهودة . ريح صِرّ ، وليل قُرّ ، حتى خَصِرَت اليد ، وقفقفت الأسنان ، ويبست الأطراف ، وتجلى « أمشير » بأجلى ما وسم به من هوَج ورَعَن ، حتى لو كان طفلا لسال لعابه ، أو رجلا لسقطت عنه التكاليف!

ثم انجلى الليل عن صبح بديع : سماء صافية ، وشمس مشرقة ، حاولت أن آتى لها بتشبيه جديد ، فكانت الشمس فى السماء أجمل من كل تشبيه قديم وحديث .

غادرت حجرتى إلى حديقتى الصغيرة المتواضعة فوجدت خادمى قد سبقت ، فأخرجت صندوق السكتاكيت إلى الشمس لينعم ما فيه بحرارتها ودفئها — وقع عليه نظرى ، وصادف ذلك منى تفكيراً فى موضوع أكتبه .

شعرت إذ ذاك بشخصيتين من نفسى تتناظران مناظرة عجيبة عنيفة أسجلها للقراء :

— لم لا يكون (صندوق السكتاكيت) موضوعاً طريفاً ؟

— إنه موضوع تافه لا يليق بأستاذ فى جامعة ، ولا بمدرس ولا بمساعد مدرس . إن الجامعيين وأمثالهم يجب أن تكون موضوعاتهم فى أعلى السماء ، أو أعمق الأرض ، ويجب أن تصبغ بصبغة ميتافيزيقية ، ويكون فيها الجوهر والعرض ، والكمية والكيفية ، والأنّيّة والعلِّية . أما صندوق السكتاكيت فموضوع يثير الهزء والسخرية ، ويستخرج من النفس عاطفة الازدراء والاحتقار .

— ليس ذلك بصحيح ، فكل شىء فى الحياة موضوع أدب ، وخير الأدب ما مس الحياة الواقعية ، واستخرج من تافه الأشياء فكرة بديعة ، أو رأيًا

طريفاً . لقد قال تعالى : « إن الله لا يستحيي أن يضرب مثلا ما ، بعوضة فما فوقها » والكتكوت خير من البعوضة من جميع الوجوه ، فالبعوضة منبع ألم ، والكتكوت منبع لذة — والبعوضة إذا كبرت كانت أقوى على اللدغ وأقدر على الإيلام ، والكتكوت إذا كبر كان دجاجة أو ديكا ، يسيل لعاب الإنسان إذا تصوره على مائدة أنيقة ، أو تخيله وقد أنضجه طاه ماهر .

وضرب الله الذباب مثلا ، فقال تعالى : « إن الذين تَدْعُون من دون الله لن يخلقُوا ذباباً ولو اُجتَمعوا له ، وإن يسلبْهم الذبابُ شيئاً لا يستنقذوه منه ، ضَعُفَ الطالب والمطلوب » . وأين الذباب من الكتكوت ؟ وقد سُمِّيَتْ فى القرآن الكريم سور منه بالبقرة والنحل والنمل والعنكبوت !

وقرأت لأديب كبير لا أذكره الآن مقالا بديعاً فى زنبار أراد أن يخرج من شباك فاصطدم بزجاجه ، وحاول مراراً أن يخرج فلم يستطع ، فاستخرج الكاتب من ذلك قطعة فنية طريفة فى الحرية والاسترقاق ، وكيف يبحث الزنبار عن حريته فلا يجدها ، ثم هو لا ينساها مهما صادفه من عقبات ، وتحمل من آلام .

وكتب فيكتور هوجو قصة طريفة عن برغوث أنقذ أمة من الأمم سُلط عليها حاكم ظالم لم تستطع حمله على العدل ولا إبعاده عن الحكم .

وبعد هذا وذاك كتب مستشرق كبير معاصر كتاباً جمع فيه ما قيل فى الأدب العربى عن « البراغيث » . واقترح عليه مستشرق آخر أن يسمى الكتاب « صيحة المستغيث من البراغيث » إلى ما لا يعد ولا يحصى .

إذاً فنظرتك فى اختيار الموضوع وأنه يجب أن يكون « أكاديميًا » ، وأن يُعَنْوَن عنواناً ضخماً يستعمل فى اختياره كل ضروب التكلف والتعمق والفلسفة ، نظرة أرستقراطية بغيضة يجب أن تتخلص منها وتهزأ بما جرى عليه العرف فيها .

عى هـذا النحو ظلت الشخصيتان تتناظران ، وظللت أصغى إليهما وأقيد أفكارهما ، إلى أن طال الأخذ والرد ، وأشفقت على القراء استرسالهما فى الجدل ، وحاولت أن أبتعد عن الصندوق ، وأهرب من الموضوع فلم أستطع .

أيها الـكتكوت ! فيك كل معانى الحياة ومشكلاتها ومظاهرها . فاسمك — أولا — كتكوت ، ويجمع على كتاكيت ، ولم أدر من أين أُتى لك بهذا الاسم ، فقد راجعت القاموس المحيط ولسان العرب ، وغيرهما من كتب اللغة ، فلم أجد فيها هذا اللفظ للدلالة عليك ، ولا يستعمله إلا أهل مصر . أما أهل الشام والعراق فلا يعرفونه . أتعمدت اللغة العربية إهمالك لحقارتك ؟ ذلك ما لا أظن ، لأنى أعلم أن اللغة ديمقراطية تُعْنَى بالجليل والحقير على السواء ، بل اللغة العربية مفرطة فى الديمقراطية ، فقد وضعت لأتفه الأشياء أسماء تعد بالمئات ، واحتقرت أشياء عظيمة فلم تضع لها اسماً للآن كالراديو والبيانو ومئات من المخترعات الحديثة ؛ بل هم وضعوا لك اسماً آخر هو « الفَرْخ » ولـكن الفرخ غير مقصور عليك ، شاركك فيه كل صغار الطيور حتى استعملوه أحياناً فى صغار الشجر والنبات . وأخيراً علمت أنهم وضعوا لك اسم (الفَرُّوج) فلم يطلقوه على غيرك من صغار الحيوان ، ولـكنهم أشركوا معك فيه نوعاً من الملابس وغيرها ، ولعل العامة كانوا لك أشد إنصافاً فوضعوا لك اسماً خاصا ، ومن أولى بالتخصص منك ؟

وبعـدُ ، فلا أدرى من أين أتى اسمك « الـكتكوت » فسأتركك لعلماء اللغة والاشتقاق ومقارنة اللغات ، من سريانية وآرامية وفارسية وعبرية وهيروغليفية ، لعلهم يجدون لك أصلا . وعلى كل حال فقـد أثبتَّ أن فيك مشكلة من مشكلة الحيـاة العظمى ، وهى مشكلة اللغة ، وستثبت أن لك مشكلة أخرى أعظم من هذا وأعقد . فهب أن علماء اللغة استنكروا هذه الكلمة ، فأين سلطانهم على لفظك الذى تداولته العامة ونطقت به قروناً ؟

فهل إذا صدر قرار بمحو هذه الكلمة لأنها ليست عربية يسمع ويطاع ؟ على أى وجه من الوجوه أنت مشكلة حتى فى اسمك .

هذه هى الخادم قد رمت الحب للكتاكيت ، فلا تسأل عما كان بينها من خصام ونزاع ، ومباراة وسباق ، وضرب وطعان .

وهل الإنسان إلا هذا ؟ وهل تاريخ حياته إلا نزاع وصراع ! وقد عبروا عن ذلك أصدق تعبير فقالوا : إن الحياة جهاد — أو ليس أكبر باب فى كتب التاريخ هو تاريخ الحروب والفتوح ، و إعلان الحرب ، ومعاهدات الصلح ! وكل الفرق بينك أيها الكتكوت و بين الإنسان أنك استعملت فى جهادك ونزاعك منقارك الوديع ، وجسمك اللين الغض ، وجاء الإنسان الراقى ، فاستعمل فى الحصول على غذائه الكذب والخديعة والرياء والنفاق ، واستعمل فى مدافعة خصومه كل طرق الكيد والدهاء ، واستخدمت الجماعات فى حربها كل أنواع المدمرات والمهلكات — وقد أعطى الإنسان عقلا أرقى من عقلك لينظم عيشه فأفسده ، ولينظم السلم فنظم الحرب ، وليعاون أخاه فعاداه .

أيها الصندوق !

فيك تنازع البقاء و بقاء الأصلح ، فيك استكانة الضعيف وغلبة القوىّ ، فيك الضعيف يكره العراك ، وفيك القوى يصول ويجول و يدعو إلى النزال ، فيك الجمال ، وفيك القبح .

— استأنستَ أيها الكتكوت بالإنسان صغيراً ، ثم علمتك التجارب ففررت منه كبيراً .

وكنت مادة صالحة للغذاء ، كما كنت مادة صالحة للأدب ، فمن قديم استعيرت منك الاستعارات اللطيفة ، والأبيات الجميلة ، فقد قال الشاعر :

أرى فتنة هاجت و باضت وفرّخَتْ ولو تُرِكَتْ طارت إليها فراخُها

وفى حديث عمر : « يا أهل الشام تجهزوا لأهل العراق فإن الشيطان قد باض فيهم وفرّخ » .

ثم قالت العامة : « الكتكوت الفصيح من البيضه يصيح » .

وأخيراً ، فيك سر الحياة الغامض — كيف دبت الحياة فيك يوم كنت بيضة ، وكيف تطورتَ جنيناً ، وكيف نبض قلبك لأول مرة ، وكيف خرجت إلى هذا الوجود ، وكيف تموت ، ولم خرجت ولم تموت ؟ لو أفصحت لنا عن كل هذه الأسرار لكشفت سر الوجود ، ولما كان هناك مجال لفلسفة ولا حكمة ؛ ولكنك أعجزت الفلاسفة ، إذ كتمت سرك بين جناحيك ، فهامت الفلاسفة على وجوهها ، وارتبكت فى تفكيرها .

إذاً فيك أيها الصندوق الصغير ، كل ما فى العالم الكبير ، من معانى الحياة وغوامضها وأسرارها ، وفيك كل مظاهر الإنسان على تبجحه وغروره — وفيك ما حير العقول قروناً ، وأجهد الفكر أجيالا . وهل العالم إلا لغز ، لو حل جزؤه حل كله ؟ . .

الأحنف بن قَيْس

ضئيل الجسم ، صغير الرأس ، متراكب الأسنان ، مائل الذقن ، ناتئ الوجنة ، غائر العينين ، خفيف العارضين ، أحنف الرِّجْل ، ليس شيء من قبح المنظر إلا وهو آخذ منه بحظ ، تنبو عن مَرْآه الأحداق ، وتتفادى من شخصه الأبصار ؛ وهو مع هذا سيد قومه ، سيد تميم ، وهى ما هى فى العظمة ، إن غَضِبَ غضب لغضبته مائة ألف سيف لا يسألونه فيمَ غضب ؛ خطير النفس ، بعيد المرمى ، ما زال يَسُود حتى بلغ مرتبة لا يسمو إليها أمل ، ومنزلة لا يتعلق بها دَرَك ؛ إذا أوفد والٍ وفداً إلى خليفة فالأحنف أحد أعضائه أو رئيسه وخطيبه ؛ وإذا اختلف الأمراء على الخلافة فالأحنف أول من يفكرون فى اصطناعه ، وإذا حزب الأمر وعَظُم الخطب ، فالأحنف من يُفْزَع إليه فى المشورة . دوّى اسمه بين المسلمين فى الأحداث الأولى للإسلام ، وخرج منها — على كثرتها وتعقدها واضطراب الأهواء فيها — نقى السيرة يُقر بعظمته من كان له ومن كان عليه ، وظل اسمه عَلَماً رفيعاً فى نواح مختلفة على مر الأزمان ؛ إن أُرِّخت الحروب الإسلامية فأحد قادتها وغزاتها ، وإن ذُكرت الأخلاق فأحد أشرافها ونبلائها ، وإن أُرِّخ الأدب والخطب والحكم والأمثال فهو ابن بَجْدَتها .

ولد قبل الإسلام ، ولكن لم ينل شرف الصحبة ، ووقف من أول أمره وهو فتى موقفاً يدل على قوة عقله وصدق نظره ، فقد أرسل رسول الله (ص) رجلا إلى بنى سعد — رهط الأحنف — فجعل يعرض عليهم الإسلام ، فقال الأحنف لقومه : « إنه يدعو إلى خير ، ويأمر بخير ، فلِمَ لا نجيب دعوته ؟ » .

وسرعان ما ساد تميما ، وهى قبيلة من أعز القبائل وأقواها وأشرفها ، كانت

تسكن مساحة كبيرة من جزيرة العرب ، وانقسمت تميم لكثرتها إلى فروع كثيرة كانت تتعادى أحياناً وتتحالف أحياناً ؛ ولذلك لم يكن عجيباً أن يتهاجى الفرزدق وجرير شر هجاء ، وكلاهما من تميم ، ولكنهما من فرعين مختلفين .

حاربت تميم نفسها ومن حولها فى الجاهلية ، وشغلت حروبها أياماً كثيرة من أيام العرب ؛ وكان لتميم راية فى الحروب خاصة على صورة العُقَاب ، كما كانت راية بنى أسد على صورة الأسد — ثم أسلمت وحسن إسلامها ، ولكنها ارتدت أيام الردة إلى أن ردها خالد بن الوليد إلى الطاعة ، وكفّرت عن ردتها بما بذلت من جهود فى الفتوح ، حتى إذا تم الفتح سكن بعضُها الكوفة وبعضها البصرة ، وكان الأحنف بن قيس سيد تميم البصرة .

أنجبت تميم كثيراً من نوابغ الشعراء لا يعنوننا الآن ، كما أنجبت كثيراً من السادة والأشراف والعظماء ، وكانوا سلسلة كسلسلة الذهب متصلة الحلقات يتعلم بعضهم من بعض خلق السيادة كما يُتَعَلّم العلم على الأساتذة ، وكان أستاذ الأحنف بن قيس فى ذلك « قيس بن عاصم » المِنْقَرى التميمى ، الذى قال فيه رسول الله لما رآه : « هذا سيد أهل الوبر » ، وقد قيل لقيس هذا : صف نفسك ، فقال : أما فى الجاهلية فما هممت بملْأمة ، ولا حُمت على تهمَة ، ولم أُرَ إلا فى خيل مغيرة ، أو نادى عشيرة ، أو حامى جريرة ؛ وأما فى الإسلام ، فقد قال الله تعالى: « ولا تُزَكّوا أنفسكم » . وقد نزل فى البصرة ، وتعلم الأحنف منه الحلم ، ولما مات قال فيه القائل :

عليكَ سلامُ الله قيسَ بنَ عاصمٍ ورحمتُهُ ما شاء أن يترحّما
وما كان قيس هُلْكُه هلكَ واحدٍ ولكنه بنيانُ قومٍ تهدّما

خلف الأحنف قيساً فى السيادة ؛ وكان أبو موسى الأشعرى والياً على البصرة فبعث بوفد منها إلى عمر بن الخطاب ، فكان الأحنف أحدهم ، وخطب

بين يدى عمر يسترعيه النظر لأهل البصرة ، فأعجب به عمر وقال : « هذا والله السيد ! » فدوّت هذه الكلمة فى الأنحاء .

أكثر الواصفون فى ذكر الأحنف ومزاياه وسيادته ، والسيادة أنواع ، وقد ترى لكل سيد طعما لا تجده فى سيد آخر ، ولكل سيد نقطة تتركز فيها عظمته قد لا يشركه فيها سيد آخر ؛ فسيدٌ عظمته فى شجاعته ، وسيد عظمته فى سخائه ، وسيد عظمته فى قول الحق يجهر به والسيف على رأسه ؛ فإن نحن سئلنا عن مركز العظمة فى الأحنف ، فعظمته كانت تتركز فى خصلتين تتصل إحداهما بالأخرى اتصالا وثيقاً : أنه مُنِحَ نظراً صائباً يتعرف به المحاسن والمساوى ، ومعالى الأمور وسفاسفها ، وقَلَّ أن يخطئ فى ذلك ؛ ثم منح إلى ذلك إرادة قوية يحمل بها نفسه على ما أدرك من معالٍ ومحاسن مهما كلفه من مشقة ، وحَمَّله من جهد ؛ فلو علم أن الماء يفسد مروءته ما شربه ، وهى — كما ترى — نقطة ارتكاز تحمل فوقها كثيراً من الفضائل ، على حين أن نقطة الارتكاز عند كثير من الناس لا تحمل إلا فضيلة واحدة .

وهذا يفسر كل ماروى عن الأحنف : كان لا يعبأ بالمال ، وكان لا يعبأ بالحياة ، وكان يفر من الشرف والشرف يتبعه ، وكان يخضع للحق إذا لزمه خضوع الذليل المستخذى ، وإذا كان الحق بجانبه دافع عنه دفاع المستأسِد الضارى ، يقف أمام على وأمام معاوية وأمام زياد بن أبيه ، فيجهر بالحق الصريح من غير مجمجة ولا مواربة ولا يبالى ما بعده .

تولى فى زمن عمر بن الخطاب فتح خراسان ، فدوّخ الفرس ومَلِكهم يزدجرد ، ولقى من الحروب ما تشيبُ من هوله الولدان ، ولكنه صَبَر وظفر ، وأنجد ملكَ الفرس التركُ وأهل فرغانة والصُّغْد ، فلم يكن فيهم أمام الأحنف وجنده غناء .

ووقف الأحنف العربى البدوى وليد الصحراء فى شملته يطارد يزدجرد

المتوّج ، ربيب النعمة ، وعُصَارة المدنية ، وسليل الأكاسرة ، ونتاج الحروب المنظمة بين فارس والروم ، فى العدد والعديد ، والجنود والبنود ، فظفر التميمى بسيد فارس ، وطارده حيثما حل حتى جاوز حدود بلاده وخرج منها لا إلى رجعة ، وأقبل أهل فارس على الأحنف فصالحوه ودفعوا إليه الخزائن والأموال وتراجعوا إلى بلدانهم وأموالهم ، على أفضل مما كانوا عليه زمن الأكاسرة .

فلما نشبت الحرب بين على ومعاوية رأى الحق فى جانب علىّ فانضم إليه بقومه ، وأعانه بسيفه ورأيه ؛ فاشترك معه فى حرب صِفّين ونصحه ألا يكون أبو موسى الأشعرى حَكَمًا ، وظل مخلصاً له العمل والقول حتى قتل علىّ . ودانت البـلاد لمعاوية ، فأطاع معاويةَ فى شمم وإباء . دخل عليه يوما فقال له معاوية : أنت الشاهر علينا سيفك يوم صفين ؟ فقال له : يا معاوية لا تذكر ما مضى منا ولا تردّ الأمور على أدبارها ، فإن السيوف التى قاتلناك بها على عواتقنا ، والقلوب التى أبغضناك بها بين جوانحنا ، والله لا تمدُّ إلينا شبراً من غدر إلا مددنا إليك ذراعا من ختر ، وإن شئت لتستصفين كدر قلوبنا بصفوٍ من عفوك . فقال له معاوية : فإنى أفعل . ثم استرضاه ومن معه .

ولما أراد معاوية أن يبايع لابنه يزيد أخذ الناس يتكلمون فى مدح يزيد والثناء عليه ، ويمدحون معاوية على عمله ، والأحنف ساكت . فقال له معاوية : مالك لا تتكلم يا أبا بحر ؟ — وكانت كنيته — فقال قولته المشهورة : « أخاف الله إن كذبت ، وأخافكم إن صدقت » . فكانت كنايته أبلغ من التصريح .

بعد أن قتل علىّ رأى من مصلحة المسلمين أن يشايع الأمويين ، فإن هذا أقرب إلى الوحدة وأدعى إلى الألفة ، حتى مع ما هم فيه من ظلم أحياناً وطغيان أحياناً ؛ يدل على ذلك تاريخه وأقواله ، فقد استنصر به الحسن بن علىّ على معاوية فلم يجبه وقال : « قد بلونا حسناً وآل حسن فلم نجد عندهم إيالة الملك ولا مكيدة

الحرب » — وكان بينه وبين عبد الله بن الزبير جفاء ، فلم يشايعه فى الخروج ، ورأيناه ينصح قوماً من تميم أرادوا أن ينضموا إلى ابن الزبير ألا يفعلوا .

ولـكنه كان يطيع الأمويين وولاتهم طاعة الحازم العاقل ، يتقدمهم فيما يرى ويمحضهم النصح فى صدق وإخلاص ؛ وله موقف مع زياد من خير المواقف أثراً فى تاريخ الإسلام ، فقد همّ زياد أن يقتل الموالى لـكثرتهم ومزاحمتهم العرب ، فاستشار الأحنف فقال : إن ذلك ليس لك ، إن رسول الله لم يقتل من الناس من قال لا إله إلا الله وشهد أن محمداً رسول الله ، وإنهم غَلّة الناس ، وهم الذين يقيمون أسواق المسلمين ، أفتجعل العرب يقيمون أسواقهم قصابين وقصارين وحجامين ؟ فأذعن زياد لرأيه ونزل على إشارته ؛ ويقول الأحنف إنه ما بات ليلةً أطولَ منها ، خشية أن ينفّذ زياد فـكرته .

ووقف فى البصرة موقفاً بديعاً يصلح بين القبائل المختلفة المتعادية من الأزد وبكر وعبد القيس ، ويبذل من ماله دِيَاتٍ لما يقع من القتل حتى يلتئم صدعهم ويجتمع شملهم ويعيشوا فى البصرة عيشة هادئة مطمئنة .

لقد عابوا عليه أنه ذُكر أمامه الزبير بن العوام عند ماترك القتال يوم الجمل ومر ببنى تميم ، وقال : جمع الزبير بين الناس يقتِّل بعضهم بعضاً ويريد أن ينجو إلى أهله ! فتبعه رجل سمع هذا القول فقتله ، فقال الناس : إن الأحنف قتل الزبير بكلامه .

كما عابوه بأنه كان سميعاً مطيعاً لجاريته « زَبْراء » حتى كان الناس يكنون عن وقوع الحرب بقولهم « غضبت زبراء » لأنها إذا غضبت غضب الأحنف ، وإذا غضب الأحنف شُرِعَت الأسنة وانتُضِيَت السيوف .

ولـكن أى عظيم لا يعاب ؟ وكفى الأحنف نبلا أن كانت عيوبه من هذا القبيل لا تخدش شرفاً ولا تجرح عرضا .

وللأحنف ناحية أخرى بديعة ، هى ناحية أدبية غزيرة أمدت كتب الأدب العربى بغذاء صالح قوى ، هو ما روى عنه من جمل حكيمة جمعت إلى حسن اللفظ وقوته ، جودة المعنى وصحته ، ونضحت عليها صفاتُ الأحنف النبيلة الشريفة ، وكانت خلاصة لحياة حافلة بالتجارب . كانت هذه التجارب والمعانى فى رأس أرسطو اليونانى الفيلسوف فصاغها صياغة علم وفلسفة ، وكانت فى رأس الأحنف ابن قيس العربى البدوى فصاغها فى شكل حكم وأمثال وجمل موجزة ، تحمل معانى غزيرة ، فكان لكلٍ مزايا منهجه فى النظر ، ومنهجه فى القول . لقد وصل الأحنف فى الإسلام ما بدأ به أكثم بن صَيْفِيّ من الحكم فى الجاهلية ، وزاده الإسلام غزارة وفيضاً ؛ وكانت حياته العملية من حروب واتصال بالسلطان والولاة وخبرة بالناس ونزاعهم وأنظارهم ، وسيادته وكثرة سؤال الناس له عما سوَّدَه — مداداً صالحاً يستقى منها حِكَمه وأقواله .

من أجل هذا كله نال عند الناس منزلة قلّ أن يطمع فيها طامع ؛ يعجب الناس بعقله حتى يقول سفيان : ما وُزِن عقل الأحنف بعقل أحد إلا وزنه ، ويعجبون بسيادته وهيبته حتى يقول القائل :

إذا الأبصار أبصرت ابن قيس ظلِلْن مهابةً منه خشوعا

فلله الأحنف قائداً فى الحروب لا يبارى ، ولله الأحنف سيداً فى قومه مطاعا ، ولله الأحنف حكيما مجربا ، ولله الأحنف بليغاً مفوها ، ولله السعدية إذ رثته فقالت : « نسأل الله الذى ابتلانا بموتك ، وفجعنا بفقدك ، أن يوسع لك فى قبرك ، وأن يغفر لك يوم حشرك ، فلقد عشت مودوداً حميدا ، ومت سعيداً فقيدا ؛ ولقد كنت رفيع العماد ، وارِيَ الزناد ، ولقد كنت فى المحافل شريفا ، وعلى الأرامل عطوفا ، ومن الناس قريبا ، وفيهم غريبا ، وإن كانوا لقولك مستمعين ولرأيك متبعين . رحمنا الله وإياك » .

أكاذيب المدنية

لكل مدنية جانبان : جانب يصح أن نسميه « الجانب المادّى » ، وجانب يصح أن نسميه « الجانب الروحى » .

ونَعنى بالجانب المادى القوة الحسية وما يتبعها وما يُمِدُّهَا ؛ فالتسليح وما إليه قوة مادية ، والمخترعات الحديثة — من كهرباء وبواخر وقطارات وطائرات وغواصات — قوة مادية ؛ وما اخترع من صنوف الترف — كاستخدام الكهرباء فى شؤون الحياة ، واستخدام القوى الميكانيكية فى تنظيم الأعمال — قوة مادية ؛ بل إن الوسائل التى تستخدم لهذه الغاية ، كالعلوم الرياضية والطبيعية والكيمياوية والطبية هى أيضاً قوة مادية ، لأن نتيجتها فى الحياة هى هذه المخترعات والمستكشفات التى تزيد فى ترف الناس ونعيمهم من الناحية المادية ، بل المدارس والجامعات التى تعلّم لهذه الغاية هى قوة مادية للدولة .

والقوة الروحية هى رسم المَثَل الأعلى للإنسان ، والسعى فى الوصول إليه ، وهى العمل على إصلاح النوع الإنسانى بأكمله من الناحية الفردية ومن الناحية الاجتماعية والسياسية ، وهى تعويد الإنسان أن يفكر ويشعر ويعمل لخير الإنسانية ، حتى تقرُب من المثل الأعلى لها ، وهى أن يخفق قلب الإنسان بحب الناس جميعاً ، وبحب الخير العام لهم جميعاً ، وهى أن يوضع من النظم ومن طرق التربية ومن القوانين ومن المعاهدات ما يحقق هذه الغاية أو على الأقل ما يقرّب منها ، وعلى الجملة هى تغذية الروح بحب الخير للإنسانية .

وليس يمكن أن تُعَد المدنية مدنية راقية إلا إذا وجد فيها الجانبان ، وكانا معاً راقيين ، وكانا متوازنين .

فلننظر — فى ضوء هذا القول المجمل — إلى المدنية الحديثة ، أهى مدنية صالحة ؟ أهى مدنية راقية ؟ أهى أمل الإنسانية ؟

الحق — مع الأسف — أنها ليست كذلك .

لقد نجحت فى الجانب المادى نجاحاً فوق ما كان يُنتظر ، وفشلت فى الجانب الروحى فشلا أبعد مما كان ينتظر ؛ فأما الذين يهمهم الرُّواء والمنظر وحُسن الشكل والمتعة المادية فقد صفّقوا للمدنيـة الحديثة حتى كلّت أيديهم من التصفيق ، وبحت أصواتهم من نداء الاستحسان ؛ وأما الذين يهمهم من الإنسان روحه لا جسمه ، ومن المادية روحها لا مادتها ، فنالهم شىء غير قليل من اليأس . أما المادية فحدِّث عنها ولا حرج ، لقد حلّقت الطيارات فى السماء ، وغاصت الغواصات فى قاع الماء ، وأتت الكهرباء بالسحر الحلال ، تضغط على زر فتبعث ما شئت من أنوار ، وتضغط على زر فتبعث ما شئت من حرارة ، وتضغط على زر فتبعث ما شئت من حركة ؛ هـذا التليفون بين أوربا وأمريكا ، وهذا اللاسلكى يفعل أعاجيبه ، بل كيف أعُدّ والمخترعات لا تحصى عدداً ، والعجب منها لا ينتهى أبداً ، حتى ظننا أن العالم احتفظ بأسراره كلها منذ خُلق ، ثم باح بها جميعها لرجال المدنية الحديثة ، فلم يعد لديه سر ، وكل ما فى الأمر تصفية حساب الأسرار .

ولـكن لا تخدعنك هـذه المظاهر ، فالمثل العامى يقول : « لا يعجبنك البيت وتزويقه ، فساكنه قد جف ريقه » ، لا تنظر إلى المكان وانظر إلى السكان .

هذه مشكلات العمال العاطلين ، وهذه الملايين المملينة من البائسين ، وهذه الحروب الطاحنة فى أسبانيا ، بين الشيوعيين والفاشستيين ، وهذه الدول كلها تتسلح لتقذف بأبنائها جميعاً فى أتون من نار مساحته الأرض

كلها ، وهذا وهذه ، مما لا يعد من ضروب الشقاء .

هذا هو القصر السعيد ، فأين سكانه السعداء ؟ وهــذه هى السفينة الجميلة المعدة بكل وسائل الإعداد ، فأين برّ السلامة ؟ وهــذا « الفرح » ، فأين «العريس» ؟ !

سر هذا الشقاء كله طغيان جانب المادة على جانب الروح . سر هذا كله أن المدنية الحديثة عجزت عن أن تنظر إلى الإنسان كوحدة على الرغم من أنها قرّبت بطرق المواصلات والمعاملات بين أجزاء العالم . لقد قربت فى المكان وباعدت بين السكان ، تقدمت فى علم الجغرافيا ولم تتقدم فى علم الاجتماع ، استكشفت الجبال والوديان والصحارى والأنهار والبحار ، ولم تستكشف قلب الإنسان ، عملت على وحدة الإنسان جغرافيًا ، وعملت على تفريقه اجتماعيًا ؛ فما أغرب شأنها ، وما أصح عينها ، وما أضعف ذكاءها !

لقد تساءلت المدنية : كيف نعيش ؟ فحسّنت كيف نعيش ، ولـكن لم تتساءل لِمَ نعيش ، وكيف يجب أن نعيش ، وما الغاية التى لأجلها نعيش ، فلم تتقدم فى هذا الباب شيئاً .

إن العلم كان وسيلة صحيحة لتحسين كيف نعيش ، ولـكن العلم لا يكفى للإجابة عن بقية الأسئلة ، فلم يكن وسيلة صحيحة لها .

لقد ابتكرت المدنية الحديثة فـكرة الوطنية فكانت سبب شقائها ، ومصدر محنتها ، وفقدانها روحانيتها .

لقد كانت الأسْرة هى الوحدة ، ثم كانت القبيلة ، ثم كانت المدينة ، ثم كانت أهلَ الدين الواحد ، ثم كانت فى المدنية الحديثة الأمة ؛ ولـكن فى كل ذلك شقاء ، ولا يمكن أن يسعد العالم حتى تأتى مدنية تجعل الإنسانية كلها هى الوحدة ، وهى الغاية ، وهى المثل الأعلى .

فكّر فى أكثر شرور هذا العالم ، وكلما بدا سبب فارجعه إلى علته الأولى ، تصل أخيراً إلى أن علة العلل ضيق هذا النظر فى جعل الأمة لا الإنسانية هى الوحدة ؛ فالتسلح ، والحروب الماضية ، والحروب المستقبلة ، وكثرة العاطلين ، وغلاء الأسعار ، والخصومات بين الأحزاب ، والخصومات بين الأمم ، وعدم وجود المال الكافى للإصلاح الاجتماعى ، سببه كله هذه النظرة الضيقة ، نظرة الساسة المستبدين إلى أمتهم ، يؤيدهم من وراء ستار رجال الأموال والأعمال ، وحتى الرجال الذين كانوا موضع الأمل فى إعزاز جانب الروح ، وهم رجال الدين أصبحوا — كذلك — رجال سلطة .

هذه المدنية التى شرحتها طغت على كل شىء ؛ فالأخلاق أساسها هذه المادية ، وبرامج التعليم أساسها الوطنية ، ومالية الدولة مشلولة بالأغراض الحربية ، والآلات المخترعة جعلت أصحاب الأموال والحكومات ينظرون إلى الإنسان نظرهم إلى ترس فى آلة ، واستغرقت المادة كل تفكير المفكرين ، من اقتصاديين وماليين وعلماء وحكوميين ؛ ومن اتسع تفكيره لإصلاح روحى أو لإصلاح اجتماعى صدم بميزانية الدولة التى أسست على النظرة المادية ، وصدم بالحالة الدولية العامة ، كالذى كان فى عصبة الأمم ؛ فقد خذلت وأصيبت فى صميمها لأنها حاولت محاولة بسيطة أن توجه تيار المدنية الحديثة إلى الناحية الروحية ، فلما كانت البيئة التى حولها لا تساعدها اختنقت وأصبحت هى الأخرى جسما بلا روح ؛ ثم أصبح الناس جميعاً وقد فقدوا حريتهم الحقيقية ، على الرغم من الطلاء الكاذب من المناداة بالحرية ؛ فالحالة الاقتصادية المادية سلبت الناس حريتهم ، وجعلتهم يعانون أشد المعاناة وسائل العيش ، ولا حرية لهم فى التخلص منها ؛ وكلما زادت المدنية زادت مطالب الحياة ، وتعقدت سبل الحصول عليها ، وشعر الناس بضيق من شدة الضغط ؛ وهل مع هذا حرية ؟ والناس يرون

الحرب أزمة المدنية ؟ ولكن هذا خطأ ؛ فالحرب نتيجة سوء المدنية ، ومظهر لحقيقة سوء الحال الاقتصادية والمادية ، لا أن الحرب نفسها هى الأزمة ؛ فالحرب هى عقرب الساعة التى نراها ، ولكن العقارب نفسها ليست إلا مظهرا للآلات الدقيقة المستورة تحت العقارب ، وإذا رفعت العقارب لم يتغير سير الآلات فى شىء ، وكل ما فقدناه هو المظهر والعلامة .

لقد أعْلَت المدنية الحديثة شأن العقل وغالت فى تقديره ، وآمن رجالها بأنه وحده هو الأساس الصالح للحياة ، فكان من نتيجة ذلك ازدهار العلم إلى حد بعيد ، وزادهم تحمساً له ما كان من نتائجه الباهرة فى المخترعات والآلات ؛ ولكنهم بعد سيرهم الطويل ، ونجاحهم الباهر فى هذه السبيل ، اصطدموا بحقيقة مؤكدة ، وهى أن العلم وحده وما تبعه لم يكن السبيل لإسعاد الإنسان .

وأظن أن قد ظهرت موجة علت نفوس الناس تشعرهم بأنهم لم يكونوا بعد العلم أسعد مما كانوا قبل العلم ، وتشعرهم بأن المدنية ينقصها شىء كبير .

ما هو هذا الشىء ؟

هذا هو الجانب الروحى الذى أشرت إليه ؛ ولست أنكر مزية العلم ، ولكنى أعتقد أنه وحده لا يكفى . إنى أفهم من المدنية معنى خاصا ، هو أنها « التقدم الذى يقوم به الناس فى كل جانب من جوانب الحياة ، وفى كل وجهة من وجهات النظر المختلفة » ؛ فإذا انحصر التقدم فى المادة وحدها والعلم وحده ، كانت المدنية ناقصة ، كما إذا انحصر التقدم فى الروحانية وحدها .

لقد رجحت فى المدنية الحديثة كفة المادية ، فيجب أن نضع فى الكفة الخفيفة روحانية كثيرة حتى تتوازن ؛ ولكن ماهذه الروحانية التى نريد وضعها ؟

هى أن يخفق القلب بحب الإنسانية كلها ؛ فليس هناك أمة مستعمِرة وأمة مستعمَرة ، وليس هناك أسود وأبيض ، وليس هناك أصحاب رءوس أموال

يتخذون الملايين خدمًا وعبيداً . هى أن يتجه من بيدهم زمام الأمور إلى الخير العام لا الخير الخاص .

هى أن تلغى الحدود الجغرافية ، والحدود الجنسية ، والحدود الوطنية ، والحدود المالية ونحوها من حدود ، ثم يكون المبدأ العام « الإنسان أخو الإنسان يكد ويعمل لخيره » .

هى أن يكون مبدأ الإنسانية دينا يُبَشَّر به ويعمل من أجله ، وتحوّر مناهج التعليم وقواعد الأخلاق على حسبه .

لو فعلنا ذلك لزالت أكثر شرور المدنية الحديثة من حروب وعطلة وتناحر بين العمال وأرباب الأموال ، ولتعاون الشرق والغرب ، وتعاون أهل الأديان المختلفة ، ولشعر الإنسان بأن أفق تفكيره اتسع ، وأفق شعوره اتسع ، وشعر أن الأرض كلها وطنه ، والناس كلهم إخوانه ، ولشاع الحب فى جو الأرض ، وأصبحنا نستنشقه مع الهواء .

وما لم نصل إلى هذا الحد فالمدنية مجموعة أكاذيب .

المصالحة

من الواضح أن اللغة الحية تتبع الحياة الواقعية للأمة التى تتكلم بها ؛ فإذا استعملت الأمة آلة من الآلات أوجدوا لها اسما للتعبير عنها ، وإذا اخترعوا مخترعا أو استكشفوا عنصراً أو ركّبوا تركيباً جاءت اللغة مباشرة فكملت نقصها بوضع اسم لذلك الشىء الجديد ، فتمشت اللغة مع العلم والفن والصناعة ؛ وكذلك الشأن فى المعانى ، فإذا استكشفوا ظاهرة فى علم النفس وضعوا لها اسمها ، و إذا شعروا بمعنى من المعانى فكذلك . ويكثر استعمال الألفاظ فى اللغة ويقل بقدر وقوع الشىء فى الحياة العملية وأهميته ؛ على حين أن أمة أخرى لا تستعمل هذا اللفظ فى لغتها ولا ما يرادفه و يقابله ، لأنها لم تشعر بهذا المعنى ولم تستعمله .

سقنا هذه المقدمة لمناسبة أننا رأينا فى اللغة الإنجليزية كلمة تدور على ألسنتهم كثيراً ، ويستعملونها فى كتبهم كثيراً ، ثم لا نجد لها مقابلا يستعمل فى لغتنا العربية ؛ وهذه الكلمة وأمثالها فى اللغة الإنجليزية يصقلها الاستعمال ، ويتحور مدلولها على مرّ الأزمان ، تبعاً لما يجرى عليه العمل .

تلك الكلمة هى Compromise ، وقد تنقلت فى استعمالات مختلفة حتى صارت الآن تستعمل بمعنى حسم النزاع بين فردين أو أمتين أو حزبين ، وذلك بتنازل كل منهما عن شىء من وجهة نظره ومن مطالبه ، واتفاقهما بعد ذلك على نتيجة هى وسط بينهما ، أخذتْ بطرف من هذا وطرف من ذاك ، وقربت بين وجهة نظر هذا ووجهة نظر ذاك .

وهذه الكلمة بهذا المعنى تدور فى الكتب وعلى الألسنة دوراناً كبيراً ، لأن حياة الإنجليز الأخلاقية والسياسية تخضع لهذا المعنى كثيراً ، فهو مسلكهم فى نفس

النزاع بين الأفراد فى المعاملات اليومية ، وفى الخلاف بين أفراد الأسرة ، وفى الأحزاب السياسـية ، وفى المفاوضات بين الدول ، وهكذا ؛ وعلى الجملة فقـد استعملوا هذا المعنى كثيراً فى حياتهم فـكثر استعماله فى لغتهم .

ولـكنا لا نستعمله كثيراً فى حياتنا فلم نشعر بما يلجئنا إلى استعماله فى لغتنا ؛ فإنا إذا تنازع فردان منا أو حزبان صمم كل منهما على وجهة نظره إلى النهاية غالبا مهما كانت نتيجة ذلك من الخراب ، واعتقدَ الاعتقاد الجازم أن رأيه كله صواب لامحالة ، ورأى مخالفه كله خطأ لامحالة . ولأجل هذا لايسمح أن يدخل فى صوابه شىء من خطأ مخالفه . أما هذا الخلق الذى تدل عليه هذه الـكلمة الإنجليزية فيتطلب أن يحترِم ذو الرأى رأى مخالفه ، ثم يجيز فى باطن نفسه أن يكون رأيه خطأ ورأى مخالفه صوابا ، أو على الأقل يجوز أن يكون فى رأيه بعض الصواب و بعض الخطأ ، وفى رأى مخالفه بعض الصواب و بعض الخطأ ، فيحملهما ذلك على أن يتقاربا و يتفقا على حل وسط .

لا أجد أقرب فى اللغة العربية للدلالة على هذا المعنى من كلمة « مصالحة » ، فمن معانى المصالحة القانونية فى كتب الفقه أن يكون بين اثنين خصومة وكل منهما يدّعى بحق ، فيأخذ كل منهما بعض حقه و ينزل للآخر عن بعض حقه ، فإذا وسعنا هذا المعنى وجعلناه يطبق على المعنويات كما طبق على الحقوق المالية كانت هـذه الكلمة أليق للدلالة على كلمة Compromise الإنجليزية ، ثم إذا أكثرنا استعمال هذا المعنى فى حياتنا اليومية اضطر الناس للتعبير عنه بهذا اللفظ فصقل وأخذ حيزه من الأفكار ومن المعاجم .

و بعد ، فما الدائرة التى يستعمل فيها هذا اللفظ ، وأى مناحى الحياة يستخدم فيها ؟

إنى أرى أن الحياة العملية فى جميع مناحيها مضطرة إلى استخدام المصالحة أو التصالح ، وهذا من أهم الفروق بين المنطق النظرى والحياة العملية ؛ فالمنطق بنظرياته يحكم أحكاما صارمة ، فهذا أبيض وهذا أسود ولا شىء من الأبيض بأسود ، وهذه القضية صحيحة أو خطأ ولا شىء بينهما ، وهذا الرأى حق أو باطل لا محالة ؛ أما الحياة العملية فليس فيها هذه الأحكام القاطعة الحاسمة ، ولكن فيها المصالحة سواء كان ذلك فى النواحى الأخلاقية أو القانونية أو السياسية ، فكل — إنسان إن دققت النظر فيه — مسرح صغير تلعب فيه الفضيلة والرذيلة وتتحاربان ، ثم تتصالحان على أن تتنازل الفضيلة عن بعض تشدداتها ، وتتنازل الرذيلة عن بعض استهتارها . وما الفضيلة فى الحقيقة إلا الرذائل معدلة أو منقحة .

فالإنسان المتوحش كان يعيش بغرائزه ، فلما تمدن عدلت هذه الغرائز المتوحشة وسميت فضائل . فالفضائل بالنسبة للرذائل كالزهرة فى البستان والزهرة فى الوادى ، أو كالقط المستأنس بالنسبة إلى القط المتوحش . فالرغبة الجنسية الفطرية عند المتوحش تحولت إلى حب لطيف فى المدنية ، والقتل والغارة والانتقام عند المتوحشين دخل فيها العقل والنظام فصارت قانونا وسياسة وعدلا عند المتمدنين . والأنانية عدلت فصارت الثقة بالنفس واحترام النفس ونحو ذلك مما يعد فضائل ؛ والحرب بين الأفراد والجماعات دخلها التعديل فسميت منافسة مشروعة كالمنافسة بين التجار والعلماء والأدباء ، والمنافسة بين الأمم .

ومالنا نذهب بعيداً ، ونظرية أرسطو فى الأوساط وهى أن كل فضيلة وسط بين رذيلتين ، ليست فى الحقيقة إلا من هذا القبيل ؛ أى أن هناك رذيلتين تعادلتا وتصالحتا فكان منهما الفضيلة ، فالجبن والتهور تصالحا فكانت الشجاعة ، والبخل والسرف تصالحا فكان الكرم ، والفجور والخمود تصالحا فكانت العفة .

بل لعل هذا هو الشأن فى العلم والأدب . فالخرافات وأوهام المتوحشين

صارت خيالا خصبا عند المتمدنين ينتج الشعر والقصص ، والتنجيم عند الأولين صار علم الفلك عند الآخرين ، والسحر والكهانة فى الجاهلية أصبحا علم النفس فى العصور الحديثة ، وتحويل المعادن إلى ذهب فى القرون الوسطى أصبح الكيمياء فى القرون القريبة ، ووصفات العجائز والمعالجة بالتجارب أصبحت على مر الزمان علم الطب بعد أن دخلها كلها التعديل والمصالحة .

وهـذا هو الشأن فى القضاء ؛ فنى القضية يتولى محامون جانباً من جوانب القضية يبذلون علمهم وفصاحتهم ومهارتهم الخطابية والقانونية فى أحقية جانبهم ، ويفعل مثل ذلك محامو الجانب الآخر ؛ ثم يقف القاضى موقف الناظر إلى الجانبين ويفاضل بين وجهتى النظرين ، فقد يقتنع بجانب منهما ويقضى به ، ولـكن فى كثير من الأحيان يلجأ إلى المصالحة ؛ ولست أعنى أن يصلح بين الخصمين ، ولـكن أعنى أن يرى لكل خصم جانبا من الحق وجانباً من الباطل فيصالح بين وجهتى النظر ويشتق منهما معاً حكمه ، فهذا هو التصالح .

فإن نحن جئنا إلى السياسة فمجال القول ذو سـعة ؛ فالأحزاب السياسية البرلمانية تقوم فى قضايا الأمة العامة مقام المحامين فى القضايا الشخصية فى المحاكم ، كل يؤيد رأى حزبه ويدعمه بالحجج ، ويبين الخطأ فى وجهة نظر خصمه ، ثم يقوم الاقتراع على الراى مقام القاضى فى المحاكم ؛ وفى كثير من الأحيان تكون المصالحة أيضاً ، أعنى أن يتنازل كل حزب عن بعض رأيه ويأخذ ببعض رأى الآخر وهكذا ، نزولا على قاعدة أن كل حزب يجب أن تسيّره مصلحة الأمة لا مصلحة حزبه الخاص .

فمعنى الحزب السياسى جماعة لهم مبادئ معينة يرون أن الحـكومة يجب أن تسير عليها لتحقيق مصلحة الأمة ، ولهم وسائل معينة فى تحقيق هـذه المبادئ ،

ولهم خطة معينة فى ترقية الأمة من ناحية يرون أنها أهم النواحى ، وهم يعملون للوصول إلى الحكم لتحقيق هذه الأغراض النافعة للأمة .

والحكم فى صلاحية حزبهم — أو بعبارة أخرى فى صلاحية مبادئهم أو عدم صلاحيتها — هو رأى الأمة فى الانتخاب .

ولكن مبادئ كل حزب إذا نزلت من سماء نظريتها إلى حياتها الواقعية تبين أنها فى حاجة إلى تعديل و إصلاح ، وأن مبادئ الأحزاب الأخرى قد يكون فيها من الخير ما ليس عند غيرها ، فتتصالح المبادئ .

هنا النظر يلطف حدة كل من المتخاصمين ، ويحمل كل خصم على احترام خصمه كما يحترم نفسه ، وألا يعتقد أنه هو وحده العاقل الأمين وأن خصمه هو الجاهل الخائن ، بل يعتقد أن له وجهة نظر جديرة بالاحترام ، ولخصمه وجهة نظر أخرى جديرة بالاحترام كذلك .

و بعد فلعل ما يصيب الشرق الآن من اضطراب سياسى سببه أنهم لم يعرفوا هذا الخلق ولم يفهموا سره ، ولذلك لا يجدون أنفسهم فى حاجة إلى البحث عن كلمة تدل عليه .

أعتقد أن الخصومات الفردية تتلطف كثيراً بهذا الخلق ، وأن الخلافات الحزبية تفقد حدتها إذا سارت عليه .

فهذا الخلق يجعل الأحزاب السياسية المتنازعة تحترم وجهة نظر خصومها ، وتنظر إليهم كأشراف لا مجرمين ، وتعاملهم معاملة الند لا معاملة المتهم ، وترى أن الحزب إذا تولى الحكم فليس يحكم حزبه ولكنه يحكم الأمة على اختلاف أحزابها ، فهو مطالب أن يعدل فى خصمه كما يعدل فى مؤيده ؛ وهذا الخلق يجعل صاحبه ينظر إلى خصمه كما تنظر كل فرقة فى لعب الكرة إلى الفرقة الأخرى ،

كلهم يتسابقون ويتراكضون ، وكل فريق يود الغلبة ، ولكن قانونهم جميعاً فى اللعب هو قانون الشرف ؛ فإذا انتهى اللعب صافح كل خصم خصمه ، ولا غل ولا ضغينة ، وتبين لهم أن الخصومة كانت مصطنعة ، وأن الغرض قد تحقق للغالب والمغلوب معاً ، وهو الرياضة البدنية للجميع .

كم أتمنى أن ينتبه الناس لهذا الخلق « خلق المصالحة » وأن يكرروه وأن يستعملوه فى لغتهم وفى معاملتهم ، وأن يضعوه فى أول ثبت الأخلاق بجانب الصدق والشجاعة والعدل .

المادة لا تنعدم

هكذا يقول علماء الكيمياء ويشرحون قولهم ، ويبرهنون عليه ، ويرون أن المادة تتغير وتتحول وتعود إلى عناصرها الأولى ، ولكن لا تنعدم ؛ والعالم كله كساقية جُحا ، تغرف من البحر ، وتصب فى البحر ؛ فقد يحترق هذا المكتب الذى أمامى ، لا قدر الله ، ولكنه لا ينعدم ، بل يتحلل إلى عوامله الأولية ، وسيتغذى منها النبات ، ويتكون منها خشب جديد ، قد يكون مكتب المستقبل .

قال الكيميائيون ذلك ، وقصروا قولهم على المادة ، لأنها مادة عملهم ، وموضع تجاربهم .

ولو عَرَض لهذا فيلسوف واسع النظر ، غير محدود البحث ، لقال : « لا شىء ينعدم » .

إن الاعمال من خير وشر لا تنعدم ، بل تنمو وتتحول ، وتؤثر وتتأثر ، ولكن على كل حال لا تنعدم . إن كذبة واحدة تكذبها على أولادك فى بيتك — من غير أن تعيرها اهتماماً — لا تنعدم ، فسوف تبيض وتفرخ وتنتج كثيراً من أمثالها ، وسوف يكذب أولادك ، وستخرج الكذبة من حجرتك إلى سائر بيتك ، وستخرج من بيتك إلى المدرسة ، وستخرج من المدرسة إلى مصالح الناس ومعاملتهم ، فكيف تنعدم ؟

قد يدق العمل ويصغر حتى لا تراه أعيننا ، ولا تسمعه آذاننا ، ولا تشعر به نفوسنا ؛ ولكنه موجود ، يعمل عمله فى هذا الوجود ، ويفعل وينفعل ، ويتسع نطاقه ، ويعمل فى دوائر مختلفة قد لا تخطر بالبال ؛ وما أظنك تجهل أن

حصاة ترميها فى البحر الأبيض المتوسط لا بد أن يتأثر بها المحيط الأطلنطى ، وإن لم تر ذلك عيوننا ؛ والدليل على ذلك بديهى ، فلو كبرت هذه الحصاة ملايين المرات ، أفلا تؤمن بهذا الأثر ؟ إذاً فآمن بأن هذه من تلك ، وعلى نسبتها ومقدار حجمها . وجزء من ألف من الشعرة له ظل حقيق ، وإن لم تره عيوننا ، ولولا ذلك لما كان لألف ألف شعرة ظل ، ولما كان لثوبك الذى تلبسه ظل .

وعملك الخير مهما صغر ، له أثره فى أمتك مهما صغر ، أعلنته أو أسررته ، نجحت فيه أو فشلت ، علم الناس أنك مصدره أو لم يعلموا : وهل مقياس رقى الأمة وانحطاطها إلا عبارة عن عملية حسابية مركبة من جمع وطرح ، جمع لما صدر منها من حسنات ، وطرح لما صدر من سيئات ؟ لتكن هذه العملية أشد ما تكون من صعوبة ، ولتحتج إلى ماشئت من آلات دقيقة للجمع والطرح ، فإن طريقة الحل لهذه المسألة فى منتهى البداهة .

وليس الأمر مقصوراً على الأعمال ؛ فإذا قلنا « الأعمال لا تنعدم » فهو تكرير لقول الطبيعيين « المادة لا تنعدم » ، وهل الأعمال إلا نوع من المادة ؟ بل الأفكار والآراء من هذا القبيل ، فالفكرة لا تنعدم ، والرأى لا ينعدم ؛ فإذا دعوت إلى فكرة ، أو جهرت برأى ، فقد أخرجت إلى الوجود خلقاً جديداً ينطبق عليه القانون العام ؛ قد ينجح الرأى وتعتنقه الأمة ، بل يعتنقه العالم ، وتظهر آثاره فى أعمال الناس وحياتهم ونظامهم ، فتسلّم معى بأنه لم ينعدم ولكنه قد يفشل ؛ وقد يستعمل الناس فى اضطهاده وحربه كل أنواع الأسلحة المشروعة وغير المشروعة ، والرفيعة والوضيعة ، حتى يختفى ولا يظهر فى الوجود ، فتظن إذ ذاك أنه انعدم ، وهو ظن غير موفق ؛ فقد يختفى ليعود إن كان صالحاً ، وقد يحدث قبل أوانه ، فيستتر وينكمش ، ويبقى حيا يتغذى فى

الخفاء ، وتنميه الأحداث ، حتى إذا تم نموه ، وتهيأ الناس له ، برز إلى العيون ثانية أو ثالثة ، وهو أصبر على مقاومة الحرب ، وأقوى على مصارعة الباطل ، حتى يكتب له النجاح — وحتى إذا كان الرأى فاسدا سيئا لا يصلح لحال ولا لمستقبل فليس مما ينعدم ، إنما هو يتحول ويتحور ، كلوح خشب لا يصلح بحالته أن يكون شُبّاكا فينجر ، أو لوح زجاج ليس بالحجم الذى تريده فيصغر ، أو حديدة لا يناسب شكلها وحجمها فتوضع فى قالب جديد بعد أن تصهر ؛ وهكذا فى الرأى يغير ويعدل ، ويطعم بآراء أخرى حتى يخرج خَلقا آخر ، ولكنه فى كل ذلك لا ينعدم . وفرق كبير بين أن تقول : فشل الرأى وفشل المشروع ، وأن تقول : انعدم الرأى وانعدم المشروع . فالفاشل موجود والمعدوم معدوم ، وشتان بين الموجود والمعدوم . فالرأى الفاشل أو المشروع الفاشل شىء حى قد تلقى درساً من الفشل ليصبح بعدُ رأياً قويماً ومشروعا ناجحاً ، وهذا لا ينطبق على المعدوم .

بل أذهب إلى أبعد من ذلك ، وأرى أن العارض يمر على النفس ، أو الخاطر يخطر بالذهن ، لا يضيع ولا يذهب سدى ولا ينعدم ، وإنما هو دخان قد يكون بعدُ سديما ، ثم قد يكون السديم كوكباً يلمع أو نجما يتألق ، وقد يكون على العكس من ذلك صاعقة تحرق ، أو وميضاً خلباً يبرق ؛ وعلى الحالين فسيكون مولوداً جديداً ، شقيا أو سعيداً . أليس كثير مما يعترينا — من حزن يسبب الكسل والخمول والملل ، أو فرح يدعو إلى العمل — سببه طائف مجهول طاف بالنفس ، وخطرة متنكرة خطرت لها ، فغيرت حالها وكيفتها تكييفا خاصا فى هذا الوجود ؟ أوليس كثير من الآراء التى أسبغت على هذا العالم نعما ، وكثير من المشروعات التى عم الناس خيرها أو شرها ، بدأت خطرة ثم كانت فكرة ، ثم أصبحت بعدُ عملا ؟ أليس مما يكوّن الإنسان خطراته ، فهو خيّر أو شرير بخطراته ، وهو بائس أو منعم بخطراته ؟ ولو كشف عنا الحجاب لقرأنا فى صفحات الإنسان خطا

عميقاً خطته فى نفس الإنسان خطراته وآراؤه ، وهو أدل على الإنسان من مظاهره الكاذبة ، ومناظره الخارجية الخادعة .

وعلى الجملة فإن قال علماء الكيمياء : إن المادة لا تنعدم ، فكل ما فى الوجود يقرر أن « لا شىء ينعدم » . إن كان هذا حقا فويل للخيّر يقعده عن الخير أنه لم ير بعينه آثار عمله ، وويل للخيّر صرفه عن خيره نكران الجميل وجحد المعروف ، وويل للمجدّ عدل به عن جده أن لم يسبّح الناس باسمه ، ويشيدوا بذكره ، ومرحى لمن كان مبدؤه « الخير للخير ، ولا شىء ينعدم » .

نجار ونجار

استأجر دكانا أمام منزلنا الأسطى حسن النجار .

وهو شاب فى نحو الثلاثين من عمره ، مهزول الجسم ، أصفر الوجه ، ينتعل نعلا بالية ، ويلبس ثيابا رثة ، وعلى رأسه طربوش أسفله أسود ، وأعلاه أحمر ، قد دفعه إلى الوراء ليُظهر « قُصَّته » من شعره ، فرّعها فروعا ورفعها إلى السماء لتناطح السحاب .

ينظر إليك بعين منتفخة كأنه قريب العهد دائماً بنوم طويل ثقيل ، ويمشى متطرحا كأن فى رأسه دائما فضلة خُمار ، وعلى وجهه غبرة كأن الماء لم يمسه أبداً ؛ أقوى شىء فيه لسانه فى السباب ، وصوته فى النزاع .

ليس لفتح دكانه أو إغلاقه موعد ، ولا لعمله وراحته وقت محدد ، يحلو له أحيانا أن يغلقه فى الصباح ويفتحه فى الظهر إذا بدأ الناس يَقيلون ، وأحيانا يسره أن يتركه مغلقاً طول النهار ويفتحه ليلا حيث يبدأ الناس فى النوم ، فيضىء مصباحه ، ويخرج عدده وأدواته فى الشارع ، ويأخذ فى نجارته ما حلى له ذلك ، فحيناً إلى الفجر ، وحيناً إلى الصباح ؛ تحاول أن تصده عن ذلك وتنصحه فيظهر الطاعة ثم يستمر فى خطته ؛ وأحياناً تنقلب دكانه فى الليل حانة يجتمع وأصحابه فيتنادمون ويتشاربون ؛ حتى إذا تمشت الخمر فى مفاصلهم ، ودبت فى عظامهم ، ذهبت بهم كل مذهب ، وأخذت منهم كل مأخذ ، فتغنوا أحياناً ، ووقع الغناء فى نفوسهم أحسن وقع ، وصاحوا جميعاً بصوت واحد : آه ! ممدودة ما طاوعتهم أنفاسهم — وأحياناً يعدلون عن الغناء إلى تبادل النكات ، ويعقبون كل نكتة بضحكة عالية تسر نفوسهم وتخرق آذان جيرانهم.

وإذا فتح الدكان نهاراً فمعرض غريب ، لا لجودة المصنوعات ، ولا دقة المعروضات ، ولكن لأصحاب الحاجات قد أتوا يطالبون بإنجاز أعمالهم ، والشكوى من تأخير طلباتهم ؛ ثم يصل الأمر فى أغلب الأحيان إلى تدخل البوليس ، وأحياناً يكون ما هو أدهى وأمرّ ، إذ يكون قد سلّم إليه صاحب حاجة دولابه أو كرسيه لإصلاحه ، فلم يجد دولابه ولا كرسيه ، لأن الأسطى حسن اضطرته الحاجة الملحة فباعه وأضاع ثمنه .

وهكذا أصبح شارعنا بحمد الله معرضاً فى النهار للسباب والمنازعات والخصومات والبوليس ، ومنتدى جميلا ليلا لأهل السماح الملاح ، إلى الصباح .

وأخيراً عدت من عملى يوماً فرأيت الزحام شديداً على دكان الأسطى حسن ، وإذا جلبة وضوضاء ، وصياح يملأ الآذان ، وإذا المنادى ينادى لبيع عدد النجارة وأدواتها .

منشار فى حالة جيدة !

عشرة قروش — أحد عشر — اثنا عشر

ألا أونا — ألا دو — ألا تريه .

وهكذا حتى تم بيع كل مافى الدكان ، وفاء لأجرتها خمسة شهور تأخرت على الأسطى حسن .

وكان شعورى إذ ذاك مزيجاً من غبطة وألم ، وحزن وفرح ؛ فقد آلمتنى خاتمته ، وأفرحنى ما منّيت به نفسى بعد ذلك من نوم هادئ سعيد .

ودعوت ربى جاهداً ألا يرغب فى الدكان مستأجر بعدُ ، فإن كان ولا بد فكوّاء أو عطار ، لا نجار ولا بائع فراخ ولا مبيض نحاس ؛ وقصرت شكواى على الله بعد أن جربت البوليس فوجدته لا يأبه لهذه السفاسف ، وليس له من الزمن ما يلفته لهذه الصغائر .

ولكن أبى القدر أن يستجيب دعوتى — وكأن الدكان وقفٌ على سكنى النجارين — فقد سكنها هذه المرة أيضا نجار، ولكنه من صنف آخر، هو نجار رومى، لم أشعر بسكناه إلا بعد شهر، إذ لم يكن فى عمله شىء غير عادى، فهو يفتح دكانه وقت العمل، ويغلقها عند الغروب، وينجر فتندمج أصوات دقاته ونجارته فى أصوات البائعين وحركات المارين.

دعوته يوما لإصلاح دولاب، فإذا شاب يشترك مع الأسطى حسن فى سنه، ويختلف عنه فى كل شىء آخر، جميل الهندام، وإن لم يكن ثمينه، صفف شعره فى إناقة ولمعان، بينما اعتنى الأسطى حسن « بقصته » فقط — عمل عمله فى هدوء وإتقان، وكأنه يحترم نفسه ويحترم عمله، ويقدّر نوع معيشته وما يلزم لها، فطلبَ ضعف ما كان يطلبه زميله فدفعته راضيا.

له فى جوارنا ستة أشهر أو تزيد، لم أسمع صوته، ولم أسمع شاكيا من تأخر موعد أو تصرف سيء؛ ولم يقلق راحتى كما أقلقها مَن كان قبله، فهو وإن لم يكن كواء أو عطاراً كالذى رجوت، فليس شراً منهما، وتبين بعدُ أن الأمر ليس نوع الصناعة، وإنما هو نوع الصانع.

***

ونزلت بيتا فى ضاحية من ضواحى الإسكندرية، فرأيت (فيلا) جميلة على شاطىء البحر، لا يسكن مثلها — عادة — إلا مَن ورمت جيوبهم، وانتفخت محافظهم، راديو، وبيانو، وما شئت من أسباب النعيم ورفاهة العيش؛ ولكن لفت نظرى رجل يلبس قباء، ويحزم وسطه بحزام، وعليه جاكتة بسيطة نظيفة، قد أرخى لحيته، ودفع طربوشه إلى الوراء، يحمل أقمشة على كتفه يكاد ينوء بحملها، وهو من الصنف اليهودى الذى تراه يجول فى الشارع كل يوم يبيع (الدمور) و (الزفير) و (الباتستا). حيرنى أمر هذه (الفيلا) بجمالها

ونظافتها ، وأمر هذا الرجل يخرج صباحا يحمل سلعته على كتفه وقد سمنت ، ويعود مساء وسلعته على كتفه وقد هزلت ؛ أمستأجر هذا الرجل حجرة صغيرة فى البيت ، أم قريبٌ فقير لأصحابه عطفوا عليه وأووه ، واحتملوا منه أن يعيش بينهم وينزل فى مسكنهم ؟ — وفى الحق كان هذا لغزا شغلنى شرحه ، وأعيانى حله ؛ ثم هدتنى المصادفة البحتة إلى استكشاف الأمر وافتضاح السر : هو ربُّ البيت ! وعميد الأسرة ، وليس فيها إلا زوجه وأولاده ؛ ولكن كلهم يعمل ، وكلهم يكسب : هذه خياطة ، وإحدى بناتها معلمة بيانو ، وهذا ابنه كهربائى ، وهذا الآخر يعمل فى مصلحة التلغراف ، وكل كاسب يعطى ما كسبه لأبيه ، ويجمعون من ذلك ما يجمعه موظف وسط أو فوق الوسط ، ثم هم جميعاً يعلمون كيف يعيشون ، وكيف ينعمون بالعيش بأقل نفقة ، ويعلمون ما ينفقون وما يدخرون .

قارنت بين هذا الرجل ورجل مصرى آخر ، كان يجول أمام بيتنا أيضاً ، ويحمل سلعة كسلعة اليهودى ، وينادى على (حرير المحلة) ، وتصورته وبؤسه ، وتصورت أسرته وبؤسها ، وكيف يتحد العملان ، وتتباين المعيشتان .

***

ثم نسمع الشكوى الحارة من العمال العاطلين ، والمتعلمين العاطلين ، ونسمع من يرجع العلة إلى تفشى الأمية حينا ، وإلى نوع الدراسة حيناً ، وإلى غير ذلك من أسباب ؛ وليس فى نظرى سبب أهم من نقص الأخلاق ، ولست أعنى أخلاق الكتب ، ولكن أعنى أخلاق العمل ، من معرفة طرق الكسب ، وإجادة العمل ، وحسن العرض ، وعدم الأنفة من مزاولة الحرفة مهما حقرت ، وضبط الدخل والخرج ، وفوق ذلك كله العلم بفن الحياة .

عاطف بركات

فى مدرسة القضاء[1]

عزيز علينا أن نقف بالأمس نكرّمه ونقف اليوم نؤبنه .

أتت البشارة والنعيّ معاً   يا قرب مأتمه من العرس

ولكنها الدنيا خطّ فى ماء ، أو أثر فى بيداء . وما الحياة إلا مهزلة . عمليات حسابية مختلفة الأعداد نتيجتها صفر دائماً ، يرينا الموت هذه الحقيقة ، ولكنها لمعة كلمعة البرق ، ثم يعود الناس إلى ضلالهم القديم .

تتلمذت للفقيد أربعة عشر عاماً ، أيام كنت طالباً فى مدرسة القضاء ، وأيام كنت مدرساً مساعداً له فى دروس الأخلاق ، فطالعت بإمعان وإعجاب صحيفة من حياته غاية فى الشرف والنبل والمجد . بل قرأت منه كتابا فى التربية والتهذيب ملئ حكمة وروحا وحياة .

درس لنا الأخلاق فابتدع فى المادة وفى الأسلوب جميعاً ، أما فى المادة فقد هجر ما كان متعارفاً من تدريس الأخلاق على شكل مواعظ تسرد سرداً ، وانتحى النحو الفلسفى فى بحثه بحثاً عقليا علميا ، فكان يترجم خير ما يقرأ ويُمَصِّر ما يترجم ، وأحياناً وبالمناسبة ينحّى البحث ناحية ، ويقص علينا من تجاربه فى الحياة ومن مشاهداته فى العالم ما يكون خير تطبيق على نظريات العلم .

أما فى الأسلوب فكان يرمى إلى أن يعوّدنا الاستقلال فى الفكر والعمل ،

(١) كان المرحوم عاطف بركات باشا ناظراً لنا فى مدرسة القضاء وظل فيها نحو أربعة عشر عاماً ، ثم ساهم فى الحركة السياسية ، ونفى إلى سيشل وعاد منها فأقام له طلبته حفلا بديعاً ، ثم عين وكيلا لوزارة المعارف ، وما لبث أن مات ، فقيلت هذه الكلمة فى حفل تأبينه .

فكان يلقى الدرس ويشرح نظريته ثم يترك كل طالب يحمل عبء نفسه فى كتابة ما سمع وربط الأفكار بعضها ببعض ، فكان ذلك من أشق الدروس علينا أولا ، وأعودها بالفائدة أخيراً — حتى شعر كل طالب أن درس الأخلاق منحه عينين أخريين نظر بهما للحياة من جديد ، وأكسبه قوة على الحكم لم تكن له من قبل ، ومنحه قدرة على تقويم الأشياء قيما جديدة .

كان للفقيد دروس أخرى قيمة ، ولكن لا بالمعنى المتعارف من الدروس . طريقته فيها أشبه بطريقة سقراط ، يظهر فى الطلبة أوقات فراغهم فيلتف حوله الكثير منهم ، فيتكلم معهم فى موضوع تخلقه المناسبة ، فيردّ عليه الطلبة ويرد عليهم ، ويدفع الحجة بالحجة حتى يصل فى النهاية إلى تكوين فكرة واضحة عند الطلبة فى الموضوع الذى يبحث فيه ، فكان ذلك درساً فى المنطق العملى من ألذ الدروس .

رأينا منه كيف كانت تعرض الفكرة فيحللها تحليلا فى منتهى الدقة ويسلط عليها من أشعة ذهنه ما يضيئها من كل جانب . وكانت آراؤه تدوّى بين الطلبة وتعارَض وتحاكَى وترن فى الآذان حتى يأتى موضوع جديد يحل محل القديم .

كذلك كان شأنه مع الأساتذة ، يتحين فرصة اجتماعهم فيجلس معهم يستمع لحديثهم ، ثم يستمد من قولهم فكرة أو مبدأ يشرحه ويدلل عليه ؛ وكثيراً ما يستطرد لنقد فكرة شائعة ، أو أسلوب فى التربية أو نحو ذلك ، وهو فيما يقول شجاع لا يبالى أكان سامعوه على رأيه أو غير رأيه ، هشوا له أو امتعضوا منه .

قد كان فى المدرسة أساتذة من خيرة المحافظين ، وآخرون من خيرة الأحرار ؛ وكان عاطف حرًّا فى تفكيره ، تحرر عقله من كثير من التقاليد . ليست عادتنا عنده خير العادات ولا آراؤنا خير الآراء ، ولا كتبنا المؤلفة خير الكتب ؛ فكان يهاجم المحافظين مع الأدب التام فى نقده . ينزل إلى ميدان البحث وهو واثق بالظفر ، لإمعانه فى الفكرة قبل أن يعتنقها ، ولوضوح الحقائق فى ذهنه وضوحا

تاما ، وتميز كل حقيقة عن أختها ، فلا يختلط بها ما يشابهها ، وأخيراً لشعوره بقوة إقناعه ؛ ومن ثم كان كبير الثقة برأيه ، يندر أن يعدل عنه . وقد أدته هذه الثقة إلى قوته وصلابته فى تنفيذ ما يرى ؛ فليس يرجع فى منتصف الطريق ، ولا يبالى بالعقبات العظيمة تعترضه وتقف فى سبيله ؛ كما لا يعبأ بغضب الغاضبين وسخط الساخطين ، ثقة منه بأن الناس سوف يتطعمون الحق ، فينقلب غضبهم رضا وكراهتهم حبا . سمعته قبيل وفاته يصف حفلة أقيمت فى مدرسة الأمريكيين للبنات فيقول : إن خير ما سمعته فى هذه الحفلة قول فتاة فى وصف رجل : « إنه يضحى شهرته وجاهه فى سبيل نصرة الحق » ، فكان إعجابه بهذه الجملة معبراً عما عرفناه عنه من تغلغل هذه الفكرة فى نفسه ومصادفتها هوى فى فؤاده .

تراه مع شدة وثوقه برأيه واسع الصدر جدا للرأى المخالف ، فهو يصغى لكل ناقد ، وأحيانا يشتد الناقد فى نقده ، ويشوب نقده بشىء كثير من الحدّة أو التعريض ، فيقابل ذلك باطمئنان ، ويستخرج الحدة أو التعريض وحده ويضعه جانبا ، ثم يستخلص ما فى قول الخصم من رأى فيردّ عليه .

ومع تمام حريته فى التفكير لم يكن تام الحرية فى العمل ؛ فكان عند وضع الرأى موضع التنفيذ يراعى كل ما يحيط به من ظروف ، ويرى الإصلاح تدريجيا لا طفرة ؛ فكان يمزج فكرته الحرة بشىء غير قليل من تقاليد المحافظين عند العمل .

ودرس آخر أعظم من هذا كله وهو إدارة المدرسة ، فإنها الجو الأخلاقى الذى يتنفس منه طلبة المدرسة وأساتذتها ؛ وفى الحق كانت به مدرسة القضاء مَرْبَى تنبت فيه الأخلاق الفاضلة . أساس الإدارة عنده مصلحة المدرسة لا مصلحة شخصه . فخير أساتذة المدرسة أنفعهم لها ولو كان فيه جفاء ، أكسد بضاعة عنده الملق والنفاق ، إن دخلا فى تقدير العامل فسلباً لا إيجابا .

جدٌّ لا يعرف دعة ولا يستوطئ راحة ؛ ألم تره قبيل وفاته قد خذلته قواه ولم

يسعفه نشاطه ، يمشى متطرحا ويكاد يتساقط من الإعياء ، وهو مع ذلك يتحامل على نفسه ويتطلب ما يأباه القدر عليه ؟

رجل بيّن الرجولة ، يكره السفاسف ولا يتدنى إلى الصغائر ؛ لاتسمع له حديثا فى تافه من القول ولا سخيف من الهذر ؛ إذا تدنى محدثه رفعه هو إلى مستواه فهو مملوء الهيبة موفور الكرامة .

طُبِـعَ على أن يعشق العمل يسند إليه ، فهو يعطيه كل قلبه وكل تفكيره وكل حديثه ، وإن شئت فقل وكل أحلامه ؛ أسندت إليه المدرسة فكانت شغله الشاغل : هى أغنيته وهى أحدوثته وهى شكواه وهى مفخرته .

من أجل هذا تراه يستقصى دقائق عمله ويستشف بواطنه ويدير بيده دقيقه وعظيمه ، ولا يطمئن لشىء لم يشرف هو بنفسه عليه ؛ فالناس منه فى راحة وهو من نفسه فى عناء .

كان فى المدرسة نحو أربعمائة طالب ؛ ولست أكذبك إذا قلت إن كل طالب كان يشعر أن ناظره يعرفه ويقدره ويزن كفاياته العلمية والخلقية ، وأن نظره ينفذ إلى أعماق نفسه فيعرف بواطنه . قد أعد للطلبة دفترا وجعل لكل طالب صفحة يقيد فيها بخطه ما يصدر عنه .

ظهرة يشف ظاهره عن باطنه ويتمثل قلبه فى لسانه . عمله فى النور دائما ، ليس للدس ولا للجاسوسية رواج عنده .

صدق فى القول حتى لم يأخذ عنه أستاذ ولا طالب كذبة ، وإرادة جبارة تستهين بالشهرة والمنصب والمرض ، وعدل دقيق مضن مع من يحب ومن يكره ، مع ذى الحول ومن لا حول له ، لا يبالى من يعادى متى صادق الحق . من طلب منه غير الحق رده فى أناة ، فإن أعاد عليه الرجاء رده فى جفاء .

هذا إلى صراحة فى القول نادرة شعرنا بمرارتها لِمَا شاع عندنا من نعومة فى

المعاملة وغلو فى المجاملة — لا يجد التردد إلى نفسه منفذا ، إن قال لا فلا إلى الأبد ، أو نعم فنعم لا إلى حين .

وهو فى سياسته سيكولوجي ماهر ، يشتد ويلين ، ويوعد ويعد ، ويعبس ويبسم بميزان دقيق ، يعالج فلا يخطئ فى العلاج ، تارة بالسم وطورا بالترياق ، شعر طلبته بأنه كبير العقل كبير النفس دقيق النظر دقيق العدل ، فهابوه ، وشعروا بأنه يستر وراء ظاهره غير الناعم قلباً رحيما فأحبوه ؛ فكان من ذلك هيبة وحب قل أن يجتمعا لرئيس .

هل رأيت مثله كثيراً ناظراً يرى كلُّ طالب أن علم ناظره بجريمتــه أكبر من كل عقوبة ، ويتمنى أن يعاقب على يد غيره ضعف العقوبة على يده ؟ أو رأيت ناظراً فزع طلبته لخروجه من بينهم كما فزعوا يوم خروجه حتى كاد يقضى عليهم من الغم ؟ أو رأيت جزعا يفتك بالصبر وحزنا يقلقل الأحشاء كالذى كان عند وفاته ؟

***

ولم يكن ما يعانيه من شؤون المدرسة فى الخارج بأقل مما يعانيه فى شؤونها الداخلية ؛ فما السفينة لعبت بها الأمواج وأشرفت على الغرق يحاول ربانها النجاة بها ، ولا البيت تلتهم النيران ما حوله ويعمل صاحبه على الحيطة له ، يعادل ما كانت تعانى مدرسة القضاء من أغراض عديدة وسلطات قوية تريد القضاء عليها ، ومع ذلك ظلت المدرسة زهرة المدارس ما بقيت فى حماه .

تسلمها نواة صغيرة وسلمها شجرة يانعة .

ومن غريب أمره أنه مع كل ما يعمل ويعانى لا تكاد تسمع له حديثا عن نفسه ! تكون المدرسة فى أحرج أوقاتها وهو يعمل بجد ، ويهرب بها من المعارف إلى المجلس الأعلى للأزهر ، ومن المجلس الأعلى إلى الحقانية ، ويعانى فى ذلك

الأمرّين ؛ فإذا جلست إليه سمعت كل شىء إلا أنه عمل أو عانى ، وإذا ظفر بطلبته لم تظفر أنت منه بكلمة يحدثك بها عن نفسه .

هذا عاطف لمن يعرفه ، وهـذا عاطف الذى غاب عن مدرسة القضاء ليطلع فى أفق المعارف فغاب فى مشرقه .

فاللهم كما قدرت علينا عظيم الرزء فقدِّرْ لنا جميل الصبر ، وكما سلبت الأمة عظيما فعوضها عظيما ، وأحسن إليه كما أحسن إلى أمته .

محضر جلسة

تذاكر جماعة — من ذوى الرأى — فى الأدب العربى وحاجته إلى الإصلاح ، وفيما له من ثروة قديمة قيمة تحتاج إلى الإحياء ، واقترحوا أن يكوّنوا جمعية للأخذ بناصر الأدب ونشر ذخائره ؛ وكان من بينهم من ينتسب إلى الجامعة الأزهرية ، ومن ينتسب إلى الجامعة المصرية ، ومن ينتسب إلى المجمع اللغوى ، ومن هو عضو فى لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ومن يتصل بدار الكتب ، وغيرهم ؛ وصحت عزيمتهم على ذلك ، وعهدوا إلى أحدهم بوضع مشروع قانون للجمعية يحدد غرضها ، ويوضح نهجها ، واختاروا يوم ١٥ ديسمبر سنة ١٩٣٦ الساعة الخامسة بعد الظهر لقراءة المشروع .

فلما حان الموعد حضر واحد فقط ، وخُيّل إليه أنه أخطأ اليوم ، أو أخطأ الساعة ، أو أخطأ المكان ، فأعاد قراءة الدعوة فإذا كل شىء من الزمان والمكان صحيح . وبعد ربع ساعة حضر آخر ، فتبادلا العجب من عدم حضور الأعضاء فى الموعد .

وأخذ مَن تأخر يلقى محاضرة قيمة فى المحافظة على الزمن ، وكيف هى عند الإنجليز والفرنسيس والألمان ، وما جرى له من أحداث فى هذا الباب أيام كان فى أوربا ، وحاجة المصريين إلى معرفة قيمة الوقت ؛ وقد استغرقت محاضرته القيمة ربع ساعة كان قد حضر فى أثنائه عضوان آخران فاشتركوا جميعاً فى الحديث فى هذا الموضوع ، وكل يروى نادرة فيه طريفة ، وقصة ممتعة ؛ وتختم النادرة أو القصة بضحكات عالية يدوّى بها المكان ، وتتخلل الضحكات تعليقات على ما يُرْوَى تُسَلْسِلُ الضحك وتتابع الفكاهة .

ولا أطيل عليك ، فقد تم اجتماع أغلب الأعضاء فى الساعة السادسة والنصف ، وقد اعتذر بعضهم بزيارة صديق له عند خروجه ، وآخر بتعطيل الترام له ، وثالث بأن من عادته أن ينام بعد الظهر وقد طال نومه على غير عادته ، ورابع بأنه نسى الموعد لولا أنه لقى فلاناً مصادفة فذكّره به .

أخذوا يتناقشون فى هل يختارون رئيساً للجلسة حتى يتم القانون ؟ انحاز إلى هذا الرأى فريق ، لأنه لا بد لكل جلسة من رئيس يدير المناقشة ويأخذ الأصوات ؛ وعارض فريق بحجة أننا نريد أن نكون ديمقراطيين لا رئيس ولا مرءوس ، وأنه حتى بعد أن يتم القانون لا حاجة لنا إلى رئيس ، فكلنا سواسية فى الرأى ، ويكفى أن يكون للجلسة « ناموس » يدوّن الآراء ويأخذ الأصوات .

ولا أطيل عليك أيضاً فقد وافت الساعة السابعة والجدل على أشده فى هذا الموضوع الخطير ! وعند تمام الساعة السابعة والنصف انتصر الفريق الأول فكان لا بد من رئيس .

ولكن عرضت مشكلة أخرى أخطر من الأولى : هل يختار الرئيس بالسن أو بالاقتراع السرّى ؟ قال قوم بهذا ، وقال قوم بذاك . وكاد يحتدم الجدل على نمط المسألة الأولى لولا أن أحد الحاضرين قال : أختار فلاناً ليدير هذه الجلسة ، فخجل الآخرون أن يطعنوا فى هذا الاختيار ، فسكتوا وكفى الله المؤمنين القتال .

***

وطُلب من المقرر أن يقرأ المادة الأولى فقرأها ، ونصها : « أنشئت بمدينة القاهرة جمعية تسمى جمعية إحياء الأدب العربى » .

— ا : هل يقال : « أنشئت » أو « تنشأ » ؟ أظن الأصح أن يقال : « تنشأ » ، لأن الجمعية لم تتكوّن بعد ، فكيف يعبر بالماضى فيقال « أنشئت » ؟

— ب : هذا رأى فى محله ، لأن إنشاء الجمعية مستقبل ، والذى وضع

للدلالة على المستقبل هو الفعل المضارع والأمر لا الفعل الماضى . فإذا قلنا أنشئت دل على أنها تكونت فى الزمن الماضى ، وليس ذلك بصحيح .

— ح : الفرض فى القانون أن يوضع فى شكل يدل على أن الجمعية أقرته ، فواضع القانون فرض أن الجمعية اجتمعت وأقرت القانون وألبسته ثوبه النهائى ، ولذلك يوضع فى صيغة الماضى .

— ء : وأمثال ذلك كثيرة ، فكاتب العقود يقول : « فى تاريخه أدناه قد باع فلان لفلان كذا » ثم يمضى البائع والمشترى العقد ؛ وقبل الإمضاء كان البيع مستقبلا ، ومع ذلك عبر عنه بالماضى .

— ه : ومع هـذا فلمَ تذهبون بعيداً ؟ والماضى يستعمل فى المستقبل كما قال تعالى : « أتى أمر الله فلا تستعجلوه » فأمر الله هو يوم القيامة وهو لم يأت بعد ، وإنما عبر عنه بالماضى للإيذان بأنه أمر محقق ، أو للتنبيه على قرب مجيئه ؛ فهنا كذلك ، لما كان تكوين الجمعية محققا إن شاء الله أو قريب الوقوع يعبر عنه بالماضى على سبيل المجاز .

— و : الأمر أبسط من هـذا كله ، فإذا قلنا « أنشئت » أو « تنشأ » لا يترتب على ذلك ضرر ، وهو لا يقدم الجمعية ولا يؤخرها ؛ إنما ينهض بالجمعية عملها فى تحقيق غرضها ، فإذا حققته لا يضرها أنشئت أو تنشأ ، وإذا لم تحققه لا ينفعها أنشئت أو تنشأ .

— ا (محتدا) : ولكننا نجتمع لإحياء الأدب العربى ، فأقل ما يجب علينا أن تكون عبارتنا صحيحة لفظاً ومعنى ، نحواً وبلاغة ، وإلا أعطينا مثلا سيئا لإحياء الأدب العربى .

— الرئيس : أظن أن الأمر وضح ؛ فلنأخذ الآراء على « أنشئت » أو « تنشأ » .

— ز : لكن بقيت مسألة : أليست « تكونت » خيرا من « أنشئت » ؟ لأن الإنشاء فى اللغة هو الخَلْق ، والخلق يكون من العدم ، وليس أفراد الجمعية معدومين حتى يقال فيها أنشئت : إنما هى موجودة مفرقة ، فهى تتجمع وتتكون لا تُنشأ .

— ا : ومن قال إن التكوين لا يكون من العدم ؟ فى كتب المتكلمين « إن التكوين إخراج المعدوم من العدم إلى الوجود » وفى التوراة سفر اسمه سفر التكوين وفيه حكاية خلق العالم ، والعالم قد خلقه الله من العدم .

(أراد « ز » أن يرد عليه فقاطعه الرئيس وأخذ منه الكلمة) .

— الرئيس (فى شىء من الضجر) : أرى أن نكتفى بهذه المناقشة فى هذا الموضوع ، ونأخذ الأصوات على ما يأتى : هل نقول أنشئت أو تنشأ ، أو تكونت أو تتكون ؟

— ا : لا ، بل نأخذ الرأى — أوّلا — على أن تصاغ الكلمة من مادة الإنشاء أو من مادة التكوين ، وبعد ذلك نأخذ الرأى : هل نعبر بالماضى أو المضارع .

— الرئيس : وهو كذلك .

(أخذت الآراء — أولا — فكانت الأغلبية فى جانب مادة الإنشاء ؛ ثم أخذت — ثانية — فخرجت الأغلبية فى جانب أنشئت .

— الرئيس : إذاً ننتقل إلى المادة الثانية .

— ا : لا ، بل لا تزال هناك مسألة فى المادة الأولى على جانب كبير من الأهمية .

— الرئيس : وما هى ؟

— ا : التعبير « بإحياء الأدب العربى » فإن هذا تعبير لا أقبله ، وأحتج عليه بكل قوتى ؛ فإنه يدل على أن الأدب العربى ميت ونحن نريد إحياءه ، فهل كان الأدب العربى ميتا ؟ إنه حى ، وكان حيا فى العصور الماضية وسوف يبقى حيا إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ، وكيف نقول إن الأدب العربى قد مات وعلى رأسه القرآن الكريم ، وقد قال الله تعالى فيه : « إنا نحن نزّلنا الذّكر وإنا له لحافظون » إن الأدب العربى حى ، وكل ما نريد أن تعمله الجمعية أن تنظمه أو تنشر كتبه القديمة ؛ فأما لفظ الإحياء فلا ؛ وأنا أنذركم أنكم إذا أصررتم على لفظ الإحياء انسحبت من الجمعية .

هنا ساد المجلس صمت رهيب .

— حـ (تشجع وقال) : فى الواقع أن المسألة لا تحتاج إلى كل هذا ، فلفظ الإحياء لا يدل على سبق الموت ؛ ألا ترى يا أستاذ « ا » أن الغزالى سمى كتابه الكبير « إحياء علوم الدين » فهل كانت علوم الدين قبله ميتة ؟ كلا . إنما أصابها نوع من الركود والجمود ، فأراد الغزالى أن يزيل عنها ركودها وجمودها ، وأن يعرضها عرضا جديدا يتفق وذوق عصره ؛ ولم يقل أحد إن الغزالى صبأ أو كفر أو تزندق بتسمية كتابه هذا الاسم . وموقفنا الآن من الأدب العربى هو موقف الغزالى من علوم الدين ؛ نريد أن نُنهض الأدب ونعرضه فى شكل حديث يتفق وأذواق الناس فى هذا العصر .

— ى : وأيضا فإن الإحياء ترجمة لكلمة « رينيسنس » Renaissance ، وقد استعملها الفرنج للدلالة على حركة النهضة العقلية فى أوربا وبعث المدنية من رقدتها ، والمعنى الحرفى لهذه الكلمة « الولادة من جديد » فاختار الكتاب المحدثون كلمة الإحياء للدلالة على ذلك .

— الرئيس : نأخذ الأصوات على بقاء كلمة « إحياء الأدب العربى » أو تغييرها .

— ا ه ه ه ى (فى نفس واحد) : لا ! المناقشة لم تستوف بعد .

— الرئيس : الساعة الآن التاسعة فلنؤجل المناقشة إلى الجلسة المقبلة .

— الجميع : موافقون .

قال صاحبى : ومتى تنتهى قراءة القانون ؟

قلت : فى **المشمش** . . . !

(طبق الأصل)

أدبنا لا يمثلنا

فى رأيى أن الأدب العربى — بحالته التى هو عليها الآن — لا يصلح أن يكون غذاء كافيا للجيل الحاضر ، سواء فى ذلك الأدب القديم والأدب الحديث والأدبان معاً .

قد يكون الأدب الإنجليزى قديمه وحديثه صالحا للإنجليز فى الوقت الحاضر ، وقد يكون الأدب الفرنسى والألمانى كذلك . أما الأدب العربى فليس صالحا للأمم العربية

ذلك لأن الأدب إنما يعد صالحا للأمة إذا كان مظهرا تاما شاملا صادقا لحياتها الاجتماعية على اختلاف أشكالها ، فى جدها وهزلها ، فى صِبا أفرادها وكهولتهم وشيخوختهم ، فى آلامهم وآمالهم ، فى حياتهم اليومية ، فى البيت والمصنع ودور اللهو والتمثيل ، فى حياتهم السياسية وحياتهم الاقتصادية ؛ فإذا استطاع أدب الأمة أن يملأ كل هذا الفراغ عُد أدبا صالحا كافيا ، وإلا لم يكف وحده .

فلننظر فى ضوء هذه النظرية إلى الأدب العربى ، فماذا نجد ؟

نجد أن الأمم العربية — من مصريين وشاميين وعراقيين وغيرهم — بين أدبين : أدب عربى قديم ، وأدب عربى حديث .

فأما الأدب العربى القديم فلا يمثل إلا أجياله ولا يمثل جيلنا ، وهو صورة للحياة الاجتماعية التى نشأ فيها ، وليس صورة لحياتنا . إن الشعر الجاهلى صورة صادقة لحياة الجاهلية فى لغته وعقليته ، وإبله وأطلاله ، وامرأته وأرضه ، وليس شىء من ذلك يمثلنا . والشعر الأموى والأدب الأموى صورة من صور الحياة الأموية فى نزاعها السياسى وعواطفها ، وانقسامها إلى حياة بدوية وحياة حضرية ،

وحياة بؤس بجانب حياة ترف ، وعصاة يهددهم أمثال زياد بن أبيه والحجاج الثقفى ، وحياة دينية يعظ فيها الحسن البصرى وأمثاله ؛ فلا خطب الأولين تمثل حياتنا ، ولا مواعظ الآخرين أخذت وقائعها من أحداثنا .

وكذلك قل فى العصر العباسى وأدبه ؛ لقد كان العصر العباسى لا يتحرج من ذكر أفحش الألفاظ وأفحش العبارات ، فكان الأدب صورة من ذلك ، وهذا لا يتفق وذوقنا ؛ وكان الأدب يستمد حياته من حياة القصور ووقوف الشعراء بأبوابها يمدحون ، وليست حياتنا فى شىء من ذلك ؛ وكان الشعراء يتغزلون فى الغلمان ، ونحن نستهجن هذا الضرب ؛ وكانوا يتهاجون بأفحش الهجاء ، ونحن لا نستسيغه ؛ وكانوا ينقسمون سياسيا إلى من يؤيد البيت العباسى ومن يؤيد البيت العلوى ، وقد ذهب ذلك كله .

وعلى هذا النمط يصح أن يقال فى العصور التى جاءت بعد العصر العباسى إلى قبيل عصرنا .

هذا النوع من الأدب العربى القديم لا يصلح أن يمثّلنا ، ولا يسمى أدبا لنا بالمعنى الدقيق للكلمة .

ولست أحب أن يفهم من هذا القول أنى أنكر فائدة الأدب القديم وقيمتَه ، فإن هذا القول لا يقول به عاقل ؛ ولكنى أريد أن أقرر أن فائدته كفائدة كل أدب « كلاسيكى » ، هو أدب أرستقراطى يُعنَى به الخاصة من أهل الأدب لا العامة ، هو أدب لدراسة المتخصصين لا أدب للشعب عامة ، يعنى به من يدرس تاريخ الأدب كما يعنى المؤرخون بدراسة التاريخ .

ولست أشك أن قسما منه صالح لكل زمان ومكان كالحِكَم والمواعظ ، وما يمثل العواطف العامة المشتركة بين الناس كلهم كالسرور والحزن والوفاء والغدر ؛ ولكن حتى هذا القسم إن كان عاما وصالحا للناس كلهم بحسب موضوعه ، فأ كثره

غير صالح لأهل زماننا من حيث أسلوبُه وطريقة عرضه ونحو ذلك . ومن أجل هذا يستعين الجيل الجديد على تفهمه وتذوقه بشرحه وتفسيره ، وهذا الشرح والتفسير يضعف من قيمته ؛ إذ فرق كبير بين أن تكون مستعدا لتذوق الشيء مباشرة من غير شرح ، وأن تتذوقه بعد عناء الشرح والاستعانة بلفظ على لفظ وجملة على جملة ، وقلّ أن يسد الشرح مسد الأصل .

والنتيجة لهذا كله أن الأدب القديم ثقافة الخاصة لاثقافة العامة ، وثقافة العدد القليل لا الجم الغفير . وليس يكفي ذلك وحده في أداء رسالة الأدب العامة ، إذ هو لا يؤدي رسالته حتى يجد الناس فيه — عامتهم وخاصتهم — التعبير الفني عن مشاعرهم ، والصور الفنية التي تصور عواطفهم ، وميولهم وأمانيهم ، وأحزانهم وأفراحهم ؛ وليس يستطيع الأدب القديم أن يحقق هذا الغرض إلا إذا عرض عرضا فنيا جديدا .

***

أما الأدب الحديث العربي فهو كذلك لا يكفي لغذاء الجيل الجديد ، لأنه لم يملأ حياتنا ، وإن شئت فاستعرض كل شؤون الحياة تجده لم يحقق رسالته ؛ فإن أحببت أن تضع في يد أطفالك في سِنِيهم المختلفة كتباً في القصص أو في الثقافة العامة لم تجد إلا القليل الذي لا يكفي ، على حين تدخل المكتبة الأوربية فيملؤك العجب والإعجاب من وفرة الكتب للأطفال على اختلاف أنواعها ، وبما حليت به من الصور الجذابة ، والأسلوب المشوق البديع ؛ فالأوربي يحار فيما يختار لأطفاله لوفرته ، ونحن نحار فيما نعطي لندرته . وإن توجهت وجهة الأناشيد والأغاني رأيت فقرنا في هذا أبين من فقرنا في سابقه ؛ وهي بين عامية مبتذلة سخيفة لا تمثل حياتنا ولا تساير نهضتنا ، وبين عربية قليلة ضعيفة فاترة ؛ وإن التفتّ إلى الكتب التي تغذي الشعب والجمهور رجعت بالخيبة ، وحتى كتب

المتعلمين إنما تكثر إذا كانت مقررة فى المدارس ليؤدى الطلبة منها امتحاناتهم ، أما ما عدا ذلك فقليل ضعيف .

إنما نبتهج بالأدب الحديث يوم نرى الطفل يجد فيه غذاء صالحاً متنوعا ، ورجل الشارع يجد فيه ما يناسبه ، وتلميذ المدرسة وخريج المدرسة يجدان الأدب وافراً حسب استعدادهما ، ومن يريد أن ينشد نشيداً أو يغنى أغنية يجد مجال الأدب أمامه فسيحاً ، ويجد الأدب فى الجد والأدب فى الهزل ، ويجده فى دور السينما والتمثيل ، ويجده فى كل شىء وفى كل ظرف وفى كل أسلوب .

وإذاً فما أبعدنا عن نيل هذا المثل !

والواقع أن أدب كل أمة يجب أن يساير نهضتها ، وأدبنا الآن لا يمثلنا ، وهو وراء نهضتنا ، ويجب أن يكون أمامها ، وهو كالثوب القصير للرجل الطويل ، أو كالثوب المرقع للرجل الغنى ، أو كالثوب البدوى للمرأة المتحضرة .

* * *

وأهم علاج لهذا النقص عناية العالم العربى بتكوين طائفة من الأدباء تكويناً عربيا غربيا ، وإمدادهم إلى أقصى حد بالأدبين معاً ليتولوا الإنتاج بعد .

فالأدب العربى فيه الأسلوب وفيه ثروة دفينة قيمة ، ولكنها حبات من اللآلئ وسط أكوام من التبن ، وحتى هذه اللآلئ لا يحبها الجمهور ولا يعرف قيمتها إلا إذا جليت وعرضت عرضاً جديدا .

والأدب الغربى مملوء بالجواهر القيمة وبالموضوعات المفيدة ، ولكنه نتاج مدنية غير مدنيتنا ، ويمثل أنواعاً من الحياة غير حياتنا . إن شئت فانظر إلى أكثر الروايات المترجمة تجد أسماء لا توافق ذوقنا ، وتجد وقائع فى البيوت لا يحدث مثلها فى بيوتنا ، وتجد أنواعاً من الحوار لا يمكن أن تقع بيننا ، وهكذا الشأن فى كل أنواع الأدب من نثر وشعر ؛ وشأن الأدب الغربى شأن الموسيقى الغربية ، هى نتيجة أذواق الغربيين وبيئتهم ، وليس يستطيع العربى أن يتذوقها

إلا بكثير من المران وكثير من تحوير الذوق .

هذه الطائفة التى أدعو إليها تستطيع أن تخدم الأدب العربى ، لا من ناحية الترجمة ، فالترجمة فى الأدب وسيلة لا غاية ، والترجمة فى الأدب أصعب شأناً وأقل تذوقاً من الترجمة فى العلم ، لأن العلم يخدم العقل ، والعقل قدر مشترك بين الناس جميعاً ، أما الأدب فليس قدراً مشتركا . وأدب كل أمة غير أدب الأخرى ، لأنه يرجع إلى الذوق والعاطفة وهما مختلفان فى الأمم ، ولأن الأدب ظل الحياة ، فإذا اختلفت الحياة اختلف ظلها لا محالة .

ومن أجل هذا عُنِى العرب فى أيام نهضتهم الأولى بترجمة العلوم ، ولم يعنوا بترجمة الأدب ، وترجموا بعض الشىء من أدب الفرس لأنه كان قريباً لذوقهم ، ولم يترجموا الأدب اليونانى والرومانى لأنه كان بعيداً عن ذوقهم .

فترجمة الأدب الغربى إلى الأدب العربى يجب أن تعد وسيلة لاغاية ، إنما الغاية أن ننتج أدباً لنا ، أدبا يمثلنا ، أدباً يعبر عن عواطفنا .

ودراسة الأدب الغربى تعين أكبر إعانة من ناحيتين : من ناحية أن دارسها يستطيع أن يتعلم منها كيف أدى الأدب الغربى عمله ، وكيف استطاع أن يملأ فراغ أمته ، وكيف نجح الأديب الغربى فى أن يغذى شعبه ، وكيف تفرعت أنواع الأدب فروعا مختلفة أدى كل فرع منها وظيفته ؛ ومن ناحية أخرى هناك نوع من الأدب هو قدر مشترك بين الأمم كلها لا خلاف بينهم إلا فى أدائه ، كالحكم والأمثال ، وكالقصص التى تمثل أخلاق الناس ، وكشعر الطبيعة ونحو ذلك ؛ فهذا النوع صالح كل الصلاحية لأن ينقل إلى الأدب العربى ، ولا يحتاج فى تذوقه من القارىء العربى إلا إلى تحوير بسيط .

لست أعتقد أن الأدب العربى يرقى إلا بالجد فى تكوين هذه الفرقة ، وإمدادها بكل الوسائل ، وتشجيعها بكل أنواع التشجيع .

ولود وعقيم

رَكِبَتْ من أول محطة لترام مصر القديمة ، وهى كهلال الشك ، جِلْدٌ على عظم ، وعلى يديها طفل قد جُلّل بالبياض ، وعصبت عيناه ، وغطى رأسه ووجهه بشاشة زرقاء .

وركب فى المحطة التالية سيدة نَصَف ، أطيب شطريها الذى ذهب ، ممتلئة البدن ، سمينة الضواحى ، فحيّت الأولى ، وتحادثتا .

والنساء سريعات التعارف ، تراهُنَّ فى طرفة عين يتحدثن إلى من لم يعرفن قبلُ فى أدق الأمور ، وأعمق الأسرار ، حتى كأنهن صديقات العمر ، ورفيقات الصِّبَى ؛ فهن يتحدثن بعد دقيقة فى السعادة والشقاء ، وأوصاف الأزواج ، وعيوبهم ، والحَمَوات ومصائبهن ومضايقتهن ، والدخل والخرج ؛ وقد ينتقلن إلى ما هو أدق من ذلك وأصعب ، مما لا يستطيع الرجال أن يتكلموا فى بعضه إلا بعد عمر طويل ، وصداقة متينة ، ومشاركة فى السراء والضراء .

وبعد لحظة صرخ الطفل وأمعن فى الصراخ ؛ تحاول أن ترضعه ليسكت فلا يسكت ، وتُنِيمُه فلا ينام ، وتتبع معه كل الأساليب التى تعلمتْها فى إسكات الأطفال فلا تنجح ، وأخيراً تدعو عليه بالموت فلا يستجاب لها !

الثانية — ماله ؟

الأولى — رمدت عيناه من أيام ثلاثة فشرّبنى المر ، وفى الليلة الماضية لم أذق طعم النوم ، وأنا طول الليل واقفة على رجلى أذرع الحجرة من أولها إلى آخرها ، ومن آخرها إلى أولها ، وكلما هدأ وبدأ النوم ذهبت إلى السرير لأنيمه وأنام ، فيصرخ ويكرر النغمة عينها ويمثل الدور نفسه الى الصباح ، حتى دار

رأسى ومَلِلْتُ الحياة ، وتمنيت الموت ، ولم أر للحياة طعما مذ رأيت الأولاد ، وها أنا ذاهبة إلى طبيب العيون .

— أمعك أولاد أُخر ؟

— نعم . معى خمسة وهذا سادسهم ، وقد حاولت بكل الوسائل أن أمنع الحمل بعد أول ولد ففشلت وفشلت ، ومرة حاولت أن أخلص من جنين فكدت أخلص من نفسى و بقى الجنين ؛ ومرة أُصِبْت بنزيف شديد فعرضت نفسى على طبيب ، فقال إنه إجهاض ، وليس من أمل كبير فى بقاء الجنين ، ثم أمرنى أن ألتزم سريرى ولا أتحرك ، وأنام على ظهرى دائما ، وكتب لى دواء يمنع النزيف ؛ فامتنعت من شرب الدواء ، وأكثرت الحركة ، وعملت كل شىء عكس مانصح الطبيب رغبة فى الإجهاض ، ثم مع هذا كله انقطع الدم وثبت الجنين ، وهذا هو الذى على يدى .

— و « اسم الله عليهم » كلهم ذكور ؟

— لا والله ! أربعة ذكور و بنتان ، وكلهم فى الهم سواء ، وكل يوم نوع جديد من أنواع العذاب ؛ ففى آخر السنة نضع يدنا على قلبنا عند الامتحان ، وتظهر النتيجة ، فهذا نجح ، وهذا سقط بلا ملحق ، وهذا له ملحق ؛ ونمضى الإجازة فى عناء ! وتبتدئ السنة ، فمن نجح فى الشهادة الابتدائية ظهر متأخر الترتيب ، فلا نجد له مدرسة أميرية تقبله ، والشهادة فى يد ، والمصاريف فى يد ، والمدرسة فى رفض ! ثم هذا صحيح وهذا مريض ، وهذا ذاكَرَ وهذا لم يذاكر . ولا تسألى عن وقت ذهابهم إلى المدرسة ! هذا يبحث عن جزمته فلا يجدها ، وهذا عن طربوشه فلا يجده ، وترى فرد جورب فى حجرة وفرداً آخر فى حجرة أخرى ، فلا يكادون يذهبون إلا وقد بلغت الروح الحلقوم ؛ وعند مجيئهم من المدرسة ، هذا يغضب على الأكل وهذا يرضى ، وهذا ينازع ذاك ، ولا ينقذنا من كل

هذا إلا نومهم ؛ ثم هـذا الشهر شهر أقساط المصاريف ، وهذا شهر كسوة الصيف ، وهذا شهر كسوة الشتاء ؛ وماهية الزوج لا تكفى هذا وذاك ، والعيش كله عناء فى عناء . وأنت ؟ أليس عندك أولاد ؟

كان منظراً غريباً ، فقد طفرت الدمعة فجأة من عين السيدة الثانية ، فلما أخرجت منديلها ومسحت دمعتها ، قالت : أبى الله أن يرزقنى فى حياتى ولداً ، وطالما دعوته وسألته ! وحججت مرة ، وكان أكبر همى من حجى أن أقف فى أشرف بقعة وأسأل الله أن يهبنى ابناً أو بنتاً ! وليكن الابن ذكيا أو غبيا ، ولتكن البنت جميلة أو دميمة ، فأنا راضية بأى مولود على كل حال ، ولكنه — سبحانه وتعالى — لم يفعل . لتمنيت أن يكون لى أولاد ، وأتحمل فيهم أضعاف ما ذكرت من عناء . ثم أراهنك أنى أكون سعيدة مغتبطة لا أشكو ولا أتألم . لقد طرقت كل الأبواب لذلك فلم أنجح ، ذهبت إلى الأطباء فعملوا لى عملية ، واحتملت فى سبيلها كل الآلام ، وذهبت إلى المشايخ فرقوا وعزّموا ، وذهبت إلى الشيخات « فخضَّرن » وبخرن و « وصفن » ، وقالوا تخافين ، فخفت ونزلت القبر ، وركبت وابور « لونابارك » . وقالوا وقالوا ، وفعلت وفعلت ، فذهب ذلك كله هباء . ورزقنى الله مالا كثيراً استطعت أن أعمل به كل ماوصفوا حتى السفر إلى أوربا واستشارة أطبائها ، ولكن إذا أبى الله فماذا يفعل العبد ؟

لم يبق لى من ذلك كله إلا التلهف على الولد والحسرة الدائمة ؛ وكل شىء حولى يذكرنى بالأولاد فيثير أشجانى وأحزانى . لقد رأيت فى حديقتى أشجار البرتقال والليمون تحمل كل عام أثمارها فقلت يالله ! أتسبغ نعمك على الأشجار فتحمل كل عام أثمارها وتضن علىّ فلا أحمل مرة ثمرة ؟ وعندى قطة تحمل دائما وتضع ما لا يعد من الأولاد ، وكلما حملَتْ ذكرتُ حملى ، وكلما ولدت بكيت أولادى الذين لم يوجدوا بعدُ ؛ وأرى الفقيرات البائسات العاريات فى الشارع

كل واحدة منهن تحمل فى بطنها ولداً ، وترضع ولداً ، وتجر ولداً ، فيتجمع الحزن فى قلبى ، وتنفجر منه عينى ؛ وأسمع « معارفى » وصواحبى ، هذه ولدت ، ثم هذه ولدت ، ثم هذه ولدت ، فأقول لم يبق عقيما إلا أنا ، ولم يتخصص للشقاء غيرى ! رزقنى الله مالا ولم يرزقنى ولداً ، وليته رزقنى ولداً ولم يرزقنى مالا ؛ ولو كان الولد يشرى بكل ما أملك لاشتريته وكنت سعيدة ؛ بل لو كان يشرى بعينىَّ لاشتريته وكنت رابحة فى صفقتى . وما الدنيا وما المال ، وما الحياة بغير الولد ؟ .

لقد كنت فى أول أمرى أطلب الولد خشية أن يتزوج زوجى غيرى ، فلما أمنت جانبه ، واطمأننت من ناحيته طلبت الولد لأنه طبيعتى ، ولأنه حياتى بعدى ، ولأنه موطن انتساخ روحى ، ولأنى امرأة قد خلقت للأمومة . لقد أحسست بهذه الأمومة فى صغرى فعملت العرائس إرهاصاً لأمومتى ، ثم تزوجت تهيؤاً لهـذه الأمومة ؛ فلما تقدمت فى السن ولم أجد الأمومة رأيتنى فقدت طبيعتى ، ورأيتنى فى الحياة مقدمة بلا نتيجة ، أو قبة بلا شيخ ، أو لوزة فارغة ، وأنا والعروس من الحلوى والعروس من القطن سواء ، كلنا لا يلد . ليس لى أمل فى السـلوة إلا بالموت ، فهو وحده بلسم الهموم ، ومقبرة الأحزان !

وهنا ختمت حديثها — كما بدأته — بالدموع .

قالت الأولى : والله لو ذقتِ مرارة الأولاد ما تمنيتهم ، ولو جربت سهر الليالى ما اشتقتهم ، ولـكن أحب شىء إلى الإنسان ما منع ، والقصر من بعدٍ أجمل منظراً من سكناه ، والخيال دائماً ألذ من الحقيقة . لقد كان مرة أكبر أولادى يبكى وهو رضيع ولا نعلم سبباً لبكائه ، ويبكى ويشتد فى البكاء حتى بلغ منا الهم مبلغه ؛ وإذا بزفة عريس تمر من تحت بيتنا ، فأضحكنى زوجى أبو الطفل إذ قال للعريس : « غُرْ » غداً تخلف « وترى » — ولو تمنيت الآن شيئا لتمنيت أنى لم أكن تزوجت ، وإن تزوجت فلم أكن « خلفت » . أتبادلينى ؟ وضحكت .

قالت الثانية وتأوّهتْ : وكيف يمكن البدل ؟ إنما أريد أولاداً منى لا منك ، أريد كبدى تمشى على الأرض أربيها ، ولا أريد كبدك أنميها وأغذيها — وأنت أيضاً لا تعبرين عما فى نفسك تعبيراً صادقا ، فمن تهون عليه أولاده ؟ إنما ينفع البدل إن كان قدر لى الله أن أكون ولوداً وأن تكونى عقيما .

قالت الأولى : أتريدين الحق يا أختى ؟ الدنيا كلها تعب ، فلا ولود فى راحة ، ولا عقيم فى راحة ، ولا متزوجة سعيدة ، ولا عزبة سعيدة .

ووصل الترام إلى العتبة فنزلتا ، هذه إلى طبيب ابنها وتلك لبعض شؤونها .

قال صاحبى : ولكن كيف أمكنك أن تسمع هذا الحوار ؟ .

قلت : هذا سر الصنعة .

مقياس الرقى

سألنى أديب سورى :

بم نعد أمة أرقى من أمة ، وما العوامل التى نحسبها ونقيس بها الرقى ؟ وفى الأمة الواحدة — إذا سئلنا أ كانت بالأمس خيرا منها اليوم ، أم هى اليوم خير منها أمس ، فأى النواحى نرعاها عند النظر ؟

والحق أنها أسئلة فى منتهى الصعوبة ، يحار المجيب عنها أى العوامل يحسب وأيها يترك ، وأيها لها قيمة كبيرة الأثر ، وأيها ضعيف الأثر ؟

قد يجيب مجيب إجابة سهلة من طرف اللسان فيقول : « مقياس الرقى فى الأمم الأخلاق » ، فأرقى الأمم أحسنها خلقا ؛ ولـكن هـذه الإجابة لا تقنع ، فالأخلاق متغيرة ، وكل عصر له أخلاق يتطلبها وواجبات ينشدها ، وما علينا الآن من واجبات أضعاف ما كان على أجدادنا منها — أصبح واجبا علينا أن نعلم أولادنا فى المدارس ، وما كان ذلك واجبا من قبـل ، إنما كان تبرعا من الأب ؛ وأصبح واجبا علينا ترقيـة الوطن من جهات متعددة ، وما كان ذلك واجبا من قبـل ، وإن كان واجبا فواجب غامض ليس محدود المعنى ولا معيّن الاتجاه ؛ وكان آباؤنا يعدون من أرقى الأخلاق فى الأمة حجاب نسائها و بنـاء سور متين بين الرجل والمرأة ، فأصبحنا نرى الواجب أن تتعلم المرأة كما يتعلم الرجل ، ومن حقها أن تسمع المحاضرات مع الرجل ، وأن تتمتع بالحياة البريئة كما يتمتع الرجل ؛ فإذا قلنا مقياس الرقى الأخلاق كانت كلمة عامة تدل على كل شىء ولا تدل على شىء .

وقوم يقيسون الرقى بالدين ، وهى كذلك كلمة عامة يختلف مدلولها باختلاف

أنظار الناس ؛ فيضيق عند بعض الناس حتى لا يسع إلا الصلاة والصوم والزكاة والحج ، ويتسع عند بعض الناس حتى يشمل كل شيء .

وفى الحق أن هناك مناحى للحياة مختلفة متعددة يجب أن يُنظَر إليها كلها لتقويم الرقى ؛ ففى كل أمة مجموعة من المرافق ، يعد كل مرفق منها كالخلية فى الجسم الحى : من حكومة وتعليم ولغة ودين وأسرة ونظام اقتصادى ونحو ذلك ؛ كلها تتغير ، وكلها ترقى أو تنحط ، وكلها فى حركة مستمرة دائما إما إلى الامام وإما إلى الخلف ؛ وكلها تتفاعل تفاعلا قويا ، يؤثر قويها فى ضعيفها ، وضعيفها فى قويها ؛ وهذا التغير الدائم فى كل هذه المرافق هو مقياس الرقى والانحطاط ، فإن كان تغيرا إلى سمو فرقى ، وإن كان تغيرا إلى تدهور فانحطاط .

وحسبان هذا ليس بالأمر اليسير ؛ فقد تتدهور بعض المرافق لأسباب خاصة ، وتسمو بعض المرافق لأسباب كذلك ، ثم تتفاعل عوامل الضعف والقوة ، فينشأ من ذلك عملية حسابية من أصعب المسائل حلا . والمثل الأعلى للأمة أن يكون كل مرفق من مرافقها الاجتماعية يؤدى عمله خير أداء ، ويتنقل فى سمو أبدا ، وأن يكون سيره ورقيه فى حالة ملائمة ومناسبة لسائر المرافق الاجتماعية ، لا يطفر عنها ولا يقعد بها . فالأمة التى تختار أحسن النظم فى التربية والتعليم ، ولا تساعدها اللغة على المصطلحات الحديثة ، لا ترقى فى التربية والتعليم حتى تحل مشكلتها اللغوية ؛ والأمة التى تختار أحسن النظريات الفقهية وخير النظم القضائية ، ثم لا يعنيها بعد ذلك حالة الأسر الأخلاقية ، وحالة المعاملات بين الأفراد ، لا يمكن أن ترقى بنظرياتها الفقهية من الناحية القضائية ؛ والأمة التى تسن أرقى أنواع الإصلاحات الاجتماعية ، ثم لا تعنيها الناحية الاقتصادية ، تصبح وإصلاحاتها تسر القارئ ولا تسر الناظر ، وهكذا .

* * *

وهناك دلائل قوية تدل الباحث على رقى الأمة وتدهورها وسيرها إلى الأمام أو إلى الخلف ، إما بمقارنتها بغيرها من الأمم فى نواح معينة ، أو بمقارنتها بنفسها فى عصرها الحاضر وعصرها السابق ؛ والمقارنة الأولى تدلنا على الدرجة التى تقف عليها الأمة فى سلّم الرقى العام ؛ والمقارنة الثانية تدلنا على اتجاه سيرها إلى الأمام أو إلى الخلف .

من أهم هذه الدلائل تعرّفُ موقف الأمة إزاء ما يحيط بها من ظروف طبيعية واجتماعية : هل هذا الجيل أحسن استخداماً لبيئته وما يحيط به ؟ هل استطاع أن يوجد منابع لثروته وسعادته أكثر مما استطاع أسلافه ؟ هل استخدم المنابع القديمة خيراً مما استخدمها آباؤه ؟ هل كان فى حله لما يعرض له من المشكلات الاجتماعية والطبيعية أكثر توفيقا ؟ لما عَرَضت هذه المشكلات أو أمثالها لنا ولآبائنا كيف حلوها وكيف حللناها ؟ وما منهجهم فى الحل وما منهجنا ؟ ما مقدار تضافر الأفراد يومذاك فى التغلب عليها ؟ وما مقدار تضامننا اليوم ؟ لكل أمة مقدار من الثروة ، فهل زادت ؟ وهل استطاعت اليوم أن تسعد بثروتها أكثر مما كانت تسعد بها من قبل ؟ هل استخدمت العلم أحسن مما استخدمه آباؤها فقلّت الوَفَيات وتحسنت صحتها ، وجمل منظرها ، ونظفت عيشتها ، وأصبح نيل القوت أسهل وأيسر حتى تفرغ كثير من أبنائها وبناتها للعلم والفن والأدب ؟ أظن أن هذه الأسئلة متى حددت بهذا الشكل لم تكن الإجابة عليها عسيرة ، وبذلك نستعين على تعيين الاتجاه ومقدار الرقى ، إن كان .

***

ومن ناحية أخرى ، ربما عد من أكبر دلائل الرقى فى الأمة « تذليل العقبات أمام الكفايات » . فخير الأمم من أفسحت السبيل أمام أفرادها ليرتقوا كما يشاؤون حسب استعدادهم وجِدّهم ، فى التعلم ، فى الوظائف ، فى النواحى

السياسية والاجتماعية . وقد قطعت الأمم المتمدنة فى ذلك خطوات واسعة ، فأزالت احتكار الأرستقراطية للمناصب العليا ، وسهلت وسائل التعلم لمن شاء ، واعتمدت فى تقدير الأشخاص على مزاياهم لا على بيئتهم — إلى درجة كبيرة — وحاربت « المحسوبية » والنزعات الأرستقراطية ، وقضت على النظام الإقطاعى الذى يميز بين الطبقات ، ويضع حداً فاصلا بينها لا يمكن تخطيه ، ووضعت النظم الاقتصادية الحديثة ، وفيها يمكن كل فرد بذكائه ومواهبه أن يصل إلى ما يستطيع من رقى — وإن كانوا هم أنفسهم يصرحون بأنهم لم يبلغوا الغاية فى ذلك ، وأن أمامهم عقبات شاقة ومسافات طويلة يجب أن يقطعوها حتى يسهل على كل فرد تحقيق غايته وبلوغ شأوه .

***

وربما كان كذلك من أهم دلائل الرقى النظر إلى ثروة الأمة ، ومقدار ما يُنفَق منها على « الصالح العام » من مدارس ومصانع ومساجد ومتنزهات وحدائق وماء وإنارة ونحو ذلك . ولست أعنى النظر إلى كمية مايصرف فحسب ، ولكنى أعنى أيضاً كيفية الإنفاق ، وهل أُنفق هذا القدر فى أحسن السبل ، وهل هناك وجه آخر خير منه ؟ كذلك لستُ أعنى ما ينفق فى ذلك من ميزانية الحكومة فقط ، ولكن أعنى أيضاً مقدار شعور الأفراد فى هذا الباب ، ومقدار ما يتبرعون به من أموالهم لهذا الصالح العام ؛ فليست ثروة الأمة مقصورة على ميزانية الحكومة ، ولكنها تشمل ثمرة الأفراد ؛ فالأمة التى لا يشعر أغنياؤها بواجب فى أموالهم لفقرائها ، أو يشعرون شعوراً ضعيفاً لا يقوى على استخراج المال من جيوبهم ، أمة منحطة إذا قيست بغيرها من الأمم التى كثرت فيها المدارس والأندية والمستشفيات والجمعيات الخيرية من مال أغنيائها .

ومما يتصل بهذا الأمر ، النظر فى ميزانية الأسَر فى الأمة وكيف تنفق ،

فأمة خير من أمة إذا عرفت أُسَرُها كيف توازن بين دخلها وخرجها ، وكيف تفرّق بين الضرورى والكمالى ، وما ليس بضرورى ولا كمالى ، ولم تسمح لنفسها أن تنفق فى الكمالى حتى تستوفى الضرورى ، ولا فى غير الضرورى والكمالى حتى تستوفى الكمالى ؛ فذلك — من غير شك — يجعل الأسر أسعد حالا ، وأهدأ بالا ، وأكثر استعداداً للرقى ؛ وهل الأمة إلا مجموعة من الأسر ؟ وهل رقى الأمة إلا حاصل جمع رقى الأسَر ؟ وكما أن أسرة قد تكون أسعد من أسرة ، مع أن دخلها أقل وثروتها أضعف ، ولكن عقلها أكبر ، وتصريفها لمالِها أدق ، فكذلك الأمم ؛ ليس خيرها أغناها ، ولكن خيرها من عرفت كيف تستخدم مالها وأحاطت ماتملك بنُظُم راقية ، وكمية كبيرة من الإصلاح تجعل مالها يتضاعف فى القيمة وإن لم يتضاعف فى العدد ؛ فكم من أمّة لها ثروة كبيرة طبيعية ، ولكن لم تعرف كيف تستخدمها ولا جزءاً منها ، ولو حلت محلها أمة أخرى لصيّرت صحراءها بستاناً ، وجبالها جناناً ، ولجعلت ترابها ذهباً ، وأرضها عجباً .

ومن أجل هذا لم يخطئ كثيراً من حصر مقياس رقى الأمة فى مقدار تغلبها على طبيعة بلادها ، وتعديل نفسها حسب ما يحيط بها ؛ لأنها لا تصل إلى ذلك إلا بمقدار كبير من العلوم الطبيعية يمكنها من الانتفاع بأرضها وجوها ، وبقدر وافر من العلوم الاقتصادية يبين لها كيف تستغل منابعها ، وبمقدار صالح من النظم السياسية والاجتماعية والأخلاقية يهيئ للأفراد سبل الانتفاع بما حولهم ، ويعدهم خير إعداد للنظر فى مصالحهم .

فليتساءل الشرقى فى ضوء هذا : أين هو فى نفسه ، وأين هو فى أمته ، وأين أمته فى العالم ؟

كتابة المقالات

هنالك أنواع من المقالات يصح أن نسميها مقالات علمية بالمعنى الواسع ، فتشمل المقالات الاجتماعية كما تشمل بحث مسألة أدبية بحثاً علميا ؛ وهذا النوع سهل على الكاتب متى تيسرت له أدوات البحث من كتب ومراجع ونحوها ، وتوفر له حسن الاستعداد من معرفة بمناهج البحث وأساليبه ؛ فكل وقت صالح لكتابة مثل هذه المقالات وإعدادها ما لم يكن الكاتب فى حالة استثنائية من مرض ونحوه .

وهناك نوع من المقالات هى المقالات الأدبية بالمعنى الخاص ، وأعنى بها الأدبية أدبا إنشائيا صرفا لا أدبَ بحثٍ ودرس ؛ وهذه أصعب من الأولى من حيث إنها تتطلب — فوق حسن الاستعداد — « المزاج الملائم » ؛ فليس الكاتب فى كل وقت صالحاً لها ، بل لا بد أن يكون مزاجه ملائماً للموضوع الذى يريد أن يكتب فيه ؛ فإن كان الموضوع فَكِهاً مرحاً فلا بد أن يكون مزاج الكاتب كذلك فكهاً مرحا ، وإن كان الموضوع عابساً حزينا فلا بد أن يكون مزاج الكاتب من هذا القبيل ؛ ولذلك قد يمر على الكاتب الأديب أوقات وخلع ضرسه أهون عليه من كتابة مقال ، وإذا هو حاول ذلك فكأنما يمتح من بئر أو ينحت فى صخر ؛ ذلك لأن هذه المقالة الأدبية لا بد أن تنبع من عاطفة فياضة ، وشعور قوى ؛ فإذا لم يتوفر هذا عند الكاتب خرجت المقالة فاترة باردة لا يشعر منها القارئ بروح ، ولا يحس منها حرارة وقوة . ولا يكفى — عند الكاتب — وجود العاطفة القوية ، بل لا بد أن تكون هذه العاطفة من جنس الموضوع الذى يريد معالجته . فويل له إن أراد رثاء وقلبه ضاحك مرح ، أو أراد فكاهة وقلبه

بأس حزين . ومن أجل هذا يحاول الكتّاب أن يؤقلموا نفوسهم للموضوع أولاً ، فيستلهموا كتابا أو قصيدة أو منظرا طبيعيّا أو نحو ذلك من الوسائل الصناعية — إن عدموا الوسائل الطبيعية — حتى تهيج مشاعرهم من جنس الموضوع ، ثم يأخذوا فى الكتابة ، فتتدفق معانيهم ، وتغزر أفكارهم ومشاعرهم .

وشأنهم فى ذلك شأن كل فنان : من موسيقىّ ومصوِّر ومَثّال ، فهؤلاء لا يحسنون الإخراج إلا فى ساعات خاصة هى ساعات هياج مشاعرهم من جنس موضوعهم .

* * *

أما موضوع « المقالات الأدبية » فكل شىء فى الحياة صالح لأن يكون موضوعا ، من الذرّة الحقيرة إلى الشمس الكبيرة . ومن الرذيلة إلى الفضيلة ، ومن كوخ الفلاح إلى قصر الملك ، ومن الماضى إلى الحاضر إلى المستقبل ، ومن أقبح قبيح إلى أجمل جميل ، ومن الحياة إلى الموت ، ومن الزهرة الناضرة إلى الزهرة الذابلة ، ومن كل شىء إلى كل شىء .

والكاتب الفنى من استطاع أن يجد من كل شىء موضوعا يجيد فيه ويستخرج إعجاب القارئ ، ومن استطاع أن يجد من كل شىء نواة يؤلف حولها مايصلح لها حتى يخرج موضوعه منسقا تنسيقا يبهر السامع والقارئ ؛ وهو فى تأليفه قد يضم الشىء إلى إلفه ، وقد يضمه إلى نقيضه ، وقد يصل به الكلام فى الذرّة إلى الكلام فى الشمس ، وقد يصل به الكلام فى النملة إلى الكلام فى الله ؛ ولكن القارئ لا يشعر بمفارقات ولا يشعر بهوة بين أجزاء الكلام ، ويسير مع الكاتب كأنه فى حلم لذيذ أو قصة محبوكة .

والفرق بين كاتب وكاتب فى شيئين : التلقى والإذاعة ؛ فالفرق فى التلقى هو أن الكاتب قد يكون دقيق الحس ، يسمع حفيف الأشجار ودبيب النمال ،

ويرى دقيق الأشياء فى الظلماء ، ويرى قلوب الناس فى أعينهم ، ودخائلهم فى صفحات وجوههم ؛ وقد يرى بأذنه ويسمع بعينه ، وقد يرى ما لا يرى الناس ويسمع ما لا يسمع الناس ، وقد يدرك الجمال بتفاصيله ، ويدرك القبح بتفاصيله ، حتى كأنه قد منح من الحواس ما لم يمنحه الناس ، وكأن حواسه ليست خمسا وإنما هى خمسون أو خمسمائة أو ما شئت ؛ على حين أن أخاه الكاتب الآخر لم يمنح هذا القدر من الحس ، ولم يبلغ هذا المبلغ من الذوق ، قد فاق المألوف من الناس ، ولكن إلى حد ، وتسامَى ولكن بمقدار .

ويفضل الكاتبَ الكاتبَ أيضاً فى التلقى من ناحية أن كاتبا قد تتعدد مناحى إدراكه تعدداً متشعبا ؛ فالطبيعة توحى إليه بأسرارها ، والمجتمع يملى عليه بواطنه ، والحياة كلها لا تضن عليه بخفاياها ، والمُلَح والفكاهات تدخر له أحسن ما لديها ، والجد لا يضن عليه بخير ما عنده ؛ فهو مستودع الأسرار ، وملتقى البحار والأنهار ، ومن يأمنه كلٌ على سره ، ويفضى إليه بما يضن به على غيره ؛ على حين أن أخاه الكاتب قد يصل إلى بعض الأسرار ، ويدرك بعض الاتجاهات ويعجز عن إدراك البعض ، قد يجيد فهم الطبيعة ولا يفهم للمجتمع سرا ، وقد يجيد فهم الجد ولا يفهم الدعابة ، ذكى فى أمر وغبى فى آخر ، منير فى جانب مظلم فى جانب .

وأما اختلاف الكُتّاب فى « الإذاعة » فعلى هذا النحو أيضا : منهم من يجيدها إلى أقصى حد ، فصوته صاف جميل يأخذ بالألباب ، ويستخرج منك العجب والإعجاب ، وهو فى كل ما يغنى معجب مطرب ، سواء أحزن أو أسرّ ، وأضحك أو أبكى ، وسواء غنى على العود أو الكمان أو البيان ، وسواء غنى عاليا أو واطئا ؛ ومنهم من يجيد نوعا دون نوع ، هو فى أحد الأنواع ممدوح الصنيع حميد الأثر ، وفى الآخر معيب مستهجن ، يحسن العود ولا يحسن الكمان ، يبنى فى ناحية

ويقوض فى أخرى ، يواتيه الطبع فى باب ، فيأتى بالعجب العجاب ، ولا يواتيه فى آخر ، فهما اصطنع وتكلف فلا يأتى إلا بما تستك منه الأسماع .

***

ومن اختلاف الكُتّاب فى التلق والإذاعة يختلفون فى « القيمة » ومع هذا فقد يختلفون فى التلق والإذاعة معاً ويتحدون فى « القيمة » كالمغنيَيْن يختلفان فى « الصوت » الذى يغنيانه وفى الآلات التى يوقعان عليها ، ولكن لا تستطيع أن تميز أحدهما عن الآخر فى درجة الرق .

فهذا كاتب يجيد فى ناحية من النواحى ، وذاك يجيد فى ناحية أخرى ، وهما فى درجة الإجادة سواء — هذا كاتب يعنى كل العناية بشكل المقالة ومظهرها ، فتخرج من يده مرتدية بالملاحة موسومة بالظرف ، لها بهاء مونق ، ورونق معجب ، قد قيست كل جملة منها بالمسطرة حتى تكون وفق قرينتها ، إن كان فى إحدى أذنيها قرط كان فى الأذن الأخرى قرط مثله ، يوافقه فى الحجم والشكل والطول ، وإن كحلت إحدى عينيها فلا بد أن تكحل الأخرى على نمط الأولى فى دقة وضبط ، حتى تبرز كأنها دمية عاج ، ثم هى بعدُ خفيفة المعنى ، فاترة الروح ، تشغل الأفكار بالنظر إلى شكلها عن النظر إلى روحها — وهذا كاتب آخر لا يعنى فى مقالته بزى ولا شكل ، فتخرج نظيفة فى غير جمال ، لا يقف عليها الطرف ، ولا تأخذ بالأبصار ، ولكنها عميقة المعنى رائعة الفكر ، جميلة الروح ، هى كالغانية تستغنى بحسن ذاتها عن زينتها ، حُسْنها كما قال أبو الطيب (حسن غير مجلوب) وجمالها غير مصنوع .

ومع الاختلاف بين هذا وذاك فلكلٍ جماله ولكلٍ قيمته الأدبية ، هذا يرضى الخاصة ، وذاك يرضى العامة ، ولا بد فى الحياة الأدبية من النغمتين معاً .

***

وليس يشترط فى إجادة الكاتب أن يطرق موضوعاً جديداً لم يسبق إليه ، بل كل موضوع صالح لأن يَكْتُب فيه ولو تداولته أقلام الكُتّاب من قبل ، فمن مبدإ خلق الإنسان وهو يحب ، ومن مبدإ خلق الأدب والحب موضوع للأدب ، ومع هذا لم تنفد مادته ، ولا يزال الشعر والنثر والغناء والتصوير تستقى من منابعه ، وتكرر أناشيده ؛ ولكن لا يُعَد الكاتب فى الموضوع المعاد مجيداً إلا إذا أتى بجديد ، غاية الأمر أنه لايشترط جدة الفكر ، بل يكفى فى ذلك جدة العرض . وأكثر الأدب من هذا القبيل أفكار مألوفة وآراء معروفة ؛ ولكن الأديب يستطيع أن يصوغها صياغة جديدة حتى يخيل للقارئ من جودة الصياغة أنها جديدة الفكرة ؛ بل إن الكاتب إذا كثرت آراؤه الجديدة خرج عن أن يعد أديباً شعبيا أو أديب أمة ، وصار أديباً للخاصة لا يقوّم إلا فى أوساط قليلة . فالوردة الجميلة تعجب الناظر ولو سبق للحديقة أن أنبتت من قبل أمثالها ، و« الدور » يغنيه المغنى الحديث يطرب ولو سبقه أحد بغنائه .

وكل ما يطلب من الفنان أن يجيد العرض ، وأن يكون عرضه ملائماً لشخصيته . انظر فى ذلك إلى الروايات الجيدة تجد معانيها فى أغلب الأحيان معروفة ينطق بها العامة والخاصة ، وتجرى على ألسنة الجهلاء والعلماء ، ومع ذلك استطاع الأديب الفنان أن يجعل منها رواية رائعة أو قصة بديعة أو مقالة شائقة ، وليس له فى ذلك إلا الصياغة وحسن العرض ، قد أخذ الفكرة التى يراها كل الناس ، ولكنه عرف كيف يلعب بها ويجيد اللعب ، ويقلبها على وجوهها المختلفة ويلبسها لباساً جديداً . قد أسبغ على الفكرة من عواطفه وشعوره ما جعلها جذابة أخاذة ، وهذا هو الجديد فى الموضوع ، فإن لكل أديب نفسَه وعواطفه وأسلوبه وشخصيته ؛ فإذا مزج الفكرة بذلك كله كان فى الناتج جِدّة ، وفى الموضوع طرافة ، كحروف الهجاء ، كل الناس ينطقون بها ، ولكن اختلفت مناطقهم

وأصواتهم وحناجرهم ، فكانت كأن كل إنسان ينطق بها نطقاً جديداً ، وكأن الحروف لم تخلق بشكلها الخاص إلا له . والقطعة من الذهب إنما يتفاوت الصائغون بالمهارة فى صياغتها والذهب هو الذهب فى أيديهم جميعاً .

* * *

وأخيراً خير الكُتّاب من استطاع أن يفهم نفسه ويعرف استعداداته ، فى أى النواحى يجيد وفى أيها يضعف ، ومتى يرق ومتى يُسِفّ ، قد جرب نفسه أولاً فى ضروب الأدب المختلفة من قصة وشعر وكتابة اجتماعية وكتابة أدبية ونقد وإنشاء ، وقلّب نفسه على وجوهها المختلفة ، ولاحظ ذلك فى دقة وعمق ، وعالج مواضع الضعف منها ، ثم استقر بعد السياحة الطويلة الشاقة إلى شىء اطمأن إليه ، وهو أن ملكاته واستعداداته يوافقها شىء ولا يوافقها آخر ، وتنبع فى مواضع وتجمد فى أخرى .

فإن هو آنس من نفسه ذلك اكتفى بما منحه القدر ، وغَنَّى فقط نوع الأناشيد التى يحسنها ، وطلب السمو فى النواحى التى تواتيه فيها ملكاته ، وإلا أضاع نفسه من كثرة ما يحاول فيما يعجز عنه ويقصر فيه ؛ فالفلاسفة إلى الآن لم يعثروا على الإكسير الذى يجعل الفضة ذهباً أو الحديد فضة ؛ فخير لنا أن نبذل جهدنا فى إظهار الفضة بخير مظاهرها من أن نحاول — مع الفشل الدائم — أن نقلبها ذهباً .

الراحة فى التغيير

خلق الإنسان ملولا ، يَمَل النعيم إذا طال ، ويمل الشقاء إذا طال ، يمل الحر إذا دام ، ويمل البرد إذا دام ، يمل الأكل الشهى اللذيذ إذا استمر عليه ، ويمل الأكل الخسيس إذا استمر عليه ؛ وقديماً ملَّ بنو إسرائيل أكل المنّ والسَّلْوَى ، وقالوا : « لن نصبر على طعام واحد ، فادع لنا ربك يُخرِجْ لنا مما تُنبت الأرض من بقلها وقثّائها وفومها وعدسها وبصلها » . ولست أدرى لِمَ لامهم موسى عليه السلام على ذلك والملل طبيعى فى الإنسان ، إلا أن تكون صيغة الطلب رذيلة مذمومة « فادع لنا ربك » ، ليست الصيغة المؤدبة التى تصدر من المؤمنين .

من أجل هذا استعان الناس على درء الملل بالتنويع والتنقل ، ولو من حسن إلى ردىء ؛ فاشتهوا أتفه الطعام بجانب أجوده ، واشتهوا عشش رأس البر ، وأكواخ أبى قير ، فراراً من القصور الشامخة والبنيان المشيد ؛ وروعى هذا فى برامج الدراسة : نحط بعد لغة ، ورسم بعد حساب ، ولغة إنجليزية بعد لغة عربية ، دفعاً للملل من الدرس ومن المدرس ؛ وروعى كذلك فى برنامج الحياة : فلعب بعد عمل ، ومزاح بعد جد ؛ وراعت الطبيعة هذا فى برنامجها : فليل ونهار ، وحر وبرد ، وسلطان للقمر بعد سلطان للشمس ، وهكذا ؛ ولولا ذلك لعرا الناس ملل لا يطاق ، ولكانت الحياة عبئاً ثقيلا لا يحتمل ، ولفر الناس منها إلى الموت طلباً للتغيير والتنويع .

***

أخطأ الناس فظنوا أن الراحة معناها الانغماس فى الكسل ، والإضراب عن

العمل ، والتمدد على سرير مريح ، أو الاتكاء على كرسيٍّ مُجَنّح أو نحو ذلك ؛ وليس هذا بصحيح دائماً ، ولو كان كذلك لما ملّ الناس هذه الراحة ، ولما فروا منها إلى العمل ، واستروحوا بالجد والتعب ؛ إنما الراحة التغيير من حال إلى حال ، من عمل إلى لا عمل ، ومن لا عمل إلى عمل ؛ ولو كان عدم العمل هو الراحة لكان السجن أروح مكان . ألا ترى الراحة تكون فى الأشياء وأضدادها باستمرار ؟ فلو ركبت سيارة من مصر إلى الإسكندرية لأحسست التعب من الركوب ، وأحسست الراحة فى المشى ، ولو مشيت طويلا لأحسست التعب من المشى ، والراحة فى الركوب ؛ وما أحلى النوم بعد التعب ، وما أحلى اليقظة بعد النوم — وفى الجلوس راحة إذا طال الوقوف ، وفى الوقوف راحة إذا طال الجلوس ، وفى العمل راحة بعد طول الفراغ ، وفى الفراغ راحة بعد طول العمل ، وفى نظر الصحراء لذة بعد طول النظر إلى البحر ، وفى البحر لذة بعد طول النظر إلى الصحراء — ومنظر البحر أبعد عن السأم لأنه فى تغير مستمر وحركة دائمة : موجة تعلو ثم تهبط ، وموجة تتكسر على الصخر أو الرمل ثم تسير إلى الشاطئ وتفنى ، وتتجدد أخرى ، وهكذا ؛ ومنظر الأرض حظه كذلك من التغير ، فالإنسان به أسرع مللاً وأقرب سأماً — وهكذا كل نظام الحياة : الملل من الدوام ، والراحة فى التغيير .

***

ما أصعب الحياة الراتبة وأشقها على النفس ! إنها تميت القلب وتبعث على الخمود ، ولا بد لعلاجها من التجديد ، وليس التجديد إلا نوعاً من التغيير ، يبعث عليه السأم من القديم ؛ فإذا مل الناس الأدب القديم ، جدد زعماء الأدب فى الأدب ، وأتوا للناس بفن جديد يستروحون به ؛ وإذا مل الناس نوعاً من النظام الاجتماعى أتى المجددون بشىء جديد ونظام جديد يذهب بالملل ويجدد

النشاط . وليس تغيير الأزياء — وخاصة عند النساء — إلا ضرباً من هذا ، هن أسرع خلق الله إلى الملل ، وأدعاهم إلى التغيير والتجديد ؛ فهن يطلعْن على الناس كل عام بزى جديد فى القبعات والأثواب و كل ما يتصل بهن : شعر قصير بعد شعر طويل ، وفستان طويل بعد فستان قصير ، وهكذا كثر مللهن فكثر تغييرهن ، فراراً من السأم وطلباً للراحة لهن ولغيرهن .

* * *

وأقدر الناس فى هذه الحياة من استطاع أن يتغلب على السأم والملل بالتغيير المناسب فى نفسه وفى غيره . فالأديب القدير من استطاع أن ينوّع نفسه وينوّع كتابته ، حتى لا يُمِلّ ولا يُمَلّ . وخير المجلات ما استطاعت أن تجدد نفسها من حين إلى حين تجديداً يتفق ومنفعة الناس ، ويتفق والرقى ؛ فتتغير فى أسلوبها ، وتتغير فى موضوعاتها ، وتتغير من حين لآخر فى كتّابها حتى لا يسأم قراؤها . وخير القادة من استطاع أن يجدد فى دعوته ، فإذا كان له مبدأ واحد يدعو إليه استطاع أن يبرزه كل يوم فى شكل جديد يَلفت النظر ، ويبعث فيه حياة جديدة إلى النشاط والحركة .

وكثير من شرور هذا العالم سببه الملل ؛ فكسل التلميذ وانصرافه عن الدرس نوع من الملل ، وخمول الموظف وقعوده عن الجد فى العمل نوع من الملل ، والجمود السياسى والفكرى والاجتماعى نوع من الملل ، والرغبة فى الانتحار نوع من الملل ؛ وكثيراً ما يكون الميل إلى الكيوف والإدمان عليها نوعاً من الملل ، وكثيراً ما يكون الشقاق العائلى وشقاء المنزل والمشادة بين الزوجين أحياناً والأبوين وأولادهما أحياناً نوعاً من الملل ، إلى كثير من أمثال ذلك ؛ وكلها أمراض صعبة التشخيص صعبة العلاج ، تحتاج إلى نوع من الطب النفسى أدق من طب الأجسام ، وتحتاج إلى مهارة فى علم النفس لا تقل أهمية عن المهارة فى علوم الطب .

من أجل هذا أصبحت الحياة فنا يجب أن يدرس ، وأصبحت طريقتنا فى الحياة طريقة بالية ؛ وكل شىء إذا ارتقى وتعقد أصبح فنا يحتاج إلى الدراسة ، وأصبحت الطريقة الساذجة فيه لا تغنى . فأمهاتنا يربين أولادهن حسبما اتفق ، ثم أصبحت التربية فنا ؛ ومعلمونا كانوا يعلموننا كيفما اتفق ، ثم أصبح التعليم فنا ؛ ومغنونا كانوا يغنوننا حسبما اتفق ، ثم صار الغناء فنا — كذلك الحياة نفسها نحياها الآن حيثما اتفق ؛ ولكنها تعقدت وأصبح حلّ عقدها يحتاج إلى دراسة ودراسات — وأصبحت المرأة فى حاجة لأن تتجدد فى بيتها حتى لا يمل زوجها ، والزوج يتجدد حتى لا تمل زوجته ، والمعلم يتجدد حتى لا يمل طلبته ، ورئيس الحزب يتجدد حتى لا يمل أتباعه ، وأصحاب الملاهى يتجددون حتى لا يملوا .

والتغلب على الملل ليس من الأمور الهينة ، فليس كل تغيير يصلح لإزالة السأم ، إنما يصلح التغيير يوم تدرس النفس ويدرس نوع التغيير ، كما يدرس المرض ويدرس نوع العلاج ، ويكون الدواء طبق الداء .

فى المسجد

ساقنى حسن الحظ إلى الحديث مع سيدة إنجليزية فاضلة ، وكان ذهنى مستغرقا فى برنامج « الأخلاق والتربية الوطنية للمدارس الثانوية » . والمتحدثون — عادة — يلونون حديثهم — ولو من غير شعور — بما يشغل أذهانهم ويستغرق أفكارهم ، ومهما بعد المتحدث عن الموضوع الذى يستولى عليه فسرعان ما يعود إليه ، وينغمس فيه .

لقد بدأنا الحديث فى الجو وانتقلنا إلى غيره ، وإذا بنا نتكلم فى « التربية والتعليم وشؤونهما » وإذا بى أسأل السيدة :

— ما برنامج الأخلاق والتربية الوطنية للمدارس الثانوية فى إنجلترا ؟

— ليس لهما فى المدارس برنامج معين ولا دروس خاصة ، ولكن تلقى فيهما محاضرات فى مناسبات ؛ وأهم ما يقوم بهذه المهمة «الكنيسة» فهى تنظم دروسا للشبان والشواب فى هذا الموضوع ، ويقوم بها رجالها ، فيكفوننا بذلك مؤونة الدروس فى المدارس ، وإلقاؤها فى الكنائس يجعل لها معنى أجمل ، واحتراما أوفر وطعما أحلى .

***

انتقل ذهنى فى سرعة البرق من الكنيسة عندهم إلى المسجد عندنا ، وساءلت نفسى : ما الوظيفة الاجتماعية التى يؤديها المسجد للأمم الإسلامية ؟

إنى أفهم أن لمسجد الحى وظيفة اجتماعية هامة بجانب وظيفته الدينية ، هى الإشراف على تجلية الروح وتهذيب النفس بتنظيم المحاضرات فى الموضوعات التى تمس العصر ، والمشكلات التى تعرض فى كل زمن ؛ كما أن من وظيفته الإشراف

على حالة الحى الاجتماعية ، وما يصاب به من بؤس وفقر وانغماس فى المخدرات ونحو ذلك ؛ ثم تنظيم الإحسان والقيام بالخدمة العامة بين الأغنياء والفقراء ، وإسداء النصائح للأسر فيما يعرض لهم من متاعب وصعاب .

إنى أفهم من مسجد الحى أن يكون كمستشفى الحى ، غير أن المستشفى يداوى الأمراض الجسمية ، والمسجد يداوى الأمراض الروحية والاجتماعية .

إنى أفهم أن يكون إمام المسجد رئيس المستشفى يعرف مرضى الحى ، ويعرف علاجهم ، ويكون صلة تآلف وتعارف بين أهل الحى ، يأخذ من غنيهم لفقيرهم ، ومن صحيحهم لمريضهم ، ويقضى على المنازعات والخصومات ما استطاع ، ويثقف الجهلاء ، ويتخذ من المثقفين من أهل الحى أعواناً وأنصاراً ، يخطبون ويعظون ، ويعلمون ويثقفون — وإذ ذاك يشعر أهل الحى بأن المسجد ضرورة من ضرورات الحياة ، يقوم لهم بما تقوم به المدرسة ، وبما تقوم به المحكمة ، وبما تقوم به جمعيات الإحسان ، وبما هو فوق هذا وذاك .

بل لم لا يكون المسجد معهداً للمرأة ، كما يجب أن يكون معهداً للرجل ؟ فيخصص مسجد كل حى وقتاً لنساء الحى تعلم فيه المرأة واجباتها الدينية والاجتماعية ، وتفقه فيه فى دينها ودنياها ، وترشد فيه إلى طرق إسعاد البيت ، وتثار همتها إلى العطف والإحسان وتنظيمهما .

فالمرأة الآن محرومة من غذائها الروحى والدينى ، لأنها بعيدة عن المسجد ، حرمت منه من غير حق ، وهو سلوتها فى الأزمات ، وهو منهل عواطفها وغذاء روحها . لقد حرمت المرأة من المسجد ، فحرم أبناؤها وبناتها من العاطفة الدينية ، لأن الأم — غالباً — هى مصدر هذا الإيحاء ؛ وإذا انحرفت مرة فلم تجد المسجد يهديها ويعزيها ، جمحت وغوت ؛ فهى الآن بين بيت وملهى ، ولا مسجد بينهما يذهب بملل البيت ويكسر من حدة الملاهى .

هذا هو المسجد كما أتصوره ، وكما ينبغى أن يكون — قوى الأثر فى النواحى الروحية والاجتماعية والتعليمية ، فى الرجل والمرأة ، قلوب الحى معلقة به ، يغارون عليه ويعملون على ترقيته من حيث نظامه ونظافته وإمامه وخطباؤه ، ويرون أنه لهم وهم له ، وأن منارته ينبعث منها الإصلاح فى جميع نواحيه ؛ متعلمو الحى جنوده فى نشر الثقافة ، وأغنياؤه جنوده فى محاربة الفقر ، ونساؤه دعاة أبنائهن وبناتهن إليه .

هذا هو الوضع الصحيح للمسجد . فأين مسجدنا منا ، وأين نحن من المسجد ؟ لقد اعتزل الناسَ واعتزله الناسُ ، ولم يشعر شعوراً قويا بوجودهم ، ولم يشعروا شعوراً قويا بوجوده .

نظرت دار الآثار إلى بنائه فعدته « آثارا » ، ونظر الناس إلى نظامه فعدوه كذلك « آثارا » ؛ فليس يؤمه — مع الأسف — إلا الطبقة الفقيرة البائسة ، أو الموظف الذى أحيل إلى المعاش ، أو من تقدمت به السن من عامة الناس . أما الشباب المثقفون ومن أنعم الله عليهم بشىء من رغد العيش فلا يفكرون فى المسجد ولا تحدثهم أنفسهم بزيارته ، وإن دخلوا لا يعرفوا كيف تؤدّى شعائره إلا القليل النادر ؛ كأن السينما والمساجد اقتسما الناس ، فخص المسجد بالشيوخ والعجائز والفقراء ، وخص السينما بالفتيان والفتيات والأغنياء ، وهى حال لا تشعر بأمل ، ولا تبشر بخير .

ووزارة الأوقاف كذلك عدّت المساجد « آثاراً » ، فهى تسير فى تعيين أئمتها وخطبائها وفى مراقبتها سير القرون الخالية ، كأن الزمن لا يسير .

والأئمة والخطباء يعاملونها معاملة « الآثار » ، فهم يقرأون غالباً الخطب التى ألفت فى القرون الماضية ، فلا تحرك نفساً ولا تحيى همة — كل ما فيها « اتقوا الله » إجمالا من غير تفصيل . أما ما يحدث بيننا من أحداث ، وأما ما نشعر به من

مصائب وما ينتابنا من كوارث ، فلا دخل لهم فيه ، لأن دواوين القدماء لم تنص عليه .

الحق أن للناس بعض العذر فى الانصراف عن المساجد ؛ فلو عرف الخطباء كيف يكلمون الناس ، وعرف رجال الدين كيف يصلون إلى قلوبهم ، وشعر الناس أنهم يجدون فى المسجد متعة روحية وغذاء دينيا واجتماعيا ، لتغير الحال وازدحم المسجد بالناس من جميع الطبقات .

وقد كان المسجد فى الإسلام يقوم بهذه النواحى التى ذكرنا ؛ فالخلفاء ونوابهم كانوا يخطبون فى المشكلات الحاضرة ، وكانوا يخطبون كلما حزبهم أمر أو عرض لهم مُهِمّ ، وكان المسجد مدرسة للعلماء والمتعلمين والشعراء والمتأدبين ، وكان المسجد مكتبة للواردين والمترددين ، وكان المسجد مجمع الناس فى الأعياد والمواسم ، وكان المسجد مكتب الصغار ومدرسة الكبار ؛ ولو سار فى طريقه وتأقلم مع الزمن لكان يؤدى كل الخدم الاجتماعية التى أشرنا إليها من قبل ؛ ولكن « خلف من بعدهم خَلْف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات فسوف يَلقَون غيًّا إلاَّ من تاب » .

منطق اللغة

قال صديق : ألا تنظر إلى هذه الظاهرة الغريبة ؟ أنا فى مجلس يتجادل أحيانا فيما يعْرَض عليه باللغة العربية ، وأحيانا باللغة الإنجليزية ؛ فإذا تجادل باللغة الإنجليزية فالحجة تُقْرَع بالحجة فى إيجاز ، وداخلَ حدود معينة ، قلَّ أن يكون هناك استطراد ، وقلَّ أن يكون لعب بالألفاظ ، وقلَّ أن يكون خروج عن الموضوع ، وقلَّ أن يكرِّر المجادل نفسه فيما يقول ، فإما أن يأتى بحجة جديدة وأفكار جديدة ، وإما أن يسكت ؛ وما هى إلا هنيهة حتى يؤخذ الرأى ويفصل فى الأمر . وإذا تجادلنا باللغة العربية فهناك يطول الجدل ، ويكثر الحديث ، وكثيرا ما تقرع الحجة لا بأختها ، ولكن ببنت عمها ، وكثيرا ما يستطرد من موضوع إلى موضوع لأقل مناسبة أو بدونها ؛ وبعد طويل من الزمان يعودون إلى ما بدءوا فيه ، وتثار مسائل كثيرة لا يفصل فى واحدة منها ، ويقول المجادل الآن ما قال من قبل ، فيرد عليه صاحبه بمثل ما رد من قبل ، وتتشعب الآراء حتى يصعب حصرها ، وحتى ينسى أخيرا ما بدئ به أولا ، ثم يؤخذ الرأى وقد ملَّ المتجادلون ، وسئموا الجدل ، وودوا أن يفصل فى الأمر على أى شكل ؛ ولذلك قد يكون الرأى يؤخذ أخيرا شراً من الرأى يؤخذ أولا ، بل قد يكون الرأى الذى قرر لا علاقة له بالمسألة التى أثيرت من قبل !

نم ياصديق ، أنا أعتقد أن لكل لغة منطقا يخالف منطق اللغة الأخرى ، وأن المسألة لا ترجع إلى عقلية المتجادلين وحدها ؛ فقد يتجادل جماعة — كما ذكرتَ — باللغة الأجنبية ، ثم هم أنفسهم يتجادلون باللغة العربية فيكونون فى الأولى أكثر توفيقا ؛ وليس من الصحيح أن ترجع هذا إلى ضعفهم فى اللغة

الأجنبية وقوتهم فى اللغة العربية ؛ فهذا القول ينطبق تماماً على من أجادوا اللغتين، وحذقوا اللسانين .

وتعليل ذلك قد يبدو غريبا ، فإن أول ما يتبادر إلى الذهن أن اللغة ليست إلا وسيلة للتعبير عن المعانى ، وليست إلا مظهراً من مظاهر العقلية ؛ فإذا كان التفكير صحيحاً سليما كان التعبير عنه كذلك ما دام صاحبه يجيد التعبير ويتقن اللغة ، وإذا كان التفكير فاسداً كان التعبير عنه فاسداً متى وفق صاحبه للتعبير عما يريد ؛ ولكن يظهر لى أن المسألة أعمق من ذلك ، وأن هناك تفاعلا بين اللغة والتفكير ؛ فاللغة المنظمة تعمل فى تنظيم الفكر ، والفكر المنظم يعمل فى تنظيم اللغة — وكذلك العكس — وأن المتكلم إذا تحدث باللغة الإنجليزية أو الفرنسية خضع لمنطقها وطرق تفكيرها كما يخضع لاختيار كلماتها ، واختيار أساليبها ، وكيفية معالجة الموضوع ، فيؤثر ذلك كله فى تفكيره وجدله وحججه ؛ وعلى الجملة فهو يحاول أن يكون إنجليزيا أو فرنسيا فى تفكيره ، كما هو إنجليزى أو فرنسى فى لغته — يشعر بهذا تمام الشعور من أجادوا لغتين أو أكثر ؛ فهم إذا تكلموا بلغة أجنبية راقية شعروا — مثلا — بأن هناك غرضاً محدوداً واضحاً يرمون إليه فى حديثهم وحججهم ، وأنهم يضعون لذلك خططا ثابتة معينة تشبه خطط الحرب يضعها قادتها لتسلم كل خطة إلى التى تليها ، أو كالخطط التى يضعها لاعب الشطرنج الماهر ، إذا لعب لعبة علم ماذا يريد منها ، وما هى الألعاب التى تترتب عليها فتنتج الفوز ، وهو هو إذا تكلم باللغة العربية لم يتضح القصد له وضوحه باللغة الأجنبية ، ولم يرتب حججه ذلك الترتيب الذى يرتبه باللغة الأجنبية ؛ ومن أوضح الأمثلة على ذلك أن مجيد اللغتين كثيراً ما يفكر باللغة الأجنبية ، ويترجم تفكيره إلى اللغة العربية ، وقلما يعكس ، مع أن اللغة العربية هى لغته الأصلية ؛ وهى التى نشأ عليها وتربى فى أحضانها ، فكان معقولا أن

تكون هى لغـة تفكيره ؛ فإذا عبر بلغة أجنبية نقل تفكيره إليها — وليس من الهين تعليل هذه الظاهرة ؛ ولكن يمكن أن يقال إن السبب فى ذلك أن اللغات الأجنبية الراقية قد استكملت أدواتها من حيث الألفاظ الموضوعة لكل آلة مخترعة ولـكل معنى مستكشف ، كما استكملت أدواتها من حيث أساليب التفكير وصياغة المعانى صياغات مختلفة أدخل فى الذهن وأقبل للعقـل وأجمل فى الذوق ؛ وأن اللغة العربية أبطأت فى تاريخها الحديث ولم تسرع فى السير، برغم ما يقوله الدعاة من أنها أغنى اللغات وأجمل اللغات ، ثم يناموت على ذلك من غير أن يعملوا على تكميل نقصها ، ومعالجة ضعفها ؛ وكيف يعمل على معالجة الضعف من لم يشعر بألم المرض ؟ وكيف يعمل على تكميل النقص من لم يشعر بنقص ؟ — لهذا كان فكر المفكر إذا أجاد اللغتين يتبع — من غير اختيار — أرحبها صدراً وأغزرها مادة وتعبيراً .

وسبب آخر : وهو أن الأمم الأجنبية الراقية قد مرنت طويلا على المجالس النيابية والمناظرات المدرسية والجامعية ، وتكونت لها مع طول الزمن تقاليـد معروفة مألوفة غير مكتوبة ، وأثرت فى جدلهم ومناظراتهم ومجالسهم أثراً كبيراً ، كما أثرت فى طرق تفـكيرهم ولغتهم التى يتبعونها فى الجدل والمناظرة .

ثم — مما لا شك فيه — أن هناك ارتباطاً قويا بين اللغة والخُلق ، فلست تجد فى لغة أجنبية من ألفاظ الملق وعباراته ما تجده فى اللغة العربية مما أدخله عليها الفرس والأتراك ، ولا تجد من عبارات الحشو التى تدل على الذل والخضوع ما تجد فى لغتنا العربية الحديثة . كانت اللغة ديمقراطية شريفة نبيـلة يوم كانت اللغة العربية لغة العرب الديمقراطيين الذين لا يفرقون كثيراً بين مخاطبة الأمير ومخاطبة بعضهم بعضاً ، ثم أصبحت لغة العبيد يوم تسرب إلى أهلها الذل والعبودية . لقد جلست أول أمس إلى رجل يحدث « باشا » فكان ما أحصيت

فى حديثه من « سعادة الباشا » أكثر من كلماته فى الموضوع . ومالى أذهب بعيدا ، ومدلول الكلمة فى اللغة العربية أصبح غير مدلولها فى اللغة الأجنبية ؟ فإذا قال الألمانى أو الإنجليزى « نعم أفعل » لم تدل على نفس المعنى الذى يُفهم من قول المتكلم باللغة العربية « نعم أفعل » . « فنعم أفعل » العربية تدل على أنه قد يفعل وقد لا يفعل ، والسامع إذا سمعها شك فى مدلولها « هل يفعل أو لا يفعل » فاحتاج إلى أن يكرر عليه الطلب والرجاء ، واحتاج المتكلم أن يعيد « نعم أفعل » وربما أقسم ، وربما استعمل كل صيغ التأكيد ، وهى بعد هذه الأيمان وهذه التأكيدات كلها لا يزال مدلولها أنه قد يفعل وقد لا يفعل ، وهو إذا لم يفعل لم يخجل ، لأنه حقق وجها من وجوه الجملة ؛ بل المتكلم الشرقى إذا قال « سأفعل » باللغة الأجنبية كانت أقوى فى نظره وأكثر التزاما مما إذا قالها باللغة العربية ، والمتكلم هو هو ، لم يتغير فى الكلمة إلا التعبير عنها بإحدى اللغتين ؛ فإذا قالها العربى لأجنبى كان لها أشد احتراما ولتنفيذها أشد رغبة وأقوى إرادة . أليس فى هذا كله دليل على شدة الارتباط بين اللغة والعقل واللغة والخُلق ، وأن العقل واللغة والخلق كلها تتفاعل ، فإذا رقيت اللغة تبعها — نوعا ما — رقى العقل والخلق ، وإذا رقى العقل تبعه — نوعا ما — رقى اللغة والخلق ، وهكذا . ومن هذا تنتج معادلات جبرية معقدة الحل .

إن الغيرة القومية والنهضة الشرقية تتطلبان أن يعنى قادتها بهذه المظاهر ، وأن يضعوا للأمة تعاليم جديدة فى اللغة والتفكير ؛ فهم مطالبون بكل الوسائل أن يميتوا ألفاظ الملق من اللغة العربية ويحيوا ألفاظ الأدب النبيل ، وأن يربطوا أشد الربط بين الألفاظ ومدلولاتها ، فلا يسمحوا أن يضيعوا مدلول الألفاظ كما هى ضائعة اليوم ، وأن يضربوا الأمثال للناشئين فى الجدل والمناظرات ، فيعلموهم كيف تؤدى المعانى على وجوهها ، وكيف تُلتزم حدود الجدل فلا تُتَخطى ،

وكيف يرسم الغرض الذى يرمى إليه الباحث ، وكيف يختط السبيل إليه ، وكيف يوفر الزمن إذا هو التزم ألا يقول إلا جديداً فى المعنى ، وكيف يصل إليه من أقرب طريق .

لو فعلنا ذلك لوفرنا على المجالس زمنها وتفكيرها ، ولوصلنا فى مسائلنا إلى نتائج خير مما نصل إليه الآن ، بل عندى أن السرعة مع الخطأ أحياناً خير من الإبطاء الممل والتفكير الراكد مع الصواب دائماً .

ظاهرة وتعليلها

أعرفه غزير العلم واسع المعرفة ، ولكنه يأبى أن يجالس أمثاله من العلماء ، ولا يلذه إلا أن يجالس لفيفا من صغار الناس فى مهنتهم وعقليتهم ؛ وليس الشراب هو الذى يجمعهم ويؤلف بينهم كما هو الشأن فى كثير من الأحيان .

وأعرفها فتاة على جانب من الجمال ، ولكنها لا تؤمن بجمالها ، لأن أهلها أدخلوا فى روعها من صغرها أن الجمال فى البياض والحمرة والشعر الأصفر ، وهى سمراء شديدة السمرة ، وليس فى وجهها حمرة ، ولا فى شعرها صفرة ، فهى فى اعتقادها ليس لديها من الجمال شىء ؛ وأراها تصاحب فتاتين ليس فيهما من الجمال شىء ، وتأبى أن تصاحب جميلة ، وخاصة إذا كان جمالها فى لونها الأبيض المشرب بحمرة .

وأعرفه فنانا كبيراً ، ولكنه يأبى أن يجالس الفنانين الكبار أمثاله ، ويفضل أن يجلس إلى مبتدئى الفن يعلمهم ويصلح من أخطائهم ، وهم من جانبهم يتملقونه ، ويفيضون عليه من ألقاب الثناء ما يملؤه غبطة وسروراً .

وأعرف عشرات من هذه الأمثلة أشاهدها كل يوم ، وأسمع بها كل حين ، وأقرأها فى وصف كثير من الرجال والنساء ، فما سرها ؟

سرها عندى أن من طبيعة الإنسان أنه يكره « الضعة » ويكره كل ما يشعره بالضعة ، ويحب العظمة ويحب كل ما يشعره بالعظمة .

من أجل هـذا تراه — فى العادة — يكره أن يجالس من هو خير منه فى علمه وفنه وأدبه ، لأن ذلك كله يشعره بصغر نفسه ؛ وهو أقل كراهية لمجالسة من هو مثله ، لأنه لا يحط من شأن نفسه ؛ وهو أشد حبا لمجالسة من دونه لأن ذلك يجعله أكثر شعوراً بعظمة نفسه .

ويمكن تطبيق ذلك على كثير من الأحداث اليومية والمشاهدات المألوفة . ألست ترى أن « حَلْبة الكميت » أو جمعية الشراب تكره كل الكراهية أن يكون بينهم وقت شرابهم من لا يشرب ، ويستثقلونه مهما ظرف ، ويستسمجونه مهما لطف ، لأنه يذكرهم بالفضيلة حين ارتكابهم الرذيلة ، ويشعرهم بأنهم الوضعاء وهو الرفيع ، وأنه العين الناقدة ، وأنه الرقيب عليهم ، وأنه العادّ لسقطاتهم ، وأنه المحتفظ بقوة إرادته عند ضعف إرادتهم ؟ كل هذا يشعرهم بالضعة فيكرهونه ويبدءون بالإلحاح عليه أن يشرب لا حبا فيه ولكن حبا لأنفسهم ، وإبعاداً لشعورهم بضعتهم ، ولا يزالون يستحلفونه حتى إذا نجحوا أمنوا الشعور بالضعة ، وإذا فشلوا مقتوه ومقَتوا جلوسه بينهم ، لأنه نغص عليهم بهجتهم ؛ ومن أجل هذا أيضاً أحبوا أن يسمعوا أدب الخمر ، وأحبوا أن يسمعوا من يفلسف لهم الحياة وأنها ليست إلا متعة الساعة وشهوة الوقت ؛ فإن تجاوز المحدث ذلك إلى أنه لا يعبأ بحرام ولا حلال ، وأن يقول كما قال أبو نواس :

فإن قالوا حرامٌ قل حرامٌ ‏ ‏ ‏ ‏ فإن لذاذة العيش الحرامُ

فذلك عندهم أظرف وأفكه لأنه اجتث الشعور بالضعة من جذوره .

* * *

هذا هو سبب العداء دائما بين الفضيلة والرذيلة أو بين الفاضل والرَّذْل ، وهذا هو السبب فى أن الرذل يكره الفاضل أكثر مما يكره الفاضل الرذل ، لأن الرذل هو الذى يشعر بالضعة من رؤية الفاضل .

وهو السبب فى أن الفقير يكره الغنى أكثر من كره الغنى للفقير . لأن الفقير هو الذى يشعر بالضعة إذا قاس نفسه بالغنى .

وكثيراً ما يكون سبباً فى فساد الحياة الزوجية ، أن تكون فى أحد الزوجين

صفات راقية ليست فى الآخر ، فيشعر هذا الآخر بالضعة عند قياس نفسه بنفس قرينه ، فتسوء الحياة ويُجهل السبب .

* * *

بل أرى أن فى هذا القانون تفسيرا لكثير من الرجال والنساء الذين يحبون العزلة وينفرون من الناس .

فتفسير هذا أنهم يشعرون بنقص فيهم من ناحية من النواحى الخلقية أو العلمية أو الاجتماعية .

كأن يشعروا أنهم لا يحسنون حديث المجالس ، أو أن فى جسمهم عاهة من العاهات ، أو أنهم إذا جودلوا أفحموا ، أو إذا نيل منهم لم يستطيعوا أن يأخذوا بحقهم . فتراهم يفضلون العزلة ويتغنون بمدحها ، ويصبون جام غضبهم وسخطهم على الناس ، ويطنبون فى ذم الأخلاق وسوء المجتمعات ؛ وهو نقص فى محب العزلة جعله يشعر بضعة نفسه فى المجتمعات ، وهو يكره الضعة ويكره كل ما يسببها ، وهو لا يحب أن يلوم نفسه وهى السبب ، لأن فى هذا ضعة أيضاً ، فيلوم الناس ويلوم المجتمعات ، ويكون مثله مثل من عجز عن أن ينتقم من عدوه ، فانتقم من صديقه .

* * *

أتدرى السبب فى أن الشباب لا يودون كثيرا أن يجالسوا آباءهم ولا إخوتهم ولا أقرباءهم ، ويفضلون — غالبا — أن يجالسوا الغرباء ؟

هو — أيضا — هذا القانون ، فإن آباءهم وإخوتهم وأقرباءهم يعلمون نشأتهم ، وكل شىء فيهم ، وكل شىء حولهم ، وفى ذلك عيوب عرفوها ، وزلات وقعت تحت أعين الآباء ومن إليهم ؛ فالشباب يشعر بهذا التاريخ كله إذا جلس إليهم ، وهذا يشعره بالضعة ؛ فهو يفضل عليهم صداقة الغرباء ، لأنهم يجهلون تاريخه ،

ويجهلون زلاته ؛ فهو عندهم لا يشعر بنقص ، ولا يشعر بضعة ، فكان إليهم أميل ، وبهم آنس ؛ والمثل العربي يقول « برِّق لمن لا يعرفك » ، ومعناه تبجح وهدد من لا يعرفك ، لأن من عرفك لا يعبأ بك .

لقد كان لى أستاذ فى سن الخمسين ، وكان جلساؤه أقلهم فى سن الستين ، فسألته فى ذلك فقال : إنى اخترتهم لأنى أشعر وأنا معهم أنى شاب .

***

بل هذا هو السر فى أن الرذيلة فى كثير من الأحيان توثِّق الصداقة بين أصحابها ؛ فالمقامر أقرب إلى صداقة المقامر ، ومدمن الخمر إلى مدمنها ، والغزل إلى الغزل ، واللص إلى اللص ؛ وقل أن ترى ذلك فى الفضيلة ، فالصدق قل أن يؤلف بين اثنين لصدقهما ، والعدل قل أن يؤلف بين اثنين لعدلهما .

والسبب فى هذا أن ذوى الرذيلة يشعرون بالضعة من رذيلتهم فيهربون إلى الأراذل مثلهم حتى يتجردوا من هذا الشعور ؛ أما الشعور بالعدل أو الصدق فليس فيه هذا الألم فلا يحتاج صاحبه إلى البحث عن مهرب — وهو السبب فى احتياج أصحاب الرذيلة إلى مخبأ ، فحجرة المقامرة مستورة ، ومجلس الشراب فى مخبأ ، والغزلون يتسترون ، ومجال الحشيش والكوكايين فى حِرز الخ ؛ وليس السبب فى ذلك فقط أن رجال الأمن يطاردونهم ، بل أكاد أوقن أن هذه الأمور لو أبيحت من رجال الأمن لتستروا أيضا ، لأنهم يريدون أن يهربوا بأنفسهم من الشعور بالضعة أمام من لم ينغمسوا فى الرذيلة انغماسهم .

***

ألست ترى معى أن الرجل الملتزم للأخلاق المتشدد فيها أقل الناس أصدقاء وأشد الناس وحشة ، وكلما اشتد فى تزمته اشتد الناس فى كراهيته ؟ وأن الرجل

كلما سما عقله بعد عن الناس و بعدوا عنه ، وأنهم قد يجلونه ولكن لا يحبونه ، لأن سموه إعلان لضعفهم ، وعلوه رمز لضعتهم ؟

ولعل كثيراً من صفحات التاريخ المملوءة باضطهاد العظماء ، وقتل النبغاء ، واغتيال الأبطال ، تستتر وراءها هذا السر الكامن الخطير ، وهو أن الاضطهاد والقتل والاغتيال كان سببه الخفي شعور المدبرين بضعتهم أمام هؤلاء العظماء ، فتخلصوا من الشعور بالضعة بالقضاء على من كانوا سببه — فلما امحوا من الوجود كان لا بأس عند من قتلوهم أن يمجدوهم ، وأن تمجدهم القرون بعدهم ، لأن الحقيقة الواقعة أشد إشعاراً بالضعة من الذكرى الماضية .

* * *

و بعد فلا يستطيع الناس أن يتغلبوا على هذه الرذيلة ، وأن يجاس عالمهم إلى من هو أعلم منه ، وفنانهم إلى من هو أفن منه ، وفاضلهم إلى من هو أفضل منه ، يستفيد منه و يأخذ عنه فى غير حقد ولا ضغن ، إلا بكثير من مجاهدة النفس ، وهيهات ثم هيهات .

أمس وغدا

كان لسَرِيّ مصانع ومتاجر ، كأفخم ما يكون من مصانعَ ومتاجر ، أصابتها النار فأتت عليها ، وقُدِّرَت الخسائر بالألوف .

وكان هذا السرى فى السنين الأخيرة من عمره ، ليس له قوة الشباب ، ولا أمل الشباب ، وكانت ثروته الضائعة ثروة العمر ، ومجهود العمر .

جاءه من يسأله عن هذه الكارثة وأسبابها ومقدارها ، فأجابه : « لست أفكر فى شىء من ذلك ، وإنما يملك علىّ كل فكرى الآن : ماذا أنا صانع غداً » .

يعجبنى هذا الاتجاه العملى فى التفكير ، فإنه دليل الحياة ، وعنوان القوة ، ومبعث النشاط ، فما دمتَ حيا ففكر دائما فى وسائل الحياة ، ووسائل السعادة فى الحياة ؛ وتلك كلها أمامك لا خلفك ، وفى الغد لا فى الأمس .

لقد دل هذا السرى بإجابته على أنه يقتنى عقليةً أقومَ مما رعته النار ، ونفسية خالدة لا تفنى بفناء المال .

إن الحياة الناجحة تفكر فى الغد ، والحياة الفاشلة تبحث فى الأمس ، وقديماً قالوا : « إذا أفلس التاجر فتَّش فى دفاتره القديمة » . وقال الشاعر وقد رأى بنى تغلب لا يعملون عملا جديداً مجيداً ، ويكتفون برواية قصيدة قالها عمرو بن كلثوم التغلبى فى مدحهم :

أَلْهَى بنى تَغلب عن كل مكرُمة ... قصيدةٌ قالها عمرو بن كلثوم

يفاخرون بها مذْ كان أوَّلُهم ... يا لَلرِّجال لشعر غيرِ مسئوم

ولأمرٍ ما خلق الله الوجه فى الأمام ولم يخلقه فى الخلف ، وجعل العين تنظر

إلى الأمام ولا تنظر إلى الخلف ، وأراد أن يجعل لنا عقلا ينظر إلى الأمام وإلى الخلف معاً ، وأن يكون نظره إلى الخلف وسيلة لحسن النظر إلى الأمام ؛ فعكَس قومٌ الفطرة الإنسانية ونظروا بعقولهم إلى الخلف وحده ، وقلبوا الوضع فجعلوا النظر إلى الخلف غاية لا وسيلة .

من هؤلاء الذين نُكِّسوا فى الخَلق من إذا حدثتهم فيما هم صانعون غداً ، حدثوك عما صنعه آباؤهم الأولون ، وكيف حاربوا ، وكيف انتصروا ، وكيف سادوا العالم ، وكيف وكيف ؛ وهذا حق لو اتخذ وسيلة لعمل مستقبل ، واستُحثت به الإرادة لعمل مستقبل ، وضُرب مثلا لمعالجة مشكلات المستقبل ؛ أما أن يكون غرضاً فى نفسه ، فحديث العجَزة ومن أصيبوا بالفقر العقلى وضعف الإرادة .

وممن نُكِّسوا فى الخلق هؤلاء الذين يثيرون العداوات القديمة والأحقاد القديمة بين رجال الأمة وقادتها ؛ فإذا طالبتهم أن ينظروا إلى الأمام ، ويتكيفوا بما يتطلبه المستقبل ، أبوا إلا أن يذكروا لك تاريخ الأمس وحزازات الأمس ، وسخائم الأمس ؛ وما دروا أنهم بهذا يعطلون مصلحة المستقبل وخير المستقبل ، أو دروا ولكنهم الماكرون الخادعون . فليس يصح أن ينظر فى الأمس إلا لتجنب أغلاط الأمس فى المستقبل ، والانتفاع بصواب الأمس وخطئه فى المستقبل .

وممن نكسوا فى الخلق هؤلاء الذين جمدت عقولهم فاعتقدوا أن كل شىء كان خيره فى الأمس وشره فى الغد ؛ فخير النحو ما وضعه سيبويه ، وخير البلاغة ما قاله الجاحظ ، وخير الفلسفة ما قاله ابن سينا وابن رشد والفارابى ، وخير عصور الدين ما سبق من العصور ، وخير الأخلاق أخلاق آبائنا ، وأنه لم يبق فى هذا الزمن إلا الحُثَالة من كل علم وأدب ودين وخلق ، وأن العالم فى ذلك كله سائر

إلى التدهور دائما ، فأمس خير من اليوم ، واليوم خير من الغد ؛ فهذه العقلية لا تنفع للحياة وإنما تنفع للصوامع ، ولا تنفع للجهاد وإنما تنفع للفناء ، ولا تنفع لمن أرادوا أن يتبوءوا مكاناً فى الحياة ، وإنما تنفع من أرادوا أن يتبوءوا مكاناً فى القبور . إن النحو الذى ننشده هو فى المستقبل لا فى الماضى ، واللغة التى تصلح لنا وتؤدى مطالبنا فى الحياة هى فى المستقبل لا فى الماضى ، والأدب الذى يمثل نزعاتنا حق تمثيل هو فى المستقبل لا فى الماضى ، والأخلاق التى تلائم الموقف الاجتماعى الذى نقفه اليوم هى فى المستقبل لا فى الماضى ، وليس لنا من الماضى إلا ما يصلح للمستقبل بعد غربلته وإبعاد ما تعفن منه . إن موقفنا بين الماضى والمستقبل يجب أن يكون كموقف وجهنا فينا ، وضعه الطبيعى فى الأمام ، ولكن الإنسان قد يلوى عنقه وينظر إلى الوراء إذا دعت الضرورة ، ثم يعود سيرته الأولى من النظر إلى الأمام ويسير لوجهه ويمضى قُدُماً لشأنه ؛ ولن ترى إنساناً طبيعيا لوى عنقه دائما ، ونظر إلى الخلف دائما .

وممن نُكِّسوا فى الخلق هؤلاء الذين وقفوا ينتظرون القدر ؛ أولئك لم ينظروا للمستقبل ، ولكن ينظرون إلى ما يفعل بهم المستقبل ؛ أولئك أحجار ينفعلون ولا يفعلون ، ويتأثرون ولا يؤثرون ؛ وإنما مستقبلك فى يدك ولك دخل كبير فى صياغته ، فإن شئت تكن فقيراً ، وإن شئت تكن غنيا — إلى حد كبير — وإن شئت تكن سعيداً ، وإن شئت تكن شقيا ؛ وليس يستسلم للقدر إلا من فقد إرادته وأضاع إنسانيته .

لقد أتى على الناس زمان كان الاستسلام للقدر عُنوان « الولاية » ورمز القداسة ، وكلما أمعن الإنسان فى التجرد عن الدنيا أمعن الناس فى تعظيمه وتبركوا به ولثَموا يده ، ولكن هذا تقدير الماضى ؛ أما تقدير اليوم والمستقبل فالولاية والقداسة فى العمل . والولىّ أو القِدّيس هو المصلح ، وهو الذى يبنى المجد

بعمله لأمته وللإنسانية ، وهو الذى يواجه العمل فى شجاعة وإقدام ، لا الذى يفر من الميدان ، وهو الذى يرسم خطة العمل وينفذها ، لا الذى يعزّى عن الكوارث ويعود المرضى ويلطف وقع البؤس ، وهو الذى يشق الطريق لمحو الفقر عن الفقراء والبؤس عن البؤساء ، لا الذى يذرف الدمع ويوصى بالصبر على احتمال الفقر من غير حث على العمل ، والتفكير فى طرق الخلاص من البؤس ؛ وليس الولى والقديس من يحلم بل من يعمل .

ومضى الزمن الذى كنا نرصد فيه النجوم لنطلب السعادة من سلطانها ، ونجتنب الشقاء فى أوقات نَحْسها ؛ وأصبحنا نشعر بأن النحس نحس الخُلُق وموت الإرادة ، والسعادة حياة النفس وتَفَتُّح الأمل ، والمشى فى مناكب الأرض ، وإعمال اليد والعقل فى جلب الرزق ، وجلب الخير ، ودفع الشر ، ودفع البؤس والفقر .

***

خير لك إن كنت فى ظلمة أن تأمل طلوع الشمس غدا من أن تذكر طلوعها أمس ، فلكل من الظاهرتين أثر نفسى معاكس للآخر ؛ ففى ترقبك طلوع الشمس غداً الأمل والطموح إلى ما هو آت ، وفى هذا معنى الحياة ؛ وفى تذكرك طلوعَها أمس حسرةٌ على ما فات ، وألمٌ من خير كنتَ فيه إلى شر صرت فيه ، وفى ذلك معنى الفناء .

وفرق كبير بين من يُلطَم اللطمة فلا يكون له وسيلة إلا البكاء ، وتَذكر اللطمة ثم البكاء ، ثم تذكر اللطمة ثم البكاء ، وبين من يلطم اللطمة فيستجمع قواه للمكافحة . والحياة كلها لطمات ، وأعجز الناس من خارت قواه أمام أول لطمة فهرب . ولو أنصف الناس لقوّموا الناس بمقدار كفاحهم لا بمقدار فشلهم ونجاحهم .

***

شر ما ألاحظ فى الشرق حنينه الشديد إلى الماضى ، لا أمله القوى فى المستقبل ، واعتقاده أن خير أيامه ما سلَفت لا ما أقبلت ، وإعجابه الشديد بأعمال الماضين وإهمال المعاصرين . له منظاران : منظار مكبِّر يلبسه إذا نظر إلى الماضى ، ومنظار مصغِّر أسود يضعه إذا نظر إلى الحاضر والمستقبل . يلذه أن يطيل البكاء على الميت ، ولا يلذه أن يتدبر فيما يجب أن يفعله الأحياء . يستسهل النفقات مهما عظمت على الميت ، ويستكثر نفقات الطبيب وأثمان الدواء للمريض . يعجبهم أن يتمثلوا الأمثال تدل على عظم الماضى ، ولا يعجبهم أن يتمثلوا الأمثال تبعث الأمل فى المستقبل ؛ ففى أعماق نفوسهم أن قول القائل «ما ترك الأول للآخر» خير من القول « كم ترك الأول للآخر » ، ويلوكون دائماً « لا جديد تحت الشمس » ولا يعجبهم أن تقول إن كل ما تحت الشمس فى جدة مستمرة ، والمستقبل مملوء بالجديد . وإذا رأوا كلمة فى كتاب قديم تدل — ولو دلالة كاذبة — على نظرية جديدة طاروا بها فرحا ، لأن ذلك يلائم ما فى نفوسهم من تعظيم الماضى وتحقير الحاضر والمستقبل . هم يعيشون فى أحلام ، ولا يريدون أن يعيشوا فى حياة واقعة ، وحول هـذه المعيشة الحالمة ينسجون دائما ما يوافقها ويمازجها ويسايرها ، يكتفون بالأمل أن ينعموا بالآخرة ؛ وماذا عليهم لو عملوا لينعموا بالدنيا والآخرة .

ما نعلم وما لا نعلم

ظاهرة واضحة ، وهى أن أجهل الناس أكثرهم ادعاء للعلم ، وأعلمهم أكثرهم اعترافا بالجهل .

كل شيء سهل واضح قابل للفهم ، قابل للتفسير عند الجهلاء وأنصاف العلماء .

ما الذى نعلمه عن هذا الكون ؟ لا نعلم إلا ظاهره ، ولا نعلم إلا سطحه . أما حقيقته ، وأما أعماقه فلا نعلم منها إلا قليلا ، ونحن حائرون فى أمرها ، ولا يدرى إلا الله متى تنتهى هذه الحيرة .

يجدّ العلم ويجدّ ، ويظفَر كل يوم بقوانين يخرج بها بعض الأشياء من دائرة المجهول إلى المعلوم ، ولكنها قوانين تتصل بالظواهر أكثر مما تتصل بالأعماق . أما حقيقة هذا العالم وكنهه فلا يتقدم العلم فيها تقدما يذكر .

يزعم المناطقة أنهم يستطيعون « تعريف الأشياء » ، ويضعون قواعد وتفاصيل للتعاريف ، ولكنهم فى الواقع جدُّ جاهلين ، ولا يمكن تعريف أى شيء .

قالوا : إن الإنسان حيوان ناطق ، والفرس حيوان صاهل ، وظنوا لغباوتهم أنهم بذلك عرّفوا الإنسان والفرس ، واستناموا لهذا ؛ وظل الإنسان مجهولا بعد تعريفهم كما كان مجهولا قبله ، وظل الفرس مجهولا بعد التعريف كما كان قبله . واجتهد علماء كل علم أن يُعَرِّفوا أشياء علمهم ، فاختلفوا كلهم فى تعريف الأشياء وخواصها ، ولم يلمسوا حقيقتها مطلقا . ولذلك كان من الحق أن يعدلوا عن كلمة تعريف إلى كلمة أخرى ليس فيها هذا الغرور ، أو أن يغيروا

تعريف « التعريف » ، فلا يدعوا أنه بيان حقيقة الشىء ، وإنما بيان أهم صفاته .

هل استطاع أحد أن يعرّف ماهية الكهرباء ؟ كلا ، ولا أعلم الناس بها ، ولا أكبر عالم بشؤونها . إنما يعرف كيف يستخدمها ويعرف بعض قوانينها ، ويعرف كيف ينتفع بهذه القوانين فى الحياة اليومية من إنارة وتدفئة وتبريد ، ومن تليفونات وتلغرافات وراديو ، وما إلى ذلك . أما ما هى الكهرباء ، فسؤال لم يستطع أن يجيب عليه عالم يحترم علمه .

والعالم مملوء بعناصر كثيرة ، وقوى كثيرة ، ولسنا نعرف حقيقة لأى عنصر منها ، ولا أى قوة من قواها ، إنما نعرف بعض خصائصها ومميزاتها . ما حقيقة الذرّه ، وما الجُزَىء ، وما الخلية ؟ أسئلة نجيب عنها بذكر الصفات لا بذكر الحقائق ، لأنا نجهل حقائقها جهلا تاما .

حتى أقرب الأشياء إلينا وأكثرها مساساً بنا نشعر به ولا نعرفه . وهل أقرب إلينا من حياتنا ، ولكن ما هى الحياة ؟ لا نعلم . ليقل العلماء فيها ما يقولون ، فلن يستطيعوا معرفتها إلا إذا خلقوها « إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له ، وإن يَسْلُبهم الذباب شيئا لا يستنقذوه منه ، ضَعُفَ الطالبُ والمطلوب » .

فإذا انتقلنا إلى المعانى فالأمر فيها أصعب . فكلنا يعشق ، وكلنا لذّه الوصلُ وآلمه الهجر ، وكلنا أضناه العشق ، ولكن ما هو العشق ؟ لا ندرى . بل ما الحرية ؟ ما الجمال ؟ ما الأمل ؟ ما العدل ؟ ما الشجاعة ؟ ما الخير ؟ ما الشر ؟ أشياء نتحسس معانيها ولا نعرف كنهها .

ولم يتقدم العالم كثيرا من ناحية استكشاف الحقائق ، وإنما كان أكثر تقدمه من ناحية استكشاف الخصائص ؛ وبعبارة أخرى لم يتقدم من ناحيته

العلمية البحتة ، وإنما تقدم من ناحيته الفنية ، فقد عرفنا فن استخدام البخار ، وإن لم نعرف حقيقته ، وعرفنا فن الحياة ، وإن لم نعرف الحياة نفسها ، وعرفنا فن العشق ، وإن لم نعلم ماهية العشق ، وتفننا فى نُظُم الحرية واستخدمناها فى حياتنا السياسية والاجتماعية ، وإن لم نعلم كُنْه الحرية ؛ وهكذا فى كل شؤون الحياة ، نجح الفن وفشل العلم ، وأمّل الفنان ويئس العالم أو كاد ؛ وبعبارة أدق إن الإنسان تقدم تقدماً كبيراً فى الإجابة عن « كيف » ، ولكنه لم يتقدم تقدماً كبيراً فى الإجابة عن « ما » .

***

وهنا يحق لنا أن نتساءل : لِمَ وُضع الإنسان فى هذا العالم هذا الوضع ؟ وأحيط بألغاز عجز عن حلها ؟ فهو يعرف ظاهر المادة فإن تعمق قليلا ليعرف كنهها أدركته الحيرة ؛ وفيما وراء المادة من إلٰهيات ونحوها هو أشد حيرة ، حتى لقد زعم بعضهم أن « الله » فى اللغة العربية من : أَلَه يأْلُه ، إذا تحير (لأن العقول تأله فى عظمته) .

الحق أن هذا الغموض فى العالم مصدر كبير من مصادر اللذة للعقول الكبيرة ، وأن حياة العلماء كانت تكون تافهة ، لولا هذا الغموض والإلغاز — وموقف العالِم من ألغاز العالَم موقف الماهر فى الشِّطْرَنج ، ألذ ألعابه أصعبها حلاًّ ، وكالرياضى الحاذق لا يستلذ المسائل السهلة والنظريات البسيطة ، إنما يستلذ أصعب التمارين حلا وأشدها تعقداً ، وهو فى هذا ينسى نفسه ، وينسى كل شىء حوله ، ولا يعدل بلذته فى حل الصعاب أى لذة أخرى .

العالم مجموعات من الغوامض تتطلب الحل ، وإن شئت فقل إنه رواية على شريط السينما ليست ناطقة ولا هى مفهومة الصور كل الفهم ، ومنذ خلق الإنسان والعالم يتوارد عليه شخصيات كبيرة مختلفة الألوان : من أنبياء يعلّمون ما أوحى

إليهم ، وشعراء يتغنون بجمال الطبيعة ، وعلماء يدرسون ويحللون ويستنتجون ، وفلاسفة يتعمقون ويقلبون البحث على كل وجوهه الممكنة وغير الممكنة ، ومتصوفة أدركوا فشل المنطق والعلم فى معرفة حقائق الكون ، فذهبوا ينشدون المعرفة من طريق الذوق والإلهام . وكل هؤلاء وهؤلاء قدموا للناس معارف صحيحة وقضايا أصبحت لا تحتمل الشك ، ولكن حقائق الكون كلها بقيت مجهولة لدينا تتطلب الحل ، وقد فسرت بعض صور الرواية ، ولكن جوهر الرواية ومغزاها وسرها ظل غامضاً لدينا .

ومع هذا الغموض وهذه الحيرة يجب أن نتساءل : هل هذا العالم بنى على أساس منطقى فى تكوينه وفى تصرفاته ، أو هو خابط خبط عشواء ، يسير لا إلى غاية ويتجه فى الأمر الواحد يميناً أحياناً ويساراً أحياناً من غير قانون ؟ وهل الصورة التى يعرضها على شريط السينما تدل حوادثها على أن لها مغزى ترمى إليه ، ويدل ما فهم منها إلى الآن على أنها منطقية فى ترتيبها وإن لم تفهم كلها ، أو هى مجموعة مفارقات لا تربط أجزاءها رابطة ، وينقض آخرها ما أبرم أولها ؟ وهل العالم مدرسة نتعلم فيها الحكمة ، أو هو حجرة لألعاب الأطفال ، أو مسرح تمثل فيه ألعاب نيرَنْجية وشعوذة وحركات بهلوانية ؟ وهل العالم مسألة هندسية معقدة ، بنيت على نظريات صحيحة يصعب علينا حلها ، ولكن ظاهرها يدل على أنها معقولة ممكنة الحل ، أو هو مسألة هندسية لم تبن على أساس صحيح ولا على منطق مرتب ، وإنما هى مسألة اخترعت من هنا ومن هناك وقَصَد واضعها حيرة من حاول حلها ثم لا حل لها ؟

الحق أنه يتوقف على الإجابة عن هذه الأسئلة سيرنا العلمى واتجاهنا العقلى ؛ فإن كانت مظاهر الحياة كلها مفارقات وأحداثاً مفاجئة غير خاضعة لقانون كان البحث العلمى ضرباً من العبث ، وكان كل قصاراه أن يسجل ماحدث . أما إذا

كانت مظاهر الحياة عبارة عن قوانين حكيمة تسلم مقدماتها إلى نتائجها كان البحث العلمى ممكنا ومعقولا ومدرسة للحكمة .

وقد دلتنا الدلائل كلها على أن العالم خاضع للمنطق ، وأن له غرضاً يسير إليه وليس يسير حسبما اتفق ، وأنه محكوم بقوانين ثابتة لا تتغير ، وأن كل مظاهره خاضعة لقانون العلة والمعلول ، والسبب والنتيجة ؛ فلمس النار يحرق دائماً ، والحرارة تمدد الأجسام دائما ، والحب يستتبع سعادة دائما ، والكره يستلزم شقاء دائما .

ولكن بعض هذه القوانين واضحة ظاهرة لا تحتاج فى فهمها إلا إلى التفاتة بسيطة ساذجة ، وبعضها معقد كل التعقيد غامض كل الغموض ، حتى ليظهر لنا من شدة غموضه وكثرة تعقده أنه لا يمكن حله ؛ وبين هذا وذاك درجات فى الغموض لا عداد لها . ومع هذا كله لو قارنا بين الإنسان الأول ومعارفه عن العالم ، والإنسان الآن ومعارفه عن العالم ، وجدنا الفرق واضحاً جليا ، ووجدناه قد وصل فى بحثه إلى نتيجة هى أقوم مما حصله من العلم ، وهى أن العالم وإن كان أكثره مجهولا إلا أنه يخضع لقوانين ثابتة ، بعضها قد علم وبعضها لم يعلم ، وما لم يعلم تدلنا إشاراته وإيماءاته على أنه قد يُعْلَمَ يوما ما . وهب أنه لا يمكن أن يعلم إلا بعضه وأن هناك دائرة من العلم لا يستطيع الإنسان اجتيازها ، وأن عقل الإنسان بتركيبه الحالى لم يسلح التسلح الكافى ليغزو هذه الدائرة ، وإنما منح أسلحة يستطيع أن يستعملها فى بعض الدوائر دون بعض ، فحياة الكفاح العلمى التى يحياها العلماء هى ألذ حياة عرفت ، بل لا أظن أن حياة العلماء تكون سعيدة لو أن كل شىء انكشف لهم من غير بحث ومن غير عناء ؛ فالقليل ينال بعد التعب خير من كثير ينال من غير نصب . وما ألذ منظر العالم أو الفيلسوف يحار ثم يحار ، ويدور حول الشىء ويدور ، ويتجه يمينا فلا يفلح ، ثم يتجه يسارا

فلا يفلح حتى يعمّى عليه الأمر ، ثم يبدأ فى البحث مرة أخرى لا يكل ولا يمل ، وأخيراً يدرك منه الشيء القليل فيغتبط به الاغتباط العظيم ، ويرى أن الدنيا بحذافيرها ولذاتها وسعادتها لا تساوى شيئاً بجانب ما ناله من المعرفة ولو بالشيء القليل بعد الجهد . ولو خُيّر بين مُتَع الحياة كلها وبين عنائه فى بحثه ومشقته فى درسه ما فضل على بحثه ودرسه شيئاً .

قد يقول قوم إن هـذا النظام نظام أخْرَق ، فقد خلق العالم لغزا ، وخلق عقل الإنسان بحيث لا يستطيع حل اللغز ، وقد كان المعقول أحد أمرين : إما أن يخلق العالم أبسط من هذا أو يخلق العقل أكبر من هذا . أما أن يغمض العالم كل هذا الغموض ويقصر العقل كل هذا القصور فليس من المعقول ! ولكنى لا أرى هذا الرأى ، فقد كان يكون هذا القول معقولا لو أن طبيعة العالم وطبيعة العقل لا تلتقيان ، أما وقد التقتا وأمكن للعقل أن يمس العالم ويحل بعض ألغازه ويوسع كل يوم دائرة المعلوم ويقلل من دائرة المجهول فلا محل لهذا القول . وإذا وضع مهندس مسألة صعبة الحل ولكنها منطقية وحار الطلبة فى حلها فلا يلام المهندس إلا إذا آخذ الطلبة إن قصروا ؛ أما إن وضعها لمجرد اختبارهم ولم يؤاخذهم على تقصيرهم إن تبين له عجز فى كفايتهم فلا لوم عليه . على أن هذا الاعتراض قد يكون فيه شيء من الوجاهة إن قلنا إن العالم خلق ليحله عقل الإنسان ، فكان العالم معقداً أكثر مما يلزم ، والعقل قاصراً أكثر مما يلزم . أما إذا كان العالم قد خلق لشيء آخر غير أن الإنسان يحله ، بل العالم ومنه عقل الإنسان خلق لحكمة وراء ذلك ، أصبح الاعتراض فى ذاته سخيفا .

وبعد فإذا كان الإنسان يرى لذته فى هذا الغموض ومحاولة الحل والنجاح أحيانا والفشل أحيانا ، نخير له أن يتمتع بهذه اللذة القوية الواضحة فى هذا الجو الغامض !

فى رأس البر

يعجبنى فى رأس البر بساطة العيش والقرب من الديمقراطية ؛ يعيش الناس — كما كان يعيش آباؤهم الأولون — فى أكواخ من الحُصُر ، لا فرق بين كبيرهم وصغيرهم ، وغنيهم وفقيرهم ، ويلبسون لباساً ساذجا ، قريب الشبه بما كان يلبس آباؤهم ، ويستحمون فى البحر عراة ، ويمشون على البر حُفاة ؛ ملّوا المدنية وزخارفها ، والحضارة وبهرجها ، وهربوا من المدن وضوضائها ، والأرستقراطية وأوضاعها وتقاليدها وتعقيداتها ، وارتموا فى أحضان الطبيعة ، فأفسحت لهم صدرها ، ينزلون إلى البحر فينفضون عنهم هموم الحياة ، وينبطحون على الرمل ، ويذكرون قوله تعالى : « منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى » .

ليس فيها قصور شامخة بجانب أكواخ وضيعة ، وليس فيها ثريات كهربائية بجانب أضواء زيتية أو غازية ، ولا ملابس أنيقة بجانب أثواب مهلهلة ؛ يصعب عليك التمييز فيها بين الغنى والفقير ، والعالم والجاهل ، إلا فى الآنسات والسيدات ، فهن يأبين إلا الظهور ، والتمسك بالفروق ، وإلا فى أمثالهن ممن حليتهم لباسهم ، وقيمتهم مظهرهم .

خلف فيها الناس وراءهم المخترعات الحديثة بجلبتها ورذائلها ؛ فلا سيارات تصم الآذان بأبواقها ، وتأنف الأنوف من روائحها ، وتربك السائرين لسرعتها وكثرتها واضطراب حركاتها ؛ ولا « تليفون » يرن فى الهجير وفى منتصف الليل ، فيوقظك من نومك الهادئ ، ويحملك رجاء تنوء بحمله ، أو يصلك بثقيل ينغص عليك الحياة بحديثه ؛ ولا « راديو » يسمعك اللطيف والسخيف ، ويأبى عليك النوم أحوج ما تكون إليه ، وأشد ما تكون رغبة فيه ، لأن جيرانك

يأبون إلا أن ينتفعوا به كاملا من بدء يمين — شمال ، إلى سلام الملك ؟

***

حياة حرة طليقة ، وجو مفتوح ، وهواء جديد دائماً ، لم تفسده الحضارة بدخانها وغازاتها ، ولم تحبسه الأبنية الشامخة ، ولم تحجزه الحيطان الأربعة ؛ تتجدد النفس بتجدده ، وتمتلئ نشاطا من نشاطه ؛ يغذى كل خلية غذاء حلوا طيبا ، ويخلع على الجسم لونا نجاشيا ظريفا ، وينعش العواطف والروح ، فهى قوية حادة ، شديدة التنبه ، شديدة الإحساس ؛ حتى عاطفة الدين ، فهى أقوى ما تكون ، وأطهر ما تكون ، وأصفى ما تكون ، حينما تتجلى الطبيعة فى ثوبها الفطرى الجميل ، فى السماء والماء والمزارع والحقول ؛ فليس الإلحاد والزندقة ، والتعصب الذميم ، وضيق النظر ، إلا وليد الحضارة المعقدة ، والجو الخانق ، والفكر الراكد ، ودوران الفكر حول نفسه لا حول الطبيعة .

فى جو المدن لا يشعر الإنسان بالسماء إلا عند المطر ، ولا بجمال الشمس ، ولا جمال القمر ؛ ولا يلمس الطبيعة إلا إذا ساءت من شدة الحر أو شدة البرد ! كل ما حوله من جمال جمالٌ صناعى ؛ قد استغنى بجمال طاقات الزهور عن الزهور فى منابتها ، واستغنى بثريا الكهرباء عن ثريا السماء ، وبالحسن المجلوب عن جمال الفطرة ، وجمال الطبيعة ، وجمال الخلقة ؛ وهيهات أن يتساوى منتحَل وغير منتحَل ، فليس التكحل فى العينين كالكَحَل !

إنما يشعر الإنسان بجمال الطبيعة يوم يخرج من المدينة إلى الريف ويفر من الحضر إلى البدو ، فينكشف له الخَلْق بجماله القشيب ، وتأخذ بلبه السماء فى لا نهائيتها ، والبحار فى أبديتها ؛ ويشعر شعوراً قويا بأنه ذرة من ذرات العالم ، وجزء صغير من أجزائه ، ضعيف بنفسه ، قوى بكله ، وأنه لا شىء يوم ينفصل عنه ، وأنه نغمة من نغماته يوم يتصل به .

***

لوددت أنى خلعت نفسى فى المدينة يوم فارقتها ، فقد سئمتُ نفسى وسئمتنى ، وملتها وملتنى ، وتمنيت أن تكون النفس كالثوب تخلعه حيناً ، وتلبسه حيناً ، ويبلى فتجدده ، وتكرهه فتغيره ؛ إذاً لاستبدلت بنفسى — ولو إلى حين — نفساً مرحة ، تستغرق فى الضحك من الشىء التافه ، ومن لا شىء ، ولا تبكى على ما فات ، ولا تحمل همًّا لما هو آت .

بل لتمنيت أن أكون كدودة القز تكون دودة حيناً ، ثم تكون فراشة حيناً ، أرشف من هذه الزهرة رشفة ، ومن هـذه رشفة ، وأنشر جناحى فى الشمس ، أعيش فى جمال وأغيب فى جمال ، كما تغيب الشمس الجميلة فى الشفق الجميل . أو كما تفنى النغمة الحلوة فى رنات الآلات ، أو كما تنداح الابتسامة العذبة فى الوجه الصبوح ، أو كما تندمج الموجة العظيمة فى البحر العظيم ! ولكن أنَّى لى هذا ؟ ولو كان لشكوت وبكيت ، فأنا كما خُلق المتنبى :

خُلقتُ ألوفاً لو رجعت إلى الصِّبَا لفارقتُ شيبى موجَع القلب باكيا

***

وخرجت مبكراً والناس نيام ، أمشى على الشاطئ ، وأرقب الشمس فى طلوعها ؛ والشمس على الساحل أجمل من الشمس على غيره ، فليس لها تلك القوة العاتية ، ولا الحرارة القاسية ، ولا الأضواء المعشية ؛ فيها شىء من الوداعة واللطف والحنان !

ها هى ذى قد طلعت ، فأخذت الحياة تدب فى النفوس ، تلقى أشعتها على البحر فينعقد منه سحاب فمطر فأنهار ، فجميع ما لذلك من أعمال باهرة ، وقوى ساحرة ، وأفعال عجيبة ؟ أنظر يميناً فأرى النيل ، وأنظر يساراً فأرى البحر ، وقد عاد النيل إلى البحر بعد أن أتم دورته ، وأدى مهمته ؛ قد خرج هذا العذب الفرات ، من هذا الملح الأجاج ، كما يخرج اللبن من بين الفَرْث والدم . قد

سلسلوا النيل فعدا عليه البحر فاغتصب مجراه ، وأملح ماءه ، ثم فكوا قيوده فاسترد حقوقه ، وأراد أن ينتقم من أبيه ، فحاول أن يحتل شاطئه ، ويحلى ماءه ، ويعكر صفاءه ، ثم ندم على العقوق فتاب وأناب ، وإذا هما مؤتلفان ، بينهما بَرْزَخٌ لا يَبْغيان .

ثم تسطع الشمس ، ووددت أن تكون مذكرة فى اللغة العربية ، كما هى مذكرة فيما أعرف فى اللغة الأوربية ، لأنها تتزوج الأرض فتولدها ما شئت من أشكال وألوان وذكور وإناث ، وكأن أشعة الشمس خمر معتقة تشربها الأرض فتنتشى وتبتهج ، وتمتلئ قوة ونشاطاً وحركة .

وتقع أشعتها على الطير فيسرح ويمرح ويتغنى ، وتحل فى قلب الإنسان فيهدأ رُوعُه ، ويذهب فزعه ، ويطمئن إلى حياته ، وتتحرك إرادته ، وتنتعش آماله .

دعنى أتعَرَّ ، فالعراء على الساحل مباح ، فأملأ جسمى بأشعتها ، وأملأ شعورى ودمى بقوتها ، وأملأ نفسى بعظمتها وسحرها .

ومشيَت إلى قلعة فى رأس البر كنت آنس بها قديماً ، وكان فى كل حَجَر من أحجارها صفحة من العزة القومية ، والحميَّة الوطنية ؛ أقامتها الأمة يوم كانت تشعر بنفسها ، وتدافع بنفسها عن كيانها ، وتحس بتبعاتها ، وتدبر شؤونها ، وتدير أمورها كما يتراءى لها — فرأيتها وقد عدا عليها الزمان ، وعلاها البِلى ونقض أحجارها ، وليس من يعتز بها فيقيم أنقاضها ؛ ورأيت بها « مدفعاً » قد هزأ به الرمل فغطاه ، وسخر به الصدأ فعلاه ، دفن كما يدفن عزيز أرداه الزمان بسهامه ، وذل كما يذِل السيد الكريم توالى عليه الدهر بأحداثه ! ورأيتهم أقاموا فى وسطها صهريجاً يخزن الماء لرأس البر ، فقلت : سبحانك ربى ، جعلت من مستودع النار ماء ، كما جعلت من الشجر ناراً ! لقد كان مكانك رمز القوة

فأصبح رمز الرقة ، وكان بك جن يقذفون بالنار فبدِّلت بهم ملائكة يوزعون الرحمة ، وكان بك دم يغلى ، فأحاله الزمان القاهر زُلالا بارداً ، وما أدرى ماذا جاش بنفسى فدمعت عينى !

وقالوا قد جُننت فقلتُ كلا ... وربى ماجننتُ وما انتشيت
ولكنى ظُلمتُ فكدت أبكى ... من الظُّلم المبيّن أو بكيتُ
فإن الماء ماء أبى وجدى ... وبئرى ذو حَفَرتُ وذو طَوَيتُ

ثم صحوت فقلت : أتندُب كل طلل مررت به ، وتبكى كل شىء رأيته ، وتحزن فى معاهد الفرح ، وتنقبض فى مغانى المرح ؟ من أجل هذا تمنيت — قبلُ — أن أخلع نفسى ، ووالله لو أمكنتنى الفرصة ثانية ما ترددت ، ولسمحت وما حرَصْت ، فقد برمت بها وعجزت عن حملها .

هيا إلى البحر ! فهناك الفرح والمرح ، وهناك يضحك الناس له ويضحك لهم ، ويداعبون أمواجه وتداعبهم ، وأحياناً ينسَون جلاله فيصفعهم ! فيه الحياة ، وفيه القوة ، وفيه العظمة ، وفيه أكبر مظهر لطاحون العالم ، تطحن دائماً ، وتطحن ناعماً !

بين الصحف والكتب

هنالك حرب عَوان بين الصحف والمجلات من ناحية ، والكتب من ناحية أخرى . وهذه الحرب لا نراها ولا نشعر بها ؛ لأنه ليس لها صليل السيوف ولا دوى القنابل ، ولكنها مع صمتها شديدة قوية ، يراها المفكر ويرتاع لمنظرها ، ويَعْجب من هجومها ودفاعها ؛ هى أشبه ما تكون بالحروب الاقتصادية ، كالحرب بين السلع اليابانية والسلع الأوربية ، وكالحرب بين الثقافة الإنجليزية والثقافة الفرنسية ، تغيب عنك فى كثير من الأحيان وسائلها ، ولكن تبدو — فى وضوح تام — نتائجها .

والحرب بين الصحف والكتب تدور على القراء ؛ فهم ميادين القتال ، وهم المستعمرات التى تحاول كل ناحية أن تشملها بنفوذها ، وتبسط عليها سلطانها ، وتأخذ صكا عليها بالاحتلال ، أو كما يعبرون عنه باللغة الحديثة « الانتداب » ، وحددت كل طائفة مطالبها واطمأنت إليها .

هناك طائفتان خرجتا من دائرة النزاع ، وهما الطائفة المثقفة ثقافة دنيا ، والطائفة المثقفة ثقافة عليا ؛ فأما الأولى فقد احتلتها الصحف والمجلات وكسبتها كسبا نهائيا ؛ وهم بهذا الاحتلال راضون مطمئنون لا يضجون بشكوى ولا يرفعون احتجاجا ، ولا ينادون باستقلال ، وقد يئست منهم الكتب وأخرجتهم من منطقة نفوذها ، واعترفت بهزيمتها أمامهم هزيمة منكرة ؛ هؤلاء هم طبقة العمال ومن فى درجتهم ، وتلاميذ المدارس الذين لم يتموا دراستهم ، والطبقة الغالبة من الآنسات والسيدات المثقفات إلى حد ما . وأما الطائفة الأخرى وأعنى بها المثقفين ثقافة عُليا ، فلا غنى لهم عن الكتب ، لأنهم يرونها غذاءهم الدسم وعمادهم

فى حياتهم الفكرية ، وهى التى تحقق مطالبهم ، وتحاول أن تحل لهم ما يعرض لهم من مشكلات عقلية ؛ وهؤلاء أمثال رجال الجامعات والقضاة والفلاسفة والأدباء والعلماء ومن يتصل بهم ومن ينهج منهجهم ، ويعد نفسه للوصول إلى درجتهم ؛ وهم يقرأون الصحف لأخبارها والمجلات لطرافتها ، واعتمادهم الحقيقى فى علمهم وأدبهم على الكتب غالبا .

وبين هاتين الطبقتين طبقات لا عداد لها هى محل الحرب بين الصحف والكتب ، وهى موطن النزاع ، وهى الغرض الذى يرمى إليه كل للاستيلاء عليه ؛ والحرب على هذه الطوائف سجال ، يوما تنتصر المجلات والصحف فتشعر الكتب بالفشل ، ولكن سرعان ماتتخذ التدابير للهجوم ، ويوما تنتصر فيه الكتب فتشعر الصحف بلذعة الهزيمة ثم تستعد للوثبة ، وهكذا دواليك .

ولكل جبهة من هذين المعسكرين وسائل للقتال وآلات للحرب ، تقوم لها مقام الطيارات والغواصات والدبابات والغازات الخانقة فى الحروب البدنية . وأنا أسوق لك طرفا قليلا من هذه الوسائل :

فالصحف أخذت من جانبها تُعد صفحات فيها لأنواع الثقافة المختلفة : فصحيفة للأدب ، وصحيفة للعلم ، وثالثة للاقتصاد ، ورابعة للقانون ، وخامسة للفن وهكذا ، تريد بذلك أن تغنى القراء عن الكتب ، وتملأ شهوتهم للمطالعة والقراءة ، ثم هى تجذب إليها أعلام الكتاب والأدباء والعلماء ، وتطلب إليهم أن يوافوها بفصول من علمهم وأدبهم حتى يقبل القراء على صحفهم ، ويرووا لذائذهم من قادتهم فلا يحتاجوا بعدها إلى الكتب ؛ ثم هم يثيرون النزاع بين الكتّاب فى مسائل هامة ، ويوقدون النيران ليزيدوا الحرب اشتعالا ؛ وهى كلما اشتدت نيرانها كثر قراؤها ، وانقسموا قسمين أو أقساما ، وتشيعوا شيعا ، فهذا مؤيد وهذا مفند ، والخسران فى كل ذلك على الكتب .

والمجلات من جانبها تحارب الكتب بشتى الوسائل ؛ فأحيانا تستغل شهوة الجمهور بالكتابة فى النواحى الحساسة فيهم ، فتقدم لهم ما يشتهون وتعلمهم منها ما يجهلون ، وأحيانا تسلك سبيلا أشرف من هذا ، فترفع مستواها وتصل إلى حد الكتب فى بحثها أو خير منها ، وتقدم لقرائها صوراً جذابة ، وخرائط مبينة ، فتستهوى القراء ، وتجذبهم إلى مطالعتها ، ويجدون فيها من التنوع والتعرض لشتى الموضوعات ما لا يجدونه فى كتاب ؛ وأحيانا ترقى إلى أكثر من ذلك كالذى نجده فى الغرب من مجلات دورية للجغرافيا وللتاريخ وللطبيعة وللكيمياء وللأخلاق والاجتماع وهكذا ؛ يعكف على الكتابة فيها خاصة الخاصة ، ويفخر العالِم بأن المجلة قبلت مقالته فنشرتها ، ويجد فيها القارئ أرقى ما وصل إليه العلم من نظريات ومكتشفات ، فهى من هذه الناحية سمت على أكتاف الكتب وحلقت فوقها .

هذا قليل من كثير من حرب الصحف والمجلات للكتب . وأما حرب الكتب لها فأكبر مظهر لذلك ما نراه سائداً فى عصرنا من محاولة المؤلفين الوضوحَ والإبانة ليصلوا بمعلوماتهم إلى أكثر الأوساط وأقلها ثقافة ، واحتيالهم فى أساليب الكتابة حتى يتعرضوا إلى أعقد المسائل وأعوص المشكلات ، فيعرضوها فى شكل لذيذ جذاب ، فتشعر كأنك تقرأ قصة أو تستمتع برواية ، ثم هم يُشوّقون القارئ بشتى الأشكال فيسمون الكتاب « قصة الفلسفة » أو يسمون كتب التاريخ « قصة الأمم » ونحو ذلك ؛ ثم يودعون الكتب من الصور الملونة للمناظر العامة والأشخاص وعظماء الناس ما يسهّل عليك دفع الثمن واقتناء الكتاب ، وهم من حين لآخر يهاجمون المجلات بإخراج الكتب على شكل مجلات دورية ، فيخرجون « دائرة معارف الأطفال » عدداً فى كل خمسة عشر يوماً ، ويستمرون فى ذلك سنوات ، حتى إذا فرغوا من ذلك عجبت أن أصبح لديك كتاب ضخم فى عشرة مجلدات أخذته بشكل مجلة ؛ فإذا انتهوا من ذلك عَمَدوا إلى كتاب آخر عنوانه

« خلاصة العقائد الحديثة » ومن هذا القبيل كثير .

وبعد ، فأى ذلك خير للأمم ؟ أن تنتصر فى هذه الحرب الصحف والمجلات أم أن تنتصر الكتب ؟ وماذا أفادت هذه الحرب ؟

الحق أننا استفدنا كثيراً من هذا النزاع ، وتحققت به الرغبات المختلفة ، فإن صعبت قراءة الكتب فى أوقات الرياضة وحين الانتقال من مكان إلى مكان ، فى الترام أو القطار أو البواخر ، فالمجلات والصحف أوفى بتحقيق هذا الغرض ، يسير ثمنها ، سهل حملها ، خفيفة موضوعاتها .

وإن صدعتنا الكتب أحيانا بما فيها من ثرثرة ومن صفحات لا قيمة لها ، ليست إلا تمهيداً سقيما لفكرة قد تكون سقيمة ، فقد نجد فى المجلات المحترمة عصارة مركزة لأفكار قيمة هى خلاصة لشىء كثير ركزت فى قول وجيز .

وإن أفرطت الكتب فى الالتفات إلى الوراء بالبحث عما قبل التاريخ وما بعد التاريخ وثورات الأمم ، وحروب الأعداء ، وسيرة الملوك والخلفاء والأمراء ، فالصحف كفيلة أن تلفتنا كثيراً إلى الحاضر ، وتضع يدنا على الواقع ، وتقفنا على العالم الذى نعيش فيه ، وتعرض علينا مشكلاتنا الحاضرة ، وما عملته عقول المفكرين الأحياء فى حلها .

وإن غلت الكتب فى أكثر الأحيان فى عرض النظريات العلمية والأدبية فى شكل جاف وأسلوب بغيض ، فالصحف والمجلات تأخذ على عاتقها أن تصوغ ذلك كله صياغة أدبية فيها كثير من الخيال الشعرى ، وفيها كثير من لباقة الأدب وطرافته .

ولئن كانت الكتب أرستقراطية فى جميع نواحيها ، أرستقراطية فى ثمنها ، أرستقراطية فى معلوماتها وموضوعاتها ، أرستقراطية فى قرائها ، فالصحف والمجلات ديمقراطية فى كل ذلك . ومن أجل هذا انتشرت الصحف

والمجلات ، وانتصرت فى عهد الديمقراطية ، وكانت الكتب فى أوْجها وعزها فى عصر الأرستقراطية .

ولكن من الحق أن نحتفظ بأرستقراطية الكتب وأرستقراطية العقول التى تتطلبها . فهؤلاء الديمقراطيون الذين يقرأون ، وهذه الصحف والمجلات الديمقراطية تعيش وتنتشر وتتغذى بهؤلاء الأرستقراطيين الذين عاشوا على الكتب وأنتجتهم الكتب .

فى الصحف والمجلات عيوب لا تصلحها إلا الكتب ، ذلك أن الصحف والمجلات بحكم ديمقراطيتها وملابستها للجمهور ومراعاتها أكبرَ عدد ممكن من المثقفين ، تضطر إلى تخفيف مايتقطر من المعلومات إلى الشعب ؛ فهى إن صلحت غذاء للعقول البسيطة والعقول المثقفة ثقافةً واسعة غير عميقة ، فلا تكفى وحدها للعقول القوية والعقول الشرهة ، والعقول التى تحترف هضم الأفكار وتتطلب دائما أفكاراً جديدة وأفكاراً عميقة ، وتتطلب أن تلم بالشىء من جميع نواحيه ، وبالنظريات فى أطوارها المختلفة ، وهى لا تجد ذلك إلا فى الكتب .

خير للأمم أن تظل هذه الحرب قائمة أبداً ، وأن يكون النصر سجالا أبداً ، وألا ينتصر أحدهما انتصاراً يبيد الآخر ؛ فذلك أدعى أن يدخل أرباب الصحف والمجلات التحسينات على صحفهم ومجلاتهم دائما ، وأن يتملق مؤلفو الكتب العقولَ بوضع مؤلفاتهم فى شكل سائغ وأسلوب مقبول .

إلى أخى الزيات (١)

سعيت أمس لعزائك ، فى « رجائى » و « رجائك » ، فرأيتك واجماً ساهماً ، والهاً مُدلهاً ، فانعقد لسانى ، وتخلف ذهنى ، وفاض دمعى .

وكيف أستطيع عزاءك وما استطعت أن أعزى نفسى ؟ أو كيف أستطيع أن أخفف ما بك وما استطعت أن أخفف حزنى ؟

رأيت بك كمداً باطناً ، وحزناً مكتمناً ، فعلمت أنك تتجرع غصص الهم ، وتختزن برحاء الكرب ، فتمنيت أن تخفف عنك بصرخة ، وتنفس عن نفسك بدمعة ، ولكن عز الصبر وعز الدمع ، فما هى إلا زفرات تذيب لفائف القلوب وتنفطر لها المرائر .

وارحمتاه لك ! لقد كان « رجاء » قبلة رجائك ، ومعقد آمالك ، وحديث أحلامك ، وملء سمعك وبصرك ، تشوّفته حياتك ، وترقبته مطالع شبابك ، حتى جاد به الزمان البخيل ، فربطت أسبابك بأسبابه ، وتعلقت بأهدابه ، فلما شِمْت مخايله ، ورقبت منه النُّجح ، عدا عليه الدهر الذى لا يرعى ميثاقاً ، ولا يثبت على عهد ، فأخلف ظنك ، ونقض أملك ، فاذا الدنيا أضْغاث أحلام ، ووساوس أطماع .

ولكن يا أخى — ما الجزع مما لا بد منه ، وما الهلع مما قدر ، ومثلك من يعرف مقدار الحياة وهوانها ؟ أفليست إلا مسرحاً تمثل عليه أدوار مختلفة ، مرة مهزلة ، ومرة مأساة ، ونحن فى حين ممثلون ، وفى حين ناظرون . وليس لنا أن

---

(١) احتسب الأستاذ الزيات صاحب « الرسالة » ابنه « رجاء » فى مستهل عامه الخامس فكتبت هذه المقالة فى عزائه .

نبالغ فى الألم ، ونغلو فى الجزع ؛ فقد كان يكون لذلك وجه من الحق لو ذهب من ذهب أبداً ، وعشنا بعده أبداً ، وإنما الأمر دور يعقب دوراً ، ولا حق منا إثر سابق ، وإنا لله وإنا إليه راجعون .

وأى سعادة نجدها فى هذه الحياة حتى نحزن على الراحل ، ونبكى على الميت ونود أن لو بقى ليستمتع بها ، ويتذوق طيباتها ؟ إنما هى سلسلة عناء ، وضروب شقاء ، تنوعت ألوانها ، واتحدت حقيقتها . ولو أنصفنا لغبطنا من مات ، وأشفقنا على من بقى ، ومن مات فى صباه فقد اختصر الحياة واختصر همومها وأحزانها ، ووفر على نفسه عبئا ثقيلا ينتهى مختصره بما ينتهى به مطوّله ، وخير للزهرة أن تذهب وهى ناضرة تعجب الناس ، من أن تذهب وهى ذابلة يعافها الناس .

نخذ الحياة كما هى ، ليل ينقضى فى إثر ليل ، وقوم فى إثر قوم ، وحادث يستذرف الدمع ، يعقبه حادث يخفف الهم ، وقل كما قالت الخنساء :

فلولا كثرة الباكين حولى على إخوانهم لقتلت نفسى
وما يبكون مثل أخى ولكنْ أُعَزّى النفس عنه بالتأسى

وليس الوفاء للميت بالإفراط فى الحزن ، والإمعان فى البكاء ، إنما الوفاء بمقابلة دواعى الحزن بدواعى الصبر . وليست الحكمة فى إضعاف الحى من أجل الميت ، إنما هى فى إحياء الحى من أجل الحى والميت .

وقد أخطأ الناس فغلوا فى استفظاع الموت والاحتفاء به ، وهولوا فى الاستكثار من مظاهره ؛ ولو عقلوا لقابلوه كما يقابل كل قانون طبيعى فى هذا العالم ، زهرة تنضر وتذبل ، وشمس تطلع وتغرب ، ونجم يتألق ويأفل ، وسماء تصحو وتغيم ؛ ولو عقلوا أيضاً لرددوا هذا المعنى فى نفوسهم ، واطمأنت له عقولهم ، فاذا كان فهو ما تخيلوه ، وإذا حدث فهو ما توقعوه ، وإذاً لخف الألم وانقطع الجزع .

أى أخى — ليكن ما أراده الله ، ولنلوّن حياتنا بلون من ألوان التصوف ،

رضاء بالقدر ، واستخفاف بالعالم وما فيه ، وطمأنينة إلى قوانينه ، وإيمان بعظمة الله وسلطانه ، والتجاء إليه أن يتولاك برحمته ويظلك باحسانه .

أى أخى — لقد أصبحتَ مُنسرِق القوة ، ضعيف البنية ، مُرْهف الحس ، رقيق الصحة . ولئن كان الانتحار جريمة لا تغفر ، ويأساً لا يرضاه الله ، فليس هو — فحسب — فى إطلاق عيار نارى ، أو إلقاء النفس فى اليم ، أو ما عهدت من ضروب إزهاق الروح ؛ ولكن من ضروبه أيضاً الاستسلام للحزن ، والتسمم بالغم ، والاسترسال فى أسباب الكرب ، فهو انتحار بطىء ولكنه شر من الانتحار العاجل ؛ أعيذك بالله منه ، وأربأ بنفسك عنه .

فهوّن على نفسك ، وإن خاب رجاؤك فى « رجاء » فحقق الله أملك فى « علاء » ، وعش له ولنفسك وللناس .

أحسن الله عزاءك ، وأجمل صبرك ، وأجزل أجرك .

إنسان ناجح

صخرى الوجه صُلب الجبين ، لم يعرف يوماً حمرة الخجل ، ولا بُرقع الحياء ، لا يتوقى شيئاً ، ولا يبالى ما يقول .

إن كان لكل الناس وجه ولون ولسان ، فلهذا المخلوق أوجه وألسنة وألوان .

هو صديقك وعدوك حسب الظروف الخارجية ، لا حسب ما يصدر منك ، وهو مادحك وذامك حسب ما يدور فى المجلس ، لا حسب رأيه ، وهو عابس لك يوماً باسم يوماً حسب ما يقدر هو أنه فى مصلحته ، لا حسب ما تستحق أنت منه .

له حاسة زائدة عن حواس الناس الخمس هى سر نجاحه ؛ ولهذه الحاسة خصائص : فهو يدرك بها أى نوع من الوزارات ستتولى الحكم ليحول نفسه على وفقها ، وليتجهم لأعدائها ، ويتقرب من أحبابها ؛ ويشم بها مواطن المال فى كل ظرف ، ويرى بها من يجلب له النفع . ويؤقلم وفق ذلك نفسَه ، فيتشكل بأشكال فى منتهى الظرف والطلاوة ، فإذا عدوُّه اللدود بالأمس صديقه الحميم اليوم .

ويعرف بها — فى مهارة عجيبة — موضع الضعف من كل إنسان يهمه ! فإن كان يعبد النساء حدثه أعذب الحديث فى النساء والجمال وحسن الشكل ، وبدع المحاسن ، وجمال الملامح ، واستعرض نساء البلد ونساء الفرنج ، وأية حوراء العينين ، كحلاء الجفون ، ساجية الطرف ، فاترة اللحظ ، وأية أسيلةُ الخد ، ممشوقة القد ، وأية بيضاء اللون ، شقراء الشعر ، زرقاء العين ، وأية سوداء العين ، سمراء اللون ، سوداء الشعر ، وأية ممتلئة البدن ، ضخمة الخَلْق ، شَبْعَى الوشاح ، وأية دقيقة الشبح ، نحيلة الظل ، مرهفة الجسم ؛ وتفنن فى ذلك ما شاء أن يتفنن حتى

يملك لبه ، ويستعبد عقله ، فإذا هو طوع بنانه ومستودع أسراره .

وإن كان سكيراً حدثه الحديث الممتع فى الشَّرب والشراب ، والكؤوس والأكواب وآداب النديم ، وروى له أحسن الشعر فى الخمر ، وحدثه عما يمزج وما لا يمزج ، وخير الخمور ومواردها وتواريخها ، وما يلذ صَبوحا وما يلذ غَبوقا — وتعرف ما يستحسنه صاحبه فأفرط فى مدحه وادعى الإعجاب به ، وأنه لا يفضل عليه غيره ، وأن ذوقه من ذوقه وشرابه من شرابه ومزاجه من مزاجه ، وأسكره من حديثه كما أسكره من كأسه ، فإذا هما صديقان وثَّقت بينهما الكاس والطاس .

وإن كان شرها فى المال حدثه عن الضِّياع ومحاسن الأراضى وكيفية استغلالها ، والعمارات وجباياتها ، ووازن بين أنواع العقار وكم فى المائة يمكن أن تُغلّ ، وأعانه فى مشكلاته ، وبذل له كل أنواع معونته ، فوجد فيه صديقه النافع وخليله المواتى .

وهدته حاسَّتهُ هذه أن يعمد إلى عدد من الرءوس الكبار ذوى النفوذ فينصب لهم حبالته ، ويوقعهم فى شبكته ، بما يبذر من حب ذى أشكال وألوان ؛ فإذا تم له ذلك خضع له الصغار من تلقاء أنفسهم وطوع إرادتهم ، وضرب لهم مثلا بقضاء حاجات لبعضهم ما كانت لتقضى من غيره ؛ فهو مقصد جميعِهم ومحط آمالهم وموضع الرجاء منهم ، يعملون كلهم فى خدمته على أمل أن ينالوا شيئاً من جاهه ؛ فإذا هو سيد على الصغار والكبار ، وإذا هو عظيم حيث كان ، يقابل بالإجلال والإعظام ، ويُتملَّق من أتباعه وإخوانه ، ويحسب حسابه فى دائرته وأوسع من دائرته .

إلى جانب هذه الحقائق القليلة قدر كبير من التهويش ؛ فهو يزعم أنه فى كل ليلة جليس الكبراء والوزراء ، كم يتغزلون فيه ويطلبون القرب منه وهو يتأبى عليهم ، ويبتعد عنهم ؛ وهو لو شاء لكفت إشارة منه لأن يرفع من شاء فى أعلى

عليين ، ويخفض من شاء إلى أسفل سافلين — الوزارات فى يده ، ومصالح الحكومة فى إصبعه ، والإنجليز يخشون بأسه ، والفرنسيون يقضون مصالحهم على يده ، وبريده كل يوم من خارج القطر ينوء السعاة بحمله ؛ ثم لا أدرى كيف اتصل بالجرائد ، فهى تشيد دائماً بذكره ، فإذا تحرك حركة أعلنتها على الناس كما تذاع حركات الملوك ، فهو مسافر إلى الإسكندرية ، وقادم من الإسكندرية ، ومبحر إلى أوربا ، ومتنقل فى عواصم البلدان ، وعائد إلى مصر بعد أن رفع شأنها ، وأعلى مكانها ؛ حتى لم يبق إلا أن تخبرنا ماذا أفطر ، وكيف أفطر ، وفى أى ساعة تناول غداءه ، وماذا كانت أصنافه ، وهل غفا قليلا بعد الغداء أو تحدث قليلا إلى زوجه وأولاده !

وهو يستغل هذا كله فى قضاء مصالحه ؛ فطلباته ناجزة نافذة ، والمستحيل لغيره جائز له ، والأموال تكال له كيلا ، والهدايا تنهال عليه انهيالا ؛ وهو مع كل ذلك لا يشبع ، كلما نال مطلبا تفتحت له مطالب ، فهو فى طلب دائم ، ومن بيدهم الأمور فى إجابة دائمة ، حتى ليوشك — إذ لم يتعود الرفض — أن يطلب النجوم تزين غرفته ، والسحاب يمطر فى الصيف حديقته ، والحر والبرد يتأدبان فى حضرته ، والشمس تُكْسَف لطلعته .

ومن غريب أمر الناس فيه أنهم يكرهونه من أعماق نفوسهم ، ويمقتونه من صميم قلوبهم ، ويرون فيه السخافة مركزة ، واللؤم مجمعا ؛ فإذا لقوه فترحيبٌ وتهليل ، وإعظام وملق ، يبسطون ألسنتهم فيه بالسوء غائباً ، ويطنبون فى مدحه حاضراً ؛ فهو معذور إذ يشعر أن الناس مجمعون على حبه ، حتى ليخشى عليهم أن يموتوا به غراما أو يُجَنُّوا به هُياما . شهدته مرة وقد أتى عملا شنيعاً حتى كان مضغة الأفواه ومعرّة القوم ، وظننت أن الناس إن رأوه ازدروه — على الأقل — بعيونهم ، وكلموه ببعض شفاههم ، واستهانوا بمَقْدمه ، وأقل ما يفعلونه ألا يحفلوا

به ، ولا يأبهوا بمقدمه ؛ فما كان أشد عجبي أن رأيتهم — إذ حضر — قد انتفضوا من أماكنهم ، وأفسحوا له مجالسهم ، وأجلّوا شأنه ، وأعظموا قدره ، ورفعوا منزلته فوق من يقدرون فضله ويجلون خُلقه .

فهو — حتى فى هذا — ينتفع بإعظامهم وإجلالهم ، ولا يضره كرههم الذى لا يعدو قلوبهم ، فكرههم لأنفسهم ، وإعظامهم له ؛ وماذا يضره كرهٌ محتقن وخير منه حب مصطنع ؟ وماذا يضيره سب صادق فى إسرار ، وخير منه مدح كاذب فى إعلان ؟ لا شك أنه فى كل ذلك ناجح حتى فى الكره والذم .

***

قال صاحبي : وهل تعد ذلك نجاحاً ؟ لو كان النجاح بقضاء المصالح والأغراض والحصول على المال فحسب ، لعددنا السارق يجيد السرقة ويفلت من العقوبة ناجحا ، ولعددنا الذى يتاجر بشرفه وعرضه ناجحا ، ولكان أنجح الناس من حصل على المال من أقرب الوجوه ولو كان من أخسها — إن هذا الذى ذكرت قد كسب المال وخسر الشرف ، حَيِيَتْ مطامعه ومات ضميره ، وخدم من يظنهم كبراء أو عظماء بضعة نفسه وموت حسه ؛ بأى مقياس أخلاقى قسته لم تجده شيئا ، إن قسته بمقياس الفضيلة البانّة الحاسمة لم تجده فاضلا ، وإن قسته بمقياس السعادة لم تجده سعيداً ؛ إنه يتمتع ويأكل كما تأكل الأنعام ، فإن كان الحمار أو الخنزير سعيداً فهذا سعيد ؛ وأين منه لذة ذى الضمير الحى ينعم بمواقف الشرف والنبل ، ويلذهما لذة لا يعدلها ما ذكرت من مال وجاه ؟ إن الرجل الفاضل سعيد حتى فى آلامه ، لأنها آلام لذيذة خصبة ، هى كالنار تنضج النفس ولا تحرقها ؛ أما لذة صاحبك فسم فى دسم ، ونار تحرق ولا تنضج ، وبعد قليل من حياته يفقد حتى لذة المال والجاه ، وتصبح لذتهما كلذة من يتناول الحلوى صباح مساء تتهوّع نفسه وتتقبض شهيته ؛ فإن اللذة الباقية الدائمة هى لذة الروح لا الجسم ،

ومن عجيب أمر الروح أن لذتها لذة صافية وألمها ألم مشوب بلذة . ثم لذة هذا المخلوق لذة مشروطة بشروط : فهو يعتقد أن لذته مرتبطة ببقاء صاحبه فى الوزارة ، وصديقه فى الوكالة ، وحميمه فى منصبه ، لأن قيمته مستمدة من ذلك كله وليست مستمدة من نفسه ، إذ ليست له قيمة ذاتية ؛ ونجاح مثل هذا فى أمة عنوان فشلها وسوء تقديرها ، وضعف الرأى العام فيها ؛ وهو مثل سيئ يشجع البذور السيئة على النماء والبذور الصالحة على الخفاء . قد يكون هذا المثال فى كل أمة ، ولكنه فى الأمة الصالحة نادر ، ويحتاج فى نجاحه إلى كثير من الطلاء حتى يخدع الناس ويوهمهم بصلاحه ؛ أما أن يجرؤ ويظهر بمظهره الحقيقى ثم ينجح فذلك فساد الأمة وسبة الدهر .

قلت : ربما كان ما تقول صحيحا فدعنى أفكر .

امتيازات من نوع آخر

هل لاحظت أنك إذا استعرضت مقاهى مصر وفنادقها ، رأيت أن أعظمها بناء ، وأحسنها نظاما ، وأغناها رُوّاداً ، وأجملها موقعا ، وأشدها إتقاناً للخدمة ، وأ كثرها تفننا فى إدخال الراحة والسرور على زوارها ، وأمهرها فى استدرار مال الجمهور عن رضى واختيار ، إنما هى لسادتنا الأجانب ؟

وأن أحقرها مكانا — وأفقرها سكانا ، وشرها موقعا ، وأسوأها خدمة ، وأرخصها سعراً ، وأ كثرها تفننا فى إقلاق راحة زوارها ، لا يغشاها إلا من هزل جيبه ، أو فسد ذوقه ، أو اضطرته حاجة ملحة ، أو ضحَّى براحته ولذته وسعادته لفكرته الوطنية ، ونزعته القومية ، إنما هى لإخواننا المصريين ؟

ثم هل لاحظت أن المقاهى والفنادق الأرستقراطية ، وما يشبهها وما يقرب منها ، صاحبها أجنبى ، ومديرها أجنبى ، والمشرف على ماليتها أجنبى ، والذى يقدم إليك الخدمات الرفيعة أجنبى ، ومن يقبض ثمن ما قدم ، ويأخذ منك « البقشيش » أجنبى ؛ ثم من يمسح الأرض مصرى ، ومن يتولى أحقر الأعمال مصرى ، ومن يمسح لك حذاءك فى المقهى أو الفندق مصرى ، ومن يجمع أعقاب السجاير مصرى ؛ وأن الأجنبى له الخيار فى الأعمال ، فما استنظفه عمله بنفسه ، وما استقذره كلف به مصريا ؛ ثم أنت لا تجد العكس أبداً فى المقاهى المصرية والفنادق المصرية ، فلا تجد رئيسا مصريا ومرءوسا أجنبيا ، ولا تجد الأعمال الرفيعة لمصرى ، والأعمال الوطنية لأجنبى ؛ وإذا كان لكل قاعدة استثناء كما يقولون ، فقد ظفرنا فى هذه الحال بقاعدة لا استثناء فيها ؟

***

وهل تتبعت الصناعات فى مصر ، فرأيت أن كل صناعة رأسها أجنبى وقدماها مصريتان ؟ فخير ميكانيكى فى مصر أجنبى ، والحثالة مصريون ، وقل مثل ذلك فى أعمال الكهرباء والنجارة والحدادة والخياطة ، وما شئت من صناعة ؛ حتى لقد زاحمونا فى مصنوعاتنا الوطنية ، ونشأت فرقة من الأجانب تجيد عمل « الطعمية » و « الفول المدمس » وبزت فيهما المصريين ، وأصبحت الطبقة المصرية الأرستقراطية تشتهيهما من يد الأجنبى أيضا ، وتفضل ما يصنعه على منتجات « أبى ظريفة » و « الحلوجى » ومن إليهما ؟

فالصناعات فى مصر — على العموم — تتخذ شكل هرم ، قاعدته التى تلامس الأرض للمصريين ، وقمته التى تناطح السحاب للأجانب .

* * *

وهل بلغك أن فى بور سعيد — المدينة المصرية — حيين ، يسمى أحدهما « حى الفرنج » ، ويسمى الآخر « حى العرب » ؟ فأما البناء الجميل ، والنظافة والاناقة والعناية بالوسائل الصحية ، ومظهر الغنى والنعمة ؛ ومظهر المدنية والحضارة ، فلحى الفرنج . وأما مظهر الفوضى والإهمال والبؤس والفقر وسوء الحالة الصحية ومأوى الفقراء ، ومسكن التواضع والرضا بما قسم الله فلحى العرب ؟

وهل سمعت أيضا أن « مصر الجديدة » — وهى ضاحية من ضواحى القاهرة — يسكنها كثير من الأجانب فينعمون بشوارعها الفسيحة ، وبيوتها الضخمة الأنيقة ؛ ثم فى ركن متواضع من أركانها ناحية تسميها الشركة « عزبة المسلمين » فيها كل ما لا يخطر على البال من تكدس السكان فى حجرة واحدة ، ومن إهمال ومن أمراض ، ومن فقر وبؤس ، يفر منها من يسكنون بجوارها هربا بأنفسهم وبصحتهم ، وهربا بعيونهم عن مناظر القبح ، وبآذانهم عن ألفاظ الهجر ، وبأنوفهم عن كريه الريح ؟

أوليس مما يثير عجبك ، ويبعث دَهَشك ، أن كلمة « الأحياء الوطنية » فى مصر تحمل من المعانى كل أنواع السوء والفوضى والإهمال ، وكان يجب أن تحمل كل معانى العناية والنظافة والنظام ؟

***

ثم هل رأيت الأجنبى فى وسط الفلاحين فى العزبة ، هو وحده النظيف فى ملبسه ومسكنه ومأكله ، وهو الذى له عقل يدبر ماله ويعرف كيف يستغله ، وهم المغفلون الذين لا يعرفون كيف يحسبون دخلهم وخرجهم ، ولا يعرفون حساب أموالهم ، ولا يعرفون كيف يديرون شؤون حياتهم ، نخضع هذا وهؤلاء لقانون الانتخاب الطبيعى و بقاء الأصلح ؟

***

ثم هل علمت أن هناك امتيازات أخرى بجانب هذه الامتيازات المادية ، هى امتيازات عقلية أو نفسية ؟

فإن غلبة الأجنبى فى الصراع بينه و بين المصرى فى مرافق الحياة المادية أوجدت حالة نفسية شراً من الحالة المادية ، مظهرها قلة وثوق المصرى بنفسه وقوة وثوقه بالأجنبى . فإذا تعسرت حالة مرَضية اتجه أهل المريض إلى الطبيب الأجنبى ، وإذا أراد رب مال أن ينجح فى إدارته قصد إلى مدير أجنبى ، وإذا تعقدت مسألة حكومية أو أهلية اختير لها خبير أجنبى ، وإذا اختلف الباحثون فى مسألة علمية كان الحكم الفَصْل قول المؤلف الأجنبى ، وهكذا فى كل شأن من شؤون حياتنا ؟

واستتبع هذا تقويمنا للأجنبى قيمة غالية ، ودخل فى التقويم أجنبيته أكثر مما دخل فى التقويم فنه أو علمه .

ألم يبلغك الحادث الطريف الذى حدث بالأمس من مدرس ثانوى للغة

الفرنسية يتقاضى أمثاله فى وزارة المعارف فوق الثلاثين جنيهاً ، فكان من سوء حظ هذا المدرس أن تجنس بالجنسية المصرية قبل أن يبت فى مرتبه ، فلما طبقت عليه القوانين المصرية واللوائح المصرية ، كانت نتيجة ذلك أنه لم يمنح إلا اثنى عشر جنيهاً ؟ أولم يبلغك خبر المصرى الذى اخترع بالأمس نوعاً من الآجُرّ فعرضه على الجهات المصرية فخاب أمله ، ثم عرضه فى إنجلترا فأقرت قيمة اختراعه ، ثم تأسست شركة إنجليزية برأس مال إنجليزى لاستغلال هذا المخترع المصرى ؟

والأمثلة على ذلك كثيرة تحدث كل يوم ، فيكاد يكون مغروساً فى أعماق نفوسنا أن القبعة لا توضع على رأس سخيف ، وأن الطربوش لا يمكن أن يلف رأسَ نابغ .

***

إن كان فى مصر دائن ومدين ، فالدائن الأجنبى والمدين المصرى .

وإن كان فى مصر غِنًى وفقر ، فالغنى للأجنبى والفقر للمصرى .

وإن كان فى مصر ذكاء وغباوة ، فالذكاء للأجنبى والغباوة للمصرى .

وإن كان فى مصر نعيم وبؤس ، فالنعيم للأجنبى والبؤس للمصرى .

***

هـذه الامتيازات فى المادة والعقل والنفس شر مما اصطلحنا على تسميته بالامتيازات الأجنبية .

ومن الأسف أنها لا تحل بمؤتمر مثل مؤتمر مونترو ، ولا باشتراك الدول ومفاوضتها ، ولا بمعاهدة ، ولا بقانون .

إن حلها أصعب من ذلك كله .

إنها تحتاج إلى عقول جبارة ، و إرادات من نار، وحميَّة لا حدّ لها ، ووطنية قوية وثابة .

إنها تحتاج إلى مؤتمرات لا من جنس مؤتمر مونترو ، إلى مؤتمر يتكون من فطاحل فى التربية ، يعرفون كيف فشا فينا مرض العبودية حتى حبب إلينا العمل الدنىء و بغض إلينا العمل الرفيع ، فرضينا من المقهى والفندق بمسح البلاط و لَمِّ أعقاب السجاير ، ورضينا دائما بفتات الموائد ، ولم نستطع أن نكوّن العمل الرفيع ونجلس فى صدر المائدة ؛ و يعرفون كيف يقضون على أخلاق العبيد من ذل ومكر وخنوع واحتيال ودسائس ، ويحلون محلها أخلاق السادة ، من عظمة ، وصراحة ، وحب للعمل ، وطلب للمجد ، وعشق للصدارة ؛ و يعرفون طبيعة المصرى وتاريخه و بيئته ، وأنواع الأسلحة العلمية والعقلية والخلقية التى يحتاج إليها ليستطيع الكفاح فى الحياة والسير مع الأجنبى على قدم المساواة .

فهذا خير ألف مرة من لجان تؤلف وتؤلف لزيادة حصة فى الحساب ونقص حصة فى الجغرافيا .

ونحتاج لمؤتمر من القادة تكون مهمته العظمى إبادة روح المذلة الفاشية ، و بذر روح الغَيْرة النادرة ، وتعهدها بالتقاليد الجديدة التى ترعاها وتضمن نموها .

نحتاج إلى مؤتمرات عديدة من هذا القبيل تغير وجه الحياة المصرية ، وتخلق قلب المصرى خلقاً جديداً ، فلا يخاف مرءوس رئيساً ، ولا يخاف مصرى أجنبيا ، ولا يخاف محكوم حاكما .

نحتاج إلى مؤتمرات تبيد الخوف إلا الخوف من الذل والعار ، وتبيد السيطرة إلا احتراما لخلُق أو قانون .

* * *

ما أصعب هذه المؤتمرات ، وما أشقها ، وما أحوجنا إليها ! إنها تتكون من

رجال من أمة واحدة ، ولكنها أصعب من مؤتمر مثلت فيه كل الدول ، لأنها مؤتمرات لا تلغى قانوناً موضوعاً ، ولكنها تلغى أخلاقاً موروثة ، وتقاليد سمَّرها الزمان ، وتحطم أوتاداً سَهِر عليها الحاكم الظالم المستبد حتى صلبت الأرض عليها .

***

لست أومن بنظرية العمال العاطلين حتى يصعب على الأجنبى والمصرى الحصول على العيش الرغد على السواء . فأما وقد سهل تحصيل العيش على الأجنبى وصعب على المصرى ، فليست النظرية — إذاً — نظرية عمال عاطلين ، ولكنها نظرية فقر فى الأخلاق ، وجهل بفن الحياة .

***

فهل لنا وقد نجحنا فى مؤتمر الامتيازات الأجنبية أن نوجه هممنا لمعالجة أختها الامتيازات التى هى من نوع آخر علنا ننجح أيضاً ؟

على بك فوزى

لم يتجل لى وفاء المصرى وإخلاصه كما رأيته أول أمس فى جنازة أستاذى وصديق على بك فوزى . فقد استقبل النعش فى محطة مصر عدد كبير من أصدقائه ، وساروا فى مشهده يعزى بعضهم بعضا ، إذ أبى الفقيد أن يكون له ولد أو مال أو جاه ، فكان أولَ مشهد عظيم رأيته لله وحده ؛ وكان أنبل ما رأيت منظر أحمد باشا شفيق ، وقد تقدمت به السن وصعب عليه السير ، يتحامل على صديق ويسير من المحطة إلى جامع الكخيا ، ثم أسلم عليه وأسأله : هل تعرف الفقيد ؟ فيقول : لا لم أره فى حياته ، ولكنى سمعت بنبل أخلاقه فرأيت وفاء للفضيلة أن أسير فى جنازته .

***

رحمة الله عليه ، فقد كان أمة وحده ، ولم أر له نظيراً فى كل من عاشرت . ولئن كان أكثر الناس نسخا متشابهة من كتاب تافه مطبوع ، فقد كان نسخة خطية من كتاب قيم نادر . متمدن على آخر طراز من طرز المدنيـة فى ملبسه وأناقته وآدابه ولباقته ، متصوف إلى آخر حدود التصوف فى زهادته واحتقاره للمال والجاه والمناصب ، وفوق ذلك كله فى روحانيته السامية .

لم يفخر فى حياته بنسب ؛ على أنه كان جديراً أن يفخر به لو وجد الفخار مدخلا إلى نفسه ، فقد كان جد أبيه المملوك الشارد الذى قفز بفرسه من القلعة . وناهيك بعظمة المماليك أيام سطوتهم .

ولم يفخر بعلمه وهو الواسع العلم العميق التفكير ؛ يجيد العربية إجادة قل أن يكون له فيها نظير ، ويتكلم الإنجليزية كأحد أبنائها ، ويحذق الفرنسية والألمانية

والتركية . ثم لا ينظر إلى اللغات على أنها مقاصد بل على أنها وسائل للثقافة ، فاتخذ هذه اللغات كلها أداة يتعرف بها الثقافات المختلفة و يقف على أحسن ما ألف فيها ؛ هذا إلى صحة فى النقد وقوة فى الملاحظة وشخصية بارزة لا تخضع لأى مؤلف مهما عظم . ومع هذا كله تجلس إليه إن لم تكن تعرفه فكأنه أمى غبى جاهل بكل شىء ؛ فهو ذهبٌ خالص غطى بقشرة من طين لا تعرفه حتى تحكه وتصل إلى باطن نفسه ، ولا يكون ذلك إلا لتلاميذه وخلصائه . وحتى مع هؤلاء يقدم إليك نتيجة معارفه الواسعة وتفكيره العميق وهو مختف وراء ذلك ، يحاول ألا يشعرك بنفسه ، وإنما يشعرك بالفكرة نفسها ، فكأن كلمة «أنا» لم تكن فى معجمه .

***

عرفته أول أمره أستاذاً لى بمدرسة القضاء يدرس لنا التاريخ الإسلامى . وتطاير إلينا قبل قدومه أخبار منثورة عن تاريخ حياته : أنه تخرج فى مدرسة المعلمين ، ثم سافر فى بعثة إلى إنجلترا ، ثم عاد منها بعد أن نال إجازة من جامعتها ، وهى أوصاف لم نتحمس لها كثيراً ، فكنا قد شاهدنا بعض من سافروا إلى أوربا ورجعوا بشهاداتهم الضخمة وألقابهم العديدة وكانوا كالبندقة الفارغة ، منظر ولا مخبر ، ورُواء فى العين ، ولا شىء فى اليدين ؛ فقلنا لعله أحد أولئك الذين لم يكسبوا من أوربا إلا اعوجاجاً فى اللسان ورطانة فى الألفاظ وإنكاراً لعظمة أى شىء مصرى ، وعصبية لكل تافه أجنبى .

وحبسنا أنفاسنا عند قدومه نستطلع طلعته .

دخل علينا رجل قصير القامة . يحاول أن يخفى قصره بطول طربوشه وارتفاع حذائه ، أسمر اللون فى وسامة ، واسع العينين فى خجل ، كبير الرأس فى عظمة . يتأبط كتباً كثيرة العدد لا يتناسب حجمها مع حجمه ، بين عربية وإنجليزية ،

ويأبى أن يحملها الفراش عنه كما اعتدنا أن نرى من غيره .

وأكبر ما راعنا منه أنه بدأ درسه بعبارة عربية فصيحة التزمها فى كل درسه ، وفى كل دروسه بعد ، وفى كل أحاديثه معنا فى الدرس ، لا أعرفه شذ عنها مرة واحدة ، فى طلاقة وعذوبة واستشهاد بالأدب العربى والشعر العربى ، مما لم أعرفه لأزهرى ولا لمدرس من دار العلوم . يجيد فهم عبارة الطبرى على صعوبتها ، وابن خلدون على عمقها ، والكتب الإنجليزية العميقة ، ويوضح ذلك كله بصياغة شهية لذيذة ، ويطبعها كلها بالطابع العربى ، فلا تسمع لفظة إنجليزية ، ولا تستعصى عليه عبارة يريد أن يترجمها من لغة أجنبية .

ومما زادنا إعظاماً له أنه لم يكتف بالدرس ، بل اتصل أيضاً بنفوسنا ، فكان يخرج من الدرس أحياناً إلى شرح حالة نفسية أو ظاهرة اجتماعية يصل بها إلى أعماق نفوسنا . وأخذنا بالنظام الشديد ، وكان يقدسه كل التقديس ، فيشمئز من الكلمة النابية ، ومن اللفظة تكتب منحرفة قليلا عن موضعها ، ومن النكتة إن كان فيها قليل من الشذوذ .

ولا تسل عنه فى ورق الامتحان ، فقد كان يصحح أوراقنا فى دقة غريبة ، ويأتى بالأوراق مدونة فيها ملاحظاته فى اللفظ والمعنى والأسلوب والخطأ الإملائى والخطأ التاريخى ، وينتقدنا انتقاداً لاذعاً لكن ظريفاً .

من أجل هذا كان الأستاذ المحبوب والأستاذ الجليل والأستاذ الظريف والأستاذ العالم .

لم تطل دراسته فى مدرسة القضاء ، وانتقل إلى وظيفة إدارية . ولم يطلب الانتقال لرغبة فى مال فهو يحتقر المال ، ولا فى جاه فهو يحتقر الجاه ، ولا رغبة عن التعليم فهو يحب التعليم ، ويصارحنى أن أكبر غلطة ارتكبها أنه تحول من التعليم إلى الإدارة ؛ ولكنه كان شديداً ، وكان عاطف بك ناظر المدرسة شديداً ،

وكان لكل شخصيته القوية ، ولكل آراؤه فى سياسة الطلبة ، فتصادما تصادماً نفسيا من غير أن يَنبس أحدهما بكلمة ؛ وكان أن خرج « على فوزى » من المدرسة ، آسفين عليه كل الأسف ، شاعرين أنه لا يمكن أن يعوَّض ، وكان « عاطف » أول من حزن على خروجه بعد أن حاول كل محاولة فى استبقائه .

كان حساساً إلى درجة لا تتصور . تجرحه الكلمة الخفيفة لا يشعر بها أحد ، والإشارة القليلة تصدر من رئيسه فيظنها بالغة منتهى الشدة ، والإيماءة المعتادة فتحز فى نفسه وتصل إلى أعماق قلبه .

فكيف يستطيع بعدُ أن يكون موظفاً ؟ لقد تداول عليه وزراء عديدون لا أسميهم ، كل منهم جرح نفسه جرحا بل جروحا . وأى الرؤساء يتحاشى حتى الهنات الهينات مع مرءوسيه ؟ وأى الرؤساء يدرك مقدار السهام المسمومة التى يوجهها إلى نفس كنفس « على فوزى » وهو لا يرى أنها سهام أصلا ، بل قد يظنها نوعا من الملاطفة ؟ — لقد رآه وزير يكتب خطاباً بالإنجليزية فأعجبته بلاغته فقال له : لعلك تحسن أن تكتب مثل هذا بالعربية ! فما كان أشدها وقعاً فى نفسه !

ثم هو يعشق العدل المطلق الدقيق ، ويؤلمه أشد الألم الظلم الخفيف . وكان كل يوم يرى تصرفات فى الوزارات لا تتفق والعدالة التى ينشدها : هذا يحابى المتملقين ، وهذا ينصر الأجانب على المصريين ، وهذا يمنح ترقيات وعلاوات لغير المستحقين .

ثم ما هذا النظام السخيف للدرجات ؟ فهذا موظف فى الدرجة الأولى وآخر فى الدرجة الثانية ! إنه يفهم أن يبدأ الموظف بمرتب صغير يزيد على القِدم والكفاية ، ولكنه لا يفهم تقسيم الموظفين إلى طبقات يعلو بعضها بعضا ويُدِل بها بعضهم على بعض .

لا . لا . ثارت نفسه على كل ذلك ، فى هدوء وسكون ، ومن غير أن

يشعر أحد من أصدقائه دبّر أمره وأعد عدته للخروج من الوظائف الحكومية ، وألح فى طلب إحالته إلى المعاش ، فكان له ذلك . وفضّل نحو خمسة وعشرين جنيها فى الشهر على ثمانين وما كان يتبعها من علاوات وترقيات وحسبان معاشات .

***

بل ليست الوظيفة وحدها هى التى يجب الفرار منها ، فيجب الفرار أيضا من مصر ، فما مصر هذه التى يحكمها الأجنبى وتستسلم له ؟ وما مصر التى يستمتع فيها صعاليك الأجانب بما لم يستمتع به سادة أهلها ؟ وما مصر التى تجلس فى مقهى من مقاهيها فتشعر أن الرومى الذى يقدم لك القهوة خير منك وأعز منك ، ويستطيع أن يحتقرك وأن ينكل بك ولا تستطيع أن تفعل به ما يفعل بك ؟ وما مصر التى لم تستطع أن تكون غنية فى أطبائها وعلمائها وتجارها وصناعها ، ولم تزل عالة فى كل ذلك على غيرها ؟ لا بد إذاً من الهرب من الوظيفة ومن مصر معا .

وخرج من مصر ساخطا غاضبا آسفا حزينا ، خرج هائما على وجهه يمثل دور جده . لقد كان جده المملوك الشارد ، فكان هو الحر الشارد .

خرج إلى أوربا هائما فى ممالكها ، ولكنه كان فيها مستوحشا . نعم إنه يتكلم لغاتها ، ويفهم مدنياتها ؛ ولكن ليس قومها قومه ، ولا دينها دينه ، ولا روحانيتها روحانيته . ثم ألقى عصاه فى الآستانة عقب الحرب واطمأن إليها ، فهى هى البلدة المستقلة بين ممالك البلاد الإسلامية ، وهى هى التى لا تذلها الامتيازات الأجنبية ، وهى التى يجد فيها غذاء روحه وعواطفه بمساجدها العظيمة ومآذنها التى تشق السحاب . من أجل هذا اختار السكن فيها ، وفى الأحياء الوطنية لا الأجنبية ، واتخذ مجلسه فى مقهى تركى بلدى تحت شجرة زيزفون بجوار حائط مسجد « بايزيد » .

ثم حاول أصدقاؤه جهدهم أن يحولوه عن رأيه ويعدلوا به عن غربته ،

فذهبت محاولتهم عبثاً . عرضوا عليه وظائف مختلفة الألوان كان آخرها مدير دار الكتب ، فكان جوابه : متى عرفتم سبب خروجي من الوظيفة وسبب خروجي من مصر لم تعرضوا هذا العرض ؛ فالأصل قبل الفرع ، والحرية مع الفقر خير من الذل مع الغنى .

***

قد رُزق عيناً يرى بها غير ما يرى جمهور الناس؛ فكثيراً ما كان يحتقر من يجله الناس ، ويجل من يحتقره الناس ؛ لأن له مقاييس تقدير تختلف عن مقاييسهم . ليس فى مقاييسه اعتبار لثروة ولا جاه ، ولا منظر ، ولا حسب ، ولا نسب .

حتى مكانه العام الذى كان يختاره لمقابلة أصدقائه لا يختاره لوجاهته ؛ وإنما يختاره لنظافته ، ولأن صاحبه مسلم ، ولأنه يتنفس فيه جواً شرقيا لا غربيا ، ولأنه ليس فيه امتيازات أجنبية ، وهكذا من اعتبارات متعددة لم أستطع أن أعرف منه إلا بعضها .

ويفضل أن يزور حلاقا كان زميلا له فى المدرسة على أن يزور باشا من الباشوات أو من يعده الناس كبيراً من الكبراء .

***

ليس المال عنده إلا وظيفتان : قليله يَتبلَّغ به ويسد حاجاته الضرورية ، وكثيره للمروءة . وأعرف له فى ذلك فصولا غاية فى السمو ، فلقد كان حيناً يسكن مع أسرة أوربية عميدها فرنسى ، وربة الدار ألمانية ، ولهما ابن وبنت ، حتى إذا نشبت الحرب العظمى جُنِّد عميد الأسرة ، فأحلت الأسرة فقيدنا محله على رأس المائدة . وكان كثيراً ما يدور الجدال على المائدة فى نظريات الحرب

وخصوصاً بين الفتى والفتاة ، فكان الفتى يذهب مذهب أبيه ويتعصب لفرنسا وحلفائها ، ثم كان من الفتى أن طعن تركيا فى سمعتها وقيمتها ، ولم يكن يعرف عصبية الفقيد لتركيا ، فلم يعد على فوزى يطيق البقاء بعد فى البيت ؛ ولكن ماذا يصنع ووفاؤه يقضى بمراعاة هذه الأسرة بعد غياب عميدها ، وعصبيته التركية تأبى أن يسكن فى البيت بعد ما كان من الفتى ؟ لا يحل هذا الإشكال إلا احتقار المال ، فقد تظاهر بأنه يأخذ درسا على السيدة الألمانية ودفع ما كان يدفعه أيام سكناه لم ينقص منه شيئاً وإن قلل ذهابه بعد ذلك لأخذ الدرس .

وكان منظره فى استانبول غريباً : يجلس فى مقهى عرفه البؤساء والمحتاجون ، فهو يمنحهم ما أمكنه ، وهو الفقير الذى لا دخل له إلا معاشه الخمسة والعشرون جنيها ، ينفق منها ثلثها على نفسه ؛ وثلثيها على مروءته ، وطويل أن نعد مآثره فى هذا الباب .

أحب العزلة وأكثر التفكير ؛ فهو فى بيته وحده ، إذ لا زوجة له ولا ولد ، وفى تروضه وحده غالبا ، وهو وحده فى أكثر أوقاته ، صديقه الكتاب ؛ ثم ضعفت أعصابه ففقد صداقة الكتاب أيضا إلا نادرا ، وكان تفكيره فى العالم حينا وفى نفسه كثيرا .

وهذه حالة تستتبع الوحشة ، وتستتبع التشاؤم ، وتستتبع الحزن والانقباض ، وكذلك كان شأنه .

غلب عليه الخجل فى غلو . والخجل — كما يقول بعض علماء النفس — سببه كثرة تفكير الإنسان فى نفسه ، فهو إذا مشى ظن أن الناس كلهم ينظرون إليه وينقدون مشيته ، وإذا تكلم ظن أن الناس كلهم ينصتون إليه وينقدون كلامه ، وإذا تحرك أو سكن أو تنفس فالناس يعدون حركاته وسكناته وأنفاسه ، فكان هذا الخلق فيه أكبر شقائه ؛ وبلغت به الحالة أن كان فى آخر

أيامه إذا جلس فى مقهى اختار مكانه وراء عمود ، وإذا سكن فى « بنسيون » صحا قبل أن يصحو الناس ، وعاد بعد أن ينام الناس ، حتى لا يراه الناس ، وإذا عزم على الرياضة فليلا حتى تستره ظلمة الليل ، وإذا مشى فى الشارع ليلا اختار من الشوارع أخلاها من الناس .

***

تملّكه خلق الرحمة فظهر منه فى كل شىء . رحم الناس فخرج لهم عن ماله ، ورحم المرأة فأبى أن يتزوج ، ورحم الحيوان فعاش نباتيا ، وأخيراً رحم نفسه . وويل للإنسان إذا رحم نفسه وأشفق عليها ، إنه ليعذّب فى ذلك عذاباً لا يعذّبه أحد ؛ نعمة كبرى أن يرحم الإنسان غيره ، وشقوة كبرى أن يرحم الإنسان نفسه ؛ فالرحمة استضعاف للمرحوم ، فإذا استضعف نفسه فهناك الألم والحسرة ، وهناك فقدان الثقة بالنفس ، وهناك انسحاب من الجهاد فى الحياة ، وهل الحياة إلا جهاد ؟

رحم الله « على فوزى » ، فقد عاش غريباً ، ومات غريباً ، وأخشى أن يُبعث غريباً .

الشمس

أى شيء أحب إلى النفس ، من المتعة هذه الأيام بالشمس ، والحديث عن الشمس ؟

فقد أقرسَنا البرد حتى اصطَكَّت منه أسناننا ، وانكمش جلدنا ، ويبست أطرافنا ، وحتى وددنا — إذا رأينا النار — أن نحتضنها ، وإذا رأينا الجمرة أن نلتهمها . ولوددت فى هذه الأيام أن أكون فراناً ، أو طباخا ، أو سائق قطار ، حتى لا أفارق النار .

***

كل شيء فى الطبيعة جميل ، وأجمل ما فيها شمسها .

وهى فى شتائنا أجمل منها فى صيفنا ، ولها فى كلٍّ جمال .

فلها — صيفاً — جمال القوة ، وجمال القهر ، وجمال السفور الدائم ، نُعظِّمُها ونجلها ؛ ونهرُب منها ولكن نحبها ؛ تقسو أحياناً ولكنا نرى الخير فى قسوتها ، فهى كالمربى الحكيم ، تقسو وترحم ، وتشتد وتلين ، تلفحنا بنارها ، ولكنها نار كنار الحب يكتوى بها قلب العاشق ، ثم هو يرجو بقاءها ويخشى زوالها ، ترسل علينا شُواظا من نار ، فتسفع جلودنا ، وتكوى جباهنا ، حتى إذا غلى جوفنا ، ووغر صدرنا ، غابت عنا ، وأرسلت رسولها اللطيف الوديع (القمر) نخفف من حدتنا ، ولطف من سَورتنا ، وأصلح ما أفسدَت ، وضمَّد ما جرحت ؛ فإذا خشيَتْ أن نطمئن إليه ، أدركتها الغيرة منه فغيبته ، وطلعت علينا ببهائها وجمالها وجلالها ، وهكذا دواليك .

***

وهى — شتاء — تطلع علينا بوجه آخر ، ترينا فيه جمال الحنو ، وجمال الدعة ، وجمال الرحمة والعطف ، وجمال الغادة اللعوب ، تشاغلك فتظهر وتختفى ، وتسفر وتتحجب ، وتخرج من قناعها ثم تتقنع .

وتنتقم من رسولها الذى غارت منه صيفا ، فتطلعه علينا فى جو بارد لا نطيقه ، حتى لا نفكر إلا فى دفئها ونعمتها ، ولا نشتاق لشىء شوقنا لرؤيتها .

فما أجملها قاسية وراحمة ! وما أجملها واصلة وهاجرة !

تتلون بشتى الألوان فتسحر العقول ، وتبهر العيون ؛ فهى تارة بيضاء ، وتارة صفراء ، وتارة حمراء ؛ ثم لا تستطيع أن تحكم هى فى أيها أبهى وأجمل ، فهى تزين ثيابها بأكثر مما تزينها ثيابها .

فتحْتُ النافذة قبل أن أكتب مقالتى ، فتدَفَّقَتْ فى حجرتى أشعتها الفضية اللامعة ، وملأتها روحا وحياة ، وملأتنى دفئا ، وملأتنى معانى ، وكانت حياتى فى حجرتى قبل زيارتها حياة مظلمة باردة جامدة ، لا معنى فيها ولا روح .

***

خلعْتِ من جمالِكِ على الزهر ، فكان فتنة للناظرين ؛ فجماله من جمالك ، ولونه قبَس من ألوانك ، وحياته مدد من حياتك ؛ فأبيضه وأحمره ، وأصفره وأزرقه ، ليس إلا نعمة من نعمك ، وأثرا من فيضك .

فالوردة الحمراء ليست إلا نقطة من دمك ، والياسمين الأبيض ليس إلا لمحة من نورك ، والنرجس الأصفر ليس إلا تبراً ذائبا من شعاعك .

لقد أبَيْتِ على الناس أن يديموا النظر إلى جمالك ، فألهيتهم بالنظر إلى بعض آثارك ، ولوّنت الأزهار بألوانك ، وأريتهم قدرة إبداعك ، فشغل الجاهلون به عنك ، وشغف به العارفون على أنه قبس منك ، يطالعون جمالك فيه ، ويقرأون معانيك فى معانيه .

***

ثم شأنك فى البحر عجب أى عجب ! تفضر بينه بشعاعك ، وتلفحينه بنارك ، فيتحول ماؤه بخاراً ، يصعد إليك ليستجير منك ، ويَمْثُل بين يديك لتمنحيه عفوك ، وتنيليه عطفك ، حتى إذا شعر برضاك ، وأمن من غضبك ، دمع دمعة السرور ، ففارقته ملوحته ، وعاد إليه صفاؤه وعذوبته ، واكتسب منك الحياة فكان ماء جاريا ، بعد أن كان ماء راكداً ، فجرى جداول وأنهاراً ، فأرسلته إلى خدمك فى الأرض من أزهار وأشجار يحيى ذابلها ، ويستخرج دفينها ، وينضج ثمارها .

***

ثم تحركتِ فملأت الحياة حولك حركة ؛ فكم من نجوم لا يعلمها إلا الله تسير حولك وتحذو حذوك ؛ ثم تلعبين بالهواء من سخونة وبرودة ، فيتحرك ، ويتعلم منك اللعب فيلعب بالبحار والأنهار والأشجار ، وبكل شيء يمر به ، فإذا الدنيا كلها لعبة فى يده .

ثم أنت أنت حرقت الأشجار والنبات ، وطمرتها تحت صفحة الأرض آلافا من السنين بعد آلاف ، حتى إذا تنبه الناس آخر الزمان فطنوا إلى أنه مستودع من مستودعاتك ، فاستغلوه فى كل ما نرى الآن من حركة ، فهو سر حركة المصانع والبواخر ، وسر حركة القطارات والآلات ، فلو قلنا إن كل حركة فى الأرض أنت مصدرها لم نبعد .

***

تلعبين بالناس فتنيمينهم وتوقظينهم ، ترسلين أشعتك الجميلة على العالم فيلتبه ، وتغيبين عنه فينام ؛ ثم تتداولين العالم فتنبهين قوماً وتنيمين قوماً ، ويراك قوم شروقا وقوم غروبا ، وقوم ليلا وقوم نهاراً ، وقوم صيفا وقوم شتاء .

وأنتِ أنتِ فى عليائك ، لا تملّين الحركة ، ولا تشعرين بنوم أو يقظة ، ولا بليل أو نهار .

* * *

بل بك يجرى الدم فى عروقنا ، فدمنا من غذائنا ، وغذاؤنا من حرارتك ، تسلطينها على الأرض فتخرجين منها «حبًّا وعنباً وقَضْبًا و زيتوناً ونخلا وحدائق غُلباً وفاكهة وأبًّا» ؛ بل ما أفكارنا إلا منك ، أليست أفكارنا من دمائنا ، أوليست دماؤنا منك ؟

بل لقد كنت حيناً من الأحيان إله الناس ومعبودهم ، فكنت مصدر وحيهم ، ومصدر إلهامهم ، ووجهة عبادتهم ، رأوك مصدر الحياة فعبدوك ، ورأوك مصدر النعم فمجدوك ، ورأوك يحيط بك كثير من الغموض على جلائك ووضوحك فألّهوك ، ورأوك أكبر النجوم فرَبّبُوكِ .

ثم أتى الأنبياء ، فرأوك تأفلين فسلبوك ألوهيتك ، ورأوك تتغيرين فحولوا عبادتهم عنك .

ولكن إن سلبوك ألوهيتك لم يسلبوك عظمتك وجمالك وجلالك ، وكفاك ذلك فخراً .

* * *

است أدرى أأصاب العرب إذ أنّثوها ، أم أصاب الإنجليز إذ ذكّروها ! لعل الإنجليز رأوا القمر وادعا جميلاً هادئاً رقيقاً فأنّثوه ، ورأوا الشمس قوية قاهرة قاسية فذكّروها ؛ ولكن لعل واضعى اللغة من الإنجليز لو عاشوا فى عصرنا ، ورأوا ما نرى من قوة المرأة وضعف الرجل ، وجبروت المرأة واستكانة الرجل ، لرجعوا إلى رأى العرب ، وآمنوا ببعد نظرهم ، وقلبوا المذكر مؤنثا ، والمؤنث مذكراً .

ولعل العرب أيضا رأوا الشمس أمّ الأرض وأم القمر وأم الزرع فأنثوها ، إذ لا يلد إلا امرأة ؛ ورأوا القمر طفلا يدور حول أمه فذكَّروه ، واحتاط العرب أن يدرك الشمس شيء مما يلحق الأنوثة ، فقال شاعرهم : « وما التأنيث لاسم الشمس عيب » .

أما الشمس نفسها ، فلم تعبأ بتأنيث ولا تذكير ، كما لم تعبأ بمن أنَّثها وبمن ذكرها .

فهي في سمائها تؤدي رسالتها ، وتسير سيرتها ، وتبهرنا بجمالها ، وتوحي إلينا بأسرارها.

فما أعظمك ! وأعظمُ منك مَنْ خَلَقك !

الرجولة فى الإسلام

لعل من أهم الفروق التى تميز المسلمين فى أول أمرهم وفجر حياتهم عن المسلمين اليوم ، « خُلق الرجولة » فقد غَنِي العصر الأول بمن كانوا هامة الشرف ، وغرة المجد ، وعنوان الرجولة .

تتجلى هذه الرجولة فى «محمد» إذ يقول : « والله لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك فيه ما تركته» .

كما تتجلى فى أعماله فى أدوار حياته ، فحياته كلها سلسلة من مظاهر الرجولة الحقة ، والبطولة الفذة ، إيمان لا تزعزعه الشدائد ، وصبر على المكاره ، وعمل دائب فى نصرة الحق ، وهُيام بمعالى الأمور ، وترفع عن سفسافها ؛ حتى إذا قبضه الله إليه لم يترك ثروة كما يفعل ذوو السلطان ، ولم يخلف أعراضاً زائلة كما يخلف الملوك والأمراء . إنما خلف مبادئ خالدة على الدهر ، كما خلف رجالا يرعَونها وينشرونها ، ويجاهدون بأموالهم وأنفسهم من أجلها .

وتاريخ الصحابة ومن بعدهم مملوء بأمثلة الرجولة . فأقوى ميزات « عمر » أنه كان « رجلا » لا يراعى فى الحق كبيرا ، ولا يمالئ عظيما أو أميراً . يقول فى إحدى خطبه : « أيها الناس ، إنه والله ما فيكم أحد أقوى عندى من الضعيف حتى آخذ الحق له ، ولا أضعف عندى من القوى حتى آخذ الحق منه » .

وينطق بالجمل فى وصف الرجولة فتجرى مجرى الأمثال ، كأن يقول : « يعجبنى الرجل إذا سيم خطة ضيم أن يقول : (لا) بملء فيه » .

ويضع البرامج لتعليم الرجولة فيقول : « علموا أولادكم العوم والرماية ، ومروهم فليَثِبُوا على الخيل وثبا ، ورَوُّوهم ما يجمل من الشعر » .

ويضع الخطط لتمرين الولاة على الرجولة ، فيكتب إليهم : « اجعلوا الناس فى الحق سواء ، قريبهم كبعيدهم ، وبعيدهم كقريبهم ، إياكم والرشا والحكم بالهوى ، وأن تأخذوا الناس عند الغضب » .

ويعلمهم كيف يسوسون الناس ويربونهم على الرجولة ، فيقول : « ألا لا تضربوا المسلمين فتذلوهم ، ولا تجمروهم فتفتنوهم ، ولا تمنعوهم حقوقهم فتكفروهم ، ولا تنزلوهم الغياض فتضيعوهم » .

من أجل هذا كله كان هذا العصر مظهراً للرجولة فى جميع نواحى الحياة ، تقرأ تاريخ المسلمين فى صدر حياتهم فيملؤك روعة ، وتعجب كيف كان هؤلاء البدو وهم لم يتخرجوا فى مدارس علمية ، ولم يتلقوا نظريات سياسية ، حكاما وقادة لخريجى العلم ووليدى السياسة — إنما هى الرجولة التى بثها فيهم دينهم وعظماؤهم ، هى التى سمت بهم وجعلتهم يفتحون أرقى الأمم مدنية وأعظمها حضارة ؛ ثم هم لا يفتحون فتحاً حربيا يعتمد على القوة البدنية وكفى ، إنما يفتحون فتحاً مدنيا إداريا منظما ، يُعلّمون به دارسى العدل كيف يكون العدل ، ويعلمون علماء الإدارة كيف تكون الإدارة ، ويلقون بعملهم درساً على العالم ، أن قوة الخُلق فوق مظاهر العلم ، وقوة الاعتقاد فى الحق فوق النظريات الفلسفية والمذاهب العلمية ، وأن الأمم لا تقاس بفلاسفتها بمقدار ما تقاس برجولتها .

هل سمعت عطفاً على الرعية ، وأَخْذ الولاة بالحزم كالذى روى أن معاوية قدم من الشام على عمر ، فضرب عمر بيده على عضده فتكشّفت له عن عضد بضة ناعمة ، فقال له عمر : « هذا والله لِتشاغلك بالحمامات ، وذوو الحاجات تقَطّع أنفسهم حسرات على بابك ! » .

أوهل سمعت قولا فى العدل يحققه العمل كالذى يقوله عمر : « إذا كنتُ فى منزلة تسعُنى وتُعْجز الناس ، فوالله ما تلك لى بمنزلة حتى أكون أُسوة للناس » ؟

أو هل رأيت حزما فى الإدارة كالذى فعله فى مسح سواد العراق وترتيب الخراج ، وتدوين الدواوين ، وفرض العطاء .

حقاً لقد كان عمر فى كل ذلك رجلا ، ولئن كان هناك رجال قد امتصوا رجولة غيرهم ، ولم يشاءوا أن يجعلوا رجالا بجانبهم ، فلم يكن عمر من هذا الضرب ، إنما كان رجلا يخلق بجانبه رجالاً ؛ فأبو عبيدة بن الجراح وسعد بن أبى وقاص والمُثَنَّى بن حارثة ، وكثير غيرهم كانوا رجالا نفخ فيهم عمر من روحه كما نفخ فيهم الإسلام من روحه ، وأفسح لهم فى رجولتهم ، كما أفسح لنفسه فى رجولته .

وكان أدبهم فى ذلك العصر صورة صحيحة لرجولتهم يتغنون فيه بأفعال البطولة ومظاهر الرجولة ويقولون :

وخيرُ الشعر أشرفُه رجالا   وشرُّ الشعر ما قال العبيدُ

يعتد الشاعر بنفسه ويسمو بها عن النعماء والبأساء فيقول :

قد عِشْتُ فى الناس أطواراً على طرُقٍ   شَتَّى وقاسيتُ فيها اللينَ والفظَعا
كُلًّا بلوتُ ، فلا النعماء تُبْطِرُنى   ولا تخشَّعْتُ من لأوائها جزَعا
لا يملأُ الهوْلُ صدْرِى قبلَ موقِعِه   ولا أضيقُ به ذرْعًا إذا وَقعا

ويعتز بشرفه وقوته وإبائه الضيم فيقول :

وكنت إذا قوم رمَوْنى رميتهم   فهل أنا فى ذا يالَ همدانَ ظالِمُ
متى تجمَعِ القلبَ الذَّكىَّ وَصارمًا   وأنفاً حَميًّا تجتَنِبْكَ المظالِمُ

ويمدح رجل قوماً فيقول : « إنهم كالحجر الأخشن ، إن صادمته آذاك وإن تركته تركك » .

ويقول أميرهم : « والله ما يسرنى أنى كُفيتُ أمرَ الدنيا كله » . قيل : ولم أيها الأمير ؟ قال : « لأنى أكره عادة العجز » إلى كثير من أمثال ذلك .

وعلى الجملة فأدبهم تام الرجولة ، قد شعَّت فيه الحياة ، وامتلأ بالقوة ، حتى

اللاهى الماجن كأبى محجن الثقفى : كان يغازل ، وكان يشرب ، ولكن إذا جد الجِدُّ وعزم الأمرُ كان رجلا يبيع نفسه لدينه ، ويبيع كل شىء لشرفه وشرف قومه .

ونستعرض الغزل فى الجاهلية وصدر الإسلام ، فإذا هو غزل قوى لا مُيوعة فيه ، ولا تخنث ، لا يذوب صبابة ، ولا يلتاع هُياماً ، ولا يفقد الرجل فيه رجولته لحبه .

وقلتُ لقلبى حين لجَّ به الهوَى وكلَّفنِى مَا لَا أُطِيقُ منَ الْحُبِّ
ألا أيُّها القلبُ الذى قادهُ الهوَى أفِقْ لَا أقرَّ اللهُ عَيْنَكَ مِنْ قَلْب

***

وما أنا بالنِّـكْسِ الدَّنِيِّ وَلَا الذى إذا صَـدَّ عَنِّى ذُو المَوَدَّةِ أحْرَبُ
وَلـكنَّنِى إنْ دَامَ دُمتُ وَإنْ يكُنْ لهُ مذْهَبٌ عَنِّى فَلِى عنْه مَذْهَبُ

ولم يَضِنِ التاريخ على المسلمين من حين لآخر برجال لفتوا وجه الدهر ، وغيروا مجرى الحوادث ، ودفعوا عن قومهم الخطوب ، وأنزلوهم منزل العز والمنعة تضيق عن وصف أعمالهم الرسائل والـكتب .

ثم توالت الأحداث ، وتتابعت النوب ، تفل من شوكتهم ، وتفت فى رجولتهم ، حتى رأيناهم بذلوا الشرف المال ، وقد كان آباؤهم يبذلون المال للشرف ، ولم ينظروا إلا إلى أنفسهم وذوى قرابتهم ، وكان آباؤهم ينظرون إلى دينهم وأمتهم ، وتفرقوا شيعاً وأحزاباً يذوق بعضهم بأس بعض ، فكانوا حرباً على أنفسهم بعد أن كانوا جميعاً حرباً على عدوهم — ورضوا فى الفخر أن يقولوا : « كان آباؤنا » مع أن شاعرهم يقول :

إذا أنت لم تَحمِ القـديم بحادث من المجد لم يَنْفَعْكَ ما كانَ مِنْ قَبْل

وناثرهم يقول : « لم يدرك الأول الشرف إلا بالفعل ، ولا يدركه الآخر إلا بما أدرك به الأول » .

ورأينا خير ما فى الأمم حاضرها وخير ما فينا ماضينا .

***

أريد بالرجولة صفة جامعة لكل صفات الشرف ، من اعتداد بالنفس واحترام لها ، وشعور عميق بأداء الواجب ، مهما كلفه من نَصَب ، وحماية لما فى ذمته من أسرة وأمة ودين ، وبذل الجهد فى ترقيتها ، والدفاع عنها ، والاعتزاز بها ، وإباء الضيم لنفسه ولها .

وهى صفة يمكن تحققها مهما اختلفت وظيفة الإنسان فى الحياة ؛ فالوزير الرجل من عد كرسيه تكليفاً لا تشريفاً ، ورآه وسيلة للخدمة لا وسيلة للجاه ، أول ما يفكر فيه قومه ، وآخر ما يفكر فيه نفسه ، يظل فى كرسيه ما ظل محافظاً على حقوق أمته ، وأسهل شىء طلاقه يوم يشعر بتقصير فى واجبه ، أو يوم يرى أن غيره أقوى منه فى حمل العبء ، وأداء الواجب ؛ يجيد فهم مركزه من أمته ومركز أمته من العالم ، فيضع الأمور مواضعها ويرفض فى إباء أن يكون يوماً ما عوناً للأجنبى عليها ، فإذا أريد على ذلك قال : « لا » بملء فيه ، فكانت « لا » منه خيراً من ألف « نعم » ، وكانت « لا » منه وساماً تدل على رجولته ، وكانت « لا » منه خير درس للناشئين يتعلمون منه الرجولة — يقتل المسائل بحثاً ودرساً ، ويعرف فيها موضع الصواب والخطأ ، ومقدار النفع والضرر ، ثم يقدم فى حزم على عمل ما رأى واعتقد ، لا يعبأ بتصفيق المصفقين ، ولا بذم القادحين ، إنما يعبأ بشىء واحد هو صوت ضميره ، ونداء شعوره .

والعالمُ الرجل من أدى رسالته لقومه من طريق علمه ، يحتقر العناء يناله فى سبيل حقيقة يكتشفها أو نظرية يبتكرها ، ثم هو أمين على الحق لا يفرح

بالجديد لجدته ، ولا يكره القديم لقدمه ، له صبر على الشك ، و إغرام بالتفكير ، وبطء فى الجزم ، وصبر على الشدائد ، وازدراء بالإعلان عن النفس ، وتقديس للحقيقـة ، صادفت هوى الناس أو أثارت سخطهم ، جلبت مالا أو أوقعت فى فقر ، يفضل قول الحق و إن أهين على قول الباطل و إن كرم .

والصانع الرجل من بذل جهده فى صناعته ، فلم يشأ إلا أن يصل بصناعته إلى أرقى ما وصلت إليه فى العالم ، عشقها وهام بها حتى بلغ ذروتها ، يشعر بأنه وطنى فى صناعته كوطنية السياسى فى سياسته ، وأن أمته تخدَم من طريق الصناعة كما تخدم من طريق السياسة ، وأن الصـناعة لا تقل فى بناء المجد القومى عن غيرها من شؤون الدولة ؛ فهو لهذا يحسن فنه ، وهو لهذا يحسن سلوكه ، وهو لهذا يرفض ربحاً كثيراً مع الخداع ، و يقنع بربح معتدل مع الصدق ، وهو لهذا كله كان رجلاً .

وفى الرجولة متسع للجميع ؛ فالزارع فى حقله قد يكون رجلا ، والتلميذ فى مدرسته قد يكون رجلا ، وكل ذى صناعة فى صناعته قد يكون رجلا ، وليس يتطلب ذلك إلا الاعتزاز بالشرف و إباء المذلة .

***

من لنا ببرنامج دقيق للرجولة كالبرنامج الذى يوضع للتعليم ، يبـدأ يرعى الطفل فى بيته ، فيعلمه كيف يحافظ على الـكلمة تصدر منه كما يحافظ على الصك يوقع عليه ، ويعلمه كيف يكون رجلا فى ألعابه ، فيعدل بين أقرانه فى اللعب كما يحب أن يعدلوا معه ، ويلاعبهم بروح الرجولة من حب ومساواة ومرح فى صدق وإخلاص .

ويسير مع التلميذ فى مدرسته ، فيعلمه كيف يحترم نفسه ، وكيف لا يفعل الخطأ و إن غفلت عنه أعين الرقباء ، ولا يغش فى الامتحان ولو تركه المعلم وحده

مع كتبه ، وكيف يعطف على الضعفاء ويبذل لهم ما استطاع من معونة .

ويتمشى مع الطالب فى جامعتــه فيعوّده الاعتزاز بنفسه والاعتزاز بجامعته والاعتزاز بأمتــه . ويبعثه على أن يفـكر فى غرض شريف له فى الحياة يسعى لتحقيقه — حتى إذا ما أتم دراسته كان قاضياً رجلاً ، أو معلماً رجلاً ، أو سياسيا رجلاً ، وعلى الجملة إنساناً رجلاً .

ويتابع الأمة فيضع لها الأدب الذى يبعث قوة ، والأناشيد والأغانى التى تملأ النفس أملاً . ويراقب فى شدة وحزم دور السينما والتمثيل والملاهى ، فلا يسمح بمـا يضعف النفس ويَثلم الشرف ، ولا يسمح بما يحيى الشهوة ويميت العزيمة ، ويأخذ على أيدى الساسة والحكام ورجال الشرطة ، حتى لا يقسوا على الناس فيميتوهم ، ولا يرهبوهم فيذلوهم .

من يبادلنى فيأخذ كل برامج التعليم ، وكل ميزانية الدولة ، ويسلمنى برنامجاً للرجولة وميزانية لتنفيذه ليس غير ؟

ولى كَبِدٌ مقروحة ، من يبيعنى   بها كَبِدًا ليست بذات قُروح ؟

قيمة الثقافة

للثقافة قيمة مالية مقررة ، فالليسانس والدكتوراه والدبلوم ، وما إلى ذلك من الأسماء ، هى عنوان للثقافة ، أو بعبارة أخرى تتويج لجهود سنين قضيت فى تحصيل العلم . وتأتى « المالية » بعد فتقدر هذه الدرجات بالجنيه ، وتجعل لكل منها قيمة مالية خاصة ؛ ولها العذر فى أن تخالف بين الدرجات ، وتسوى بين حاملى الدرجة الواحدة وإن اختلفوا فى مقدار الثقافة ، لأنه لم يخترع إلى الآن مقياس دقيق يوزن به الفكر ومقدار استعداده وزناً صحيحاً ؛ ولو اخترع هذا الميزان لألغيت الدرجات ، واكتفى بوزن الكفايات ؛ ولكن من لنا بذلك وقد عجزت المدنية القديمة والحديثة عجزا تاما عن اختراع هذا الميزان ؟ .

وللثقافة كذلك قيمة اجتماعية ، فالثقافة ترفع من كان من طبقة وضيعة ، إلى أن يكون أحياناً مساويا لمن كان من طبقة رفيعة ؛ فحامل الشهادة العليا يرى نفسه — وقد يرى الناس معه — أنه صالح لأن يتزوج من طبقة راقية ، مهما كان منشؤه ومرْباه ؛ وقديما قال الفقهاء فى « باب الزواج » : إن شرف العلم فوق شرف النسب ، والمثقف الراقى له الحق أن يكون عضوا فى الأندية الراقية من غير أن يسأل عن نسبه وحسبه ، بل له أن يُدِلّ على أبناء الطبقة الأرستقراطية إذا نال درجة لم ينالوها ، وعرف من أنواع الثقافة ما لم يعرفوا ؛ وله من حرمة الناس فى المجتمعات والأندية ما لا يناله غير المثقفين ، وإن كانوا من بيت خير من بيته ، وفى نسب خير من نسبه .

ولكن لا أريد أن أتحدث فى شىء من هذا ولا ذاك ، فليست تعنينى الآن الناحية المالية للثقافة ، ولا الناحية الاجتماعية ؛ وإنما أريد أن أتساءل :

ما القيمة الذاتية للثقافة ؟ إن المال واحترام الناس عرض خارجي ، فما القيمة الثابتة التي تتصل بنفس المثقف ولا تفارقها في فقر أو غنى ، وفي جاه وغير جاه ؟

أهم قيمة — في نظري — لثقافة المثقف هي كيفية نظره إلى هـذا العالم ، ذلك بأن عيون الناس في نظرها إلى الأشياء وحكمها عليها ليست سواء ؛ فعيونهم الحسية وإن اتفقت في الحكم على الألوان بالسواد والبياض والحمرة والصفرة ، وإن اتفقت في الحكم على الأبعاد قربا وبُعدا ، وإن اتفقت في الحكم على الأحجام كبراً وصغراً ، فإن العيون النفسية لا تتفق في نظرها ولا حكمها ، فالشيء في نظر الأبله غيره في نظر الفيلسوف ، وبين هذين درجات لا حدّ لها ، وليس للشيء الواحد معنى واحد بل معان متعددة تتسلسل في الرق ، والناس يدركون من معانيه بحسب استعدادهم وثقافتهم وأذواقهم .

وقد حكوا أن عيسى عليه السلام مر هو وأصحابه بجيفة ، فقالوا : ما أخبث رائحتها ! وقال هو : ما أحسن بياضَ أسنانها ! ونظرُ الرجل العادي إلى حديقة مزهرة غير نظر الأديب الفنان . هـذا ينظر إليها فيقرأ فيها من المعاني والجمال مايمتزج بنفسه ، ثم يسيل على قلمه كأنه قطع الرياض ؛ وذاك ينظر إليها نظرة مبهمة ، لا تُسفر عن معنى ، ولا تُعْرَف لها وجهة ، نظرة بليدة جامدة ، لا يسعفها ذوق ، ولا تخدمها قريحة .

ومثل هذا في كل شيء يعرض على العين ، فكل شيء في السماء وفي الأرض لا يحمل معنى واحدا ، بل معاني متعددة ، وقيمة الثقافة أن تنقل العين من أنظار سخيفة ومعان وضيعة إلى أنظار بعيدة ومعان سامية ؛ فالأديب إذا لم ينظر في المرأة إلا إلى حسن جسمها وتناسب أعضائها ، لم يكن أديبا مثقفا ، وقلنا له كما قال المتنبي :

وما الخيلُ إلا كالصديق قليلةٌ وإن كثرت في عين من لا يُجرِّب

إذا لم تشاهد غير حسن شياتها   وأعضائها فالحسن عنك مغيَّب

ففرق كبير بين أن تنظر إلى المرأة كشيطان وأن تنظر إليها كإنسان وأن تنظر إليها كملَك ، وفرق كبير فى كل شىء فى الوجود يعرض على أنظار الناس.

وكل إنسان له نظراته فى العالم من أسفل شىء إلى أرقى شىء ، من مادة تحيط به ومال يعْرِض عليه وأعمال تتعاقب أمام نظره وإله يعبده ؛ هو فى كل ذلك قد يكون سخيفاً فى نظراته ، وضيعاً فى رأيه ، وضيعاً فى حكمه ، وقد يبلغ فى ذلك كله من السمو منزلة قلّ أن تنال ، وعمل الثقافة أن تنتشله من تلك النظرات الوضيعة إلى هذه النظرات السامية .

وليست نظرات الإنسان إلى الحياة قوالب من الآجر ، كل قالب مستقل بنفسه ، محدود بحدوده ، إنما هى كسائل لطيف إذا لوّنتَ نقطة منه بلون ، شع اللون فى سائر السائل ، وإذا سخنت جزءاً منه وزع حرارته على السائل كله حتى يتعادل ، بل الرأى والنظرات ألطف من ذلك وأدق وأرق ، وإذا رقى النظر إلى شىء أثّر ذلك رقيا فى سائر النظرات . فكل نظرات الحياة متأثرة بنظرك إلى نفسك والعكس . بل نظرك إلى الله تعالى متأثر بنظرك إلى عالمك المحيط بك ؛ وهذا ما يجعل الثقافة فى أى ناحية من النواحى الأدبية والعلمية تؤثر أثراً كبيراً فى النواحى الأخرى حتى ما نظن أن ليست له صلة به . وقد أصاب من قال : « إن رقى الأمة فى الموسيقى وتذوقها الصوت الجميل والغناء الجميل يجعلها تتعشق الحرية وتأنف الضيم وتأبى المذلة » ، فمحيط المخ والعقل والشعور محدود وشديد الحساسية ، كل ذرة فيه تتأثر بأقل شىء ، وتؤثر بما تأثرت . والفكرة الجديدة قد تدخل فى الفكر فتقلبه رأساً على عقب ، وتجعل من صاحبه مخلوقاً جديداً يقل وجه الشبه بينه وبين ما كان من قبل ، فتجعله فى أعلى عليين ، أو أسفل سافلين .

إن كان هذا صحيحاً ، وكانت قيمة الثقافة الذاتية فى مقـدار ما أفادت المثقف فى وجهة النظر إلى الأشياء ، وتقويمها قيماً جديدة أقرب إلى الصحة ، أسلمنا ذلك إلى نتائج خطيرة ؛ فدين خـير من دين بمقدار ما تحاول تعاليمه من رفع مستوى النظر إلى الله تعالى وإلى الحياة ؛ وعلم خير من عـلم باعتبار ما يؤدى إليه من نظر راق صحيح ؛ وثقافة الإنسان لا تقدر بمقدار ما قرأ من الـكتب وما تعلم من العلوم والآداب ، ولـكن بمقدار ما أفاده العلم ، وبمقدار علو المستوى الذى يشرف منه على العالم ، وبمقدار ما أوحت إليه الفنون من سمو فى الشعور وتذوق للجمال .

الرجل والمرأة

لعل الطبيعة شاءت ألا تجعل من الرجل إنساناً كاملاً، ولا من المرأة إنساناً كاملاً، بل جعلت منهما معاً إنساناً كاملا.

نقصت فى الرجل ما أكملته فى المرأة، ونقصت فى المرأة ما أكملته فى الرجل، وقوّت فى الرجل ما أضعفته فى المرأة، وقوّت فى المرأة ما أضعفته فى الرجل.

فحيثما وجدت نقصاً فى المرأة فاطلب كماله فى الرجل، وحيثما وجدت نقصاً فى الرجل فاطلب كماله فى المرأة.

فالمرأة والرجل كلِفقى الثوب تزيد فى أحدهما ما تنقصه فى الآخر، وتنحرف فى أحدهما انحرافاً يهيىء مكاناً للآخر، أو ككل شىء فيه «عاشق ومعشوق» يُعَدّ كل منهما إعداداً يجعله صالحاً للآخر، أو كطاقة الزهرة لا تجمل إلا حيث تتعدد الألوان وتتناسق. أو كفرقة الموسيقى يكمل الطبل ما نقصه المزمار، ويكمل المزمار ما نقصه الطبل، ولا تجمل الموسيقى إلا بهما معاً.

فإذا رأيت فى الرجل حبا فى التعميم رأيت فى المرأة حبا فى التخصيص. هى تحب فى العلم المثال الجزئى، وهو يحب القاعدة الكلية. هى إذا تكلمت عن المنزل تكلمت عن منزلها وقارنته بمنازل صديقاتها، وأما هو فسرعان ما يطفر إلى ذكر قاعدة عامة. وهى إذا تكلمت فى الحب تكلمت فى حبها أو حب مثيلاتها، وهو إذا تكلم فى ذلك انتقل سريعاً إلى وضع قوانين للحب؛ فنظرتها — على العموم — نظرة جزئية نفاذة، ونظرته — على العموم — نظرة شاملة وقد لا تكون دقيقة. وإذا تكلم هو عن الجمال كفكرة مجردة تكلمت هى عن فلانة الجميلة أو فلان الجميل وإذا قال هو: ما أحسن السماء! قالت هى: ما أجمل القمر؟

ومن أجل هذا كانت المرأة فى العمليات خيراً من الرجل . وكان الرجل فى النظريات خيراً من المرأة .

فلست ترى فلاسفة من النساء فى الطبقة الأولى ، لأن الفلسفة أساسها التعميم وهى لا تحسنه ، وأساسها النظريات وهى لا تجيدها . وأهم أبوابها ما وراء المادة ، والنظر الجزئى يتطلب المادة . قد تجد طالبات فلسفة ، وقد تجد حائزات لشهادات فلسفية ، ولكن قل أن تجد فيلسوفة خالقة لنظريات فلسفية ، فذلك ليس من طبعها عادة .

هى تحسن تدبير المال أكثر مما يحسن الرجل ، فلو أعطى مال للمتعلمات وأعطى نظيره للمتعلمين لكان الأغلب الأرجح أن تحسن المرأة استعماله أكثر من الرجل ، ولا تنفقه فى مشروعات خيالية كما يفعل الرجل ، ولا تقامر به لأن المقامرة نوع من المشروعات الخيالية ، ولا تفنيه إفناء سريعاً اعتماداً على ما يأتى به المستقبل كما يفعل الرجل ، لأنه أكثر نظريات ، وأوسع خيالاً ، وهى أحسن تقديراً للواقع وأقرب آمالا .

والأمر فى الخيال كالأمر فى النظريات ، فالنظريات تحتاج إلى فرض يخلقه الخيال ، ولذلك كان الرجل أوسع خيالا وأبعد مرمى وأكثر تحليقاً فى السماء . ومصداق ذلك نظرة إلى الشعراء ، والشعر ميدان الخيال وقريب الصلة بالفلسفة . والمرأة لا تحسن الشعر كما لا تحسن الفلسفة ، فإن فتشت فى الأدب العربى فقلَّ أن تجد امرأة كالخنساء ، ومع هذا فما الخنساء وما شعرها ؟ إن هى إلا ندابة مؤدَّبة لم تحسن القول إلا فى رثاء أخويها . وأكثر ما روى عن النساء فى الشعر إنما هو من قبيل الرثاء القريب الخيال . وهو ليس إلا بكاء على فقيد جزئى محسوس صيغ فى قالب شعرى محدود ؛ فأما ما عدا هذا الضرب من الأدب فلم تنل منه حظا كما نال الرجل . وهذا فى الأدب الغربى كما هو فى الأدب العربى ، وجدت فيه شاعرات ولكنهن قليلات ، ولسن مع ذلك من أرقى صنف .

وليس هذا مما يمس مكانة المرأة فى شىء . فكلتا النغمتين من الميل إلى الواقع والخيال لابد منه فى هذا العالم ، فإن سبق الرجل بنظرياته وخياله فهو فى حاجة إلى امرأة تذكّره بالواقع ، وتحد من إمعانه فى الوهم وإسرافه فى الخيال ؛ فهو يبنى وهى تحافظ على مابنى ، وهو سفينة وهى صبارتها ، وهو من الخيالة وهى من الرجالة ، وهو يطير وهى تمشى فى تؤدة . وكل لابد منه فى جيش الحرب ، وكل لابد منه فى جيش العالم . هو يتقدم الجيش فيصاب فى الصف ، وهى تعنى به ممرضة فى المستشفى . هو يتقدم فى الحياة ويخاطر ويجمع المال ، وهى تدبر وجوه إنفاقه . فهو له السلطان الأكبر خارج البيت ، لأن ذلك مجال المخاطرة والنظريات والخيال ، وهى لها السلطان الأكبر فى البيت ، لأنه مجال التجربة العملية والنظرات الجزئية والخيال المحدود .

هن محافظات غالبا ، وهم أحرار غالبا ، فالثورات الاجتماعية والدينية والسياسية من الرجال أولاً — لا من النساء — حتى طلبُ تحرير المرأة كان من قاسم أمين — أولاً — قبل أن يكون من السيدة هدى شعراوى ؛ ولعل ذلك فى غير مصر كما هو فى مصر . الأنبياء رجال لأن النبوة دعوة والدعوة ثورة . والعالم مدين فى المحافظة على الدين للنساء أكثر مما هو مدين للرجال ، لأن المحافظة من طبعهن . والإلحاد فى الرجال أكثر منه فى النساء لأن الإلحاد ثورة أيضاً . والثورات السياسية وليدة الرجال لأنها وليدة الخيال ، وهن يكرهن الثورة ويكرهن الخيال . قد تحسن المرأة الثورة على الأزياء فكل يوم نمط فى الأزياء جديد : شعر طويل بعد شعر قصير ، وثوب طويل بعد ثوب قصير ، وقبعات أشكال وألوان ، وملابس وأوضاع أنماط وأنماط ، ولكن تسمية هذه ثورة من قبيل قولهم : سهام العين وفتك اللحظ وقتل المحب ونار الجوى وحرقة الفراق .

ولكن ما بال المرأة وقد حافظت على التقاليد فى السياسة والدين والاجتماع وكرهت الثورة عليها ، تراها وهى فى الأزياء وما إليها أسرع الناس تغييراً وأحبهم

تجديداً وأكرههم المحافظة ؟ لعل الأمر أنها لم تخرج عن المحافظة قط ولكنها كانت بين محافظتين : محافظة على أسر الرجل ومحافظة على أنماط الأزياء ، فقارنت بين المحافظتين واختارت أهون الضررين .

لعل سعة خيال الرجل وضيق خيال المرأة ، وجريه وراء النظريات وميلها إلى تحديد الحياة بالواقع ، هو الذى جعلها تسيطر على حياة الحب . فبيدها المفاتيح لا بيده ، هو يسبح وراء خياله ، فإن كان شاعراً ملأ الدنيا غزلا وتفنن فى ضروب القول وأبدع ؛ فأحياناً يرتفع إلى السماء فيتغزل الغزل الروحى ، ويخلق ممن يحب صورة ملك كريم ؛ وأحياناً يهبط إلى الأرض فيدق فى وصف ملامحها ونظراتها وقوامها وكل شىء فيها ، ويخترع فى ذلك التشبيهات الرائعة ، والتعبيرات الخيالية ؛ وإن كان مصوِّرا تفنن فى صورة من يحب وخلع عليها من تخيلاته وتصوراته مايجعلها فوق مخلوقات هذا العالم ؛ وإن كان موسيقيا ألهمه الحب فأخرج قطعاً فنية بديعة أحياناً تبعث على اليأس وتستذرف الدمع ، وأحياناً تستخرج البشر والسرور وتثير الأمل ؛ أما هى فأملك لنفسها غالبا ، وخير منه فى تقدير الواقع والاعتراف بالحقائق . ولعلنا إذا أحصينا المنتحرين لفشل الحب وجدنا أكثرهم رجالا ؛ ولعل أكثر من اندفع فى سبيل الخيال من النساء كان بإغراء الرجل وبفضل ما أجاد من سحر القول وإتقان الغزل والبلاغة فى الفن ؛ فهو إن طار فى الخيال فطبع ، وهى إن جرت وراءه فتطبع ، وربما كان هذا من الأسباب التى جعلت الناس رجالا ونساء يحمّلون المرأة من التبعة فى الحب وتوابعه أكثر مما يحمّلون الرجل .

قد تبدو المرأة أحدّ عاطفة من الرجل ؛ فهى سريعة الرضا سريعة الغضب ، سريعة الحب سريعة الكره ، ترضيها الكلمة وتغضبها الإشارة ، قريبة الدمعة قريبة الابتسامة ، ترق فتذوب حناناً ، وتقسو فما تأخذها رأفة ، تحب فتصفى الود ، وتعادى فويلاه من عداوتها .

ولكن حتى فى عواطفها وعواطفه هى عملية وهو نظرى . ترحم فتتحول رحمتها وحنانها إلى تمريض للجرحى وإعداد ملابس المساكين . وتحب فترسم خطط الزواج ، وتبغض فتطلب الفراق ، وتُسَر فكل شيء يدل على سرورها ، هى ضاحكة وهى مغنية وهى مرحة ، وتحزن فكل شيء يدل على بكائها ، فهى عابسة ، وهى مكتئبة ، وهى توقع نغمات محزنة . ثم هى تحب مشاركة الناس لها فى سرورها وحزنها أكثر مما يحب الرجل . فليس للرجال مناحة كالتى للنساء ، ولا حفلات مرحة كل المرح كالتى للنساء . أما هو فيغضب على النظام فيثور وهى لا تعرف الثورة ، ثم يحب وكثيراً ما يخلو ذهنه من زواج ، ويكره فلا يطلب الفراق ، ويسر ويكتم سروره ، ويحزن ويكتم حزنه ، ويقترن حبه وكرهه وسروره وحزنه بمشروعات خيالية لا تجيدها المرأة !

هذه ناحية واحدة من نواحى الرجل والمرأة وما أكثر نواحيهما .

ولكنْ إنصافا للحق يجب أن نذكر أن المرأة فى عصور التاريخ لم تتح لها كل الفرص التى أتيحت للرجل ؛ فلا منحت من الحرية ما منح ، ولا مهدت لها وسائل التعلم كما مهدت له ، ولا تحملت من المسئوليات ما تحمل ؛ ولم تبدأ تتمتع بحريتها وتتاح لها سبل التعلم إلا منْ عهد قريب ، على حين أن الرجل ظل قرونا طويلة حراً طليقا يتعلم ما يشاء ويزاول الأعمال ويتحمل تبعاتها .

فهل إذا ظلت المرأة فى سيرها تتعلم وتكافح فى الحياة وتطالب بما نقص من حقوقها تبقى هذه الفروق العقلية والخلقية كما أبنّاها قبل ؟ أو تضمحل الفروق تبعا لسير المرأة فى سبيل المساواة ؟ وبعبارة أخرى : هل هذه الخصائص العقلية التى شرحناها فى كل من الرجل والمرأة هى خصائص طبيعية كالخصائص الجسمية ، أو هى فروق كانت نتيجة ما مر على الرجل من أطوار اجتماعية ؟

ذلك ما سيكشف عنه الزمن .

فن الحكم

يعانى الشرق الآن محنة من أشد أنواع المحن ، سببها أنه بدأ يحمل عبء نفسه ، وقد كان يحمله عنه المحتل .

كان المحتل يصرّف أمور الأمة كما يرى ، فيحرّم ما يشاء ويحلّ ما يشاء ، ويُعز من يشاء ، ويُذل من يشاء ؛ فإذا استعان ببعض أفراد الأمة فبأيديهم لا بعقولهم ، وقد يستعين بعقولهم أيضاً ولكن على شرط أن تكون فى خدمة عقله ، وفى الاتجاه الذى يرسمه قلمه ، فمن حدثته نفسه أن يفكر تفكيراً حرًّا طليقاً فالويل له . أمسك بيده المال وهو عَصَب الأمة ، ينفق منه كما يشاء فى الوجوه التى تخدم سلطانه ، ويبخل كما يشاء فيما يعارض منهاجه ؛ فهو شحيح كل الشح على التعليم العالى ، وعلى الجيش وما إليه ؛ وهو سخى فيما يصلح الأرض ويدر الثروة . وعلى كل حال لم يقف من الأمة موقف المعلم النزيه يؤهل تلميذه ليكون رجلا يوماً ما ، ويمرنه على أن يستقل بنفسه شيئاً فشيئاً ؛ إنما وقف منه موقف السيد من عبده يسخره وله الغلة ، ويُطعمه ما يسد رمقه ليقوى على العمل له .

ثم كان أن جاهد الشرق جهادا شاقا طويلا جعل حكم الأجنبى له شاقا عسيرا ، وساعدت الأحداث الخارجية وما فيها من قلق واضطراب على أن يغير المحتل سياسته ويحمّل الأمة أكبر عبئها ، ويطلق لها اليد فى التصرف فى أكثر شؤونها . فأصبحت الأيدى التى كانت تعمل بعقول غيرها غير كافية ، واشتدت الحاجة إلى العقول المفكرة ، وأساليب الحكم العادلة الحازمة ، فإذا بالشرق أمام مدرس يلقى لأول مرة درسه ، أو قاض يجلس على منصة القضاء أول عهده ، حتى الذين تولوا الحكم فى عهد الاحتلال والحكم بعد الاحتلال يشعرون بالفرق

بين الحكمين ، واختلاف الصعوبة فى العهدين ، فقد كانوا فى عهد الاحتلال أيديا مسخرة ، وهم فى عهد الاستقلال عقول مدبرة .

***

أول درس يجب أن يتعلمه الشرق تضحية الحاكم : وأعنى بذلك أن يضحى بشهواته فى سبيل تحقيق العدل الدقيق ، فلا تستهويه شهوة المال ، ولا شهوة الجاه ، ولا شهوة المنصب فتصرفه عن إحقاق الحق وإبطال الباطل . وطبيعى أن الشعب لا يرضيه من الحاكم فى عهد الاستقلال ما كان يرضيه فى عهد الاحتلال ؛ فقد كان فى عهد الاحتلال يصبر على الظلم كارهاً بحكم القوة ، فلما رأى أن حكومته منه ، وأنها تستمد قوتها من قوته ، لم يرض عن ظلم ، بل هو يشتط فى طلبه فلا يرضى عن عدل مشوب بظلم ، إنما يريد عدلا خالصاً ، ويتطلب منها المثل الأعلى فى العدالة وإلا لا يمنحها رضاه .

ثم هو لا يرضى بتحقيق العدل السلبى وحده ، مثل عدم الترقية لصلة أو قرابة ، وعدم الظلم فى توزيع مياه الرى ونحو ذلك ، إنما يطالب بتحقيق العدل الإيجابى أيضاً ، مثل إصلاح نظم التعليم ونظم المال ونظم الصحة ونظم الشؤون الاجتماعية ؛ فإذا قصر الحاكم فى ذلك ملّ المحكوم وسئم ، وشكا من أن العهد الجديد لم يفترق عن العهد القديم ، إذ لم تتحقق آماله ولم يظفر عما كان يرجو من سعادة .

***

على أن من الإنصاف أن نقول إن تبعة صلاحية الحكم وعدمه لا تعود إلى الحاكم وحده ، بل إن جزءاً كبيراً يحمله الشعب المحكوم نفسه ؛ فالحكم فعل وانفعال مستمران بين الحاكم والمحكوم ، والنتيجة التى نراها من تقدم الأمة أو تأخرها هى نتيجتهما معاً لا نتيجة الحاكم وحده .

والأثر الذى يقول « كما تكونون يولَّى عليكم » ليس قانوناً للقدَر ، بل هو قانون طبيعى . فحالة المحكوم تشكِّل الحاكم — لا محالة — بالشكل الذى يتفق وحالته . وقد علَّمنا التاريخ أن عسف الحاكم لا يتم ولا ينجح إلا إذا سبقه استنامة المحكوم وضعف إحساسه ، وصلاحية الحاكم مسبوقة دائماً بتنبه المحكوم وحسن تقديره للعدالة والظلم .

بل إن أساليب الحكم ونظريات الحكومات لم تتقدم على مر الزمان تقدم الشعوب فى تقدير العدل والظلم ؛ فنظم الحكم التى وضعها اليونان والرومان — وعلى رأسهم أفلاطون فى جمهوريته وأرسطو فى كتابه السياسة — لم تتقدم كثيراً فى عهدنا الحاضر ، ولكن شعوب اليوم — فى فهم الحكم ومدى سلطة الحاكم وإبائهم أن يتجاوز حده — أرقى بكثير فى ذلك من شعوب الأمس الدابر . لقد كان الحاكم يستطيع أن يحكم — فى سهولة ويسر وإلى عهد طويل — شعبه على رغم أنفه بسلطانه وجبروته ، ثم هو يتحمل أعباء الحكم على كتفه وحده . أما اليوم فلا يستطيع حاكم مهما أوتى من العقل والقوة أن يحكم إلا برضا شعبه وبمعونته وبمشاركته إياه فى حمل العبء ؛ وإن وجدت حالات تخالف ذلك فحالات شاذة لا يسمح النظام الاجتماعى ببقائها طويلا .

بل تبين فساد رأى أفلاطون وأرسطو وأمثالهما فى أن هناك طبقة خاصة يجب أن تَحْكُم ، وأنها وحدها الصالحة للحكم ، وأن من عداها غير صالح إلا لأن يُحْكَم ؛ وتبين أن الحاكم الحق للشعب هو الشعب نفسه ، وإنما يركز آراءه فى الحكم فى أشخاص لأن الناس اعتادوا تجسيد المعانى والرمز إليها بمحسوسات تقريباً لعقولهم وتبسيطاً لأفكارهم ؛ ولا ينجح حاكم ولا مصلح إلا إذا مثَّل رأى الناس أو على الأقل رأى طائفة صالحة منهم ، فلو أتى مصلح بما لا يتهيأ له فريق من الناس لعد مجنوناً ، بل إن الشعب أو الطائفة منه هى التى تخلق حاكمها وتخلق

مصلحها ، إذ هو ليس إلا مبلوراً لأفكارهم ومركزاً لآرائهم . وليس الحاكم أو المصلح جذر الشجرة ولكن زهرتها ، إنما الجذر والساق والأوراق هي الشعب نفسه .

***

يميل الشرق إلى أن يحكم حكماً ديمقراطيا ، وله الحق في ذلك ، لأنه جرب أنواعا من الحكم الاستبدادي على أنواعه المختلفة فكانت مميتة لمشاعره ، عائقة لتقدمه ، وكان الحكام المستبدون ينعمون بكل صنوف الترف والنعيم على حساب بؤس الشعب وفقره .

ويميل إلى الديمقراطية ، لأنها على مابها من عيوب لاتزال أرقى أنواع الحكم وأبقاه ؛ وحكم الاستبداد إن رضيته بعض الأمم حيناً ، أو فرض عليها فرضاً حيناً ، أو ارتكن على بعض الظروف حينا ، فليس هو الحكم الصالح للبقاء أبدا .

لقد انهار الاستبداد في مظاهره المختلفة ، وحلت محله الديمقراطية بأشكالها المختلفة . انهار استبداد رجال الدين بعد أن سيطروا على الشعوب أزماناً طويلة لقي فيها الناس من عنتهم ما كرّه إليهم الحياة .

وانهار استبداد الأب بأسرته ، فلم يعد ذلك الأب الذي لا إرادة في البيت بجانب إرادته ، ولا الأب الذي كلمته حكم ، وطاعته غُنْم ، وحل محله أب هين لين ، يأمر حيناً فيطاع ، ويؤمر حيناً فيطيع .

وتغيرت الغايات للسلطات فأصبحت الغاية من الحكومة لا أن تظهر بمظهر الآمر الناهي ، ولكن أن تحقق العدالة والحرية للناس حتى للضعفاء ، وأصبحت الغاية من الأب لا أن ينعم بسلطانه ، وإنما الغرض منه ومن الأسرة كلها إيجاد جو صالح لنمو الطفل وتربيته ورقيه . وليس الغرض من المعلم أن ينفذ إرادته بالعصا ، وإنما الغرض منه ومن الناظر والمدرسة كلها أن يمسكوا بدل العصا مصباحا يضيء للتلاميذ حقائق الحياة وسبل الحياة .

ولكن هذا الحكم الديمقراطى ليس يصلح إلا بتنظيم دقيق ، بل هو إلى النظام أحوج من الحكم الاستبدادى ، لأن الحكم الاستبدادى يحمل عبئه فرد واحد وأعوانه أيديه ، وهو الرأس المدبر ، فطبيعى أن يكون ظلمه وعدله منظما ، أما الحكم الديمقراطى فيحمل عبئه عدد كبير ، فإذا لم يؤد كلٌّ واجبه اختل البناء ، ومثله مثل الآلة ذات الأجزاء المختلفة أو كالساعة ذات القطع المتعددة المتباينة ، ولا ينتظم سير الآلة ولا سير الساعة حتى يقوم كل جزء بعمله .

وسبب آخر لحاجة الحكم الديمقراطى للنظام دون الحكم الاستبدادى ، وهو أن الحكم الاستبدادى يرمى إلى تحقيق مصلحة فرد واحد أو طائفة محصورة ، وذلك سهل يسير . أما الحكم الديمقراطى فيرمى إلى مصلحة الشعب جميعه وخاصة الضعفاء ، كالفقراء والمرضى والفلاحين والعمال ، وهؤلاء عددهم فى كل أمة كبير ، ولا يمكن تحقيق الخير لهم إلا بجهد كبير ونظام دقيق .

فإذا لم يتحقق هذا النظام فشل الحكم الديمقراطى ، وظن قِصار النظر أن العيب يرجع إلى طبيعة الحكم ، وهو فى الواقع لم يرجع إلا إلى سوء تطبيقه واستعماله . ثم إذا اختل كان نذيراً بعودة الاستبداد ، وارتكن المستبدون وذوو السلطان إلى ما يبدو تحت أعين الأمة من سوء الحكم الديمقراطى وفساده ، واتخذوا ذلك ذريعة إلى استرجاع سلطانهم واستعادة استبدادهم ، وأعادوا الأمة إلى سيرتها الأولى يسخرونها لمنفعتهم ويستعملونها لمصلحتهم .

فإكسير الحياة للشرق الآن تحرى العدالة فى الحاكم ، وتضحية شهواته ، وتنظيم حكمه وحمل كلٍّ عبئه ، وتنفيذ واجبه فى دقة ، وإلا كان تحت خطر الفوضى التى تقدِّم للأسد الرابض حجته وصياحه من جديد بأن الشرق أُعطى حريته فلم يحسن استعمالها .

مقياس الشباب

أما الأطباء وعلماء الإحصاء فيقدرون الشباب بالسن ، فمن بلغت سنه العشرين أو قبل ذلك قليلا أو بعد ذلك بسنين فشاب وإلا فلا ؛ فتحديد السن هو مقياس الشباب ، كما هو مقياس الطفولة والهرم ، فإن شئت أن تعرف المخلوق أطفل هو أم شاب أم شيخ فأغمض عينك وعدّ السنين ، ولا تنظر إلى قوة أو ضعف ، ولا إلى صحة أو مرض .

وسار على النمط علماء اللغة ، فقالوا : ما دام الإنسان فى الرحم فهو جنين ، فإذا ولد فهو وليد ، ثم ما دام يرضع فهو رضيع ، ثم إذا قطع عن اللبن فهو فطيم ، فإذا كاد يجاوز عشر سنين أو جاوزها فهو ناشىء ، فإذا كاد يبلغ الحلم أو بلغه فهو يافع ومراهق ، ثم ما دام بين الثلاثين والأربعين فهو شاب ، ثم هو كهل إلى الستين .

ولكن هناك شاعراً أراد أن يخرج على هذه التقاليد ، وأراد أن يقيس الشباب والفتوة بالمعنى لا بالمبنى ، وبالقوة لا بالسن ، فقال :

يا عَزُّ هل لكِ فى شيخ فتىً أبدا   وقد يكون شبابٌ غيرُ فِتْيانِ ؟

فهو لا يريد أن يعترف بأقوال الإحصائيين ، ولا أقوال اللغويين ؛ فقد يسمَّى الشيخ شابا متى حاز صفات الشباب ، وقد يسمى الشاب شيخاً إذا حاز صفات الشيوخ ، فالعبرة عنده فى التسمية الصفة لا السن ، وهى من غير شك نظرة جريئة ومذهب جديد ينظر فيه إلى الكيف لا إلى الكم ، وإلى النتائج لا إلى المقدمات ، وإلى الغاية لا إلى الوسيلة ؛ فإذا عرضْتَ عليه رجلا قد ناهز الستين أو جاوزها ، قد لبس فى حياته العمائم الثلاث : السوداء ثم الشمطاء ثم

البيضاء ، وعرضت بجانبه من يسمونه شابا ، لم يلبس فى حياته إلا العمامة الأولى . ثم سألت صاحب هذا المذهب : ما قولك دام فضلك فى هذين : هذا أربى على الستين ، وهذا فى سن العشرين . فأيهما الشاب ، وأيهما الشيخ ؟ لم يستسخف سؤالك ، ولم يعده بديهية من البديهيات ، بل عده مجالا للنظر الطويل والتفكير العميق ، وقال : ليس الأمر بالسن أيها السائل ، فمن رأيته منهما متهدما قد نضب ماؤه ، وذهب رُواؤه ، وذوى عودُه ، وخَوَى عمودُه ، ورق جلده ، وانخرع متنه ، وحطمته اللذات ، وأنهكت قوته الشهوات ، حتى صار لا يحمل بعضه بعضاً ، فهو الشيخ وإن كان ابن العشرين ؛ ومن امتلأ قوة ، وبلغ كمال البنية ، واستوت قامته ، واعتدل غصنه ، وحفظت جدته ، وأحكمت مِرّته ، وتجلت رجولته ، واكتمل نشاطه ، فهو الشاب ولو جاوز الستين . إنما يلجأ إلى السن فى تحديد الشباب والشيخوخة من قَصُرَ نظره ، وضعفت قوة حكمه ، وأراد أن يعالج الأمر من أسهل طرقه ، وأقرب مسالكه ، وذلك شأن الغِر الأبله ، لا الفيلسوف الحكيم . ولمَ كنا إذا قسنا العلم وقسنا الكفاية ، وقسنا الخلق والصلاحية للأعمال لم نرجع فى شىء من ذلك إلى السن ، وإذا قسنا الشباب والشيخوخة رجعنا إلى السن ؟ ليست السن مقياس الشباب ، وإنما أحسن أحوالها أن تكون علامة الشباب ، وقد تتخلف العلامة ، كحكمنا على الرجل بالعلم لأن لديه شهادة الليسانس فى الآداب أو الليسانس فى الحقوق ، وقد يكون معه الليسانس أو الدكتوراه وليس بعالم ، كما يكون فى سن العشرين وليس بشاب . إن الشباب أو الشيخوخة معنى لا مادة ، وقد علمتنا قوانين الحياة أن المادة تقاس بمادة ، والمعنى يقاس بمعنى . فنحن نقيس الحجرة المادية بالمتر المادى ، ونكيل القمح المادى بكيلة مادية ، ونزن التفاح المادى برطل مادى ؛ ولكن من السخف بمكان أن نقيس الفضيلة أو الجمال أو القبح بمتر أو رطل أو قدح ،

فلم نقيس الشباب وهو معنى بالسن وهى مادة ؟

بل لو تعمقنا أكثر من ذلك لوجدنا أن حسن الرواء وجمال المنظر ومرح النشاط ليست هى المقياس الصحيح للشباب ، إنما الشباب مزاج ، هو محصّل لمجموع قوى نفسية ، هو حاصل جمع لصفات خلقية ، إن شئت فقل هو الإرادة قوية تعزم العزم لا رجوع فيه ، وتزمع الأمر لا محيد عنه ، وترمى إلى الغرض لا سبيل إلا إليه ، تعترض الصعابُ فلا تأبه لها ، وتخر السماء على الأرض فلا تتحوّل عنه . قد تعترف بأن هناك عقبة ، ولكن لا تعترف بعقبة كؤود ، وقد تقر بصعوبة الأمر ، ولكن لا تقر باستحالته . والشباب هو العاطفة القوية المتحمسة الصحيحة ، ومظاهر صحتها أنها ثابتة ، فليست « قشًّا » تشتعل سريعاً وتخمد سريعاً ، وليست مضطربة تذهب مرة يميناً ومرة يساراً من غير غرض يحدد اتجاهها ، وليست مائعة تحب فتذوب فى الحب ، وتغضب فتُجن فى الغضب ، إنما ألجمها بعض الإلجام العقل والمصلحة والغرض . والشباب هو الخيال الخصب الواسع الأفق المترامى الأطراف الذى يرسم الأمل ويبعث على الطموح ، ويحمل المرء على أن يتطلب لنفسه ولأمته حياة خيراً من حياتها الواقعية — هذا المزاج الذى يتجمع من إرادة قوية وعاطفة حية وخيال خصب هو الشباب ، و بمقدار قوتها وتلاؤمها تكون قوة الشباب ، و بمقدار نقصها تكون الشيخوخة ؛ فالشباب موجب والشيخوخة سالبة ، والشباب إقدام والشيخوخة إحجام ، والشباب نُصرة والشيخوخة هزيمة .

وإذا كان الناس قد اعتادوا أن يصطلحوا على علامات للشيب والشباب حسب تفسيرهم الباطل فإن لنا علامات أخرى على تفسيرنا الصحيح .

لقد جعلوا الرأس موضع أهم الأمارات ؛ فسواد الشباب و بياض المشيب أكثر ما دار عليه القول فى الشيخوخة والشباب ، وهو مركز القول فى ذلك

عند الأدباء والشعراء ، حتى ألفوا فى ذلك الكتب الخاصة ، من أشهرها كتاب « الشهاب فى الشيب والشباب » . وقد التفت مؤلف هذا الكتاب فى مقدمته إلى فكرة جليلة ، ولكنه لم يحسن تعليلها ، قال : « إن الإغراق فى وصف الشيب والإكثار فى معانيه ، واستيفاء القول فيه ، لايكاد يوجد فى الشعر القديم ، وربما ورد لهم فيه الفقرة بعد الفقرة ، فكانت مما لا نظير له ، وإنما أطنب فى أوصافه واستخراج دفائنه والولوج إلى شعابه الشعراء المحدثون » .

وعلة ذلك فى نظرى أن الحياة فى الجاهلية وصدر الإسلام لم تكن غالية ، كانت تتطلب المجد وتسترخص الموت ، غير أن المجد فى الجاهلية كان مجد الذِّكْر وحسن الأحدوثة ، والخوف من العار واتباع التقاليد ، وكان فى الإسلام ذلك ، وعند بعضهم الاستشهاد فى سبيل الدعوة و بيع النفوس لله برضاه وجنته ، فليست الحياة تستحق البكاء الطويل عليها . أما فى العصر العباسى فكانت أشبه بحياة الرومانيين ، من أهم أغراضها اللهو واللعب ، ومن أغراضها القرب إلى النساء والتحبب إليهن ، وذلك يستدعى حب الحياة ؛ فنذير الموت وهو الشيب بغيض إلى النفس ، والنساء يكرهن الشيب فيجب أن يكره ، ويعيرن به فيجب أن يبكى ، ويمدحن الشباب و يحببنه فيجب أن يرثى . لهذا كثر القول فى الشيب فى العصر العباسى وما بعده ، وقل فيما قبله .

أما علامات الشباب والشيخوخة فى نظريتنا فليس موضعها الرأس ، لأن موضعها القلب ؛ فاليأس شيخ لأن اليأس ضعف فى الإرادة وضيق فى الخيال و برودة فى العاطفة ، والشيب شيب القلب لا شيب الرأس ؛ فمن لم ينفعل لمواضع الانفعال ، ولم يعجب من مواضع الإعجاب ، ولم يستكره فى مواضع الاستكراه ، ولم ينازل فى مواضع الكفاح ، ولم يطرب للموسيقى الجميلة والمنظر الجميل ، ولم يهتج للأحداث ، ولم يأمل ولم يطمح ، فهو شيخ أى شيخ ، شاب قلبه وإن كان أسود الرأس حالكه .

إن أردت أن تعرف أشيخ أنت أم شاب ، فسائل قلبك لا رأسك : هل ينبض بالحب ، حب الجمال ، وحب الطبيعة ، وحب الفضيلة ، وحب الإنسانية ؟ وهل ينفعل لذلك انفعالا قويا فيهيم ويغار ويدافع ويضحى ؟ هل يتصل بالعالم فيتلقى أمواجه الأثيرية من الناس ، ومن الأرض ، ومن البحر ، ومن الجبل ، ومن السماء ، ثم يلقى بأشعته — كما تلقّى — على كل من حوله ، فينفعل ويفعل ، ويتأثر ويؤثر ، فهو كالقمر يتلقى من الشمس ضياء وهاجا ، ويعكسه على الأرض نوراً وضّاء ؟ هل يبادل من حوله حبا بحب ، وعاطفة بعاطفة ، وخيراً بخير ، وأحياناً شراً بشر ؟ وهل يترك العالم خيراً مما تسلمه ؟ أو أنه قلب بارد كالثلج ، جامد كالصخر ، لا طعم له كالماء ، ميت كالجماد ، مغلف كالخرشوف ؟

إن كان الثانى فشيخ ، وإن كان الأول فشاب .

قالت كَبِرْتَ وَشِبْتَ قُلْتُ لها   هٰــذا غُبارُ وَقائِع الدَّهْر

نظرة فى النجوم

مما أرثى له أن أرى الشرقيين — وخاصة سكان المدن — لا ينتفعون بسُطُوح منازلهم الانتفاع الواجب؛ فهم قلما يصعدون إليها إلا عند تركيب قوائم الراديو، أو حبال الغسيل، أو تخزين ما يستغنى عنه فى حُجَر السطح، وهم يحبون أن يلتصقوا بالأرض، ولا يحلقوا فى السماء، وينزلوا بحضيض المنازل ولا يسموا إلى أوجها.

وفاتهم أن من خير متع الحياة «سطوح المنازل» لا سيما فى جو بديع كجونا، تصفو فيه السماء فى أكثر أشهر السنة، ويهبُّ فيه النسيم العليل ليلا، ويمتد فيه البصر، وتنشرح فيه النفس؛ ولياليه بين ليال مقمرة بديعة لا تمل العين جمالها، وليال غاب فيها القمر فقامت النجوم مقامه، تناغيك وتحدثك، وتملأ قلبك روعة ونفسك حياة.

تبًّا للأعين التى تنظر دائما إلى الأسفل، ولا تنظر إلى الأعلى، ويلذ لها أن تنظر إلى المسافات القريبة وإلى ما تلمس، ولا تنظر إلى البعد السحيق والمنظر البعيد. إن العين إذا اعتادت ذلك قلدتها النفس، فلم تنظر إلى الأمل البعيد، ولم تلتذ بالطموح، ولم تسعد بالأمل، وقنعت بما هى فيه، ورضيت بالدون، وتشاغلت به، وصدها ذلك عن أن تنشد الكمال، للارتباط الشديد بين عالم الحس وعالم العقل وعالم الروح.

ولقد كان آباؤنا الأولون أكثر منا عناية بالسماء، حتى العرب فى بداوتهم أطالوا النظر فى النجوم وانتفعوا بجوهم المفتوح، وسمائهم الصافية، فعرفوا كثيرا منها، ووضعوا لها أسماءها، وكان لهم فيها ملاحظات دقيقة، وأشعار رقيقة.

أما نحن فقلّ أن نعرف من أسماء النجوم إلا الشمس والقمر ، وجهلُنا بأسماء المشهور منها جهل فاضح لا يتفق وسماءنا البديعة . وأما شعراؤنا — سامحهم الله — فأ كثرهم لا يشعر فى السماء والنجوم إلا تقليدا ، يبرّح به ألم الهجر فى غرفته المسقوفة ، وقد أغلقت شبابيكها ، وأسدلت ستائرها ، ومع ذلك يشكو النجوم وثباتها ، وهو لا يرى سماء ولا نجوما .

لو كان فى أوربا جو مكشوف دافئ كجونا ، لعرفوا كيف ينتفعون بالسماء كما انتفعوا بالأرض ، ولاتخذوا من سطوح منازلهم مقاماً للسمر الحلو والتأمل اللذيذ ، ولاتخذوا منها منتديات ومقاهى ومسارح للسينما والتمثيل وأماكن المحاضرات ، فانتفعوا بجمال الجو وجمال منظر السماء وجمال منظر السينما والتمثيل وجمال الحديث معاً ؛ ولو فعلنا لارتحنا من عناء المتسولين والجوّالين وماسحى الأحذية إلا أن يصعدوا إلينا فى السماء .

***

نعمت هـذا الشهر بسطح منزلنا ، وأ كثرت من التحدث إلى النجوم ، والإصغاء إلى حديثها ، وملت إلى قراءة شىء من أخبارها ، فملأت قلبى حياة ، وعقلى هدوءاً وأعصابى راحة .

وكنت كلما شكوت من شىء بثثت شكواى إلى النجوم فتبخرَتْ ، وكلما تدنستُ فى جو الأرض تطهرْت فى جو السماء ، فإن آلمتنى السياسة بألاعيبها وخداعها ، والأولاد بمضايقاتهم ونزاعهم ، والخدم برذائلهم ، والبيئة بمشكلاتها وصغائرها ، علوت إلى السطح وانسطحت على سجادة ، ووصلت أسباب ما بينى وبين النجوم ، فزال كل ألم ، واحتقرت كل ما ضايقنى ، وعشت فى عالم جديد لذيذ مريح ، ورأيت أنى غسلت نفسى كما يغسل الثوب فى البحر الواسع .

عظيمة هذه النجوم وجميلة وجليلة ! فإن رأيت نجوم المجرة وعلمت أنها تبلغ عدتها الملايين ، وأنها تسير بسرعة هائلة لا يتصورها الخيال ، وأن بعضها بلغ من

البعد عنا ما لا يصل إلينا ضوءه إلا فى آلاف السنين ، أيقنت بهذه العظمة ، وشعرت فى أعماق نفسك بحقارتك وحقارة شواغلك وحقارة أرضك كلها — وإن علمت أن فى السماء آلافاً من الشموس تكوّن كل شمس منها مجموعة من النجوم كمجموعتنا الشمسية ، سبحت فى عالم من العظمة لا حد له ، وتساءلت فى كثير من الحيرة والإعجاب : إلى أى طريق هى مسوقة ، وإلى أى طريق نحن مسوقون معها ؟ وقلت كما قال أبو الشبل البغدادى :

بربك أيها الفلك المدارُ أقصدٌ ذا المسيرُ أم اضطرارُ
مَدارُكَ قل لنا فى أى شىء ففى أفهامنا منـــك انبهارُ
وفيك نرى الفضاء وهل فضاء سوى هذا الفضاء به تدار ؟

ثم رددت الطرفَ خاسئاً وهو حسير ، ولكنها حسرة لذيذة لا ترضى بها بديلا.

أيتها النجوم ! كم من الناس نظروا إليك فأعجبوا بعظمتك وجمالك وجلالك، وكم من الشعراء تغنوا بك ، وتفننوا فى الإشادة بذكرك ، وعابوا عليك سرعتك أيام الوصال ، و بطئك أو وقوفك أيام الهجران !

وكم حارت فيك العقول فظنوك آلهة وعبدوك من دون الله ، وأقاموا لك الهيا كل والتماثيل ، ثم تقدموا قليلا فأنزلوك من مقام الألوهية قليلا ، وجعلوا لك أثراً كبيراً فى أحداث الأرض ! فلك أثر فى الرياح والأمطار والسعادة والشقاء ، ور بطوا مواليد الناس بك ، وجعلوا سعادتهم وشقاءهم من أجلك ؛ وحتى الفلاسفة العظام أمثال أرسطو أعمتهم عظمتك عن أن يدركوا حقيقتك ، فأسندوا إليك عقولا كباراً ، وجعلوا منزلتك فى الفكر والعقل فوق منزلة الإنسان ، وسَبَحوا فى الخيال فأسسوا نظاماً وهميا للأفلاك وتدرجها فى الأثر حتى تصل إلى عالمنا ، وخدع الناس بك فبنيت لك المراصد لمراقبة حركاتك ، وأقنع المنجمون الناس بتأثيرك فسمعوا لقولهم ، واتخذ الملوك المنجمين يعتمدون عليهم فى تدبير مملكتهم ، كما

يتخذون الأطباء لتدبير أجسامهم ، فلا يضعون بناء إلا بعد رصدهم لك و إشارتهم بأنك ستمنحين السعادة لبنائهم ، ولا يحاربون إلا برأى رجالك وتخير أوقات رضائك .

وكم شغل الناس بطوالعك ، وتخيروا أوقات زواجهم محسوبة بحسابك ، وتنبأوا — بمعونتك — بموت فلان وحياة فلان ، وأنت فوق ذلك كله لا تعبئين به ولا تلتفتين إليه . كأن أمرهم لا يعنيك ، وشؤونهم لا تهمك . وتتابعت الأجيال ومرت السنون ، وفنيت أقوام وجدت أقوام وكلهم يمنحونك إعجابهم ، وأنت فى علاك وسيرك وسرعتك دائبة أبداً .

وأتى العلم الحديث فغير فيك الأفكار ، وساواك بالأحجار ، وجعل قمرك الجميل كأرضنا غير الجميلة ، وسلب عنك العقل والفكر ، وأخضعك لنواميس الطبيعة ، وأبان خرافات الأقدمين فيك — ومع ذلك أقر بجلالك وأخذ بدقة نظامك ، وأقر بجهله أن يحيط بك ، وأن يتعرف كل قوانينك ؛ فأنت أنت أيام الجهل وأيام العلم ، وأيامنا وأيام آبائنا .

و بينا أنا فى ذلك كله ، وفوق ذلك كله ، دعانى الخادم إلى التليفون فنزلت من السماء إلى الأرض .

— آلو !

— فلان ! لعلك تذكرنى ؟

— أهلا وسهلا !

— أريد أن أقابلك !

— هل من شىء ؟

لقد تخرجت من كلية الآداب واشتغلت فى عمل لايناسبنى ، وماهية لا تليق بى ، وإخوانى كلهم خير منى ، فلى سنوات لم آخذ علاوة ، ولم أرق إلى درجة .

— نعم !

— والآن هناك حركة ترقية وأريد مساعدتك .

ثم حوار طويل ، ورجاء مستمر ، وشكوى بؤس ، وعائلة يعولها ، وماهية لا تكفيها ، ودنيا ضاقت به وبها .

***

فى أى تفكير كنت ؟ وإلى أين صرت ؟ هذه السماء ، وهذه الأرض ، أين هذا العالم العظيم السعيد الذى كنت أحلم به من هذا العالم الحقير التافه الذى نقلنى إليه التليفون ، والذى يمضى فيه أكثر الناس أكثر أعمارهم ؟ لقد غطسنى بحديثه فى ماء مثلج ، فلأصعد ثانية إلى السماء ، ولأعاود ما كنتُ فيه ... لا . لم تعد للفكر لذته ، ولا لحديث النجم متعته .

***

لقد قلب علم الفلك عقلية الإنسان رأساً على عقب ، فقد كان يظن أنه سيد العالم ، وأن أرضه هذه هى مركز العالم ، وأن الشمس والقمر والنجوم تدور حولها ، فأبان له العلم أن أرضه ليست إلا هنَةً تسبح فى الفضاء ، وأنها شىء تافه فى المجموعة الشمسية التى تدور حول الشمس ، وأن كل العالم من أرض ونجوم خاضعة لقوانين واحدة كقوانين الجذب وما إليها ، وأنه إن كانت أرضه هنة فكيف به هو ! كل هذا غيّر عقلية الإنسان وأنزله من شامخه وسلبه غروره ، فأخذ يفكر تفكيراً جديداً ، وينظر لنفسه وللعلم نظراً جديداً ، ويربط نفسه بالعالم ، ويرى أنه هو والعالم وحدة ، وأن هذه الوحدة تخضع لقوانين ثابتة استكشف أقلها وغاب عنه أكثرها ، ما استكشف منها يدل على عظمة باقيها وعمومها وسيطرتها . ولكن شيئاً واحداً لم يتغير فى الإنسان ، وهو ارتباط عواطفه بالنجوم ، وأنها تجد السبيل دائماً لقلبه ، وتوحى إليه بعظمة ربها وربه .

صفحة سوداء

رووا أن عمرو بن العاص كتب إلى عمر بن الخطاب فى وصف مصر أن : « نيلها عجب ، وأرضها ذهب ، وهى لمن غلب » .

ورووا أن عتبة بن أبى سفيان كان عاملا لأخيه معاوية على مصر ، فبلغه أمور عن أهلها ، فصعد عتبة المنبر مغْضَباً وقال : « أيا حاملين ألأم أنوف ركّبت بين أعْيُن ، إنما قلمت أظفارى عنكم لِيَلِين مسّى إياكم ، وسألتكم صلاحكم لكم ، إذ كان فسادكم راجعاً إليكم . فأما إذ أبيتم إلا الطعن فى الولاة والتنقص للسلف فوالله لأقطّعن على ظهوركم بطون السياط ، فإن حَسَمت داءكم وإلا فالسيف من ورائكم » .

وقبل هذا وذاك ، جاء فرعون « فَحَشَرَ فنادى فقال أنا ربكم الأعلى » .

وجاء أبو نواس مصر بعد ذلك فقال :

مَحَضْتُكُمُ يا أهل مصرَ نصيحتى   ألا فخُذُوا من ناصح بنَصيبِ
رماكم أميرُ المؤمنين بحيَّـةٍ   أكُولٍ لحيّات البلادِ شرُوب
فإن يك باقٍ إفك فرعونَ فيكمُ   فإنَّ عَصا مُوسى بكفٍّ خَصِيب

واشتهر المصريون عند المؤرخين بالانهماك فى الشهوات وعدم النظر فى العواقب . ولما رآهم ابن خلدون على هذه الحال قال فيهم : « كأنما فرَغوا من الحساب » يريد أنهم لا يحاسبون أنفسهم على ما يصدر منهم ، ولا يخافون من عاقبة أعمالهم ، كأنما فرغوا من الحساب .

وظل مؤرخو العرب يرمون المصريين بالذل ، وقبول الضيم فى كل

ما كتبوا ، وكان من أشدهم المقريزى فى أول خططه ، فقد عقد فصلا فى أخلاق المصريين قال فيه : « وأما أخلاقهم فالغالب عليها اتباع الشهوات ، والانهماك فى اللذات ، والاشتغال بالترهات ، والتصديق بالمحالات ، وضعف المرائر والعزمات ، ولهم خبرة بالكيد والمكر ، وفيهم بالفطرة قوة عليه ، وتلطف فيه ، وهداية إليه » . ثم رماهم بالذل ، وأخذ يحصى الأقوال فى ذلك ؛ فروى عن كعب الأحبار أن « الخِصْب قال : أنا لاحق بمصر ، قال الذل : وأنا معك . وقال الشقاء : أنا لاحق بالبادية ، فقالت الصحة وأنا معك » ، وروى أن ابن القِرِّيّة وصف أهل مصر فقال : « عبيد لمن غلب ، أكيس الناس صغاراً ، وأجهلهم كباراً » .

وجاء بعده السيوطى فلم يخجل من أن يضع فى كتابه « حسن المحاضرة » فصلا عنوانه « السبب فى كون أهل مصر أذلاء يحملون الضيم » وقد جاء فيه « أن الشيخ تاج الدين كان يقول : إن الحكماء وأهل التجارب ذكروا أن من أقام ببغداد سنة وجد فى علمه زيادة ، ومن أقام بالموصل سنة وجد فى عقله زيادة ، ومن أقام بدمشق سنة وجد فى طباعه غلظة ، ومن أقام بمصر سنة وجد فى أخلاقه رقة وحسناً » والرقة والذل قريب بعضهما من بعض . وقال القاضى الفاضل : « أهل مصر على كثرة عددهم ، وما ينسب من وفور المال إلى بلدهم ، مساكين يعملون فى البحر ، ومجاهيد يدأبون فى البر » .

ويذكرون الذل على أنه حقيقة ثابتة ثم يختلفون فى السبب فى ذلك : فمن قائل إن المصريين غاظوا يوماً سعد بن أبى وقاص ، فدعا عليهم أن يضربهم الله بالذل ، وسعد عرف بإجابة الدعوة .

إن كان ذلك فالخطب هين ، فمن الممكن أن يجتمع صالحو مصر وزُهّادها فيقرءوا الفواتح والدعوات وما تيسر من القرآن الكريم ، ويهبوها لروح سعد ويطلبوا إليه أن يعدل عن دعوته ، ويطلب إلى الله تعالى أن يرميهم بالعزة بعد

الذل . وما أظن سعداً يصر على دعوته ، وقد عرف فى حياته بالسماحة والسؤدد .

ومن قائل : إن فرعون لما غرق كان معه أشراف القوم وأعزتهم ، فلما غرق غرقوا معه ، فلم يبق إلا الحثالة ، فأتى من نسلهم الجبناء الأذلاء . وهل ينتج الذليل إلا الذليل ؟ وهذا القول أيضاً سهل رده ، فالمصريون قد نزل بين أظهرهم كثير من سادة اليونان والرومان ، وسادة العرب وسادة الأتراك ، وذابوا فى مصر واختلطوا بأهلها ؛ فلمَ يغلب الذل العزة وعهدنا دائما غلبة الأعزاء ؟

أخطر الأسباب ما يلمح إليه الماكر « المقريزى » فهو يريد أن يبعث فى النفوس اعتقادا بأن هذا سبب طبيعى يرجع إلى الإقليم و إلى الجو ، وإلى طبيعة الأرض ؛ هو يريد أن يقول إن ذلك خلقة فيهم ، بل هو فى كل شىء حولهم فيقول : « إن هواء مصر يعمل فى المعجونات وسائر الأدوية ضعفاً فى قوتها ، فأعمار الأدوية — المفردة والمركبة ، المعجون منها وغير المعجون — بمصر أقصر منها فى غير مصر » وأشد من ذلك وأصرح قوله : « إن قوى النفس تابعة لمزاج البدن ، وأبدانهم سخيفة سريعة التغير ، قليلة الصبر والجلد ، وكذلك أخلاقهم يغلب عليها الاستحالة والتنقل من شىء إلى شىء ، والدعة والجبن ... ومن أجل توليد أرض مصر الجبن والشرور الدنيئة فى النفس لم تسكنها الأسد ، وإذا دخلت ذلت ولم تتناسل ، وكلابها أقل جرأة من كلاب غيرها من البلدان ، وكذلك سائر ما فيها أضعف من نظيره فى البلدان الأخر ، ما خلا ما كان منها فى طبعه ملاءمة لهذه الحال كالحمار والأرنب » .

قول قاس أيها المؤرخ ! ولو صح ما قلت لكان حكما أبديا صارماً ؛ فإن لنا طاقة بتغيير كل شىء إلا الجو والإقليم فماذا نصنع فيهما ؟ لو كان صحيحاً قولك لاستوجب اليأس فى الإصلاح ، فما تفلح أمة ضرب عليها الذل والخضوع ، بل لوجب الرحيل من بلد يسمم جوه دائما أخلاق أهله .

وقديما قال الشاعر :

« وإذا نزلتَ بدارِ ذل فارحلِ »

أخشى أن تكون متأثراً بآراء شيخك ابن خلدون ، وقد كان فى طباعه حدة وعنف ، وفى المصريين دعة ، فنظر إليها بطبعه الحاد نظرة فيها إفراط وفيها مبالغة . لو كانت نظريتك صحيحة لما تعاقبت الذلة والعزة على الأمة الواحدة ، فتعز بعد ذلة ، أو تذل بعد عزة ، والجو واحد والإقليم واحد . وإن فى تاريخ مصر نفسها صفحات بيضاء تتجلى فيها العزة بأجلى مظاهرها . الحق — ياسيدى — أن الإقليم عامل ، ولكن ليس كل عامل ، فإذا كان الجو سماً فالتربية والتعليم ترياق . ألا ترى إلى مثلك نفسه ؟ فقد ذكرت أن الأدوية والمركبات والمعاجين يسرع إليها الفساد فى مصر لسوء الجو — لو عشت إلى عصرنا لعلمت كيف تغلّب العلم على الإقليم ، وصار من المستطاع فى يسر وسهولة أن يحفظ الدواء — بأبسط المعالجات — فى مصر كما يحفظ فى أوربا ، وأن التربية كذلك تفعل فى النفس الأعاجيب ، وكل ما نستطيع أن نستفيده منك أنك نبهتنا أنت وأمثالك من المؤرخين إلى أن فى مصر جبناً وفى مصر ملقاً ، إلى هنا نقبله منك ، لا لنستسلم له ، ولا لنقر أنه طبيعى فينا ، ولكن لنريك الأمثال على خطأ تعليلك ولننبهك إلى نظرية ثبتت حديثاً ، وهى : أن الأمم المبتدية الساذجة هى أكثر استسلاماً للطبيعة وشؤونها ، والأمم المتحضرة تستطيع بعلمها وتربيتها وقوة عقلها أن تسخر الطبيعة لمصلحتها ، لا أن تخضعها الطبيعة لأمرها . فنحن نستطيع أن نستفيد من وداعة الطبيعة فنكون وديعين إلى حد ، فإذا أرادت أن تتجاوزه إلى نفاق وملق وجبن قالت التربية « لا » بملء فيها ، وحق للتربية إذا قالت « لا » أن يكون « لا » .

وعبت كلاب المصريين بالضعف ، ويظهر أنك لم تر كلاب « أرمنت »

وما هى عليه من بسطة فى القوة والجسم ، ولو قدّر عليك أن ينبحك واحد منها ما سلمت بجلدك ، ولغيرت حكمك .

لقد أحسستَ بأن تعميم نظريتك خطأ بين ، فاستدركت وقلت : « ومن المصريين من خصه الله بالفضل وحسن الخلق وبرأه من الشرور » أليس هذا — يا سيدى — نقضاً لقولك وتسليما لقولنا ؟ فأنت تعلم أن « ما بالطبيعة لا يتخلف » ولو كان الذل ينفثه الإقليم وحده ، لما رأيت شاذا من الشواذ . ألا ترى أن فعل الطبيعة فى الأدوية — بإسراع الفساد إليها — مطرد ، ومطرد دائماً ؟ فإذا اختلف الناس فى الجبن والعزة والملق والصراحة ، فهناك عامل آخر أقوى وهو عامل التربية نستطيع به أن نتغلب حتى على قوانين الطبيعة .

أرجو ألا يسمح الجيل الجديد والأجيال القادمة لمؤرخيهم أن يؤرخوهم كما أرخهم المقريزى والسيوطى .

هُمـــا

« هما » إنسانان متباينان ، لا يجمعهما إلا أنى عرفتهما .

أما « هو » الأول ، فنظيف الثوب فى غير أناقة ، لا يعنيه من ثيابه إلا أنه لا يتأذى بقذارتها ، ولا يتأذى من أنها زاهية تلفت الأنظار ؛ قد طبع على ما يود ، فلا هو جميل يقيد النظر ، و يخترق البصر ، ولا هو قبيح الشكل سمج المنظر ، تتفاداه العيون ، ويلفظه الطرف ، لو عهد إليه أن يخلق نفسه ما اختار غير صورته وشكله ، لأنه يأبى تكاليف الجمال وتكاليف القبح .

كثير التفكير فى نفسه ، كأن الله لم يخلق فى العالم إلا هى ، و إن كان قد خلق أشياء فنفسه مركزها ، دائم المحاسبة لنفسه على ما صدر منها للناس ، ودائم المحاسبة للناس على ما صدر منهم لنفسه ؛ ففى نفسه محكمة منعقدة باستمرار ، تطول فيها المرافعة ، ويشتد فيها الخصام ، وتكثر منها الأحكام ، والنقض والإبرام . حدثنى أنه إذا جلس فى مجلس استعرض بعد الفراغ منه كل ما دار فيه على الترتيب ، كأن ذهنه « شريط ماركونى » ثم وقف عند كل كلمة صدرت منه يفحصها : هل مست شعور أحد ، هل ظلمت أحدا ، هل جرحت كرامة أحد ، ألم يكن غيرها خيراً منها ، أما كان يحسن أن يقال فى مثل هذا الموقف غير هذا الكلام ؟ ووقف عند كل كلمة قالها غيره يحللها : ماذا يريد منها ؟ لقد جرح إحساسى بها ، لقد كان يلتفت إلىّ عند قولها ، وما سبب ذلك والعلاقة بينى و بينه على خير ما يكون صديق لصديقه ؟ لا بد أن يكون قد تأثر من كذا وغضب من كذا ، ولكن إن كان هذا فلا حق له لأنه لم يفهم قصدى ولم يتبين غرضى .

فإذا أتم ذلك وأوى إلى فراشه بدأ يعيد الشريط من جديد ، ويعلق على الحوادث تعليقات جديدة ، ويفسرها تفسيراً جديداً ، حتى يدركه النوم ، وقلّ ألا يحلم بما حدث ، وقلّ ألا تأتيه الرؤيا بتفسيرات جديدة وتعليقات جديدة .

من أجل هذا يفر من الناس ، ويفر من المجتمعات ، حتى لا تكثر الأشرطة فيكثر عرضها ، والتعليق عليها ؛ فقل أن أجاب دعوة مع كثرة ما وجه إليه من دعوات ، لأنه مع هذا ليس ثقيل الظل ولا جامد النسيم ؛ فإذا اضطر إلى دعوة ذهب إليها كارهاً ، وحسب حساب كل كلمة يتكلمها ، وكل حركة يتحركها قبل أن يقدم عليها ، تفضيلا للحساب العاجل على الحساب الآجل ؛ فقلّ أن يأخذ الناس عليه غلطة مع كثرة ما يتوهمه هو من غلطات .

أداه التفكير الكثير في نفسه إلى أن يكون عميق التفكير في كل مايعرض عليه ؛ فإذا عرض أمر قلبه على جميع وجوهه ، وغاص في نواحيه ، واستخرج منها أدق الأفكار وأصعبها وأعقدها . وشغف بالعلم فكان دائب الدرس كثير الاطلاع ، تثقف بالثقافة الإنجليزية فهو يتكلمها ويقرؤها كأحد أبنائها ، وسمع بعمق التفكير الألماني فعكف على اللغة الألمانية حتى حذقها ،وحدثه الأدباء بالأدب الفرنسي وبما فيه من دقة في تحليل العواطف وإجادة الوصف ، فدرس اللغة الفرنسية حتى أجادها ،وتضلع من آداب اللغات الثلاث ، وعرف أشهر ما كتب فيها ، فإذا حدثك في أي ناحية منها أبان لك عن علم واسع ومعرفة دقيقة ، هذا إلى لغته العربية ومعرفته بها كأنه متخصص فيها ؛ ثم هو بعدُ لا يرضى عن نفسه ، فهو دائم الدرس ، دائب العمل ، كلما قطع شوطاً طمح إلى ما هو أرقى منه ؛ فكأنه ومطامحه كالفرس وظله يجري دائماً ليسبقه ، وهيهات أن يلحقه .

وهو مع كل علومه وكل لغاته وكل عمقه خامل مجهول ، لا يعرف حقيقته

إلا خلصاؤه ؛ إن جلس مع غيرهم فعيّ جهول لا يشاركهم فى جدل ، ولا يفضى إليهم بحديث ، يعرف مواضع السخف من قولهم ، ومواضع النقص فى تفكيرهم ، ويتظاهر بأنه لا يعى ما يقولون ، ولا يرق إلى ما يفكرون ويجادلون ، يتغابى وهو الذكى ، ويتعايى وهو الفصيح .

لا يعبأ بالمال إلا بمقدار ما يعيشه عيشة نظيفة فى غير ما ترف ولا سَرف .

ثم هو — غالباً — لا يحب رؤساءه ولا يحبه رؤساؤه ، فهو لا يحبهم لأنه يتطلب فيهم كمالاً لا تسمح به الدنيا إلا نادراً ، ويقيس الكمال بمقياس محدود معين ، مع أن للكمال مناحى مختلفة . وقد يُتَسامح فى نقص يستره كمال ، ويُغتفَر ضعفٌ تسنده قوة ، ولكنه فى تقديره يجسم النقص ، ويكبر الضعف ويريد فى رئيسه الكمال صرفاً ، والقوة خالصة ، فكأنه يريده نبيًّا أو إلٰها ، وأنَّى له بذلك ؟ فهو فى نقد لرؤسائه مستمر ، وتجريح دائم ؛ وأما هم فيكرهونه لأنه حنبلى فى تصرفه ، متزمت فى خلقه ، صريح لا يلطف صراحته بلباقة ، شديد لا يمزج شدته برقة . التصرف عنده كالخط إما أن يكون مستقيما أو أعوج ولا وسط بينهما ، لا يأتمر بأمر رئيسه ولا ينتهى بنهيه متى خالف قانوناً ؛ والقانون عنده هو القانون الحرف الذى لا يحتمل تفسيراً ولا تأويلا . من أجل ذلك تَعاقب عليه رؤساء مختلفون ، وتنقل من مصلحة إلى مصلحة ، والنتيجة واحدة دائماً فى نظرهم إليه ونظره إليهم ؛ حتى لقد كان رئيسه يوماً ما أقرب الناس إليه وأعرفهم به ، ورجوت السعادة له أيام رياسته ، فما لبثت أن رأيت الصداقة استحالت إلى فتور فكراهية ، ثم كان أعدى له ممن لم يكن يعرفه .

* * *

أما « هو » الآخر فجميل الصورة ، ظريف الهيئة ، حسن الحِلية ، ممتلئ البدن ، ريان الجسم ، واسع البطن ، أنيق الملبس إلى آخر حد الاناقة ،

دقيق الذوق فى تناسب الألوان ، وتناسق الأشكال ، حتى يعد حجة فيما يلبس وما لا يلبس ، وما يتناسب وما لا يتناسب ، لأنه خبير بأحدث الأزياء ، بل هو فيها مخترع فنان ، يحدثك حديثا مستفيضاً عن خير الخياطين ومزاياهم وعيوبهم ومواضع الإجادة والعيب فيهم .

وشىء آخر يجيد ذوقه ، ويجيد التحدث فيه ، ويجيد وصفه ويجيد نقده ، وهو الطعام والشراب ؛ فإن أردت أن تعرف لوناً من الطعام لا يناسب لوناً أو أردت حديثاً شهيا عن طعام شهى أو عن المائدة وكيف تنظم ، وعن بيوت مصر وما يجيده كل بيت من الأصناف ، فهو فى ذلك الذى لا يبارى ، وله فوق ذلك العلم الدقيق الواسع فى صنوف الشراب ، فأيها قبل الأكل ، وأيها على الأكل وأيها بعد الأكل ، وأى ألوان الشراب يصح أن تجتمع وأيها لا يصح ، وأى أنواع الشراب تجيده فرنسا ، وأيها تجيده ألمانيا وأيها أسبانيا — بل كل هذه معلومات أولية بالنسبة إليه ، فعنده ما هو أدق فى ذلك وأعمق .

هذه هى الدنيا وهذه هى الحياة ، وهل أنت آخذ من دنياك إلا ما طعِمت وما شربت وما لبست ؟

وله كذلك حديث طريف عن النساء وأوصافهن ؛ فهو يجيد الحديث عن سحر العيون ، ورشاقة القد ، ولطافة التكوين ، وبراعة الشكل ، وهَيف القوام إلى آخر ما هنالك ، ثم يتبع هذا بالكلام على مغامراته وما شاهده فى حياته ، كأنه كان له فى كل خطوة حادثة نسائية ، وفى كل سفر عشق ، وفى كل مجتمع غرام . والعشق العفيف ، والهوى العذرى والحب الأفلاطونى ألفاظ جوفاء ، لاتدل على شىء إلا على جنون قائلها أو ريائه . ينظر للمرأة نظر الأفعى للعصفور ، وله من وسائل الإغراء ونَصْب الشباك ، ورسم الخطط ما يعجز عنه القائد الماهر والصائد الحاذق ؛ فما هو إلا أن يضع عينه على فريسته حتى يخلق من الحركات

والأفاعيـل والأحاديث ما يلفت النظر ، وإذا هو فى حديث جـذاب مع من أحب .

وإلى هنا ينتهى علمه الواسع وقدرته الفائقة .

ثم ما الخلق وما الفضيلة وما الحق ؟ ليست إلا كلمات اخترعها الأقوياء ليستغلوا بها الضعفاء . ولا بأس من استعمالها أحياناً متى جلبت خيراً أو دفعت ضَيراً ، ولم يخلق الله أسخف ممن يزعمون أنهم يتمسكون بمبدإ ؛ فليس فى الدنيا مبدأ صحيح إلا المبدأ القائل « الغاية تبرر الوسيلة » على أن تفسر الغاية بغايتى لاغاية غيرى ؛ فـكن «وفديا» فى دولة الوفد ، و«شعبيا» فى دولة حزب الشعب ، و « حراً دستوريا » فى دولة الأحرار الدستوريين ، والعن فى كل دولة أعداءها ، وتغنَّ بمناقبها متى كان هذا ينيلك « درجة » أو على الأقل « علاوة » ، واجعل مبدأك مشايعة الزمان ، تقبل على من أقبل عليه ، وتدبر عمن أدبر عنه ؛ ولا تأخذ شيئاً « جدا » فما الحياة إلا لهو ولعب ، فإن استطعت أن تجعلها كلها « مزحة » أو « نكتة » فافعل فهكذا خلقها الله .

صادفته يوما فى فندق فلما نزل إلى البهو استرعى نظر الناس بشكله وأناقته ولباسه وأمره للخدم ونهيه ، وتحدث بصوت عال قليلا ، فإذا ضحكٌ يتصاعد من هنا ومن هنا ، وإذا الصوت يرتفع شيئا فشيئا والتفات الناس يزيد شيئا فشيئا ، وإذا الحديث جذاب ، وإذا هو محور من فى المجلس وقيد أبصارهم وآذانهم .

وشأنه فى « المصلحة » التى يعمل فيها شأنه فى الفندق ، كعبة القصّاد ونجعة الرواد ، يقضى الحاجات لتُقْضى حاجاته ، وينفذ أغراض من هو أكبر منه لينفذ أغراضه من هو أصغر منه ، وهكذا اتخذ « وظيفته » تجارة ، يحسب فيها فى دقة ما يشترى وما يبيع ، وما يدخل وما يخرج ، ومقدار الرصيد ، وبكم هو دائن وبكم هو مدين .

لعل الذى جعل من الإنسان ذكراً وأنثى ، وجعل منه من يميل إلى الشعر والخيال ، ومن يميل إلى الحقيقة والواقع ، جعل الناس كذلك أحد هذين الرجلين، وكل ما فى الأمر أنه قد يكون « هو » الأول صرفا أو «هو » الثانى صرفا ، وقد يكون خليطاً منهما ، مزيجا بينهما . هما رجل الآخرة ورجل الدنيا ، ورجل الفلسفة ورجل المادة ، ورجل الأخلاق والمبادئ ، ورجل المصالح والمنافع .

الصدق فى الأدب

شاع فى الأدب العربى القول المأثور : « أعذب الشعر أكذبه » ويقول ابن رشيق القيروانى فى العمدة : « من فضائل الشعر أن الكذب الذى اجتمع الناس على قبحه حسنٌ فيه » ، وهكذا نجد فى كتب الأدب كثيراً من هذه الأقوال.

ويمكن تفسيرها بأحد أمرين أو بهما معاً :

(١) أن الشاعر فى كثير من مواقفه يعتمد على المبالغة والغلو فيها كقول أبى نواس :

وأخفْتَ أهل الشرك حتى إنه لتخافك النطفُ التى لم تخلق

وقول أبى تمام :

فقد بَثَّ عبدُ الله خوفَ انتقامه على الليل حتى ما تَدِبُّ عقاربُهْ

وقول الخبز أرزى :

ذبت من الشوق فلو زُجَّ بى فى مقلة النائم لم ينتبه

وكان لى فيما مضى خاتم فالآن لو شئت تمنطقت به

ونحو ذلك كثير.

والذى أرى أن المبالغة ليست كلها كذباً ولا كلها صدقاً ؛ فلو كان الممدوح شجاعاً فجعل الشاعر له جرأة كجرأة الأسد لم يكن كاذباً ، ولو كان العاشق هزيلا فبالغ الشاعر فى وصفه حتى جعله لا يُرَى إلا من صوته لم يكن كاذباً ، وقد عبر الله تعبيرات من هذا القبيل فقال فى وصف الرعب والخوف : « وبلغت القلوب الحناجر » فأما إن كان الممدوح بخيلا فجعله الشاعر سحابا فياضاً ، أو عاشقاً

سميناً فجعله كعود الخلال ، أو جباناً رعديداً فجعله أسداً مقداماً ، فكل هذا كذب صريح يثير السخرية بالممدوح لا الإعجاب .

(٢) والمعنى الثانى أن الشعراء يوصفون بالكذب لأنهم ينسبون إلى أنفسهم أعمالا جليلة لم يأتوا بها ، ويزعمون مزاعم لا تستند إلى حقيقة ، ثم يهجون فيصفون المهجو بكل رذيلة ، ويعزقون الأعراض . ويقدحون فى الأنساب ، ويتعرضون للحُرَم ، وهؤلاء هم الذين عناهم القرآن بقوله : « والشعراء يتبعهم الغاوون ، ألم تر أنهم فى كل واد يهيمون ، وأنهم يقولون مالا يفعلون ؟ »

لكن ليس هذا ولا ذاك من الشعر الراقى فى شىء ، فلا الغلو فى المبالغة ولا نسبة شىء إلى غير فاعله مما يزين الشعر ، وإنما نشأ قولهم : « إن أعذب الشعر أكذبه » من تصور ناقص لمعنى الشعر . لقد كان الشعر عندهم يجول أكثر ما يجول فى المدح والهجاء ، ورأوا أن هذا المدح وهذا الهجاء لا يجودان بذكر الحقيقة المجردة ؛ إنما يجود المدح إذا جعل الشاعر من الحبة قبة ، ويجود الهجاء إذا قال الشاعر فأفحش ، وسب فأقذع ، ولكن عفى الزمان على هذه النظرية ، وأصبح هذا النوع من أحط أنواع الشعر ، وأقلها استحقاقاً لاسمه . فالشعر كما يقول (وِرْدْسْوِرْث) : « هو الحق ينقله الشعور حيا إلى القلب » وكما يقول (رَسْكن) : « الشعر إبراز العواطف النبيلة عن طريق الخيال » .

وليس هذا مقصوراً على الشعر ، فكل الأدب من هذا القبيل ، وتعريفا وردسورث ورسكن هما تعريفان للأدب جميعه لا للشعر وحده .

فالذى أرى أن رسالة الأديب هى من جنس رسالة الفيلسوف ، كلاهما يرمى أو يجب أن يرمى إلى إبراز الحقيقة ونقلها إلى السامع أو القارئ . وغاية ما بين الفيلسوف والأديب من فرق أن الفيلسوف ينقلها إلى عقل السامع أو القارئ ، والأديب ينقلها إلى قلبه . ومن أجل هذا يستعين الفيلسوف بالمنطق وما يتبعه

من مقدمات محكمة ونتائج مستلزمة ، فهى بالعقل أليق . والأديب يؤدى الحقيقة من طريق الخيال الجميل والأسلوب الجميل ، لأنهما بالقلب أليق .

والصدق بمعناه الواسع وبكل ما تحتمله الكلمة من معنى مجال للأدب وشرط من شروط قوته ؛ فلو عبر امرؤ القيس عن شعوره نحو المرأة أو عبر أبو نواس عن شعوره نحو الخمر ، فهو أدب صادق قوى ، وإن كانت الأخلاق الاجتماعيـة لا ترضى عن النحو الذى سلكاه فى التعبير ، ولـكنه من الناحية الأدبية أدب صادق قوى . وإن شعَر شاعر فى الورع والزهد ولـكنه فى نفسه ينطوى على دعارة وفجور ، لم يكن شعره صادقاً ولا قويا وإن رضيت عنه الأخلاق الاجتماعية . نعم إن الأدب الذى ينبعث عن عاطفة إنسانية نبيلة أرقى وأسمى ؛ ولـكن ما دمنا نتكلم فى دائرة الصدق ، فكل ما يصف عواطف الإنسان أدب صادق .

والصدق يمنح الأدب قوة ، لأن الأديب إذا عبر عما تكنه نفسه ويختلج به قوله أقوى تأثيراً ، وأشـد حياة . والأديب الحق هو من تأثرت نفسه بالحياة ومظاهرها تأثراً خاصا يتفق ونفسيته ومزاجه ، ثم هو يحاول بأدبه أن ينقل هذا التأثر إلى الناس ، ويجعلهم يشعرون بما يشعر وينفعلون بما ينفعل ؛ فإن هو لم يتأثر وحاول أن يؤثر كان أديباً زائفاً ، وكان الفرق بينه وبين الأديب الحق كالفرق بين النائحة الثكلى والنائحة المستأجرة .

وهذا الصدق فى التعبير هو الذى يسبغ على الأدب مسحة الخلود ؛ فالشعر الذى قيل فى المديح والهجاء أقل قيمة وخلوداً مما قاله الشعراء فى وصف عواطفهم ؛ فرثاء ابن الرومى لولديه أبقى من هجائه لخالد بن قحطبة ، واعتداد المتنبى بنفسه فى شعره أقوى من مدحه لغيره .

بل مالنا نذهب بعيداً ونحن نرى من الكتاب المحدثين من توزع أدبهم

بين أدب سياسى وأدب قومى أو عالمى ؟ فأما كتابتهم السياسية فقيمتها وقتية لا تقدر كثيراً إلا فى ظرفها و بيئتها وزمانها ، وأما أدبهم القومى أو العالمى فكثير منه يستحق الخلود والبقاء ، صالح لأن يقرأ و يردد على اختلاف الزمان والمكان .

* * *

كتب كاتب أمريكى فقال : « يسألنى كثير من الشبان أن أضع لهم مبادئ تساعدهم فى الكتابة ، فلهم أقرر هذا المبدأ وهو : « اكتب فى الموضوع الذى تجيد معرفته والشعور به . ثم اكتب ولا تنظر أى نظر لما تحدثه كتابتك من نتيجة وأثر ، وكل ما يجب أن تعنى به أن تعتقد أن ما تكتبه حق ، ولتكن نتيجته ما تكون ، وليكن مرشدك فى كتابتك الحياة ، ولا تخش من نقد يوجه إليك إلا من ناحية أنه حق أو ليس بحق » .

وهـذا القول صحيح كل الصحة من حيث نصحه للكاتب ألا يكتب إلا ما يعتقده الحق ، ولـكنه غير صحيح من حيث ألا ينظر إلى ما يترتب على عمله من نتائج . فإن أراد أن الكاتب لا يهتم بنقد ناقد له من جهة الأسلوب ومن جهة العيب عليه والازدراء به ونحو ذلك ، فهذا صحيح إلى حد كبير ؛ فمتى أرضى الكاتب ضميره وعنى بالموضوع بحثاً ودرساً و إخراجاً فلا ضير عليه من نقد الناقدين ، وعليه ألا يخشى بأسهم ، وأن ينتفع بما يوجه إليه من نقد صحيح . أما إن أراد هذا الناصح أن الكاتب يجب ألا يهتم إلا بقول الحق من غير نظر إلى الموضوع الذى يكتبه وما يترتب على كتابته فيه من نتائج فغير صحيح ، إذ ليس كل حق يقال ، وليس يقال الحق للناس جميعاً فى أدوار حياتهم المختلفة ؛ فالكاتب الحق أو الفنان الحق يجب أن يسائل نفسه عن مقـدار العواطف التى تثيرها كتابته أو فنه ؛ فهناك قوم مرضَى بأعصابهم . ومرضَى بشهواتهم ، ومرضى بحياتهم العقلية والاجتماعية ، ومن الخطر أن يغذى هؤلاء بأنواع من الأدب تزيد فى هياج

أعصابهم وشهواتهم ، وإن كان ما يقال حقا وصدقاً . فنحن إذا طالبنا الأديب ألا يقول إلا الصدق فنحن نطالبه أيضاً — لا من الناحية الأدبية بل من الناحية الاجتماعية — ألا يقول إلا الصدق الذى يتفق والصالح العام .

وربما خفى هذا الرأى على بعض الكُتّاب ، فتعرضوا لشرح مخاز اجتماعية فى رواياتهم أو مقالاتهم ، واحتموا بأنهم يقولون صدقاً ، ويصفون واقعاً ، أو كما يفعل بعض كتاب السياسة ، لا يتحرجون من أن يقولوا كل ما يعلمون عن خصومهم ، واكتفى شرفاؤهم بالوقوف عند الصدق ، واعتقدوا أنهم ما لم يختلقوا فقد أرضوا ضمائرهم وبرّؤوا بأنفسهم .

وهذا وذاك خطأ بيّن ، فكم من الحقائق لا يصح ذكرها ولا عرضها عرضاً أدبيا ، وإذا قيلت أو عرضت فلا تقال لكل إنسان وفى كل زمان ، وخير الكتاب من لم يعرض من مظاهر الحياة إلا لما يصح عرضه ، واتجه فى حياته الأدبية إلى أن يصور المثل الأعلى للحياة فى صورة واقعية ، وسخر قلمه ولسانه وعواطفه لخدمة القومية والإنسانية .

لحظات التجلى

لكثير من الناس — وخاصة العقليين والروحانيين — لحظات تضئ فيها نفوسهم ، حتى كأنها المرآة الصافية ، أو الشعلة الملتهبة ، كل جانب فيها مضىء ، وكل العالم منعكس عليها ، يراه فيها كما يرى السماء فى الماء .

يحس بهذا الأديب ، فتراه حيناً وقد غزرت معانيه ، وتدفقت عليه من كل جانب ، حتى ليحار فى الاختيار ، ماذا يأخذ وماذا يذر ، وبم يفضل بعضها على بعض ، وحتى كأنه يغترف من بحر ، أو يملى عن حفظ ، ويصدر عنه إذ ذاك القول السلس والمعانى الغزيرة ، والشعر المتدفق ؛ هذه اللحظات هى « لحظات التجلى » . وتأتى عليه أوقات وقد جمدت قريحته ، وأجدب فكره ، يعانى فى البحث ما يعانى ، ثم لا يأتى إلا بحمأة وقليل ماء ، ويصعب عليه القول كأنه يمتح من بئر ، أو يستنبط من صخر .

ويحس بهذا الفيلسوف ، فيشعر بلحظات تنكشف فيها جوانب من حقيقة هذا العالم فيراها ، ويستلذها ، ويود أن تدوم ، بل يود أن تعاوده الفينة بعد الفينة ، ويتمنى أن يشترى عودتها بكل ما ملك ، وينفق فى ساعة منها كل متع الحياة الدنيا ؛ يشعر فى هذه اللحظات بذكاء فى الفهم ، وصفاء فى النفس ، ولطافة فى الحس ؛ تكفيه فى فهم هذا العالم الإشارة ، وتجزئه الإيماءة ، يستشف العالم من وراء مظهره ، ويلمحه من رموزه ، ويشعر إذ ذاك بسمو فى العقل ، ورق فى الروح ، لا يعدل لذتهما شئ فى الحياة .

ثم تذهب عنه لحظات التجلى على الرغم منه ، فإذا به فى بعض أوقاته مظلم الحس ، متخلف الذهن ، بليد البصيرة ، لا يتنبه للحن ، ولا يفطن لمغزى ،

تستعجم عليه المدارك الظاهرة ، وتَخْفى عليه الأشباح الماثلة .

وتختلف لحظات التجلى عند الفلاسفة والصوفية كثرة وقلة ، كما يختلف مدى التجلى بعداً وقرباً ، حتى ليحكى عن «أفلوطين» الفيلسوف الروحانى المشهور أنه حظى بهذه اللحظات بضع مرات فى حياته ، وحظى بها تلميذه « فورفوريوس » مرة واحدة .

وتعرض للفنان فيلهم معنى يصوره بريشته أو يوقع به على قيثارته ، فَثَمَّ الإبداع والجمال الرائع ، والحسن البارع ، ذاك يملأ العين حسناً بصورته ، وهذا يملأ السمع والقلب عذوبة بنغمته ، ثم تأتى على هذا وذاك أوقات ينضب فيها معينهما ، ويفتر عنهما وحيهما .

وترى العلماء من رياضى وطبيعى وكيمياوى ، يرزق أحدهم الحظوة بلمحة من هذه اللحظات ، يلهم فيها فكرة يكون من ورائها مُخترَعٌ عجيب ، أو استكشاف خطير ، عرض له أثناء بحثه ، وقد لا تكون هناك علاقة ما بين ما يبحث فيه وبين ما أُلْهم ، بل قد لا تكون هناك مقدمات منطقية مطلقاً لما أُلهم ؛ ويقف العلم حائراً لا يستطيع أن يعلل كيف نشأت فى ذهن هذا العالم تلك الفكرة ، وكيف فطن لها ، بل يحار المستكشف نفسه كيف عرضت له وكيف أُلهم بها .

وبعدُ فهل يمكن أن نضع قوانين لهذه اللحظات ؟ وهل هناك عوامل معروفة إذا استوفيت أمكننا اقتناؤها والحظوة بها ؟ وهل يمكن أن نجمع هذه الشروط فى زر كهربائى أو زر روحانى نفتحه فنفتح علينا لحظات التجلى إن شئنا ؟

لو استطعنا هــذا لتضاعف الإنتاج الأدبى والعلمى فى هذا العالم أضعافاً مضاعفة ، ولسهل على الأديب أن يستوفى الشروط ، فما هو إلا أن يمسك بقلمه فيغزر ماؤه ، ويسيل أَتِيّه ، وتنثال عليه الألفاظ والمعانى انثيالا .

لقد حاولوا من قديم أن يستكشفوا قوانين « التجلى » فقالوا : إن مما يعين عليه جودة الغذاء ، وفراغ البال من هموم الحياة ، وصحة البدن ، وطمأنينة النفس ، واستعانوا على نيل لحظات التجلى بمختلف الألوان ، فقد قيل لكثير عزة : يا أبا صخر ، كيف تصنع إذا عسر عليك قول الشعر ؟ قال : أطوف فى الرِّباع المُخْلية ، والرياض المعشبة ، فيسهل علىّ أرْصنه ، ويسرع إلىّ أحسنه ، وقال الأحوص :

وقد تَشْعَفُ الأيفاعُ مَنْ كَانَ مُقْصِدًا ⁽¹⁾ ... وأشْرَفْتُ فى نَشْزٍ من الأرض يافِعٍ

ولجأ الأدباء من قديم إلى الأزهار والرياض ، والمياه الجارية والمناظر الجميلة ، كما لجأ بعضهم إلى الخمر يستلهمها ويستوحيها ؛ وتكاد تكون لكل أديب عادة يرى أنها علة غزارته ، ومفتاح إنتاجه ، وأنه يستنزل بها العُصْم من الأفكار ، ويستسمح بها الأبى من المعانى ؛ ولكن هل نجحت كل هذه المحاولات فى استكشاف قوانين التجلى ؟ أظن أن نظرة بسيطة تكفى للقول بأنها لم تنجح ؛ فقد تستوفى كل الشروط التى قالوها ، فالصحة فى أجود حالاتها ، والغذاء خير غذاء ، والكاتب أو الشاعر مطمئن النفس ، هادئ البال ، بين الرياض المزهرة والمياه الجارية والوجوه الناضرة ، وهو مع هذا أجدب مايكون قريحة ، وأنضب مايكون مَعينا ؛ ثم هو يكون على العكس من ذلك كله فيواتيه شيطانه ، وتتزاحم فى صدره المعانى ، وتتبارى على قلمه الآراء والأفكار والألفاظ .

ثم هذا أديب أو شاعر يجود قوله وتتجلى نفسه ، فى الأماكن الخالية والسكون العميق ، وذاك لايتأتى له هذا الموقف إلا فى الأوساط الصاخبة والحركة المائجة . وأديب لاينتج إلا إذا امتلأ جيبه واطمأنت نفسه لحاجات الحياة ، على

---

(١) اليافع : المرتفع ، وشعفته الأيفاع حركت نفسه وهاجت عواطفه ، والمقصد من يعمل القصائد .

حين أن الآخر لا يجيد إلا إذا فرغ وِطابه ، وعضه الفقر بنابه ، وتكاثرت عليه الهموم .

فأين قوانين التجلي إذا كان يحدث في البيئة وضدها والظروف وعكسها ؟ قد تكون كل المظاهر وكل ما يحيط بالنفس يؤذن بمحال انقباض وجمود ، وإذا النفس مع ذلك فياضة جياشة متجلية ، وقد تكون المظاهر كلها تدل على نفس متفتحة للعمل ، مليئة بالفكر ، فإذا هي مجدبة متقبضة . وترى الآراء القيمة والمعاني السامية قد تنبع من بيئة قاتمة ، ونفس مظلمة ، كما تخرج الزهرة من طين ، أو كما يخرج الذهب من الرغام ، والحرير من الدود .

أخشى أن يكون الذين قد وضعوا هـذه القوانين وأمثالها للحظات التجلي قد تسرعوا في وضعها ؛ فالإنسان معقد كل التعقيد ، ولئن كان جسمه معقدا مرة فنفسه وروحانيته وعقله معقدة ألف مرة بل آلافا ؛ وإن العوامل التي تؤثر في نفسه وروحانيته ليست الحالة البدنية ، ولا الغذاء الصالح ، ولا المناظر الجميلة ، ولا الغنى والفقر ، وحدها ، بل هناك عوامل أدق وأعمق وأغمض . إن الإنسان لا يعيش في بدنه وحده ، ولا في محيطه فقط ، بل إنه ليعيش في أصدقائه الأقربين والأبعدين ، وإنه ليعيش في آبائه الذين كانوا وماتوا ، وإنه ليعيش في ذريته الذين كانوا وسيكونون ، وإنه ليعيش في أحلامه وآلامه وآماله ، ويعيش في شبكات من تموجات نفسية دونها بمراحل شبكات التلغرافات والتليفونات ، وتتسلط عليه أنواع من الأشعة لا عداد لها .

لعلنا لا نستطيع أن نستكشف قوانين التجلي إلا إذا عرفنا نوع النفس التي تتلقى هذه الأشعة ، وعلمنا كل هذه المؤثرات ، وهيهات !!

أدب اللفظ وأدب المعنى

من قديم اختلف علماء البلاغة : أهي في اللفظ أم في المعنى ؟ وقد عقد عبد القادر الجرجاني فصلا ممتعاً في آخر كتابه «دلائل الإعجاز» ذكر فيه حجج الفريقين : فقد كان فريق يرى أن المعاني مطروحة أمام الناس ، والبليغ من استطاع أن يصوغها صوغاً جميلا ، وإنما يفاضل الأدباء بجودة السبك وحسن الصياغة . ويرى الفريق الآخر أن المعاني هي مقياس التفاضل ، وأن الأديب يفضل الأديب بغزارة معانيه ، وجدة أفكاره . وأظن أن الزمان فصل في هذه القضية ، إذ أصبح واضحاً أن حسن الصياغة ، وجودة المعاني ، عنصران أساسيان لا بد منهما للأديب ، وأن من تجرد من أحدهما لا يسمى أديباً بحال ، وأن المثل الأعلى للأديب معان غزيرة سامية ، وصياغة جيدة محكمة .

غير أن هناك — ولا شك — مواضع تراعى فيها المعاني أكثر مما يراعى اللفظ وصياغته ، كفصول النقد الأدبي ، والمقالات العلمية الأدبية ، والمقالات التاريخية الأدبية ، وتراجم الأشخاص ونحوها ؛ فالغاية من هذه الموضوعات ليست اللذة الفنية ، وإنما الغرض الأول هو المعاني والحقائق ، فيجب أن تكون غزيرة فياضة ، وكل ما نتطلبه فيها من اللفظ أن يعبر عن هذه المعاني في دقة ووضوح ؛ أما القصد إلى محسنات البديع ومجملات الصناعة فلا داعي له ، وربما كان إفراط الكاتب في هذه المحسنات حجباً للمعاني عن الأنظار ، ومضلة للعقول عن الوصول إلى حقيقة المعاني ، وهي أقوم ما في الموضوعات .

وهناك ضرب آخر من الأدب كالشعر والقصص فيه مراعاة اللفظ وحسن السبك في المنزلة الأولى ، ولست أعني أن الحقائق والمعاني فيهما مجردة من القيمة ،

بل هى كذلك من مقدماتهما . والشاعر الذى يجيد السبك ولا يجيد المعنى ليس من شعراء الطبقة الأولى . وخير الشعراء من صح حكمه ، واتسعت تجاربه فى الحياة ، وكان له علم عميق بكثير من الأشياء التى حوله ، ثم صاغ ذلك كله صياغة جميلة .

وهكذا الأدب الصرف كالشعر والقصص والقطع الفنية الأدبية . ليس الغرض الأول منه نقل المعانى كما فى الصنف الأول ، وإنما الغرض منه إثارة عواطف القارئ والسامع .

والألفاظ — كما يظهر لى — لم توضع لنقل العواطف ، وإنما وضعت لنقل المعانى ، والألفاظ أعجز ما تكون عن نقل عاطفة الأديب إلى القارئ ؛ فكيف أنقل إعجابى بالطبيعة أو أنقل حبا ملأ جوانحى ، أو غضبا استفزنى ، أو رحمة ملكت مشاعرى ؟ لم توضع الألفاظ لشئ من ذلك ، إنما وضعت لنقل مقدمات ونتائج منطقية ؛ ولكن ما حيلتنا وقد خلقنا عاجزين ، لم نمنح لغة العواطف ، ولا بد لنا من التعبير عنها ونقلها إلى قارئنا وسامعنا ؟ لذلك استخدمنا لغة العقل مرغمين ، وأردنا أن نكمل هذا العجز بضروب من الفن ، كموسيقى الشعر من وزن وقافية ، وكالسجع وكل ضروب البديع ، وليس القصد منها إلا أن تكمل نقص الألفاظ فى أداء العواطف .

فى هذا النوع من الأدب ليس من الضرورى أن تكون معانيه جديدة ، وربما يستطيع الأديب أن يجعل من المعنى المطروق قصيدة رائعة أو قصة ممتعة ، وكل ما فيها من جديد صياغتها الجديدة ، وخيالها المبتكر ؛ وليست وظيفة الأديب فيها أن يعلّم الحقائق ، إنما وظيفته أن يثير مشاعر الناس بها ، ويعبر عما لا يحسنون التعبير عنه ، وإن كانت المعانى فى نفوسهم ، وبين سمعهم وبصرهم .

كل إنسان يشعر بجمال الوردة ، ولكن الأديب يملأ مشاعرك بجمالها ، ويوحى إليك بمعان ترتبط بها ، مثل اقتران تفتحها بتفتح الشباب ، ونشوة الأمل أو ما تبعث من شجن . وجودة الأسلوب وحسن النظم قد يرقيان بالمعانى المألوفة فيخرجانها فى شكل جذاب ؛ ولكن لا يمكن الأديب على كل حال أن يتبوأ مكانا

عالياً إذا اعتمد على الأسلوب وحده وكان مصاباً بالفقر العقلى .

فى أدب كل أمة نرى أدب اللفظ وأدب المعنى ، وفى الأدب العربى أمثلة واضحة لذلك ؛ فمقامات الحريرى والبديع أدب لفظ لا معنى ، قلَّ أن تعثر فيهما على معنى جديد ، أو خيال رائع ، وهما من الناحية القصصية فى أدنى درجات الفن ، ولكنهما تؤديان غرضاً جليلا من الناحية اللفظية ، ففيهما ثروة من الألفاظ والتعبيرات لا تقدر ، ويظهر أن مؤلفيهما قصدا إلى تعليم اللغة و إمداد المتعلم بثروة كبيرة من الألفاظ والأمثال والتعبير ، وتحايلا على ذلك بهذا الوضع الجذاب ؛ فإن كانا قد قصدا إلى ذلك فقد نجحا نجاحا تاما ، و إن كان قصدهما غير ذلك فلا . وشعراء القرون المظلمة بعد سقوط بغداد وكتابها أدباء ألفاظ : رُواء فى العين ، ولا شىء فى اليدين ، بل إن أدب كثير منهم لا هو أدب لفظ ولا هو أدب معنى ، يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً . والمعرى فى لزومياته أديب معنى لا أديب لفظ ، غزرت معانيه وقصرت ألفاظه ، حاول أن يدخل المحسنات البديعية فى شدة ففشل ، قد التزم ما لا يلزم فأضاع ما يلزم . والمتنبى — على الجملة — أديب لفظ ومعنى ، قد وقع من معانى الحياة على ما لم يقع عليه من قبله ، ثم صاغه صياغة قوية حببته إلى النفس .

و بعد فيظهر لى أن الزمن سائر إلى تقويم المعانى أكثر من تقويم الألفاظ . وشأن الناس فى تقويم الأدب شأنهم فى تقويم الجمال فى سائر الفنون ؛ فمن لم يصلوا إلى درجة راقية من المدنية يعجبهم من الألوان اللون الزاهى كالأحمر القانى والأصفر الفاقع ، ويعجبهم من الأجسام السمين القوى فى ملامحه ، ومن الأصوات الطبل والمزمار ؛ فإذا بلغوا مبلغاً كبيراً فى الحضارة أعجبتهم الألوان المتناسقة والألوان الخفيفة ، كما تعجبهم وحدة الفكرة التى تنسق الألوان المختلفة والمظاهر المتعددة ، وأعجبهم من جمال الإنسان الرشاقة وخفة الروح ، وأعجبوا بجمال الحركة ، وقوّموا

جمال المعانى أكثر مما يقومون جمال الملامح ، ونظروا إلى جمال الروح أكثر مما ينظرون إلى جمال الجسم ، حتى فى جمال الجسم يقوّمون وحدة التناسق والنسبة بين الأعضاء أكثر مما يقومون جمال الوجه وحده ، وفى الموسيقى تعجبهم النغمات الهادئة ، والنغمات المتناسقة ، والنغمات التى تمثل المعانى . كذلك شأنهم فى الأدب يكرهون السجع الدائم ، والكتابة التى اختفت معانيها أو ضاعت وراء الزينة المفرطة والزخرف الكثير ، والقافية الطويلة على وتيرة واحدة ، وتعجبهم البساطة فى القول والزينة بقدر ، والألفاظ كوسيلة لا غاية ؛ يكرهون النكت كلها لعب بالألفاظ ، والنكت تلذع لذعاً صريحاً ، وتعجبهم النكتة أسست على معنى ، والنكتة تلذع فى إيماء ورقة .

إن الأديب إذا رزق حظوة فى السبك ، وأصيب بفقر فى المعنى كانت شهرته وقتية وقيمته محدودة الزمن ، ولا يلبث الناس أن يدركوا ضعفه وفقره فينبذوه . والأديب الخالد من زاد فى معارفنا ومشاعرنا بما فى قوله من معنى وقوة .

أديب اللفظ فارغ الرأس قليل العلم بما حوله ، قريب الغور ، قد ستر كل هذا بزخرف القول كما تستر الشوهاء عيبها بالأصباغ ، رخصت بضاعته فبالغ فى التجمل فى عرضها ، ولفت الأنظار إليها ، وشعر أنها مزيفة فغضب لنقدها والتلويح بامتحانها . والأمة فى طفولتها وشيخوختها يعجبها هذا النوع من الأدب ، لأن خفة رأسها من خفة رأس أدبائها . ولأن العقول السخيفة يعجبها السحر والشعوذة وألعاب البهلوان ، والأدب اللفظى المحض نوع من هذا اللعب . فإذا نضج عقلها تغير ميزانها ونفذ نظرها إلى أعماق الشىء ، لتعرف ما وراء الظواهر . وإذ ذاك تقدر المعانى أكثر مما تقدر الألفاظ ، وترى الألفاظ جسما والمعنى روحه ، وترى المعنى غاية واللفظ وسيلة ، وتستحسن اللفظ لا لذاته ، ولكن لأنه لفق المعنى .

تزين معانيه ألفاظه   وألفاظه زائنات المعانى

ما أحوج أدبنا العربى الحديث إلى المعنى القوى الغزير فى اللفظ الجميل البسيط .

ندرة البطولة

قالوا — إنا نتلفت يَمْنة ويَسْرة فلا نجد فى عصرنا بطولة من جنس بطولة العصور الماضية ، ولا نجد نبوغا رائعاً قويا كنبوغ من نبغ فى الأجيال السابقة . فتش — إذا شئت — فى كل لون من ألوان البطولة ، وفى كل ناحية من نواحى النبوغ تجد هذه الحقيقة واضحة .

فهل تجد فى الشعر العربى أمثال بشار ، وأبى نواس ، وابن الرومى ، وابن المعتز ، وأبى العلاء ؟

وهل تجد فى النثر أمثال ابن المقفع ، والجاحظ ، وسهل بن هارون ، وعمرو بن مسعدة ؟

وهل تجد فى قيادة الحروب أمثال خالد بن الوليد ، وأبى عبيدة ؟

وهل تجد فى سياسة الأمم أمثال عمر بن الخطاب وعمر بن عبد العزيز ؟

وهل تجد فى الغناء أمثال إسحٰق الموصلى ، وإبراهيم بن المهدى ؟

وهل تجد مؤلفاً فى الأغانى كأبى الفرج الأصفهانى ؟

وما لنا نذهب بعيدا ويوم فقدنا السيد جمال الدين الأفغانى والشيخ محمد عبده لم نجد عوضاً عنهما فى العلم بالدين والأخلاق والسياسة ؟

ويوم فقدنا البارودى ، وحافظا ، وشوقى ، لم نجد لهم خلفا فى شعرائنا ؟

ويوم فقدنا عبده الحمولى ، ومحمد عثمان صرنا نتبلّغ من الغناء بالقليل .

ويوم فقدنا الشيخ على يوسف لم نر من يسد مسده فى الصحافة .

ومن الغريب أنهم يشكون فى أوربا شكايتنا ، ويلاحظون عندهم ملاحظتنا ، فيقولون أن ليس عندهم فى حاضرهم أمثال فجنر وبيتهوفن ، ولا أمثال

شكسبير وجوته ، ولا أمثال رفائيل ، ولا أمثال دارون وسبنسر ، ولا أمثال نابليون و بسمارك .

فهل هذه ظاهرة صحيحة ؟ وإن كانت فما سببها ؟

قد كانت كل الظواهر تدل على أن الجيل الحاضر أحسن استعدادا ، وأشد ملاءمة لكثرة النبوغ وازدياد البطولة ، فقد كثر العلم وسهل التعلم ، ومهدت كل الوسائل للتربية والتثقيف ، وكثر عدد المتعلمين فى كل أمة ، وفتح المجال أمام النساء كما فتح أمام الرجال ، فأصبحت وسائل النبوغ ممهدة للجنسين على السواء ، وتَقَطَّر العلم إلى العامة ، فأصبحوا يشاطرون العلماء بعض معلوماتهم ، وانتشرت الصحف والمجلات تغذى جمهور الناس بالعلم والأدب ، واتصل العالم بعضه ببعض اتصالا وثيقاً فى المواصلات والعلم والسياسة والاقتصاد وما إلى ذلك .

كل هذا كان يجب أن يكون إرهاصا لكثرة النبوغ والتفنن فى البطولة ، لا لقلة النبوغ وندرة البطولة . فلم أصيبت الأمم كلها بهذا العقم ، وكان مقتضى الظاهر أن كثرة المواليد تزيد فى كثرة النابغين ، وكان مقتضى الظاهر أيضا أن عصر النور يلد من الأشخاص الممتازين أكثر مما يلد عصر الظلام ؟

* * *

يظهر لى — مع الأسف — أن الظاهرة صحيحة ، وأن الجيل الحاضر فى الأمم المختلفة لا يلد كثيرا من النوابغ ، ولا ينتج كثيرا من الأبطال ، وأن طابع هذه العصور هو « طابع المألوف والمعتاد » ، لا « طابع النابغة والبطل » .

بقى علينا معرفة السبب فى ذلك :

من الأسباب القوية — على مايظهر — أن الناس سَمَا مثلهم الأعلى فى النابغة والبطل ، فلا يسمون بطلا أو نابغة إلا من حاز صفات كثيرة ممتازة قلّ أن تتحقق ، وهذا طبيعى ، فكلما رقى الناس ارتقى مثلهم الأعلى .

قد كنا إلى عهد قريب نعد من يقرأ ويكتب ، وبعبارة أخرى «من يفك الخط» رجلا ممتازاً لأنه نادر وقليل ، فكان ينظر إليه نظرة تجلة واحترام ؛ فلما كثر التعليم بعض الشيء كان من أخذ الشهادة الابتدائية شابا ممتازاً ؛ فلما كثرت انتقل الامتياز إلى البكالوريا ، ثم إلى الشهادة العليا ، ثم إلى شهادات جامعات أوربا ، ثم أصبحت هذه أيضاً ليست محل امتياز ، وارتفعت درجة النبوغ إلى شيء وراء هذا كله .

والناس — على الجملة — استنارت أذهانهم إلى حد بعيد ، واكتشفوا سر العظمة ، فأصبحت العظمة المعتادة لا تروعهم ، إنما يروعهم الخارق للعادة ، وأين هو تحت هذه الأنوار الكشافة ؟

ثم شعر الناس بعظمتهم هم أيضاً وبشخصيتهم ؛ والبطولة تأتى — فى الغالب — عندما يسلس الناس زمام نفوسهم للبطل ، فهم بطاعتهم له واستسلامهم لأمره وإشارته يزيدون فى عظمته ، ويغذون بطولته — فإن كانوا هم أيضاً يشعرون بعظمة أنفسهم قلّت طاعتهم وقل تبجيلهم وخضوعهم لكائن من كان ، وبذلك لا يفسحون للبطل بطولته فلا يكون . فلو وجد اليوم شخص فى أخلاق نابليون وصفاته ومميزاته ما حققوه فى عصرنا ، ولا كان إلا رجلا عاديا أو ممتازاً بعض الامتياز ؛ فأما أن تطيعه الخلائق هذه الطاعة العمياء ، وتبيع نفوسها رخيصة فى سبيل مجده ، وتسفك دماءها أنهاراً لتحقق عظمته ، فذلك مالا يكون اليوم كما كان بالأمس .

قد تضرب لى اليوم مثلا بموسولينى ومصطفى كمال وهتلر ، ولكن الفرق عظيم جدا ، فهؤلاء يؤثرون فى شعوبهم من ناحية أنهم خدام للشعب لا سادة لهم ، وأن الشعب إذا عظمهم فلأنهم يخدمونه ، ويوم يثبت له أنهم لا يعملون لخيره ينفض يده عنهم ؛ فأين هذا من الطاعة العمياء التى كانت لنابليون ؟

ولهذا نرى كلا من هؤلاء يتملق شعبه ويحاول أن يقيم البرهان كل يوم على أنه عامل لخيره ساع فى سعادته ، لشعوره التام بأنه إنما يحكم الشعب بإرادة الشعب لا بإرادته هو ، فإذا هو لم يتمتع بهذه الثقة سقط من عرشه ، وهذا — من غير شك — يقلل شأن البطولة .

***

وهذه الأسباب التى ذكرت أنها كانت تؤذن بكثرة النوابغ هى بعينها التى قللت النوابغ ؛ وتعليل ذلك معقول ، فكثرة العلم واستنارة الشعب ، جعلت النبوغ عسيراً لا سهلا يسيراً .

ومصداق ذلك أن الأمم فيما مضى كانت تمنح المشعوذين والمخرفين ألقاب البطولة ، وتنظر إليهم نظر تفوق ونبوغ ، من أمثال من كانوا يسمونهم « الأولياء » فيكفى أن يتظاهروا بالجذب ويتصنعوا الصلاح ويدّعوا معرفة الغيب ليهرَع إليهم الناس ويقبلوا أيديهم ويلتمسوا منهم البركة ويرفعوهم فوق النوابغ والأبطال ، وأحياناً يلقبوهم « بالأقطاب » . فلما فتح الناس عيونهم وعقلوا بعد غفلتهم ، واكتشفوا حيلهم ومكرهم لم تعد لهم هذه المكانة ، وحل بعضَ محلهم المصلحون الاجتماعيون الذين يخدمون أمتهم بعملهم . ومعنى ذلك أن الشعوذة والمَخرقة حل محلها مقياس المنفعة ، وسار الناس فى طريق التقدير الصحيح ، وهو الاحترام والتبجيل على قدر ما يصدر من الشخص من خير عام حقيقى .

***

ومن أجل هذا أيضاً رأينا التيار فى هذه الأيام يتجه إلى تقليل شأن البطولة فى الأعصر الماضية ؛ فلم يعد البطل القديم فى الأدب والسياسة والفن والعلم يقدر التقدير الكبير الذى كان يقدر به من قبل ، لأن الناس أخذوا يحللون كل بطل ، ويبينون سر بطولته « ومتى ظهر السبب بطل العجب » ، ولم يقنعهم ما كان

يحيط به من غموض فألقوا أضواء كثيرة على من كانوا يسمون الأبطال ؛ فأحياناً يؤديهم البحث إلى إنكار بطولة بعض الأشخاص بتاتاً ، وأحياناً يقللون من قيمة البطل ، بل وأحياناً يرون بطلا من أنكر الناس قديماً بطولته .

ذلك لأن مقاييس البطولة تغيرت ، وأصبحت عند المحدثين خيراً منها عند الأقدمين ، ولأن المحدثين رأوا أن القدم نسج لكثير من الناس أثواباً من البطولة لم تكن موجودة أيام حياتهم ، وكلما تقدم الزمن منحهم الناس شارة بطولة جديدة ، فلما عرض هذا كله للنقد وأزاح أهل العلم الحديث ستائر القدم ، تبين البطل فى صورته الحقيقية أو قريباً من صورته الحقيقية ؛ فأحياناً يرتفع الستار عن لا بطل ، وأحياناً يرتفع عن بطل ولكن دون ما كان يقدره القدماء ، ونادراً ما يبقى البطل بطلا كبيراً حتى بعد ما ترتفع حجب القدم .

ولهذا نجد كثيراً من المعاصرين هم فى الحقيقة نوابغ ، وهم يفوقون بمراحل بعض نوابغ الأقدمين ، ولو كانوا فى العصور الماضية لارتفعت منزلتهم فوق ما ارتفعت اليوم ، ولكن لم نمنحهم نحن لقب البطولة للأسباب التى أشرنا إليها قبل ، من أننا رفعنا إلى حد بعيد المثل الأعلى للنبوغ ، ولأننا نحلل النابغ ونكتشف سره ، وذلك يقلل من تقديره ، ، ولأنه معاصر والمعاصرة أعدى أعداء الاعتراف بالنبوغ .

وقد يتصل بهذا أن كثرة النبوغ تضيع الاعتراف بالنبوغ ، فكل أمة راقية الآن لديها عدد كبير من المتفوقين فى كل فرع من فروع العلم والفن : فى القانون — فى الأدب — فى الطبيعة — فى الكيمياء — فى الرسم — فى التصوير . فلما كثر هؤلاء فى كل أمة أصبح من العسير أن تميز أكبر متفوق منهم لتمنحه صفة النبوغ ؛ ومن العسير أيضاً أن تسميهم كلهم نوابغ ، لأن النبوغ بحكم اسمه ومعناه يتطلب الندرة ، فلما كثر النابغون أضاعوا اسم النبوغ . وعلى العكس من

ذلك الأمم المنحطة ، لما لم يوجد فيها إلا قانونى واحد أو أديب واحد أو موسيقى واحد كان من السهل أن يمنح لقب النبوغ .

***

ثم إن الديمقراطية التى سادت الناس فى العصور الأخيرة ونادت بالمساواة وألحت فى الطلب أوجدت فى الشعوب حالة نفسية كان لها أثرها فى موضوعنا ؛ إذ أصبح الناس لا يؤمنون بتفوق كبير ، لا فى المال فهم يريدون الاشتراكية ، ولا فى السياسة فقد يتبوأ الحكم حزب العمال فيدير الأمور كما يديرها الأرستقراطيون فى السياسة بل أحسن منهم .

فدعتهم هذه الحالة النفسية إلى أن يكفروا بالتفوق ، أو بعبارة أخرى يكفروا بالنبوغ ؛ وبعيدٌ أن يُعترف بنبوغ فى جو يكفر به . لقد كان الناس قبلُ أكثر إيماناً بالفروق فى المال والكفاية والعلم ، فكان هذا الإيمان وسيلة صالحة لظهور النبوغ ، فلما جحدوا كل شىء كان النبوغ مما جحدوا .

وأخيراً كان من أثر هذه الديمقراطية تعميم التعليم ، والبحث فى خير الوسائل لنشر العلم ؛ فقامت النظريات المختلفة فى التربية والتعليم ، وأصبح العلم شعبيا بعد أن كان أرستقراطيا ، واستخدمت الوسائل المختلفة لتبسيط العلم وتحبيبه إلى النفوس ، وغيرت نظم المدارس ، فأنشئت رياض الأطفال مكان الكتاتيب ، والمدارس الناعمة بدل المدارس الخشنة ، واخترعت البيداجوجيا وسائل لتسهيل الدرس وإيصاله إلى الذهن من أقرب طريق .

كان من نتيجة ذلك كثرة المتعلمين وقلة النابغين ، واتساع البحر وقلة عمقه ؛ وذلك لأن من كان يتفوق فى الماضى كان يصادف عقبات لا حد لعددها ولا حد لصعوبتها ، فكان من الطبيعى ألا يجتازها إلا الأقلون ، ولكن من يجتازها

تكون لديه الحصانة الطبيعية ، ويكون قد تعوّد اجتياز العقبات واحتمل مشقة السير ، فكان ذلك سبب النبوغ من ناحيتين : من ناحية قلة من يجتاز العقبات ومن ناحية من يجتازها .

أما وقد أصبح التعليم معبّدا ميسرا فقد زاد عدد المتعلمين وقل النابغون ، وأصبح الفرق بين العهدين كبذرة تربى فى حديقة بستان وبذرة تنبت فى الجبال حيث الريح العاصفة والشمس المحرقة والمطر الذى لانظام له . فأين نبت البستان من نبت الجبال ؟ وأين الحيوان المستأنس من الحيوان المستوحش ؟

السكون فى الظلام

ما ألذه ، وما أهنأه ، وما أحلاه !

يذهب بالأوصاب ، ويرد العافية إلى الأعصاب .

فترة سكون فى ظلام يجب أن يقضيها كل إنسان فى كل يوم .

وإذا كان كل الناس يحتاجونها فرجال الفكر إليها أحوج ، هى راحة من عناء مجهودهم ، واسترداد لما فقدوا من رءوسهم ، واسترجاع لما قطّروا من عُصارة عقولهم :

وهى فوق ذلك أدعى لصفاء الذهن ، وصحة التفكير ، وجودة الإنتاج ؛ فالبذرة لا تنبت فى جلبة وضوضاء وضياء ، إنما تنبت فى جوف الأرض ، حيث لا تراها عين ، ولا تؤذيها حركة ، وحيث تستمتع بكل ما فى السكون والظلام من قوة ، حتى إذا تم نضجها خرجت إلى النور والهواء والحركة بساقها وفروعها ، لا بنفسها .

ولا تفتن وردة بجمالها ومنظرها وعبيرها قبل أن تدفن بذرتها ، يجب أن تمر بها أيام وأيام ، تشعر بنفسها ولا يشعر الناس بها ، وحتى إذا أعجبت الناس ونفحتهم بنعيمها يجب أن يبقى أصلها منعما بظلامه وسكونه ، فإذا أقلقْتَ مضجعها وسلبتها هدوءها سلبتك محاسنها .

وكذلك كل حى لا بد أن يموت ليحيا ، وهل النوم إلا ضرب من الموت ، ونوع من الفناء ؟ دع الحى يحيا أياماً من غير نوم تره وقد تهدلت أعصابه ، وتهدمت قواه ، وقرب من الفناء الأبدى .

وليس يكفى النوم للمفكر ، فهناك ضرب خير من النوم هو أو يقات يمضيها

فى هدوء وسكون وظلام ، يكون فيها منتبهاً نائماً ، شاعراً حالماً ، يلذ فيها لذة النوم ، كما يلذ لذة الصحو ، يتعرض فيها لنفحات الله ، ويلمع فى روحه قبس أشبه ما يكون بالإلهام ، وتأتيه بالفكرة الناضجة أو الخَطْرة الكاشفة ، أو اللمحة الدالة فتكون خيراً من ساعات وساعات يقضيها فى العمل ، و بين المحبرة والقلم ، والصحف والكتب .

قرأت مرة أن متعلماً كان يقص على معلمه أنه يصبح مبكراً فيقضى ساعات فى استذكار دروسه ، وساعات فى تعلم لغات أجنبية ، وساعات فى أخذ دروس جديدة فى علوم مختلفة ، حتى يمضى جزء كبير من الليل فيذهب إلى فراشه وقد أنهكه التعب ، وأخذ منه كل مأخذ ؛ فقال له أستاذه : ومتى تفكر ؟ وأين تجد نفسك .

وهو سؤال له دلالته ومغزاه . فأكثر الناس لا يفكرون ، وإن ظنوا أنهم فيما يقرءون و يكتبون يفكرون ، وأكثر الناس يفقدون أنفسهم فى ثنايا صحفهم وكتبهم .

ولأمر ما كان النبى صلى الله عليه وسلم « يخلو بغار حِراء ، ويتعبد فيه الليالى ذوات العدد يتزود لذلك ، ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها حتى جاءه الحق وهو فى غار حراء » .

فى غار حراء حيث السكون والظلام ، بعيداً عن الخلق قريباً إلى الحق ، قد انقطع عن العالم وضوضائه ، والدنيا وألاعيبها ، قد صفت نفسه من صفاء محيطه ، ووجد نفسه فوجد ربه ، وتعرض للإلهام فجاءه الإلهام ، وتهيأ للوحى فنزل عليه الوحى .

***

لكنْ تمنيت أن يكون للمسلمين تكايا أو خانقاهات فى أمكنة نزهة منقطعة

ليست من هذا النوع الذى يأوى إليه العاجزون والعاطلون ، والذين يأكلون ولا يعملون ، ولكنها من طراز حديث يهرع إليها من أراد أن يَسْتَجِم نفسه ويريح قلبه ، ويسترد هدوءه ، بعد أن أتلفتها ضوضاء المدنية ، وجلبة الحياة العصرية — تكون مستشفى للنفوس بجانب مستشفيات الأبدان ، ويترهب فيها من أضناه العمل ، وأعياه الجهد ، رهبانية مؤقتة يجدد فيها نفسه ، ويغذى بهدوئها وسكونها عقله وحسه ، ويبعث إلى العالم خلقاً جديداً كما يبعث النوم الحياة — إذاً لقلّت أخطاء الناس ومظالمهم ، فأكثرها مبعثه فساد الأعصاب ؛ وإذاً لقل إلحادهم فأكثره منشؤه الانغماس فى المادة وشؤونها ، فإذا تجرد المرء منها زمناً وخلا بنفسه وأتيحت له فرصة التفكير فى هدوء وسكون وظلام تحرك قلبه للعبادة ، ونزع إلى الإيمان ، فاستجاب لفطرته ، واستمع لطبيعته ؛ وإذاً لقلت مطامع الناس ، وتكالبهم على الحياة ، لحياة الهدوء والسكينة توحى بأن الحياة ظل زائل ، ومرحلة مسافر .

لقد اعتاد الناس أن يفروا من عنائهم إلى المقاهى والفنادق فى الهواء الطلق ، وعلى شواطئ الأنهار والبحيرات والبحار ، ولكنها كلها تفيد الجسم ، ولا تفيد — كثيراً — الروح والنفس ، هى من نوع المستشفيات البدنية لا المستشفيات الروحية والنفسية ، فيها — عادة — كل مظاهر المدنية وتعقيداتها وأخيلتها وتكاليفها ، فهى لا تغنى غناء صحيحاً فى العلاج النفسى والروحى ، إنما يغنى هذا الغناء أنواع المعاهد والمؤسسات قد بنيت على أساس نفسى وروحى لا تعبأ بزخارف المدنية وزينة الحضارة ، يريح النفس من عناء التكاليف والتقاليد ، وتسمو بها فوق المواضعات والمصطلحات ، فتجد النفس راحتها الطليقة ، وتعود إلى طبيعتها الحرة ، وتسبح فى تأملاتها ، وبذلك تسترد حيويتها ونشاطها .

***

في سكون الظلماء يرى الإنسان بعينه مالا يراه فى الضياء ، ويسمع بأذنه ما لا يسمع فى الضوضاء ؛ على أنه هو لا يرى بعينه فحسب ، ولا يسمع بأذنه فحسب ، بل كل شيء فيه يسمع ويرى ، يفهم منطق الطير ، ويتذوق موسيقاه ، ويدرك معانى المياه فى خريرها ، والرياح فى هبوبها ، والأشجار فى حفيفها ؛ فكأنه منح من الحواس أضعاف حواسه ، وملك من الملكات ما لا يعد بجانب ملكاته ؛ وكأن عالم الصخب والجلب يغشى عينه ، ويثقل سمعه ، ويبلد عقله ، ويثلم ذوقه ؛ فلئن كان الصوت فى عالم الحس له حدود ، فإذا قلت تموجاته عن حدوده أو زادت انعدم السمع ، فليس فى عالم الروح حدود للصوت ؛ ولئن كانت العين فى عالم الحس لا تدرك من الألوان إلا أقلها ، وتعجز عن إدراك أكثرها ، فعين الفكر لا يحدها حد ولا يعجزها لون ؛ ولئن كانت عيوننا الباصرة لا تبصر إلا فى ضياء ، وآذاننا لا تسمع إلا من قرع هواء ، فعيوننا وآذاننا الروحية تستعين بالسكون والظلماء ، أكثر مما تستعين بالضوء والهواء .

***

إنى لأرثى لهؤلاء الذين يضيعون كل حياتهم فى هزل ، بل أرثى كذلك لهؤلاء الذين يقضون نهارهم فى وظائفهم وأعمالهم ، ثم ينصرفون إلى لهوهم حتى يناموا ، بل أرثى أيضاً لهؤلاء الذين يقضون أوقاتهم بين بحث علمى ، وقراءة وتأليف وتعليم ، ثم لهو قليل ونوم . وأعتقد أن هناك عنصراً فى الحياة ينقصهم وهو عنصر التأمل ؛ ولست أعنى بالتأمل ذلك الضرب من الأسلوب المنطقى العلمى فى البحث والتفكير ، إنما أعنى ذلك الضرب الذى عناه القرآن بمثل قوله : « قل انظروا ماذا فى السموات والأرض » هو نوع من العقل قد مزج بنوع من الشعور ، وقد امتاز به الشرق من الغرب قديماً ، ومن ثم كان مبعث الأديان ومصدر الإلهام .

فى هذا الضرب من التأمل يجـد الإنسان نفسه حيث لا يجدها فى هزل ولا جد ، وفيه يعرف نفسه على حين أنه يعرف غيره أكثر مما يعرف نفسه ، وفيه يجلس إلى نفسه ويصادقها ويصارحها ، على أن أكثر الناس يجالسون الناس ولا يجالسون أنفسهم ، ويصارحون الناس ولا يصارحون أنفسهم ، ويصادقون الناس وهم أعداء لأنفسهم .

وأظن أن فى الاستطاعة أن يوضع برنامج متسلسل للتأمل كبرنامج القراءة والكتابة وتعلم اللغات وتعلم العلوم ، يبدأ فيه بألف باء التأمل ، وينتهى بيائه إن كان له ياء ، وتخصص له حصص يومية كحصص المواد العلمية ، وإن كانت حصصه تمتاز بأنها فى ميسور كل إنسان ، ليست تحتاج إلى مدرسة يتردد عليها ، ولا إلى معلم يؤجر ، ولا أدوات وكتب يتداولها ، إنما هى من قبيل تربية النفس بالنفس ، وليست تحتاج إلى مران واعتياد وعرفان بكيفية السلوك .

أول دروسها أن تخلو بنفسك ، ولا يكون ذلك إلا فى هدوء وسكون ، وخير أن يكون فى ظلام ، ثم تجردْ فى هذه الحصة من شواغل الدنيا وهمومها ، واستعرض نفسك من حيث بدنك كيف تؤذيه ببعض عاداتك ، وهل تدبره تدبير عاقل حكيم ، أو مستبد جاهل ، وما خير الوسائل لإصلاح ما تقع فيه من أغلاط ؟

وتدرجْ من هذا التأمل فى ناحية أخرى نحو علاقتك بعقلك ، وعلاقتك بالناس واستعراض ما يكون منك ومنهم .

وارقَ إلى خطوة ثالثة تسائل فيها نفسك : ما غايتك وما مبادئك فى الحياة ؟ وهل وضعت لها خططاً ؟ وما مقدار تقدمك إليها أو تأخرك عنها ؟

سيسلمك ذلك — من غير شك — إلى خطوات أوسع ، وتأمل أعمق حسب جهدك واستعدادك ؛ وستكون لك فى النهاية فلسفة لا من جنس فلسفة أفلاطون

وأرسطو ، ولكنها فلسفة شخصية قد بنيت على تأملك وشعورك لا على حفظك وقراءتك . وستتصل من هذا الطريق بأفق أوسع وملكوت أعلى .

فى الحديث : « الناس نيام ، فإذا ماتوا انتبهوا » ولعل هذا الضرب من التأمل ينبههم فى حياتهم ، من غير أن ينتظروا أن يتنبهوا بموتهم .

ربما كان هذا ضربا من التصوف يتفق وروح العصر ، وإن شئت فقل إنه نوع من التصوف على أحدث طراز وأبدع نمط ، يبعث على الحياة لا الموت ، ويدعو إلى النشاط والعمل لا إلى الخمول والسأم . ولعل الإنسان يجد فى الركون إليه بعض أوقاته راحة مما رمتنا به المدنية الحاضرة من عناء ، وما أرهقتنا من عنت . ولعلنا نستروح من هذا البرنامج نسيم الراحة فيراجعنا نشاطنا ، وتثوب إلينا قوتنا ، وتعود إلينا نفوسنا .

مَلَق القـادة

لست أعنى بهذا العنوان أن يتملق الجمهور قادتهم فيظهروا لهم الود والإعظام بحق وبغير حق ، فذلك شىء قليل الخطر ، فاتر الأثر ، وإنما أعنى أن يتملق القادة الرأى العام فيسيروا على هواه ويجروا مجراه ، ويأتوا ما يحب ، ويذروا ما يكره ، فهذا هو الداء الدّوِىّ والعلة الفادحة .

ومن أسوأ ما أرى فى الشرق فى هذه الأيام هذه الظاهرة ، ظاهرة أن يحسب القادة حساب الرأى العام أكثر مما يحسب الرأى العام حساب القادة .

هذه الظاهرة جلية واضحة فى قادة العلم ، فهناك أوساط تقدس العرب كل التقديس ، وتعتقد أنهم فى حكمهم عدلوا كل العدل ، ولم يظلموا أى ظلم ، فقادتهم يتملقونهم ويستخدمون معارفهم للوصول إلى هذه النتائج التى ترضيهم ، سواء رضى العلم أم لم يرض ، وسواء أوْصَل البحث إلى هذه النتائج أو إلى عكسها . وهناك أوساط تعبد كل غربى من عادات وتقاليد وآداب ، فقادتهم يختارون اللفظ الرشيق ، والأسلوب الأنيق لتأييد هذه الآراء ، ولا عليهم فى ذلك أن كانوا يحقون الحق أم يؤيدون الباطل .

وهى ظاهرة فى قادة الأدب ؛ فإن أحب الجمهور روايات الحب والغرام ألَّفوا فيها وأكثروا منها ، وإن أدركوا أن تصفيق الجمهور يكون أشد كلما كان الحب أحدّ ، تسابق الأدباء إلى أقصى ما يستطيعون من حدة وعنف ، ومهروا فى أن يستنزفوا دموع المحبين ، ويهيجوا عواطفهم ، ويصلوا إلى أعماق قلوبهم . وإن كره الناس أدب القوة فويل لأدب القوة من الأدباء ! هو سمج ، وهو جاف ، وهو لا قلب له ؛ وإن كان الجمهور لا يقبل إلا على الأدب الرخيص فكل المجلات

أدب رخيص ، لأنه كلما أسرف فى الرخص غلا فى الثمن ؛ وإن بدأ الجمهور يتذوق الجد تحولوا إلى الجد وداروا معه حيث دار .

وهى ظاهرة فى دعاة الإصلاح ؛ فهم يرون — مثلا — أن الشباب قوة فوق كل قوة ، وهم عصب الأمة وإكسير الحياة ، وفى استطاعتهم أن يرفعوا من شاءوا إلى القمة ويسقطوا من شاءوا إلى الحضيض ؛ فهم ينظمون لهم الدر فى مديحهم وإعلاء شأنهم ، وملئهم ثقة بأنفسهم ، فهم رجال المستقبل وعماد الحياة ، وهم خير من آبائهم ، وستكون الأمة فى منتهى الرقى يوم يكونون رجالها ؛ وقد يكون هذا حقا ، ولكن للشباب أغلاطه الجسيمة التى تتناسب وهمته ، وله غروره واندفاعه ، وله تهوره وإفراطه فى الاعتداد بنفسه ؛ فكان على المصلحين أن يكثروا القول فى المعنيين على السواء ، فيشجعوا وينقدوا ، ويبشروا وينذروا ، ويرغّبوا ويرهبوا ، حتى تتعادل قوى النفس ، وحتى يشعروا بمحاسنهم ومساويهم معا ؛ ولكن هؤلاء القادة — مع الأسف — وقفوا فقط على النغمة التى تعجب الشباب وتحمسهم ، ولم يجرءوا أن يجهروا بعيوبهم ، ولا أن يقولوا — ولو تلميحا — فى مواضع النقص من نفوسهم ؛ فكان لنا من ذلك شباب استرسلوا فى الإيمان بقول الدعاة إلى أقصى حد ، واعتقدوا أنهم كل شىء فى الحياة ، وأنهم فوق أن يسمعوا نصيحة ناصح أو نقد ناقد ؛ وكان هذا نتيجة لازمة بعد أن وقف القادة منهم هذا الموقف ؛ وقد يكون هذا رد فعل للماضى أيضاً ، فقد كان طالب العلم فى الجيل السابق يقدس قول أستاذه ، وهو وأستاذه يقدسان ما فى الكتاب الذى يتلى ؛ وكان الشاب يجل الشيخ فى قوله وفعله ، لا يرى أن له صوتا بجانب صوته ، ولا رأيا بجانب رأيه ؛ فكان سلوك هذا الجيل انتقاما من الجيل السابق ، وذهابا فى الإفراط يعادل إفراط آبائه ؛ ولكن أظن أنا وصلنا إلى حد يجعلنا نفكر جديا فى تثبيت هذه الذبذبة ووقفها الموقف الحق .

إن وقوف القيادة من الجمهور موقف الملق قلب للوضع ؛ فالعالم إذا قال برأى الناس لم يكن لعلمه قيمة ، والمصلح إذا دعا إلى ما عليه الناس لم يكن مصلحا .

إنى أفهم هذا الوضع فى التاجر يسترضى الجمهور ، لأن نجاحه فى تجارته يتوقف على رضاهم ، وأفهم هذا فى المغنّى يقول مايعجب الناس ، لأنه نَصَبَ نفسه لإرضائهم، واستخراج إعجابهم ؛ ولكنى لا أفهم هذا فى قائد الجيش ، فإن له مهماً آخر ، وهو أن يظفر بخصمه ؛ فلو كان همه أن يسترضى جنده لا أن ينتصر على عدوه ما استحق لقب القيادة لحظة ، ولكان الوضع الحقيقى أن الجند هم القادة والقادة هم الجند .

كذلك الشأن فى قائد العلم وقائد الأدب ، والمصلح الاجتماعى ؛ فلكل منهم غرض يرمى إليه فى علمه أو أدبه أو إصلاحه ، وله خطة يريد أن يحمل الناس عليها رضوا أم كرهوا .

بل لا يعد المصلح مصلحاً حتى ينبه الناس من غفلتهم ، ويحملهم على أن يتركوا ما ألفوا من ضار ، أو يعتنقوا ما كرهوا من صالح ، وهو فى أغلب أمره مغضوب عليه ممقوت . واصطلاح الجمهور والمصلحين ليس علامة تبشر بخير ، بل هى فى الغالب تدل على تراجع من المصلح وانتصار للعامة .

وقد كان المصلحون فى الشرق إلى عهد قريب أشد الناس تعباً فى الحياة ، وأكثر تبرماً بالجمهور ؛ وأقربهم إلى عهدنا جمال الدين ومحمد عبده وقاسم أمين ، لقوا فى دعوتهم من العذاب ألواناً ، ولم يوفَّوْا حقهم إلا بعد أن وافاهم الموت . أما اليوم فلست أرى حركة عنيفة بين القادة والرأى العام ، ولا بين المصلح ومن يراد إصلاحه ؛ وربما كان سبب ذلك أن القائد ينظر إلى نفسه أولاً وقبل كل شىء وآخر كل شىء ، قصد إلى أن يصفَّق له أكثر مما قصد لخدمة الحق ، وقد وصل إلى درجة من إعجاب الجمهور يريد أن يزيدها أو يحتفظ بها ، قد خلع

ثياب القائد ، وارتدى لباس التاجر ؛ يبحث عما يعجبهم ليقول فيه شعره أو يكتب فيه مقالته ، أو يطنب فى وصفه ، ويبحث عما يسوءهم ليحمل عليه حملة شعواء بقلمه أو لسانه ، كما يبحث تاجر الأزياء عن آخر طراز فى الزى يقبل الناس على شرائه .

تلك أشد حالات الانحطاط فى القيادة ؛ فأول درس يتلقاه القائد أن يكون قليل الاهتمام بشخصه ، كثير الاهتمام بالغرض الذى يرمى إليه فى الإصلاح ، سواء أكان إصلاحاً لغويا أو أدبيا أو اجتماعيا أو دينيا ، وأن ينظر إلى كل ما يجرى حوله فى هدوء ، لا يسره إلا أن يرى الناس اقتربوا من غرضه ولو بسببه ، ويضحى بالشهرة فتتبعه الشهرة ، ويضحى بالحظ فيخدمه الحظ ؛ بل سواء عليه عُرف أم لم يُعرف ، وسواء عليه احتُقر أم كرّم ، ما دام سائراً على المنهج الذى رسم ، لا يشعر بأريحية إلا أن يصل إلى غرضه ، أو يقرب منه ؛ يحب المنتصرين لرأيه ويرحم الناقمين عليه ، يرفض أن يلبس تاج الفخر إلا أن يكون من نسيج ما سعى إلى تحقيقه ؛ إن كان هذا أول درس يتعلمه القائد فهو آخر درس أيضاً .

أخشى أن يكون قادة الرأى فينا قد ملُّوا المقاومة فاستسلموا ، وأن يكونوا قد استصعبوا الغاية فاستناموا ، وأن يكونوا قد وقفوا مترددين قليلا بين عذاب الضمير وعذاب المعارضة فاحتملوا الأول ، وأن يكونوا لطول ما لقوا قد رغبوا عن النظر إلى الأمام والتفتوا وراءهم إلى الرأى العام ، فساروا أمامه فى الطريق الذى يحبه هو لا الذى يحبونه هم ، إن كان هذا فيالها من هزيمة .

أنَّى لنا بقادة فى الرأى لا يتملقون إلا الحق ؟

اللون الأصفر

لفت نظرى — وأنا أدرس الحياة الاجتماعية فى العصر العباسى — ما رأيت من كثرة ما كتب عن اللون الأصفر فى هذا العصر ، وحلوله محلا كبيراً غطى على كل الألوان الأخرى ، وكثرة ما قيل فيه من أدب ، فرأيت أن أعرض على القراء شيئاً منه وأترك لعلماء الجمال ما يدل عليه انتشار اللون الأصفر فى الشعوب من تحديد درجة الذوق فى الرقى ، وعلاقته بانتشار الخلاعة ، ودلالته على مقدار ما وصلت إليه الأمة من حضارة .

* * *

رأيت العراقيين هاموا باللون الأصفر وتغزلوا بالوجوه الصُّفر ، وصبغوا ثيابهم بالصفرة ، وافتتنوا بالزهور الصفر ، وأكثروا من اتخاذ الطعوم الصفر ، ومدحوا الجواهر الصفر ، وهكذا .

روى الجاحظ أنَّ من الأمثلة المشهورة قولهم : « أهلك النساء الأصفران : الذهب والزعفران » ، وهذا يدل على غرام النساء باللون الأصفر ، وظهور هذا الغرام بحبهن للذهب والزعفران . أما حبهن للذهب فللونه ولأنه خير أنواع المال . وأما الزعفران فقد كان له سلطان فى بغداد أى سلطان حتى لو سميْتَ بغداد فى ذلك العصر مدينة الزعفران لم تُبعد ؛ وقد جعلوا له قوة سحرية فقالوا : « إنه إذا كان فى بيت لا يدخله سام أبرص » ، وإذا حسن فى عينهم شىء أصفر شبهوه بلون الزعفران كما قال آدم بن عبد العزيز :

شربت على تذكر عيش كسرى شراباً لونه كالزعفران

وأكثروا من تلوين الطعام به . قال بديع الزمان فى إحدى مقاماته : « ومعنا

على الطعام رجل تسافر يده على الخوان ، وتأخذ وجوه الزعفران » .

وكان البغداديون يلوّنون الطعام ويكرهون أن يقدموه بلا تلوين ، ويسمون الطعوم غير الملونة « الطعوم المُعتدَّة » تشبيهاً لها بالمرأة فى العِدّة ، لأنهم يكرهون منها أن تلبس الثياب الملونة ، فكانوا يلونون الطعام بالزعفران و بالعصفر وهو أصفر أيضاً .

وصبغوا بالزعفران ملابسهم . حكى الأغانى أن الرشيد دخل على أخته علية بنت المهدى فى يوم قائظ ، فوجدها قد صبغت ثياباً بزعفران وصندل وجعلتها على الحبال لتجف ، فجعلت الرياح تمر على الثياب فتحمل منها ريحاً بليلة عطرة ، فوجد لذلك راحة من الحر .

وكتبت جارية على قباء معصفر :

وما البدر المنير إذا تَجَلّى   هدوًّا حين ينزل بالعراق

بأحسن من بُثَينة يوم قامت   تهادَى فى معصفرة رقاق

وقد كثرت أسماء الثياب الصفر فسموا :

التَّخمَــةَ : الثياب المخططة بالصفرة .

والرَّداعة : القيمص لُمّع بالزعفران والطيب .

والسبنيَّة : نسبة إلى سَبَن قرية بنواحى بغداد ، وهى ثياب من حرير فيها أمثال الأترجّ (الأصفر) .

والثياب المحرَّضة : وهى المصبوغة بالإخْريض وهو العصفر .

والثوب المُمصّر : قيل هو المصبوغ بصفرة خفيفة .

والثوب الموَرّس : المصبوغ بالوَرْس وهو نبت أصفر يصبغ به .

وأكثر ما كانت العصائب التى تتزين بها النساء عصائب مصبوغة بالزعفران، وشّيتْ بخيوط من حرير وطرزت بسلوك من ذهب .

وقالوا : أجمل شىء غلالة معصفرة على جارية .

وحكى التنوخى فى نشوار المحاضرة « أن الخليفة المتوكل اشتهى أن يجعل كل ما تقع عليه عينه فى يوم من أيام شربه أصفر ، فنصبت له قبة صندل مذهبة مجللة بديباج أصفر ، مفروشة بديباج أصفر ، وجعل بين يديه الدستنبو[1] والأترج الأصفر وشراب أصفر فى صوانى ذهب ، ولم يُحضر من جواريه إلا الصفر ، عليهم ثياب قصب صفر ، وكانت القبة منصوبة على بركة مرصعة يجرى فيها الماء ، فأمر أن يجعل فى مجارى الماء إليها الزعفران على قدر ليصفر الماء ، ويجرى من البركة أصفر ، ففعل ذلك وطال شربه ، فنفد ما كان عندهم من الزعفران ، فاستعملوا العصفر ، ولم يُقَدّروا أنه ينفد قبل سكره فنفد ، فلما لم يبق إلا قليل عرّفوه وخافوا أن يغضب إن انقطع . . . فلما أخبروه أنكر أنهم لم يشتروا قَدْرا عظيما ، وقال إن انقطع هذا تنغص يومى ، فخذوا الثياب المعصفرة بالقصب فانقعوها فى مجرى الماء ليصبغ لونه بما فيها من الصبغ . . . فحسب ما لزم ذلك من الزعفران والعصفر ومن الثياب التى هلكت فكان خمسين [أ]لف دينار »[2] .

ونسبوا إلى أفلاطون أنه قال : إن رائحة الزعفران تسكن الغضب ، وإذا قرن اللون الأحمر بالأصفر تحركت القوة العشقية .

ولإعجابهم باللباس المعصفر أو المزعفر شبهوا به الخمر ، فقال ابن وكيع :

فاشْرَبْ مُعَصْفَرَةَ القميصِ سُلَافةً من صنعة البَرْدَان أو قُطْرُبُّـل

وقال ابن المعتز :

لبسَتْ صفرةً فكم فتَنَت من أعينٍ قــد رَأَيْنَهَا وعقول

---

(١) هكذا بالأصل ، ولعله الدستنبويه ، وهو بطيخ أصفر صغير مستطيل .

(٢) نشوار المحاضرة ١٤٧/١ .

مثل شمس الغروب تسحب ذيلا صبغته بزعفران الأصيل

وقال ابن الرومى فى وصف شواء :

وسميطــــة صفراء دينارية ثمناً ولوناً زَفَّها لك جُوذر

وأكثروا من مدح المرأة الصفراء واستحسنوها ، فنى الأغانى أن مُتَيَّم الهاشمية ، ومحبوب المتوكلية ، ودنانير البرمكية ، كن صفراً مولدات ، وسميت دنانير بذلك لصفرتها .

ومدحوا الزهور الصفر والثمار الصفر .

فدحوا الآذَرْيُون وهو زهر أصفر فى وسطه خمل أسود ، قال فيه ابن المعتز :

كأن آذريونهــا والشمسُ فيه كاليه
مداهنٌ من ذهب فيــه بقايا غاليـه

كما مدحوا « الخِيرِىّ » وهو المنثور الأصفر .

وكان عندهم نوع من الياسمين أصفر قال فيه الشاعر :

كأنما الياسمين حين بدا يشرق من جوانب الـكثب
عساكر الروم نازَلَتْ بلداً وكل صُلْبَانها من الذهب

ومدحوا التفاح الأصفر والخوخ الأصفر .

وتغزلوا بصفرة الخمر فقال أبو نواس :

صفراء لا تنزل الأحزانُ ساحتَها لو مسها حجرٌ مسـته سراء

ويقول آدم بن عبد العزيز :

اسْقِنى واسْقِ خَليلى فى مدى الليل الطويل
لونُها أصـفرُ صَافٍ وهى كالمِسْكِ الفَتِيلِ

وبالغوا فى حب الصفرة حتى كانت القَينة أحياناً تلبس الثياب المعصفرة أو المزعفرة ، وتطلى ما ظهر من يديها ومن عنقها بالورس .

روى بعضهم قال : «رأيت جارية ببغداد وقد طلت يديها بالورس وفى عنقها طبل وهى تنشد :

محاسنها سهام المنايا مُرَيَّشَةٌ بأنواع الخطوب »

وكثيراً ما قرنوا هذا اللون بالدلالة على الميل إلى الشهوات والفجور ، ورمزوا للخليع بقولهم إنه « يلبس المورَّس » .

هذه ظاهرة غريبة تستحق الدرس ، وأحق الناس بالفتوى فيها علماء الجمال الاجتماعى .

الليـــل

فى ليلة حالكة السواد ، بعدتُ عن ضوضاء المدينة إلى مكان قصىّ على شاطئ البحر ، أهرب بنفسى من جرائيم المدنية ووباء الحضارة ، وأغسلها من أدران التقاليد والمواضعات ، وأطهرها بالانغماس فى عالم اللانهاية : فى السماء والماء والجو الفسيح الذى لا يحده حد ولا ينتهى إلى غاية .

غاب فيها القمر فلعبت النجوم ، ولو طلع لكسفها وهى أكبر منه حجما ، وأعظم قدراً ، وألمع ضوءاً ، ولكن دنيانا هذه يسود فيها التهويش حتى فى القمر والنجوم .

كان سواد هذه الليلة أحب إلى نفسى من ضوء الشمس ونور القمر ، فللنفس حالات تنبسط فيها ، فيعجبها البحر الهائج ، والوسط المائج ، واللون الأبيض والأحمر ، والنكتة اللاذعة ، وتنقبض فتأنس إلى الليل الساكن ، والوحدة المريحة ، والسكون العميق ، واللون القاتم .

***

لك الله أيها الليل ! فما زلت بالفن حتى ملكته واحتويته ، فجعل يشيد بذكرك ، ويرفع من شأنك ، حتى لم تجعل لأخيك النهار نصيباً يقاس بنصيبك، فاقتسمتما الزمان قسمة عادلة ، واقتسمتما الفن قسمة جائرة !

فالمغنى يقصر مناداته عليك ، ولا يلتفت فى هتافه إلا إليك ، فإذا غنى بالليل نادى الليل ، وإذا غنى بالنهار لم يخجل فنادى الليل أيضاً ، والآلات كلها تتبعه فتردد على أوتارها ما ردده المغنى بكلماته ؛ ثم كان اسمك على قلته وضؤولته أداة طيعة فى صوت المغنى يوقع عليه ما شاء من نغمات : مرحة وحزينة ، ومديدة

وقصيرة ، وعالية وهادئة ، وباعثة للقوة واليأس والأمل ، وداعية إلى الضعف والخمول والكسل .

وحتى المصور ! لماذا شغف برسم غروب الشمس أكثر مما شغف بطلوعها ؟ ما ذلك إلا لأن غروبها إيذان بقدومك وارتقاب لزورتك .

أما الأدب فله فيه الباع الطويل والقول الذى لا ينتهى . تداولت عليه الأدباء ، فنقموا منه حيناً ، وتذللوا له حيناً ، من عهد الأستاذ امرئ القيس إذ يقول :

فيالكَ من ليلٍ كأن نجومه ... بكل مُغار الفَتْلِ شُدَّتْ بيذْبل

إلى عهد الأستاذ محمد عبد الوهاب إذ يقول :

« بالله ياليل تجينا ، وتسبل ستايرك علينا » .

شكوا طوله وتفننوا فى ذلك ما شاءوا ، فتخيلوا أن نجومه شدت بالحبال ، وربطت فى الجبال ، أو أن النهار ضل طريقه فظل الليل لا يبرح ولا يتزحزح ، أو أن النجوم حارت لا تدرى أتتيامن أم تتياسر فوقفت فوقف الليل بجانبها . وشكوا قصره فأبدعوا فى ذلك أيما إبداع ، فشبهوه بعارض البرق ، وأنكروا من قصره وجوده .

كان هؤلاء الذين يشكون طوله ويشكون قصره يتحدثون بعواطفهم ، ويترجمون عن مشاعرهم ؛ فجاء قوم على أثرهم يتحدثون بعقولهم ، فيقول الفرزدق :

يقولون طال الليلُ والليلُ لم يَطُل ... ولكنَّ مَنْ يبكى من الشوْقِ يَسْهر

ويقول ابن بسام :

لا أظلمُ الليلَ ولا أدَّعى ... أن نجوم الَّليلِ لَيْسَت تغور

ليلى كما شاءت فإن لم تَجُد ... طال ، وإن جادت فليلى قصير

***

أيها الليل ! كم لففت ثوبك على متناقضات : حزن على ميت ، وسرور لميلاد ، ومحب مهجور يشكو طولك ، ومحب واصل يشكو قصرك ، وعابد متهجد يناجي ربه ، وداعر فاجر يبغى حظه ، ودمعة حرّى تسبلها أم ولْهَى بجانب سرير مريض ، وضحكة صارخة تخرج من فم سكير عربيد ؛ ومجلس أنس تتجاوب فيه الأقداح والأوتار ، ويلبس فيه الليل ثوب النهار ، بين بدور ، وكاسات تدور ، كأنه مسرح صغير تمثل فيه الجنة بصنوف نعيمها ، أو معرض تعرض فيه الملاهى بشتى ألوانها ؛ ومجلس بؤس تتجاوب فيه الزفرات والحسرات ، وتتساقط فيه النفوس ، قد شَرِقوا فيه بدموعهم ، وتلظى الهم فى ضلوعهم ، فهم بين كاسف بال ، وساهم طرف ، ومنقبض صدر ، ولهيف قلب .

يترقبك السارق ليحتمى بسوادك فى سرقته ، والعاشق ليفر فى سكونك بعشيقته ، والناسك ليبتهل إلى الله فى صلواته ، ويتحد معه فى مناجاته ، والشاعر لينظم شجونه فى قصيدته ، والملحن ليوقع لحنه على قيثارته ، والسياسى ليدبر مؤامراته ، والعالم ليفكر فى نظرياته .

***

ولكن لماذا استأثرت بكل هذا والنهار قسيمك فى الخدمات ، وعديلك فى الحياة ، بل هو أشد منك حياة وأكثر قوة ، فسلطانه الشمس وسلطانك القمر ، وسلاحه الضوء وسلاحك الظلام ، وشعاره البياض وشعارك السواد ، وهو مبصر وأنت أعمى ، وطبيعته الحركة وطبيعتك السكون ، وهو يدعو إلى النشاط والعمل ، وأنت تدعو إلى الخمول والكسل ؟ ولكن شاء الله أن يمن على الذين استُضعفوا فى الأرض ويجعلهم أئمة ويجعلهم الوارثين ، فجعل من قوة النهار ضعفا ، ومن ضعفك قوة .

انتهزْتَ فرصة السكون الذى منحك الله ، فجعلت منه حركة دونها حركة

النهار ، فحركته حركة جسم وآلات ، وحركتك حركة عواطف وانفعالات ، وشتان ما بينهما ! لقد أطاق الناس مصائبه ولم يطيقوا مصائبك ، فقال الشاعر :

وحُمِّلْتُ زَفْرات الضحى فأطقتها   ومالى بزفرات العَشِيّ يدان

واستعنت بسلطان الحب فجعلته من أعوانك ، وأسرت العواطف فاتخذتها من خدامك ، فلما اجتمع لك الحب والعواطف نازلت بها الزمان ، وغلبت بها كل سلطان ؛ فالوصل لا يلذ إلا فى ظلك ، والهجر لا يلذع إلا فى كنفك ، والسرور لا يشع إلا فى حضرتك ، والألم لا يضنى إلا فى هدءتك .

من تعب فى النهار وجد فيك راحته ، ومن أتعبته الحركة نَعِم فيك بسكونك ، ولكن من تعب فيك لم يجد فى النهار عوضاً عنك ، ولم يرض به بديلا منك .

***

جالت هذه المعانى فى فكرى ، وامتلأت بعظم الليل نفسى ، فمنّ على بنومة لذيذة هادئة عميقة ، فقابل جميل ثنائى بجميل صنعه ، وأدى فريضة شكرى بجزيل فضله .

فقدان الثقة

لعل أسوأ ما تُمنى به أمة أن يفقد أفرادها الثقة بعضهم ببعض ؛ ففقدان الثقة يجعل الأمة فرداً ، والثقة تجعل الفرد أمة . الثقة تجعل الأجزاء كتلة وفقدانها يجعل الكتلة أجزاء غير صالحة للالتئام ، بل يجعل أجزاءها متنافرة متعادية توجه كل قوتها للوقاية والنكاية .

كم من الزمن ومن المال ومن النظم ومن الخطط تنفق إذا فقدت الثقة ؟ ثم هى لا تُغْنى شيئاً ولا تعيد ثقة .

تصور أسرة فقدَ الزوج فيها ثقته بزوجته ، والزوجة بزوجها ، ثم تصور كيف تكون حياتها : نزاع دائم ، وسوء ظن متبادل ، وانتظار للزمن ليتم الخراب .

وهكذا الشأن فى كل مجتمع : فى المدرسة ، فى الجيش ، فى الحزب ، فى القرية ، فى الأمة .

بل مالنا نذهب بعيداً والإنسان نفسه إذا فقد الثقة بنفسه فقد نفسه ؟ فلا يستطيع الكاتب أن يكون كاتباً مجيداً ولا الشاعر أن يكون شاعراً متفوقاً ، ولا أى عالم وصانع يجيد علمه وصناعته إلا إذا وثق بنفسه لدرجة ما ؛ وكم من الكفايات ضاعت هباء ، لأن أصحابها فقدوا ثقتهم بأنفسهم ، واعتقدوا أنهم لا يحسنون صنعاً ولا يجيدون عملا .

وكل ما ترى من أعراض الفشل فى أمة سببه فقدان الثقة ؛ فالحزب ينهار يوم يفقد الأعضاء ثقتهم بعضهم ببعض ، والشركة تنهار يوم يتعامل أفرادها على

أساس فقدان الثقة ، والمدرسة تفشل يوم لا يثق الطلبة بأساتذتهم والأساتذة بطلبتهم ، وكل جماعة تفنى يوم يتم فيها فقدان الثقة .

كل نظمنا — على ما يظهر — مبنية على فقدان الثقة ؛ فوظائف « المفتشين » فى جميع مصالح الحكومة والشركات أصبحت مؤسسة على فقدان الثقة ، فالمفتش فى الترام والسيارات العامة مبناه ضعف الثقة «بالكمسارى» ، ومفتش المالية يراقب حركات مرؤوسيه حتى لا يختلسوا أو يزوّروا ، ومفتشو الوزارات يرون إلى أى حد يطبق الموظفون تعاليم الوزارة .

قد كان الظن بالمفتشين أن يؤدوا عملا آخر غير هذا ، وهو أن يشرفوا على عمل المرؤوسين ليوجهوهم وجهة صالحة ، ويتعاونوا معهم على رسم الخطة القويمة ، ويصححوا الخطأ ، ويكملوا النقص ، ولكنهم — فى الأغلب — وقفوا فقط موقف الضابط يضبط الجريمة ، والصائد يرقب الفريسة ، لا موقف الهادى المرشد والناصح الأمين .

فإن أردت « بنداً » واحداً من « بنود » ما ينفق من الأموال فى سبيل عدم الثقة فاجمع مرتبات المفتشين فى جميع مصالح الحكومة .

وليس الأمر مقصوراً على هؤلاء ، فالمراجعون ومراجعو المراجعين ، والأوراق تمر من يد إلى يد ، ومن قلم إلى قلم ، ومن مصلحة إلى مصلحة ، ومن وزارة إلى وزارة . كل ذلك له أسباب ، أهمها « فقدان الثقة » .

وإن شئت حصر ما يستهلك من الأموال لفقدان الثقة فلا تكتف بمرتبات المفتشين ، بل أضف إليها مرتبات كل هؤلاء الذين ذكرنا ، فلو قلنا إن نصف مرتبات الموظفين ينفق فى سبيل فقدان الثقة لم نُبعِد .

وليست المصيبة كلها فى الأموال ، فلو كنا نقدر للزمان قيمة كغيرنا من الأمم لاستفظعنا مايستوجبه فقدان الثقة من أيام وشهور وسنين تضيع فى إجراآت

وتدقيقات ومراجعات ومناقضات وتعليقات مبناها كلها « فقدان الثقة » .

ثم هناك عقول للنابغين وكبار أولى الأمر فى الأمة تفكر ثم تفكر ، وتقدر ثم تقدر ، وتضع الخطط تلو الخطط ، والقوانين واللوائح والمنشورات تلو القوانين واللوائح والمنشورات ، ويخيل إليها أنها بما فعلت تأمن الخيانة والسرقة والتزوير ، وتظن بذلك أنها تعالج ما فسد وتصلح ما اختل ، وهى إنما تزيد بذلك فى « فقدان الثقة » .

أضف إلى هذا ما تسببه هذه المظاهر كلها على نفسية الموظف ، فهو يرى كل هذه النظم واللوائح والقوانين والمراجعات والمناقضات ، فيشعر أنها إنما شرعت له ومن أجله وبسبب فقدان الثقة به ، وأنها كلها تنظر إليه كلص وكمجرم وكمزور ؛ فيفقد الثقة بنفسه ، ويعمل فى حدود ما رسم له ، ويشعر بالسلطان عليه فلا يجرؤ على التفكير بعقله ، ولا يجرؤ على تحمل تبعة ، ويفرّ من البت فى الأمور ما وسعه الفرار ، حتى يكون بمأمن دائم من الأسئلة والمناقضات — وهذا هو سر ما نراه من بطء فى العمل ، وركود فى الحركة ، وضياع لمصالح الناس ؛ إذ لا شىء يبعث الثقة فى المرءوس مثل أن يثق به الرئيس ، ولا شىء يبعث الحيرة والارتباك والاضطراب إلا ما يشعر به من « فقدان الثقة » .

أنا كفيل بأنا لو قلبنا كل هذه النظم رأساً على عقب وهدمناها من أسسها وأزلنا أنقاضها ، ثم بنيناها على أسس جديدة من الثقة البحتة ، ما خسرنا من الأموال وما خسرنا من الأزمان والأنفس ما نخسر الآن ، ولو كثرت اللصوص وكثر الخائنون والمزورون .

هب أنا فتحنا مكتبة وأسسنا نظامها على الثقة بالموظفين والمترددين من المطالعين ، فاستغنينا عن مراقب واستغنينا عن مراجع واستغنينا عن مفتش وهكذا ، واكتفينا بعمير للكتب و « فتى » يضع الكتب كل يوم فى أماكنها ، فماذا يكون الشأن وماذا يكون حسابنا فى المكسب والخسارة ؟ لا شك أننا

سنفقد كتباً يسرقها بعض المترددين ، وهذا هو كل الخسارة ؛ ولكنا بجانب ذلك نوفر مرتبات كاتب ومراقب ومفتش ، ونوفر أزماناً طويلة تصرف فى عمليات الجرد والحصر ، وننشر الثقة بين المطالعين ، ونشعرهم بأن المكتبة فى حمايتهم هم وتحت إشرافهم ، فننمى فيهم الشعور بالتبعة ؛ فإذا كان هذا مكسبنا وهذه كل خسارتنا ، فإلى النار هذه الكتب المفقودة ، وخَسِئت عين كل من ينظر فى عمليات الحساب إليها وحدها ، ولا ينظر إلى كل هذه الأرباح التى ربحناها .

وهذا المثل الصغير يمكن تطبيقه تمام التطبيق على الأعمال الكبيرة فى المصالح المختلفة . بل إنى أشترى نشر الثقة بين الناس وتسهيل الأعمال ، وشعور الناس بالطمأنينة بأى ثمن ، بل لو أن التجارب دلت على أن ما نفقد من الأموال أكثر مما نربح إذا أسسنا النظم على أساس الثقة لاستمررت فى تجربتى ونظريتى ، وآمنت بوجوب الانتظار على هذا الأساس الجديد ، حتى يذهب هذا الجيل الذى أفسده النظام القديم ، وقضى على نفسه وعلى شعوره ، ولأنتظر جيلاً جديداً نشأ فى أحضان «الثقة» والشعور بالواجب وبالتبعة وبالحرية فى العمل فى دائرة ضيقة من القوانين المعقولة .

وهكذا الشأن فى جميع الأمور السياسية والاجتماعية ؛ فثقة أفراد الحزب بعضهم ببعض — ولو مراعاة للمصلحة — أضمن للنجاح ، وأقرب لتحقيق الغرض ؛ وثقة الجمعية برئيسها ، والرئيس بأعضائها — ولو تصنعاً — أقرب لأن ينقلب التصنع خُلقاً .

وقد رأينا — دائماً — أن العدوى فى المعانى كالعدوى فى المحَسات ؛ فكما أن التثاؤب يبعث التثاؤب ، والضحك يبعث الضحك ، فكذلك الثقة تبعث الثقة ، وعدمها يبعث عدمها . وبعد ، فلا تزال ترن فى أذنى كلمة سمعتها من أستاذ إنجليزى كان فى الجامعة : « إذا كنتم لا تريدون أن تولوا أموركم الأجنبى ، ولا تمنحون ثقتكم المصرى ، فكيف تعيشون ؟ » .

كيمياء الأفكار والعواطف

كان القدماء يفهمون من «الكيمياء» الإكسير المنشود الذى إذا عُثر عليه وأضيف إلى الزئبق أو الفضة بكمية محدودة ، تحت حرارة معينة ، انقلب الزئبق أو الفضة ذهباً إبريزاً .

وليس يعنينا هنا أن نبين ما أنفق الناس من جهد فى الوصول إليه ثم لم يصلوا ، ولا ما أنفقوا من مال وزمان فى سبيل العثور عليه ثم لم يعثروا ، ولا ما ملئت به كتب الفلسفة الإسلامية من جدل فى إمكان ذلك أو استحالته .

إنما يعنينا هنا أن نقول إن العلماء والأدباء نقلوا استعمال هذه الكلمة إلى المعانى بعد أن كانت مقصورة على المادة ؛ فسمى « الغزالى » كتاباً من كتبه « كيمياء السعادة » يعنى بذلك الإكسير الروحى الذى إذا عثر عليه إنسان حظى بالسعادة .

وقد استعملها ابن الرومى استعمالاً ظريفاً فى معنى قريب من هذا ، فقال يهجو أبا الصقر :

عَجب الناسُ من أبى الصَّقْر إذ ولى — بعد الإجارة — الديوانا
إنّ للجَدّ كيمياء إذا ما مَسّ كلباً أحاله إنسانا
يفعل الله ما يشاء كما شا ء متى شاء كائناً ما كانا

***

ثم سار الزمن الذى يغير كل شىء ، فغير — فيما غيره — مدلول كلمة «الكيمياء» وجعله قسيما للطبيعة ؛ فكما أن الطبيعة اختصت بدراسة الظواهر التى تغير صفات الأشياء ولا تغير جوهرها ، اختصت الكيمياء بدراسة الظواهر التى تغير جوهر

الأشياء ، فاتسع مدلولها ، وصار آخر ما تفكر فيه تحويل المعادن إلى ذهب إن كانت تفكر فيه .

والحق أن هناك كيمياء فى الأفكار والعواطف تشبه تلك التى فى المادة ، إلا أنها أعقد منها ، وأصعب حلا ، وأغمض اكتشافا . وإلى الآن لم توضع كتب — على ما أعلم — فى كيمياء المعانى على كثرة ما وضع فى كيمياء المادة ، وإن كانت كتب علم النفس أحيانا تمس هذا الموضوع مسًّا رفيقاً .

* * *

فلكيمياء الأفكار والعواطف فصول وأبواب لا عداد لها ، قد ينطبق عليها فى كثير من الأحيان فصول الكيمياء المادية وأبوابها ؛ ففى كيمياء المعانى ترشيح وتبخير وذوبان كالتى فى كيمياء المادة ، وفيها تبلور وتقطير ، وفيها عناصر ومركبات ومخاليط ، وفيها أحماض وأملاح وقواعد ، وفيها جزئيات وذرات لها أوزان وكثافات — ولها رموز وقوانين أدق من رموز الكيمياء المادية وقوانينها ، ولها معادلات أصعب حَلا وأبعد منالا .

هل علمت — مثلا — أن الماء يتكون من غازى الأوكسيجين والأيدروجين بنسبة واحد من الأول واثنين من الثانى باعتبار الحجم ؟ فكذلك الشأن فى الأفكار والعواطف ، فقد يكون لديك فكرة من نوع ما ، أو عاطفة من نوع ما ، ثم تسمع فكرة من محدث ، أو تقرأ فكرة فى كتاب ، وتكون فكرتك من وزن خاص ، والفكرة التى سمعتها أو قرأتها من وزن آخر ، فتتحد هاتان الفكرتان ، وتتولد منهما فكرة جديدة لا هى من النوع الأول وحده ، بل هى نوع خاص ، علاقته بالفكرتين كعلاقة الماء بالأوكسيجين والأيدروجين .

وهل علمت أنك إذا ملأت قارورة ثلثها بالأوكسيجين وثلثيها بالأيدروجين ثم قربت فوهتها من لهب تسمع لذلك دويا هائلا ؟ كذلك الشأن فى العواطف ،

فقد يكون لديك عاطفة من نوع خاص ، ثم تسمع خطبة من نوع يناسبها فتنفجر نفسك لهذا الاتحاد انفجاراً هائلا ، وتحس ناراً تملأ نفسك وتذكى حسك . أوليس الغضب — يحمرّ وجه صاحبه وتنقدح عيناه ، ويجعله يقذف الكلمات الحادة العنيفة ، ولا تهدأ ثائرته حتى ينتقم — ضرباً من ضروب هذا التفاعل الذى يشبه تفاعل الغازين ؟ أوليست الحماسة — تدفع الجندى ليرمى بنفسه فى خط النار ، ولا يقيم للحياة وزناً — أثراً من آثار ما يسمع من كلمات القائد وما يشعر من جو وبيئة ؟ أوليس الحب — يذيب النفس ، ويرهف الحس ، ويملأ القلب أسى حيناً ، وفرحاً وغبطة حيناً — إلا نوعاً من هذا التفاعل دونه التفاعل المادى والاتحاد الكيمياوى ؟

وكل ما ندرك من فرق بين التفاعل المادى والتفاعل الروحى أنا استطعنا أن نخضع المادة لبساطتها ، فنحلل أجزاءها بالكهرباء أو ما أشبهها ، ونقيس مقدار العنصرين أو العناصر المتحدة ، ونعرف مقدار كل منها ، ونرصد أثر التفاعل . أما فى الأفكار والعواطف فليس الأمر بهذه السهولة ، فلكل إنسان آراؤه وعواطفه ، وهى تختلف فيما بينها كل الاختلاف ، فى جوهرها ، وفى قابليتها لأفكار الآخرين وعواطفهم ؛ فقد نلقى الكلمة على عدد محدود من الناس فنشعر بأن أثرها عند كل إنسان يخالف أثرها عند الباقين ، كضوء النهار يفتح أعيننا ويغمض عين الخفاش ؛ وقد يقرأ شخص كتابا فيزعم أنه غيّر مجرى حياته ، وقلب تفكيره رأساً على عقب ، وألهمه من المعانى ما استحال بها إنساناً آخر ، وأحدث فى نفسه ثورة فكرية لم يحدثها أى كتاب غيره ، ويقرؤه إنسان آخر فلا يشعر هذا الشعور ولا قريباً منه ، ولا يحس له ميزة ولا يجد له طعما . وهذا بعينه ما يحدث فى الأجسام ، تقرب عود ثقاب مشتعل من ورق فيشتعل ، وتقربه من ثلج فيذوب ، وتقربه من رخام فلا يشتعل ولا يذوب . وأؤكد لك أن الرواية تعرض

فى السينما أو تلقى فى المسرح على عدد كبير من الناس تؤثر فى كل ناظر بمقدار لايتفق تماماً وأثر الباقين ، و إن كانت واحدة وممثلوها متحدين ، فإن هناك عاملا آخر من عوامل الوزن مختلفاً كل الاختلاف ، وهو عواطف الناظر وآراؤه ، وأن نتيجة التفاعل تختلف دائما باختلاف أحد المزوجين المتفاعلين .

إن أردت التوسع فى تطبيق هذه النظرية وجدت القول ذا سعة ؛ فالبائع الناجح فى المتجر ليس هو الذى يكثر الكلام أو يُقل الكلام ، وليس هو الخفيف الحركة ولا هو المهندم الثياب ، و إنما هو الذى يعرف شيئاً واحداً و يتقنه وهو «قانون التفاعل» ينظر إلى المشترى نظرة نافذة فيعلم نفسه ، و يعلم نواحيها ، و يعلم المواضع الحساسة منها ، و يعرف فى مهارة نقط التأثر عنده . ومقدار الأثر ، ثم يستعمل فى العرض وفى الكلام ما يتفق وما درسه من نفس المشترى ، و إذا الذى يصدر من البائع مناسب لنفس المشترى ومنفعل معها على نحو خاص ، و إذا الصفقة قد تمت فى سهولة و يسر ، على حين أن زميله ومن بجواره لايبيع مثل بيعه لأنه يخطئ فى فهم نفس المشترى ، فيتفاعل تصرفه تفاعلا عكسيا مع نفس المشترى ، فينتج من ذلك نوع من الغضب أو نوع من الغضاضة ينتهى عادة بالإعراض عن الشراء . فإن سألت ؟ كيف جهل هذا وعلم ذاك : وأين درس أحدهما ولم يدرس الآخر فنجح الدارس وفشل الجاهل ؟ قلت إن هذا الدرس لا يتعلم فى المدرسة و إنما يتعلم فى السوق ، و يتعلمه من حسن استعداده الفطرى وغريزته الطبيعية ؛ بل إن شئت طبقت هذه النظرية على كل ناجح وفاشل فى الحياة ، فالمدرس الناجح من استطاع أن يتعرف نواحى تلاميذه و يعرف ما يلق وما لا يلق ، وما يقال وما لا يقال ، و يصدر عنه ما يتفاعل وهذه النفوس ، فيصدر من ذلك التفاعل عطف وحنان وحب ، ورغبة فى المعلم ، ورغبة فى علمه ، ورغبة فيما يقول ، وتأثير بما يشير إليه .

وما الأسرة السعيدة ؟ وما الأسرة الشقية ؟ أليست السعيدة من عرفت

فيها الزوجة نفسية زوجها والزوج نفسية زوجته ، وعمل كل منهما على أن يصدر منه ما يتفاعل ونفس الآخر حتى ينتج هذا التفاعل تآلفا ، فإذا انحرف أحدهما عن هذا الوجه عن جهل أو عن علم ساء البيت ونشأ تفاعل من جنس آخر نتج عنه البغض والكراهية والشقاق .

الحق أن هذه كلها معادلات فى الكيمياء النفسية تشبه تمام الشبه المعادلات الكيمياوية التى تجرب فى المعمل . ومع الأسف لم يصل الناس إلى حد بعيد فى دراسة الكيمياء النفسية ، ولم ينشئوا لها المعامل الناجحة نجاح المعامل للكيمياء المادية . والخطأ فى النفس كثير الوقوع لصعوبة تعرف الذرات النفسية وتكوين المعادلات الدقيقة .

وإذا أدرك الإنسان هذا التفاعل واختلافه ودقته أدرك خطورته ، وخاصة فيمن يتصل مركزه بنفوس كثيرين كالصحفى والأديب ، والمعلم والخطيب ، والزعيم ؛ فقد يصدر عنه ما ينفعل ونفوس الناس فيكون سما ناقعا ، وقد ينتج عنه ما يكون دواء ناجعا .

فى الحر

اشتد الحر وشغُل الناس بالتفكير فيه ، وبطرق التغلب عليه ، وبالتأفف منه ؛ فهذا يدبر المال للإقامة فى مصيف فيوفق ويرحل ، وهذا لا يواتيه المال فيقيم على مَضَض ، وهذا نزاع عائلى بين ميزة الاصطياف فى أوربا والاصطياف فى الإسكندرية ، وهذا غنى أفلس يأتى عليه الحر فيذكره بأيام هنيئة قضاها فى أجود المصايف وأنزه الأماكن ، فتجتمع عليه لذعة الحر ولذعة الذكرى — وهذا بائع المرطبات والمبردات يسأل الله أن يزيد فى الحر حتى يكثر بيعه ، ويزيد ربحه ، وهذا يرقب درجة الحرارة من حين لآخر ليعلم أتحسن الجو أم ساء ، وهو يتبع المقياس فى رضاه وسخطه ، وهذا يقرأ نشرات مصلحة الطبيعيات ليقارن بين القاهرة والإسكندرية ، والقاهرة وبور سعيد ، فإن كان فى الإسكندرية رثى لمن فى القاهرة . وإن كان فى القاهرة حسد من كان فى الإسكندرية ؛ وإن كان فى أسيوط عزى نفسه بقلة الرطوبة وجفاف الهواء ؛ ومن كان فى مصر كلها حَمِدَ الله على أنه ليس فى أمريكا حيث يختنق الناس — وهذه شغلها التفكير فى المقارنة بين حمام ستانلى وسيدى بشر : أيهما أكثر ناساً ، وأنظف مرتاداً ، وأحسن للعرض وأمتع للنفس . وهذا يرتقب غروب الشمس التى تكويه بنارها ليخرج إلى الجزر والأنهار والمقاهى المفتوحة والملاهى فى الجو الطاق ، فينتقم فى ليله من نهاره — وهذا وهذا وهذه وتلك ، مما لا يعد ولا يستقصى ؛ ولكن لابد من « هذه » أخرى أنسيتها ، فهذا كاتب وشاعر شغله الحر من ناحية أخرى ، فهو يريد تشبيها جميلا للحر أو تعبيراً بليغاً ، فيقول : هذا الجو أحر من الرمضاء وأحر من دمع الصب ، وأحر من قلب العاشق ، ومن فؤاد الثاكل ؛ ثم لا تعجبه

هذه كلها فيريد تشبيهاً مخترعا ، أو عبارة مبتكرة ، أو استعارة بديعة ، فيسبح فى الخيال ، وينسى الحر ، وهى حيلة لطيفة للتخلص منه !

أما أنا فقد ضايقنى الحر وحرت بين مصر والإسكندرية ، تؤلمنى الأولى بحرها القاسى ، وتؤلمنى الثانية برطوبتها الثقيلة ، ووددت أن لو كان لى من المال ما يمكننى من أن أطير صباحاً فأقضى النهار فى الإسكندرية ، وأطير مساء فأقضى الليل فى القاهرة .

وأخيراً رأيت أن أهرب من الحر حيناً بالتفكير فى الكتابة فيه ، وقلت إنها فرصة جميلة أن أكتب فى الحر ، فإن خرج المقال قيما ممتلئاً حرارة وقوة ربحت ربح المحسن فى عمله — وليس لى كبير أمل فى ذلك — وإن خرج المقال بارداً أكون قد أحسنت إلى الناس فروحت عليهم ، وانتقمت من الحر ، وأعنتهم عليه ؛ وأى فرصة للكاتب خير من هذه ؟ يحسن إذا أحسن ، ويحسن إذا أساء ؟ وللإنصاف لا بد أن أعلن أنى لست مبتكراً لهذا المعنى ، إنما أخذته من نادرة لها اتصال بالحر ، فقد أنشد بعضهم بيتاً من الشعر ، فقال سامعه : إن هذا البيت لو طوح فى نار المتنبى لأطفأها ، ويريد ببيت المتنبى قوله :

فى فؤادِ المحب نارُ جوًى   أحرُّ نار الجحيم أبردُها

فكذلك أردت أن أثأر لنفسى وللناس من حر هذا العام بكتابة مقالة تطفئه ، وأخشى ما أخشاه أن تخرج فاترة ، لا بالحارة فتعجب ، ولا بالباردة فتطفئ .

***

أول ما خطر لى فى الحر أنى الآن لابس ثو[illegible]بض وا[illegible] فضفاضاً ، مكشوفُ الرأس عارى القدمين ، جالس فى حديقة ، أشجار عن يمينى وأشجار عن يسارى ، وحوض زهر أمامى ، وقد رشت الأرض من حولى ، وبجانبى إناء مما يحفظ فيه الماء مثلوجا ، لا أدرى ما اسمه بالعربية ؛ وكل شئ حولى يرطب

الجو ويلطفه ويعدله ، وأنا مع هذا كله برم بالحر ، ضيق الصدر ، مَغيظ محنق ، أتلمس أقل سبب ، لأعلن الغضب — وعلى البعد منى أصوات ترتفع بالنداء ، هذه تحمل قفصاً مملوءا بالفراخ ، وهذا يجر عربة ملئت بأصناف الخضر ، وهـذا ثالث يحمل على رأسه سفطاً كبيراً قد ملئ بالتين أو العنب ، وهو سائر طول نهاره فى هذا القيظ ينادى ، لا يعبأ بشمس ولا حر ، ولا يضجر كما أضجر ، ولا يألم كما آلم ، ولا يفكر فى الحر كما أفكر — أليس فى الأرض عدل ؟ أليس الشقاء قد أكسبه مناعة وقوة ؟ أوليست الرفاهية والمدنية والنعيم قد حرمتنى الجَلَد والاحتمال ؟ إنه ليسعد بما أشقى به ، إنه ليسعد بشربة ماء من كوز من حنفية ، ويسعد بالارتماء فى ظل بيت فى الشارع بعـد أن أعياه التعب وأضناه السير ، ويسعد بقرش يكسبه ليشترى به خبزا جافا يأكله فينعم به . إن كانت السعادة فى اللذة والطمأنينة وهدوء البـال ، فما لا شك فيه أن هناك مجالا للتفكير العميق « أينا أسعد » . وتبًّا للعيش الناعم ، والمدنية المعقدة ، والرفاهية المترفة ، التى أرهفت حواسنا وإحساساتنا ، وأفقدتنا الصبر واحتمال المـكاره ، وجعلتنا نفر من نعيم إلى نعيم أدق منه نظن فيه السعادة ، وما السعادة إلا فى العيش البسيط والمران على الجَلَد ، واحتمال ألوان الحياة وصنوف التعب ، وأقلها الحر والبرد . إن تحتمل الحر فلا حر ، وإن تحتمل البرد فلا برد ، وإن تعتد بساطة العيش تكره نفاق المدنية . وإن السعادة لخير ما يحقق مذهب « اينشتين » فى النسبية ، فكل شىء فى الحياة من لذة وألم نسبى ؛ وليست اللذة والألم يعتمدان على الشىء الخارجي فحسب ، بل هما نتيجة تفاعل بين الشىء الخارجي والنفس ، ويختلف هذا التفاعل اختلافا كبيرا باختلاف النفوس ؛ فليس الألم من الحر والبرد يعتمد على درجة الحرارة وحدها ، إن صلح الترمومتر أن يكون مقياساً لحرارة الجو ، فلا يصلح أن يكون مقياساً لألم النفس من الحر ، وليس لهذه الحال ترمومتر مشترك يتساوى

فيه الناس ، إنما لكل إنسان فى الألم من الحر والبرد ترمومتره الخاص ، ولذلك ترى من يموت من الحر ، ومن يموت من الضحك على الحر . ومن الغريب أن يتوجه كل الناس بكل مجهودهم للتخلص من الحر بالاصطياف وسكنى الشواطئ والمراوح والمرطبات ، ولا يبذلون أى جهد فى الناحية الأخرى وهى الناحية النفسية بترويضها وتمرينها على الاحتمال ، وتعويدها الصلابة ! وهذا فى نظرى ليس أقل شأناً ولا أصغر قيمة من العلاج الأول .

***

وخطر لى أن علماء الجريمة يذكرون أن هناك أنواعاً من الإجرام تكثر فى الصيف كالإجرام الجنسى ، وأنواعاً تكثر فى الشتاء كإجرام السلب والنهب ، فقلت لعل ذلك أيضاً فى الأدب ، فالأدباء يهيج بعضهم على بعض صيفاً أكثر مما يهيجون شتاء ، ويهيجون فى القاهرة أكثر مما يهيجون فى الإسكندرية ؛ إن شئت مصداق ذلك فانظر ما كان بين من يسمونهم أدباء الشيوخ وأدباء الشباب ، وانظر ما كان بين أدباء الشيوخ بعضهم و بعض ، وأدباء الشباب بعضهم و بعض ، أليس هذا كله فعل الحر ؟ أو ليس من كان فى الإسكندرية على شاطئ البحر كان يعجب من فعل الحر فى أدباء القاهرة ؟ ولئن كان الحر يؤاخذ على ما جنى من تعريض العلاقات بين بعض الأدباء لخطر ، فإنه يشكر على أنه استطاع أن يستخرج من الأدباء قطعاً فنية بديعة أكملت أبواب الأدب ، فإن القدماء قد عدوا من أبوابه باب الهجاء كما عدوا باب المديح — كما أنه يشكر إذ لم يسلط ناره الحامية على الأدباء طويلاً فقد حوّل عدسته إلى غيرهم ليتنازعوا ، فنجا الأدباء من ثورته ، وهدأت عواطفهم وتصافت نفوسهم .

***

وأخيراً خطرت لى محمدة جليلة للحر القائظ ، والبرد القارس ، وقلت إن هذه

المحمدة تفوق كل ما كان للحر والبرد من سوء ، ولولاها ما تقدمت الإنسانية ، وما رقى النوع البشرى هذا الرقى ، ولظل هائماً على وجهه كالوحوش ؛ ذلك أن الشمس بنارها اللافحة ، والحر بشدته اللاذعة ، والبرد بحدته القاسية ، وأمطاره المنهمرة ، وبرَده وثلوجه ، والطبيعة العنيفة بعواصفها ورياحها ، كل ذلك هو الذى ألجأ الإنسان قديماً إلى أن يبحث له عن ملجأ يأوى إليه من الحر والبرد ، فسكن الكهوف فى نشأته الأولى ، وظل يرتقى فى ضروب من الارتقاء حتى أسس البيت ، وأسس الأسرة ، وكونت الأسر القبائل والمدن ، وكونت هذه القبائل الأمم ، ثم تعاونت الأمم على ترقية النوع الإنسانى ، فلولا الحر والبرد ما أظن أن قد كان بيت ، ولولا البيت ما كانت أسرة ، ولولا الأسر ما كانت أمم . أليس الحر والبرد إذاً كانا أفعل فى ترقية النوع الإنسانى من كل مظاهر الحياة وظواهر الكون ؟ فإذا قلنا إن تقدم النوع البشرى مدين فى تقدمه لرداءة الجو، وشدة الحر والبرد ، لم نُبْعِد .

***

خطر لى كل هذا حينما حاولت أن أكتب فى الحر فبدأ الضجر يقل ، والألم يحتمل ، والنفس تهدأ ، والعاصفة تسكن والاحتمال يقوى . فهل هذا يستمر ؟ سأجرب .

على كل حال قد هزئت بالحر ونسيته — ولو إلى حين — بكتابة مقال فيه .

الشخصية

أعجب ما فى الإنسان شخصيته ، وقد تنوعت الشخصيات بعدد ما على الأرض من أشخاص ، فترى الشبه الكبير بين الحجر والحجر ، حتى يصعب عليك أن ترى بينهما فرقا ، وترى المطبعة تخرج آلافا من الكتب تتشابه وتتماثل ، لا تميز بين أحدها والآخر ، وترى الشبه الكبير بين الوردة والوردة فى رائحتها ولونها وكل شىء فيها ، وترى الحيوانات من فصيلة واحدة تتشابه وتتقارب حتى ليلتبس بعضها ببعض . أما الإنسان والإنسان فلا ، حتى ليكاد يكون كل إنسان فصيلة وحده ؛ فإن كان علماء « الأثنولوجيا » استطاعوا أن يقسموا الإنسان إلى أنواع ، وأن يضعوا لكل نوع خصائصه ومميزاته ، فذلك عمل تقريبى محض ؛ أما إن أرادوا الدقة التامة فلا بد لهم أن يضعوا كل فرد فى قائمة وحده ، له مميزاته الخاصة فى جسمه وعقله ، وروحه وخلقه ؛ فإذا أردنا أن نحصى الشخصيات فى هذا العالم فعلينا أن نحصى عدد الناس فنضع ما يساويه من عدد الشخصيات — وكانت اللغة عاجزة كل العجز عن أن تضع لكل شخصية اسما خاصا ، فاكتفت فى الجسم بأن تقول طويل أو قصير ، وسمين أو نحيف ، وأبيض أو أسمر ، مع أن كل كلمة من هذه تحتها أنواع لا عداد لها ، فهناك آلاف من أنواع الطول ، وآلاف من أنواع القصر ، وآلاف من الألوان ؛ ولكنها عجزت فقاربت ، ولو حاولت أن تضع اسما خاصا لكل نوع من أنواع العيون وحدها ، على اختلافها فى الألوان ، واختلافها فى النظرات ، واختلافها فى السِّحر ، واختلافها فى السعة والضيق لوضعت فى ذلك معجما خاصا ، وهيهات أن يغنيها .

وعجز علماء الجمال فاكتفوا بقولهم جميل وقبيح ، مع أن هناك آلافا من درجات الجمال ، وآلافا من درجات القبح ، بل إنك لا تستطيع أن تُنْزِل إنسانين فى منزلة واحدة من الجمال والقبح ، فلما أعياهم الأمر قنعوا بقبيح وجميل ، واكتفوا بالإجمال عن التفصيل .

وعجز علماء الأخلاق فوقفوا فى ذلك مثل موقف إخوانهم علماء الجمال ، فقسموا الأعمال إلى خير وشر ، وقسموا الصفات إلى فضيلة ورذيلة ، وسموا الإنسان خيّراً أو شريراً ، وهيهات أن يكون ذلك مقنعاً ، فالخير والشر يتنوع بتنوع الأفراد ، ولو كان للأخلاق ميزان دقيق لاحتاج إلى سنج بعدد ما فى العالم من إنسان .

الحق أن علماء كل علم عجزوا عجزاً تاما عن أن يجاروا الشخصيات فى كل مناحيها ، وأن يسيروا وراء تحديدها تفصيلا ، ووجدوا العمر لا يتسع لهذا ولا لبعضه ، فعُنُوا بوجوه الشبه أكثر مما عنوا بوجوه الخلاف ، وعنوا بالموافقات أكثر مما عنوا بالفروق ، وفضلوا أن يضعوا مسميات شاملة ، وإن شملها الخطأ ، وأن يضعوا قواعد عامة ، وإن عمها الغموض والإبهام ، وقالوا ليس فى الإمكان أبدع مما كان .

***

هذه الشخصية لكل فرد هى التى ميزته عن غيره من الأفراد ، وجعلتنى أنا أنا ، وأنت أنت ، وهو هو ؛ ولولا هذه الشخصية لكان أنا وأنت وهو شيئاً واحداً . هذه الشخصية هى مجموع صفاتك الجسمية والعقلية والخلقية والروحية ، تتكون من شكلك ونظراتك ونبراتك ، وطريقة حديثك ، ودرجة صوتك من الحسن أو القبح ، وإيمائك وإشارتك ، كما تتكون من عقليتك وكيفية قبولك للأشياء ، وحكمك عليها ومقدار ثقافتك — كما تتكون من تصرفاتك ،

وموقفك نحو المال ، ودرجة حبك له ، وعلى الجملة كل علاقتك بالحياة ، وكل علاقة الحياة بك . وإذ كان الناس مختلفين فى هذا كله اختلافا يسيراً أو كثيراً كانت الشخصيات كذلك مختلفة ، وبين بعضها وبعض وجوه شبه فى بعض الأشياء ، ووجوه خلاف فى بعضها ، وكانت بعض الشخصيات تتجاذب وتتحاب ، وتتباغض وتتنافر . وفى الواقع أن معنى أحبك أو أبغضك ، وأعْرِفك أو أنكِرُك ، أن شخصيتى تحب شخصيتك أو تكرهها ، وتعرفها أو تنكرها ، وصَدَق الحديث : « الأرواح جنود مُجنَّدة ، ما تعارف منها ائتلف ، وما تناكر منها اختلف » . وليس معنى حب الشخصية لشخصية أخرى أن الشخصيتين من جنس واحد ، وأن ميولهما متقاربة ، بل إن ذلك يرجع إلى قانون أكثر تعقيداً مما نظن ؛ فقد يتحاب الشخصان لأن ميلهما العلمى فى اتجاه واحد ، أو ميلهما إلى كيفٍ من الكيوف متحد ، وقد يتحاب الشخصان لأنهما مختلفان ويكمل نقصُ أحدهما الآخر ، كما يحب أحياناً كثيرُ الكلام قليلَ الكلام ، وكما يحب الساكنُ الهادئُ المتحفظُ المرحَ النشيطَ المتحركَ ، وكما تتعاشق الكهربائية السالبة والموجبة . على كل حال ليس قانون تجاذب الشخصيات وتنافرها قانوناً بسيطاً سهلا يمكن الفصل فيه بكلمة .

***

هذه الشخصيات الإنسانية تختلف قوة وضعفاً اختلافاً أكثر مما بين الآلات الميكانيكية والمصابيح الكهربائية ، فهذه شخصية عاجزة ضعيفة ذليلة ، لا يكاد يتبينها الإنسان إلا بعسر ، ولا يكاد يراها إلا بمنظار ، ولا يكاد يحسها إلا بمجهود ، هى « كاللمبة » قوتها شمعة واحدة ، بل هى فوق ذلك مغبشة لتضعف قوتها ، هى من جنس ما يستعمل فى حجر النوم ، نور كلا نور ، ووجود كعدم ، لا تتعب نظر النائم لأنه لا يشعر لها بوجود ، ولا تستهلك مقداراً يذكر من التيار

لأنها كامنة الحياة ، مسكينة فى فعلها وانفعالها ، ضعيفة فى تأثيرها وتأثرها ، وهذه شخصية أخرى قوتها ألف شمعة أو ألفان أو ما شئت من قوة ، تضىء فتملأ البيت نوراً ، بل هى أكبر من أن تضاء فى بيت ، إنما تضاء فى شارع كبير أو ساحة عامة ، إذا وضعت فى بيت أقلقت راحة أهله بقوتها ، وأعشت الناظر بضوئها ، وعد وضعها غير ملائم لجوها ، وكان مثل ذلك مثل من وضع « فناراً » فى بيت ، أو أشعل أكبر وابور ليصنع عليه فنجان قهوة — وبين اللمبة الأولى الضعيفة الخافتة ، والثانية القوية الباهرة درجات لا تحصى ، فكذلك الشخصيات بل أكثر من ذلك . ولكن هناك فروقاً بين الشخصيات واللمبات ، أهمها أن اللمبة الكهربائية لا يمكنك أن تنقلها من قوة إلى قوة ، فاللمبة التى قوتها شمعة واحدة هى كذلك أبداً ، والتى قوتها مائة أو مائتان هى كذلك أبداً ، وكل ما تستطيع أن تفعله أن تنظف اللمبة وتجلوها حتى لا يضعف غبش من قوتها ، ولا يقلل غبار من ضوئها . أما الشخصية الإنسانية فقابلة للتحول ، بل هى قابلة للطفرة صعوداً وهبوطا ، علواً وانحطاطا ؛ فبينما هى خاملة ضعيفة إذ اتصل بها تيار قوى أشعلها وقواها حتى كأنها خلقت خلقاً آخر ، وكأنه لا اتصال بين يومها وأمسها ، هى اليوم مخلوق قوى فعال يلقى أشعته إلى أبعد مدى ، وكانت بالأمس لا يؤبه بها ، ولا يحس بضوئها . كذلك ترى شخصيات أخرى يخبو ضوؤها ، فإذا هى مظلمة بعد نور ، وضعيفة بعد قوة ، ليس لها من حاضرها إلا ماضيها . وكذلك شاء الله : يُخرج الحى من الميت ، ويخرج الميت من الحى ، ويخلق الإنسان فى أحسن تقويم ، ثم يرده أسفل سافلين . وتاريخ الإنسان مملوء بالأمثال ، فكم من نابغ بعد خمول ، وخامل بعد نبوغ ، وميت فى الحياة الأدبية والاجتماعية حَيِي ، وحى مات ؛ وهكذا شخصيات الناس فى مد وجزر دائماً .

وهذا التغير المستمر فى الشخصيات هو الذى أبقى على أمل المصلحين فى

إصلاح الناس ، وباعد بينهم وبين اليأس .

***

وكل شيء يواجه الإنسان فى حياته يؤثر فى شخصيته أثراً صالحاً أو سيئاً ؛ فالغنى بعد الفقر ، والفقر بعد الغنى ، واليأس بعد الأمل ، والأمل بعد اليأس ، وما يعتريه من شدائد وكوارث ، وما يبذله فى صراع الحوادث ، وما يلاقيه من رخاء ونعيم ، وما يبعثه ذلك من هدوء واطمئنان — كل هذا وأمثاله له أثر فى تكوين الشخصية يختلف ضعفاً وقوة . وأهم غرض للتربية الصحيحة فى نظرى أن تجعل ممن تربيهم شخصيات هى أقوى ما يمكن أن يكون الأشخاص من حيث استعدادهم وأهليتهم ؛ فأنجح مرب هو الذى يستطيع أن يصل بطلبته إلى أقصى ما فى استعدادهم من رقى ، ويبلغ بشخصياتهم إلى آخر حدودها الممكنة ؛ ولكن بجانب هذا التأثير العادى اليومى تحدث حوادث بارزة فى تاريخ الإنسان وخاصة العظماء ، يكون لها الأثر البالغ والتغير الخطير ؛ وهذه الحوادث يصعب ضبطها وتعليلها وحصرها ؛ فقد تنقلب شخصيات الأفراد فجأة على أثر عقيدة دينية تملأ نفوسهم حماسة وقوة وعظمة ، كما رأينا فى فعل الإسلام فى رجاله أمثال عمر بن الخطاب وخالد بن الوليد ؛ فلولا الإسلام ما كانت لهم هذه الشخصيات البارزة ، ولكانت عظمتهم محدودة محصورة ، ولو سبقوا زمنهم سنين لماتوا كأمثالهم من عظماء الجاهلية : وقد يكون بروز الشخصية وظهور النبوغ فى الإنسان على أثر مقابلته عظيما ، فيحس بعدها كأن عود ثقاب أشعل فى نفسه فألهبها ، وأضاء ما بين جوانبه وحفزه للعمل ، وهون عليه الأخطار ؛ بل قد تكون العظمة نتيجة لشىء أتفه من ذلك ، فقد يقرأ جملة فى كتاب ، أو يسمع عبارة من خطيب ، فكأنها كانت مفتاح عظمته ، وكاشف حيرته ؛ بل قد تكون العظمة لم تأت من شىء خارجى ، وإنما أتت من تفكير الشخص فى نفسه وتحليلها وتبين

موقفها فى العالم ، وموقف العالم منها ، وتساؤله لها : ما رسالتها إلى العالم وكيف تؤديها — فإذا هو يشعر بعد طول التفكير كأن قبساً من نور إلهى ألهب نفسه ، وأضاء العالم أمامه ، فهو يسير على هدى ، ويؤدى رسالته كما بُلّغ ، إلى كثير من أمثال هذا مما لا يستطاع حصره .

ويظهر أن النفوس إذا نضجت تلمست الوسائل المختلفة لبروزها ، وظهور عظمتها . والصوفية يقولون : « صاحب الخصوصية لابد أن يظهر يوماً ما » . ولكن كم فى العالم من شخصيات كامنة ، لو هيئ لها عود الثقاب لاشتعلت ، ولو أتيح لها القبس لأنارت ! وكم من بذرة صالحة قوية لم تجد تربتها اللائقة بها ، فغلبتها على الحياة بذرة فاسدة ! وكم من زهرة بدأت تتفتح فأصابتها ريح هوجاء عصفت بها . وعمل المصلحين والشخصيات القوية فى كل أمة أن يستكشفوا هذه الكوامن فيقدموا لها الغذاء ، ويتعهدوها بالنماء .

ثروة تضيع

هى ما خلفها لنا الجيل الماضى القريب ، وتسلمناها منه يداً بيد ، ولست أعنى ما خلفه من شعر ونثر وكتب فى مختلف العلوم والآداب ، فهذه قد حفظناها ونشرنا بعضها وعنينا بها إلى حد ما ؛ إنما أعنى ما صدر عنهم من قول وعمل ، وما كان يدور فى مجالسهم من حديث ظريف أو نافع ، وما وقع لهم من أحداث وكيف تصرفوا فيها ، وأنماطَ مجالسهم وأحاديثهم ومجتمعاتهم ، ونحو ذلك مما يدلنا على حقيقة شخصيتهم ، ويفيدنا فى تعرف مجتمعهم ، ويعين المؤرخ بعد على رسم صورة صحيحة صادقة لحال المجتمع فى ذلك العصر وقدر نابغيه .

كان لعلى باشا مبارك « صالون » كبير فى بيته بشارع «المظفر» يغشاه عظماء الرجال والشبان وطلبة المدارس ، وكان يدور فيه كل ليلة من ألوان الحديث وشتى المقترحات ما ينبغى أن يسجل ، ومثل ذلك فى منزل عبد الله باشا فكرى ومحمد باشا قدرى ورفاعة بك وأمثالهم ، وكان نوع أحاديثهم ومباحثاتهم شائقا ممتعا يصور عصرهم خير تصوير ؛ ثم كان صالون كصالون الأميرة نازلى هانم « بعابدين » يختلف إليه قادة الفكر وعظماء الرجال فى العصر القريب ، يتحدثون فيه عن الشرق والغرب ، وتثار فيه أفكار لها قيمتها وخطرها ، وكان نمطهم فى أحاديثهم وتفكيرهم يخالف ما كان عليه رجال على باشا مبارك وأمثاله . وكان غير هذه الصالونات مجتمعات وأحاديث ونوادر وفكاهات فى البيئات المختلفة ، من بيئة فلسفية كبيئة السيد جمال الدين ، أو دينية اجتماعية كبيئة الشيخ محمد عبده ، أو فكاهية كبيئة الشيخ حسن الآلاتى ، أو بيئة المغنين أمثال عبده الحامولى ومحمد عثمان ، وكان يجرى فى جميعها أقوال وأفعال هى أدل على الذوق المصرى

والتفكير المصرى والخلق المصرى من كل ما خلفوا من مؤلفات ومجلات وصحف .

هـذه الثروة التى لا تقدر آخذة — مع الأسف الشديد — فى الضياع ، وليس يدون منها — فيما أعلم — شىء يذكر ، وأكثر الذين عنوا بترجمة هؤلاء الرجال أساءوا إليهم وإلى التاريخ كل الإساءة ، إذ كانت ترجمتهم « ترجمة رسمية » اقتصروا فيها على اسم المترجم له والمولد وتاريخ الولادة ، والمعاهد التى تعلم فيها والأعمال التى تولاها ، والكتب التى ألفها وغير ذلك مما يعد من الأعراض . فأما الجوهر ، وأما شخصية الرجل ، وأما حياته الاجتماعية التى تدلنا على من هو من قومه ، ومن هو فى نفسه ، فلا يعرضون لها بشىء . وقد كان السابقون الأولون — على تقدم عصورهم — أصح نظراً ، وأحسن أداء وأوفى للتاريخ ؛ فبين يدىّ الآن جزء من كتاب الأغانى فتحته حينما اتفق فوقع نظرى على ترجمة إبراهيم الموصلى ، فذكر نسبه ونشأته ، وذكر حكايات عدة حدثت له مع غلمانه وجواريه وأصحابه ، وما وصل إليه من الأموال وما ورثه أهله ، وأحاديث عن مروءته ، وأحداثاً حدثت له مع الرشيد ويحيى بن خالد ، وكيفية تعليمه الغناء للجوارى ، واتصاله بالخلفاء وسيرته معهم ، وعدد الأدوار التى غناها ، وعِشْقَه ومن عشق ، وأثر أصواته فى الناس ، إلى آخره مما يستطيع الأديب أو المؤرخ أن يضع له صورة دقيقة تمثله ، ويضع لمجتمعه رسماً واضحاً يبينه . وبين يدى كذلك الجزء الأول من كتاب جامع التواريخ المسمى « نشوار المحاضرة » للتنوخى ، يقول فى سبب تأليفه : إنه قد اجتمع قديماً مع مشايخ فضلاء ، علماء أدباء ، قد عرفوا أحاديث الملل ، وأخبار الملوك والدول ، وأحاديث البخلاء والظرفاء ، والعلماء والفلاسفة ، والأغنياء وقطاع الطريق والمتلصصين ، (وعدّد كل أصناف الناس) وكانوا يوردون كل فن من تلك الفنون على حسب ما تقتضيه المحادثة ، وتبعثه المفاوضة ، فلما تطاولت السنون ، ومات المشيخة الذين كانوا مادة هذا

الفن ، ولم يبق من نظرائهم إلا اليسير الذى إن مات ولم يحفظ عنه ما يحكيه ، مات بموته ما يرويه ، عمد من أجل ذلك إلى تدوين هذه الأحاديث فى كتابه ، والتزم أن يذكر فيه فقط ما يدور فى المجالس مما لم يذكر فى كتاب — ويقرؤه القارئ فيجده يصور عصره أجمل تصوير . وكتب الجاحظ لم تترك صغيرة ولا كبيرة من أخبار عصره وأحداثه الاجتماعية من الخصيان والغلمان ، والبخلاء والظرفاء ، والنبات والحيوان ، إلا أحصته وشرحته فى دقة وإسهاب .

وما لنا نذهب بعيداً والعصر الذى نسميه مظلماً أنتج مثل « الجبرتى » الذى دون من الأحداث وتاريخ الرجال فى عصره مالم نفعله نحن لعصرنا .

أما كتبنا نحن فقد عَمَدْتُ إلى خيرها وأخرجت منه ترجمة رفاعة بك ، فوجدته يسرد ولادته وتاريخها والمدارس التى دخلها ورحلته إلى أوربا ، والوظائف التى تولاها بعد عودته ، وأسماء الكتب التى ألفها أو ترجمها ، وسنة وفاته . ولكنك تتساءل بعد قراءتها : من رفاعة بك ؟ ما معيشته الاجتماعية ؟ ما شخصيته ؟ ما علاقته بقومه ؟ فلا تجد شيئاً من ذلك — هذا حال رفاعة بك الذى ملأ اسمه كل مكان ، فما بالك بأمثال المغمورين ظلماً ، أمثال الشيخ حسن الطويل والشيخ حسين المرصفى .

بل بالأمس القريب مات حافظ إبراهيم ، وكانت حياته الاجتماعيــة أغنى ما تكون حياة ، كل ليلة يغشى جمعاً أو يغشى بيته جمع ، فيملأ المجلس بأحاديثه العذبة ، وفكاهاته الحلوة ، وهى — فى كثير منها — تفوق ما دونه الأقدمون من ملح ونوادر ؛ ولعلها إن جمعت ودونت أفادت تاريخ الادب وتاريخ الاجتماع أكثر مما يفيده ديوانه ، ومع هذا لم ينشط أحد لتدوينها ، ولم يلتفت لقيمتها ، وسيعفى عليها الزمن الذى عفى على ملح المويلحى والبابلى ، وفى ذلك خسارة لا تقدر . ولقد حدثت بعض الأدباء فى ذلك ورجوته فى هذا العمل ، فاعتذر

بأن أكثر النوادر إنما تحسن إذا أديت باللغة العامية ، وتفقد قيمتها إذا حكيت باللغة الفصحى ؛ ولكن ما هذا الكبر على اللغة العامية ، والسابقون من أعلام الأدب لم يكونوا يتحرجون من ذكر النادرة الحلوة باللغة العامية ، إذا لم يحسن الأداء إلا بها ، كما فعل الجاحظ فى البيان والتبيين ، وابن زولاق فى أخبار سيبويه ، والأبشيهى فى المستطرف .

إن فى ذمتنا للجيل القادم عهداً أن نسلم إليه تاريخه كاملا متصل الحلقات كما تسلمناه ؛ فإذا نحن لم نفعل فقد أضعنا الأمانة وخُنَّا العهد . وفينا بحمد الله رجال شهدوا الجيل الماضى ، وكان لهم من المنزلة ما استطاعوا معها أن يخالطوا البيئات المختلفة ، ويطلعوا على خفاياها ودخائلها ، ولهم من الذكاء وحسن النظر وصدق الرواية وقوة الحافظة وبلاغة اللسان والقلم ، ما يمكنهم من الأداء على أحسن وجه ، أمثال الهلباوى ولطفى السيد وعبد الوهاب النجار ، والسيد محمد الببلاوى ؛ فهل يشاركوننا فى الشعور بما لديهم من ثروة حافلة ، وفى الشعور بما عليهم من تبعة ، فيقدمون للجيل الحاضر والقادم أثمن عمل تاريخى ، كما فعل أحمد باشا شفيق ؟ فإن لم يفعلوا فهل للشبان أن يدركوا قيمة ما عندهم فينشطوا للاتصال بهم ، وتدوين ما يأخذون عنهم ، قبل أن تضيع الثروة ، وتفلت الفرصة ؟ أطال الله فى أعمارهم .

النقد الأدبي

أوازن بين النقد من نحو عشرين عاماً والنقد الآن ، فأجده ليس خاضعاً لسنة النشوء والارتقاء ، بل لسنة التدهور والانحطاط ، حتى وصل إلى حالة من العجز يرثى لها .

فقد كان الكِتاب إذا ظهر هبت الصحف والمجلات لعرضه ونقده ؛ فاللغوى ينقده نقداً لغويا ، والمؤرخ ينقده نقداً تاريخيا ، والأديب ينقده نقداً أدبيا ؛ وتثور معركة حامية بين أنصار الكتاب وأعداء الكتاب ، وتظهر فى التأييد والتفنيد مقالات ضافية ، وبحوث عميقة شائقة . ولست أنسى ما كان يقوم به الأستاذ إبراهيم اليازجى من نقده « لمجانى الأدب » و « أقرب الموارد » ونحوهما من الكتب ، كما لست أنسى ما نُقد به كتاب « التمدن الإسلامى » والأخذ والرد اللذين قاما حوله ؛ وكان شوقى أو حافظ يقول القصيدة ، فيقوم ناقد معترض يبين معايبها ، ومادح مقرظ يبين محاسنها ؛ ومن هذا وذاك يستفيد الأديب ، ويرقى الأدب ، وتتجلى حقائق كانت خافية ، وتتهذب أذواق كانت نابية . وكان يؤلف الكتاب الدينى مثل كتاب « الإسلام وأصول الحكم » فتنشب معارك حامية ، وينقسم المفكرون إلى معسكرين ، وفى كل معركة شحذ للأذهان ودرس للمتعلمين ، وتمحيص للحقائق . قد كان فى نقدهم أحياناً هُجر وقذع ، وهجو وسباب ؛ ولكن كان بجانب ذلك حقائق تذاع وبحوث تنشر ؛ وكان كل من السباب والنقد العفيف علامة حياة أدبية ، وثورة فكرية ، وعقل باحث ، وقلم نشيط .

تعال فانظر معى الآن إلى ما وصلنا إليه ! لقد كثرت الكتب يخرجها المؤلفون

وأصبح الإنتاج الأدبي أضعاف ما كان ، في كل ناحية من نواحي الأدب ، من قصص وقصائد وموضوعات اجتماعية ، وكتب تاريخية ؛ وكثر الكلام في الأدب ، وخصصت أكثر الصحف صفحات للمقالات الأدبية ؛ وكان معقولا أن يساير النقد هذه الحركة فيرقى معها ، ويتسع باتساعها ، وتتعدد نواحيه بتعددها ، ولكن كان من الغريب أن تحدث هذه الظاهرة ، وهي رقى الأدب وانحطاط النقد .

نعم ، أعتقد أن الأدب العربي ارتقى عما كان عليه منذ عشرين سنة في جملته لا في كل ناحية من نواحيه ، فقد يجوز أننا لم نجد من يخلف « شوقى » و « حافظ » في ناحيتهما الشعرية ؛ ولكن الأدب — بمعناه العام — أصبح خيراً مما كان ، فغزرت معانيه بعد أن كان لفظيا ، وعمق بعد أن كان سطحيا ، وجادت القصة فيه نوعاً ما ، واتسع أفقه وموضوعاته قدراً ما ، وتأثر الأدب الغربي وقلده في مناحي رقيه . أما النقد فانكمش وانكمش حتى ضمر وذبل وأشفى على الهلاك .

وحسبك دليلا أن ترى أشهر الكتاب في العالم العربي يخرجون الكتاب تلو الكتاب فلا تكاد تجد ناقداً يعتد به ، وتقرأ ما يكتب عن ذلك في أشهر الصحف والمجلات فلا تجد إلا سراباً ، وأكثرها يكتفى باسم الكتاب وعرض موضوعه والاستعانة على ذلك بفهرسه ومقدمته ثم صيغة محفوظة متداولة من المدح والتقريظ ؛ فإن كان نقد فمظهر لا مخبر ، هو نتاج فقر عقلي وخمود ذهني ، ثم ينتهي الأمر ويغلق الباب ، فلا معارك ولا مساجلات ، ولا بحوث حول الكتاب ، ولا أخذ ولا رد ، ولا مظهر من مظاهر الحياة الأدبية . لا يشعر الناقد أن عليه واجباً يؤديه للقراء ، وأن منصبه يتطلب منه قراءة عميقة وآراء صريحة ، وتقديراً دقيقاً ، وأن ذمته لا تبرأ إلا ببحث شامل واف ثم إبداء لرأيه في غير تحيز ولا مواربة ، ولكن كل ما يشعر به أن المؤلف أهدى إليه

الكتاب ؛ فهو يلقى عن عاتقه العبء بكتابة كلمة خاملة ، ووصف فاتر ، ونقد سطحى .

ليس النقد مجرد استحسان الناقد أو استهجانه . فكل ما كان مبنيا على ذوق الناقد وحده ، ومجرد ادعائه أن هذا بليغ وهذا غير بليغ وهذا راق وهذا غير راق لأنه يتذوقه أو لا يتذوقه ، واكتفاؤه أحيانا بأن يصوغ عبارته فى الاستحسان أو الاستهجان فى قالب جميل ، كل ذلك ليس من النقد فى شىء . إنما النقد ما عُلل و بينت فيه أسباب الحسن والقبح ، وأسس على قضايا ثابتة . فبهذا يستفيد المنقود ، ويرقى الأدب ، ويسمو الذوق ؛ وبهذا وحده لا يكون النقد فتاتاً لموائد الأدب ، ولا متطفلا على نتاجه ، إنما يكون هاديا للأديب ومرشداً للجمهور وموجهاً للأدب نحو الكمال .

ولكن ما علة هذه الظاهرة فى الأدب العربى ، وليس من الطبيعى فى الأمم أن الأدب إذا رقى ضعف النقد ؟ فإننا نرى الظاهرة فى الأدب الغربى أن يرقى الأدب فيرقى النقد ، ويؤثر كلاهما فى الآخر تأثيراً محموداً — فيجب أن تكون علة ضعف الأدب العربى علة محلية لا علة طبيعية .

يظهر لى أن هذا الضعف فى النقد يرجع إلى أسباب عدة :

أهمها أن النقد الصريح الصحيح يحتاج إلى شجاعة أدبية قوية من الناقد ، ورحابة صدر من المنقود . وقد حدث فى تاريخ مصر الحديث أن جماعة تسلحوا بالشجاعة الأدبية فأظهروا آراءهم فى صراحة تامة ولم يبالوا الرأى العام ، سواء فى ذلك بحوثهم ونقدهم ، وكانت هذه البذرة الأولى للشجاعة الأدبية فى مصر ؛ فألفوا كتباً عبروا فيها عن آرائهم فى جلاء ووضوح ، وكتبوا مقالات تعبر عما يختلج فى نفوسهم وإن لم تكن على هوى الجمهور ، ونقدوا أدب الأدباء وإن بلغوا

القمة فى نظر الناس ؛ فكان صراع بين القديم والحديث ، وبين التفكير الحر والتقاليد ، وبين الأدب الناشئ والأدب الموروث . ولكن هذا الصراع انتهى بغلبة الجامدين ، ونال الأحرار من العسف والعنت فوق ما ظنوا ، وهذا يحدث مثله فى كل أمة من الأمم الأوربية ؛ ولكن هناك فرق كبير بيننا وبينهم ، ذلك أن أصحاب الرأى الجديد فى البلاد الراقية إذا أوذوا فى العصر الحديث رأينا من مقلديهم وأتباعهم فى الرأى من يمدونهم بالمال وبالمعونة . وكم رأينا من المال يجمع ليستعين به من نكب فى منصبه بسبب رأيه أو بسبب سياسته ، يتبرع به أغنياء اعتقدوا صحة رأيه أو وجاهة سياسته ، فعطفوا عليه ، وتحول عطفهم إلى اتخاذ وسائل لدرء الخطر عنه ، فاستمر فى شجاعته ، وشعر بأن تضحيته يقابلها عطف ، وأنه إن ضحى بالكماليات لا يصاب فى الضروريات ؛ بل وإن أصيب فى الضروريات ، فقد ضربت له أمثلة عدة أيام الثورة الفرنسية وقبلها وبعدها ، فتأصلت الشجاعة الأدبية ، ونمت بذرتها وأصبحت غير قابلة للفناء . أما فى مصر فكانت بذرتها هى البذرة الأولى ، وشعر القائمون بهذه الحركة الجديدة أنهم أصيبوا فى سمعتهم ، ثم رأوا أن أتباعهم تخلوا عنهم فى أوقات الضيق ؛ ومن عطف عليهم منهم فعطف أفلاطونى ، عطف يتبخر ، عطف لا يمكن أن يتحول إلى مال أو مجهود . وكان الرأى العام قويا مسلحاً فتغلب وانتقم وأصبحت له السلطة التامة ، وانهزم أمامه فريق المفكرين الصرحاء هزيمة منكرة ؛ ولم تكن له أمثلة كثيرة فى تاريخه القريب ، فاضطر إلى التسليم ، وتعود المجاراة بدل المقاومة ، والمداراة مكان الصراحة ، فلم يعد هناك معسكران ، ولم يعد صراع ، إنما هو معسكر واحد ولا قتال . وتعلم الجيل اللاحق من الجيل السابق ، فاختط خطته ونهج منهجه ، وأخذ الدرس عن أخيه الأكبر ففضل السلامة . وبذلك اختنق النقد الأدبى فى مهده ، وأصبح الأدب مدرسة

واحدة يختلف أفرادها اختلافا طفيفا ، فى العرض لا فى الجوهر . لا مدارس متعددة تتناحر وتتعاون ، وتتعادى وتتصادق وفى عداوتها وصداقتها الخير ، ولا أمل فى عودة النقد الصريح إلا ببذرة جديدة وروح جديد على شرط أن تكون البذرة صلبة تتحمل حوادث الدهر وعوادى الأيام .

ويتصل بهذا أن الأدباء عندنا صنفان : صنف نضج وتكوّن واستوى على عرش الأدب ، وهؤلاء هم القادة ، وهم أفراد معدودون تسالموا وتهادنوا ، وحرمنا ما بينهم من خصومة أدبية وعلمية ، وأصبح كل منهم كالعشّراء ، لا تميل إلى النطاح ولا ترجو إلا السلامة . وصنف ناشئ هو فى طور التكون ، وهو يخشى أن يتعرض لمن استوى على العرش ، فيبطش به بطشة جبارة تقضى عليه ، فلما جامل الكبراء بعضهم بعضا ، وخاف الناشئون من الكبراء ، ضاع النقد بين هؤلاء وهؤلاء .

ولعل من أسباب ضعف النقد أيضا السياسة قاتلها الله ، فقد تدخلت أولاً فنصرت الجمهور على القادة ، وعاونت الرأى العام على المفكرين ؛ وما كان الجمهور والرأى العام ينتصران هذا النصر لو وقفت السياسة على الحياد ، ولو فعلت لكانت الحرب سجالا ، ولظل المعسكران فى قتال ؛ وفى هذا تمحيص كبير للآراء ، فيصد الرأى العام المتطرفين ، ويدفع القادة غلاة المحافظين ، والأمة من هذا وذاك فى استفادة دائمة . أما أن تدخل السياسة فتبيد معسكراً بأكمله ، فكان الضرر كل الضرر . ثم إن السياسة — ثانياً — دخلت فى الأدب ، وقومت الأديب بلونه السياسى ، ولم يستطع الناس التفرقة بين موازين الأدب وموازين السياسة ، فأفسد ذلك الأدب والنقد معا . قد تقول إن السياسة تلعب هذا اللعب فى الأمم المدنة ولم يكن لها هذا الأثر . ولكنا نقول إن الأمم الناشئة تتضرر من تدخل السياسة أكثر مما تتضرر الأمم القوية ، وأكبر مظهر فى

ذلك أنه ليس بين أحزابها تنافر كالذى بين أحزابنا ، ولا ينكل حزب بالأحزاب الأخرى كما يحدث بيننا ؛ فالخصومة السياسية عندهم لا تفقد الصداقة فى أغلب الأحزاب ، وكذلك الشأن فى الخصومة الأدبية . أما الأمم الناشئة فلا تفهم من الخصومة السياسية والأدبية والعلمية إلا العداء العنيف . وفى العداء العنيف قتل للحرية .

فيض الخاطر

وهو

مجموع مقالات أدبية واجتماعية

كتبه

أحمد أمين

الجزء الثاني

القاهرة

مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر

١٣٥٩ هـ — ١٩٤٠ م

فهرس الجزء الثانى

وحى البحر ...

على صخرة مشرفة على البحر فى « المكس » جلست وحدى .

وقد تؤنس الوحدةُ مالا يؤنس الجمع ، ولـكن هذا لا يكون حتى تتخذ من نفسك صديقاً ، وليس ذلك بالأمر اليسير ؛ فكثير من الناس اتخذوا من أنفسهم عدوا ، يتناولونها دائماً بالنقد والتجريح ، ويصغّرون ما تأتى به من أعمال ، ويحقّرون ما يصدر عنها من آراء ، وينظرون إليها نظرة ذلة وحقارة ؛ فإذا هم وأنفسهم أعداء ، يهرُبون منها كما يهربون من خصومهم ، ولا يستطيعون أن ينفردوا بها طويلا ، كما لا يستطيعون أن يجالسوا أعداءهم طويلا ، فيلجئون إلى الأصحاب فإن أعوزهم الأصحاب لجئوا إلى كتاب ، فإن لم يجدوا كتاباً فإلى أى شىء إلا أنفسهم .

مصيبة كبرى ألا يصادق الإنسان نفسه ، لأن نفسك هى الشىء الوحيد فى العالم الذى لا تستطيع أن تهرُب منه ، فقد تستطيع أن تهرب من زوجك ، ومن ابنك و بنتك ، ولـكن لا تستطيع بحال أن تهرب من نفسك ولا بالموت ؛ فإذا كانت النفس عدوا كانت شر الأعداء ، وأثقل الأعداء ، لأنها عدو ملازم أثقل من الغريم الملازم .

وشعور الإنسان بحقارة نفسه وضعتها سم قاتل ، لا ينجح معه عمل ، ولا يرجى من صاحبه خير .

والغرور والأنانية شر ، ولـكن شرٌّ منه احتقار النفس وعداؤها والإشفاق عليها ، وتعذيبها الدائم بتأنيبها . وخير من هذا وذاك أن تقف منها موقف

الصديق ، تشجعه إن أحسن ، وتعتب عليه فى رفق إن أساء .

***

إن صادقت نفسك لذِذْت الوحدة ، ووجدت فيها متعة أية متعة .

والأنس بالوحدة فن كسائر الفنون ، يحتاج إلى مران طويل ومنهج شاق . فى أول ممارستها يشعر الإنسان بضيق أى ضيق ، ويحاول الهرب منها إلى كتاب أو صديق ، ثم لا يرى فى العالم شيئاً يُقرأ ولا فى نفسه معنى يُبحث ؛ وقد تعرض له أثناء ذلك خيالات مفزعة ، وتصورات محزنة ، ولكنه إذا صبر على الألم وكرر التجربة تجلى له العالم ، وأوحى إليه بمعان جديدة قيمة . إذ ذاك يجد لذة فى كل تفكير ، وعمقاً فى كل معنى ؛ وإذ ذاك يعرف نفسه ، ويجد ربه ؛ وإذ ذاك تتجرد النفس من غرورها وكبريائها ، ويتبين لها جهلها ، فتخلص النية فى أن تعرف فتعرف ؛ وإذ ذاك أيضاً لا تشغلها ضوضاء العالم ، ولا تُزيغ بصرها المناظر الزائفة ، فيظهر لها الحق فى جلاء ووضوح ؛ وإذ ذاك تشعر بنوع من اللذة يفوق لذة تحصيل العلم من معلم أو من كتاب ، وتشعر بأن الفرق بين النوعين كالفرق بين أن تنعم بمالك وأن تنعم بمال غيرك ، أو كالفرق بين من يجمع المال ومن يستخدمه فى إسعاده .

***

ثم ماذا ؟

هذا هو البحر بجماله وجلاله ، وديع حتى ليلعب به طفل ، جبار حتى ليرتعد منه أسطول ، صورة صادقة من صور الزمان فى إقباله وتجهمه ، وابتسامه وعبوسه ، ومده وجزره ، ولينه وشدته . ما جلست أمامه يوما إلا شعرت بلذة ألمية أو ألم لذيذ ؛ أما اللذة فلجماله ، وكل جميل يبعث السرور ، ويحيي الأمل ، وينعش النفس ؛ وأما الألم فلجلاله ، وأمام الجليل تتخاذل النفس ، وتشعر بضعتها فى جانب عظمته ،

وتفاهتها بجانب جبروته ، وحقارتها بجانب جلالته ، وفنائها بجانب أبديته .

فأمام الانبساط لجماله ، والانقباض لجلاله ، تكون اللذة الألمية أو الألم اللذيذ .

صبور لا ييأس ، مُجِدّ لا يَمَل ، يحارب الصخور الصماء فيغلبها بصبره ، وينال من قسوتها وصلابتها مع رقته وسلاسته ، ويذيبها فى نفسه ، فإذا هى لا شىء ، وإذا هو كل شىء .

من قديم والإنسان يُعمل عقله فى دفع أذاه واتقاء جبروته ، وكلما اخترع شيئاً استخدمه فى صَدّ غاراته ، وتنكب نكباته ، وهو هو رابض فى مَجْثمه ، معتزّ بقوته ، يتحرك من حين إلى حين ، فيختار أقوى ما أعده الإنسان ، وجهزه بأحدث الآلات ، وأمده بأحسن المخترعات ، فيضربه الضربة السريعة الحاسمة ، تأتى عليه فى لمح البصر وسرعة البرق ، فإذا هو لا شىء ، سواء فى ذلك أساطيله ومدرعاته ، وطياراته وغواصاته .

هذا هو البر ، قد خضع للإنسان ، كما يخضع الحيوان المستوحش فيستأنس ، مهّد الإنسان طرقه ، وأقام عليه مساكنه ، وثبّت فيه خطوطه الحديدية ، وغيّر جدبه خِصباً ، وجعل ترابه حقولا ناضرة ، و بساتين مثمرة ، ونباتات مزهرة ، وملَكه وتحارب على ملكيته ، وحدده وتنازع على حدوده ، والبر — فى ذلك كله — وديع كالحَمَل ، مستسلم كالعبد الذليل .

أما البحر فكلاّ ، باق على وحشيته منذ خلقه الله ، لم يسمح للانسان بطريق يمهده ، ولا خط يمده ، ولا مِلْك يمتلكه ، إن ادّعت دولة ملك جزء منه فكلام فى الهواء ؛ أو خط فى الماء ، أو حبر على ورق ، أو معاهدة تسجل فى البر . لم يستطع الإنسان — على اختلاف عصوره وتقدم علمه — أن يخضع قوته ، أو يحد من نشاطه ، أو يؤنسه كما آنس البر ، ولم يتحمل هو من إنسان — مهما عظمت قوته ، ولا من مركب مهما ضخم حجمه أو توفرت عدته — أية إهانة ، أو خروج عن

أدب اللياقة ؛ فإن حدثته نفسه بذلك مرة لعب به كما يلعب القط بالفار ، ثم ابتلعه فى هدوء من غير أن يشعر بذلك أحد ، أو سلط عليه جبلا من ثلجه ، فهشمه تهشيما ، وقطَّعه إربا ، ثم ابتلعه كذلك .

موقفه الآن من الإنسان وهو قوى ببخاره ، وحديده وناره ، وكهربائه ولاسلكيه ، موقفه منه وهو ضعيف لا يعرف إلا الشراع والهواء .

ديمقراطى بطبعه ، لا يخشى ملكا لملكه ، ولا غنيا لغناه ، ولا فقيراً لفقره ، ولا بائساً لبؤسه ، من أراد أن يستمتع بمائه — كائناً من كان — وجب أن يتقدم إليه بكل علامات الطاعة ، فيتجرد من مظاهر العظمة وأكاذيب الأبهة ، فيخلع حذاءه ، ويكشف رأسه ، ويعرى جسمه ، وإن كان غنيا تساوى بالفقير فى مظهره ، وإلا عرف البحر كيف يؤدبه .

اعتز بقوته ، فلم يسمح لمخلوق من مخلوقاته أن يعيش فى البر ساعة ، ولم يكن للبر مثل قوته فعاش أهله فى البحر أياماً .

كان — ولا يزال — عمقه الهائل ، وموجه القوى المضطرب ، وحركته الدائمة ، وقوته الضخمة ، مع ليونته وسلاسته وجمال منظره الهائم ، مبعث الحب والإجلال ، ومثار الشعر والخيال .

***

ثم ماذا ؟

ثم إنَّا والبحرَ والبر والعالم وحدة واحدة ، كل منا جزء منها ، وكل منا جزء صغير من آلتها العظيمة ، ولنا كلنا خطة واحدة وغاية واحدة ، علمنا بعضها ، وظننا بعضها ، وجهلنا أكثرها .

وهى كلها تخضع لإرادة واحدة ، يسميها الدينيون إرادة الله ، والمدنيون إرادة الطبيعة ، والحقيقة واحدة والاسم مختلف .

تدور هذه الآلة العجيبة فى نظام وإحكام يستخرجان العجب ! وما ظنك بآلة تلد نحو خمسين ألفا من صنف الإنسان فى الساعة وتميت مثلها ؟ وذلك — فقط — فى ذرة حقيرة من جسم العالم اسمها « الأرض » .

إن عقلنا ليعجز عن إدراك كنه هذه الآلة العظيمة عجز النملة عن إدراك كرة تسير هى عليها ، أو عجزِ أعشى عن إدراك ما فى الأفق البعيد ! .

إن العلماء يدركون من هذه الآلة ما أدرك أنا من منظر هذا البحر ؛ أُدركُ سطحه ، ولا أدرك عمقه ، وأدرك جماله وجلاله ، ولا أدرك كنهه ، وأدرك جزءه ، ولا أدرك كله .

إن لهذه الآلة قوانين حازمة صارمة ، تعطف كل العطف على من وافقها ، وتقسو كل القسوة على من خالفها ؛ وهذه القوانين معقدة مركبة تبعاً لتعقد الآلة وتركبها ، ولكل جزء من هذه الآلة قوانين ترتبط كل الارتباط بقوانين المجموع ؛ من وافقها حملته سالماً فى تيارها ، ومكنت له من أن يرتع فى نعيمها ، ومن خالفها كان كناطح الصخرة ، ينال من نفسه ، ولا ينال منها .

وأكبر شقاء العالم الإنسانى — أفراداً وأمماً — أتى من أنه جهل قوانينها ، أو عرفها ولم يسر عليها . ولا أمل فى سعادته حتى يعلم ، وحتى يعمل وفق ما يعلم .

***

ثم ماذا ؟

وجاءت موجة عالية ، فلطمت الصخرة لطمة قوية ، أصابنى رشاشها ، فتنبهت من أحلامى ، وعدت من حيث أتيت !

(صخرة المكس فى ٢٠ يوليه سنة ١٩٣٩)

الفرح بالبريد

ما رأيت « مصلحة » تتلاعب بعواطف الناس كما تتلاعب « مصلحة البريد » ففى كل يوم تحمل القناطير المقنطرة من « الخطابات » ، ليست قيمتها فى وزنها ولا عددها ، ولكن قيمتها فى عواطفها ، فكم خطاب حمل فى طياته أسمى عواطف الحب ، وأبلغ عبارات الغرام ، لو نشر ما فيه لكان آية من آيات الأدب الخالد ، ولو حلل لتقطرت منه دماء القلوب وعصارة الأفئدة — تزنه مصلحة البريد فتقدر عليه لخفته « قرشاً » ، ولو كان عندها ميزان للقيَم لأعجزها أن تجد له الطابع الذى يتناسب وقيمته ، فقد سهر فيه كاتبه الليالى ، يحاول أن يجد ترجمة دقيقة لمعانيه ، وعبارة حارة فى حرارة عواطفه ، وجملا رقيقة فى رقة نفسه ، وألفاظاً موسيقية فى موسيقى خلجاته . وهيهات أن يتم له ذلك مهما جوّد ، فاللغة لم توضع — فى الأصل — لترجمة العواطف ، وإنما وضعت أول أمرها للتعبير عن شؤون الحياة المادية من أكل وشرب ولبس ونحو ذلك . فلما حاولت التعبير عن العواطف شعرت بالعجز ، فأكملت نقصها باستعارات ومجازات وتشبيهات ومحسنّات وكنايات ، ثم تبين لها بعد ذلك كله أنها أكملت بعض النقص ولم تكمل النقص كله — ثم تأتى مصلحة البريد بعد ذلك ، فتعامل هذا الخطاب كما تعامل خطاباً لا يحمل معنى ، أو يحمل معنى سخيفاً وغرضاً تافهاً ، وليس هذا بأول ظلم فى العالم ؛ فقانونه قلب الأوضاع وإهدار القيم ، فإن عجبت فاعجب لقيّم قُوّم ، ولكن لا تعجب من قيم لم يقوّم ، فذلك هو الأصل .

***

ومن عجب أن البريد يحمل فى ثناياه نغمات موسيقية مختلفة التوقيع بأكثر

مما تختلف نغمات العود والقانون ، فهذه نغمة « وصل » سارة إلى أقصى حدود السرور ، وهذه نغمة « هجر » محزنة إلى أقصى غاية الحزن ، وبين هذه وتلك نغمات لاعداد لها ، بين السرور والحزن ، والقبض والبسط ، فغزل رقيق ، وعتاب لاذع ، وقطيعة مفجعة ، وحنو أبوى ، وقسوة وحشية ، وما شئت من لعب العواطف وتقلبات القلوب .

***

ثم ما رأيت عاملا تتعلق به الآمال ، وترتقبه العيون ، كما رأيت فى ساعى البريد . هذا محب ينتظر كلمة من حبيبه يمسك بها نفسه ، وهذا مشفق على مريض يتبرم من انتظار ساعى البريد يحمل إليه كلمة عن مريضه ، وهذا رب مال يرتقب ما يأتى به البريد ليفرح أو يحزن على ما خبأه له القدر من نجاح أو فشل ؛ ومثل ذلك كثير .

قد عرفوا مواعيد البريد فارتقبوها ، ومنهم من زاد به قلقه فكان يُخرج ساعته ينظر إليها كلما مرت دقائق ، ويستطيل الوقت ويلعن عقارب الساعة إذ تسير ببطء ، ومنهم من ارتقب «ساعيه» فى شرفة المنزل ليمتع به نظره ، ويغذى به أمله ، آتياً من بعيد يترنح فى مشيته ، ويتلاعب بما يحمل فى يديه من عواطف ، ويتنقل من بيت إلى اليمين إلى بيت إلى اليسار حتى يأتى دوره ، فينقبض وجهه وينبسط ، ويتذبذب بين اليأس والأمل ، وقد يضحك عليه القدر فيأتيه خطاب فيفرح ، ويفتحه فيحزن ، ويكون مثله مثل القائل :

ما أقبحَ الخيرَ تُعطـــــاهُ فتُحْرَمه   قد كنت أحسب أنّى قد ملأتُ يدى

ومنهم من يتكلف الرزانة فلا يتطلع للساعى ، ولكنه يكرر النظر فى صندوق البريد ، فيطل من زجاجته ويفرح إذا صاد ، وينقبض إذا لم يصد ، وهكذا أشكال وألوان ، وكلها حول البريد .

***

ويكاد يكون الفرح بالبريد صفة عامة يشترك فيها الناس على اختلافٍ بينهم في مقدار فرحهم ، فما سِر هذا الفرح ؟

هل هو فرح من جنس فرح الأطفال « بحلاوة البخت » وهو صندوق صغير من الورق ونحوه يشتريه الطفل ليرى فيه بخته ، وأساس هذا الفرح — نفسيا — أن الإنسان خِلقَ طُلَعة ، ركز فى طبعه حب الاستطلاع لما غمض ، والاستكشاف لما خفى ؛ فإذا رأى الناسَ يجتمعون فى الشارع على شيء تطلع إلى معرفة خبره ، وإذا رأى شيئاً مغلقاً تاق إلى معرفة ما فى داخله . وقد أدرك التجار هذه الغريزة فى الإنسان ، فكان من طرقهم أنهم أحياناً يستلفتون نظر الناس إلى السلع بإخفائها وحجبها عن الأنظار ثم الإيعاز بطرق مختلفة إلى الدلالة عليها ، والإتيان بها من صندوق داخل صندوق . وتجار الكتب الأفرنجية أحياناً يغلفون الكتاب بغلاف محكم ، أو يضعون له قفلا للدلالة على أن فيه ما يحجب عن الأنظار ، فيكون الجمهور بذلك أشوق إلى شرائه لاستكشاف أسراره ، وقد لا يكون هناك سر ولا شيء غير مألوف ، ولكنها المتاجرة بما فى الإنسان من حب الاستطلاع .

واستغل هذه الصفة أيضاً كتّاب القصص والروايات ، فحاكوا حوادثها حول مسألة خبئوها فى الرواية حتى يشتاق القارئ والناظر إلى معرفة خبيئها واستكناه كنهها ؛ ويكون نجاح الكاتب بمقدار مهارته فى الإخفاء ، والدلالة على ما خفى فى بطء وحذر ، وإلهاب الشوق إلى استطلاع ما غمض .

قد يكون هذا هو السبب فى فرح الناس بما يأتيهم من بريد ، وقد يرجحه أنهم يغضبون جد الغضب إذا علموا أن غيرهم فتح بريدهم . وليس سبب ذلك الغضب أن غيرهم قد حاول أن يطلع على ما قد يكون لهم من أسرار فحسب ، بل إن من أسباب غضبهم أيضاً أنهم فوّتوا عليهم لذة استكشاف المجهول ، واستيضاح الغامض .

وقد يكون عند كثير من الناس الفرح بكثرة البريد سببه الشعور بالعظمة ، فهو يشعر أن كثرة بريده آية شهرته ، وشهرته آية عظمته ، فالبريد يغذى شعوره بالعظمة و إعجابه بالشهرة ؛ فالتاجر إذا تضخم بريده كان ذلك آية كثرة عملائه ومعاملاته ؛ والسياسى إذا عظم بريده كان ذلك دالا على نجاحه فى سياسته ، وارتباطها بقلوب كثير ممن حوله ؛ والعالِم إذا كثر بريده دل على كثرة اتصاله بالحركة العلمية و بالعلماء ، وعلى شهرته فى الأوساط العلمية وهكذا .

وقد يكون لهذه القاعدة شواذ ، فمن الناس من يهربون من البريد هروبهم من مطالعة الوجه النكد ، والشر المفاجئ ، كأولئك الذين كانوا أغنياء فبددوا ثروتهم ، وأضاعوا أموالهم ، فلم يبق من آثار ثروتهم إلا بريد يطالب بديون ، أو ينذر بحجز ، أو يُفزع بصدور حكم .

***

وأيًا ما كان فمن مظاهر رقى الأمة أن يكثر بريدها فى المعانى والآداب والعلوم ؛ فيكثر تعامل الأدباء ، ويكثر التراسل بين الطلبة وأساتذتهم ، والقراء ومجلاتهم ، والسياسيين ورجالاتهم ، وزعمائهم وأتباعهم ؛ فإن هذا مظهر الحيوية العقلية والفكرية والاجتماعية ، ودليل على أن للأمة مثلا أعلى تنشده وتسعى إليه ، وتتجادل فيه ، وتتخاطب فى شأنه ، وتتراسل فى تمحيصه ، ودليل على أنها تفهم أن العيش ليس مجرد طعام وشراب ، ومعاملات مالية ، ورسائل غرامية ، وسؤال عن الصحة والعافية ، وتحديد موعد مقابلة ، واعتذار عن تأخر .

ويخيل إلىّ — مع الأسف — أن بريدنا الأدبى والعلمى والسياسى ضعيف جدا إذا قيس ببريد المعاملات المالية ، والشؤون الغرامية ، والحياة المادية .

والأمة إذا رقيت كثر بريدها الأدبى بمعناه الواسع ؛ وفى كثرته دليل على

توثق الصلات بين رجال المعانى من طلبة وأساتذة ، ومن أدباء وأصدقائهم وقرائهم وعلماء وأعوانهم ، وسياسيين وأتباعهم .

فى الأمة الراقية يفهم الأستاذ فى المدرسة أو الجامعة ، أن العلاقة بينه وبين طلبته لا تنتهى بمجرد إلقاء الدرس وتأدية الامتحان ؛ وإنما هى علاقة استرشاد علمى وروحى دائم ، فإذا تيسر اللقاء كاشف الطالب أستاذه بمشاكله وشؤونه ، كما يكاشف الشيخَ الصوفى مريدُه ، وكما يعترف النصرانى المتدين لقسيسه ؛ وإذا لم يتيسر فالبريد الأدبى يقوم مقام اللقاء .

وفى الأمة الراقية لكل أديب قراء هم « زبائنه » كما للتاجر « زبائنه » ؛ وهؤلاء زبائن الأدب يعرفون كل شىء عن أديبهم ، ويقرءون كل ما يكتب ، ويسمعون كل ما يخطب ، ويتعصبون له كما يتعصب السماعون لمغنيهم . وهم يقترحون عليه ما يكتب كما يقترح السماعون لمغنيهم ما يغنى ، وفوق ذلك ينقدونه فى نتاجه ، فيشجعونه إن أحسن ، ويبينون مواضع ضعفه إن أساء ؛ وعلى الجملة يراقبونه أشد المراقبة ، فيشعر بأنه حى بهم ، يستمد من قوّتهم ، ويصلح أخطاءه من التفاتاتهم .

أما الأديب عندنا فمثله مثل المحاضر فى « الراديو » يتكلم وحده ولا يشعر بما يجرى وراء حجرته ، ولا يسمع تصفيقاً ، ولا يحس ضيقاً ، وليس أمامه عيون يقرأ فى نظراتها علامات استحسان أو استهجان ؛ فهو فى طريقه مع غير مرشد ، ومن غير مشجع ؛ وبذلك ضعف البريد الأدبى .

كل الصلات بيننا مفقودة ، فلا صلة بين الأستاذ وطلبته إلا صلة الدرس ، ولا بين الأديب وقرائه إلا صلة القراءة إن كانت ، ولا صلة بين الأدباء أنفسهم إلا صلة السباب ، فإن لم يكن سباب فرياء ، ولما تكن بعد صداقة .

لكم حمل إلينا بريد أوربا أخباراً عن أدبائهم وما كان بينهم وبين قرائهم

من صلات أفادتهم فى توجيههم ، وما كان يطالعهم به البريد كل صباح من آراء ناضجة بجانب آراء تافهة ؛ وما كان بين الأدباء بعضهم وبعض من صداقة أوحت بالخطط وعدلت من المنهج ، وأنتجت مناظرات قيمة ، ومساجلات ممتعة ، فإن كان بينهم أحياناً سباب مُرّ فبينهم أحياناً صداقة حلوة ، وإن نفث بعضهم السم فمنهم من ينتج الترياق .

***

لشد ما أخشى أن يمطرنى القراء ببريد يكذبون به رأيى وينقضون به دليلى ثم يكلفوننى الإجابة عنه ؛ وهذا ما لا طاقة لى به ، فأثقل شىء علىّ أن أرد على البريد ، وسلوكى نفسه فى البريد دليل على ما أشكو منه ، فإن قنعوا ببريد لا رد له ، فلهم كل الشكر .

الدين الصناعى

هل تعرف الفرق بين الحرير الطبيعى والحرير الصناعى ؟

وهل تعرف الفرق بين الأسد وصورة الأسد ؟

وهل تعرف الفرق بين الدنيا فى الخارج والدنيا على الخريطة ؟

وهل تعرف الفرق بين عملك فى اليقظة وعملك فى المنام ؟

وهل تعرف الفرق بين النار أمامك وهى تلتهب وتأتى على كل ما يقدم لها من وقود ، وبين نطقك بكلمة النار وهى تجرى على لسانك فلا تمسه بسوء ؟

وهل تعرف الفرق بين إنسان يسعى فى الحياة وبين إنسان من جبس وضع فى متجر لتعرض عليه الملابس ؟

وهل تعرف الفرق بين النائحة الثكلى والنائحة المستأجرة ، وبين التكحل فى العينين والكَحَل ؟

وهل تعرف الفرق بين السيف يمسكه الجندى المحارب وبين السيف الخشبى يمسكه الخطيب يوم الجمعة ؟

وهل تعرف الفرق بين الناس فى الحياة والناس على الشاشة البيضاء ؟

وهل تعرف الفرق بين الصوت والصدى ؟

إن عرفت ذلك فهو بعينه الفرق بين الدين الحق والدين الصناعى .

يكدّ الباحثون أذهانهم ، ويُجهد المؤرخون أنفسهم فى تقليب صحفهم ووثائقهم عن تعرف السبب فى أن المسلمين أول أمرهم أتوا بالعجائب ، فغزوا وفتحوا وسادوا ، والمسلمين فى آخر أمرهم أتوا بالعجائب أيضاً ؛ فضعفوا وذلوا واستكانوا ، والقرآن هو القرآن ، وتعاليم الإسلام هى تعاليم الإسلام ، ولا إله إلا الله هى لا إله إلا الله ،

وكل شيء هو كل شيء ؛ ويذهبون فى تعليل ذلك مذاهب شتى ، ويسلكون مسالك متعددة . ولا أرى لذلك إلا سبباً واحداً هو الفرق بين الدين الحق والدين الصناعى .

الدين الصناعى دين حركات وسكنات ، وألفاظ ، ولا شيء وراء ذلك ؛ والدين الحق دين روح وقلب وحرارة .

الصلاة فى الدين الصناعى ألعاب رياضية ، والحج حركة آلية ورحلة بدنية ، والمظاهر الدينية أعمال مسرحية أو أشكال بهلوانية .

و « لا إله إلا الله » فى الدين الصناعى قول جميل لا مدلول له . أما فى الدين الحق فهى كل شيء ، هى ثورة على عبادة المال ، وثورة على عبادة السلطان ، وثورة على عبادة الجاه ، وثورة على عبادة الشهوات ، وثورة على كل معبود غير الله .

« لا إله إلا الله » فى الدين الصناعى تتفق مع إحناء الرأس والخضوع لشهوة البدن ، وتتفق مع الذلة والمسكنة . و « لا إله إلا الله » فى الدين الحق ، لا تتفق إلا مع الحق .

« لا إله إلا الله » فى الدين الصناعى تذهب مع الريح ، وفى الدين الحق تزلزل الجبال .

***

الدين الصناعى صناعة كصناعة النجارة والحياكة ، يمهر فيها الماهر بالحذق والمران . أما الدين الحق فروح وقلب وعقيدة ، ليس عملا ولكن يبعث على كل عمل جليل وكل عمل نبيل .

الدين الحق « إكسير » يحل فى الميت فيحيا ، وفى الضعيف فيقوى .

هو « حجر الفلاسفة » تضعه على النحاس والفضة والرصاص فتكون ذهباً .

هو العقيدة التى تأتى بالمعجزات فيقف العلم والتاريخ والفلسفة أمامها حائرة : بم تعلَّل ، وكيف تُشرَح !

هو الترياق الذى تتعاطى منه قليلا فيذهب بكل سموم الحياة .

هو العنصر الكيمياوى الذى تمزج به الشعائر الدينية فتطير بك إلى الله ، وتمزج به الأعمال الدنيوية فتذلل العقبات مهما صعبت ، وتصل بك إلى الغرض مهما لاقت .

هو الذى وجده كل من نجح ، وهو الذى فقده كل من خاب .

هو الكهرباء الذى يتصل فيدوّر العجل ، ويسيّر العمل ، وينقطع فلا حركة ولا عمل .

هو الذى يحل فى الأوتار فتوقع وكانت قبلُ حبالا ، وفى الصوت فيغنى وكان قبل هواء .

* * *

الدين الحق يحمل صاحبه على أن يحيا له ويحارب له . والدين الصناعى يحمل صاحبه على أن يحيا به ويتاجر به ويحتال به .

الدين الحق يجعل صاحبه فوق كل سلطة وفوق كل سياسة . والدين الصناعى يحمل صاحبه على أن يلوى الدين ليخدم السلطة ويخدم السياسة .

الدين الحق قلب وقوة ، والدين الصناعى نحو وصرف وإعراب وكلام وتأويل .

الدين الحق امتزاج بالروح والدم ، وغضب للحق ونفور من الظلم ، وموت فى تحقيق العدل . والدين الصناعى عمامة كبيرة ، وقباء يلمع ، وفرجية واسعة الأكمام .

« الشهادة » فى الدين الحق هى ما قاله الله تعالى : « إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون فى سبيل الله فيَقتُلون ويُقتَلون » . و « الشهادة » فى الدين الصناعى إعراب جملة وتخريج متن وتفسير شرح وتوجيه

« حاشية » وتصحيح قولِ مؤلِّف وردّ الاعتراض عليه .

الدين الحق تحسين علاقة الإنسان بالله ، وتحسين علاقة الإنسان بالإنسان لتحسن علاقتهم جميعاً بالله . والدين الصناعى تحسين علاقة صاحبه بالإنسان لاستدرار رزق ، أو كسب جاه ، أو تحصيل مغنم ، أو دفع مَغرَم .

***

لقد صدق من قال إن هذا الدين « لا يصلح آخره إلا بما صلح به أوله » وهل كان أوله إلا دين روح ، وهل كان آخره إلا دين صناعة ؟

جناية أهل كل دين أن يبتعدوا — كلما تقدم بهم الزمان — عن روحه ويحتفظوا بشكله ، وأن يقلبوا الأوضاع ، ويعكسوا التقدير ، فلا يكون للروح قيمة ، ويكون للشكل كل القيمة .

شأن « الإيمان » شأن العشق ، يحوّل البرودة حرارة ، والخمول نباهة ، والرذيلة فضيلة ، والأثَرَة إيثاراً .

والإيمان الحق كالعصا السحرية ، لا تمس شيئاً إلا ألهبته ، ولا جامداً إلا أذابته ، ولا مواتاً إلا أحيته .

***

من لى بمن يأخذ الدين الصناعى بكل ما فيه ، ويبيعنى ذرّة من الدين الحق فى أسمى معانيه ؟

ولى كبد مقروحة من يَبيعُنى بها كبداً ليست بذات قُروح

سحر العيون ...

من قديم والأشجار والأزهار والأطيار والنجوم ، قد مدت خيوطها إلى قلب الإنسان فأسرته ، فشعر شعوراً ساذجا بجمال السماء والأرض وما فيهما .

ولكنه فى عهده الأول قد شُغل بتحصيل القوت ، والتغلب على البيئة القاسية ، فلم يلتفت إلى الجمال إلا لماما ؛ فلما غلبَ البيئة ، وتيسرت له وسائل العيش وجَدَ من الزمن ما يكفى للتغزل فى الطبيعة ومُناغاتها .

هام بالجمال وفتن به ، وتفتح قلبه له ؛ وهاجت عواطفه نحوه ؛ فلم يكفه أن يرشف الجمال فى صمت وسكون ، بل دعته العاطفة الهائجة نحو الجمال أن يعبِّر عنها ، فكانت الموسيقى والرقص والأغانى والحفر والتصوير ، وكان الأدب ، وبعبارة أدق كان نوع من الأدب ، وعُدَّتْ هذه كلها فنوناً جميلة ، لأنها تعبر عن الجمال ، ولأنها فى ذاتها جميلة .

***

شُغِف الإنسان بالحسن يتبعه ، فوجده فى الزهور ، ووجده فى البحار والأنهار ، ووجده فى الطبيعة على فطرتها ، ووجده فى الإنسان نفسه . وما أشك فى أن الحب الذى كان بين آدم وحواء ، كان منشؤه ما قرأ آدم فى حواء من جمال الأنوثة ، وما قرأته حواء فى آدم من جمال الرجولة !

كان الإنسان الأوّل ينظر إلى الجمال جملة ، كما ينظر إلى العالم جملة ، وإلى كل شىء جملة ، فلما تقدم به الزمان ، أخذ ينظر إلى الأشياء تفصيلا ، وإلى الجمال كذلك تفصيلا . وبعد أن كان يعجب بالطبيعة جملة ، أخذ يُعجَب

بالشمس — مثلا — ثم أخذ يعجب بالشمس فى شروقها وغروبها ، ثم أخذ يعجب بالشمس تغرب فى البحر ، وهكذا .

وكذلك كان شأن الإنسان مع الإنسان ، أُعجب به جملة ، ثم أخذ يتبين مواضع الجمال فيه تفاريق ، فدلته المقارنة على شروط الجمال فى الأعضاء ، وهداه الذوق الفطرى إلى إدراك صفات الجمال فى كل عضو ؛ فالرشاقة فى القد ، والأسالة فى الخد ، والتَّلَع فى الجيد ، والذَّلف فى الأنف[١] ، والفلج فى الأسنان ، إلى آخر ما هنالك .

***

لعل أجمل الأحياء الإنسان ، ولعل أجمل ما فى الإنسان عيناه ، فإذا كان لكل شىء خلاصة فخلاصة الإنسان عينه ، هى مستودع سره ، وهى النافذة التى يطل منها غيره على ما فى أعماق نفسه ، وهى الترجمان الذى يعبر أصدق تعبير عما يجول فى نفسه من عواطف . تَعِد وتُوعد ، وترغِّب وترهب ، وترسل مرة شُواظاً من نار ، ومرة شآبيب من عطف وحنان ، تقسو وترحم ، وتُنعم وتؤلم ، وتصل وتصد ، وتُقْبل وتَنفِر ، وتَعجَب وتحتقر ، وهى فى كل موقف من هذه المواقف تتخذ لها وضعاً يناسبه ، وشكلا يوائمه ؛ تتلون ولا تلون الحرباء ، وتتشكل ولا تشكل الحسناء ، فى الأزياء — هى للمرأة أقوى سلاح ، وفى روايات الحب أمهر لاعب ، وفى مسرح الغزل أشهر ممثل ، وفى ميدان الأدب أبرز جائل وصائل .

***

وفى الحق أن لغتنا العربية من أكثر اللغات وفاء للعين ، واعترافاً بقيمتها ، تسجيلا لدقيقها وجليلها . لقد وضعوا لكل جزء من أجزائها — مهما دق —

---

(١) الذلف صغر الأنف واستواء الأرنبة .

اسما بل أسماء ، لا أطيل بذكرها ، ووضعوا بياناً لما يستحسن فى العين من الصفات ، وسمّوا كل نوع من الجمال باسم ، فقالوا : « عين ظمياء » ، إذا كانت رقيقة الجفن ، و « عين نجلاء » إذا كان جمالها فى سعتها ، « وعين حوراء » إذا كان جمالها فى شدة سوادها وشدة بياضها ، « وعين دعجاء » إذا كان جمالها فى لونها وسعتها معاً ، إلى آخره .

ثم التفتوا إلى شىء دقيق جدا يغبطون عليه . وهو اختلاف النظرات ؛ فعبروا عن كل نظرة بعبارة ؛ فقالوا « رنوت إليه » إذا أدمت النظر فى سكون طرف ، و « سارقته النظر » إذا نظرت إليه نظراً خفيا ، و « نظر شَزْرا » إذا نظر إليه بمؤخر عينه نظر الغضبان ، و « شفنه » إذا نظر إليه نظر المبغض أو المتعجب و « أزلقه ببصره » إذا نظر إليه نظرة متسخط ، و « رأيتهم يتقارضون النظر » أى ينظر بعضهم إلى بعض نظرة عداء ، إلى غير ذلك .

وكما غنيت اللغة بالعين وما يتصل بها ، غنى بها الأدب كذلك ؛ فمنذ طالعنا الأدب العربى ، رأينا الشعراء يعجبون بالعين ويتغزلون فيها ، من عهد امرئ القيس إذ يقول : « وعَيْنٍ كمرآةِ الصَّناعِ تُديرُها » — إلى حافظ إبراهيم إذ يقول :

غُضِّى جفون السحر أو فارحمى   متيما يخشى نِزَال الجفــون

وإلى ما شاء الله أن يكون من الشعراء .

***

وكما كان الناس ينظرون إلى الجمال جملة ، ثم أخذوا ينظرون إليه تفصيلا ، كذلك مؤلفو الأدب — كانت تآليفهم الأدبية شاملة لكل شىء ، وكان عرضهم للجمال لا يقتصر على شىء دون شىء ، ثم رأينا نزعة فى التأليف جديدة ترمى إلى التخصص فى الجمال ، والتخصص فى جمال شىء بعينه . فرأينا صلاح الدين بن أيبكَ الصَّفَدِىّ يعجَب بالخال ويفرد له تأليفاً يسميه « كشف الحال على

وصف الخال » ؛ ولم يكن موفقاً فى هذه التسمية ، بل كان قليل الذوق ، فما يصح فى باب الجمال أن يسمى شىء بكشف الحال .

وجاء شمس الدين النواجى ففتن بجمال العذار ، وألّف فى ذلك كتاباً سماه « خلع العذار فى وصف العذار » ؛ ولم يكن فى هذه التسمية أكثر توفيقاً من صاحبه .

ولكن مؤلفاً ثالثاً جاء فغضب من هذين الاسمين التابيين ؛ كما غضب من أن يلتفتا إلى الخال والعذار من جمال العيون ؛ فألف كتاباً فى العيون سماه « سحر العيون » ، فكان أكثر توفيقاً فى الاسم والمسمى .

***

من الأسف أنى لم أعثر على اسم مؤلفه ، ولكنه فى ثنايا الكتاب يقول : « أنشدنى صاحبنا الشيخ شمس الدين محمد بن أبى بكر القادرى المولود سنة ٨٢٤ » فمؤلف الكتاب — إذاً — من أدباء القرن التاسع الهجرى ؛ والظاهر أنه مصرى لأنه يروى لنا فى ثنايا الكتاب أحداثاً مصرية ، وأمثالا عامية مصرية .

أراد فى هذا الكتاب أن يذكر كل ما يتصل بالعيون ، وأراد أن يكون فى العيون طبيباً ، وفقيهاً ، وأديباً ؛ وكان خيراً له وللناس أن يكون أديباً فقط ؛ فما أحراه وقد خصص كتابه للعين ، أن يخصص نفسه لأدب العين ؛ فمن العسير أن يجمع إنسان بين المهارة فى الطب ، والمهارة فى الأدب .

على كل حال كان فى قسمه الأول طبيباً ، عرض للعين وشرحها ، ورسم لها صورة طريفة ، ووضع فى الصورة اسم كل طبقة من طبقاتها ؛ وتكلم فيما يعرض من أمراضها ، وما يلائم من الأدوية لعلاجها ، حسبما عرف من ذلك فى زمانه .

ثم انقلب فقيهاً ، فذكر دية العين فى المذاهب المختلفة . وكان لغويا ، فذكر مادة العين ، وإطلاقها واشتقاقها .

وأما ما فى الكتاب قسمه الأدبى ، عرض فى فصل منه ما وقع فى الأدب من تشبيهات العين ، فمنهم من شبهها بالسهم ، وشبه فعلها بفعله ، ومنهم من وصفها بالنبل ، أو بالخنجر ، أو بسنان الرمح ، أو بالسيف ، ومنهم من يشبهها بزهر الفول ومنهم من يشبهها بالنرجس ، وقد حكى لنا أن بعض الأدباء فى زمنه اعترض على تشبيه العين بالنرجس لصفرة لونها ، وقال إن هذا لا يصح إلا أن تكون العين معلولة بعلة اليَرَقان ، وأجاب بعضهم بأن بالمشرق نوعا من النرجس مكان الصفرة منه سواد ، وهو الذى يصح التشبيه به ، لا نرجس بلادنا ، أما ابن رشيق فقال : إن وجه الشبه فى تشبيه العيون بالنرجس هو الفتور لا اللون ، كما قال ابن المعتز :

وَسْنانُ قد خدع النعاسُ جفونَه ... فحكى بمقلته ذبولَ النرجس

وهذا الفتور هو الذى يسمونه المرض ، وهو مرض خير من ألف صحة ، كما قال ابن عباد :

ونظرن من خلل الستورِ بأعينٍ ... مَرْضَى يخالطها السقام صِحَاحِ

ثم ذكر فصلا عرض فيه لما وقع فى العين من التنكيت والأمثال .

وعرض لنا فصلا بديعاً موضوعه اختلاف مواقف الناس أمام العيون ، فمنهم من كان يعشق عين محبوبته ، فسمع تشبيهاً للعيون بعيون الغزلان فأكثر من شراء الغزلان ، وتربيتها وتوليدها ، ومنهم من سمع قول ابن الرومى :

وأحسن ما فى الوجوهِ العيون ... وأشبهُ شىء بها النرجس

فكان لذلك يكثر من زرع النرجس فى حديقته .

ومن الناس من أرْدَتْه النظرة الأولى ، وقال :

ما يفعل السِّحرُ بالألباب فى سنَةٍ ... فى الحال تفعله الأحداقُ والطُّررُ

ومنهم من كانت تحييه نظرة وتميته نظرة ، كالذى يقول :

الوجه منكِ عن الصواب يضلنى ... و إذا ضللتُ فإنه يهدينى

وتميتنى الألحاظ منك بنظرة   وإذا أردتِ ، بنظرة تحيينى

ومنهم من عرته حالة غريبة ، وهو أنه غار من عينيه أن تتمتع وحدها بالنظر إلى المحبوب فمنعها النظر كالذى يقول :

إنى لأحسد ناظرىّ عليكا   حتى أغض إذا نظرتُ إليكا

ومنهم من كان يربأ أن ينظر بعينيه إلى عين من يحب لأنه لا يستحق هذا الشرف . « قيل لبعضهم : أتحب أن ترى عينى محبوبك ؟ قال : لا . قيل : ولم ؟ قال : أنزّه عينيه عن عيون مثلى » .

وبلغت الغيرة من ديك الجن الحِمْصى فقتل جاريته وبكاها ، فقال :

فوحق نعليها ، وما وطئ الثرى   عندى أعزُّ علىّ من نعليها

ما كان قتليها لأنىَ لم أكن   أبكى إذا سقط الغبار عليها

لكن بخلت على سواى بحسنها   وأغار من نظر العيون إليها

وهكذا عرض لحالات الناس المتفاوتة ، وتصرفاتهم المختلفة إزاء الإعجاب بالعيون .

وانتقل من ذلك إلى « طيف الخيال » ، لأنه رؤيا العين فى المنام ، فذكر ما أبدع فيه الشعراء من ذلك ، وكيف تفننوا فى معانيه ، كالذى يقول :

نصبَتْ جُفونِى للخيال حبائلاً   لعل خيالا فى الكرى منه يَسْمَحُ

وكيف إذا أغمضتُهن ، بصيدِهِ !   ومن عادة الأشراك للصيد تُفْتَحُ

وقول كُشاجم :

لقد بَخِلَتْ حتى بطيفٍ مسلِّم   علىّ وقالت رحمة لنحيبى

أخاف على طيفى إذا جاء طارقاً   وناداك أن يلقاه طيف رقيبى

وانتقل من ذلك إلى ما تلاعب به الشعراء من الحوار بين القلب والعين ،

فالقلب يعتب على العين أنها جرّت عليه الويل ، والعين تعتب عليه أنه هو الذى دفعها إلى النظر بما أمّل وطمع :

يقولُ قلبى لطرفى إذ بكى جزعا تبكى وأنت الذى حَمّلْتَنى الوجعا
فقال طرفى له فيما يعاتبه بل أنت حملتنى الآمال والطمعا
حتى إذا ما خلا كلٌّ بصاحبه كلاهما بطويل السقم قد قنعا
نادتهما كبدى لا تتعبا فلقد قطّعتمانى بما لاقيتما قطعا

وختم الكتاب بباب طويل فيما ورد فى العين من الشعر الرقيق مرتباً على حروف المعجم . وذكر فى أكثر ما اختار سنة مولد الشاعر ووفاته .

* * *

ونلاحظ أن أكثر اختياره من الشعر الحديث الذى قيل فى العصر العباسى الثانى وما بعده ، كما نلاحظ أن كثيراً مما اختاره فى العيون لمعاصريه كان غزلا فى عيون الأتراك فيقولون أحياناً : « من الترك لم يترك بقلبى بقية » وأحياناً : « من آل خاقان له لفتة » وأحياناً : « من نسل يافثٍ نافثٍ » مما يدل على أن المصريين أعجبوا بعيون الأتراك ، وكانوا إذ ذاك هم الحكام ، وقصورهم ملأى بالمماليك منهم .

وبعد فهذا الكتاب معرض فنى من أغنى المعارض ، وهو معرض ليس فيه — على سعته وكثرة ما يعرض فيه — إلا العيون وأشكالها ونظراتها ، لو وقع فى يد فنّان صَنَاع ، لأبدع فى تصويره أيما إبداع ، وكم فى كنوز السلف من روائع !

أبو العِبَر

أمير من أمراء البيت العباسى . وناهيك بالأمراء العباسيين فى أيام سطوتهم من عز وجاه ، وعظمة وترفعٍ عن الناس .

يدعو الخليفةَ ابنَ عمه ، ويدعوه الخليفة ابن عمه ، حسب اصطلاحهم فى ذلك الزمان . ليس بينه و بين عبد الله بن عباس الصحابى الجليل إلا خمسة آباء ، فهو ابن محمد بن أحمد بن عبد الله بن عبد الصمد بن على بن عبد الله بن عباس .

يكفى أن يقول الرجل إنه من البيت العباسى لتخضع له الرقاب ، ويذل له العظيم ؛ والناس يسمونهم الأشراف وأبناء الملوك . وإذا كانوا فى حفل عند الخليفة فهو وحده يجلس على السرير ، وأهل البيت العباسى وحدهم يجلسون على الكراسى ، وسائر الناس يجلسون على الوسائد والبسُط .

ولكن لم يكن أمراء البيت العباسى كلهم أهل ثروة ورخاء ؛ فمنهم الغنىّ الواسع الغنى ، ومنهم الفقير وإن لم يبلغ حدا كبيراً من الفقر ، لأنهم كانوا يرتزقون من رواتب تخصص لهم من بيت المال حسب مشيئة الخليفة ، ومن هبات وعطايا توهب لمن شاء الخليفة ، فكان حظ « أبى العبر » هذا وأبيه من هبات الخليفة قليلا نادراً .

ولد أبو العبر بعد خمس سنوات من خلافة الرشيد ، أعنى سنة ١٧٥ ، وأخذ بعدُ يتعلم ويتأدب ، وعاصر — أولا — الرشيد والأمين والمأمون والمعتصم والواثق وصدراً من خلافة المتوكل .

وهو طوال هذه العصور جادٌّ فى حياته . رأى أنه ليس بالغنىّ غِنى غيره من

الأمراء ، ولا هو مقرباً من الخلفاء ، ورأى أن القرب إليهم أسبابه كثيرة ؛ منها القدرة السياسية ، ومنها القدرة الأدبية ، ومنها غير هذا وذاك ؛ فاتجه إلى الأدب يدرسه ، والشعر يقرضه ، لعله يصل من ذلك إلى منزلة تلفت إليه نظر الخلفاء ، ليدروا عليه العطاء ، ويغرقوه فى النعيم ، فتأتّى له شعر حسن غنّى به المغنون كقوله :

أبكى إذا غَضِبَتْ حتى إذا رَضِيَتْ بكيتُ عند الرضا خوفاً من الغضبِ
فالويلُ إن رضِيَتْ والعولُ إن غضبتْ إن لم يتم الرضا فالقلب فى تعب

وكاد يبسم له الحظ ويكون شاعراً مقبولا ، لولا أن رماه القدر بشعراء فحول أمثال أبى تمام والبحترى ، فنظر فى شعره وشعرهم ، وسحره وسحرهم ، فرأى أنه لا يستطيع أن يدركهم ولا يبلغ شأوهم .

رأى أن شعرهم جيد وشعره وسط ، ولأبى العبر رأى فى الشعر طريف ، وهو أنه إن لم يكن جيداً كل الجودة فليكن بارداً كل البرودة . أما الوسط فإياك وإياه : إن الجيد يعجبك بجودته ، والبارد يضحكك ببرودته ، أما الوسط فثقيل لا يستخرج إعجاباً ، ولا يستخرج ضحكا ، وقد عبر أبو العبر عن هذا المعنى بقوله : « إن قدرت أن تقول الشعر جيداً جيداً ، وإلا فليكن بارداً بارداً ، وإياك والفاتر فإنه صفع كله » .

ولكن أبا العبر لا يستطيع أن يقول كما يقول أبو تمام والبحترى ، وكل ما يستطيع أن يقوله هو الشعر الفاتر الذى لا يرتضيه ، فماذا يصنع ؟ ومما يزيد الأمر إشكالا أنه يريد المال ويريد القرب من الخلفاء ، وليس له وسيلة إلا الشعر والشعر الجيد لا يواتيه ، والشعر الوسط لا يَنفُق ، وليس بالسياسى فيحظى عندهم ولا قدرة له على ذلك ، فماذا إذن ؟

ليس إلا أن يلتفت إلى نفسه يعلمها القناعة ، فالقناعة كنز لا يفنى ، وإذا كان عطاء الخليفة ليس له غاية إلا رضى النفس ، فالقناعة يمكن أن توصل إلى

هذه الغاية نفسها . ولذلك أخذ يعطى نفسه دروساً فى القناعة ودروساً فى الرضا ، أحياناً يحدثها الحديث النفسى ، وأحياناً يقول فى ذلك شعره المتوسط :

لا أقول الله يَظْلِمنى كيف أشكو غير متَّهم
وإذا ما الدهرُ ضعضعنى لم تجِـدنى كافرَ النعم
قَنِعَتْ نفسى بما رُزقت وتناهت فى العُلا هِممِى
ليس لى مال سوى كرمى وبه أمْنِى من العدم

ولكن هذه الدروس لم تنجح ، وامتحن فيها فرسب ، إن لى بيتاً رفيعاً هو بيت الخليفة نفسه ، وبهذا البيت استحقّ الخلافة ، وفى يده القناطير المقنطرة من الذهب والفضة يبعثرها هنا وهناك ، فلماذا أُحْرَم حتى من القليل منها ؟ إن كل يوم تطلع فيه الشمس أرى فيه دروساً تفسد علىّ دروس القناعة والزهد . فهذا عالم يجد ويكد ولا يجد ما يسد رمقه ، وهذه الخيزران أم الرشيد تبلغ غلتها فى العام مائة وستين مليوناً من الدراهم . هذا مؤلف ينفق عمره فى تأليف كتاب أو كتب ، ولا يجازى على ما فعل . وهذه جارية تعجب الرشيد فيأمر يحيى بن خالد البرمكى أن يشتريها له بمائة ألف دينار . هذا سخيف يذكر نادرة تضحك الخليفة فيمنحه المال بالهيل والهيلمان ، وهذا ناصح ينصحه فيبعده ويقصيه ، وهذا شاعر يمدحه فيجعله فوق البشر فيمنحه من المال ما يشاء ، وهذا الرشيد يرضى عن جاريته « ذات الخال » يوماً فيحلف أنها لا تسأله فى ذلك اليوم شيئاً إلا فعل . فهل هـذا عالم معقول ؟ إن الجنون أنواع ، فنوع منه فى البيمارستان ، ونوع فى قصور الخلفاء ، ونوع موزع على سائر الناس ؛ غير أن الأول يبعث على الرحمة ، والثانى يبعث على النقمة ، والأخير يبعث على الإشفاق .

لقد نيّفتُ على الخمسين وأنا أجرب العقل فلم ينجح . أفلا يكون من الصواب أن أجرب الجنون مرة لعله ينجح ؟

إن أردتَ السعادة فعليك بأحد أمرين : إما أن تعيش عاقلا وسط العقلاء ، أو مجنوناً بين مجانين . أما أن تعيش عاقلا وسط مجانين ، أو مجنوناً بين عقلاء ، فذلك العذاب . وقد عشت طويلا عاقلا بين مجانين فشقيت ؛ فخير أن أجن وأعيش عيشتهم ، وأضحكهم وأضحك منهم .

فكّرَ « أبو العبر » فى ذلك طويلا ، ثم خرج من تفكيره إلى أن يكون أضحوكة الناس . إن لقبى أبو العباس ، وهو لقب جِد ، فلأطرحه ولأطأه بقدمى إعلاناً بفشل الجد فى هذا العالم . وهو أيضاً لقب يرمز به إلى بيت العباس ، وماذا جنيت منه إلا الفقر والبؤس وسوء الحال وخيبة المصير ؟ خير لك أن تتلقب لقباً يكون عبرة للناس وعنواناً على أن الجد لم ينجح وقد ينجح الهزل . فلتتوكل على الله ، ولتكن كنيتك من الآن أبا العِبَر .

خرج « أبو العبر » على الناس بفنون شتى من الأضاحيك ، فبدأ يسطع نجمه ، وكلما نجح شجعه النجاح على الإمعان فى السخف ، حتى بلغ فى ذلك الغاية ، وعلا صيته ، وتناقل الناس نوادره ، ودوّى اسمه فى العراق وغير العراق ، علَمَاً على الضحك والسرور . ويكفى أن يذكر الناس اسم أبى العبر ليتهيئوا للضحك ، ويكفى أن يذكروا له نادرة حتى يمسكوا أحشاءهم من كثرة الضحك .

لقد كان يألم من أنه لم يبلغ ما بلغ أبو تمام والبحترى وأضرابهما ، ففاتهم شهرة ، وعلاهم صيتاً .

وكان أول ما بدأ به أنه طبق نظريته فى الشعر ، فخصص نفسه للشعر البارد ، فكان يعمد إلى القصائد الجدية فيقلبها قصائد هزلية ، يسمع البحترى يقول :

من أى ثغر تبتسم   وبأى طرف تحتكم

فيقول هو :

فى أى سلح ترتطم   وبأى كف تلتطم

وهكذا ، والناس يضحكون منه ، ويصفقون له ، والخلفاء تسمع هذا منه ، وتمنحه من الجوائز فوق ما يجيزون الجد .

ثم أخذ يعمد إلى فن آخر طريف وهو فن « المفارقات » فيتكلم كلاما غريبا لا يُفهَم ، ولكنه يضحك ، فكلمة من الشرق بجانب كلمة من الغرب ، وكلمة على السفينة وأخرى على التفاحة ، وثالثة على المبتدإ والخبر ، وهكذا « سمك . لبن . تمر هندى » وقد سئل مرة : كيف تحضّر هذه المفارقات الغريبة ، وكيف يمكنك جمعها على شذوذها وبُعد أوصالها ؟ قال : « أبكّر فأجلس على الجسر ومعى دواة ودرج ، فأكتب كل شىء أسمعه من كلام الذاهب والجائى والملاّحين والمُكارين ، حتى أملأ الدرج من الوجهين ، ثم أقطعه عرضاً ، وألصقه مخالفاً ، فيجىء منه كلام ليس فى الدنيا أحمق منه » .

هذا كله فى باب المضحكات من الأقوال ، ولكنه لم يقتصر عليها ، فتفنن أيضاً فى المضحكات من الأفعال ، فكان — مثلا — يمشى فى الشارع ومعه سلّم ، أو يحمل فى يده سمكة ، فإذا سئل : لم يفعل ذلك ؟ أمطر سائله بإجابات مخزية تثير الضحك . ويجلس فى الشارع وحوله المُجّان ويلبس فى رأسه لباس رجله ، وفى رجله لباس رأسه ، وحوله ثلاثة نفر يدقون بالهواوين حتى يتجمع الناس ، ويشترط على الحاضرين ألا يضحكوا ، فمن ضحك فعليه عقوبة ، ويأخذ فى أحاديثه وأفاعيله ، فمن ضحك وكان وضيعاً صب على رأسه ماء وحمأة مما بجانبه ، وإن كان شريفاً رش عليه ماء من قصبة فى يده ، وحبسه حتى يغرم درهمين .

ورئى مرة وبيده اليسرى قوس وعلى يده اليمنى باشق وعلى رأسه قطعة رئة

فى حبل مشدود بأنشوطة ، وقد ألقى شصا فى الماء ، وربطه بحزامه . فقيل له : ماتصنع ؟ قال : يا أحمق أصطاد بجميع جوارحى ، إذا مر بى طائر رميته عن القوس ، وإن سقط قريباً منى أرسلت إليه الباشق ، والرئة التى على رأسى تجئ الحدأة لتأخذها فتقع فى الوهق ، وإذا جاء السمك فى الشص أحسست به فأخرجته . وهكذا وهكذا .

فملأ العراق بأضاحيكه ، وكان ينتقل من سُرَّ من رأى إلى بغداد ، ومن بغداد إلى الكوفة ، فيتحدث الناس بحضوره ورحيله كما يتحدثون بأمير أو عظيم .

وانهال المال عليه انهيالا حتى لم يكن يدرى ما يصنع به ، ولامه بعض الشعراء على سلوكه مع فضله وأدبه ، فقال له : يا أحمق ! أتريد أن أكسد أنا وتنفق أنت ؟

وتحدث رجل إلى آخر : ألا يأنف الخليفة لابن عمه مما قد شهر به وفضح عشيرته ؟ فقال له الآخر : « ويحك ! والله ياعم لو رأيت ما يصل إليه بهذه الحماقات لعذرته » .

ووقف البيت العباسى فى أمره موقفين مختلفين . فأما بعضهم فغضب من ذلك ! وشعر بأن هذه الأعمال سبة البيت وفضيحته ، لذلك أمر الخليفة المستعينُ إسحقَ بن إبراهيم (محافظ بغداد) أن يأخذه ويحبسه ! فصاح أبو العبر فى الحبس : « لى نصيحة . لى نصيحة ! » فأخرج ودعا به إسحق فقال : هات نصيحتك ! قال : على أن تؤمننى ؟ قال . نعم ، قال أبو العبر : « الكشكية لا تطيب إلا بالكشك » فضحك الحاضرون ، ومنهم إسحق . ومازال يهذى بمثل هذه النصائح ، فقالوا : مجنون ، وأخرجوه .

وأما المتوكل فأفسح له صدره واتخذه سُخْرِيًّا له فكان يرميه بالمنجنيق فى الماء ثم يطرح الشبكة فيخرجه كما يخرج السمك ، ويضحك من ذلك ، ويعطيه مالا يعطى الشعراء .

وأفلح أبو العبر فى الضحك على الناس ونال بالتحامق ما لم ينله بالتعاقل .

فأما هو فقد انتقم لنفسه من الناس ، ومن بيت العباس ، وقال : لو نفق العقل لعقلت ، ولو راج الجد لجددت ، ولكن حَمق الناس فتحامقت .

وأما غيره فقال : « أنا والله لا أعذره ، ولو حاز بحمقه الدنيا بأسرها » .

فليحكم القارئ .

الشرق ينقصه الحب

يُخيَّل إلىّ أن لو كان للحب مقياس يقاس به كما تقاس درجة الحرارة ، لرأينا به أن درجة الحب فى الشرق منخفضة منخفضة ، حتى تكاد تبلغ الصفر ، وأن درجة البغض — أو على الأقل درجة الحياد — مرتفعة حتى تكاد تبلغ المائة .

ولست أعنى حب الرجل المرأة ، ولا المرأة الرجل ، ولا حب الأب لابنه ، ولا الابن لأبيه ، فهذا حب غريزى تراه فى القطط والكلاب وكل حيوان ، كما تراه فى الإنسان ، ولا فضل للمدنيـة فيه إلا أنها رقّقته وهذبته وشكلته أشكالا وألوانا .

وإنما أعنى حب الإنسان لقومه ؛ فهذا القدر فى الشرق أقل جدا من مثيله فى الغرب .

لقد لفت نظرى إلى هذا المعنى أنى زرتُ إنجلترا مرة ، فبعد أيام قليلة أحسست أن كمية الحب فى الجو أكثر منها عندنا ، وتجلى لى هذا فى سؤال الناس بعضهم بعضاً قضاء مصالحهم ، وفى معاملتهم على اختلاف أنواعها ، بل وفى السؤال : أين الطريق ؟

كمية من الحب كبيرة لطفت المعاملة ، وأطلقت البِشْر ، وملأت الجو سروراً ، والمعاملة نعومة ، وجعلت عجلة الحياة تمشى سريعاً فى غير ضوضاء وجلبة .

ونقصان هذه الكمية فى الشرق هو أكبر سبب فى أكثر ما نرى من متاعب ؛ فنقصان كمية الحب هو الذى جعل طبقة الحكام فى الشرق يتناحرون تناحر الأعداء ، ويلعن بعضهم بعضاً ، ويجرّح بعضهم بعضاً ، حتى لا يكاد يسلم

أحد من رمى بالخيانة والإجرام والسرقة وسوء النية و بيع البلاد للأجانب ونحو ذلك من التهم ، حتى لم يبق رأس سليم ، وهو الذى جعل الجهود تبذل بين تفكير فى خطط الهجوم وخطط الدفاع ، وضاعت بين هذا وذاك مصالح الشعب . وفى الغرب نقد عنيف أحياناً ، يبلغ درجة الاتهام أحياناً ، ولكن تُلطِّفُه كمية الحب ، فيبدو فى أغلَب أحيانه كعتاب الأصدقاء ؛ ثم لا يمنع الناقد نقده أن يقول لمن ينقده أحسنت فى مواضع إحسانه ، كما يقول أسأت فى موضع إساءته . وأجمل من هذا أن تختفى هذه الاتهامات إذا جدّ الجد ، وظهرت مصلحة الشعب فى التعاون .

ونقصان كمية الحب هو علة ما يبدو من شكوى أصحاب الأعمال من الموظفين ، فليس المرتب الذى يتقاضاه الموظف باعثاً كافياً على إحسانه عمله وقضائه مصالح الناس على الوجه الأكمل ؛ إنما المرتب يدعوه لأن يحضر فى موعد الحضور و يخرج فى موعد الخروج ، ويؤدى من الأعمال الآلية ما يعفيه من المسئولية . أما روح العمل ، والسعى فى تحقيق مطالب الناس ، والعمل لخيرهم ، فإنما يبعث عليها كمية كبيرة من حب الناس لا تزال مفقودة عند أكثر الموظفين .

ونقصان الحب هو الذى ملأ الجو بشكوى الفلاحين من مُلاّك الأراضى ، ومُلاك الأراضى من الفلاحين ، فليس بينهم حب متبادل ، ولا عطف مشترك ، إنما هى نظرة الناهب لما ينهب والصائد لما يصيد .

وهكذا تبحث عن كل مناحى الحياة ، وكل مرافق العيش ، فترى العجلة تسير ولكن ببطء ، وتتحرك ولكن بصخب وضوضاء ، لأنها عدمت بلسم الحب .

إنْ توفّر الحب انعدمت الحرب بين الطبقات ، لأن الغنى يحب الفقير فيرحمه ، والفقير يحب الغنى فيحترمه ، وطبقة الأشراف والنبلاء تؤمن بأنها تعيش فى رغد من العيش بفضل يد الفلاح والعامل والصانع ، ولولاهم لماتوا جوعا ، فتحبهم وتفيض عليهم من خيرهم ؛ وطبقة الفلاحين والعمال تجازى إحساناً بإحسان وفضلا بفضل ؛

وهكذا يسود الجميع حب وعطف ورحمة ، ومن غير هذا الحب يكون الموقف انتهاز الفرص ، وتربص للإيقاع ، وامتلاء للصدور بالحقد والضغينة .

* * *

إن ما حدث فى الأمم من ثورات تطالب بحقوق الإنسان ، وحروب لتحقيق الإصلاح ، ليست إلا مظهراً من مظاهر الحب ، وشفقة على الإنسان المعذب ، والفقير البائس ، والطبقة التى تشق لحساب الطبقة التى تتقلّب فى النعيم .

وإنّ ما وصل إليه العالم من تحقيق العدل بين ذى الجاه وعديم الجاه ، وبين الأبيض والأسود ، وبين الفقير والغنى ، ليس إلا بفضل الحب ظهر فى شكل قانون .

وهو لم يصل إلى غايته ، ولم يبلغ كماله إلا لأن كمية الحب فى العالم أقل مما يرجوه المصلحون وينشده المثاليون .

وإن استعداد شعوب أوروبا للحرب ، وتسابقها فى وسائل الفناء دليل على أن الحب فى كل شعب لم يتعدّ دائرة قومه ، ولم يخرج عن نطاق القومية ليشمل الجنسية .

وإن تعاون الغرب على ظلم الشرق وافتياته على شعوبه وهضمه لحقوقه ، واستغلاله لمصلحته ، دليل على أن حبه لا يزال ضيق الأفق ، لم يستطع أن يمزق حجبه ، ويتغلب على أنانيته وقوميته وجنسيته ليظفر بحب إنسانيته .

إن شئت فقل إن كمية الحب فى العالم أقل مما يلزم ، وأنها بذرة صغيرة تحتاج إلى النماء ، وأنها فى الشرق أقل منها فى الغرب .

إن نهضة الشرق للدفاع عن استقلاله مظهر من مظاهر حب القومية فى قلبه ، وإن تعاون أمم الشرق فيما تشترك فيه من مصالح ، دليل على اتساع الحب من قومية إلى شرقية ، ولكن ربكته فى الحكم وصعوبة سيره فى الحياة والسباب المقذع للمصالح الشخصية ، والشكوى الملحة من الطبقات بعضها من بعض ، وعدم

رعاية مصالح الجمهرة العظمى من الأمة كالفلاحين والعمال والصناع ، وتوزيع ميزانيات الدول فى مصالح الخاصة أكثر منها فى مصالح العامة ، دليل على أن الحب فى أول عهده ، وأنه فى أشد الحاجة لمن يرعاه ويربيه وينميه .

لو ساد الحب لاحترمت الآراء ، وأومن بحرية الفكر ، ونفذت الفكرة لما فيها لا لقائلها ، ولدقق المتهم عند الاتهام ورجع إلى ضميره عند التجريح ، ولراعى المصلحة العامة لا المصلحة الشخصية ، ولا المصلحة الحزبية .

ولو ساد الحب لعم التعليم ، وعممت المستشفيات الشعبية ، وعممت المتنزهات العامة ، وحورب البؤس قبل أن يشجع الترف .

مظهر الحب التعاون ، ومظهر البغض الحرب . والحرب أثر من آثار الوحشية . والتعاون — فى أحسن أشكاله — أرقى ما وصلت إليه الإنسانية .

قد يدعو الحبُ إلى الحرب ، كالأمة تدافع عن نفسها ، والشرقِ يدافع عن استقلاله ؛ ولكن لم يبعث عليه فى الأصل إلا الكره من الأمم المهاجمة ، ولو فشا الحب فى العالم واتسع نطاقه حتى شمل الإنسانية بأجمعها لحل التعاون محل الحرب .

ومصيبة العالم الآن وقبل الآن ناشئة من أن نظمه كلها مؤسسة على الحب الضيق ، والكره الواسع ؛ فالوطنية ليست إلا حبا ضيقاً فى حدود الإقليم ، مغلّفاً بكره واسع فى خارج الحدود . ومن الأسف أن ليس فى الإمكان أن تدعو أمة إلى ترك وطنيتها ، لأنك بذلك تدعوها إلى إلقاء السلاح وسط مسلحين لا يكادون يشعرون بإلقائها سلاحها حتى ينقضّوا عليها .

وإنما الأمل الوحيد عند المتفائلين أن تتعلم الأمم جميعاً من دروس الحرب أن تتعاون على قلب النظم الاقتصادية والتعليمية ، والاجتماعية ، ووضعها على أساس جديد هو حب الإنسانية .

ومن فجر الحضارة كان هناك مظهران متناقضان فى العالم : مظهر كره يدعو

إلى الحرب بين الأمم ، ومظهر حب كمين يدعو إلى التعـاون فى الفنون والعلوم والنظم الاجتماعية . كانت المدن اليونانية تتحارب بالسلاح ، وتتعاون فى الفن والفلسفة ؛ وكذلك كان العرب والفرس ، والعرب والروم ، والعرب والاسبان ؛ وكذلك الشأن الآن بين الأمم الأوربية بعضها و بعض ، و بين أمم الشرق وأمم الغرب ؛ فالتعاون بين هـذه الأمم كلها — قديماً وحديثاً — قدّم العلوم والفنون والفلسفة ، والحروب أخّرتها . ولو ظل التعاون على أكمله ولم يعقه عائق من الحرب لبلغت العلوم والفنون أضعـاف ما بلغت الآن ؛ فبالتعاون حييت فلسفة اليونان ، و بالحروب ماتت ، ثم بالتعاون بعثت ؛ وهكذا فلسفة الإسلام وفنون الإسلام . وما كان من خير مشترك فى هذا العالم كنظم التعليم ، والنظم الاجتماعية ، والسكك الحديدية والبرية ونحو ذلك ، فضرب من ضروب التعاون ؛ وما كان من خراب و بؤس للشعوب وخوف على الأنفس والأموال ، فمنشؤه الحرب التى دعا إليها الكره .

و بعد فما أحوج الناس جميعاً إلى الاستزادة من الحب ، وما أحوج الشرق خاصة إلى الاستزادة من الحب ، فهو دواؤهم الوحيد الذى يتغلبون به على أمراضهم .

إن الحب إذا فشا فى أمة أتت بالأعاجيب ، وفعل فيها ما لا يفعل المال والعلم والفلسفة .

هو هدى بعد ضلال ، وغنى بعد فقر ، ونور بعد ظلام ، هو معجزة المعجزات ، فيبرئ الأكمه والأبرص ، ويحيى الموتى بإذن الله .

لو انتصر المسلمون!

تحت هـذا العنوان قرأت مقالا فى مجلة إنجليزية[1] ، كتبه كاتبه بمناسبة انتصار « فرنكو » فى اسبانيا بمعاونة المراكشيين المسلمين ، فأوحت إليه هذه الحادثة أن يرجع بذهنه إلى ما وقع بين المسلمين والمسيحيين فى موقعة « تور » فى فرنسا سنة ٧٣٢ م فقال : « إن أوربا كلها كانت تسقط فى يد المسلمين لو انتصروا فى هذه الموقعة ، وما كانت إنجلترا تستطيع صدهم أيضاً لأنها لم تكن فى حالة حربية تسمح لها بصد قوى العرب ، والتاريخ لم يحفظ لنا كثيراً من الأمثلة التى تم فيها من الانقلاب ما تم على يد المسلمين ، فان عدداً قليلا من العرب المملوئين حماسة دينية ، متأثرين بنبيهم « محمد » استطاعوا بقوة إيمانهم ، وبالسيف والنار أن يسيطروا فى مدى قرنين على جزء ضخم من العالم يمتد من شاطئ المحيط الاطلنطى إلى نهر السند ، وكان غرضهم الأعظم أن يحوّلوا العالم إلى دينهم بالدعوة أو بالقوة — عبروا مضيق جبل طارق ، وتدفقوا كالسيل الجارف إلى اسبانيا وجنوبى فرنسا .

وفى سنة ٧٣١م كان عبد الرحمن يسيطر على كل الجانب الغربى الجنوبى لأوربا ، ويهدد سائر فرنسا وما وراءها ، ويقود جيشه فى ظفر يتلوه ظفر ، هازماً ما يقابله من جيوش فى سهولة ويسر ، فاتحاً ما يلاقيه من المدن ، محوّلا ما يجده من كنائس ، لا يقف أمامه شىء ، ناشراً تعاليم « محمد » ، حتى وصل إلى أبواب « تور » على بعد مائة وثلاثين ميلا فقط من باريس .

ثم لقيه « شارل مارتل » بجيش قليل من محاربين جرمانيين جبابرة ،

---

(١) Parade عدد يوليو سنة ١٩٣٩ .

فتقاتل الجيشان لا ساعة من نهار ولا نهاراً كاملا ، ولكن ستة أيام قتالا شديداً مستعراً ، كان يبدو فيها عبد الرحمن منتصراً ، ولكن فى اليوم السابع تحولت دفة الحرب فى صالح « شارل » ، وقُتل عبد الرحمن وهُزم جيشه ، وكر راجعاً إلى الأندلس .

فلو أن « عبد الرحمن » انتصر — كما كانت تدل عليه كل الظواهر ، ولم يوفق « شارل مارتل » إلى صده ، لتم فتح العرب فرنسا ، وأوغلوا بعدها فى ألمانيا وإيطاليا ، وما كان يقف فى سبيلهم شىء ، ولا إنجلترا وإيرلندا .

وماذا — إذن — لو تم ذلك ؟

لو تم ذلك لكانت أوربا اليوم كلها مسلمة ، تُدَوِّى أصوات المؤذنين فوق مآذنها ، وتحرّم الخمر والميسر والخنزير ، وتسودها كل شعائر الإسلام .

ثم يتساءل الكاتب فى مكر ودهاء : « هل كانت أوربا الآن تصبح متأخرة فى مدنيتها ، وتقف فيها موقف العالم العربى الآن ؟ »

يجيب عن ذلك بأنه من المرجح ألا يكون ذلك ، فقد بلغت الأندلس فى عهد المسلمين منزلة رفيعة من الثقافة ، ولئن كان المسيحيون يصبحون مسلمين إذا انتصر « عبد الرحمن » فإن العلم — إذ ذاك — لم يكن يذبل ، لأنه أزهر فى الأندلس المسلمة ، وكان العقل الغربى والنبوغ الآرى يشق طريقه فى مناحى العلم المختلفة ، ولكن كان التفكير الغربى يضعفه التأمل الشرقى ، وما كان يوجد المفكر الحر ، لفقدان التسامح عند المسلمين ، وما كان يرقى التصوير ولا الحفر لأن القرآن يعدهما من ضروب الوثنية . وكانت المرأة الغربية تصبح كالمرأة الشرقية . وما كانت تستكشف أمريكا لعدة قرون ، وإن استكشفت بالمصادفة أو بالبحث لكان مصيرها مصير أوربا » .

حرك هذا المقال عقلى ، وأثار شجونى ، وأطار خيالى .

ماذا كان يكون شأن العالم الآن لو انتصر المسلمون فى وقعة « تور » وتحقق ما توقعه الكاتب من فتح المسلمين أوربا كلها وتدينها بالدين الإسلامى ، وماذا كان يكون موقف المدنية الحديثة الآن ؟

الحكم على ذلك فى منتهى الصعوبة ، لأن أحداث التاريخ وتقلبات الأوضاع الاجتماعية تخضع لآلاف الآلاف من المؤثرات ، وبعض هذه المؤثرات فى غاية الخفاء وغاية التعقيد . هذا إذا كانت الأحداث بين أيدينا وتحت سمعنا وبصرنا ، فكيف إذا فرضناها فرضاً وتخيلناها خيالا ؟ اعتبر ذلك بما هو حادث اليوم فى العالم ، فكل المقدمات ماثلة أمامنا ، ومع هذا يختلف رجال التاريخ والسياسة والاقتصاد والاجتماع العالمون ببواطن الأمور ، هل تؤذن هذه المقدمات بحرب شعواء عاجلة تأكل الأخضر واليابس ، أولا تؤذن بحرب وستنفرج الأزمات ويسود السلام على الأقل عهداً طويلا ؟ إن كان ذلك كذلك والشواهد ماثلة والأدلة حاضرة ، فكيف بشؤون عالم سحيق فى القدم ، غير معروفة جميع ظروفه وأحواله ، نفرض فيها النتائج كما نفرض المقدمات ، ونتخيل ما يحدث قبل أن يحدث ، ومع هذا فلنحاول الإجابة ، ولنقس مالم يكن على ما كان .

***

لقد جرى المسلمون والمسيحيون شوطاً فى السباق ، والتقيا فى أثناء الطريق ، وإن لم يلتقيا فى البدء . فقد بدأ المسيحيون شوطهم قبل المسلمين بأكثر من ستة قرون حتى جاء الإسلام ، فبدأ سيره وجرى طَلَقاً يفتح ويدعو ويؤسس مدنية ويعدّل مدنيّة حتى حاذى النصرانية وجرى بجانبها ، فماذا كان بعد ثلاثة قرون من الإسلام وتسعة من النصرانية ؟ رأينا حضارة بغداد فى عهد العباسيين ، وحضارة القاهرة فى عهد الفاطميين ، وحضارة قرطبة فى عهد الأمويين ، لايدانيها فى

ذلك حضارة فى العالم ، سواء فى العلم والفن ، وآلات القتال ، ومظاهر اللهو والترف ، ومظاهر الجد والعمل .

لقد ذابت مدنية اليونان ومدنية الرومان فى أوربا ، ولم يكن لهما نظير فى الشرق ، ومع ذلك لم يسبق الغربُ الوارثُ الشرقَ المبتكر .

وظل الغرب يتتلمذ للشرق قروناً طويلة ، يجلس رجاله إلى ابن رشد يأخذون فلسفته ، وينقلون إلى لغاتهم كتبه ، ويدرسون كتب ابن سينا فى الطب فى جامعاتهم ، ويأخذون من رياضيي الشرق وفلكييهم إلى عهد قريب ، ويطيرون فى مدنيتهم الحديثة من على أكتاف الشرقيين : فماذا كان يمنع المسلمين أن يصلوا إلى مدنية مثل المدنية الحديثة أو خير منها إذا استمروا فى طريقهم ولم تعقهم عوائق خارجة عن دينهم ، وخارجة عن عقليتهم ؟ .

لم يمنعهم الإسلام أن يطلبوا العلم فى شتى ألوانه ، ولا أن يعكفوا على فلسفة أرسطو وأفلاطون وغيرهما ، ولا على رياضة أقليدس وفيثاغورس وأضرابهما . ولم تستعبدهم هذه الأسماء الرنانة كما استعبدت عقول أوربا فى القرون الوسطى ، فنقدوا أرسطو وأفلاطون وأقليدس و بطليموس ، وعدلوا بعض نظرياتهم ، وأبطلوا بعضها ، وغزا عقلهم نواحى العلم ، كما غزا جيشهم نواحى العالم ، وكان كثير من المسلمين إذا قالوا : « لا إله إلا الله ، محمد رسول الله » فعقولهم بعدُ حرة فى كل تفكير ، طليقة من كل قيد .

لقد نسى الغرب تاريخه إزاء الشرق ، ونسى الشرق تاريخه إزاء الغرب ، ولم ينظر كلاهما إلا إلى حاضره ؛ فزَهِى الأول وتعاظم ، وذلَّ الآخر واستكان ، وجهل كل أن الشرق كان يتقدم الغرب فى السباق ، إلى القرن الخامس عشر ؛ ولولا نكبة العنصر المغولى والعنصر الآرى الذى يفخر به الكاتب لظل الشرق فى طريقه وفى تقدمه ، لولا مصيبة التتار التى أتت على كل خير للمسلمين وأضعفت

قوتهم وأذلت نفوسهم ، ولولا حكم الأتراك للشرق وما جر من فساد وفوضى واضطراب ، ولولا جناية الغرب على الشرق بما جرعته من غصص وما سلكت معه من منهج يتلخص فى إضعافه عقليا وروحيا ، واستغلاله ماديا ، لولا ذلك كله لتقدم الشرق بخطواته الواسعة ، ولكان ذلك من خيره وخير العالم . إذن ؛ لكان للعالم مدنيتان تتسابقان فى البناء : مدنية أساسها الإسلام والروحية الشرقية والعقلية الشرقية ، ومدنية أساسها المسيحية والعقلية الغربية ، ولانعدم الاحتكار وما يجر من أضرار ، وما يفقد من تنافس .

* * *

بل يخيل إلىّ أنه لو انتصر المسلمون لكانوا أسرع خُطًى إلى المدنية ، فقد عاقت نهضة أوربا عوائق ليست عند المسلمين ، لقد عاقها قروناً طويلة سلطة الكنيسة وحجرها على العقول والآراء ، وتدخلها فى كل شأن من شؤون الحياة بقوة وعنف ، والإسلام لا يعرف سلطة لرجال الدين ، ولا يقر بوساطة بين العبد وربه . وعاق أوربا نظام الطبقات وسلطة الأشراف والنبلاء ، والإسلام لا يعرف هذا النظام ، ويقرر أن المسلمين سواء تتكافأ دماؤهم ، ويسعى بذمتهم أدناهم ، ولم تتخلص أوربا من هذه العوائق وأمثالها إلا بعد جهد جهيد ، وأنهار من دماء وجسور من رءوس .

فلما خلصت أوربا من هذه العوائق أو كادت ، اخترعت « الوطنية » فكانت مصيبتَها الكبرى وعلتها العظمى ، أشعلت نار القومية ، وجعلتها أساس التربية وأساس الاقتصاد ، وتسابقت الأمم فى الوطنية فتسابقت فى التسلح ، فما تنقضى حرب حتى يبدأ الاستعداد لحرب شر من الأولى . وهكذا ظلت المدنية الأوربية التى يغار عليها الكاتب بين حرب واستعداد للحرب ، وأفراد من كل أمة تتحكم فى مصير الشعوب ، وتطيح برءوسها ، وتفرض الضرائب الفادحة لتنشئ بها

أساطيل وقنابل وغازات وطائرات وغواصات ومدرعات لتتعاون كلها على حصد الأرواح حصداً ، وتحرم الأب من أبنائه والأبناء من آبائهم ، ومن نجا من القتل وقع فى أسر البؤس والحزن والهم . والعلم الذى اخترع لخدمة الإنسانية ، استخدم لإفناء الإنسانية . وهذه خلاصة المدنية ، وهذا ما جلبته الدعوة إلى الوطنية .

***

لقد فتح المسلمون الأولون فارس والشام ومصر والأندلس وغيرها ، فلم يفقدوها شخصيتها ، ولا حرموها علماً ولا ثقافة ، ولا سلبوها حريتها ؛ ومن أسلم فالعالم الإسلامى كله له ، ومن لم يسلم ودفع الجزية فله ما للمسلمين وعليه ما عليهم ، وظلت هذه البلاد المفتوحة كلها تشترك فى بناء المدنية الإسلامية على قدم المساواة ؛ فعلماء فرس وعلماء شاميون وعلماء مصريون وفنانون من كل صنف وممسكون بزمام الحكم من كل قطر ؛ ولكن لما فتح الغرب الشرق ، حرمه العلم إلا بحساب وفى حدود معينة ، ومنعوا أهله حرية القول والتفكير وحمل السلاح إلا بمعيار ضيق ، وأخصبوا أرضهم وأجدبوا عقولهم ، لأن أرض الشرق للغرب وعقل الشرق على الغرب ؛ فلو فتح المسلمون أوربا — كما توقع الكاتب — لحفظوا لأوربا شخصيتها ، وأوسعوا لها فى علمها وثقافتها ، وتركوا لها حريتها فى أكثر شؤونها ، ولم يمنعوا نبوغ من استعد للنبوغ ، ولا حجروا على عقل ولا تفكير ، ولا كانوا يستغلون أرض أوربا للشرق ، إنما كانوا يستغلون الشرق والغرب للشرق والغرب . ودليلنا على ذلك أن جميع البلاد التى فتحها المسلمون الأولون ظلت زاهية مزدهرة بعد فتحهم بأحسن مما كانت قبل فتحهم ، وأن الشرق كاد يموت بعد أن فتحه الغرب لولا لطف الله وبقية من مناعة الفتح الأول .

وأهم فرق بين الفتحين أن مدنية الإسلام كانت تنظر إلى العالم الإسلامى كله كوحدة ، خير الجزء خير الكل ، وشر الجزء شر الكل ، والمدنية الحديثة

تنظر إلى العالم من خلال القومية ؛ فخير تونس والجزائر ومراكش وسوريا لفرنسا لا لهذه البلاد ، وخير طرابلس لإيطاليا لا لطرابلس ، وخير الهند لإنجلترا لا للهند ، وهكذا جريا على الأسلوب الحديث فى النزعة الوطنية ، ولهذا نعِمَ الشرق فى حكم العرب ، ولم ينعم الشرق فى حكم أوربا ، ولا يمكن أن ينعم هؤلاء ولا هؤلاء إلا بإحلال الإنسانية محل الوطنية ، ودون ذلك أهوال .

ثم ما الذى كان يمنع العرب من استكشاف أمريكا ، ورحّالوهم كابن جبير وابن بطوطة لم يكن يدانيهم أحد من رحالى الغرب فى عصرهم ؟ على أن فكرة استكشاف أمريكا إنما دعا إليها ، وحث على تحقيقها ، نظرية كروية الأرض التى أثبتها جغرافيو العرب ، وبرهن عليها فلكيو العرب .

***

أخشى أن يكون « الكاتب الفاضل » قد استحضر فى ذهنه عند كتابة المقال صورة العالم الإسلامى الحاضر ، ولم يستحضر العالم الإسلامى الغابر ، فرأى ما عليه المسلمون اليوم من فقر عقلى ، وفقر مالى . فأشفق على أوربا أن يحكمها هؤلاء فيقلبوا غناها فقراً وعلمها جهلا وقوتها ضعفاً ، وفاته أنه يتكلم عن « عبد الرحمن » وعن جنود « عبد الرحمن » وهؤلاء كانوا أقوياء فى غير ضعف أغنياء فى غير فقر ، علماء فى غير جهل ، قد مرنت عقولهم فى غير جمود ، وطلبوا الخير للعالم من غير قيود ، فهل يعيد التاريخ نفسه ؟

عهـد وثيق

التقيا فى الصباح على ميعاد ، لينجزا عملا سريعاً لم يستطيعا أن يعملاه أثناء الأسبوع لـكثرة شواغلهما ، وتوزع جهودهما ، فهما أيام العمل كالحصان ، قد شدت يداه ورجلاه ؛ بل وشعره ، بحبال وخيوط تجذبه إلى جهات مختلفة متناقضة يميناً ويساراً وأماماً وخلفاً ، فهو لا يستطيع أن يقطع شوطه ويبلغ مداه .

فليكن يوم الجمعة الخالى من أعباء « الوظيفة » ، المخصص للراحة ، هو يوم إنجاز العمل المتأخر الذى لا بد أن يكون .

بدآ فى الصباح ، ولذهما العمل وطاب ، واستغرقا فيه ، فلم يشعرا بوجودهما ولا بزمانهما ولا بمكانهما ، ولا بأى شىء حولهما . وأفاقا كأنهما كانا فى حلم لذيذ ، فإذا أرجلهما مثلوجة من رطوبة المكان ، وبطونهما خاوية من تفاهة الإفطار ، وعقولهما مجهدة من كثرة العمل . والتفتا لما عملا وما بقى ، فوجدا أن لم يتم من العمل إلا نصفه أو انقص منه قليلا .

إذن فلنشحذ عزائمنا ، ولا نفترق حتى يتم عملنا ، ولنتكلم فى التليفون ألا ينتظرونا فى الغداء ، ولنأخذ غداءنا فى مطعم قريب نستريح بعده قليلا ، ثم نستأنف العمل حتى يتم ، ولننم بعد ذلك فى راحة ضمير وعناء جسم ، فذلك خير من أن ننام فى راحة جسم وعناء ضمير .

م : هيا بنا !

ح : إلى أين ؟

م : إلى مطعم « الـكرسال » .

ح : يا أخى ، طالما انتقدتك على هذه النزعة الغريبة عندك ! تفضل المصنع

الأجنبى والمقهى الأجنبى ، والمطعم الأجنبى ، وكل شىء أجنبى ، كأنك أجنبى ، وفى هـذا خطر على مال الوطنى وجهد الوطنى ونتاج الوطنى ! إنّ « كانْتْ » الفيلسوف الألمانى وضع قاعدة أخلاقية لطيفة نتعرف بها صلاحيـة الشىء وفساده ، فقال : « إذا أردت أن تعرف شيئاً صالحاً أو فاسداً فعممه » ، فإذا أردت أن تكذب فافرض أن الناس كلهم يكذبون ، فهل تبقى أمة على الـكذب العـام ؟ يكذب كل رئيس فيها على كل مرءوس ، وكل مرءوس على كل رئيس فى كل ما يقول ، وتكذب الزوجة على زوجها والزوج على زوجته ، والآباء على أبنائهم فى كل ما يقولون . فإن نحن طبقنا هذه النظرية تبين فساد نظرك فى جلاء ووضوح ، فلو أن كل مصرى أراد أن يشترى شيئاً أو يبيع شيئاً أو يأكل شيئاً أو يلبس شيئاً ، استقضاه من الأجنبى ، ما بقى فى مصر مطعم وطنى ولا مقهى ولا دكان . وأين أنت ومطعم فلان الوطنى ؟ : قصر منيف تحوّل إلى مطعم وطنى فاخر نظيف ، صاحبه مصرى وخادمه مصرى ، ولحمه مصرى وطهيه مصرى . إن طلبت اللذة فهو ألذ من الـكورسال ، وإن طلبت النظافة والإتقان فكذلك ، وإن أردت نفع المصرى فهذا وجهه .

م : حرام عليك . ألم تنس ما كنا فيه من عمل عقلى مضن ، فتريد أن تزيده ضنى وجهداً — حتى فى الطريق — بمحاضرتك الفلسفية ؟ ولا تنسى « كانْتْ » وفلسفته ، وإذا تركتك استرسلت إلى شوبنهور وشيلر ولسنج ، وأتيت على البقية الباقية من رأسى وعقلى . ارحمنى يرحمك الله ، وتكلم فى حديث خفيف يدخل السرور علينا ويذهب بعنائنا ، ولأبرهن لك على صدق فى قولى بقبول ما اقترحتَ وتنفيذ ما أردت ، من غير حاجة إلى محاضرة عن « كانت » وأشباهه . فلنذهب إلى المطعم الوطنى .

***

محل لطيف ورائحة شواء تدخل الخياشيم فيجرى لها الريق وتتفتح الشهية ، ورنين أشواك وملاعق ، ومنظر أكلة يبشر بأنهما سيلعبان هذا الدور قريباً .

يا غلام ! هيئ لنا مكاناً منفرداً وإن غلا ثمنه ، وأكثر لنا من الكوامخ من كل صنف ، طحينة ، ولبن ، ومخللات ، وابعث لنا برئيسك سريعاً .

وفى لحظة واحدة تم كل ذلك ، فهيئ المكان وأعد إعداداً حسناً ، وصفت عليه الأطباق والأشواك والسكاكين والملاعق وإبريق الماء النظيف الرائق ، تسطع عليه الشمس فيلمع كالدر ، وامتلأت المائدة بالكوامخ ، وإن تظرفت فقل «السلطات» المختلفة ، والعيش المقبب ، وحضر سيد الخدم فى سرعة عجيبة !

رطل ونصف من الكباب ، ليس بالسمين ولكن .

نعم .

بسرعة مدهشة تساوى سرعتك فى سؤالنا .

خمس دقائق فقط وإن تأخرت فعشر ، ولكن لا تزد فوراءنا عمل ينتظرنا والساعة الآن الواحدة والنصف .

« حاضر » . فى أقل من ذلك يحضر الطلب .

وأخذا يداعبان العيش المقبب والسلطة واستساغا الطعم فزادا ، وحلا الحديث فتحدثا ، وراعى (ح) صديقه (م) فلم يتحدث فى الفلسفة ، وكلما انحدر إليها من غير شعور تنبه إلى قول صاحبه فعدل ، وتخلل الحديث فكاهات ظريفة استثارت الضحك العميق ، حتى خيل إليهما أن لو حضر لهما خروف مشوى لا رطل ونصف لأتيا عليه .

ودخلا فى الحديث من باب إلى باب ، والضحك يتتابع و « السلطة » والخبز يضؤلان . وإذا بالحديث يدور حول الغضب وأسبابه ونتائجه ، وإذا بالسيد (ح) يقول :

— ألاحظ أن المصريين سريعو الغضب ؛ فهم يغضبون من أقل شيء ومن لا شيء ! ثم إذا غضبوا لم يقفوا عند حد ، فشبانهم إذا غضبوا حطموا ودمروا ، وصغارهم إذا غضبوا صاحوا بكل ما يستطيعون من قوة وضربوا الأرض بأرجلهم وقد يضربون الحائط برءوسهم ، وشيوخهم إذا غضبوا أفسدوا عملهم وأضاعوا صداقتهم ، ولم يفرقوا بين العمل العام والعلاقات الشخصية ، ولا أدرى أذلك ناشئ من حرارة جوهم وطبيعة مزاجهم ، أم هو يرجع إلى التربية ! فإنى أرى أن البلاد الباردة يغلب عليها ضبط العاطفة وقلة الانفعال ، فهل هذا كسبوه من برودة البلاد أو من تعويدهم أطفالهم ألا يبالغوا فى الانفعال ؟ لقد حُدِّثت عن مدرس إنجليزى أراد طلبته أن يغيظوه ، فوضعوا له حذاء بالياً على مكتبه ، وظنوا أنه يهيج لذلك ويخبط ويضرب ، ويجرى تحقيقاً دقيقاً فيمن دبر هذه المكيدة ، ومن وضع الحذاء ، ونحو ذلك من أسئلة لا تنتهى ، فما إن دخل المدرس الفصل ورأى الحذاء على مكتبه حتى أخذه بيده ووضعه على الأرض وقال : « تحدثت إليكم فى الدرس الماضى عن كذا وأريد أن أحدثكم فى هذا الدرس عن كذا » واستمر فى درسه ، فصفق الطلبة إعجاباً بمسلك أستاذهم وضبط عواطفه ! ولو حدثت هذه الحادثة فى مصر لمدرس مصرى لانقلبت السماء على الأرض ، وقامت لها المدرسة وقعدت ، ولشغلت المدرسة أسابيع ، وقد تشغل وزارة المعارف أيضاً !

م : لا تنس أنك قد عدت إلى الفلسفة والمحاضرة مرة أخرى .

ح : لا تؤاخذنى يا أخى ، فإنى لم أستطع أن أغير طبعى ، ولكن اسمح لى أن أكمل حديثى فى كلمة قصيرة . إنا قادمون على عمل جليل ، وقد رأيت أن أكثر الأعمال فى مصر تفشل من سرعة الغضب ، فتعال معى نضع صيغة « عهد وثيق » نقسم بها ألا نغضب أبداً ، وإذا غضبنا لم يؤثر ذلك فى عملنا .

م : الساعة الآن الثانية والنصف ، وقد مضت ساعة ولم يحضر الأكل ، وقد كدنا نشبع من « السلطة » ودقّ بالملعقة على الصحن ، فلم يسمع أحد ، ثم دق ودق فحضر الخادم .

— نعم !

— مضت ساعة والأكل لم يحضر . ناد رئيسك .

وتتابع الحديث ولم يحضر أحد ، وبعد قليل دخل خادم آخر عليهما ، وظن أنهما انتهيا من أكلهما وشربهما . وأنهما يعطلان الغرفة أكثر مما يلزم ، فسألهما هل يريدان قهوة ، ومن أى نوع هى !

وتتابع الحديث ثانية أو ثالثة . لا أدرى !

ونظر (ح) فى الساعة فإذا هى الثالثة ، فقام ولحقه (م) ونزلا يستفسران عما تم . فإذا سيد الخدم قد نسى الطلب ولا أكل ولا إعداد ولا توصية .

وانفجر السيد (ح) انفجارة كالبركان إذا قذف ، ودوّى صوته فى بهو المكان كله يهدد ويؤنب ، وبهت الحاضرون ، وتصلبت الأيدى على الأشواك ، ووقفت اللقم فى الأفواه ، وسكتت الأسنان عن المضغ ، وحدقت العيون فى هذا الصارخ وهذا المصروخ فيه ، وانقلبت صالة الأكل إلى صالة محاضرات يشرح فيها ما يجب على الوطنىّ أن يعمل لسمعة وطنه ، أو فصلا فى مدرسة يؤنب فيها الأستاذ تلاميذه .

وساد الجميع رهبة . ماذا حدث ؟ ماذا كان ؟

— لا مؤاخذة .

وخرجا ...

م : لا تغضب ، وأشفق على نفسك . إنّ « كانْتْ » يقول : « إذا أردت

أن تعرف خطأ شيء أو صوابه فعممه » ، فماذا يحدث لو غضب كل الناس هذا الغضب ؟

والآن إلى أين ؟

ح : إلى الكورسال ، فإذا أراد المصريون أن ينجحوا فليس على المستهلك وحده يقع عبء التضحية ، بل يجب أن يتحملها أيضاً المنتج بإحسانه ما ينتج .

م : هذا حكم الغاضب ، والغاضب لا حكم له .

بين اللاعبين

حرمت — فيما حرمت — لذة اللعب ، فلا أعرف نرداً ، ولا ألعب شطرنجاً ، ولا علم لى بألعاب « الورق » على اختلاف ألوانها وتعدد أشكالها .

وأخيراً رمانى الحظ بليلة جمعت نخبة من الأصدقاء هواة اللعب ، جلست بينهم كما يجلس الأصم بين متحدثين ، أو الأعمى بين رسامين ، أو المتزمت بين حشاشين . يحركون الورق ولا أفهم ، ويصيحون ولا أعلم ، ويتضاحكون ولا أفقه ، ويزعم أحدهم أنه كسب ولا أدرى لم كسب ، وآخر أنه خسر ولست أعلم لم خسر ، وتبرمت بجلوسى بينهم ، وزاد فى تبرمى أنهم لم يشعروا بوجودى ، ولم يأبهوا بحضورى ، ففكرت فى حيلة أهرب بها من هذا المأزق — ففكرت أن أعتذر وأخرج فحالت حوائل ، وفكرت أن أتعلم اللعب ، فقلت : أبعد أن شاب قرناها ؟ وقلت أحتال فى أن أصرفهم عن اللعب ، ثم قلت : أى حق لك فى أن تحكم ذوقك فى أذواقهم ، وتحرمهم من ملذاتهم ؟ وأخيراً اهتديت إلى فكرة غريبة ، فكرة مظلمة ، فكرة تدل على صدق المثل : « يموت الزامر وإصبعه تلعب » ، هى أن أنقل المكتبة والجامعة ولجنة التأليف إلى غرفة اللعب ، فإن لم يمكن ذلك ماديا فليكن خياليا ، فلأتخيل أن كل هذه الأشياء فى هذه الحجرة ، وأنى جالس على مكتبى ، وأن كرسىّ هذا هو كرسى المكتب ، وأن مائدة اللعب هى المكتب ، وأن لعبهم هو موضوع الدرس ، وأن الدرس درس فلسفة ، وأن موضوع درس الفلسفة هو « فلسفة اللعب بالورق » . فماذا يمكن أن تقول ؟ وهب أن أمامك ورقاً وقلماً فماذا تكتب ؟ وقلت أجعل من هذا موضوعاً يعجب المتظرفين فى وضع أسئلة الامتحانات فى الشهادات . ألم تسمعهم يقولون : « هبك

وردة قطفها قاطف فماذا كنت تقول ؟ » ويقولون : « هبك فقيراً كسبت ورقة « يا نصيب » فماذا أنت فاعل ؟ » ، وهبك وهبك إلى آخره ، فقلت : إذا كان « البدع » بدع « هبك » المتسلطة على هذا الزمان ، فقل مثلهم : هبك سخيفاً تدرّس درس فلسفة على لعب الورق . فماذا أنت قائل ؟ قلت أقول :

ثم تساءلت : هل أكتب كما يكتب التلميذ موضوع الإنشاء ، فيبدؤه بجمل فخمة ضخمة عوده إياها مدرس الإنشاء ، كأن أقول : « لايخفى على الفطن اللبيب ، واللوذعى الأريب ، والنحرير الأديب » الخ ، أو أكتب كما يكتب مدرس الإنشاء على السبورة مما يسميه « عناصر الموضوع » فيكتب نقطاً ويعددها بالأرقام ؟ وأخيراً قلت : إن هذا وذاك لم يبلغ من السخافة الحد الذى أرتضيه ، فلتكن سخافتك ابتكاراً لا تقليداً ، فقلت :

إن لعب الورق يمثل القدَر ، فالقدر يُعز من يشاء ، ويُذل من يشاء بلا قيد ولا شرط ، فمفرق الأوراق ، كموزع الأرزاق ، يعطى هذا أوراقه فتكون رابحة ، وهـذا أوراقه فتكون خاسرة ، وهذا أوراقه فتكون بين بين . وقد يكون مَن أخذ الأوراق الرابحة أحق إنسان بالخاسرة ، ومن أخذ الأوراق الخاسرة أحق إنسان بالرابحة ! ولكنه القدر لا يُسأل عما يفعل ، ومفرق الأوراق لا يُسأل عما يفعل !

وقلت :

إن اللعب بالورق — فى هذه الحجرة — كاللعب بورق الحياة ، لا يستطيع أحد اللاعبين أن يغير أوراق لعبه ، بل هو مكلف أن يلعب بها ، وبها وحدها ، وإنما مهارته تقدر بلعبه بهذا الورق ، لا باللعب بما يتمنى من ورق . فكذلك الإنسان فى الحياة ، هو مكلف أن يلعب بورقه ، وإنما كل مهارته فى أن يلعب على أحسن وجه . فإن كان ذا كفاية محدودة كلف أن يلعب بهذه الكفاية خير

لعب . وليس له أن يطمح فى أن يلعب لعب النابغين . وإن خلق ضعيفاً فى عقله قويا فى يده ، أو ضعيفاً فى يده قويا فى قلبه ، فليعرف ما هو قوى فيه ، وما هو ضعيف فيه ، ثم يلعب بما عنده خير لعب . فإن كان قويا فى قلبه وأراد أن يعمل عمل القوى فى عقله ، كان كمن يريد أن يلعب بورق غيره ، وهذا غير جائز فى باب اللعب فى الحجرة ، فكذلك لا يجوز فى باب اللعب فى الحياة .

وقلت :

إن الورق الرابح فى يد اللاعب الخائب قد يؤدى إلى الخسارة ، والورق الخائب فى يد اللاعب الماهر قد يؤدى إلى الربح ، فكذلك اللاعب فى الحياة ، قد يجدّ ذو الكفاية المحدودة وينظم أعماله وأوقاته ، فإذا هو خيرٌ ألف مرة من ذى الكفايات النابغة ، أضاعها وأهملها ولم يحسن استعمالها .

وقلت :

إن اللاعب الماهر فى هذه الحجرة قد يصاب بالخسارة فى أول الأمر وفى بعض أدوار اللعب ، ولكنه يجدّ ويستخرج كل مهارته وكل نبوغه ، فإذا هو رابح آخر الأمر . وكذلك اللاعب فى الحياة ، قد يصاب بصعاب وعقبات ، وقد يظهر فشله فى بعض المحاولات ، ولكنه لا ييأس ، ويتعلم من فشله ، فإذا هو آخر الأمر ناجح .

وقلت :

إن فلاناً هذا اللاعب فى الحجرة قد غش مرة فى لعبه ، فأبدل ورقة بورقة ففقد ثقة اللاعبين ، فهم يلاعبونه بحذر ويراقبونه فى لعبه ولا يأمنون جانبه . وقد حاول مراراً بعدُ أن يحسن سمعته فلم يفلح ، وحاول مراراً أن يصدق فكان أثر الكذبة مرة أفعل من أثر الصدق مراراً . وهكذا اللعب فى الحياة العامة ؛

يزل المرء مرة فيفقد ثقة إخوانه والمتعاملين معه ، ولا يكسب ثقتهم بعدُ إلا بعد عناء إن أمكن .

وقلت :

هؤلاء اللاعبون فى الحجرة يصفقون للرابح منهم مهما كان ضعيفاً فى اللعب ، ولا يصفقون للاّعب الجيد إذا خسر . وكذلك شأن اللاعبين فى الحياة ، فالناجح هو الماهر وهو الكفء وهو كل شىء ، والخاسر هو الخائب ، وهو الذى لا يصلح ، وهو لا شىء . فأين العقلاء من الناس الذين يصفقون للماهر ولو خسر ، ويحتقرون الخائب ولو نجح ؟ هؤلاء لم يوجدوا بعدُ .

ورأيت من اللاعبين من هو واسع الصدر ، واسع المغفرة ، يكسب فيضحك ، ويخسر فيضحك ، ينظر إلى اللعب على أنه مسلاة له ولإخوانه ، سواء مثلَ دور الرابح أو الخاسر ، كما يلعب الممثل دوره فى المسرح ، لا يهمه إن كان يمثل ملكاً أو يمثل سائلاً ، وإنما يهمه أن يلعب دوره فى إتقان ، ويدخل السرور على النظّارة بإجادته . ومنهم من هو ضيق الصدر ، شديد التكلف ، أنانى ، شديد الأنانية ، يأخذ اللعب بغم ، شديد المشاكسة ، يحقد إن خسر ، ويطغى إن غَلب ، ويحوّل ميدان اللعب إلى ميدان قتال ، ومجال التسلية إلى مجال منافسة . فقلت كذلك ال .

وهنا تصايح اللاعبون إعلاناً بانتهاء اللعب ، وتعالت الضحكات ، وتتابعت النكات ، واختلفت سيما الوجوه ، فمنها ناضرة زاهرة ، ومنها عابسة قاتمة .

وأيًّا ما كان فقد ظفروا بلعب ظريف وتسلية خفيفة ، وظفرت بدرس ثقيل وفلسفة سخيفة .

لست أدرى أينا كان أربح ، فعلم ذلك عند القارئ .

بين الغرب والشرق

أو المادية والروحانية

كنت أقرأ فى الكتاب القيم الذى أصدره حديثاً أخى الدكتور طه حسين فى « مستقبل الثقافة فى مصر » ، فاستوقف نظرى تخطئتــه لمن يقول : « إن الحضارة الأوربية مادية مسرفة فى المادية لا تتصل بالروح أو لا تكاد تتصل به ، وهى من أجل ذلك مصدر شر كثير تشقى به أوربا ويشقى به العالم كله أيضاً » .

وقد رد على هذا الرأى « بأن الحضارة الأوربية عظيمة الحظ من المادية ، ولكن من الكلام الفارغ والسخف الذى لا يقف عنده عاقل أن يقال إنها قليلة الحظ من هذه المعانى السامية التى تغذو الأرواح والقلوب ... ومن الخطأ أن يقال إن هذه الحضارة المادية قد صدرت عن المادة الخالصة ، إنها نتيجة العقل ، إنها نتيجة الخيال ، إنها نتيجة الروح الخِصب المنتج ، نتيجة الروح الحى الذى يتصل بالعقل فيغذوه وينميه . ويدفعه إلى التفكير ثم إلى الإنتاج ثم إلى استغلال الإنتاج ، لا نتيجة هذا الروح العاكف على نفسه الفارغ لها ، الفانى فيها ، الذى تفسد الأثرة عليه أمره ، فلا ينفع ولا ينتفع ، ولا يفيد ولا يستفيد » . إلى أن يقول : « هؤلاء الذين يخاطرون فى الطيران ، فيلقون فيــه الموت شنيعاً بشعاً ، ليسوا ماديين ، لأنهم يضحون بحياتهم فى سبيل تقدم العلم وبسط سلطان العقل على عناصر الطبيعة الجامحة .. إن الحضارة الأوربية المادية هى التى تضحى فى كل يوم بكثير من الأنفس فى سبيل العلم وفى سبيل السيطرة الطبيعية » الخ .

***

استوقف نظرى هذا الفصل وأثار تفكيرى ، وترددَتْ فى نفسى هـذه الأسئلة : هل الحق أن الحضارة الأوربية مادية وروحية معاً أو هى مادية فقط ؟ وهل الحق أن الشرق لا يمتاز بروحانية ؟ وهل الحق أنه إن امتاز بروحانية فهى روحانية قليلة القيمة ، باعثة على الفناء ، تدور حول نفسها ولا تنتج شيئاً ؟ وقلت : لعل وجه الصواب يتضح إذا نحن حددنا معنى المادية والروحانية ، ثم نظرنا بعد فى ضوء هذا إلى الشرق والغرب .

لقد قال كثير من الكتاب والفلاسفة إن الشرق موطن الروحانية ، والغرب موطن المادية ، كالذى يقوله « بُلْدوِينْ » فى كتابه « معجم الفلسفة » عند الكلام فى الإسكندرية : « إن الشرق والغرب اختلطا فى الإسكندرية ، وامتزجت آراء رومة واليونان والشام ، فى المدنية والعلوم والدين ، بآراء الشرق الأقصى فى ذلك ، فنشأت قضية جديدة ، عمل على إيجادها بحث الغرب وإلهام الشرق » فما الذى يعنى بالمادية والإلهام أو الروحانية ؟

من الواضح جدا أننا إن عنينا بمادية الغرب عنايته التامة فقط بالمادة التى يرمز إليها بالمال من ذهب وفضة وأوراق مالية ونحو ذلك ، فهذا قول ظاهر البطلان كما يقول « الدكتور » . فالمدنية الأوربية مملوءة بالعواطف ، من عاطفة حب تقوى أحياناً حتى تصل إلى الانتحار ، وعاطفـة إعجاب ببطولة وإعجاب بجمال ، وازدراء لنذالة وكراهة لقبح ، وإحسان إلى فقير ، وتضحية نفس ومال لوطن ، ونحو ذلك من مظاهر العواطف التى قد يفوق فيها الغربيون الشرقيين ، مع ما شهر به الأولون من مادية ، والآخرون من روحانية . والمدنية الأوربية كذلك مملوءة بالعقل ، فالعلم يسير سيراً حثيثاً فى الحضارة الأوربية ، وهو يسبق الشرق فيه بمراحل . والغربيون الآن أساتذة الشرق فى الرياضة والطبيعة والكيمياء . وكل فرع من فروع العلم ، وليس هذا العلم مستعبداً للمال ولـكن

يستغله المال ، ولا بأس عليه من ذلك ، بل نرى فى هذه البيئات الأوربية علماء كانوا المثل الأعلى للتضحية من أجل العلم ، فمنهم من أعرض عن المال وداسه بقدميه فى سبيل تجربة يستكشفها أو نظرية يحققها ، بل منهم من ضحى بنفسه للعلم فمات شهيد اختبار يختبره أو فكرة يبرهن عليها . وأين ذلك كله من دعوى المادية فى الحضارة الأوربية ؟

إن كان هذا هو معنى المادية فالدعوى — كما يقول الدكتور — ظاهرة البطلان ، ولكن ألا يوجد معنى آخر يستقيم به الفرق ؟

هناك معنى آخر قد يكون أقرب إلى الصواب ، وهو أن معنى المادية تفسير ظواهر هذا العالم على أساس المادة من غير التفات إلى عالم آخر روحى وراء هذا العالم ، وبناء كل وسائل الحياة وكل ظواهر المدنية والحضارة والثقافة على أساس المادة وحدها .

فليس العقل إلا شكلا من أشكال المادة الدائمة التغير والتنوع ، وليست أفعال الإنسان مهما دقت إلا نتيجة لمواد الجسم ، وليست كل الظواهر النفسية من فكر وإرادة وعاطفة إلا نتيجة للمخ المادى من حيث عمله وحجمه وتركيبه . والعالم « كساقية جحا » تملأ من البحر وتفرغ فى البحر . وكل مظاهر الكون من مظاهر السماء ومظاهر الأرض ، وغنى من اغتنى وفقر من افتقر ، وذكاء الذكى وغباء الغبى ، وأدق الأمور النفسية والاجتماعية ليس إلا نتيجة للمادة . هذا هو معنى المادية ، وهو — كما يظهر لى — النظر المسيطر على الحضارة الأوربية ، فالمقدرة العلمية الهائلة فى الحضارة الأوربية اتجهت نحو المادة وأتت فيها بالعجب العجاب ، ولا غرابة فى ذلك فالمادة معبودها ، فطبيعى أن تتجه نحوها بكل قواها تستكشف فيها كل يوم استكشافاً جديداً ، وتخترع اختراعاً جديداً ، فكهرباء وبخار ولاسلكى ونحو ذلك مما لا يحصى ولا يعد .

ثم إن هذه الأشياء المادية كلها تستغل فى الحياة المادية ، فى المنازل ، فى دور السينما ، فى الإقامة والسفر ، فى الجد والهزل ، فى كل مَرْفق من مرافق الحياة . بل والأخلاقُ الأوربية الحديثة وضعت على هذا الأساس . فأهم الأخلاق ما أفاد هذه الحياة المادية ، كالنظام ، والمحافظة على الزمن ، والاقتصاد ، ومراعاة الصحة . وأما التواضع والحياء والتفكير فى النفس ونحوها فتأتى آخر القائمة ، على أنهم فى شك من قيمتها الخلقية ، وهم على حق فى ذلك ما دام الأساس هو الحياة الواقعية .

ثم الحياة الاجتماعية كلها نظمت على هذا الأساس المادى ، من استمتاع باللذائذ ما لم يتأذ الغير . وبناء المعاملات كلها على أساس من الاقتصاد لا روح له ، بل وأعمال الخير كلها من إحسان المحسنين وتبرعات المتبرعين ، واكتتاب المكتتبين لبناء مستشفيات وملاجئ ونحوها ، إنما أساسها كلها تحسين هذه الحياة الواقعة ، ورفع البؤس عنها ، وإيصال أكبر قسط من السعادة أو اللذة إلى أهلها ، وهكذا

* * *

أما الروحانية فترى أن المادة وحدها عاجزة عن أن تشرح كل ما يحدث فى العالم ، بل لا يفسرها إلا القول بوجود شىء غير مادى ، شىء روحانى وراء هذا الشىء المادى . فالفكر وظواهر العقل ليس نتيجة المخ المادى ، نعم إن المخ آلة التفكير ، ولكن يستحيل أن يكون الفكر الإنسانى الذى يشعر بشخصيته وبحرية إرادته نتيجة لمادة لا تُحِسّ ولا تشعر مهما كانت حالتها من رقى تركيبها وحسن نظامها .

وأعمال الإنسان وظواهر الوجود والذكاء والغباء ، وحدوث المألوف وغير المألوف ، والغنى والفقر وأحداث القدر والموت والحياة ونحو ذلك كله ، لا يمكن

تفسيرها تفسيراً مقنعاً إذا اقتصر فى هذا التفسير على المادة وحركاتها ، بل لا بد أن ينضم إليها شىء روحانى .

فالإيمان بعالم روحانى بجانب العالم المادى من نفس وإله وعالم آخر هو أوضح خصائص الروحانية .

وهذا النوع من النظر هو الذى يسود الشرق ، فهو يؤمن بالإلهام الذى لا يعلل ، كما يؤمن بالمنطق الذى يعلل ، على حين أن النزعة المادية لا تؤمن إلا بسبب ومسبب ، وعلة ومعلول ، ومقدمة ونتيجة .

والشرق — على العموم — أميل إلى أن يدخل فى حسابه العالم الروحانى والعالم المادى معاً ، يؤمن بالقدر خيره وشره ، ويحسب ما بعد الموت كما يحسب قبل الموت ، وإذا تطلب السعادة طلبها من ناحية إيمانه ومن ناحية تعديل نفسه ، أكثر مما يطلبها من ناحية تعديل الظروف الخارجية ، ولم يبن معاملاته على أساس اقتصادى مادى ، بل يبنيه على أن فيه جانباً كبيراً لله أو نحو ذلك ، وإذا أحسن فليس يدقق فى حسابه ويتساءل : ما نتيجة هذا الإحسان فى العالم المادى ؟ بل يرضيه أن يكون قد أرضى ربه ونفسه ، وإذا قوّم الأخلاق فلا يقتصر فى تقويمها على النظر فى نتيجة هذه الأخلاق بالنسبة للعالم الواقعى ، بل نتيجتها فى الدنيا والأخرى معاً ، وليس يرى مبدأ « ما لقيصر لقيصر ، وما لله لله » ، بل كل عمل فيه ما لقيصر وفيه ما لله .

وقد تغلب النزعة الروحية على بعض الأفراد ، فترى أثر ذلك فى التصوف والانقطاع إلى العبادة ، ونظام الخانقاهات ونحوها . وهو أمر شائع فى الشرق ونابع من الشرق .

ولعل سيادة هذه النزعة فى الشرق جعلته مهبط الأديان . فالأديان الثلاثة

الـكبرى وهى : الإسلام ، والنصرانية ، واليهودية ، ظهرت فى الشرق ، وانتقلت منه إلى الغرب .

* * *

ولست أنكر أن فى الغرب روحانية ، وأن فى الشرق مادية . فنى الغرب روحانيون قد يفوقون بعض روحانيي الشرق ، صفاء نفس ، وقوة يقين ، وتقديراً للأعمال بميزان الروح ؛ كما أن فى الشرق ماديين قد يفوقون بعض ماديي الغرب إمعاناً فى تقدير المادة ، واقتصاراً على ميزان الأعمال بميزانها ؛ ولـكن الحكم فى مثل هذه المسائل العامة لا ينبنى إلا على الأعم الأغلب ، لا على القليل النادر .

كما أنى لا أنكر أن فى الغرب ديناً ، وديناً كثيراً ، ونظماً دينيـة دقيقة ، وكنائس فخمة ، ومعابد عظيمة ؛ ولـكنى أدّعى — على ما يظهر لى — أن نظرة الغربى إلى الدين ، على وجه العموم ، تخالف نظرة الشرقى إليـه ؛ وقد يكون أهم هذا الخلاف من ناحيتين : إحداهما أنه يسود الغربى النظر إلى الدين كنظام اجتماعى ، والثانية أن نظرة الدين لا تتغلغل فى كل شىء عنـد الغربى تغلغلها عند الشرقى .

* * *

هذه هى المادية والروحانية فى نظرى ، والمـادية بالمعنى الذى شرحت تلتئم مع ما نرى فى الغرب من علم غزير وعواطف فياضة وتضحيات كثيرة ، ولـكن هذا كله لم يمنع من أنها صبغت الحضارة الأوربية صبغة خاصـة تخالف روحانية الشرق بالمعنى الذى أبنت .

ولقد غزا الغرب الشرق لا بسيوفه ومدافعه وطياراته فحسب ، بل غزاه أيضاً بحضارته ونظراته إلى الحياة ، وكان من الطبيعى — وقد انكسرت قوة الشرق الحربية أمام قوة الغرب الحربية — أن يظن الشرق أن نظرة الغربى إلى

الحياة خير من نظرته ، وحضارته خير من حضارته ، فاستسلم لها ، وسار فى طريقها وفتح لها صدره ، وأسلس لها قياده ، وباع روحانيته الشرقية الموروثة بالمادية الغربية الحديثة ، وإن كانت الصفقة لم تتم بعدُ .

أما أن الخير للعالم أن تسوده كلَّه هذه النظرة الغربية ، فلا يكون فى العالم إلا حضارة واحدة ، أو أن يحتفظ الشرق بروحانيته ويبنى عليها حضارة جديدة ، وأن يكون فى العالم لونان : لون مادى تمثله الحضارة الغربية ، ولون روحانى تمثله الحضارة الشرقية ، ثم تتعاون الحضارتان كما يتعاون جسم الإنسان ونفسه ؛ فذلك موضوع آخر له مجال آخر .

امتحان...

قام فى نفسى أن أجمع ثلاثة من أولادى فى مراحل التعليم المختلفة ، وألقى عليهم سؤالا طريفاً ، لأتبين عقليتهم وأخبر تفكيرهم ، فسألتهم على التوالى :

— لماذا تذهب إلى المدرسة ؟

فأما أصغرهم ، وهو فى « روضة الأطفال » فقال :

— أذهب إلى المدرسة لأتعلم لغة عربية ، وحسابا ، وخطا وأشغالا .

وأما الذى فى السنة الرابعة الابتدائية فقال :

— أتعلم لآخذ الشهادة هذا العام وأدخل المدرسة الثانوية .

وأما كبيرهم وهو فى مدرسة الهندسة فقال :

— لأتم دراستى ، وأحصل على الشهادة ، وأوظف .

وأردتُ أن أعمل عمل المدرس ، فأزن الإجابة وأعطى درجات عليها ، فرأيت أنى لو دققتُ فى التصحيح لأسقطتهم جميعاً ، فما شىء من ذلك يستحق أن يكون إجابة صحيحة : ولا شبه صحيحة .

عيب هذه الإجابات أنها تركّز أغراض التعليم فى ثلاثة أشياء : حشو الذهن بالمعلومات ، ونيل الشهادة ، والحصول على « الوظيفة » . وليس شىء من هذا هو غرض المدرسة الحقيق فى نظرى .

أظهرت عدم الرضا لأبنائى عن إجاباتهم . فقال أكبرهم : إذن نغير الموقف ، فأكون أنا السائل وأنت المجيب ، فقد قال القائل :

إنّ على سائلنا أن نسألَهْ   والعبء لا تعرفه أو تحمله

قلت : لك ذلك .

إن أهم « وظيفة » للمدرسة أنها تعلمنا كيف ننتفع بتراث السابقين ، فمنذ كان الإنسان على ظهر الأرض وهو يجرب ويتعلم ، ويتبين الخطأ والصواب ، ويصل إلى نتائج بعضها يبقى على مَرّ الزمان لصحته ، وبعضها يذهب مع الريح لفساده . وقد قام بهذه التجارب ملايين الناس ، واشتغلت بتحقيقها ملايين العقول ، وضحيت فى سبيل فحصها وامتحانها ملايين الأنفس . وكان العالم كله فى هذه الأزمان كلها عبارة عن « معمل » تشتغل فيه كل هذه الملايين على التعاقب ، « فيحللون » و « يبحثون » ، ويرصدون نتائج بحثهم . وكثيراً ما كانوا يفشلون فى تجاربهم وتحليلهم ، فيبدءون العمل من جديد بفرْض جديد ، حتى يصلوا إلى النتائج الصغيرة بعد العناء الكبير . وهم لا يصلون إلى هذه النتائج إلا على جسور من رءوس الضحايا .

وقد قُدّمت هذه القضايا التى أنتجتها الأجيال السابقة للأجيال الحاضرة فى شىء اسمه « كتاب » . ولو أخذنا أى كتاب مدرسى ، مهما صغر حجمه ، فى أى موضوع من موضوعات العلم والأدب ، سواء كان طبيعة أو كيمياء أو بلاغة ، أو نحواً وصرفا ، أو هندسة ، أو جغرافيا ؛ وأردنا أن نعرف كل تاريخ قضية فيه ، لعجزنا عن عدد الذين ذهبوا ضحيتها فى البحث والتجربة ، وإعمال الذهن ، وسهر الليالى ، وتكبد الأسفار ، ومعاناة التحقيق . فما أكثر الضحايا الذين ذهبوا حتى وصلنا إلى أن « الأجسام تتمدد بالحرارة » ! وما أكثر من ذهبوا فى سبيل تدوين أحكام « الفاعل ونائب الفاعل » ! وما أكثر عدد العقول والنفوس التى ذهبت فى سبيل تحقيق أن « الأرض تدور حول الشمس » ! وهكذا .

ولعل النظر إلى الكتب على ضوء هذا البيان يفيدك — يا بنى — فى تعرف أى الكتب المدرسية صالحة للبقاء وأيها صالحة للإعدام ، فما لم يحمل إلينا من الكتب تجارب الأقدمين ويُنِرْ لنا السبل فى حياتنا الحاضرة لا يستحق البقاء ؛ بل هذا أيضاً يعينك على أن تحكم على منهاج الكتب ومبلغ رقيها فى فن التأليف ،

فما لم تبعث فيك روح النهوض واستخدام ما فيها فى هذه الحياة واستحثاثك على إصلاح حياتك وحياة غيرك وتقديمك الحياة خطوة عمن سبقك فلا قيمة لها .

إن أكبر فارق بين الإنسان والحيوان — يا بنى — أن الحيوان يستفيد جيلُه الحاضر من تجارب أجياله السابقة ، فالنحل يعمل ما كان يعمله أيام آدم ، لم يتقدم فى نوع معيشته ولا فى قرص عسله ولا فى بناء مسكنه ، وكذلك شأن كل حيوان ؛ ولكن كم من الفروق بين عيشة الإنسان الأول والإنسان الآخر ، والإنسان فى الكهوف والإنسان فى القصور ! . وعلى الجملة فالإنسان هو الحيوان الوحيد الذى يعيش كل جيل منه على أكتاف من سبقه . ويبنى كل جيل طابقاً جديداً فى قصر الإنسانية .

فالمدرسة تعلمنا تاريخ التجارب الإنسانية السابقة ، وتعلمنا كيف نبنى عليها طابقنا الجديد . فما لم نبن بناء جديداً لم نستحق اسم الإنسانية .

ومدرسة تفضل مدرسة بمقدار ما تلقى من هذا الضوء وتبعث من هذا الروح وتقيم من هذا البناء ؛ فالمدرسة التى تعلمك أنك تذهب إليها لتنجح فى الامتحان فقط ، أو تأخذ الشهادة فقط ، أو توظف فقط ، لا تستحق إلا أن تغلق ، لأنها تبعث أفكاراً ميتة وتوحى آراء جامدة ، وليس يستحق منها البقاء إلا مدرسة تعلّم كيف كان الناس يحيون ، وكيف يحيون الآن ، وكيف ينبغى أن يحيوا فى المستقبل . ثم هى تغرس فى نفوس التلاميذ من أول روضة الأطفال هذا المبدأ بالوسائل التى تختلف بساطة وتركباً حسب استعداد الطفل ، حتى إذا سئل كل تلميذ : لِمَ يذهب إلى المدرسة ؟ أجاب أنه يذهب إليها ليتعلم كيف يكون إنساناً يستحق اسم الإنسانية . ومهما اختلفت الإجابة حسب السن والعقلية ، فلن تعدو هذا المعنى الأساسى .

وعلى هذا الأساس يمكننا أن نلخص مناهج الدراسة بأنها « تاريخ الإنسانية

كلها أو جزء منها فى نواحيها المختلفة أو ناحية منها حسب استعداد الطالب لتناولها » .

وهذا يشمل كل فرع من فروع العلم ، فكل علم فى الواقع هو تاريخ الإنسانية فى ناحية من نواحيها أو جزء من أجزائها ، حتى النحو والصرف هو تاريخ الإنسانية فى لسانها ، فى جزء من أجزائها .

وفائدة هذا النظر أنه يطلعك على موضع الفساد فى برامجنا ؛ فإذا درسنا فى التاريخ تاريخ الملوك وحدهم وأهملنا جوانب الشعب كان تاريخاً ناقصاً مبتوراً ، لأنه أطلعك على جانب صغير من جوانب الإنسانية ، حيث كان فى إمكانك توسيع هذه النواحى ؛ وإذا كان درس البلاغة لا يمكّنك من فهم بلاغة الأقدمين ، ولا يعينك على أن تكون بليغاً فى حاضرك فلا قيمة له ، لأنه ليس من تاريخ الإنسانية فى شىء إلا أن يكون تاريخاً للسخف فيها ، وليس موضع هذا المدرسة . وتستطيع أن تقول هذا فى كل علم ، وكل فرع من فروع العلم .

كذلك إذا كان منهج الدراسة يطلعك على ناحية من نواحى الإنسانية فى عام ، ومنهج يطلعك على الناحية نفسها فى عامين ، فالأول أفضل بداهة . ففضل منهج على منهج فى أنه يكشف لك جانب الإنسانية الذى تريده من أقرب طريق .

ومهمة واضع البرامج ومظهر براعته أن يعرف أى نواحى الإنسانية أهم للطلبة فى بيئتهم الخاصة ، وأى منهج من مناهج التعليم يوصل إلى الغرض فى أقل زمن ممكن .

***

هذا — يا بنى — جانب واحد من جانبى الإجابة على السؤال : « لماذا تذهب إلى المدرسة ؟ » وهو الجانب العقلى للموضوع ، وهناك جانب آخر لا يقل عن هذا شأناً وهو الجانب النفسى .

إنك تذهب إلى المدرسة لِتُرَبِّى نفسك حتى تتحقق سعادتك ويسعد بك

غيرك ، فإنك تحمل فى داخلك أنواعا من القوى ، من شهوات و إرادة وعقل . ووظيفة المدرسة الصالحة أن تعلمك كيف تخضع شهواتك لعقلك ، وأن تقوى إرادتك لتكون القوة التنفيذية لحكم العقل على الرغبات والغرائز والمشاعر . إن المدرسة تكوّن فى داخلها مثلا أعلى من مجتمع صغير ليتكون من نفسه فيا بعدُ مثل أعلى للمجتمع الكبير . إنها تعلّم كيف يسعد الفرد بالتعاون مع رفقائه ليتعلم بعدُ كيف يسعد بالتعاون مع أفراد أمته . إنها تعلمك من أنت فى نفسك ، ومن أنت فى مدرستك لتعرف بعدُ من أنت فى قومك .

لهذين الغرضين تذهب إلى المدرسة .

***

لشد ما أخشى أن يغار رجال التعليم فى مصر على مدارسهم فيستملوا الإجابة منها و يطبقوا ورقة الامتحان عليها ، فيعطوا إجابتى « صفراً » .

الانسان حيوان محارب

لقد خُدع المناطقة بالبريق الذى يلمع فى الإنسان من عقل وتفكير ، فعرّفوه بأنه حيوان ناطق .

وخُدع أرسطو بمظهر حب الإنسان للاجتماع ، فقال إنه حيوان مدنى بطبعه .

ولو أنصفوا جميعاً لقالوا إنه حيوان محارب بطبعه .

من مبدإ أن خلق إلى الآن وتاريخه سلسلة حروب .

نازع الملائكة فى خلقه ، وقالوا : « أتجعل فيها مَنْ يُفسد فيها ويَسفك الدماء ونحن نسبّح بحمدك ونقدس لك ؟ » ثم كان خَلْقه وليد هذا النزاع .

وحلّ فى الجنة حيث السلام والأمان ، والطمأنينة والنعيم ، فلم يرضه ذلك كله ، وترك كل ما أبيح له أن يأكل منه ، وأكل مما حرم عليه ، جلباً للنزاع والخصام ، فكان الخروج من الجنة ؛ ولو أحب السلام لأطاع ، ولو أطاع ما كان قتال ، ولكنه الإنسان .

ثم كان ما ذكر القرآن الكريم : « واتل عليهم نبأ ابنَىْ آدم بالحق ، إذ قرّبا قُرباناً فتُقبّلَ من أحدهما ولم يُتقبّلْ من الآخر . قال : لأقتلنك . قال : إنما يتقبلُ الله من المتقين . لئن بسطتَ إلىّ يدك لتقتلنى ما أنا بباسط يدىَ إليك لأقتلك . إنى أخاف الله ربَّ العالمين » . فَقُتِل المسالم ، وبقى على الأرض المقاتل .

وتاريخ الأنبياء كلهم وخصومهم يتلخص فى كلمات : دعوة ، فاستنكار ، فقتال ، فانتصار .

***

ثم تتبع مايستكشفه الأثريّون فى مختلف بقاع الأرض من العصر الحجرى ،

سواء فى ذلك سكان الوديان ، وسكان الكهوف والمغارات ، ترهم لم يخلفوا مقاعد للجلوس ولا أسرّة للنوم ولا نوعاً يدل على الحياة الوادعة الهادئة ؛ إنما خلفوا سكاكين حجرية لشق البطون ، وسهاما لإصابة المقاتل ، و « بلطة » لتهشيم الرءوس .

واقرأ تاريخ الأمم ؛ فهل ترى إلا تاريخاً حربيا ، حرباً أيام الحرب ، واستعداداً للحرب أيام السلم ، وإحصاء للجيوش وإحصاء للقتلى ، ووصفاً للخراب ، وتسجيلا لأنواع التنكيل ؛ ولم يكن ذلك مقصوراً على أمة دون أمة وجيل دون جيل ؛ إنما هو تاريخ كل أمة فى كل عصر ، فى الشرق والغرب ، فى البدو والحضر ، فى السهل والجبل ، فى البر والبحر ، وأخيراً فى أعلى السماء وأعمق البحار ، تاريخ اليونان حرب ، وتاريخ الفرس حرب ، وتاريخ الرومان حرب ، وتاريخ اليابان حرب ، وتاريخ أمريكا حرب ، وتاريخ العالم الآن حرب ؛ فإن ظفرت بأمم لا تحارب ، فلأنها غلبت على أمرها ، فجردت من سلاحها إثر هزيمة حربية لحقتها ، أو خمود نفسى أصابها من اندحارها .

ثم كان شأن الأدب شأن ما استكشفته الحفائر من سهام ونبال ؛ فالإلياذة — وهى أغنية الشعب اليونانى — مملوءة بالتهشيم والتحطيم ، والشعر العربى الجاهلى يشيع الدم فى جميع نواحيه ، والأمم الحية الحديثة إنما تقدس الأديب القوى والفيلسوف القوى والموسيقى القوى ، الذين يمجدون الدم ، ويعبدون إله الحرب ، وينفخون فى روح شعوبهم السيطرة والقوة والعظمة والسيادة ؛ وهذا هو الأدب الألمانى الحديث يرمى إلى تمجيد شعور الجنس لا شعور الفرد ، وتمجيد أرض الجنس لا أفراد الجنس ، وبيان أن أخلاق الجنس وعبقريته نابعة من أرضه لا من مدنه ، والحث على سيطرة الجنس بمجموعه وأرضه على كل الأجناس البشرية ، واستخدام الشعر والقصص وسائر أنواع الأدب لخدمة هذه الغاية ؛ لأن

تربة أرضهم خير أنواع التربة ، وقد أخرجت لهم خير أنواع الناس ، فيجب أن يكون الأدب بطل الآداب ، يغذى أبطال الناس ، ويبعث فيهم القوة والحياة والعزة والفخر والسيطرة ؛ وهل مثل هذا الأدب إلا باعث القتال ومثيره ؟

***

كلما استكشف الإنسان مادة من مواد الحياة أو قانونا من قوانين الطبيعة ، استخدمهما فى تحطيم رأس أخيه وتهشيم جسمه ؛ رأى الحجر أول ما رأى فاتخذ منه سكيناً وسهاماً ، واستكشف الحديد فعمل منه سيوفا وسنانا ، وأخيراً مدافع ومصفحات ودبابات ، وعرف قوانين الماء فبنى عليها أساطيله وغواصاته ، وظهرت له قوانين الهواء فأنشأ عليها مناطيده وطياراته ، ووقف على منابع الزيت فأشعلها ناراً على عداته ، وهكذا :

كلما أنبت الزمان قناة ركب المرء فى القناة سهاما

***

وأقام الناس دولة الغزَل والنسيب ، وهو باب من ألذ الأبواب وأحبها إلى النفوس ، وأدعاها للسرور والطمأنينة ، فإذا بالأدباء — وهم أبعد الناس عن الحرب — يستعيرون كل ألفاظ الحروب والقتال فى التعبير عن خطراتهم ومعانيهم ، فنظرات الحبيب سهام :

أوّاه إن نظرت وإن هى أعرضت وقْعُ السّهام ونزعهن أليم

وحُمرة خده من دم المحب :

هذا دمى فى وجنتيك عرفته لا تستطيع جحودَه عيناك

وهو يرمى فلا يخطئ ، ويقتل فلا يُقاد :

تعرَّضْنَ مَرْمَى الصيد ثم رَمَيْنَنا من النَّبْل لا بالطائشات الخواطِف

ضعائفُ يقتلن الرجال بلا دَمٍ فيا عجبا للقاتلات الضعائف

وهكذا ملأوا هذا الباب البديع اللطيف دماً وقتلاً وسهاما ونبالاً وفتكاً وصرعاً ودية وقَوَداً ، ونقلوا كل أدوات القتال حيث لا قتال ، ولكنه الإنسان المغرم بالقتال .

***

ولما أرادوا أن يلعبوا لعبوا بالقتال ، ومثلوا القتال ، فلعبوا الشطرنج وملأوه خيلاً وفيلة ، وجنوداً وقلاعا ووزراء ودولة ، وكان انتهاء الدور دائماً « كِشْ » « مات » ؛ ولعبوا النرد يمثلون الغلبة عن طريق القدر أكثر منها عن طريق الجد ؛ ومرنوا الأطفال والشبان على لعب الكرة ، فقسموهم معسكرين ، ونظموهم جيشين ، وأقاموا لهم ميادين جالوا فيها وصالوا ؛ وهكذا استغلوا فى أكثر الألعاب غريزة الإنسان فى حب الحرب وحب الغلبة ، إذ لم تكن له غريزة مثلها تسد مسدها .

ومن قديم جاء قوم من الفلاسفة والحكماء يقفون فى وجه الحرب ، ويعلنون أن الإنسان أخو الإنسان ، وينادون أنْ أَحِب لأخيك ما تحب لنفسك ؛ فذهبت دعواتهم صيحة فى واد ، ونفخة فى رماد ، وبقى الإنسان هو الإنسان ، يسمع لداعى القتال ، ولا يسمع لداعى السلام .

وجاءت الأديان الكبرى تريد الدعوة بالحسنى ، فاشتق الإسلام اسمه من السلام ، ثم كان تاريخ المسلمين حروبا لا تنتهى ؛ وجاءت النصرانية تدعو إلى أن من ضربك على خدك الأيمن فأدِرْ له خدك الأيسر ، ثم لم ير فى تاريخ العالم أمم تحب القتال وتتفنن فيه وتدعو إليه ، وتفتك أشد فتك وأروعه وأحماه ، كما تفعل أمم النصرانية بعضها مع بعض ، وبعضها مع غيرها .

بل أكثر من هذا عجباً أن انقلب الدين نفسه سبباً كبيراً من أسباب الحرب ؛ فالمؤمنون والزنادقة ، والمؤمنون والكافرون ، والمذاهب الدينية بعضها إزاء بعض ،

ومحاكم التفتيش ، والتبشير المسلح — كل هـذا يملأ فى تاريخ القتال صفحات لا تقل شأناً عن صفحات القتال للغنيمة أو للفتح .

***

وتراه إذا أعياه القتال فى البر قاتل فى البحر ، فإذا أعياه القتال فى البر والبحر قاتل فى الجو ، فإذا أعياه القتال فيها جميعاً ؛ نقل حياته أيام ما يسميه بالسلم إلى حالة حربية فى الحقيقة ؛ فنظام التعليم عنده نظام حرب : تربية وطنية لتمجيد الوطن وحب إعلائه ، وبث روح السيادة على غيره ، وقلب لحقائق التاريخ خدمة لهذا الغرض ، ونظام مسابقات بين الطلبة ليتحاربوا ، ونظام ترتيب حسب الدرجات ليتحاسدوا ويتقاتلوا .

فإذا خرجوا من المدرسة فنظام وظائف ونظام علاوات وترقيات كفيلة بإثارة شعور القتال عند أى ميال إلى السلم .

ووراء ذلك نظام تجارى كله حرب وانتصار وهزيمة ، وغالب ومغلوب ، اصطلحوا على أن يسموها أسماء جديدة كالربح والخسارة ، والنجاح والفشل ، وهى فى الحقيقة ليست إلا مرادفة للنصر والهزيمة ، والحياة والموت .

ثم أحزاب سياسية تتناحر وتتنابز ، وتتراشق بألفاظ السباب والاتهام بالخيانة ، وكلما دخلت أمة فى الحكم لعنت أختها .

ونظام اجتماعى بنى على أساس حربى ؛ فطبقات يتربص بعضها ببعض ، وغنى يستغل فقيراً ، وفقير ينهب غنيا ، وجان ومجنى عليه ، وخصومات أشكال وألوان .

ثم تحرّ أعمال الإنسان من عهد طفولته وهو يبكى ، إلى عهد نضجه وهو موظف كبير أو تاجر كبير أو سياسى كبير ، وحلل البواعث عليها تر أن أكثرها

— مهما اختلفت الآراء فيها — يعود إلى شيء واحد ، هو حبه الغريزى للحرب .

وهكذا حرب فى الحرب ، وحرب فى السلم ، والمدارس حرب ، والوظائف حرب ؛ والديانات حرب ، والسياسة حرب ، والطبقات حرب ، كانوا كذلك قديماً ، وهم كذلك حديثاً ، وهم لايزالون كذلك ما دامت أنيابهم فى أفواههم .

(والله ما فسد الناس ، ولكن اطَّردَ القياس) .

الظرف والظرفاء

لما بلغت الحضارة الإسلامية أوجها ، فى العصر العباسى ، وامتزج العرب بالفرس والهنود والأتراك وغيرهم من الأمم ، وكثرت الأموال وكثر الفراغ ؛ تأنق الناس فى مآكلهم ومشربهم وملبسهم وحديثهم وطرق حياتهم ، وتبع ذلك وجود عادات وتقاليد للطبقة المهذبة من تمسك بها عد ظريفاً ، ومن خرج عنها عد ثقيلا ؛ ورأينا الناس فى تلك العصور يلتفتون إلى الظريف ويهتمون به ويبالغون فى تقديره والحفاوة به . وكتب الأدب تروى نوادر الظرفاء فى أحاديثهم وأفعالهم ، وذلك من أكبر ما يدل على رقة الذوق وسموه .

ومن أطرف ما فى ذلك الباب كتاب معروف اسمه « المُوَشّى » ألفه أديب اسمه أبو الطيب محمد بن إسحق بن يحيي الوَشّاء ، عاش فى النصف الثانى من القرن الثالث الهجرى ، وفى أوائل الرابع ، ولم نعرف حياته بالتفصيل ، ولكنا نعلم أنه كان نحويا ، وأخذ النحو عن مشاهير النحويين أمثال ثعلب والمبرد ، وأنه كان معلماً فى كتّاب ببغداد ، وألف كتباً كثيرة فى النحو واللغة والأدب .

ولعل أفضل كتبه كتاب « الموشى » هذا ، وقيمته الكبرى جاءت من أنه حاول فيه أن يضع قوانين للظرف والظرفاء ، وأن يبين عادات ظرفهم فى نواحى حياتهم ؛ وكان غريباً على نحوىٍّ ، وعلى معلم كتّاب أن يتجه هذا الاتجاه ، فقلّ أن يتجه إليه إلا أرستقراطى فى نزعته ، غنى فى بيئته ، متصل بالطبقة الراقية ، واقف على عادتها ، ولكنا نجد فى تاريخ حياته أنه كان يعلّم بعض حظايا الخلفاء ، فهم يذكرون أن « مُنية » إحدى جوارى « المعتمد على الله » كانت من تلاميذه وأنه كان يعلّم فى قصور الخلفاء . فلعل هذه النزعة جاءت من هذا الاتصال بالبلاط

العباسى ، وناهيك بما كان فيه من ترف ونعيم ، وظرافة ولباقة .

فى هذا الكتاب الصغير ثروة كبيرة من الذوق ، وفيه يحاول أن يضع قوانين للظرف ، وفى هذا مشقة كبيرة ، إذ أن هذا العمل يتطلب اطلاعاً واسعاً على معيشة ظراف الناس ، وطرقهم فى الحياة ، يتطلب دقة فى الملاحظة وسمواً فى الذوق ؛ وفوق ذلك فإن الذوق من قديم صعبٌ تعليله ، وصعب شرحه ، وصعب ضبطه ، ولكنه تغلب على هذه الصعوبات جميعها ، ونجح فى عمله نجاحاً كبيراً .

ففيه فصل طريف عنوانه « شرائع المروءة وصفتها » ، ينقل فيه أنظار الناس إلى ماهى المروءة ، فيذكر أن بعض حكماء الفرس سئل : أى شىء أشد تهجيناً للمروءة ؟ فقال : « للملوك صغر الهمة ، وللعلماء الصلف ، وللفقهاء الهوى ، وللنساء قلة الحياء ، وللعامة الكذب » . وروَى عن ابن عمر أنه قال : « ما حمل رجل حملا أثقل من المروءة » ! فقال له أصحابه : صف لنا ذلك . فقال : « ما له عندى حد أعرفه ، إلا أنى ما استحييت من شىء قط علانية إلا استحييت منه سرًّا » . وكان أيوب السجستانى يقول : « لا ينبل الرجل حتى تكون فيه خصلتان : العفة عن الناس والتجاوز عنهم » .

وهكذا ظل يروى آراء الناس من فرس وعرب وغيرهم فى المروءة ، ثم استخلص قوانينها .

* * *

وعقد فى الكتاب باباً سماه « سنن الظرف » ، فحدثنا فيه أنه كان يسأل العلماء والأدباء عن رأيهم فى الظرف ، ويسأل « بعض متظرفات القصور » عن رأيهن فى الظرف ، ثم قص علينا قصصاً قصيرة لحوادث جرت للظرفاء ، وكيف قالوا ، وكيف تصرفوا ؛ ويخرج من ذلك كله إلى قوله : « إن الظرف أنبل

ما استعمله العلماء وصبا إليه الأدباء ، وتزينوا به عند أودّائهم ، وتحلوا به عند أخلائهم ؛ وربما تكلفه قوم ليسوا من أهله ، وإنه من المطبوعين أحسن منه من المتكلفين ، وللمتكلف علامات تظهر فى حركاته ، وتَبِين فى لحظاته ، لا يسترها بتصنعه ولا تتغيب بتستره ، وإن المطبوع على الظرف ليشهد له القلب عند معاينته بحلاوته ، وتسكن النفس عند لقائه إلى مجالسته ، دلائله واضحة فى مشيته وزيه ولفظه » الخ . ومن رأيه أن أكبر علامات الظرف الحب ، وقد دعاه ذلك إلى أن يستعرض الحب وأنواعه ، وطائفة ممن أحبوا فعفّوا ، ومن أحبوا فسقطوا ؛ وصوّر لنا صورة صادقة لبيوت القيان فى بغداد فى عصره ، وكيف كانت تتدفق فيها الأموال ، وكيف كانت تلعب القيان بعقول الشبان ، ويظهرن لهم الود والحب ، حتى يأتين على أموالهم ، فإذا الحب ينقلب إلى صدّ وطرد ؛ وتاريخ كل مدنية يعيد نفسه .

ثم أخذ يفصل ما أجمل ، فيذكر لنا عادات الظرفاء فى كل باب من أبواب الحياة .

فقص علينا أن الظرفاء يتجنبون فى الملبس الألوان الزاهية ، فهو يقول : « ليس يستحسن لبس الثياب الشنعة الألوان ، المصبوغة بالطيب والزعفران ، لأن ذلك من لبس النساء ، ولبس القينات والإماء » . ويلتفت إلى شىء دقيق جدا ، وهو أن عادة الظرفاء مراعاة الانسجام فى ألوان ما يلبسون ، فيختم الباب بقوله : « وأحسن الزى ما تشاكل وانطبق ، وتقارب واتفق » .

وأبان عادة الظرفاء فى لبس النعال وألوانها ، وزيهم فى الخواتيم والفصوص والتعطر والطيب ، والفروق الدقيقة فى ذلك كله بين الرجال والنساء .

ثم ذكر عادة الظرفاء فى الطعام ، فهم يصغرون اللقم ، ويتحرزون من الشره ، ولا يزهمون ما بين أيديهم من الرغفان ، ولا يلطّعون أصابعهم ، ولا يعجلون فى

مضغهم ، ولا يجاوزون ما بين أيديهم ، ولا يأكلون شيئاً من الكواميخ والمالح ولا يتخللون على المائدة قبل أن تفرغ . الخ .

وقد ذكر أن أحب شيء إلى الظرفاء من الأزهار الورد ، ففضلوه على غيره وأطنبوا فى مدحه ، وأفرطوا فى نعت حسنه ، وشبهوه بالوجنات الحمر ، وقايسوه إلى الخمر ، وحيّى بعضهم بعضاً به فقال بعضهم :

عشيّة حيانى بورد كأنه خدود أضيفت بعضهن إلى بعض

وقال آخر :

تمتع من الورد القليل بقاؤُه فإنك لم يفجعك إلا فناؤه
وودعه بالتقبيل والشم والبكا وداعَ حبيب بعد حول لقاؤُه

ولا يعدل الورد عند الظرفاء فى الأزهار ، إلا التفاح فى الأثمار ، فكانوا يرون أن التفاح يهدئ أشجانهم ، ويسكن أحزانهم ، وليس فى هداياهم مايعادله ، ولا فى ألطافهم ما يشاكله ، ولهم عند نظرهم إليه أنين ، وعند استنشاق رائحته حنين . وقد تفننوا فى إهدائه ، وكتابة الأشعار ووضع الرموز عليه .

ثم نراه بعد ذلك انتقل مع الظرف فى الحسيات إلى الظرف فى المعنويات ، فالأدباء الظرفاء « لا يداخلون أحداً فى حديثه ، ولا يتطلعون على قارئ فى كتابه ، ولا يقطعون على متكلم كلامه ؛ ولا يستمعون على مُسرٍّ سرّه ، ولا يسألون عما ووري عنهم علمه ، ولا يتكلمون فيما حجب عنهم فهمه ، والظرفاء لا يتثاءبون (فى المجلس) ولا يتمطون ولا يوقّعون أكفهم ، ولا يشبكون أصابعهم ، ولا يمدون أرجلهم ، ولا يحكّون أجسادهم ، ولا يمسون أنوفهم ... ولهم حسن التأتى فيما يريدونه ، ولطف الحيل فيما يحاولونه ، وخفى التلطف لما يطلبونه ، حوائجهم سِرِّية ، وسرائرهم مخفية ، وحيلهم لطيفة ، يوردون الأمور مواردها ، ويصدرونها مصادرها » .

ثم ذكر أنهم إذا أهدوا فهم يُهدون الشيء اللطيف الخفيف « كالتفاحة الواحدة والأترجة الواحدة ، والغصن من الريحان ، والطاقة من النرجس ، وغير ذلك من الشيء القليل ، فتستحسن هداياهم وتستظرف ، ويفرح بها ويستطرف . . . ومن ذلك كتبهم الملاح ، وألفاظهم الصحاح ، التي يستعطفون بها القلوب ، ويسترون بها العيوب ، وما يضمنونها من مليح المكاتبة وطرائف المعاتبة ، وجميل المطالبة وشكيل المداعبة » .

وقد أحال « ما يجب على ظرفاء الكتاب » على كتاب له آخر وضعه لهذا الغرض سماه « فَرَج المهج » لم نعثر عليه .

غير أنه أورد فى كتابنا هذا نماذج من مكاتبات الظرفاء نعرض للقارئ نموذجاً منها : كتب الحسن بن وهب إلى محمد بن عبد الملك الزيات — سروري إذا رأيتك كوحشتى لك إذا لم أرك ، وحفظى لك مغيبك ، كمودتى لك فى مشهدك ، وإنى لصافى الأديم ، غير نَغِل ولا متغير ، فامنحنى من مودتك ، مزن لذاذة مشرَبك ، وكن لى كأنا ، فوالله ماعجبْت من ناحيتك إلا وأنا محنىّ الضلوع إليك والسلام . فكتب إليه محمد — ياأخى مازُلت عن مودتك ، ولا حُلت عن أخوتك ، ولا استبطأت نفسى لك ، ولا استزدتها فى محبتك ، وإن شخصك لماثل نُصب طرْفى ، ولقلما يخلو من ذكرك قلبى ، ولله در الذى يقول :

أما والذى لو شاء لم تُخلق النوى ... لئن غبت عن عينى لما غبت عن قلبى
يذكرنيك الشوق حتى كأننى ... أناجيك من قرب وإن لم تكن قربى

وكتب بعض الظرفاء إلى صديق له : « أيدك الله بوفاء الأدب من النزوع إلى الجفاء ، وجعل آخر سخطك موصولاً بأول الرضاء والسلام » .

وهكذا يمضى فى استعراض نماذج للظرفاء من النثر والشعر . ثم يحكى لنا ما كان يتفنن فيه الظرفاء من نقش جمل فنية أو أشعار رقيقة على خواتيمهم وعلى

تفاحهم ، وما كان ينقشه ظراف الجوارى على قمصانهن وأرديتهن وأكمامهن وعصائبهن ومناديلهن وزنانيرهن ، وعلى نعالهن وخفافهن ، وما كُنّ يكتبنه بالحناء على راحهن وأقدامهن ، وما كان يكتب الظرفاء من الأشعار الرقيقة على القنانى والكاسات والأقداح وأوانى الفضة والذهب ، وعلى آلات الموسيقى من العيدان والطبول والدفوف والنايات ، وما كان يتفنن به الأدباء من إهداء أقلام قد نقش عليها أبيات ظراف .

وختم كتابه بقوله : « هذه جملة مما بلغنا وفيها كفاية لمن اكتفى ، وبيان لمن تبين واقتفى ، وما استوعبنا كل ما انتهى إلينا ، ولو قصدنا إلى تكثيره لما استصعب علينا ... وقد أدينا بعض ما بلغنا ، ووصفنا بعض ما استحسنا ... وإلى الله نرغب فى السلامة والسلام » .

هذا عرض سريع لكتاب واحد فى الظرف والظرفاء يدلنا على ما كان للحضارة الإسلامية من عناية حتى فى أدق الأمور وأرقها وأظرفها ، وأنها لم يفتها شىء حتى فى وضع قوانين للياقة أو « الإيتكيت » كما يسمونها ، وأن ذلك الكتاب القيم يصف حالة اجتماعية رآها مؤلفه ، وقد مضى عليها الآن أكثر من ألف عام ، فماذا يكون شأنها لو سارت فى طريقها من غير أن يعوقها عائق أو يدمرها مدمر ؟[1]

---

(١) يسمى هذا الكتاب كتاب الموشى وقد طبع فى « ليدن » سنة ١٨٨٦ طبعة أنيقة ، ثم طبع فى مصر سنة ١٩٠٧ طبعة رخيصة وضيعة .

الاحسان

أريد بالإحسان التصدق على الفقراء ، ومعونة الضعفاء والمرضى ، ولست أرى لفظا أدل على المعنى من الإحسان ، وإن لم يرضه المتشددون فى الألفاظ .

ربما كانت فضيلة الإحسان من أكثر الفضائل تقلباً مع الزمان ، وتغيرا فى أفهام الناس ، فكم بين ما كان يفهمه حاتم الطائى من نحر الجزور وإنهابها الناس ، وبين ما وضع من النظم الحديثة للإحسان من فروق ومباينات !

فنظام المعيشة من قديم ينتج غنيا مفرط الغنى ، وفقيراً مفرط الفقر .

ولم يخلق للآن نظام يعدم هذه الفروق أو يقللها من غير أن يستتبع خطراً أعظم ، وداء أعضل .

فاهتدى الناس لتلطيف هذه الفروق إلى المناداة بالكرم والفخر به ، ولست أدرى أكان أول من نادى به الأغنياء اتقاء لخطر الفقراء ، أم الفقراء تعطيفا لقلوب الأغنياء .

وأتت الأديان تدعو إلى الأُخُوّة ، وخاصة بين أهل الدين الواحد ، وتجعل من مستلزمات هذه الأخوة عطف الغنى على الفقير وإشراكه فى جزء من ماله ، واستتبع ذلك وجود الأديار فى النصرانية والتكايا فى الإسلام .

وكما أنتجت النظم معونة للفقراء وسدًّا لحاجات المعوزين أنتجت عند بعض الناس تراخيا فى العمل ، وميلا إلى الكسل واتخاذ الاستجداء حرفة ، والتكدى صناعة .

وكثرت جيوش الفقراء فلم تكف النزعات الدينية لسد حاجاتهم ، فتدخلت

الحكومات تحمل بعض العبء فبنت المستشفيات وأنشأت الملاجئ وما إلى ذلك .

وأتت المدنية الحديثة فأخذت تقوّم الفضائل من جديد ، واستخدمت العلم فى هذا التقويم كما استخدمته فى كل شىء ، وكان مما نظمته طرق الإحسان ، بل جاء قوم من الفلاسفة متأثرين بمذهب النشوء والارتقاء ، و بنظرية الانتخاب الطبيعى وعلى رأسهم « هربرت سبنسر » يطبقون هذا على الإحسان و يرون أنه رذيلة لا فضيلة ، وأن العجزة ومن إليهم لا يستحقون هذه العناية ، إنما العناية يجب أن تتجه إلى الأقوياء و إلى خير العناصر ، ويجب أن ينتخب من المجتمع خيره وأقواه ، فنوجه إليه العناية ونأخذ بيده ، و بعد أجيال سيفنى الضعفاء و يبقى الأقوياء فيسعد مجتمعهم ، نفعل فى ذلك ما نفعل بالزهور والأشجار ، نهمل الذابل والضعيف فيفنى ، ونستولد القوى الجيد فيبقى إلى آخر ما قالوا . ومن حسن الحظ أنْ لم تلق نظريته هو وأمثاله نجاحا ، فإنها نظرية تقضى على خير ما فى الإنسان من عاطفة نبيلة نحو الناس ، وكيف يقضى على العجزة والفقراء ونظامُ الحياة يخلق منهم كل يوم خلقا جديداً وجيشاً كبيراً لو لم يُعْنَ به لا كتسح الأغنياء ، ولثار ثورة لا يعلم مداها إلا الله .

إنما كتب النجاح لقوم آخرين من الأدباء والعلماء لم يحاولوا أن يمنعوا الإحسان ، ولكن حاولوا أن ينظموه ، لم يشكّو فى قيمته ، ولكنهم آمنوا بضرر فوضاه ، واستعانوا بما وصل إليه العلم كما استعانوا بمنهاج البحث الجديد ، فدرسوا الفقر وأسبابه ، وطرق الإحسان وما يتلاقى منه مع أسباب الفقر وما لا يتلاقى ، ووفقوا فى ذلك إلى حد كبير و إن لم يصلوا إلى الغاية ، وعلى ضوء هذه الدراسة سنت القوانين وأنشئت النظم ، وظلت القوانين تنظَّم والنظم تعدَّل ، حسب مقتضيات الأحوال إلى اليوم .

فمن أشهر القوانين القانون الإنجليزى للفقراء الذى وضع سنة ١٦٠١ ونقح

سنة ١٨٣٤ والتزمت فيه الحكومة بمساعدة الفقراء والعاطلين .

ومن أشهر النظم المعروفة نظام « همبرج » الذى وضع للفقراء والعاطلين ، وهو يتلخص فى تأسيس مكتب رئيسى فى المدينــة للنظر فى شؤون الفقراء وتنظيم الإحسان وتقسيم المدينة إلى أقسام ، وتعيين مشرف على الفقراء فى كل قسم وظيفته إعانة العاطلين على وجود عمل لهم ، ودراسة أسباب الفقر فى الأسر ووصف العلاج لها ، وإنشاء مدارس صناعية لأولاد الفقراء ومستشفيات لمرضاهم ، ويقضى بمنع الإحسان يداً بيد إلى الفقراء ، إنما يعطى الإحسان لهذه الجمعية ، فهى أدرى بطرق إنفاقه — وكان من أثر هذا النظام قلة عدد الفقراء وتنظيم معيشتهم ، وقد أدخلت عليه تعديلات قليلة ثم عمم فى مدن كثيرة فى أوربا .

ونشأت فى أمريكا جمعيات على هذا النظام وسّعت بعض أغراضها — من ذلك أنها رأت أن أكبر مساعدة ليس إعطاء المال للفقراء ولكن إيجاد العمل لهم ، كما جعلت من أهم أغراضها ترقية المعيشة الاجتماعية فى منازل الفقراء والعناية بحالتهم الصحية ، وبتعويدهم العادات الصالحة للعيش ، ووجهت أكبر همها إلى العناية بأطفال الفقراء حتى لا ينشأوا كآبائهم ، فكان لدى الجمعيات سجل للفقراء والعاطلين فى كل حى ، ومجمل عن سبب فقر كل أسرة وحالتها وما بذل من العناية لها ، والاتجاه الذى اتجهوه فى معالجتها ، وبذلك أسس الإحسان على الأسس العلمية .

لعل أهم ما حدث من الانقلاب فى تصور الإحسان أنه كان يكفى فى عده فضيلة أن يخرج الإنسان عن شىء من ماله أو جهده ابتغاء ثواب الله ، لا يبالى بعد ذلك أين وقع ماله : أعلى غنى وقع أم على فقير ، أكان فيه إصلاح للفقير أم إفساد له ؟ فيكفى أن يجود بقرش ليحسب له عند الله عشرة أو مائة ، فجاءت الدعوة الحديثة تطلب أن ينظر فى الإحسان إلى المحسَن إليـه لا إلى المحسن ،

فليس من العمل الصالح فى شىء أن تعطى حسبما اتفق ، بل يجب أن يكون عطاؤك لإصلاح الهيئة الاجتماعية التى أنت فيها ، ولا يكون ثوابا عند الله إلا إذا نظر فيه هذا النظر ، ولا يعد فضيلة حتى يكون القرش الذى يعطى يقصد به رفع مستوى الأمة ، فإذا كان الإحسان يزيد حال الأمة سوءاً عد رذيلة لا فضيلة ، وعد من أتى به مجرما لا محسنا ، وبعبارة أخرى أن هذا النظر الحديث يتطلب أن يشعر المحسن بالتبعة أو المسئولية ، فمسئولية المحسن أن يعطى الفقراء وأن يتساءل عن إعطائه هل أفاد من أحسن إليه ؟ وهل أفاد الأمة بعمله أو لم يفد ؟

كان لهذا النظر نتائج لها قيمتها — منها تحريم الإحسان الفردى ، وهو أن تكون علاقة المحسن بالفقير علاقة مباشرة ، وإنما يجب أن تتوسط فى ذلك الجمعيات والهيئات التى عرفت حالة الفقراء ودرست شؤونهم ، واهتدت عن طريق دراستها إلى نوع ما يصلح لهم ، فمن شاء الإحسان فعليه أن يتبرع لهذه الجمعيات وهى التى تتولى الإنفاق — ومنها تحريم التسول فى الشوارع والطرق ، لأن المتسول لم يثبت للجمعيات صحة دعواه وعلة فقره إن كان . وليس التسول حرفة مشروعة ، ولكن إذا أثبت عدم صلاحيته للعمل وعجزه عن العيش وجب على الأمة إعانته ، والجمعيات أقدر على تعرّف هذا — وكان من مقتضى هذا النظر أيضاً أن الهيئات التى وكل إليها هذا الأمر لا يصح أن تكتفى بإعطاء المال إلى الفقراء ، بل يجب أن تعالج الأمر بشتى الوسائل حسب حالة كل فقير . فمن كان سبب فقره أن لا عمل له مع قدرته سعت له فى إيجاد عمل ، ومن كان سبب فقره مرضه عالجته ، ومن كان سبب فقره إدمان مخدرات أو سوء عادات نظرت فى وسائل إصلاحه ، كذلك أهم عمل تعمله أن ترعى أبناء الفقراء حتى لا يكونوا فقراء المستقبل ، فتنشئ لهم المدارس لا ليتعلموا فيها تعلما نظريا لا يسمن ولا يغنى

من جوع ، ولكن تعلما صناعيا يبعث فيهم روح الاعتماد على النفس ، ويفتح لهم السبل لتحصيل العيش — بهذا وأمثاله عولج الفقر فى أوربا وأمريكا ، فإن كان بعد ذلك عاطلون لم يكن سبب عطلهم راجعا إليهم — وإنما يعود إلى نظام العمل والعمال وسوء الحالة العامة — وجب أن تضمن الحكومات لهم ما يقيم أودهم حتى يعودوا إلى عملهم .

ونحن إذا نظرنا — فى ضوء هذه النظريات وكيف طبقت — إلى حالة الشرق وجدنا عجباً ، وجدناه لا يزال على حالته الأولية ، سواء فى ذلك أغراض المحسنين أو تطبيق الإحسان .

لدى الشرق أموال كثيرة تبرع بها أهلها للخير ، لدينا أموال الأوقاف الخيرية ولدينا أموال النذور ، ولدينا تبرعات المحسنين ، إلى كثير من أمثال ذلك ، ولكن أكثرها لا يقع موقعاً حسناً عند الله وعند الأمة ، وكأنه يصب فى البحر صبا أو يدفن فى الأرض دفناً ، على أن المال الذى يدفن أو يلق فى البحر ليس له من الضرر أكثر من فقده ، ولكن ضرر الإنفاق على غير مستحق يزيد الأمم بلاء والحال سوءاً .

وأهم ما استوجب هذه الحالة الأسيفة فى نظرى شيئان — أولهما — احترام إرادة الواقف والمتبرع . فالفقهاء يرون أن شرط الواقف كنص الشارع ، والواقف لا يعلم تطور الأمة ولا مطالبها ولا حاجاتها التى تختلف باختلاف الزمان — قد كان كثير من الواقفين لا يفهمون من وجوه البر إلا الوقف على الحرمين والمساجد والتكايا والتصدق بالخبز على المقابر ، فأصبح الناس اليوم يفهمون أن من وجوه البر كذلك إنشاء المستشفيات والمدارس والملاجئ ، وسيفهمون قريباً أن من وجوه البر إعانة جمعيات التأليف وإعانة الفلاحين ليحصلوا على الماء النقى ، وليستضيئوا بالنور الكهربائى ، وسيجدّ غير ذلك من ضروب الخير ، وسيرون أن الوقف على

مسجد إذا كان المسجد قد وُقف عليه من قبل ما يكفيه ليس وجهاً من وجوه الخير ، وسيرون أن أموال النذور تلق فى صناديق الأضرحة ليست تنفق على المعوزين والمحتاجين ، فليس التبرع بها إحساناً .

كان الواجب من عهد بعيد أن تحترم إرادة الواقف والمتبرع فى رغبته فى الخير فقط ، ولكننا لا نحترمها فى وجوه الخير التى يراها هو إذا رأينا أنها ضارة أو رأينا أن الأمة أحوج إلى الصرف فى وجوه أخرى .

رحم الله حسن باشا عاصم ، فقد كان له موقف فى ذلك جميل — تبرع محسن ببناء مدرسة ، ووقف عليها الأوقاف التى تلزمها ، وأتبعها للجمعية الخيرية الإسلامية ، وكان حسن عاصم مديراً لمدارسها ثم أراد الواقف أن يدخل ابنه فى المدرسة ، وكانت سنه تزيد على السن المقررة شهوراً ، فأبى عليه ذلك وقال : إنه تبرع بمدرسة فله الشكر ، ووقف عليها أوقافاً فله من الله الأجر ، ولكنه يريد أن يبطل قوانيننا فليس له فى ذلك حق .

قد يكون من المعقول أن نقبل إرادة الواقف فى أوقافه الأهلية . أما الخيرية فيجب أن تخضع كل الخضوع لمصلحة الأمة . لا أظن الواقفين إذا بعثوا من قبورهم ورأوا تطورات الأمم إلا مؤيدينا فى رأينا وراجعين عن رأيهم .

والأمر الثانى وهو متصل بالأول ، أن أموال الخير تصرف حسبما اتفق لا خضوعاً لدراسة اجتماعية ولا تحريا لوجه الإنفاق ولا للمنفق عليهم ، فكثيراً ما يحرم البائس المحتاج ويعطى الغنى المبذر ، وكثيراً ما يحرم العائل لا يجد قوته وعياله ، ويعطى المدمن ينفقها فى كيوفه .

إن فوضى الإحسان فى الشرق سبب من أسباب شقائه ، ولو نظمت لكانت من أكبر العوامل فى نهوضه وصلاحه .

لا أمل فى هذا الإصلاح حتى ينشط رجال الأمة وشبانها للخدمة العـامة ، وأن يمتلئوا عقيدة بضرورة المساهمة فى الإحسان بالمـال و بالنشاط ، وأن يطالبوا مطالبة حارة بتنظيم الإحسان حتى يؤدى غرضه على أكمل وجه مستطاع ، إذن لرأينا البؤس فى الأمة يتضاءل إلى حد كبير ، و يحل محله كثير من الرخاء ، ولرأينا المال — الذى يضيع فى الشرق سدى — وقد أصبح دعامة للإصلاح ، وسببا من أكبر أسباب النهضة الحديثة .

أدب الروح وأدب المعدة

هذا اصطلاح جديد أضعه لنوعين من الأدب يتميزان كل التميز، ويختلفان كل الاختلاف، لعل فى وضعه فائدة فى تقويم الأدب وصحة تقديره.

وأعنى بأدب الروح الأدب الذى يتصل بالعواطف السامية عند الإنسان فيهذبها ويرقيها ويغذيها.

فالقرآن «أدب روح» لأنه يسمو بالإنسان عن عالم المادة، ويأخذ بيده إلى السماء لينظر إلى الأرض، نظرة تريه الحق حقا والباطل باطلا.

وباب الحماسة فى «ديوان الحماسة» — مثلا — أدب روح، لأنه صادر عن نفوس قوية، وباعث لمشاعر قوية، وداع لمواجهة هذا العالم وما فيه بنفوس أبيّة، فى غير خضوع ولا استخذاء.

وغزلُ جميل وكُثَيِّر والعباس بن الأحنف «أدب روح» لأنه يصهر النفس ويطهرها، ويجعل من آلامها وآمالها مبعثاً لفيض الحنان والرحمة والعطف على العالم وعلى الإنسانية كلها.

وأدب الطبيعة «أدب روح»، لأنه شعور بالجمال مجرداً عن الرغبة، وتقدير للحسن منزها عن الأَثَرة، ومزيج من شعور بجمال وجلال يحد من كبرياء الإنسان، ويقفه من هذا العالم حيث ينبغى أن يقف.

وعلى الجملة فكل هذه الأنواع من الأدب تنبعث عن عواطف نبيلة، وتبعث أيضاً على أعمال نبيلة، تنبع من عواطف سامية، وتدفع إلى أعمال سامية، وهى أليق ما تكون بالإنسان الراقى المهذب.

***

أما أدب المعدة فنريد به ذلك الأدب الذى يدور حول سد الرمق ، وملء المعدة ، واستدرار المال ، وتحصيل القوت .

فأدب المديح «أدب معدة» لأن مبعثه الاحتيال على الممدوح حتى يستخرج منه ما فى يده ، والغاية منه تحصيل المال ليملأ به معدته ، أو يدخره ليملأ به معدته عند الحاجة إليه .

والغزَل الفاجر « أدب معدة » ، وتعليل ذلك واضح بقليل من إعمال الفكر .

والتهانى بالأعياد والمواسم « أدب معدة » ، إذ كان غايته التقرب من المهنأ به ، حتى يستجلب عطفه ويستنزل رفده .

ومقالات « الكاتب » التى باعثها الأول ملء أعمدة من الصحف والمجلات ، والاستيلاء بعدُ على « الأجرة » ، فإذا لم يؤجر لم يكتب ، ولا تحركه عاطفة ما للكتابة « أدب معدة » .

ولعلك تعجب إذا أنا عددت كثيراً من شعر الزهد أيضاً « أدب معدة » لأنه يدور حول المعدة وإن كان سلبيا ، فكما نعد مواقف الهجوم والدفاع مواقف حرب ، ونعد ما يفتح الشهية وما يصدها صنوفاً من صنوف المائدة ، ونعد « كُلْ » « ولا تأكل » حديث طعام ، كذلك يصح أن نسمى — أيضاً — الأدب الذى يثير شهوة الطعام والذى يحارب تلك الشهوة « أدب معدة » .

***

وأظن القارئ الكريم يستطيع أن يحدد بعد ذلك كل ما يعرض عليه من أدب إن كان أدب روح أو أدب معدة .

الفرق بين أدب الروح وأدب المعدة هو بعينه الفرق الذى أبنته فى مقالى السابق بين الدين الحق والدين الصناعى .

فأدب الروح أدب ينبعث عن النفس ، كما ينبعث صوت البلبل عن نفسه ،

ويدل على صاحبه كدلالة ضحكة الطفل البرىء وبكائه على ما فى نفسه من سرور أو حزن ، فلا غش ولا رياء .

أديب الروح لابد أن يغنّى بما فى نفسه ولو لم يغنِّ لانفجر ، يغنى بما فى نفسه سواء كوفئ أم عوقب ، وسواء قرّب أم شُرّد ، وسواء أعجب أم لم يعجب .

سقَوْنى وقالوا لا تغنِّ ولو سَقَوْا   جبالَ سُليمى ما سُقيتُ لغنَّتِ

أما أديب المعدة فهو يغنى للمضيف لا لنفسه ، يتحسس المعانى التى تسر صاحب الموائد حتى يُخرج له شهى الطعام ومختلف الألوان ، يبيع ذوقه لذوقه وفنه لفنه .

فإن اختلفت الموائد فأدبه لأشهاها طعوما ، وأدسمها صنوفا ، يقاد بأنفه لا بنفسه .

أدب الروح جار على نسق واحد ونمط واحد . أما أدب المعدة فله ألوان كألوان الطعام : مديح إن أُعطى وهجاء إن حُرم ، هو تبع للمائدة ، إن تكدس أكلها تكدس مدحه ، وإن قلّ أكلها قل مدحه ، فإن طويت طوى مديحه وبسط هجاءه ؛ لذلك ترى الشاعر يمدح الرجل ويذمه ويطريه ويهجوه ، والرجل هو هو فى قيمته ، ولكن لم يكن هو هو فى مائدته .

قد يعجب الناظر إلى أدب المعدة من الناحية الفنية ، فيراع لصنوف البديع ، ويؤخذ بجمال التشبيه ، ويهتز لحسن التوليد ، ولكن هذه الروعة من جنس الروعة التى تأخذه عند النظر إلى الألعاب النارية أو الحركات البهلوانية ، تبهر العين ، ولا شىء فى اليدين ، هو مادة صالحة لدراسة البلاغة اللفظية والبلاغة الشكلية ولكنه ليس صالحاً للبلاغة النفسية .

فإن نحن نظرنا إلى الأدب من ناحية أنه خادم للهيئة الاجتماعية ووسيلة من وسائل الرقى النفسى وأداة من أدوات الإصلاح الاجتماعى ، كان أدب المعدة من هذه النواحى صفرا ، بل هو كمية سلبية وعبء ثقيل .

* * *

مما نأسف له أنا إذا نظرنا إلى تاريخ الأدب العربي ، وجدناه ينحدر — مع التاريخ — شيئاً فشيئاً ليكون أدب معدة .

فنرى فى العصر العباسى طغيان أدب المعدة على أدب الروح ؛ هذا البارودى — رحمه الله — اختار لثلاثين شاعراً من خيرة شعراء الدولة العباسية ، أمثال بشار وأبى نواس وأبى تمام والبحترى وابن الرومى وابن المعتز ، واختار لهم فى فنون آدابهم المختلفة ، من مديح ورثاء وأدب ونسيب وهجاء وزهد ، وكانت مختاراته فى أربعة أجزاء كبار ، فكان ما اختاره من المديح ٢٤١٨٥ بيتاً ، ومن الأدب ١٦٩٧ بيتاً ، ومن الغزل ٤٦١٦ ، ومن الهجاء ١٢٢٩ ، ومن الوصف ٣٩٩٣ ، ومن الزهد ٤٧٣ بيتاً . ونظرة واحدة إلى هـذا الإحصاء تدهشنا أشد الدهش ، إذ يتبين لنا طغيان أدب المعدة ، وهو المديح والهجاء ، على أدب الروح طغياناً كبيراً .

ثم انظر بعـدُ إلى الفن المبتكر فى العصر العباسى ، وهو فن المقامات ، فقد ابتدعها بديع الزمان الهمذانى ، فلم يجعل محورها حبا ولا غراما كما يفعل الروائيون اليوم ، ولم يجعل محورها شيئاً يتصل بأدب الروح ، ولـكنها كلها « أدب معدة » : فأبو الفتح الإسكندرى بطل المقامات كلها رجل مكر واحتيال ، يصطنع جميع المهن لابتزاز الأموال ، نراه مرة قرّاداً يسلى الناس ويضحكهم ، ومرة واعظا مزيفاً يعظ وينصح ، ثم تنكشف حيلته فإذا هو مهرّج ، ومرة مشعوذاً يحتال على الناس بشعوذته ليفتحوا كيسهم ويغدقوا عليه من مالهم ، وهو فى كل ذلك مستجْدٍ سآل محتال .

وجاء الحريرى فجعل مكان أبى الفتح الإسكندرى أبا زيد السروجى ، وهو كصاحبه دناءة نفس وخساسة حرفة ، يشحذ ثمن كفن لميت يدّعيه ، ويتعامى فتقوده امرأته إلى المسجد ليبتز أموال المصلين ، ويحمّل غلامه ليوقع الوالى فى شركه فيسلبه ماله وهكذا ، ويتخذ الفصاحة والبلاغة وسيلة للتكدى والسؤال .

أليس هذا كله « أدب معدة » ؟

وانتشر بجانب أدب المقامات نوع آخر من أدب المعدة بمعناه الحقيق ، هو « أدب التطفيل » ، فقد انتشرت صناعة التطفل وحكايات الطفيليين وأخبارهم ونوادرهم ، وألف لنا فى ذلك الخطيب البغدادى كتيبا لطيفا سماه « التطفيل » ، وهو فن يتصل بالمقامات اتصالا وثيقاً ، كلاهما مبنى على التكدّى ، والسؤال فى حذق ومهارة ، فكان هناك طفيليون أدباء ظرفاء ، يروون أحاديث الأكل ، ويحفظون أشعار الموائد ، ويقصُّون حكايات الطمع والشَّرَه ؛ بدأ ذلك « أشعب » فى العصر الأموى ، وقفاه « بُنَان » وأضرابه فى العصر العباسى ، ينقش أحدهم خاتمه « ما لكم لا تأكلون » ، وآخر « أكلها دائم » ، وثالث « آتنا غَداءنا » ، ورابع « لا تبق ولا تذر » . وتواصوا بالأكل ، وتواصوا بتخير الأصناف ، وأنشأوا لأنفسهم نقابة فى البصرة هى « نقابة الطفيليين » ، ووضعوا الخطط المحكمة لمعرفة أمكنة الولائم ، فأقاموا رصداً على الجزارين والطباخين حتى لا تفوتهم دعوة ، وأنشأوا حول ذلك كله الأشعار من نصائح ومديح وهجاء ؛ وخلّف لنا الأدب وصيتين طويلتين يوصى بهما نقيب الطفيليين ولى عهده : إحداهما من إنشاء أبى إسحق إبراهيم بن هلال الصابى الأديب المعروف ، والأخرى من إنشاء المولى تاج الدين عبد الباقى بن عبد المجيد اليمانى ، وكلتاهما فى قوانين التطفيل وسننه وآدابه .

* * *

وكثر الأدب فى ابتزاز المال وفى التطفيل وفيما يدور حولهما ، وانتشرت حرفة الاستجداء واخترعت لها الحيل الكثيرة ، ووضع لها علم سمى « علم الحيل الساسانية » وعرّفوه بأنه « علم يعرف به طريق الاحتيال ، فى تحصيل الأموال » ، وألفت الكتب فى هذه الحيل ، من أشهرها : كتاب « المختار ، فى كشف

الأسرار ، وهتك الأستار » كشف فيه حيل المحتالين وأستار الكاذبين . الخ وفيه مائتان وستة وستون باباً فى الحيل المختلفة .

كل هذه ضروب من ضروب « أدب المعدة » .

والذى دهور الأدب إلى هذه الدرجة طبيعة الحياة الاجتماعية فى تلك العصور ؛ فلم يكن للأدباء مرتزق يرتزقون منه إلا موائد الخلفاء والأمراء والأغنياء ، ولم يستطع الأديب أن يستقل بنفسه فى الحياة ، فنتج من هذا نتيجتان طبيعيتان : الأولى أن الأدب أصبح أرستقراطيا لا شعبيا ، يدور حول المديح وإعلاء شأن القصور ، وفى مراكز الخلافة لا فى غيرها ، وفى الموضوعات التى تهم هؤلاء الأغنياء لا غيرهم . والثانيــة أن الأديب لم يكن يغنى لنفسه ولـكن للأغنياء ، وأصبح الأدب أو أكثره أدبا شيئيا ، لا ذاتيا ، وأصبحنا إذا قرأنا ما يقوله الفرنج عن تعريف الأدب بأنه « نقد الحياة » عجبنا من هذا التعريف ، لأنا لا نرى الأدب العربى العباسى ينقد الحياة ، وإنما يصف نوعا من حياة القصور ، فأما الشعب فلم يوصف إلا قليلا .

وبقدر ما كثر فى هذه العصور « أدب المعدة » قلّ أدب الروح ، من غزل عفيف ، أو وصف للطبيعة ، أو ثورة نفس على سوء حال الشعوب .

* * *

إن كان هذا مما يسوء ، فقد كان مما يسر نهضة الأدب العربى الحديث ؛ فقد بدأ يتحول من أدب معدة إلى أدب روح ؛ تحول من أرستقراطية إلى ديمقراطية ، ومن مديح إلى وصف ، ومن مقامات إلى روايات تصف الحياة الاجتماعية للشعوب ، ومن عواطف شخصية إلى عواطف شعبية أو عواطف عالمية .

وليس مما يَضيرنا أنه فى مبتدإ الطريق ، فمن سار على الدرب وصل .

إن الشرق الآن فى حاجة ملحة إلى كثير جدا من أدب الروح ، وقليل جدا

من أدب المعدة ، فإنه مكبل بأغلال سياسية تحتاج إلى أدب يغنى له بالحرية حتى يحطمها ، ومكبل بأغلال اجتماعية تحتاج إلى أدب ينشد الإصلاح حتى يخلص منها ، ومصاب بانحلال يحتاج إلى أدب يشعل النار تحته حتى يَعْقِد ، وفقير فى اللذائذ العقلية ، فلا بد له من أدب راق يغذيه ، وثروة أدبية عقلية تغنيه .

لقد عاش طويلا على أدب المعـدة فكان نتيجته ما نرى ، فليعش من الآن على أدب الروح حتى تـكون نتيجته ما نأمل .

مستودع الذخائر

أين — تظن — مستودع الذخائر للأُمة ؟

قد تجيب على الفور : إنه المطارات ، ومخازن الأسلحة ، ومستودع القنابل ؛ وما إلى ذلك من أماكن تكدس فيها آلات القتال وأدوات الحرب .

إن أجبت بذلك فقد أجبت بالعرَض دون الجوهر ، وبالمجاز دون الحقيقة .

وقد تتفلسف قليلا ، فتقول إن ذخيرة الأمة هى جيشها المسلح بعَدده وعُدده ، ومرانه وتجهيزه ، وفنونه وتشكيله .

إن قلت ذلك فقد قاربت الصواب ولم تقله ، وحُمْت حوله ولم تقع عليه .

فما قيمة الذخائر إذا لم تجد رجالا ؟ وما ينفع السيف إذا لم تك قتّالا ؟ . إن السيف فى يد الغِرّ والحاذق كالقلم فى يد الأمىّ والكاتب ؛ بل ما ينفع الجندى المسلح ، إن لم يكن له بين جنبيه قلبٌ لا يهاب ونفسٌ لا تفزع ؟

***

الإجابة الحقة هى أن مستودع الذخائر للأُمة ، قلب المرأة ، قلب المرأة هو الجيش الأول الذى لا قيمة لقنابل ، ولا طيّارات ، ولا غوّاصات ، ولا دبّابات ، بدونه ؛ وإن شئت فقل هو الطابور الخامس الذى لا يوقع الرعبَ والفزع فى قلوب الأعداء شىء مثله .

لقد خُلقت المرأة من ضلع من أضلاع الرجل ؛ ولكن سرعان ما تغير الحال فخلِق قلب الرجل من قلب المرأة .

***

يخطئُ من يظن أن لبن الأم ليس إلا نسبة معينة من الدَّسم ، ونسبة معينة

من المـاء ، وما إلى ذلك ؛ فليس هذا كله إلا تحليلا للمادة ، وليست المـادة كل شيء فى اللبن ؛ وإنما قصر تحليل الـكيمياويين فقصرت نتائجهم . إن فى اللبن صفات خلقية ، وصفات عقلية ، وصفات روحية ، ووراء الصفات المـادية ، يرضعها الطفل كما يرضع مادة اللبن ، فتتغذى بها روحه ، وتتشكل منها نفسه ؛ وليست هذه الصفات الروحية متطابقة دائمة مع الصفات المادية ، فقد يحلل اللبن فى معامل الـكيمياء فيتبين من تحليله أنه المثل الأعلى للبن ، وهو مع ذلك سم خلقى ينفث الجبن ، ويشيع الفساد ، ويبعث الفزع والخور ؛ على حين أن لبنا آخر ينقصه الدسم ويعيبه التحليل الـكيمياوى ، وهو مملوء روحا ، ومملوء شجاعة ونشاطا ، ومملوء قوة ؛ ومن أجل ذلك صدق الشاعر إذ يقول :

تَرى الرجلَ النحيفَ فتزدريه ... وفى أثوابِهِ أَسَـــدٌ مَزِيرُ
ويعجبك الطَّرِيرُ فتبتليـه ... فيُخلفُ ظنَّكَ الرجلُ الطرير

***

ثم إلى اللبن الذى ترضعه الأم أولادها توعز إليهم الجبن أو الشجاعة بسلوكها ؛ فإن هى ربتهم تربية الأرانب فأدفأتهم وأشبعتهم ، وحاطتهم بكل ضروب العناية ولم تسمح لهم أن يجربوا وأن يخاطروا وأن يجازفوا ، ثم حدثتهم من الأحاديث ما يخلع قلوبهم ، ويحبب إليهم الحياة بأى ثمن ، وعلمتهم أن لا قيمة للعقيدة بجانب حياتهم ، ولا للوطن بجانب سلامتهم ، وصاحت وولولت يوم يجندون ، وفقدت رشدها يوم يسلحون ، فهناك ترى صورة جند ولا جند ، وترى أشكال الرجال ولا رجال ، وترى أجساما ضخاما وقلوبا هواء . وإن هى ربتهم من صغرهم على المخاطرة والمجازفة ، وحدثتهم أحاديث الأبطال وعظماء الرجال ، وعودتهم مكافحة الحياة والتغلب على الصعاب ، وعلمتهم أن المبادئ فوق الأشخاص ، والوطن فوق حياة الأفراد ، وعيرتهم يوم يفرون من واجب ، وأنبتهم يوم يأتون بنقيصة ،

ونخرت بهم يوم يضحون لمبدإ ، واعتزت بهم يوم يخاطرون لأمّة ، فهناك الرجال ، وهناك العزة ، وهناك الشرف .

ألست ترى معى بعدُ أن قلب المرأة هو الذى يخلق قلب الرجل ؟

ويخطئ من يظن أنه يستطيع أن يؤسس جيشاً من رجال باعدادهم وتسليحهم من غير أن يدعمه بجيش من قلوب النساء ؛ فالجيش بدون قلوبهم آلات جوفاء ، وسراب ولا ماء ؛ بل كل مظاهر القوة فى الأمة من جيوش وأساطيل ؛ ومجلس وزراء ، ومجالس نيابية ، ومصانع ومعامل ، ألعاب بهلوانية ما لم يدعمها قلب المرأة .

* * *

قلّب صفحات التاريخ إن شئت ، فحيثما رأيت للأُم قلباً رأيت للرجل قلباً ، فإذا انخلع قلبها انخلع قلبه .

إن هنداً بنت عتبة التى تخاطب الجيش بقولها :

إن تُقبلوا نعانقِ   أو تُدبروا نفارقِ   فراقَ غيرِ وامِقِ

هى التى أنجبت معاوية .

وأسماء بنت أبى بكر التى قالت لابنها : يا بنى لا ترض الدنية ، فان الموت لا بد منه ، فلما قال لها : إنى أخاف أن يمثّل بى ، قالت : إن الكبش إذا ذبح لا يؤلمه السلخ — هى هى التى أنجبت عبد الله بن الزبير .

والتاريخ مملوء بهذه الشواهد فى كل أمة .

وظلت المرأة العربية على شهامتها ومعرفتها بأمور الدنيا ومشاركتها الرجل فى كل شؤون الحياة ، حتى تقدم العصر العباسى فأنشئ لها « الحريم » وحبست فيه ، وجهلت الدنيا وأحوالها ، وأخذ الرجال يجهّلون الحرائر ويعلمون الإماء ، حتى أصبحت المرأة ليست إلا رمزاً للمتعة أو رمزا للكيد ؛ وتجادل الشعراء ، فمنهم من يقول :

إن النساء رياحينٌ خُلِقنَ لنا   وكلُّنا نشتهِى شَمَّ الرياحينِ

ومنهم من يقول :

إن النسـاء شياطينٌ خلقن لنـا   نعوذ بالله من شرِّ الشياطينِ

وكلا النظرين سخيف قاصر ؛ فليست المرأة ريحانة فحسب ، ولا شيطانة فحسب ؛ وإنما هى فوق ذلك مَرْبًى للرجال ومحضنة للقلوب ومستودع للذخائر .

بمثل هذه النظرات البلهاء فقدنا المرأة ففقدنا الرجل ؛ فان أردنا تنظيم حياتنا على أسس جديدة وجب أن يكون أولها وأولاها خلق قلب المرأة .

ليس ما يمنع أن تحيا المرأة حياة الجَمال ، بل هو واجب أن يكون ؛ وما قيمة الدنيا إذا لم تقم فيها دولة الجمال ودولة الفن والأدب ؟ ولـكن يجب أن يكون بجانب الجمال الحسى جمال معنوى ؛ فيه جمال حديث المرأة وجمال رقيها وخبرتها وجمال شجاعتها وجمال قلبها ، فعند ذاك فقط نجد المرأة فنجد الرجل .

انظر الآن دور المرأة الغربية فى الحرب ، ولا أقص عليك إلا مثلا واضحاً تلمسه فى كثير مما يدور من قصص وما يتلى من أخبار ، وهو أن الشبان والرجال يتعيرون كل العار أن يُرَوْا فى بلادهم أيام الحرب وهم لا يحملون السلاح ، ولا يشتركون فى القتال أو وسائل القتـال ، ويحز فى نفوسهم أن قد أصيبوا بعاهة أو منعهم مانع جسمى عن أن يؤدوا لوطنهم خدمة ولأمتهم عملا ؛ ومن يقوم بهذا الدور الخطير من تأنيب وتعيير غير نساء الأمة ؟ فتكفى نظرة من إحداهن ليفضل الرجل الموت على الحياة ، وخطر الحرب على أمن السلم ، وعيشة القتـال على عيشة الدعة .

كل هذا يلخص لنا الأمر فى جملة : شجعت المرأة فشجع الرجل ، وماعت المرأة فماع الرجل .

***

ليست تُعَد الأمة راقيــة تستحق البقاء إلا إذا أرسلت الأم أبناءها إلى ميادين القتال وهى تبتسم ، وودّعت الزوجة زوجها إلى الحرب وهى تملؤه أملاً بالعيشة السعيدة بعد النصر ؛ وقالت الأمّهات لأبنائهن ما قالت « أسماء » : « إن ضربة بسيف فى عز خير من لطمة فى ذل » .

* * *

إن وراء كل جيش فى الأمة جيشاً غير منظور من قلوب نسائه ، ووراء كل جيش صاخب جيش المرأة الصـامت ، ووراء البنود والأعلام والجنود والذخائر ذخيرة أسمى وأرق وأقوى وأغلى ، وهى « قلب المرأة » .

حديث أمس

يجتمع فى « لجنة التأليف » كل مساء خميس جماعة من صفوة الإخوان ، يسمرون سمراً طيباً ، ويتحدثون حديثاً بريئاً ، ويدور الحديث حيثما اتفق ، مرة فى الشرق ، ومرة فى الغرب ، ومرة فى الشرق والغرب معاً ، تارة فى أدب ، وتارة فى اجتماع ، وتارة فى اقتصاد ، وقد يكون فى غير ذلك جميعاً ؛ ويُترك الحديث على سجيته ، يستقيم كما يشاء ، ويعوج كما يشاء ؛ ولو سجل هذا الحديث كل أسبوع لكان صورة صادقة من صور بعض المجتمعات المصرية المثقفة . وقد يزورنا صديق من أصدقائنا فى الشام أو العراق أو الهند ، فيعرض علينا ونعرض عليه ، ونأخذ ونعطى ، ويمدنا بالرأى ونمده بمثله .

وقد يحتد الجدل ويرتفع الصوت ويشتد الحوار ، ثم لا نصل بعدُ إلى نتيجة حاسمة ، وقد نوفق أحياناً إلى أن يقنع بعضنا بعضاً ، وعلى الحالين ينتهى الحديث بسلام ، بعد أن نقضى ساعتين أو أكثر فى متعة عقلية لذيذة .

كان الحديث بالأمس من نصيب الأدب ، جرّ إليه سؤال وجهه أحدنا ، وهو أنه كُلِّف أن يختار كتاباً عربيا من الأدب القديم تقرؤه الفرقة الأخيرة بالمدارس الثانوية ، فماذا يختار ؟

قال أحدنا : « جزءاً من العقد الفريد » . وآخر : « جزءاً من الأغانى » . وثالث : « نهج البلاغة » . ورابع : « مقدمة ابن خلدون » :

— ما الغرض من اختيار هذا الكتاب من الأدب القديم ؟

— الأدب القديم يمتاز بجزالة لفظه ومتانة أسلوبه ، فإذا حملنا الطالب على دراسة هذا النوع من الأدب ، ووضعنا فى يده بجانب ذلك كتاباً من الأدب

الحديث استطاع أن يجمع مزية الأدبين ، وخير الثقافتين ، وأيضاً إن الأدب الحديث ليس إلا نتاجاً لتطور طويل ، فما لم نعرف الأصل لم نعرف الفرع ، ثم فى الأدب القديم معرض صور لآراء أسلافنا ، ومستودع معان تغذى عقولنا ، وأخيراً هو يصل حديثنا بقديمنا ، وزمننا بزمن آبائنا .

— إن الأدب القديم نتاج عصر قديم ، وصورة من صوره ، ونابع من بيئته ؛ والطالب الحديث لا يستطيع أن يتذوق نتاج عصر مضى عليه ألف سنة أو تزيد ؛ فإذا كلفناه قراءته ودرسه ، فقد كلفناه تجرع المر وهو لا يقبل عليه ولا يستسيغه ، ويتجرعه ليلقيه فى ورقة الامتحان ، ثم لا يبقى منه شىء إلا الذكرى السيئة ؛ فأولى أن نعلمه الأدب الحديث ، ونقرئه الكتب الحديثة ، فهى التى يسيغها ، وهى التى يشعر بها ، وهى التى تعبر عن بيئته وزمنه ؛ أما الأدب القديم فيدرسه من يتخصصون بعدُ لدراســة الأدب العربى واللغة العربية .

— إن هذه نظرة ثائرة ، لم يقل بها ولا الثائرون من الأوربيين ؛ ألا ترى المدارس الإنجليزية تدرس شكسبير وبيكون ، والمدارس الفرنسية تدرس فى مدارسها الثانوية روسو وكورنى ؛ فما بالك تريدنا نحن على أن نقتصر على الأدب الحديث ؟

— شكسبير وكورنى صورة من حضارتنا التى نحياها الآن ؛ والطلبة يقرءون مؤلفاتهما فى شغف ، ويشعرون بما عرضَتْ له من موضوع . أما الطالب العصرى فكيف يشعر بما كان يدور فى العصر الأموى والعباسى .

— لقد جربت تجربة فى السنة الأولى من كلية الآداب تشهد بصدق هذا النظر ؛ ذلك أنى أدرس لهم أدباً عربيا قديماً وأدباً حديثاً ؛ وفى الأسبوع الماضى ألقيت عليهم سؤالا عن شعورهم نحو ما يدرسون ، وأمرتهم ألا يكتبوا أسماءهم

على ورقة الإجابة . فكان هناك شبه إجماع منهم على الشكوى من الأدب القديم وعدم فائدته ، وأنه يجب الاقتصار على الأدب الحديث ؛ قالوا ذلك لأنهم طلبة القسم الإنجليزى ، وطلبوا أن يترك الأدب العربى القديم لقسم اللغة العربية .

— هذا كلام فيه إسراف ؛ فمتى كانت رغبة الطالب وحبه وشوقه مقياس ما يدرس وما لا يدرس ؟ إنما يجب أن نعرف الصالح ونكلفه الطالب ، سواء أحبه أو كرهه ؛ وكل دراسة فى أول أمرها ثقيلة مكروهة ، حتى إذا سار فيها الطالب شوطاً بدأ يستلذها ويحبها . فليس يصح أن نعوّل على الحب والكره ، والشوق وعدمه ، فيما يدرس وما لا يدرس ؛ بل يجب التعويل على ما ينفع وما لا ينفع .

— وهب هذا ، فماذا ينتفع الطالب من شعر مديح وشعر هجاء ، وفصل فى الأجواد ، وفصل فى صفة الحروب القديمة ؟

— ليس الأدب العربى كله كذلك ، فقسم كبير منه قسم عالمى صالح لكل زمان ومكان ، كباب الحِكَم وباب الأدب ، حتى الأشياء التى ذكرتها لا تخلو من فائدة كبرى ، كما ندرس أدق الأشياء فى التاريخ القديم ، وهى تخالف ما نحياه اليوم

— هذا مثل جيد ! إننا ندرّس الطبيعة والكيمياء والجغرافيا فى المدارس على النمط الحديث ، ولا ننظر مطلقاً إلى ما كتب فيه قديماً ، فلا ننظر فى تعليم الجغرافيا إلى معجم البلدان لياقوت ، ولا كتب الإدريسى ، ولا نعلّم التلاميذ كتب ابن سينا فى الطبيعة والكيمياء . إنما نعلمهم فى كل ذلك آخر ما وصل إليه العلم ؛ فلماذا لا نسير فى الأدب على هذا الأساس ؟

— الفرق واضح ، وهو أن العلم لا قيمة لقديمه إلا من حيث دراسة تاريخه ؛ أما الأدب فخالد وجماله خالد ؛ فنحن نُعجَب الآن بالمتنبى وأبى نواس ، ولا نعجب

بالعلم الذى كان فى زمنهما إلا من ناحية الدراسة التاريخية .

— أرى أيها الإخوان أنكم شتّتّم البحث وبعثرتم الموضوع ؛ فأنا أرى خطأ آخر هاما يقع فيه واضعو برامج الأدب العربى ، من دراسة لتاريخ الأدب فى عصوره المختلفة ودراسة القديم والحديث وغير ذلك . إن دراسة هذه الأمور تنفع عدداً محدوداً من الطلبة ، قد يكون اثنين فى المائة أو اثنين فى الألف ، ولكنه يضر الأغلبية العظمى ، فهل من الحق أن نرعى القليل ونضر الكثير ؟ أجيبونى أولا عن السؤال الآتى : ما الغرض من تعليم اللغة العربية وآدابها لطلبة المدارس الثانوية على اختلاف أنواعهم ، مع العلم بأن منهم من سيكون مهندساً أو زارعاً أو تاجراً أو معلم رياضة أو أديباً ؟

— الأغراض من دراسة اللغة العربية — فى نظرى — على شكل هرم ، قاعدته منبسطة جدا ، ثم تأخذ فى الضيق شيئاً فشيئاً ؛ فأوسع غرض وأشمله أن يستطيع الطالب التعبير عما فى نفسه باللسان والقلم تعبيراً صحيحاً يطابق تمام المطابقة ما فى نفسه ، وأن يفهم فهماً صحيحاً ما يقوله الآخرون أو يكتبونه على هذا النمط .

ويلى ذلك أن يُمدهم الأدب العربى بمعلومات صحيحة مفيدة ، تنفعهم فى حياتهم ، وتفتق ذهنهم ، وتجعلهم أقدر على فهم الحياة ؛ حياتهم الواقعية وحياة آبائهم .

ويلى ذلك أن يستطيعوا تذوق ما فى القطع الأدبية من جمال ، سواء من حيث اللفظ ، أو من حيث المعنى ؛ فإنّ تذوق الجمال الفنى غرض هام ، نستطيع أن نقصد إليه ونهتم به .

ويلى ذلك أن نهيئ من له استعداد للأدب أن يكون أديباً ، وهذه كلها تتدرج فى الشمول حتى يكون الأخير فى القمة .

— إنى أوافق فى الجملة على هذه الأغراض ، وإن كنت أخالف فى ترتيبها

وأرى أن هناك أغراضاً غير هذه ؛ ولكنى أدع المناقشة فى هذا الآن ، وأقول إذا سلمنا بهذا فيجب أن ننظر للبرامج فى ضوء هذه الأغراض ، وإنا إن فعلنا ذلك وصلنا إلى نتيجة هامة . وهى أنه يجب توزيع العناية بما نعلّمه فى اللغة العربية وآدابها على مقدار الشمول وعلى مقدار أهمية الغرض ؛ فيجب أن يكون تصحيح العبارة فى القول والكتابة والقدرةُ على الفهم فى المنزلة الأولى ، من حيث البرنامج الموضوع ، ومن حيث توجيه العناية ، ومن حيث ما تعطَى من زمن ، ثم تقل هذه العناية كلما صعدنا إلى القمة .

وفى ضوء هذا النظر يجب أن نقلل من التعليم الفلسفى ما أمكن ؛ ففلسفة الإعراب فى النحو ، وفلسفة البلاغة التى لا ينبنى عليها عمل ، والنظريات فى تاريخ آداب اللغة من حيث أسباب رقى كذا وضعف كذا يجب أن تكون كلها فى المنزلة الثانية أو الثالثة ، لأنها لا توافق إلا عدداً قليلا من الطلبة .

كما يجب أن نفرق فى التدريس للسنة التوجيهية بين القسم العلمى والقسم الأدبى ، فنعنى للعلميين بالغرض الأول ونتوسع فيه ، ونعنى للأدبيين بسائر الأغراض :

* * *

بدأ أحدهم يردّ على هذا الكلام ويفنده ، وتبين من ملامحه أنه استعد استعداداً عظيما لتحطيم هذا الرأى ، واستوى فى جلسته وبدأ يقول :

— إن هذه الآراء كلها آراء غير ناضجة ، ويجب أن ...

وهنا أخرج عضو ما كر ساعته وأعلن الحاضرين بتقدم الوقت والحاجة إلى الانصراف ، فانصرفوا من غير أن يجيبوا عن السؤال الأول : « ما أحسن كتاب يختار » .

فإن شاق هذا النحو من الحوار كثيراً من القراء ، رجوت أن أعرض عليهم من حين إلى حين « محضر » بعض الجلسات فى « لجنة التأليف » .

رحلة (1)

وأنا رحلتُ — يا أخى طه — كما رحلتَ ، فراراً من تقاليـد العيد التى أفسدت العيد ؛ فأصبح المرء لا يستطيع فيه أن يخلو إلى نفسه ، ولا إلى أهله ، ولا إلى أصدقائه ؛ وإنما هو يستقبل أناسا فى تكلف وتصنع ، ويتحدث إليهم فى تكلف وتصنع ، ويقضى نهاره وجزءاً من ليله زائراً أو مزوراً ، متلقيا بطاقات رادًّا على بطاقات ؛ متقبلا تحيات ، رادًّا على تحيات ؛ فلا يفرغ العيد إلا وقد فرغ من نفسه ، وأضناه التعب ، وانهدَّت أعصابه ، وضعفت قواه .

إذن فلا بد لنا من « مدرسة » تنظم أعيادنا ، وتصحح تقاليدنا ، وتجعل العيد مصدر فرح وسرور ، وراحة واطمئنان .

وقبل أن تُنْشأ هذه المدرسة ، وتقوم بواجبها ، لا بد أن نرحل فى العيد ، ونهرُب من الأهل هربا من التقاليد .

ولـكن إلى أين ؟

إذا كان الغرض الهرب ، فليكن إمعان فى الهرب ، وإذا كان الغرض الفرار من الناس ، فليكن حيث لا ناس .

إذن فنحن نريد مكاناً نستطيع أن نستريح فيه من أعمالنا ، ونبعد فيه عما يصدِّعنا من أخبار وأحداث سياسية واجتماعية ، ونبعد فيه عن الناس ، لأنهم مصدر قلق دائم ، ونقرب فيـه من الطبيعة ، لأنها مصدر الراحة والطمأنينة ، والشعور بلذة الجمال الذى يسمو عن الغرض .

---

(1) كان الدكتور طه حسين كتب فى الثقافة عن رحلة فى العيد أثارت غضبه ، فاقترح من أجل ذلك إنشاء مدرسة للغضب فـكتبت هذا المقال مساجلة له .

إلى دير ممعن فى الصحراء ، بين الجبال الشامخة . ومنظر الطبيعة القاسية ، والطبيعة الجميلة ، والطبيعة القوية القاهرة .

إلى دير « سانت كاترين » ، حيث جبلُ موسى الذى تلقَّى منه الوحى والإلهام ؛ ولأمر ما كان جبل موسى وغار حِراء ونحوهما من الجبال مصدر الوحى والإلهام ؛ ففيها ينقطع الإنسان عن العالم وشروره ، ويتجرد من خيالاته وأوهامه ، ويكون أقرب إلى الطبيعة على الفطرة ، وأقرب إلى فهم نفسه على الفطرة ، وإلى رؤية ربه على الحقيقة .

هيا بنا أيها الأصحاب إلى الدير ، فما حيلتنا وقد انقطع نظام التكايا والخانقاهات فى الإسلام ، وبقى نظام الأديار فى النصرانية ؟ وكان القائمون بها ذوى ذوق فى اختيارها ، فقد زرنا أدياراً كثيرة فى الصحراء ، حرص منشئوها على أن تكون بعيدة عن الناس ، قريبة من الله ، قريبة من الطبيعة وحسنها غير المجلوب كما يقول المتنبى ؛ وحيث الماء الذى هو مبعث الحياة ، وحيث صفاء الجو ، وصفاء النفس .

وها هم أولاء رفقة كأنَّ أخلاقهم سبكت من الذهب المصفى ، وكأن شمائلهم من قَطْر المُزْن ، وها هى السيارات التى تنهب الأرض نهبا مكان الجمال التى كانت تَخب خبا ، وها هو الأستاذ « الدمرداش » القائد الخِرِّيت ، العالم بالمسالك والمهالك ، الذى خبر صحراء مصر وجبالها شرقاً وغرباً ، وعرف أسرارها ، وعرف كيف يدبر لها ، وينظم الرحلات إليها ، ويطبق النظام العسكرى عليها ، فى دقة وإحكام ، وفى مرح وسرور أيضاً .

لم تُثر فينا — يا أخى طه — هذه الرحلة غضبا كما أثارت فيك رحلتك ، بل أثارت فينا معانى أخرى تخالف الغضب كل المخالفة ، أثارت عندنا شعوراً بضعَة الإنسان أمام قوة الله القاهرة ، ومظهرها فى سلاسل الجبال الشامخة والوديان

الباهرة ، والمرتفعات والمنخفضات التى لا نهاية لها ؛ وتقلبنا بين سلطان الشمس فى النهار بدفئها وعظمتها ، وسلطان القمر فى الليل بجماله وبهائه ، ورقته ووداعته .

ولم يكن من فرق بيننا وبينك إلا أنك فى رحلتك انغمست فى الإنسان ، ونحن فى رحلتنا هربنا من الإنسان ، وحيث لا إنسان لا غضب ولا حقد ولا نزاع ، فإذا أكلنا أكلنا فى الصحراء ، حيث لا يحسدنا أحد ، ولا يغبطنا أحد ، ولا ينظر إلينا إلا الله الذى يرحمنا ويشفق علينا ، وقد يسخر منا .

ولكنى لا أكتمك أنى شاركتك حيناً فى اقتراح مدرسة الغضب ، فكأننا كنا ملهمَين إلهاماً واحداً ، أو أن شيطاننا واحد كما يقول الشعراء . ولكن كان الغضب حيث كان الإنسان ؛ فقد قطعنا فى سيرنا فى الصحراء المسافات الشاسعة ، نلهو ونلعب ، ونسر ونفرح ، ونغفل ونذكر ، وتتوالى علينا العواطف المختلفة إلا الغضب ؛ ولكن مع الأسف ، والأسف الشديد ، كنا بين حين وحين يوقعنا سوء حظنا فى ملاقاة الإنسان فنغضب . نقطع المسافات البعيدة فى الصحراء الجرداء فى هدوء واطمئنان ، ثم نصطدم بمجموعة من الناس تسمى فى عرف المدنيين « شركة » وفى عرف اللغة والحق « امتصاص الدماء » ، و « استغلال الأرواح للذهب » و « تحويل النفوس البشرية إلى أوراق مالية » .

وكان الأمر يهون لو كان المستغِل والمستغَل مصريين ، إذن لقلنا إن مصر استعبدت مصر ، وبعض مصر أكل بعض مصر ؛ ولكن هذه شركة « جبس » يونانية ، وهذه شركة « منجانيز » إنجليزية ، وفى الناحية الأخرى شركة « فوسفات » إيطالية . ولم نسمع فى هذا الطريق ولا فيما سرنا فيه قبل من طرق شركة مصرية ، فالمعادن من بلادنا ، واليد العاملة يدنا ، والغلة لغيرنا .

لقد غضبت — يا أخى — عند ذاك غضباً أشد من غضبك ، إذ علمت أن فى الصحراء ثروة تبلغ أضعاف مافى الأراضى الخصبة من ثروة ، فهذه طين ، وتلك

ذهب ، وعلمت أن هذه الجبال التى كنت أظن أنها لا تصلح لشىء إلا لخيال شاعر ، قد كشف فيها العلم عن مناجم أشكالٍ وألوان ، تُدِرّ المال الوفير والخير الكثير ، وعلمت أن الله تعالى قد منحنا هذه الكنوز ، وحرمنا كنز العقل وكنز الخلق ، فجاء قوم حرموا هذه الكنوز ومنحوا كنز العقل وكنز الخلق فغلبونا على كنوزنا وعلى عقولنا وأخلاقنا ؛ وكان لنا العمَل الوضيع ، ولهم الثراء الواسع ، ولنا الفُتَات ولهم المائدة .

وعلمت أن هؤلاء العمال المصريين يعملون فى هذه المناجم فى مقابل عشرة قروش فى اليوم أو أقل من ذلك قليلا أو أكثر من ذلك قليلا ، ثم لا يستطيعون أن يعملوا أكثر من نصف سنة ، إذ تسوء بعدُ صحتهم ، وتذبل أجسامهم ، ولا يصلحون بعد ذلك للعمل ولا للحياة ، فيعودون إلى بلادهم وقد كسبوا بضعة جنيهات فى أيديهم وخسروا نفوسهم ؛ وكسب غيرهم الصحة والمال والجاه ؛ وتدفق المال فى أوربا ، وتدفق المرض وسوء الحال فى مصر .

عند ذلك — يا أخى — كنت أغضب وكنت أثور ، وكان يتقطع حلمى اللذيذ فى الصحراء ، وكنت أتساءل : أين حكوماتنا التى أهملت الصانع كما أهملت الزارع ، وأهملت الأراضى المعدنية كما أهملت الأراضى الزراعية ؟ وأين رجال العلم منا الذين يجهلون ما فى بلادهم ، حتى يأتى إليها غير أهلها ، فيكشفوا سرها ، ويعرفوا قدرها ، ويعملوا لاستغلالها ؟ وأين أرباب الأموال الذين لا يعرفون من المال إلا أرضاً زراعيــة ضاقت على أهلها ، وإلا مضاربات على القطن تأتى على أراضيهم ، فتصبح هى والمناجم سواء فى تملك الأجنبى لها ، ويصبح لغيرنا الغُنم وعلينا الغُرم ، ولغيرنا الثمرة ولنا القشور ؟

لسنا يا أخى نحتاج إلى مدرسة للغضب فحسب ، وماذا ينفع الغضب ؟ إنما نحتاج لمدارس تعلّم الحكومات كيف تحمى ثروتها ، وتستغل مناجمها ؛ وتعلّم

رجال العلم كيف يعلمون أن فى أرض مصر ثرواتٍ تفوق ما فى الوظائف الوضيعة ؛ وتعلّم رجال المال أن استثمار أموالهم فى الأوراق المالية ، هو استثمار العجائز ، واستثمار أموالهم فى الأراضى الزراعية استثمار القرون الخالية ، وأنه يجب أن يعيش أقوياؤنا لزمنهم فيستنجموا ، كما يعيش ضعفاؤنا للأرض ، فيزرعون ويقلعون .

***

رُحماك اللهم ! كلما هربت من الإنسان وهمومه ، لحقنى الإنسان بغمومه ، حتى فى جوف الصحراء المؤنسة بوحشتها يلاحقنى الإنسان الموحش بإنسيته ! لا . لا .. لا بد أن أغلق ذهنى دونه ، وأجرد نفسى منه ، وأفرغ للجبال والوديان ، وأحتضن الطبيعة شوقاً إليها ، وأركز جمالها فى قلبى هياماً بها ، لأدعْ منابع الزيت فى « السويس » ، ومناجم المنجنيز فى « أبى زنيمة » ، ومناجم « الجبس » فيما لا أدرى اسمه ، ولأمتع النظر بالجبال الحمراء والصفراء والبيضاء والسمراء ، وبالشمس على قمم الجبال ، وبالطبقات الجبلية المختلفة الألوان ، وبالحصى الذى يروع حالية العذارى كما يقول الشاعر ، وبحصباء الدر على الأرض من الذهب ، كما يقول الآخر ؛ ولأنعم بالجدب كما نعمت حيناً بالخصب ، وبمسيل الماء القليل ينبت فى حافتيه العشب القليل ، كما نعمت بمنظر النيل وفيضانه ومزارعه ، فالجمال فى التنوع ؛ ولنسر على شاطئ البحر الجليل الجميل ، ولنسمع تلاطم أمواجه ، ولننعم بزرقته كما نعمنا بالوادى الذهبى وتموجاته الوديعة الهادئة ؛ ولنعلُ ولنهبِط ولنَسر فى السهل والوعر ، فلذات الهوى فى التنقل ؛ ولتغب الشمس مودّعة فى الشتاء بالثناء ، ولتبعث إلينا ابنها البر القمر ليسبل على هذه اللانهاية من ضوئه الفضى الرائع ، وليجعل الأرض كلها شاشة بيضاء تمثل عليها الصور البديعة والمناظر الجميلة :

ففي كل شيء له آية تدل على أنه الواحد

هذه السيارات تطوى الأرض طى السّجلِّ للكتب ، لا تكلّ ولا تملّ ، وتعمل فى المناظر عمل محرك الصور فى السينما ، فتنقلنا من صورة إلى صورة ، وتنسينا مشقة السفر ، وتنسينا أنفسنا ، فإذا نحن وهى والأرض والسماء وحدة ، وتنقلنا من سهل إلى جبل ، ومن جبل إلى سهل ، ومن بحر إلى واد ، ومن واد إلى بحر ، ونحن سكارى بالجمال ، نشرب من مناظره حتى الثمالة .

***

الله أكبر ! نحن الآن فى منتصف الليل ، وقد بدأنا سيرنا من السويس فى مطلع الفجر ، وهذا هو الدير .

ما أقسانا ! نقرع الأجراس على الرهبان فى سكون الليل العميق ، فنقطع عليهم نجواهم ، ونحرمهم سكونهم ونومهم ودفئهم ؛ ولكن ما الحيلة فى الإنسان ؟ لقد هربوا منه فلحقهم ، وفروا منه فلجأ إليهم ، واحتموا منه فى البعد السحيق ، وسط الجبال الشامخة فى الصحراء الموحشة ، فعرف مكمنهم وأدركهم !

لا بد مما ليس منه بد — فقد فتح لنا الراهب بعد لأى واستقبلنا بزيه الكهنوتى ، ومصباحه المتواضع ، ودخلنا الباب سجّداً ، وصعدنا الغرف ، وشربنا الشاى لندفأ ، وذهبنا إلى منامنا لنستجد ، ولنرتقب النهار لنرى الدير وما حوله فى ضوء الشمس .

هذا هو دير « سانت كاترين » الذى بناه جوستنيان سنة ٥٣٠ م فى حضن جبل موسى أو جبل سينا الذى ورد ذكره فى التوراة ، وأمده جوستنيان بمائة من الرومان ومائة من المصريين بنسائهم وأولادهم ليقيموا حول الدير ، يحمونه من عدوان من حولهم ، وليخدموا الرهبان فيه ، وقد تناسل هؤلاء وتكاثروا ، وأخضعتهم الصحراء لبداوتها وعروبتها وإسلامها ، فتبدّوا وتعرّبوا وأسلموا ،

ولا يزال نسلهم حول الدير إلى الآن ، يختلط فيهم أثر الرومان بأثر «العربان» .

وتوالت على الرهبان أدوار من سلم واضطهاد ، وخوف وأمن ، ألجأتهم إلى أن يجعلوا الدير حصناً حصيناً يمتنعون به عند الحاجة ، ويستقلون به فى معيشتهم ؛ ففيه عين الماء ، وفيه الطاحون والفرن ، وفيه مخازن الغلال ؛ كما تحصنوا بكتاب زعموا أن محمداً رسول الله أمنهم فيه فى رحلة من رحلاته ، وكتبه على بن أبى طالب ، وختمه الرسول .

وفى الدير كنائس متعددة ، ومسجد قيل إنه بنى لاسترضاء السلطان سليم ، ولكن فيه من الآثار ما يدل على بنائه قبل هذا العهد ، وأغلب الظن أنه بنى إرضاء للمسلمين ، حتى يكون الدير محل احترام المسلمين والنصارى على السواء .

وأثَّرَ ضعف الرهبنة فى هذا الدير ، فلم يبق فيه إلا نحو ستة عشر راهباً على مذهب الروم الأرثوذكس ، وخارج البناء كنيسة فيها حجرة ملئت بالجماجم وأشلاء الإنسان ممن قتلوا أو ماتوا من الرهبان ، حفظت تلبية لرغبة الإنسان فى البقاء .

طفنا بالدير ، وخرجنا منه إلى جبل موسى ، وصعدنا حتى تعبنا ، فلم نبلغ قمته ، وإن بلغت نفوسَنا عظمتُه ، وشعرنا برهبته ، وذكرنا موسى ، وذكرنا الألواح ، وخفقت قلوبنا للذكريات ، واهتزت نفوسنا لجمال المنظر وسحر المكان .

ثم عدنا إلى الدير ، وراعنا أن سيارة من سياراتنا كان فيها « راديو » ، فتحه السائق فغنى ، فشعرت أنه غير منسجم مع المكان ، ينقل إلى أعمق البداوة نهاية الحضارة ؛ وكان منظر يشبه منظر البدوى إذا لبس قبعة ، أو وضع فى فمه « بيبة » ولكن ما كان أشد رهبتى إذ رأيت ثلاثة من رهبان الدير دخلوا السيارة يستمعون إلى غناء الراديو .

سبحان الله ! أهذا هو الإنسان الذى هرب من المدنية فلم يطق الصبر على الهرب منها ، فعاد يتعلق بأسبابها ؟ أهذا هو الإنسان الذى أراد أن يتفرغ لعبادة الله فضاق عنها لسماع « أم كلثوم » ؟ . إن الإنسان فى كل شأن من شؤونه عجب أى عجب ! .

وعدنا كارهين العودة — يا أخى — كما كرهتَها ، وعدنا للإنسان عودة الراهب لسماع الراديو ، وعدنا نتعاون فى إنشاء المدارس وتكوين وزارة معارف ، ونبدأ من حيث انتهينا .

فإلى اللقاء ...

دمع العين

لقد حدثتك قبلُ — أيها القارئ الكريم — كيف اهتم أدباء العرب بالعيون ، وأكثروا من التأليف فيها والحديث عنها ، وعرضت لك كتاب « سحر العيون » وما فيه من دقة وجمال .

واليوم أعرض لموضوع فى العيون أطرف ، فقد رأى مؤلف آخر ظريف أن العيون موضوع واسع لا يصح أن يؤلف فيه كتاب واحد ، بل إن كل شىء للعيون جدير أن يؤلف فيه كتاب ؛ فلئن كان أطباء العصر الحاضر قد بلغ مدى تخصصهم فى الطب أن يجعلوا للعين بجميع أجزائها طبيباً خاصا ، فأدباء العرب فى العصر الماضى عز عليهم أن يؤلفوا فى العين على اختلاف مظاهرها وفتنها كتابا واحداً ، فافتنُّوا فى وضع الكتب للعين ، هذا فى سحرها وهذا فى دمعها .

وصاحبنا اليوم صلاح الدين الصَّفَدى الأديب المؤرخ المشهور (٦٩٦ — ٧٦٤هـ) وضع كتابا سماه « تشنيف السمع بانسكاب الدمع » ؛ ولست أدرى أكان موفقاً فى هذه التسمية أم غير موفق ! إنما الذى أدريه أنه كان موفقاً فى فكرته ، موفقا فى تأليفه .

لقد لحظ فكرة النشوء والارتقاء ، فتتبع أقوال الشعراء كيف بدءوا يذكرون الدمع ذكراً ساذجاً ، كالذى قال امرؤ القيس :

« قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل »

ثم أخذوا يبالغون فيه شيئاً فشيئاً ، فتقدم شاعر آخر خطوة ، وقال إنه فيض ، فقال قيس بن ذَرِيح :

هَل الحبُّ إلا زَفْرَةٌ ثم عَبْرَةٌ   وَحَرٌّ عَلَى الأحشاء لَيْسَ له بَرْدُ

وَفَيْضُ دموع تُسْتهَلُّ إذا بدا　　لنا عَلَمٌ من أرضكم لم يكن يبدو

ثم جعلوه مطراً كالذى يقول :

أظْهَرَ الكبرياء زهواً وتيهاً　　فتلقيتُـــــه بذلِّ الخضوع

وَحَبانى ربيعُ خدَّيه بالورْ　　د فأمطرته سحابَ دموعى

ثم خطوا خطوة أخرى فجعلوه سَيْلا :

ولما أبَى الواشُون إلا فِراقنَا　　وما لهُمُو عندى وعندكَ من ثار

غزَوْتهمُ من مقلتيك وأدمُعى　　ومن نَفَسى بالسيف والسَّيل والنار

ثم جعلوه نهراً :

أحبابنَا إن نأَتْ بى عن دياركمو　　دار وفارقْتُ أوطاناً وأوطارا

فإن لى نُصبَ عينى من جمالكمو　　رَوضاً نَضيراً ومن عينىّ أنهارا

ثم بحراً :

غرق النومُ فى بحار دموعى　　رحم الله سَلْوَتى وهُجُوعى

وأتى الطيف زائراً فرآنى　　بين بحر مدامعى ونجيعى

***

هذا من ناحية الكم ، وأما من ناحية الكيف فقد جعلوه بدل الماء دما :

ولما وقفنَا للوَداع عشـــــيةً　　وقد خَفقَت فى ساحة القصر رايات

بكيْنا دماً حتى كأَنَّ جفوننَا　　بِجَرْيِ الدموع الحُمر فيها جراحات

وقال آخر :

وقد صرتُ أبكى كل شىء بمثله　　لأنِّىَ فَردٌ فى الصبابة والوجْدِ

فثغركَ أبكيه بأبيض أدمعى　　وأحمرِها أبكى به خدَّكَ الوردى

ثم جعلوه عقيقاً أو مَرجاناً :

لست أنسى ساعةَ البَيْن وقد　　وَجَ الشائقُ منا والمشوق

ورجوعى بدموعى عاثراً لست أدرى بعدهُمْ أين الطريق
كلما أمَّ العقيقَ امتزجَت أدمعى فهى جُمانٌ أو عقيق

قد كان دمعى أبيضاً حتى إذا رحلوا غـدا للهجر أحمرَ قانِ
يجرى بمجرى وجنتىَّ فيمتلى الـمَرجانِ من عينىَّ بالمَرجان

* * *

ثم إذا كان الدمع أبيض فهو نجوم :

عيناى مذ شطَّ المزارُ بكمْ تحكى سما والدمعُ أنجمها

أو لؤلؤ ودرٌّ :

هو ذلك الدرُّ الذى ألقيتمو فى مَسمَعى ألقيتهُ من أدمُعى

وسالت على خدَّىَّ من لوعة الجوَى سيولُ دموع خُضْتها ثم عُمْتُها
لآلئُ دمعٍ من لآلئِ ثغرها ففى وقت لثمى كنتُ منها سرقتُها

* * *

ثم ادَّعوا أن الدموع نفِدت بأحمرها وأبيضها ، ولم يبق إلا مايذوب من النفْس ، كالذى يقول :

وليس الذى يَجرى من العَيْن ماؤها ولـكنها نفْس تذوب وتقطُر

وخطوا خطوة أخرى فزعموا أن العين ذهبت ولم يبق لها أثر :

أبكى وتبكى الحَمامُ لـكن شَـتانَ ماينها و بينى
تبكى بعَـينٍ بغير دمعٍ ولى دموعٌ بغـير عَين

* * *

وليس هذا الاستعراض كل مافى الـكتاب ؛ فهناك ناحية أخرى بديعة ،

هى تَتَبّعُ الحالة النفسية التى تنتج من الدمع أو تصحبه ، فهو فاضح السر وكاشف الستر :

لا جَزى اللهُ دمعَ عينيَ خيراً وجزى اللهُ كلَّ خيرٍ لسانى
نمَّ دمعى فليس يكتُمُ شيئاً ووجدْتُ اللسانَ ذا كِتمانِ

وهو شاهد الحب :

أنا صبٌّ وَماء دمعىَ صبٌّ وأسيرٌ ، من الضّنى فى قيودِ
وشهودى على الهوى أدمُعُ العيـــنِ ولـكننى قذَفت شهودى

ثم إن الدمع يتحير فى الجفون مخافة الرقباء :

وقفنا والعيونُ مُثقّلاتٌ يغالبُ طرفَها نظرٌ كليلُ
نَهتْه رِقبةُ الواشِين حتى تعلقَ لا يَغيضُ ولا يَسِيلُ

ثم فى الدمع تخفيف الهم ، وتلطيف الحزن ، وفرجة الـكرب :

لا تلُمْ فى البُـكاء فالدَّمعُ لو لم يَجرِ فى الخدّ كان فى القلب جَمْرا

أرْسِل دموعَك يوم البَين إنْ بانوا إن ألدَّموعَ على الأحزانِ أعوانُ

دعُونى ودمعى عسى فيْضُهُ به تنطفِى نارُ قلبى المرُوعْ
فمن شُؤمِ حظّىَ فى الحب أن أرىَ راحتى فى انسكابِ الدموع

ثم إن الدمع انتقام عادل من العين ، إذ هى التى جرّت على القلب ماجرّت :

لأعذبَنَّ العينَ غير مُفكِّرٍ فيما جرَتْ بالدمعِ أو سالتْ دَما
ولأهجُرنَّ من الرقادِ لذيذَهُ حتى يعودَ على الجفون محرَّما
هى أوقعَتنى فى حبائلِ فتنـــةٍ لو لم تكنْ نظرَتْ لـكنت مُسلَّما
سفكتْ دمى فلأسفحَنَّ دموعها وهىَ التى بدأتْ فـكانت أظلما

ولكن آخر يأمر العين بالكف عن البكاء رحمة بها ، وأملاً فى سلامتها حتى ترى محبوبها :

سأضمرُ فى الأحشاء عنكم تحرُّقاً ... وأظهرُ للواشين عنكم تجلُّدا
وأمنعُ عينى اليومَ أن تكثر البكا ... لتَسْلَمَ لى حتى أراكُم بها غدا

ثم إن للدمع معانىَ ودلالات ، فدمع ضاحك ، ودمع باك :

رأتْ دموعى فقالَتْ عينكَ ابتَسمت ... عن لؤلؤ بسلوك الجَفْنِ جَذْلانُ
وغالَطَتْنىَ فى جعل البكا ضَحِكاً ... واستخونَتْ . أيُّنا ياميُّ خوّانُ ؟

ودمع حزن ، ودمع دلال :

أبكى وتبكى غير أنَّ الأسَى ... دموعُه غيرُ دموع الدلال

شكوتُ حتى لان من قسوةٍ ... ورحت أبكى وهو لى مساعدُ
وقال : ها نحن سواء فى البُكا ... لا يا حبيبى ما بكانا واحدُ
لا يستوى دمع على جمرِ الغَضا ... إذا جَرى ودمعُ عينٍ باردُ

ودمع سرور ، ودمع رحمة :

رُحْتُ يومَ الفراقِ أضحَكُ حُزْناً ... ولفيضِ السرور يبكى المَروعُ
وكذا فى اللقاء أبكى هناء ... ولفرط السرور تهمِى الدموعُ

وقفتُ فى الروض أبكى فقدَ مُشْبهِهِ ... حتى بَكتْ بدموعى أعينُ الزّهَرِ
لو لم أُعِرْها دموعَ العين تسفَحُها ... لرحمتى لاستعارتْها من المطرِ

***

وأخيراً فرغ الشعراء من بكاء العين ، فتخيلوا البكاء من غيرها ، فالسحاب يبكى :

رُبَّى شَفَعَتْ ريحُ الصَّبا لرياضها ... إلى المُزْنِ حتى جادَها وهو هامعُ
كأنَّ السحابَ الغُرَّ غَيَّبْنَ تحتها ... حبيباً فما ترقَا لهُنَّ مدامِعُ

والساقية أو الناعورة أو الدولاب يبكى :

لله دولابٌ يفيض بجدولٍ ... فى روضة قد أينعت أفنانَا
فكأنه دَنِف يدور بمعهد ... يبكى ويسأل فيه عمن بانَا
ضاقَتْ مجارى جَفْنه عن دمْعِه ... فتفتحت أضلاعُهُ أجفانَا

والقلم يبكى :

ما أبطأتْ أخبارُ مَن أحبَبْتهُ ... عن مَسمَعى بقدومِه ورُجوعِه
إلا جَرَى قلمى إليه حافِيًا ... وشكاَ إليه تشوق بدموعه

والسيف يبكى :

تبكى صوارمُه يوم الوغى بدمٍ ... وذلك الدمع للدنيا به ضحك

ثم يفلسف « النَّظَّام » البكاء فيجعل الضمير يبكى :

ذكرتُك والراحُ فى راحتى ... فشِبتُ المدامَ بدمعٍ غزيرْ
فإنْ تُنفِدِ الدَّمْعَ نارُ الأسى ... بكتك الحشاَ بدموعِ الضَّمير

***

رحم الله آباءنا الأولين ، فقد جالوا كل مجال ، وتفننوا كل فن ، ولم ينقصهم إلا أن يبنى أبناؤهم على آثارهم ، ويجددوا ماتهدم من بنيانهم ، ويشيدوا ما يتطلبه زمانهم ، وما هو أشبه بنفوسهم .

جَمَلٌ يطيرُ وَجَمَلٌ يَسيرُ

لفت نظرى — وأنا أقرأ « للمطهَّر المقدسى » فى كتابه « البدء والتاريخ » — وصفه لجماعة من أصحاب القلانس والمجالس الذين يشحنون صدور العامة بترهات الأباطيل ، ويقصون على الناس غرائب العجائب ، ثم يقول فى وصفهم : « إن الحديث إليهم عن جمل طار ، أشهى إليهم من الحديث عن جمل سار » .

وهل الدنيا كلها أيها المطهر إلا هؤلاء ؟

كل العالم يصدّق جملا يطير ، ولا يصدق جملا يسير ، يصدق المحال ويكذب الواقع ، ذلك دأبهم فى كل شأن من شؤون الحياة .

إن قلت إن اللغة العربية خير اللغات ، وآدابها خير الآداب ، وإن اللغة العربية ، أو الأدب العربى كامل مكمّل ، ليس فيه نقص ولا عيب ، ولا يحتاج إلى نوع ما من الإصلاح ، وإن اللغة العربية بزت لغات العالم ، والأدب العربى لا يدانيه شىء من آداب العالم ؛ فذلك جمل يطير ، إن قلت به صفق لك الناس طرباً ، وشادوا بذكرك إعجاباً وعجباً ، وعدُّوك العالم الحق ، وقائل الصدق . وإن قلت إن اللغة العربية ككل اللغات ، والأدب العربى ككل الآداب ، فيه نواحى القوة ونواحى الضعف ، وفيه ما يحسن وما لا يحسن ، وفيه وجوه النقص التى يجب أن تكمّل ، وفيه وجوه التخلف التى يجب أن تستقصى حتى تصلح ، فهذا جميل يسير ، لا يصدقك الناس فيما تقول ، ويرمونك بقول الزور والبهتان ، وما شئت من ألفاظ منتقاة .

فذلك جمل يطير ، وهذا جمل يسير .

وإن قلت فى التاريخ من أول عهده إلى اليوم ما يرضى الحكام والولاة والشعوب ، فرفعت من شأنهم ولو زوراً ، وغلوت فى مفاخرهم ولو كذباً ، وسكتَّ عن مساويهم ولو كانت صارخة ، وعمدت إلى اتجاه عواطفهم فسرت معها ، وقصدت إلى الأوتار التى تطربهم فغنيت عليها ، وشهّرت بخصومهم ، وقللت من شأنهم ، وكذبت فى إنكار فضلهم ، وكان لك من البلاغة ما استطعت به أن تقلب الحق باطلا والباطل حقا ، وتجعل السماء أرضاً والأرض سماء ، والحلو مرا والمر حلواً ؛ واستطعت بفصاحتك أن تظهر مهارتك فى اختراع حجج تشوه بها وجه الصدق ، وتجمل بها وجه الكذب ، فهذا جمل يطير ، إن قلت به فأنت المؤرخ وأنت البطل ، وأنت البليغ ، وأنت الذى يغدَق عليه المال ، وأنت الذى يمنح خير الألقاب ، وأنت الحقيق بأن يقام له تمثال ؛ وأما إن أنت لم تعبأ بميول الحكام والولاة وعواطف الشعوب ، وأخذت تحلل كل خبر وتتبين بواعثه ودوافعه كما يحلل الكيمياوى المادة فى معمله ، وتصدر حكمك لا تراعى فيه إلا الحق ، فتارة يرضى العواطف ، وأحياناً يغضبها ، وأحياناً يرضى الرأى العام ، وأحياناً يغضبه ويهيجه ، وأنت لا يهمك أرضى أم غضب ، وكره أم أحب ؛ ولا يهمك أتفق رأيك ورأى الناس ، أم خالفهم ، وتعمد إلى ما يعده الناس من وثائق فتهزأ بها ، وإلى الإشاعات فتنحراها وتركزها فى بوتقتك ، وتشعل تحتها النار فتبخرها ، وتصدر حكمك على من يسميه الناس بطلا فتنكر بطولته ، وعلى من يعده الناس سافلا فتعرضه نبيلا ؛ إن فعلت ذلك فهذا جمل يسير . فأنت الفقير ، وأنت الثقيل ، وأنت المتفلسف ، وأنت المتعجرف ، وأنت الذى ترمى بأن لا وطنية له ولا شعور عنده . وأنت الذى يطرد ويبعد ويشرد .

فهذا أيضا جمل يطير ، وجمل يسير .

وفى السياسة : إن أنت سرت على هوى الناس فرميت من يكرهون بأشنع

التهم ، واجتهدت أن ترفع نغمتك على نغمتهم ، فإن قالوا : « مخطئ » قلت : « مجرم » ، وإن قالوا : « مبطل » قلت : « خائن » ، وإن قالوا : « مسرف مبذر » قلت : « سارق » ؛ وتحريت ما يرضيهم فدعوت إليه ، فسفهت مشروعا لا يرضونه ، وأيدت مشروعا يعطفون عليه ، واتخذت إمامك الرأى العام ، تنكر ما ينكر ، وتؤيد ما يؤيد ؛ وسرت وراء الزعماء ، إن انحرفوا يميناً انحرفت يميناً ، أو يساراً فيساراً ، وإن قالوا قولا ظاهر البطلان ، قلت إن لهم غرضاً لا ندركه ، وغاية لا نتبينها إلا بعد حين ؛ وإن كان الساسة يرون الحرب ، قلت الحرب ، وإن قالوا السّلم ، قلت السّلم ؛ وإن قالوا الحرب فى هذا الجانب قلته ؛ وإن قالوا فى الجانب الآخر قلته ، وإن قالوا عدوُّنا فلان قلتَ إنه عدو لدود ؛ وإن قالوا صديقنا فلان ، قلت إنه صديق حميم ، واستعملت فى كل ذلك حنجرتك إن كنت من ذوى الحناجر ، وقلمك إن كنت من ذوى الأقلام ، ومالك إن كنت من ذوى الأموال ، فهذا كله جمل يطير . أما إن أردت أن تحكّم عقلك ، وهداك إلى أن تقول على الشىء إنه أسود حيث قالوا أبيض ، وصوبت الرأى العام حيناً ، وخطأته حيناً ، ووافقت عواطف الناس حيث يوجب العقل الموافقة ، وخالفتها حيث يوجب المخالفة ، وحبذت قول الزعيم حين يرضى ضميرك أن تحبذه ، ونقدته حين يدعوك ضميرك أن تنقده ، وقلت السّلم حيث قالوا الحرب ، أو الحرب حيث قالوا السّلم ، وأيدت ذلك كله ببراهينك المنطقية ، وأعلنت رأيك ، ولو كنت فيه وحدك ، فهذا كله جمل يسير ؛ أقلُّ نتائجه أنك تعد ثقيلا بغيضاً ، وقد يكون فيه الخروج من منصبك ، وقد يكون أن تؤذَى فى مصالحك ، وقد يكون فيه أكثر من ذلك كله .

فهذا أيضاً جمل يطير ، وجمل يسير .

وهذا هو الشأن فى « منطق الحوادث » جاهل ينال خير منصب ، ويمنح

خير مرتب ، وعامل كفء لا يجد عملا ولا يجد قوتاً ؛ وحسناء فاضلة تتزوج بفقير سيئ السيرة ، سيئ السلوك ، وشوهاء شريرة ترزق الحظوة بغنى يأتمر بأمرها ، ويسير طوع إرادتها ، وغبي غنى يرتع فى النعيم . ولا مبرر لهذا إلا أنه ورث أباه الغبي فى الغنى ، أو لعب فى « البورصة » فربح من حيث لا يدرى ، أو احترف الرذيلة فكسب المال وخسر الشرف ، أو لم تكن له شخصية فكسب بالملق ما لم يكسبه أخوه بالكفاية ، وهذا ذكى عالم أمين سدت فى وجهه كل الطرق حتى ما يسد رمقه ، أو فقد عمله بصراحته وأمانته وشخصيته .

فهذا أيضاً جمل يطير ، وجمل يسير .

والمصلحون فى كل عصر إنما أوذوا وحوربوا وشردوا وقُتّلوا ، لأنهم كانوا يقولون بالجمل يسير ، حيث يقول الناس بالجمل يطير .

والفلاسفة البُلْهُ حبسوا أنفسهم فى حُجَرَ ضيقة لا يدخلها نور العالم ، وأخذوا يضعون علماً سموه « علم المنطق » يضعون فيه للمقدمات شروطاً وللقياس شروطاً ، وللفروض شروطاً ، والدنيا خارج حُجَرَهم تهزأ بمنطقهم ، وتسير على منطق آخر خلاصته :

جمل يطير ، وجمل يسير .

فمنطق الدنيا الواقعة فى الغنى والفقر يهزأ بقواعد الاقتصاد ، ومنطق الدنيا الواقعة يهزأ بمنطق النجاح والفشل ، ومنطق الحوادث الواقعة يهزأ بالمنطق النظرى ، وهكذا ؛ وكان المنطق السليم يقضى عليهم بأحد أمرين : إما أن يكون لهم من السيطرة والسلطة ما يخولهم أن يسيّروا الدنيا على منطقهم ، أو أنهم — وقد عجزوا — يسيّرون منطقهم على منطق الدنيا .

بل وأحداث الطبيعة نفسها سائرة على هذا المنطق ؛ فهذه صحراء تشكو الظمأ ولا تجد رشفة ماء ، وهذا بحر يشكو الرى ، ولا يجد ما يبثه شكواه ؛ ولو كانت

الدنيا بالعقل لسمعت الطبيعة شكوى الصحراء من الظمأ ، وشكوى البحار من الرى ، وكان فى علة هذا برء ذاك ، كالغنى يشكو التخمة ، والفقير يشكو المخمصة ، وفى الدنيا جو يشكو القيظ وجو يشكو البرد ، وأرض جرداء وحديقة غناء ، ومنجم ذهب ومنجم زفت ، ونسيم وسموم ، وسكّر وحنظل .

أليس هذا كله — أيضاً — منطق جمل يطير وجمل يسير ؟

هل اقتنعت معى — يا أيها المطهر — بأن ليس من تصفهم وحدهم هم الذين يصدقون جملا يطير ، ولا يصدقون جملا يسير ؟

أو ليس هذا ما شعر به المعرى إذ يقول :

لحاهـــا الله داراً ما تدارَى ... بمثـــل المَيْن فى لُجَج وقَمْسِ (١)
إذا قلتُ المحَال رفعتُ صوتى ... وإن قلتُ اليقينَ أطلت هَمْسِى

---

(١) القمس : مصدر قمس فى الماء إذا غاص فيه .

فلسفة المصائب

محال أن يحوّل الكاتب ذهنه عما يقع فى هذا العالم الآن من مصائب ، فهى موضع تفكيره ، ومجال أحلامه ؛ فلابد أن تكون أيضاً مجال قلمه .

والعالم الآن فى مأتم كبير ، ضحاياه أمم لا أفراد ، وصرعاه ممالك وعروش ، ومبادئ وحريات ، ودمار فى الأنفس والأموال ، وخراب فى كل مكان ؛ والأمم التى لم تكتو بنيران الحروب إلى الآن ، مكتوية بعذاب الانتظار ، وتوشك أن تدرك النار أخراها كما أدركت أولاها . تضع كل أمة يدها على صدرها واجفة من مصيرها ؛ والناس كلهم فى عَماء ، لا يدرون إلى أين ينتهون ، كأنهم يمثلون يوم الفزع الأكبر وما صوّرته الأديان عند قيام الساعة .

إن الخيال ليعجز عن أن يتصوّر حقيقة ما يحدث فى العالم الآن من كوارث فقد غطيت الأرض بالأشلاء ، وصبغت بالدماء ؛ وجاء دور العلم يقدم للإنسانية أقصى ما يستطيع من شر ؛ كما قدم لها فى السلم أقصى ما يستطيع من خير ؛ وهرعت الملايين من مكامنها تتطلب الملجأ ، وتسير على غير هدى ، وتشتتت الأسر لا يعرف بعضها مصير بعض ، إلى مالا يحصى من أهوال .

***

ومن قديم خُلق الإنسان وخُلقت معه مصائبه ، حتى لتوقعت الملائكة منه ذلك قبل أن يُخلق ، فقالت : « أتجعل فيها مَنْ يُفسد فيها ويَسفك الدماء ونحن نسبّح بحمدك ونقدّس لك ؟ » . فكانت المصائب ملازمة له ، وكأنها عنصر هام من عناصر وجوده ؛ وكأنها خاضعة لقانون النشوء والارتقاء ، تبدأ بسيطة ساذجة كما بدأ الإنسان ، وتعظم وتهول كلما تقدم الإنسان فى العظم والرقى . وتقرأ التاريخ

فتراه سلسلة مصائب وسلسلة حروب ، نصرتها مصائب وهزيمتها مصائب ؛ فإن فترت الحروب حيناً ، تتداول الأمَم أنواع من الكوارث الأخرى السلمية تختلف أشكالا وألواناً .

حتى كان من غريب أمر الإنسان أنه لا يدرك اللذة إلا بالألم ، ولا الفائدة إلا بالمصيبة ؛ كما لا يدرك الحلو إلا بالمر ، والمر إلا بالحلو ، ولا يمكن أن تتصوّر سعادة إلا بشقاء ، ولا شقاء إلا بسعادة ؛ فكأن السعادة والشقاء وجها القطعة من النقود لا يمكن أن يُتصوّر وجود أحد الوجهين إلا بالآخر .

وتعجبنى قصة صوفية ، وهى أن أحد المتصوفين دخل بلدة ، فأعجبه ما فيها ؛ ثم زار مقبرتها فقرأ على أحد شواهدها : هذا قبر فلان ، ألّف كتاب كذا ، وكان عالما فاضلا ، ومات وعمره يومان ؛ ورأى على قبر آخر : هذا قبر فلان القائد العظيم الذى انتصر فى موقعة كذا ، ومات وعمره ثلاثة أيام ، وفلان ملك الناحية ، وقد مات وعمره يوم ؛ فعجب من هذا كله ، وتوجه إلى خبير بالبلدة وسأله عن هذا اللغز الذى لم يفهمه ، فقال : إننا لا نعد من أيام حياتنا إلا الأيام السعيدة . فقال الصوفى : إنى أود أن أموت ببلدكم ، وأرجو أن تكتبوا على قبرى : هذا قبر صوفى رحالة ، جاب الأقطار ، وزار الأمصار ، ومات قبل أن يولد .

***

على أن المصائب نفسها ليست تخلو من وجه جميل وناحية رائعة ؛ فهى ليست قبحاً صرفاً ، ولا شقاء خالصاً ؛ بل كثيراً ما تكون بلسماً كما تكون جروحا ، ودواء كما تكون داء .

إن الرخاء قد يُفسد الطبيعة البشرية ، فلابد لها من شقاء يصلحها ؛ والحديد قد يفسد ، فلابد له من نار تذيبه حتى تصلحه وتذهب خبثه ؛ فكذلك النفوس

قد يطغيها النعيم ويصدئها الترف ، فلابد لها من نار تُكْوَى بها لتنصهر ويذهب رجسها .

ثم إذا أردت أن تعرف نفوس الناس حقا فتعرّفها فى أوقات المصائب لا فى أوقات النعيم .

ويعجبنى قول القائل : إنّ أعرف الناس بالناس الممرضات فى المستشفيات ، فهن اللائى يرين الناس فى الكوارث ، فيعرفن كيف يجزعون أو يحتملون ، وكيف يفزعون أو يصبرون ، وكيف يضعفون أو يقوون ؛ أما خارج المستشفى فكلهم شجاع وكلهم قوى .

فى أوقات الرخاء ترى الجمال المتصنع والقبح المتصنع ، وترى القبيح فى شكل جميل والجميل فى شكل قبيح ؛ أما فى الشدة فترى الجمال عاريا والقبح عاريا ، وترى الحق حقا والباطل باطلا ، وترى الأوضاع تنقلب والقيم تختلف ، فيصبح لا يساوى شيئاً من كنت تظنه يقوّم بالألوف ، ويقوّم بالألوف من كنت تظن أنه لا يساوى شيئاً .

حتى الموت — وهو ما يعدّ بحق مَلِكَ المصائب — هو الحجر الأساسى لنظام العالم ، ومصلح شأنه ، ولابد من الموت للحياة ، وهو بعد ذلك كما قال القائل : الناس نيام فاذا ماتوا انتبهوا .

* * *

ثم الأمم لا تُخْلَق إلا من المصائب ، ولا تحيا إلا بالموت ، ولا يكوِّن زعماءها إلا الشدائد ، ولا يصهر نفوسها إلا عظائم الأمور ، ولا تنال استقلالها إلا بضحاياها ولا تستردّ حريتها إلا ببذل دمائها ؛ وما ترك الجهادَ قوم إلا ذلوا ، ولا استسلم قوم للترف والنعيم إلا هانوا . تلك هى قوانين طبيعية للعالم بمنزلة قوانين الحرارة

والضوء والجاذبية ، لا تتغير ولا تتبدل ما دام العالم هو العالم .

***

ويبلغ الرقى فى بعض الأفراد أن يروا لذتهم فى أن يألموا لإسعاد غيرهم ، وسعادتهم فى تضحيتهم .

كل امرئ فيه نواة لهذه التضحية ، فهو يضحى من لذته لإسعاد أولاده وإسعاد أصدقائه ؛ ولكن عظماء الناس يرون فى حرية أممهم واستقلالها ، وفى مبادئ العدل والحق معنى أسمى من العلاقة الشخصية بينه وبين أسرته أو بينه وبين صديقه ، ثم يقدسون هذه المعانى السامية ويتعشقونها ويهيمون بها ، فيبذلون نفوسهم لها كما يبذل العاشق نفسه لمن يحب ، ويرى فى ذلك لذته العظمى وسعادته الكبرى .

فهو بذلك أنانى من جنس راق جدًّا ، يرى أن سعادته وسعادة أمته شيء واحد ، ويرى أن العمل لها هو بعينه العمل لنفسه ، ثم هو لا يتطلب بعد ذلك جزاء ولا شُكوراً ، كما لا يتطلب ذلك فاعل الخير لنفسه .

***

قد أرانا التاريخ — مع الأسف — أن الإنسانية لا ترق إلا عن طريق المحن ، سواء فى ذلك أفرادها وأممها ؛ فالفرد الذى يجد كل شيء ممهداً سهلا لا يصلح لشيء ، والغنى المترف الذى يجد كل ما يشاء فى الوقت الذى يشاء ، ثم لا يكلف نفسه شيئاً أكثر من أن يستمتع بالحياة ، هو نبات طفيلى يستهلك ولا ينتج ، مظهر ولا مخبر ، يومَ تعصف به عاصفة من شدة يذهب مع الريح ولا يستطيع مقاومة ؛ إنما يثبت للحياة ويصلح للبقاء من عركته الأحداث ، وربته المصائب ، وصلَّبته الكوارث ؛ وهكذا شأن الأمم ، أصلبها عوداً أصلحها للحياة ، وخير رجالها أقدرهم على التضحية ؛ والأمم التى تنم تؤذن نعومتها بفنائها ؛ ولم

تبلغ الأمم مثلها السامية من عدل وإخاء ومساواة وحرية إلا من طريق المصائب .

وصحة الأمم كصحة الأفراد ؛ فالمرض ينتاب من الأجسام أنعمها وأكثرها إخلاداً للراحة ؛ والصحة لا تنال إلا بالأعمال الرياضية الشاقة ، وبذل الجهد المضنى ؛ ولا لذة للراحة إلا بعد التعب ، ولا لذة للماء إلا بعد العطش ، ولا للأكل إلا بعد الجوع . كذلك الأمم لا تدرك قيمة الخير إلا بالشر ، ولا الفوائد إلا بالمصائب ؛ ويوم تنزل بها الكوارث تؤمن بالجِد ، وتحتقر التافه ، وتطلب المثل . فأهلا بالموت . إذا كان فيه الحياة ، وبالشر إذا كان يتبعه الخير . . و :

مرحباً بالخطب يبلونى إذا　　　كانت العلياء فيه السببا

العربى لا يَشْعُر إلا فى بيئته

لفت نظرى وأنا أدرس الأدب المصرى العربى من عهد الفتح الإسلامى ، ظاهرة غريبة ؛ وهى أن عرب مصر لم يشعروا ، مع توافر الدواعى لقول الشعر ، فقد دخلوا مصر فرأوا مناظر تسحر النفس وتأخذ باللب — مزارع غناء ، ومناظر حسناء ، ونهر عجب أى عجب ، وأهرام بديعة الصنع ، وآثار تستخرج العجب .

ودخلوا الإسكندرية ، فرأوا مدنية الرومان بفتنتها وجمالها ، ورأوا البحر بسحره وجلاله ؛ فلم يقولوا فى ذلك كله شيئاً .

وبعيدٌ أن يكونوا قد قالوا ثم ذهب ما قالوه ، فقد حرص الرواة الأولون على أن يرووا لنا كل ما سمعوا ، حتى الأبيات التافهة فى المسائل العارضة ؛ وقد كان عرب مصر آلافاً مؤلفة ، كان أكثرهم أولاً من القبائل اليمنية ، ثم تتابع عرب مصر بعد ذلك ؛ ومع هذا كله لم ينبغ منهم شاعر مصرى ، وكل ما روى لنا من الشعر الذى له قيمة فى ذلك العصر هو ما وفد به الوفود على عبد العزيز بن مروان يمدحونه بمصر ، مثل شعر عبيد الله بن قيسِ الرُّقَيّات ، ونُصَيْب ، وكُثَيِّر عزة ؛ وهذا لا يعد شعراً مصريا إلا بضرب من التجوز ، فقائلوه وافدون على مصر من الحجاز أو الشام ، وليسوا مصريين .

تأملت فى هذه الظاهرة طويلاً ، وفرضت لها فروضاً مختلفة ، فكان أقرب الفروض فى نظرى أن « العربى لا يشعر إلا فى بيئته » .

أيد هذا الفرض عندى أنى تتبعت مشهورى الشعراء فى ذلك العصر فوجدت مواطنهم إنما هى جزيرة العرب أو الشام أو العراق ، وهذه هى بِيئة

العربى ، فالجزيرة هى بيئته الطبيعية الأصلية ، وبادية الشام وبادية العراق امتداد بيئته ، ومن طبيعتها ومن جنسها ؛ فهى تستحث شعره كما تستحثه جزيرة العرب وهى موطن له منذ العصر الجاهلى ؛ فالعراق أخرج لنا جريراً والفرزدق والأخطل ورؤبة والعجاج ، وكان موطن إنشادهم مِرْبَدَ البصرة ، وهو فى أوصافه يشبه سوق عكاظ فى الجاهلية ، والشام أخرج لنا عدى بن الرِّقَاع والطِّرِمَّاح والوافدين إليه من البوادى ، والحجاز أخرج لنا جميل بن معمر وعمر بن أبى ربيعة والعَرْجى وابن قيس الرُّقَيّات والأحوص وذا الرمة وغيرهم .

كل هؤلاء من فحول الشعراء خرجوا من بيئتهم الطبيعية فشعروا وأجادوا ؛ أما البلاد المفتوحة كمصر وفارس والهند والمغرب فلم تخرج شاعراً عربيا يعتد به إلا نادراً ، والشام والعراق إنما أخرج الشعراء لما أسلفنا من أنهما بيئتان عربيتان قديمتان ، ولأن الباديتين فى أطرافهما تبعثان على الشعر .

ثم ننظر إلى مصر فلا نجد فيها شاعراً عربيا ، وننظر فى فارس فنجد أشهر شعرائها زياداً الأعجم ، وهو مولى من الموالى كان ينزل اصطخر فغلبت العجمة على لسانه فسموه الأعجم ، وكان فى فارس بعض شعراء كنَهار بن تَوْسعة وثابت قُطْنه ، ولكنهم شعراء فى الطبقة الثالثة أو الرابعة ، وبعضهم نشأ فى غير فارس ثم شعر قليلاً فى فارس .

بل ننظر إلى كثير من الشعر الذى قاله هؤلاء العرب النازحون إلى تلك المدن المفتوحة فنجده ليس وصفاً لهذه البلاد وإنما هو حنين إلى بلاد العرب ، وبكاء عليها وشوق إلى العودة إليها ، كالذى قال مالك بن الرَّيب ، وقد أقام مدة بخراسان ، فلما حضرته بها الوفاة حنَّ إلى وادى الغضا فقال :

ألا ليت شعرى هل أبيتنّ ليلةً بجنب الغضا أُزْجى القِلاص النَّواجيا

ويقول آخر :

سرى البرقُ من أرض الحجاز فشاقنى ... وكلُّ حجازىٍّ له البرق شائق
فوا كبدى مما أُلاقى من الهوى ... إذا حن إلفٌ أو تألّق بارق

إلى كثير من أمثال ذلك .

فاستخلصت من هذا كله أن العربى لا يشعر إلا فى بيئته ، فإن هو خرج منها إلى غيرها اعتقل لسانه وأُصيب بالعِىّ مهما كان البلد الراحل إليه من جمال الطبيعة وجمال الصناعة ومهما توافرت بواعث الشعر .

وقبل ذلك قدّم إلينا شيخ الشعراء امرؤ القيس دليلا واضحاً على هذا ، فقد خرج من جزيرة العرب إلى القسطنطينية ، ورأى فيها عظمة الدولة الرومانية ، وفخامة ملكها وجمال فنها ، فلم ينطقه ذلك كله بقصيدة ؛ وعجب الباحثون من هذا الجمود حتى ألجأهم إلى الشك فى رحلته ؛ وما تعليل ذلك عندى إلا ما أقول من أنه فارق بيئته فحصر .

* * *

قد يدل على صحة هذه النظرية أيضاً ما روى عن هؤلاء الشعراء مما كانوا يفعلون إذا جمدت قرائحهم ، ونضبت خواطرهم ؛ فقد سئل كثير : كيف تصنع إذا عسر عليك قول الشعر ؟ قال : « أطوف فى الرباع المحلية والرياض المعشبة ، فيسهل علىّ أرصنه ، ويسرع إلىّ أحسنه » ، وقال الأحوص :

وأشرفتُ فى نَشْزٍ من الأرض يافع ... وقد تشعفُ الأيفاعُ من كان مُقصدا

وحكى الفرزدق قال : « أتيت منزلى فأقبلت أصعد وأصوب فى كل فن من فنون الشعر ، فكأنى مفحم أو لم أقل شعراً قط ، حتى إذا نادى المنادى بالفجر رحلت ناقتى ثم أخذت بزمامها فقدتها حتى أتيت « رياناً » ، وهو جبل بالمدينة ، ثم ناديت بأعلى صوتى : أخاكم أخاكم أبا لبنى ! (يعنى شيطانه) ؛ فجاش

صدرى كما يجيش المرجل ، ثم عقلت ناقتى فما قمت حتى قلت مائة وثلاثة عشر بيتاً » .

وكان الأبيردُ الشاعر إذا خانته قريحته أخذ عصاه وانحدر فى الوادى ، وجعل يقبل فيه ويدبر ويهمهم بالشعر فتأتيه المعانى .

ولعل من خير ماروى فى هذا الباب ما حكاه المرْزُبانى فى الموشح أن النابغة الذبيانى قال للنعمان بن المنذر :

تَرَاكَ الأرْضُ إمَّا مِتَّ خِفًّا   وتحيا إنْ حَيِيتَ بها ثقيلا

فقال النعمان : هذا بيت إن أنت لم تُتبعه بما يوضح معناه كان إلى الهجاء أقرب منه إلى المديح ؛ فأراد ذلك النابغة فعسر عليه ، فقال : أجّلنى ، قال : قد أجلتك ثلاثاً ، فأتى النابغة زهيراً فقال زهير : اخرج بنا إلى البرية فإنّ الشعرَ برّى ، فخرجا ومعهما كعب بن زهير ، فقال كعب فما يمنعك أن تقول :

وذاكَ بأن حللتَ العز منها   فتمنع جانبيها أن يزولا

فقول زهير : « إن الشعر برى » هو مصداق نظريتنا ، فقد نبغ وكثر وفاض فى البرية ومن البرية أولا ، فإن قيل فى المدن فأصله من البرية .

لست أدّعى أن طبيعة كل شعر بريّة ، فهناك شعر أوربى جلبته الحضارة ، وهناك شعر عربى قِيلَ فى المدن الإسلامية العظيمة كبغداد والقاهرة ؛ ولكنى أدعى أنّ العربى الذى هو وليد الصحراء ووليد المدن العربيــة — التى تمُتّ بصلة وثيقة للصحراء كمكة والمدينة — لا يستطيع القول إذا انتقل إلى مدن أعجمية كمصر وخراسان والهند والمغرب ؛ فأما الشعر الذى فاض بعد ذلك فإنما فاض من أعاجم أو من أبناء العرب الذين نشأوا من أول أمرهم فى المدن الأعجمية .

وتعليل ذلك فى نظرى يرجع إلى أمرين :

الأول — طبيعة العربى نفسه ، فهو إذا دخل المدن الأعجمية ورأى معيشة اجتماعية تخالف معيشته ، وعادات وأوضاعاً تخالف عاداته وأوضاعه ، اضطربت نفسه وتشتت ذهنه ، واحتاج إلى زمن طويل حتى يهدأ ويألف العيش الجديد ؛ وهذا الاضطراب وتشعث الذهن لا يبعث على قول الشعر ؛ ولذلك كان قائلو الشعر بعدُ فى هذه المدن هم أبناء الجيل الثانى أو الثالث لا الأول .

الثانى — أن طبيعة الشعر العربى الأول طبيعة بدوية ، فهو يتغنى بمناظر البدو من صحراء ووديان ، وحيوانات البدو من ظباء وأوعال ، ونباتات البدو من شيح وقيصوم . على هذا نشأ الشعر العربى ، وعلى هذا نشأ العرب الفاتحون للأقاليم ؛ فلا يستسيغ ذوقهم أن يتغنوا بإيوان كسرى ، ولا أهرام مصر ، ولا يستسيغ ذوقهم أن يتغزلوا فى النرجس والياسمين ، وقد تغزل آباؤهم بنباتات الصحراء ، ولا يستسيغ ذوقهم أن يشيدوا بذكر النيل والفرات ، وقد شاد آباؤهم بذكر الغياض . إن الشعر فى هذه الأمور الجديدة يحتاج إلى مران للذوق طويل ، ويحتاج إلى ثورة من الشاعر العربى ، والشاعر العربى ليس ثائراً فى شعره ، إنما هو محافظ أشد المحافظة . فلما حرم العرب ساكنو الأقاليم الجديدة من رؤية القديم حتى يشعروا فيه ، وحرموا الثورة والذوق الجديد حتى يشعروا فى الجديد ، حصر لسانهم فلم ينطقوا بقديم ولا جديد .

هذه فكرة أعرضها على القراء ليبحثوها ويقلبوها على وجهها ، وليؤيدوها أو ينقضوها ، فلا نريد إلا الحق .

وهى إن صحت حلت لنا مشاكل يعانيها الباحث ولا يرى لها حلاً ؛ لِمَ لم يشعر عرب فارس فى جمال فارس ، وعرب مصر فى جمال مصر ، وعرب الهند

فى جمال الهند ؟ ولم لم يقولوا فيها ما قالوا فى جزيرة العرب ومجال القول فسيح ؟ ولم ضعفت دولة الشعر فى البلاد المفتوحة حتى نشأ جيل جديد من الموالى وأشباههم؟ ولم ظلت طبيعة الشعر العربى بعد الفتح فترة طويلة من الزمان كما كانت قبل الفتح من حيث الأسلوب والموضوع ؟ ولم لم ينبغ فى البلاد المفتوحة من الشعراء ما نبغ فى الحجاز وبادية الشام وبادية العراق مع تيسر الاسباب ، ووفرة بواعث الشعر ؟

كل هذه المسائل وأشباهها يحلها فرضنا « أن العربى لا يشعر إلا فى بيئته » .

عنوان القوة فى الأمة

سؤال يرد على الذهن كثيراً : بمَ تُعرَف الأمّة القوية ؟ إذا نظرتَ إلى أُمّة وأردت أن تخبر موضعها من القوة والضعف ، فبأى المرافق تُعْنَى ، وأى الاتجاهات تتجه ، وبأى المظاهر تستدل ؛ وما العناصر التى تعدها أساسية فتتحراها ، وأيها تعدها ثانوية فتتخطاها ؟

عرضت لى فى هذا الأمر إجابتان : إجابة من الأدب الغربى الحديث ، وإجابة من الأدب العربى القديم ، أقدمهما للقارئ ، لعل فيهما فائدة .

فأما التى من الأدب الغربى الحديث فاجابة تتلخص فى « أن الأمة تعد قوية راقية إذا استطاعت أن تعدّل نفسها وفق ظروفها التى تحيط بها » ، فاذا أردنا — مثلا — أن نطبق هذه القاعدة على مصر ، قلنا إن لها موقفاً خارجيا وموقفاً داخليا ، موقفاً خارجيا مع الأمم الشرقية والأمم الأوربية ؛ فهل عدّلت نفسها مع الأمم الشرقية ، وعرفت مكانتها منها ، واستغلت أحسن استغلال علاقتها معها ، فأعانتها واستعانت بها ، وأفادتها واستفادت منها ، ونظمت شؤونها معها ، من حيث الثقافة ومن حيث الاقتصاد ، ومن حيث السياسة ؟ وهل بلغت فى ذلك أعظم مبلغ تقتضيه الظروف الحاضرة ؟

وهل عدلت نفسها وفق ظروفها مع الأمم الأوربية ، فتم لها استقلالها ، وانتفعت بالغرب أحسن انتفاع ممكن ، فاستفادت منه ثقافيا واقتصاديا واجتماعيا ، ونالت منه كل ما تستطيع مما يزيدها قوة ، وعرفت مقدار ما تعطى ومقدار ما تأخذ ، ونوع ما تعطى ونوع ما تأخذ ، وعرفت كيف تنتقى ما تأخذ وكيف

تهضمه ؟ وهل جهزت نفسها بكل ما تستطيع من قوة ، حتى تحمى رأيها فيما تأخذ وما تدع ، وما تعطى وما تمنع ؟

وأما داخليا فنتساءل : هل استغلت ثروتها بحسب حاجتها؟ وهل استخدمت بيئتها الطبيعية فانتفعت بجودة أرضها وقوة مائها ومعادن جبالها وأرضها ؟ وهل استطاعت أن تجد منابع للثروة تناسب ما ازداد من عدد السكان ؟ وهل قامت بالإصلاحات الداخلية بقدر ما يتطلبه الزمان ، فسايرت الأمم الأخرى ، حتى لا تضعف أمامها فتلتهمها ؟ وهل رقّت أعمالها الإدارية ، وحققت حكومتها العدل الاجتماعى حتى تشعر بقوتها ، وتشعر بسعادتها ؟ وهل أفسحت المجال لكل ذى كفاية أن يُظهر كفايته على قدر استعداده ، ومنعت العوائق التى تحول دون ذلك من اعتماد على حسب ونسب وجاه وشفاعة ؟

وهل وضعت الحكومة «ميزانيتها» على هذا الأساس ففرقت بين الضرورى والكمالى ، وبين ما يرق الأمة ويضعفها وما يجعلها أقرب إلى تعديل نفسها حسب ظروفها ، وما يبعدها عن ذلك ، وهكذا ؟

إن حدث هذا كله فالأمة قوية راقية وإلا لا ، وإن حدث بعضه ولم يحدث بعضه ، فهى متذبذبة بين القوة والضعف .

هذا رأى ذهب إليه بعض الباحثين من الأوربيين ، فعنده حيوان أرقى من حيوان ، لأن الأرقى استطاع أن يوائم بين نفسه وبيئته ، ويعدل نفسه وفق ظروفه التى تحيط به ؛ والإنسان أرقى من الحيوان لهذا السبب عينه ، فقد استطاع أن يغالب الطبيعة ولا يكون تحت رحمة حر وبرد وجوع وعطش ، بل أخضع الطبيعة لمصالحه ، أو قل إنه استطاع أن يعدل نفسه وفق الطبيعة ، ولم يقف جامداً تسيّره الطبيعة ، وتحكم عليه كما تشاء ، فاكتسى بعد عرى ، وشبع بعد جوع ،

ودفء بعد برد ، وهكذا حتى استخدم الكهرباء والبخار وغيرهما ليوائم بين الطبيعة ونفسه .

وكلما عدَّلَتْ الأمَّة نفسها وفق مايحيط بها من بيئة طبيعية وبيئة اجتماعية ، كانت أرقى من غيرها على هذا الأساس وأقوى .

***

وأما الإجابة التى من الأدب العربى القديم فلسياسى قديم وردت فى كتب الأدب القديمة .

رأى هذا السياسىُّ أن مقياس قوة الأمة ورقيها فى أشياء ثلاثة مجتمعة :

١ — أن يقف الحاكم — وإن شئت فقل الحكومة — على أحوال الرعية فتعرف دقيقها وجليلها ، وظاهرها وخفيها — تعرف حال ولاتها كيف يعدلون أو يظلمون ، وتعرف أحوال الناس كيف يشْقون أو كيف ينعمون ، ومقدار غناهم وفقرهم وجوعهم وشبعهم ؛ وإن أردت تعبير أهل العصر فقل إن عندها إدارة إحصاءات دقيقة تسجل أحوال الأمة فى مرافقها المختلفة ، وتدخل التعديل على الأرقام كلما طرأ تعديل على الأحوال ، حتى يكون أمام الحكومة سجل دقيق لكل مظاهرها وخفاياها ، وعللها وأمراضها ، وما وضع من الوسائل لعلاجها . ثم أن تكون هذه الأرقام وهذه الأخبار صحيحة لا يلبِّسها الحكام ، ولا يخدعون فيها الحكومة ، إنما هى والحقيقة مطابقتان ، لاتدليس فيها ولا خداع . فأحوال الأمة مصورة صورة دقيقة ، مصغرة فى مرآة ينظرها الحاكم فيراها ، ويعرف دائما ما يطرأ عليها من صلاح أو فساد ، ويعرف إلى أى طريق هى مسوقة ، كالطبيب الخبير يعرف مريضه ، وما يعرض له ، أو كالراصد الماهر يعرف الجو وتقلباته ، والنجوم وحركاتها .

٢ — هذا هو الشأن فى الحكومة عالمة خبيرة ، ثم يلى هذا النظرُ فى طبقة

الأغنياء : ماسلوكهم ، وما أخلاقهم ، وما طبيعتهم ؟ فإنهم عصب الأمم إن ساءت أخلاقهم واستعملوا أموالهم فى الفساد ، ولم يأنفوا أن ينتهكوا الحرمات ، وغلبهم الجشع فابتزوا أموال الفقراء لينفقوها فى شهواتهم ، ويبددوها فى لذاتهم ، وكانوا من الشره بحيث لا يترفعون عن أى دنيئة ، ولا يتحرجون من أى وسيلة ، لا يهمهم إلا أنفسهم وشهواتهم ، فالأمة بهم ضعيفة . أما إن هم ترفعوا عن الدنايا وواسوا الفقراء ، وكان فى أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم ، فالأمة بهم قوية .

٣ — فإذا فرغنا من الرأس المدبر وهو الملك قديماً والحكومة حديثاً ، وفرغنا من النظر فى الأغنياء من هم ، وما موقفهم من أمتهم ، نظرنا ثالثاً إلى طبقة الحكام ، كرجال الإدارة ، ورجال القضاء وغيرهم ما شأنهم : إن كانوا ينظرون إلى أنفسهم فحسب ، ولا ينظرون إلى من يحكمونهم ، وكانوا قصيرى النظر فى معاملتهم الناس ، لاينظرون إلا من قريب جدا ، ولا يحسبون إلا حساب ماينالهم من مال ، ولا يدخلون فى حسابهم إلا دنياهم لا آخرتهم ، ويحكمون الناس لا للناس ولكن للمدير أو الوزير ، تمشياً مع تيار الحكومة الحاضر وحسب أهواء الحزب الغالب ، فهم مصدر ضعف الأمة ، ومظهر من مظاهر انحطاطها .

وإن حكموا الناس لله وللناس ، وراعوا آخرتهم كما راعوا دنياهم ، وعرفوا أن المنصب واجب يؤدَّى لا قنطرة يعبُرُون عليها لمصالحهم الخاصة ، وأيقنوا أن لا بأس من أن تضحى الوظيفة لخدمة الحق ، ووسعوا نظرهم فحسبوا حساب الغد كما حسبوا حساب اليوم ، فهم مصدر قوة للأمة ومظهر من مظاهر رقيها .

***

حكومة مطلعة خبيرة واقفة على بواطن الأمور وظواهرها ، وأغنياء ازدانوا بالعزة والأنفة ، والحدب على البائس والفقير ، وحكام يحكمون الناس بالحق وللحق ، هذه هى دعامات الأمة الراقية فى نظر هذا السياسى القديم .

***

ولعلك بعدُ مشتاق إلى معرفة نص هذه الوثيقة القديمة التى اعتمدت عليها فى هذا البيان ، فلأجب رغبتك وأقدمها لك بنصها :

« ذكروا أن ملكا من ملوك العجم كان معروفا ببعد الغوْر ، ويقظة الفطنة وحسن السياسة ، وكان إذا أراد محاربة ملك من الملوك وجَّه إليه من يبحث عن أخباره وأخبار رعيته قبل أن يُظْهر محاربته . . . . فكان يقول لعيونه : انظروا (١) هل ترد على الملك أخبار رعيته على حقائقها ، أم يخدعه عنها المُهْدِى ذلك إليه . (٢) وانظروا إلى الغنىّ فى أى صنف هو من رعيته ، أفيمن اشتد أنفه وقل شرهه ، أم فيمن قلّ أنفه واشتد شرهه ؟ (٣) وانظروا فى أى صنفِ رعيتِه القوّام بأمره ، أمِنْ مَنْ نظر ليومه وغده أم شغله يومه عن غده ؟ . فإن قيل له : لا يُخدع عن أخباره ، والغنى فيمن قل شرهه واشتد أنفه ، والقوام بأمره من نظر ليومه وغده . قال : اشتغلوا عنه بغيره . وإن قيل له ضد ذلك ، قال : نار كامنة تنتظر مُوقداً ، وأضغان مزمَّلة تنتظر مخرجا ، اقصدوا له » .

هذه هى الإجابة من الأدب القديم ، وتلك هى الإجابة من الأدب الحديث ، أتركهما بين يديك — أيها القارئ الكريم — لتوازن ما شئت وترجح ما شئت وتنقد ما شئت ، وتقبل أو ترفض ما شئت .

عقـــلاء المجانين

ومجانين العقلاء

تنبه العرب من قديم إلى نوع من الناس « مجنونٍ عاقل » ، تصدر منه أعمال جنونية بحتة فى بعض تصرفاته ، فإذا حدثته فأديب ظريف ، أو صوفى واصل ، أو فيلسوف عميق ، أو قلْ إنه مجنون فى ناحية ، عاقل فى عدة نواح ؛ وهذا الضرب هو ما يسميه المحدَثون بالجنون الفرعى ، كالذى يعتقد أن له إصبعاً من زجاج ؛ فهو مجنون فى كل ما يتصل بهذه العقيدة ، يخاف أن تقرّب حجراً إلى إصبعه حتى لا تنكسر ونحو ذلك ، ثم هو فيما عدا هذا عاقل ككل الناس .

وكان لى معلمة إنجليزية فى غاية من العقل والحكمة والعلم ، سألت عنها مرة بعد غيبة ، فأُخبرت أنها فى مستشفى المجاذيب ، فزرتها فحدثتنى كما كانت تتحدث من قبل ، فى عقل وحكمة ، فسألتها : لمَ تقيم فى هذا المكان ؟ فقالت إنها فقدت إرادتها حتى لو فتحوا لها باب المستشفى لا تعرف أين تتجه ؛ فعجبت من عقلها وتشخيصها لمرضها ، وإدراكها لنفسها ونوع مرضها ، وهى مع ذلك تعيش فى مستشفى المجاذيب !

وقبل ذلك كان سيدنا « الشيخ سيد عبد الرحمن » — فقيه كُتّابنا — يجرى فى الشارع والأطفال يصيحون وراءه : « الشيخ سيد أبو جنونة » ، فإذا حضر الكتّاب فكلنا هيبة واحترام ، ثم إذا حدثته فعاقل حكيم ، يحدثك فيروعك حديثه لحكمته وصدق نظره .

والعرب لم يعنوا بهذا الضرب من الناس إلا أن يكونوا مجانين ممتازين فى

ناحية من النواحى الفنية ، كأن يكونوا شعراء مجيدين ، أو حكماء بارعين ، أو فلاسفة ممتازين ، أو كانوا ينطقون بالحكمة الرائعة ، أو النكتة الصريحة اللاذعة أو نحو ذلك .

وقد أفرد بعض الكتب باباً لهذا الصنف من الأدباء كما فعل ابن عبد ربه فى « العقد الفريد » سماه « أخبار الممرورين والمجانين » . والممرور من غلبت عليه المِرّة ، وهى خلط من أخلاط البدن يغلب على المرء حيناً فيهذى ، وهو أخف حالاً من المجنون .

وحَكَى فى هذا الباب عن قوم من هؤلاء كان العلماء يجاذبونهم الحديث ليسمعوا جوابهم وكلامهم فيعجبوا به أى إعجاب ، كعليان بن أبى مالك ، ممرور البصرة ، الذى كان يجرى فى الشارع والصبيان يصيحون وراءه ، فالتجأ إلى بيت فأشفق عليه صاحبه وأطعمه وحماه ، والصبيان يرجمون الباب . وهو يقول : « فضُرِب بينهم بسور له باب ، باطنه فيه الرحمة وظاهره من قِبَله العذاب » . وسئل عن أى بيت أشعر ، فقال :

ندمْتُ على ما كان منى — فقدْتنِى — كما ندِمَ المغبونُ حين يبيع

إلى آخر ما سئل ، وآخر ما أجاب .

وقد ألف النيسابورى صاحب التفسير المشهور كتاباً سماه « عقلاء المجانين » ترجم فيه لهذا النوع من الناس وأفاض .

***

وفى الحق إن هذا الصنف حبيب إلى الناس ، يحبون أن يسمعوا حديثه ويتحروا أخباره ؛ ولعل السر فى ذلك أنه صنف فيه طرافة ، لجمعه بين المتناقضات من عقل وجنون ، وسفه وحكمة ، وطيش ورزانة ، ونقص وقوة ، ولأنه مثار الشفقة والرحمة مع الإعجاب والاستحسان ؛ فجنونهم يستدعى رحمتهم ، وحكمتهم أو نوادرهم

تستدعى الإعجاب بهم ؛ وإذا اجتمع فى النفس بواعث الشفقة والإعجاب ومظاهر التناقض فهناك الطرافة والجدة واللذة .

وعلى العكس من ذلك مجانين العقلاء ، فلعل أكثر الناس فى الواقع ينقسمون إلى عقلاء المجانين ، وإلى مجانين العقلاء ، فعقلاء المجانين هم من عرفت ؛ أما مجانين العقلاء فعلى العكس من ذلك ، يتظاهرون بالعقل وهم فى سخفهم وسوء تصرفهم أولى أن يكونوا فى عداد المجانين ؛ وهؤلاء لا ترتاح النفس إليهم لأنهم لا يثيرون شفقة ولا إعجاباً ، وإنما يثيرون سخطاً ونفوراً ، وهذا مثار ألم لا لذة .

ولم أجد من أَلَّفَ فى مجانين العقلاء كما ألفوا فى عقلاء المجانين ؛ ولعل السبب فى ذلك كثرة عددهم وثقل روحهم ؛ وقد أدرك هذا أحد عقلاء المجانين وقد قيل له : « عدّ لنا مجانين البلد » فقال : « كيف وهم لا يُحْصَوْن ؟ فإن شئتم عددت لكم العقلاء » .

***

والآن أعرض لصورة من صور هؤلاء (عقلاء المجانين) ، وهى صورة طريفة حقا ، ممتعة حقا ، هى صورة بُهْلول الكوفى الذى كثيراً ما اتصل اسمه بالرشيد وملأ الكوفة وما حولها نوادرَ وطرفا .

***

أما اسمه « بُهْلُول » فاسم ظريف يطابق مدلوله ، فمن معانيه الضَّحّاك وقد كان البهلول ضحاكاً .

وأما منظَره وحركاته وسكناته وتصرفاته ، فكانت تغرى الأطفال بالضحك عليه ، والسخرية منه ، والصياح وراءه ، ورميه بالحجارة ؛ ومع هذا فكل ذلك لا يثير حفيظته ، ولايخرجه عن طوره ، بل يقابله بنظرة الفيلسوف الهادئ ، ويثير

فيه العطف والشفقة على هؤلاء الأطفال الذين يجدّون فى إيذائه ؛ فقد رموه مرة بحجر فأدموه ، فقال :

حسبيَ الله توكلت عليْـهْ ونواصى الخلق طُرًّا بيدَيه
ليس للهارب فى مهربه أبداً من رَوْحةٍ إلا إليـه
رُبَّ رام لى بأحجار الأذى لم أجد بدا من العطف عليه

والبيت الأخير مَثَل راق من أمثال الإنسانية السامية ، والرفق الذى بلغ الغاية فى اللطف .

وقال له العقلاء يوما : لم لا تشكو هؤلاء الأطفال لآبائهم ؟ فقال لهم : اسكتوا — أيها المجانين — فلعلى إذا مت يذكرون هذا الفرح فيقولون : رحم الله ذلك المجنون .

وقال له عاقل آخر : تناول الحجارة وارمهم كما يرمونك . فقال له بهلول : مه يا مجنون ، إنى إن فعلت شيئاً من هذا رجعوا إلى آبائهم فقالوا لهم هذا المجنون بدأ يحرك يديه فيجب أن يُغَل ويقيَّد ، فلا يكفينى ما ألقاه منهم حتى أُغل وأقيَّد .

وله ناحية أخرى غاية فى الطرافة ، هى تستره وراء مظهر جنونه ، ونصيحته الخلفاء والأمراء بأقوى لفظ وأصرح بيان ؛ فقد زهد فى مالهم وجاههم ، وأمَّنه جنونه أن ينالوا منه ، ووثق بربه فلم يخف أحداً ؛ وله فى هذا الباب نوادر رائعة وأقوال غالية .

رووا أن الرشيد خرج إلى الحج فمر بالكوفة ، فرأى بهلولا يعدو على قصبة وخلفه الصبيان . فقال الرشيد : كنت أشتهى أن أراه ، فادعوه من غير ترويع ، فلما حضر بين يديه قال : يابهلول ، كنت إليك مشتاقا .

بهلول — لكنى لم أشتق إليك .

الرشيد — عظنى .

بهلول — وبم أعظك ؟ هذه قصورهم ، وهذه قبورهم .

الرشيد — زدنى .

بهلول — من أعطاه الله مالاً وجمالاً ، فعف فى جماله ، وواسى فى ماله ، كتب فى ديوان الأبرار .

الرشيد — قد أمرنا بقضاء ديونك إن كانت .

بهلول — لا . إنه لا يُقْضَى دين بدين ، اردد الحق إلى أهله ، واقض دين نفسك .

الرشيد — ألك حاجة ؟

بهلول — أنا وأنت عيال الله . فمحال أن يذكرك وينسانى .

ثم ركب قصبته وجرى .

ووقفه الأمير يوماً فى طريق الرشيد ليدعو له إذا مر به ، فلما حاذاه الرشيد قال : يا أمير المؤمنين أسأل الله أن يرزقك ويوسع عليك . فضحك الرشيد وقال : آمين : فلما جازه الرشيد صفعه الوالى وقال له : أهكذا تدعو لأمير المؤمنين يا مجنون ؟ فقال بهلول : اسكت يا مجنون ، فما فى الدنيا أحب إلى أمير المؤمنين من الدراهم ؛ فبلغ ذلك الرشيد فضحك وقال : والله ما كذب .

وبنى بعض الخلفاء قصراً ، فتناول بهلول قطعة من الفحم وكتب عليه : « رفعتَ الطين ووضعت الدين ، ورفعت الجِصَّ ووضعت النَّص » .

وهكذا قصَّر العقلاء فى نصيحة الخلفاء والأمراء ، فقام بهذا الواجب المجانين .

وتنتابه لوثة فيلعب فى التراب ، ويمر عليه الناس فلا يعبأ بهم ، لأنه يرى نفسه العاقل وهم المجانين ، وكيف يوقر عاقل مجنونا ؟

ويجلس بين المقابر فينطق بالموعظة الحسنة والحكمة البالغة ، فيقول : « أما ترى هـذه الأعين السائلة ، والمحاسن البالية ، والشعور المتمعطة ، والجلود

المتمزقة ، والجماجم الخاوية ، والعظام النخرة ، لايتقاربون بالأنساب ، ولايتواصلون تواصل الأحباب ، قد صارت الوجوه عابسة بعد نضرتها ، والعظام نخرة بعد قوتها ، تجر عليهم الرياح ذيولها ، وتصب عليهم السماء سيولها » .

ثم له الفكاهة الحلوة ، والنادرة الطريفة ، والجواب المسكت ، فقد بلغه عن أمير الكوفة أنه ولد له بنت فساءه ذلك ، فذهب إليه بهلول وقال له : أيسرك أن لك مكانها ابناً مثلى ؟ فقال له : ويحك ، فرّجت عنى .

وصحبه مجنون آخر مثله ، فقابلهما الخليفة الهادى ، فقال للبهلول : لم سُميت بهلولا ؟ فقال له : ولم سميت أنت موسى ؟ فسبه الهادى سبا شنيعاً ، فنظر بهلول إلى صاحبه وقال له : كنا اثنين فصرنا ثلاثة . ورؤى جالسا بين المقابر وهو يلعب فى التراب فقيل له . ماذا تصنع ؟ قال : أجالس قوماً لايؤذوننى[1] .

* * *

وهكذا ملأ بهلول عصره فكاهة وموعظة ، وأضحك الكبار وأفرح الصغار ؛ وكان فى الكوفة نظيرَ صاحبه عليان بن أبى مالك فى البصرة ؛ وأمثالهما كثير ، منهم من عرف بالشعر الظريف ، ومنهم من عرف بالنوادر الطريفة ، ومنهم من كان مجنونا حقا ، ومنهم من رأى العالم مجنونا فجن حتى لايتعبه عقله . ومن العلماء والرواة من خاف قول الحق ، والجهر بالصدق ، فخلق بخياله مجنونا نَسب إليه ما كان يجب أن يكون وما كان يجب أن يقال ، وتستر وراء ذلك حتى لايؤخذ به . ومنهم من رأى أن الحكمة إذا صدرت عن عاقل فأمر مألوف لايسترعى النظر ، ولا يستوجب العجب ؛ ولكن إذا صدرت عن مجنون كانت أوقع فى النفس وأدعى إلى التفكير والاعتبار ، فحمله عقله على أن يستصدرها من مجنون . وقديماً قالوا : الجنون فنون .

---

(١) انظر كتاب أعيان الشيعة جزء ١٤ .

وأياً ما كان فهذا الباب طرفة من طرف الأدب العربى تستخرج الضحك والعجب والتفكير .

***

أما مجانين العقلاء فعددهم أوفر ، وجنونهم أكثر ، ونواحيهم أعقد ، وتصرفاتهم أسمج .

ونحن نستعرض لك بعضهم ، إذ يعجزنا القول فى كلهم ؛ ولعلك تشاركنى القول بأن فى طليعة مجانين العقلاء هؤلاء الذين دفعوا هذا العالم الآن إلى هذه الحرب الطاحنة الفتاكة ، المخربة الهدامة ؛ وأنت لا شك متبين مدى جنونهم إذا تساءلت : فيم يتحاربون وكانوا يعيشون عيشاً رغداً ، وينعمون بما خلَقوا من مدنية ، وما أسسوا من حضارة ، وطعام أفقرهم اللحم والزبد والمربى ، وأرض الله واسعة ، وخيراته تكفى لأضعاف من على ظهرها ؛ ففيم إذاً القتال ، وفيم هذا التدمير والخراب ؟ أللأكل والطعام وفير ؟ أم لامتلاك الأراضى ؟ وما قيمة امتلاكها إذا كانت غلتها مشتركة ؟ أم لاستعباد الإنسان فى المستعمرات ؟ ولِمَ يستعبَد وأولى أن يؤخذ بيده لينهض ويعمل ، ويزيد فى خيرات الأرض التى تثمر للجميع ؟ أم للمجد ؟ وأى مجد هذا الذى يؤسس على جبال من رءوس القتلى وأنهار من دمائهم ؟ أم لفخر أُمّة وتيهها وخيلائها وتعاظمها على مثيلاتها ؟ فلم هذه العظمة وهم ينادون بالمساواة بين الأفراد ؟ فيجب أن تكون النتيجة الطبيعية المساواة بين الأمم ؟

قلّب المسألة على كل وجوهها ، وسائل نفسك عن سبب هذه الحرب المعقول يعجزك الجواب ، وتسلم معى بعد طول البحث أن الأمر لا يعدو الجنون ؛ ولو شاهدَتْ أُمّة الحمير أو أُمّة الكلاب هذه المناظر وكان لها لسان ينطق لصرخَتْ : ما أشد جنون الإنسان ! ونعوذ بالله أن نمسخ ناساً .

ولعل أغرب ما يستوجب الأسى ويقنعك بالجنون أن هذا الإنسان يحاول أن يخضع كل مظاهر الطبيعة لقدرته ، ويحاول أن يستكشف سر المادة وسر ما وراء المادة ، ويحاول أن يعرف حقيقة العالم وخالق العالم ، وينشئ الفلسفات المعقدة المربكة المرتبكة ، وأن يضع النظم الدقيقة للعالم وشؤونه ، وهو يعجز أن يضع نظاماً يمنع هذه المجازر التى تخجل السباع الضارية أن تمثلها .

أليس هذا جنوناً ؟ فإن لم يكن فما الجنون إذاً ؟

هذا — من غير شك — جنون محزن ، ولست تتصور مبلغ ما يثير من حزن حتى تتصور الأسر التى لا تحصى وقد فقدت عميدها وعائلها و بعض أبنائها أو كلهم ، وحتى تتصور الأسر التى فقدت عائلها فى الحرب الماضية ، ثم فقدت أبناءها فى الحرب الحاضرة ، ثم برّح بها الحزن والفقر والبؤس معاً .

لماذا ؟ — لا أدرى .

***

ثم تعال معى نطل على طائفة أخرى من مجانين العقلاء وهؤلاء جنونهم أظرف ومظهرهم ألطف ، وهم « طائفة المحبين » الذين لوّعهم الحب ، وألح عليهم العشق ، فهم فى هزال وضنك وبكاء ، وحنين وهيام ، وما شئت من أعراض .

ما هى إلا نظرة حتى تعقبها حسرة ، وإذا الدنيا كلها لا تساوى شيئاً بجانب نظرة تنظرها أو كلمة تتحدث بها ؛ وتمّحى الدنيا وسعاداتها من الوجود إلا وجودها ، ووصلها وهجرها ، وحركاتها وسكناتها ، وتتركز سعادته وشقاوته فيها ، ففى يقظته ذكراها ، وفى حلمه خيالها ؛ إن نظرَتْ إليه فسهم صائب ، وإن أعرضت فسهم أيضاً ، يشكو من قربها ويشكو من بعدها ، ويبكى إن وصلت خوفاً من هجرها ، ويبكى إن نأت جزعاً من فرقتها ، وتحدثه نفسه بالانتحار إن أعرضت ؛ ويعادى فيها أهله ، ويركب المخاطر والأهوال ، ويترك الدنيا الحقة

ليعيش فى دنيا خيال وأوهام ، ويهجر العالم الفسيح ليعيش فى دنيا ضيقة كل الضيق ، ويملأ الجو كله حزناً وألماً وتحسراً وأسفاً ؛ فإن كان شاعراً صب ذلك كله فى شعره ، وإن كان موسيقيا ففى موسيقاه ، وإن كان فنانا ففى فنه ؛ والمجانين أمثاله يجارونه فى جنونه ، فيبكون إن بكى ، ويطربون إن طرب ، وتبدو عليهم الأعراض من أعراضه ؛ ثم عما قليل يشعر المحبون بجنونهم ، فيأسفون على زمن أضاعوه ، وألم تجرعوه ، وخيالات وأوهام عاشوا فيها وعاشوا لها ، ولا يدركون ذلك إلا بعد أن تضيع صحتهم ، وتتقدم سنهم ، فيقعون فى جنون من نوع آخر .

***

فإن سرت معى نستعرض أصناف المجانين الأخرى ، أريتك « مجانين المال » الذين نسوا أن المال وسيلة فجعلوه غاية ، وأنفقوا عمرهم وأنفقوا صحتهم فى جمعه ، وعندهم ما يكفيهم وفوق ما يكفيهم ؛ ومنهم من باع شرفه وخلقه للدينار يجمعه ويورثه ، ومنهم من سخّر آلاف الناس يجمعون له ثروته ، فجنوا جنونه ، ولكن قد جن هو لنفسه ، وجنوا هم له ، فكان فى جنونه أحسن حالًا منهم فى جنونهم ، ثم ربكوا أنفسهم فى تدبير المال ، وربكوا الحكومات بما نظمت من محاكم ووضعت من قوانين ، فالنزاع دائم والمعيشة ضنك ، ونتيجة الخصومات لا تساوى تعب النفس بالخصومات ؛ ثم ملأوا الجو حسداً وبغضاً وشحناء من أجل المال واستحواذ المال ، وقسموا أنفسهم إلى فقراء لا يجدون ما يأكلون ، وأغنياء يتخمون من كثرة ما يأكلون ؛ هذا شقى بفقره ، وهذا شقى بغناه ؛ وكان فى الإمكان أن يسعد الجميع لو عقل الجميع ، ولكن أنّى ذلك والداء مستحكم ، والجنون معضل ؟

***

وهناك على مقربة من هؤلاء طائفة أخرى غريبة حقا ، هم مجانين الشهرة ، هذا يود أن يحرق الدنيا ليشتهر ، ويخالف الناس والعقل ليشتهر ، ويمشى على جثث من يصرعهم ليشتهر ، ولا يهمه أن يذكر بخير أو بشر ما دام اسمه يردَّد على الألسنة وتلوكه الأفواه ؛ وهذا يبيع راحته وصحته ويتلف ماله ويتلف نفسه ليحظى بالجاه وينال الشهرة ؛ وهذا يدبر المكايد ويدس الدسائس ليصرع من أمامه ويحل محله ويترأس ويشتهر .

وكل هؤلاء لا يقفون — ولو وقفة قصيرة — يسائلون أنفسهم : ما الشهرة وما الجاه ، وما قيمتهما الحقيقيــة فى ضوء الحياة الواقعة التى تنتهى بالموت ، ثم لا يجازَى الإنسان بعدُ إلا على ما قدم من عمل غير ملحوظ فيه إلا قيمته الذاتية ؟ وما هــذا الذى يدفع الناس إلى كل هذا السخف الذى يسمونه جاهاً ويسمونه شهرة ؟ وكيف عَمُوا عن تقويم الأشياء بقيمتها الحقة من غير نظر إلى الأعراض الفانية ؟

لا شىء إلا الجنون .

***

الحق أنى إن أردت أن أستعرض أنواع الجنون طال العرض وقصر الشرح .

***

ثم انظر معى للناس كافة على اختلاف أممهم وبيئاتهم تر العجب العاجب فى عاداتهم فى مآكلهم ومشاربهم وملابسهم وسائر تصرفاتهم ؛ وخلاصتها أنهم يخترعون من العادات ما يشقيهم ويذهب بسعادتهم ، إن شئت مثلا لذلك فانظر إلى المدنين كيف يخنقون أنفسهم برباط رقابهم ، وكيف يضايقون أنفسهم بملابسهم فى حفلاتهم ، وكيف يكون تصرفهم فى أفراحهم ومآتمهم ، وكيف يفسدون صحتهم بنظامهم فى مآكلهم ، إلى ما لا يحصى من مواضعات غريبة يضيق

عنها الحصر ، قد وجدوا أنفسهم أحراراً فوضعوا ما يسلبهم حريتهم ، وأصحاء فاعتادوا ما يذهب بصحتهم ، واحكم بعد ذلك معى بِمَ تسمى من يفعل هذا كله ؟ أعاقل أم مجنون ؟

يخيل إلىّ أن الذى يخفف من حكمنا على الناس بالجنون أننا ننشأ أطفالا لا عقل لنا ، ثم ننظر إلى أعمال الناس ولما ينشأ عقلنا ، ثم يتكون العقل فينا شيئاً فشيئاً ، ونحن نرى أعمال الجنون ولا نرى غيرها ، فلا يكون لنا مجال فى التفكير فيها ، لأننا نألفها قبل أن نعقل ، فإذا عقلنا لم نستغربها لأنها ألفت من قبل ، وعدت أعمال عقل من قبل . ولو قدِّر لإنسان أن يولد فى جزيرة وحده ، وينمو عقله على طبيعته ، حتى إذا اكتمل رأى الناس وتصرفاتهم ، لدهش من تصرفاتهم أشد الدهش ، وعجب من جنونهم كل العجب ، ولهرب منهم إلى حيث لا ناس ولا جنون ؛ وإلا فحدثنى كيف يستطيع عاقل أن يفسر ما اعتاده الناس من كيوف لا عداد لها ولا داعى إليها ؛ وكيف يستطيع أن يفسر طربوشهم وزرّ طربوشهم ، وكيف يفسر الأزرار التى توهم أن لها عروة وليس لها ، وكيف يفسر مظاهر حفلاتهم ومظاهر خصوماتهم ! إلى ما لا يحصى .

لو رأى ذلك كله لأول مرة وهو عاقل لم يجد كبير فرق بين ناس داخل المستشفى وناس خارجه .

ويعجبنى ما قرأت فى كتاب الأغانى من حكاية بدوى رأى عرساً حضريا لأول مرة فأعياه تفسير مظاهره ، وكاد يجن من تصرف أهله .

***

الحق أن العقل والجنون فى هذه الحياة أمران نسبيّان ؛ فكل إنسان فيه كمية من عقل وكمية من جنون ، تختلف صغراً وكبراً ، ولذلك يتقارب جدا

عنوان المقالتين ويكاد يتساوى عقلاء المجانين بمجانين العقلاء .

ومن حسن الحظ أن كل مجنون يعدُّ نفسه العاقل بل مثال العقل ، ويعد ما خالف نموذجه جنوناً ، وكلما بعد إنسان عن نموذجه كان أشد إمعاناً فى رميه بالجنون .

وفى رأيي أن « العقلاء » وضعوا المجانين فى المستشفى لأن « العقلاء » أقوى وأشد ، ولو كانت القوة فى صف المجانين لوضعوا العقلاء فى المستشفى . ولله فى خلقه شؤون .

العـــزة

استعملت العرب كلمة « العزة » فى مقابل « الذلة » ، فقالوا رجل عزيز ورجل ذليل . وجاء استعمال « العزيز والذليل » فى القرآن متقابلتين ، فقال تعالى : « أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين » . وحكى عن المنافقين أنهم قالوا فى إحدى الغزوات : « لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل » ، وهى كلمة قالها ابن أبىّ ، ويريد بالأعزة نفسه وصحبه ، وبالأذلة محمداً (ص) وصحبه ، فرد عليهم الله بقوله : « ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ولكن المنافقين لا يعلمون » وقد تصدى بعض المسلمين لابن أبىّ وسل سيفه عليه ومنعه من دخول المدينة ، وقال : والله لا أغمده حتى تقول : « محمد الأعز وأنا الأذل » فقالها . والسبب فى كل هذا أن العرب فى الجاهلية كانوا يفهمون العزة فى المال والجاه والرياسة والولد ونحو ذلك ، فجعلها الإسلام فى التمسك بالدين الحق ، والترفع عن السفاسف وإباء الضيم .

وأكثر العرب من استعمال هذه الكلمة فى الجاهلية والإسلام ، فكان أبو جهل يقول : « أنا أعز أهل هذا الوادى وأمنعهم » ، وقال الشاعر :

بيضُ الوجوه كريمةٌ أحسابهم ‍ ‍ ‍ ‍ فى كل نائبةٍ عِزازُ الآنُف

وفسر الراغب الأصفهانى « العزة » بأنها حالةٌ مانعةٌ للانسان من أن يُغلب ، وجعل اشتقاقها من قولهم أرض عَزاز أى صلبة ، وتعزز لحم الناقة اشتد وصلب .

والحق أن تحديد معنى العزة فى منتهى الصعوبة ، وأصعب ما فى ذلك رسم الحد الفاصل بين العزة والكبر ، وبين الذل والتواضع ؛ وقديما حاول الناس أن يفرقوا بينهما ، فقد روى أن رجلا قال للحسن بن علىّ : « إن الناس يزعمون أن

فيك تِيهاً » فقال : « ليس بتيه ولكنه عزة » . وروى عن عمر بن الخطاب أنه قال : « اخْشَوْشِنُوا وتَمَعْزَزُوا » كأنه خشى إذا أمر الناس بتعود الخشونة أن يلجئهم ذلك إلى احتقار النفس وذلتها ، فاستدرك ذلك بطلب المحافظة على العزة .

وحاول السهروردى أن يفرق بين العزة والكبر فقال : « العزة غير الكبر لأن العزة معرفة الانسان بحقيقة نفسه وإكرامها ، كما أن الكبر جهل الانسان بنفسه وإنزالها فوق منزلتها » .

ولست أدرى لم أهمل علماء الأخلاق من المسلمين هذا الخلق فلم يكثروا الكلام فيه إكثارهم فى غيره من الصدق والعدل والكرم والتواضع .

ولو وضعت أنا « ثبت » الأخلاق مرتبة حسب أهميتها للمسلمين لوضعت فى أعلاها « العزة » ، ولاخترت من الأخلاق ما يبعث القوة والاعتداد بالنفس والرجولة والأنفة والحمية ، ولأقللت جدا من الكلام فى التواضع والزهد والخوف ونحو ذلك ، لأن قائمة الأخلاق يجب أن تخضع فى ترتيبها وتقويمها لعاملين : روح العصر ، وموقف الأمة إزاء بقية الشعوب ؛ بل أحياناً تنقلب الفضيلة رذيلة ، ويكون الحث على هذا النوع من الفضائل داعية إلى الإجرام . فاذا أفرطت أمة فى التواضع كانت الدعوة إليه إجراما ، وإذا أفرطت أمة فى الزهد كانت دعوة الأخلاقيين إليه دعوة إلى الموت والفناء .

كنت زمناً قاضياً فى « الواحات الخارجة » وهى بلاد فى منتهى الفقر والبؤس أغناهم من ملك نُخَيْلات وسُوَيعات فى عين من عيون الماء ، بؤس شامل ، وجهل شائع ، وضنك يستذرف الدمع ، ويستوجب الرحمة . ثم ذهبت يوماً إلى صلاة الجمعة فى مسجدها البائس الفقير أيضاً . فما كان أشد عجبى من خطيب يخطب من ديوان مطبوع يستحث الناس على ألا يقضوا صيفهم فى أوربا ، وأنا على يقين أن الخطيب والسامعين لم يعرفوا أوربا ، ولم يفهموا لها إلا معنى غامضاً ،

ولم تحدث أحداً منهم نفسه بالسفر إلى مصر فضلا عن أوربا ، ولكنها قلة ذوق الخطيب وسماجته ، وجهله التام بالواقع .

وأؤكد أن أكثر المتكلمين فى الأخلاق من المسلمين فى مثل حال هذا الخطيب ، لا يعرفون زمانهم ، ولا يعرفون أمتهم ، ولا يعرفون موقف أمتهم من زمانهم . يرونهم أذلة فيدعون إلى الذلة ، ويرونهم متواضعين فيلحون فى طلب التواضع ، ويرونهم زهاداً بالطبيعة لا يجدون الكفاف من العيش فيمعنون فى طلب الزهد . فإن هم تلطفوا قليلا طلبوا منهم الرضا بالبؤس وألصقوه بالقَدَر ، وجعلوا ذلك كله ضربا من التقوى والإيمان ، وهم بذلك يداوون جوعا بجوع ، وجرحا بجرح ، وسما بسم ؛ وكان يجب أن يداووا جوعا بشبع ، وجرحا بضماد ، وسما بترياق .

تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا ندعو إلى خلق يزيد الأمة ضعفاً ، فلا ندعوها إلى الرضا بالقليل وفى إمكانها الكثير ، ولا ندعوها إلى الاستسلام للقدر وفى وسعها مكافحة الصعاب ومواجهة الشدائد ، ولا ندعوها إلى الذلة وفى استطاعتها أن تعز . والواقع أن أبيات العزة وأدب العزة وأمثال العزة وقصص العزة إنما تكثر فى الأمة أيام عزتها وتختفى أيام بؤسها ، فلما كان العالم الإسلامى عزيزاً أنطقتهم بالعزة رماحهم ، ثم غلبوا على أمرهم فنطقوا بالتواضع ، وتواصوا بالاستكانة وألفت الكتب والخطب من ذلك الحين تروّح على البائسين حتى لا يشعروا ببؤسهم ، ولا يملوا شقاءهم ، وما زال الحال على هذا المنوال حتى صار الداء صحة ، والدواء مرضاً .

وليس غريباً أن يسير الناس على هذه الخطة ، ولكن غريباً أن يسير

القادة عليها ، وكان المفروض أن يكونوا أبعد نظراً ، وأطهر قلباً ، وأعرف بحقائق الأمور .

***

أريد بالعزة أن يشعر كل إنسان بكرامة نفسه ويشعر بما لها من حقوق فلا يسمح لمخلوق كائناً من كان أن ينال منها مثقال ذرة ، كما يشعر بما عليه من واجبات ، فلا يسمح لنفسه أن يعتدى على حقوق الناس مثقال ذرة أيضاً .

وللعزة مظاهر متعددة ووسائل مختلفة ، فالناس كثيراً ما يتطلبون الغنى وسيلة من وسائل العزة ، وآخرون يطلبون المنصب الحكومى أو العضوية البرلمانية أو العضوية فى الجمعيات الراقية أو صداقة العظماء أو حسن الملبس على أنها وسائل للعزة ؛ والمتعلمون يطلبون العزة من طريق الشهادات من ليسانس ودكتوراه ودبلوم ونحو ذلك ، وهذه كلها عزة شخصية ؛ وهناك عزة أخرى قومية وهى اعتزاز الفرد بنسبته إلى أمته كاعتزاز الإنجليزى بإنجليزيته والفرنسوى بفرنسيته والألمانى بألمانيته ، ولهذه كذلك مظاهر متعددة كاحترام كل أمة أعلامها والمحافظة على بعض تقاليدها والافتخار بلغاتها والفخر بآثارها ونحو ذلك ؛ وليس يهمنى الآن هذا ولا ذاك ، إنما يهمنى نوع من الشعور يتملك المرء ويشعر معه بأنه إنسان فى الحياة لا يمتاز عنه أحد فى الوجود فى إنسانيته . قد يمتاز الناس عنه فى المال أو فى الجاه أو فى المنصب ، ولكن لا يمتاز عليه أحد فى أنه إنسان ، فسائق السيارة وصاحب السيارة سيان فى احترامهما أنفسهما وشعورهما بحقوقهما وواجباتهما .

ويسوءنى أن أرى الشرق لا يشعر بالعزة الشعور الواجب ، ولا ينزل هذه الفضيلة من نفسه المنزلة التى تستحقها ، وأكبر ما يؤلمنى فى ذلك مظهران :

الأول : استخذاء الشرق أمام الأجنبى الأوربى وشعوره فى أعماق نفسه

كأنه خلق من طينة غير طينته ، وكأن الطبيعة جعلت أحدهما سيداً والآخر عبداً ، ترى هذا الشعور فى المصالح الحكومية وفى الحوانيت التجارية وفى المجتمعات وفى الشوارع ، وفى كل معاملة وفى كل خطوة . بالأمس كنت فى محطة السكة الحديدية فذهبت إلى شباك التذاكر وسألت الموظف — فى أدب — هل هنا محل صرف التذاكر إلى بلدة كذا ؟ فلم يجب ، وأعدت السؤال فلم يجب ، فتولانى شعور ممتزج من غضب وخجل واحتمال لبرودة السؤال وغير ذلك ، وما لبث أن جاء أجنبى فسأل مثل هذا السؤال بلغته الأجنبية ، فترك الموظف ما فى يده وأقبل عليه بكله ، وأجابه إجابة فيها كل معنى التبجيل والتعظيم ، واختتم كل جملة من جمله بكلمة « سيدى » ! فدهشت من هذا الحال وثارت نفسى ، وتجمع الدم فى وجهى ، ونلت من الموظف بقدر ما نال منى ، ولم أكسب من ذلك كله إلا أن أكتب هذا المقال .

وموقف هذا الموظف تقفه كل الأوساط على اختلاف فى مقدار اللباقة والكياسة ولكن الجوهر واحد ، فذلك هو الشأن فى الأوساط العلمية والتجارية والسياسية ، يتكلم الأجنبى كلمة عادية فتكون المثل ، وتكون الحكمة ، وتكون القول الفصل ؛ ويبدى الرأى فيكون الرأى الناضج والقول الحكيم والغاية التى ليس وراءها غاية ؛ ويطلب الطلب فلابد أن يجاب ، وإذا لم يمكن فالاعتذار الحار والوعد باجابته فى ظرف آخر ؛ ويدخل المحل التجارى أو يركب القطار أو يدخل النادى فموضع رعاية خاصة ؛ ويعمل العمل فيقدر التقدير الغالى فى قيمته الأدبية ومكافأته المادية إلى ما يطول شرحه .

وفى هذا من غير شك مذلة للشعور وإذلال للنفس واستعباد للمواطن ، ومع هذا يطالبنا السادة الأخلاقيون بالتواضع ! لا بد أن يفهم الناس فى كل مناسبة وفى كل ظرف أن القوم أناس مثلنا لهم ما لنا وعليهم ما علينا ، وأن هؤلاء القوم

على أحسن تقدير ضيوفنا لا سادتنا ، ومن لحم ودم كلحمنا ودمنا ، ولهم عقل ولكن كعقلنا ، وسلوك فى الأخلاق كسلوكنا ، وتصدر منهم الفضيلة والرذيلة كما تصدر عنا ، وأنهم ككل البشر يستذلون من أذل نفسه ، وأن واجبنا أن نحترمهم فى غير مذلة ، ونحترمهم لا على حساب احتقار المواطن ، وأن نبادلهم احتراماً باحترام واحتقاراً باحتقار ، وأنه إذا حدثتهم أنفسهم بالاعتداء علينا لم نمكنهم ، وأن الحكَم بيننا وبينهم دائماً أن لنا حقوقاً وعلينا واجبات كحقوقهم وواجباتهم ، فإذا طلبوا المساواة فالسمع والطاعة ، وإذا طلبوا الإذلال قلنا « لا » بملء أفواهنا .

والأمر الثانى من مظاهر الذلة الذى لا يقل خطراً عن هذا ، فهمُ الرئيس لمعنى الرياسة ، فهو يفهمها على أنها غطرسة من جانبه ، وذلة من جانب مرءوسه ، وإلا لم يكن المرءوس مؤدبا . فرئيس المصلحة ليس لأحد رأى بجانب رأيه ، لا لوكيله ولا لمديرى إدارته ، عليهم أن يسمعوا فى ذلة والعزة له وحده ، ثم يتكرر تمثيل هذا الدور مِنْ أعلى فنازلا ، فكل من بعد الرئيس الأعلى رئيس من جانب ومرءوس من جانب ، فهو كمرءوس حاله ما بيّنا ، وهو كرئيس يقلد تقليداً تامًّا رئيسه فى اعتزازه وإذلاله ، وهكذا دواليك ، حتى يصل الأمر إلى ما نرى من الباعة فى الشارع والجندى ، فمثلهم كالقاطرة تصدم العربة التى تقابلها ، ثم كل عربة تصدم ما بعدها إلى آخر القطار .

***

ليس لهذا من علاج إلا فهم العزة بمعناها الدقيق ، وهو احترام نفسك فى غير احتقار أحد ، وأن تقف موقفاً له جانبان ، فإن نظرت إلى من هو أعلى منك فى المنصب والجاه والجنسية فلا تمكنه أن ينال من نفسك ولو ذرّة ، ولا أن يتعدى حدوده ولو شعرة ؛ وإذا نظرت إلى من هو أسفل منك فلا تتعدّ حدودك ،

وإذا شعرت باستخذائه وذلته فارفع مستواه ما استطعت حتى يصل إلى الحدود.

على أنه ليس هناك أسفل ولا أعلى إلا أن تكون مواضعات سخيفة ، فمن الذى قال إن كنّاس الشارع وضيع ، وفراش المصلحة وضيع ، والخادم فى الأسرة وضيع ؟ نعم إن الحالة الاجتماعية فرّقت بين الناس فى المرتّب ونحوه ، ولكن القيمة الحقيقية للإنسان — وهى ما له من حقوق وواجبات — قدر مشترك بين الجميع .

فليس من حقك أن تنادى بائع الجرائد « بولد » ، ولا خادمك بأحقر الأسماء ، ولا فراش المصلحة بما يشعر باحتقاره ، وهو مطالب بالأدب معك ، وأنت مطالب بالأدب معه ؛ وليس للجندى حق أن يرفع عصاه على بائع لم يتجاوز حدوده ، ولا لأى رئيس أن يخرج عن الأوضاع الأدبية فى مخاطبته مرءوسه .

فإذا فرغ الرئيس والمرءوس من العمل ، وفرغ سائق السيارة ومالكها ، وفرغ الضابط والجندى ، والمعلم والتلميذ من أعمالهم فكلهم سواء فى الحياة الاجتماعية ، وكلهم سواء فى الحقوق ، لا ذلة لأحد أمام أحد ، ولا اعتزاز من أحد على أحد .

« مُذْ كم تعبّدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً ؟ ! » .

تجارب وزير

كان أبو الحسن على بن محمد المعروف « بابن الفرات » وزيراً من أشهر وزراء الدولة العباسية فى أواخر القرن الثالث وأوائل القرن الرابع للهجرة ، استوزره المقتدر ابن المعتضد .

وكان ملء السمع ، ملء البصر ، واسع الثراء ، واسع العطاء ، إذا استُوزر ارتفع ثمن الشمع وثمن الورق لكثرة ما يعطى من هدايا الشمع ، ولكثرة ما يستعمل هو وأصحابه من الورق ، فكأنه يعشق النور فيبدد الظلام بالإضاءة ، ويبدد الفوضى والجهل بالكتابة ، فلا يخرج أحد من داره بعد الغروب إلا ومعه شمعة ، مع كثرة الداخلين والخارجين ، ولا يأتى متظلم يريد أن يرفع إليه شكاة ، أو يتطلب عطاء إلا وجد بجانب الدار أدراجا كثيرة من الورق يأخذ منها ما يشاء ، ويستعمل ما يشاء ، حتى لايلتزم مؤونة ما يبتاعه من ذلك ، هذا مع غلاء الورق غلاء دونه غلاء الورق الآن فى الحرب .

عالى الهمة نبيل ، كانت الوزارة فى أيامه وقفاً على جماعة من المستوزرين أصحاب البيوت المعروفة ، يتولى أحدهم فلا همّ للآخرين إلا أن يتآمروا عليه ويكيدوا له وينصبوا الحبائل حوله ، ويسعوا بالسعايات لدى الخليفة ليفسدوا ما بينه وبينه ، حتى يتم لهم ما أرادوا ، فيعزَل ويصادر ؛ ويتولى وزير جديد ، فتبدأ القصة من جديد على النمط القديم ، وتنتهى القصة الثانية والثالثة بما انتهت به القصة الأولى ؛ وتقرأ تاريخ الوزراء فى ذلك العصر ، فلا تقع عينك إلا على دفاع وهجوم ، وتولية وعزل ، وخلَع للمتولى ، ومصادرات للمعزول ؛ ومن حين إلى حين قد تعثر على عمل إيجابى للوزير فى المصلحة العامة وقد لا تعثر .

وكان لكل وزير وكل مستوزر أعوان يأكلون من موائده ، ويستفيدون من التقرب إليه ، ويحصون على خصومه سيئاتهم التي ارتكبوها وسيئاتهم التي توهموها ، ويعدون العدة ليومهم الذى يسقط فيه الخصم ، ويتولى وزيرهم الحكم ، فيقدمون دفاترهم ويتقاضون أجورهم .

فكان من نبل ابن الفرات أنه لما وُزِّرَ حُمِل إليه صندوقان عظيمان فيهما أسماء من يعاديه ومن يكيد له ومن يعمل لخصومه ، فقال لا تفتحوهما ، ودعا بنار وطرح الصندوقين فيها ، فلما احترقا قال : « لو فتحتهما وقرأت ما فيهما لفسدت نيات الناس بأجمعهم علينا واستشعروا الخوف منا ، وبما فعلنا من إحراقهما هدأت القلوب ، وسكنت النفوس » .

وكان يكره السعاية والسعاة لشدة ما عانى زمنه منها ، ولكثرة من ذهب ضحية لها ، فقد اتخذ القوم السعاية حرفة حتى كانت هى الأصل والجوهر فى حياة كثير من الناس ، وما عداها من الأعمال فعلى هامشها ، هى دأبهم فى النهار ، وسمرهم فى الليل ، وتدبيرهم إذا خلوا إلى شياطينهم ؛ فأراد ابن الفرات أن يقضى على هذه السنة السيئة ، فكان إذا رفعت إليه قصة فيها سعاية خرج من عنده غلام ينادى فى الناس المحتشدين أمام داره : أين فلان بن فلان الساعى ؟ فيشهر سعايته ، ويجمع بينه وبين من سعى فيه ؛ فلما عرف الناس منه ذلك كفوا عن سعايتهم .

ولكنهم كفوا عن السعاية إليه وسعوا به ، فكانت حياته سلسلة سعايات به وسلسلة نكبات له ، وزر ثلاث مرات وفى آخر كل وزارة يقبض عليه وتنهب داره وأمواله ويزج به فى السجن هو وأهله ، وفى آخر مرة قتل هو وابنه المحسّن ، وخاف الناس أن يذكروهما بخير ، فيغضب الخليفة القاتل ، ويغضب الوزير الجديد ويغضب أشياعه ؛ فلما أراد شاعر وفىّ أن يرثيهما عمل قصيدة فى رثاء هرة ، وكنى بالهرة عن المحسّن أو أبيه ، أولها :

يا هرُّ فارقْتَنا ولم تَعُـدِ ... وكنتَ عندى بمنزل الولد
فكيف ننفكّ عن هواكَ وَقدْ ... كنتَ لنا عُدَّة من العُدَد
تطرُدُ عنا الأذى وتحرُسُنا ... بالغيب من حيـةٍ ومن جُرُد
وتُخرِجُ الفأرَ من مكامِنِها ... ما بين مفتوحها إلى السدد

وعلى هذا النحو جرى فى قصيدته الرمزية البديعة التى تبلغ خمسة وستين بيتاً .

***

جمع ابن الفرات خصالا متناقضة ، فكان نبيلا كريماً وكان محبا للمال ماهراً فى اصطياده ، وكان يكره السعاية ويعفو عن الخصوم ، ولكنه ملّ العفو أخيراً فخرج عن حلمه ، ونكل بخصومه فنكلوا به ، ومد يده إلى أموالهم فصودرت أمواله ، وفى ذلك يقول شاعرنا فى الهرّ :

حتى اعتقدْتَ الأذى لجيرَتنا ... ولم تكن للأذى بمعتقِدِ
وحمتَ حول الردى بظلمهمُ ... ومن يَحُمْ حول حوضِهِ يَرِدِ
تدخل بُرج الحمام متئداً ... وتبلعُ الفرخَ غيرَ مُتّئِدِ
وتطرح الريش فى الطريق لهم ... وتبلع اللحم بلع مزدردِ
أطعمك الغىُّ لحمها فرأى ... قتْلَكَ أربابُها من الرّشَدِ
كادوك دهراً فما وقعْتَ وكم ... أفلَتَّ من كيدهم ولم تَكدِ
فحين أخفرت وانهمكت وكا ... شفتَ وأسرفت غير مقتصد
صادوك غيظاً عليك وانتقموا ... منك وزادُوا ، ومن يَصِدْ يُصَدِ

***

أردت أن تأكل الفراخ ولا ... يأكلك الدهر أكل مضطهدِ ؟
هـذا بعيد من القياس وما ... أعزه فى الدنو والبُعُدِ

لا بارك الله فى الطعام إذا كان هلاك النفوس فى المعدِ الخ

***

كان ابن الفرات ذا كفاية ممتازة ، فى الاقتصاد وفى تدبير أموال الدولة ، وفى ضبط الأمور والحزم وقوة الإرادة ، وفى بصره بالشؤون السياسية ، حتى كان فى كل مرة يُقبَض عليه فيها ويسجن تضطرب الأمور وتفسد الإدارة ، وتختل المالية وتتعقد المشاكل ، فإذا عجزوا عن حلها لم يجدوا أمامهم إلا ابن الفرات حَلّاً لها .

***

لطالما عانى ابن الفرات وجاهد ، وقلّب الأمور ، وصرّف الشؤون ، وانغمس فى السياسة من قدمه إلى قرنه ، وصادفه السعد والنحس ، وذاق الحلو والمر ، وقد خرج من وزاراته الثلاث بتجارب ثلاث بَلْوَرَ فيها آراءه واختباره ، يكفينا اليوم واحدة ، فكلٌّ منها يحتاج فى شرحه إلى كتاب بَلْه مقال .

قال :

« تَمْشِيَةُ أمور السلطان على الخطأ خير من وقوفها عند الصواب » .

ولقد وقفت عند هذه الجملة طويلاً ، مطبقاً لها ، مستعرضاً لحالنا فى ضوئها ، فأعجبت بها وآمنت ببعد نظر الرجل وقوة سياسته ، وقلت : ما أحوج مصر والشرق إلى أن تسود هذه النظرية كل أعمالها الحكومية وغير الحكومية !

إنما يريد « بأمور السلطان » شؤون الدولة ، ويرى أن التردد الطويل مخل بالمصلحة ، ولو كان الباعث عليه تحرى الصواب والرغبة الشديدة فى الوصول إلى الحق ، وأن التنفيذ السريع مع احتمال الخطأ خير من البطء مع احتمال الصواب .

إن أمورنا من قديم تجرى على البطء فى التنفيذ والزمنُ لايمهل ، فلكل يوم مشاكله ، ولكل ساعة جديدها وأمورها وتعقيداتها ؛ فإذا أمهل فى التنفيذ رغبة فى الوصول إلى حق لاشك فيه ، ارتبكت الأمور ارتباكاً لاشك فيه ، وزاد التعقيد

بمرور الزمان ، وأصبح ما كان يحل أول أمره فى ساعة لا تكفى فى حله سنة .

لا أدرى لماذا وأنا أفكر فى هـذا هجمت علىَّ أمثلة متعددة حتى حِرْت فيما آخذ منها وما أدع .

كم من السنين مرت وأنا أسمع بمشكلة الأزهر ودار العلوم وكلية الآداب ، ثم لا أجد لها حلاً باتا تحل به ، وكل يوم يمر تزداد المشكلة تعقداً ؟ ولا أرى لحلها قولاً خيراً من قول ابن الفرات .

وكم من السنين مرت وأنا أسمع بتوليد الكهرباء من خزان أسوان ، ولا أرى لحله قولا خيراً من قول ابن الفرات .

وكم سمعت بنفق شبرا وكهربة خط حلوان ؟

وكم سمعت بآراء فى المجمع اللغوى تعرض وتطوى ومشروع يقدم ويؤخر ، وجدال فى أن يدرس اللهجات أو لايدرسها ، ويعنى بنشر الكتب أو لاينشرها ، وتزاد أعضاؤه أو لا تزاد ، ثم لا شىء ؟

وأخيراً كم سمعت بعين حلوان وتحليل مائها ومحاولة ردمها ثم محاولة استغلالها ثم بقائها كما نبعت ، وحيرة الناس فى شأنها كما بدأت ؟

وكم سمعت بتوحيد القضاء وإصلاح الأوقاف وتحسين حال الفلاح ؟ وكم وكم مما لو شئت أن أحصى ما وسعنى مقال ولا كتاب ؟

فما أحوجنا إلى العمل بقول ابن الفرات وأن يكون شعار الأمة بأجمعها من أصغر موظف لأكبر موظف ومن أصغر عامل لأكبر عامل : « تمشية الأمور على الخطأ خير من وقوفها عند الصواب » .

ورحم الله ابن الفرات .

الوحدة والتعدد

كان الشرق كفؤاً للغرب من الناحية الحربية والعلمية والاجتماعية فى عهد الحروب الصليبية ، بل كان الشرق يفوق الغرب فى كل هذه النواحى ، بدليل انتصار الشرق فى هذه الحروب ، وبدليل أن دعاة الغرب كانوا يحثون مواطنيهم على الاستفادة من الشرق ، والاقتباس من علمه ونظمه .

ثم جاء عصر النهضة الأوربية ، ومدته نحو قرن ونصف ، من نصف القرن الخامس عشر إلى نهاية القرن السادس عشر ؛ فتطورت أوربا تطوراً جديداً فى كل مرافق الحياة : فى الدين ، فى الفن ، فى الأدب ، فى العلم ، فى الاجتماع ؛ فكان عصر العلم ، وعصر التجول والاستكشاف ، وعصر النقد الحر الجرىء ، وعصر الهدم والبناء ، وعصر شعور الإنسان بذاته ، والتحرر من قيود السلطات التى كانت تكبله ، وعصر ظهور القوميات وظهور اللغات التى تعبر عن خوالج المشاعر القومية .

ومن ذلك الحين أخذ الغرب يتقدم شيئاً فشيئاً ، والشرق واقف على ما كان عليه منذ الحروب الصليبية ، بل تراجع إلى الوراء شيئاً فشيئاً بفساد حكامه وانتشار الجهل والفقر بين أبنائه .

وجاء زمان انقطعت فيه العلاقات بين الشرق والغرب ، فلم يدر الشرق ما يصنع الغرب ، ولا الغرب ما يصنع الشرق ، سواء فى ذلك العلاقات المالية ، وعلاقات الحضارة والمدنية ؛ فالغرب يتقدم ويتقدم ، ولا علم للشرق بتقدمه ، والشرق يتأخر ويتأخر ، ولا علم للغرب بتأخره .

تقدمت الشعوب فى الغرب ، وتحرروا وردوا ذوى السلطان فيهم إلى حدودهم .

واتصلوا بالطبيعة واستخدموها لصالحهم ، وأخرجوا بالعلم كنوز الأرض فأثْرَوْا ، ومكنهم الثراء من عيشة الترف والنعيم ، كما مكنهم العلم من أن يقلبوا النظام الحربى القديم ويغيروا أساليبه وآلاته ونظمه حسبما أرشد إليه العلم الحديث .

هذا فى الغرب . أما الشرق فابتلى بحكام أكثرهم لا همّ له إلا نفسه ؛ ثم وقف العلم على ما كان عليه فى العصور الوسطى ، فلا علم إلا العلم الدينى الذى حافظ على شكله وفقد روحه . ووقفت نظم الحروب على ما كانت عليه أيام الصليبيين ، فلم تتقدم شيئاً ، ولم تخترع شيئاً ، وسبَّبَ الظلم والجهل الفقر المدقع لأهل البلاد ، فالعيشة ضنك ، والنفوس يائسة ، والعقول مظلمة .

فأصبح العالم ينقسم إلى قسمين : غرب يمتاز بغناه وعلمه وسلاحه الجديد وحريته ، وشرق بفقره وجهله وسلاحه القديم وأغلاله .

والشرق يظن أن موقفه من الغرب موقف آبائه أيام الحروب الصليبية ، والغرب يظن أن الشرق عظيم عظمته حين التقى به فى الثغور الإسلامية .

ويأخذ الغرب فى طريقه فيؤمن بعظم الملاحة ، ويجدّ فى تنظيم الأساطيل ، ويستخدم السفن فى أهم الأعمال ، ويمرن رجاله على التغلب على قوة المياه بشتى الأساليب . ويأخذ الشرق فى سبيله فيغفل هذه كما أغفل تلك ، ويضعف فى البحر كما ضعف فى البر .

وتؤدى عظمة الغرب البحرية إلى استكشاف الأقطار النائية والممالك البعيدة كأمريكا وغيرها ، فيستغلها فى بناء عظمته ومجده ، ويأخذ من كنوزها ليزيد فى غناه وقوته وسلطانه .

وما هو إلا أن يستكشف الشرق كما استكشف أمريكا ، فقد رحل جماعات كبيرة من الأوربيين إلى الشرق فى سائر الأقطار ، ودرسوا شؤونه وخبروا أحواله فتكشَّفَ لهم عن ضعف وفوضى وذلة وجهل وفقر بلغ النهاية ، فاتصلوا بأممهم

ينبئونهم باستكشافهم ، فكان الغزو وكان الفتح وكان الاستعمار .

وكما استكشف الغرب الشرق ووقف على شؤونه ، استكشف الشرق الغرب ووقف على شؤونه ، ولكن شتان بين الاستكشافين وبين الشعورين ؛ فاستكشاف الغرب للشرق كان من نوع العثور على الغنيمة ، والفرح باللقطة ، والفوز بالكنز ، ومن نوع شعور القط بالفأر ، والذئب بالحمل ، والجائع بالمائدة الشهية ؛ واستكشاف الشرق للغرب كان من نوع الأسير يقع فى قبضة العدو والسائر يصادفه قطاع الطريق ، ومن نوع الفأر يرى سنوراً والحمل يصادف ذئباً .

كان الغرب قد تطور ، فكان فتحه للشرق فتحاً اقتصاديا وسياسيا وقوميا — أولا — ودينيا أخيراً . وكان الشرق لا يزال على آرائه الأولى ، ففهم أن هذه الحرب حرب صليبية من جنس تلك التى شاهدها آباؤه فى الشام ، وأن انتصار أوربا انتصار للنصرانية على الإسلام ليس إلا ، ولم يفهم المنازع القومية والاقتصادية إلا أخيراً ، لما رأى مثلاً « محمد على » المسلم يحارب الدولة العثمانية المسلمة ، وإنجلترا النصرانية تحارب فرنسا النصرانية ، ورأى الممالك المتحدة ديناً المختلفة قومية تختلف وتتنازع وتتحارب .

***

عند ذاك فقط أدرك الشرق أنه لا بد لنجاحه أن يقلد الغرب ويسايره فى شؤونه ، فلا بد أن يكون له سلاح كسلاحه ، وعلم كعلمه ، ونظام سياسى واقتصادى واجتماعى كنظامه ، وأن يرقى بأوضاعه القديمة لتصل إلى الأوضاع الحديثة .

شعر المصريون والشاميون بهذا عند مجىء الحملة الفرنسية ، وشعر المغاربة بذلك عند احتلال الفرنسيين للجزائر ، وشعر العراقيون بذلك عند ما بسط الإنجليز سلطانهم على بلادهم ، وشعر الأتراك بذلك يوم تكالبت عليهم الدول الأوربية وهكذا ؛ ولكن كان أمامهم طريق واحد صحيح ، هو أن يسلكوا نفس الطريق

الذى سلكه الأروبيون ، وهو أن يعمدوا إلى نظمهم فيرقوها بحسب استطاعتهم وبحسب ما يسمح به الزمان ، وأن يكون الرقى من جنس نمو الشجرة من داخلها ونمو الإنسان من نفسه — وهذا هو الذى حدث فى أوربا فى عصر النهضة ؛ فقد قامت الثورات على القديم فى كل شىء ، فأدخل التعديل عليه ، وكلما تقدم الزمان وهضم التعديل أدخل عليه تعديل آخر ، وخطى به خطوة أخرى ، حتى وصل إلى ما وصل إليه من رقى .

أما فى الشرق فحدثت غلطة كبرى هى موضوع مقالى هذا ، لا نزال نتجرع غصصها إلى اليوم ، ولا أمل فى النجاح إلا بإصلاحها .

تلك هى أننا بدل أن نصلح القديم ونرقى به ، تركنا القديم على قدمه وأنشأنا بجانبه جديداً ، وجعلنا النوعين يسيران جنباً إلى جنب يتصارعان ويتعاديان ونحن نشرب المر من تعاديهما .

وكان سبب ذلك أن المصلحين خافوا من المحافظين ، واتقوا ثورتهم ، ولم يكن لهم من القوة ما يفرضون معه إصلاحهم ، فلجأوا إلى الطريق الآخر غير المستقيم ، وهو ترك القديم وإنشاء الجديد .

كان فى مصر كتاتيب للتعليم الابتدائى وأزهرٌ للتعليم العالى ، وكان التعليم فيهما على الأساليب القديمة ؛ فلما أريد الإصلاح كان خير طريق هى أن ترقى الكتاتيب ، ويرقى الأزهر ، ويدخل عليهما ما تقتضيه حالة البلاد ، وتُعَدَّد وتوسع ، وكان هذا يضمن الوحدة العقلية والوحدة الثقافية ، وهذا ما فعلته أوربا فى نهضتها ؛ فقد رأت فى مستهل القرن التاسع عشر أنه لا بد من أن تكون للتعليم وحدة تتدرج فى مراحل متعددة ، فلا بد من ثقافة ابتدائية يشترك فيها كل أفراد الشعب ، ثم تعلو وتتفرع . أما فى مصر فتركت الكتاتيب والأزهر على حالها ،

وأنشئت بجانبهما المدارس المدنية تحذو حذو المدارس الأوربية ، فكان لنا من ذلك قديم وجديد يعيشان معاً .

وكان لدينا محاكم شرعية تحكم بين الناس فى الخصومات ، فكان الطريق الطبيعى للاصلاح أن ترقى نظمها ويوسع اختصاصها : ولكن تركت — كما ترك الأزهر — على حالها ، وأنشئ بجانبها محاكم أهلية ومحاكم مختلطة تحذو فى نظامها وأحكامها حذو أوربا ، وبذلك أصبح تعليمنا غير موحد ، وقضاؤنا غير موحد .

حتى فى النظم الاجتماعية ترك الفلاح على قدمه والقرية على نظامها ، لم يدخل عليهما أى إصلاح ، وأنشئت المدن الحديثة على النمط الأوربى ، فكان لنا نوعان من الشعب منعزلان عن بعضهما تمام العزلة : فلاح يرجع إلى عهد توت عنخ آمون ، وممدَّن على آخر طراز أوربى .

وشأن البلاد الشرقية شأن مصر ، جرت على هذا الوضع العقيم ، وسارت على هذا النهج غير القويم .

نشأ من هذا الخطأ ضرر جسيم جدا ، وهو عدم الوحدة على عكس ما عليه الحال فى الغرب ؛ فبين الفلاح الإنجليزى والأرستقراطى الإنجليزى وحدة فى طريق الملبس والمأكل ونظام الحياة ، لا تختلف إلا باختلاف الصنف ، وبين كل المتعلمين الإنجليز أو الفرنسيين أو الألمان وحدة عقلية فى منهج التعلم وطرق البحث وطرق التفكير ، لا يختلف فى ذلك رجل الدين عن غيره ؛ فرجل الدين يتعلم الطبيعة والكيمياء والحساب والجغرافيا على أحدث نظام كما يتعلم المدنى ، ثم هذا يتخصص للدين ، وهذا يتخصص للهندسة أو الطب ، وطريقة بحث رجال الدين عندهم هى طريقة بحث الطبيعى أو الكيميائى ، بل نرى من رجال الدين من تخصص للآثار القديمة واللغات القديمة ، والتاريخ بكل فروعه ، وهكذا .

أما الشرق الذى هو مصدر الوحدانية فمتعدد فى كل شىء ، وقد فقد الوحدة

فى كل شيء ؛ فلا وحدة بين القروى والحضرى ، لا فى ملبسه ولا فى نظام أكله ولا فى طرق معيشته ؛ ولا وحدة بين المثقفين ، فثقافة رجال الدين غير ثقافة المدنيين ، ويبدأ التخصص فى الدين من بدء التعلم ؛ ولا وحدة بين قضاة المحاكم الشرعية والأهلية والمختلطة (حتى فى الكادر) ؛ ولا وحدة بين الجامعة المصرية والجامعة الأزهرية ، ولا بين وزارة المعارف والأزهر ، ولا بين المتجر القديم والمتجر الحديث ، ولا بين أى شيء وشيء ؛ وفى هذا خطر كبير من الناحية الخلقية والاجتماعية نعانى متاعبه إلى الآن . فإذا نظرت إلى عقليات المتعلمين لم تجد فيها أساساً مشتركا ، عقلية الأزهرى غير عقلية المدنى ، وهما غير عقلية من تربى فى مدارس إنجليزية ومن تربى فى مدارس فرنسية ، وهذا هو سر الصراع الحادّ الدائم بينهم ، ويظهر ذلك بأجلى مظاهره فى المجالس التى تتكون من هذه العناصر المختلفة .

وإذا نظرت إلى أفراد الشعب وجدت الخلاف الكبير بين مظهر الريفى والحضرى وعقليتهما ونوع معيشتهما ، وقد جر هذا إلى سوء شعور كل منهما نحو الآخر .

ويطول بى القول لو عددت الأمثال والمظاهر الدالة على ذلك .

ومرجع هذا كله — فيما أرى — إلى الخطأ الكبير الذى وقع فيه المصلحون عند تقبلهم المدنية الغربية ؛ فبدل أن يرقوا الشعب تدريجاً من أساسه ، تركوه على حاله ، وأوجدوا نظما حديثة مستقلة .

ولا سبيل للعلاج إلا بإصلاح هذه الغلطة من أساسها ، من توحيد التعليم ، وتوحيد القضاء ، وتوحيد الملابس ، وتوحيد المعيشة الاجتماعية .

أوَ ليس أولى الناس بالتوحيد مَن دينهم التوحيد ؟

تضخم الشخصية

لابد أنك تعلم أن من أمراض الجسم تضخم بعض أعضائه ، كتضخم الكبد أو الطحال أو القلب ، وإذ ذاك يختل توازنه ، ويسبب التضخم من المتاعب والأمراض ما يعرفه الأطباء .

إن كان كذلك فهناك نوع من المرض النفسى شبيه بهذا المرض الجسمى هو « تضخم الشخصية » ، فتتمدد النفس وتتمدد حتى قد تشمل الكون بأسره .

وكما أن الجسم قد يصاب أحياناً بالتضخم العام ، فتنتفخ كل أجزائه ، وتتضخم كل أعضائه ، فيكون الطول المفرط فى كل نواحيه ، أو السمن المفرط فى كل أجزائه ، وقد يصاب أحياناً أخرى بالتضخم الخاص ، فتتضخم الكبد وكل أجزاء الجسم الأخرى محتفظة بحجمها الطبيعى ، كذلك التضخم النفسى .

قد يكون هناك تضخم نفسى نوعى ، وباقى الشخصية سليم لم يصب بأذى ولم يمرض بتضخم . فهناك من تضخمت شخصيته فى شعوره بجماله ، فهو يرى فى نفســه أنه قَسيم وسيم ، قد أفرغ فى قالب الجمال ، وطبع بطابع الحسن ، وأنه ممشوق القدّ رشيق القوام ، لا يقع الطرف على أجمل منه صورة ، ولا تفتح العين على أتم منه حسناً ! .

قد جُن بهذه العقيدة جنوناً ، فهو يديم النظر فى المرآة ، وهو يتأنق إلى أقصى حد فى ملبسه وفى مشيته وفى حركته ؛ إن كان رجلا فهو خليق أن يصرع أجمل امرأة ، وأن يوقعها فى شباكه ، ويذلها بنظرته ؛ وإن كانت امرأة فهى جديرة أن تتزوج أحسن رجل ، وأن يكون فريستها أى عظيم ! .

تتضخم هذه الناحية من شخصيته أو شخصيتها فتكون محورَ الحياة ومركزَ

التفكير ، ومصدر الأعمال ، وباعث السلوك — حياته كلها حول التفكير فى جماله ، وحديثه كله حول من وقع فى شباكه ومن أسرهم بحسنه ، وملابسه وكيف يشتريها وكيف يخيطها ، وآماله فى الزواج ، ومن يصلح من العظماء لمصاهرته ، وهو يغشى المجامع الأرستقراطية ليبهر الناس بحسنه ، ويروعهم برُوائه ، ويفتنهم بجماله ، وهو يلتفت ويتحرك وينظر بقوانين دونها قوانين الهندسة المعقدة والجاذبية المركبة ! .

هو مجنون جنوناً فرعياً بجماله فحسب ، وفيما عدا ذلك عاقل كل العقل حكيم كل الحكمة ، غاية الأمر أن جنونه بجماله لم يسمح له بالتفكير فيما عداه إلا بقدر ضئيل جدا .

***

وهذا آخر قد جن جنوناً فرعيا فى عقيدته بكفايته العقلية أو الفنية أو الإدارية ، فهو يرى أنه قطب أهل العلم وعميدهم وإمامهم ، رأيه مَقْطع الحق ، ومَفصِل الصواب ، قد استبطن دخائل العلم ، واستجلى غوامضه ، وخصه العلم بأسراره ، فلم يمنحها إلا له ، ولم يقفها إلا عليه ؛ وهو فى جيله نسيجُ وحدِه ، وإمام عصره ، لولاه لغاب نجم العلم وخبا ضوءه ، وهو وحده نصير الحق ، ورافع راية الصواب ، ولولاه لعاش الناس فى ظلام دامس ، وضلال مطبِق ، وويل للناس إذا هدأ صوته أو خرج روحه !

أو هو فى فنه أطرب من سجع الحمام ، وأحسن من الدر فى النظام ، ألفاظه العذب الزلال أو أرق ، ومعانيه السحر الحلال أو أدق . يستطيع بقلمه أن يقيم حكومة ويسقط حكومة ، ويرفع الوضيع ، ويخفض الرفيع ، ويثير الشعب ويوجهه حيث أراد . القادة تتملقه لإنها ترتكز على سن قلمه ، والحكومات

تهابه لأنها تخشى معرة لسانه ، تتناقل الألسنة فى الشرق والغرب كلماته ، ويحل العالم معضلاته !

أو هو فى إدارته سياسى حازم ، صادق العزم ، ثابت العقد ، إذا قصد أمراً عرف كيف يبتغى له أسبابه ، ويتوخى وجوه نجحه . الحكومات كلها فاشلة لأنها لم تستند عليه ، والشعب مغفل لأنه لم يوله قيادته ، ولا يصلح أمر أمته إلا إذا أسندت إليه رياسة وزارتها ؛ فهو وحده القدير على أن يضع برامج الإصلاح ، ويعرف كيف ينفذها ؛ وسوف تمر السنون تلو السنين وأحوال الشعب فى منتهى السوء حتى يلتفتوا إليه ويعوّلوا عليه ! .

ثم تراه — فيما عدا جنونه الفرعى أو تضخمه الجانبى — عاقلاً فيما يعرض له ، حكيما فيما يتصرف فيه ؛ فهو فى المسائل المالية ناجح دقيق ، وهو فى دراسته وقراءته وكتابته ذكى نبيه ، وهو فى شؤون أسرته خبير بصير — وعلى الجملة إذا أنت لم تمس ناحية جنونه أمنت له واطمأننت إليه وأحسنت تقديره . أما إن أنت قاربت موضع الخطر منه سمعت سخفاً يثير عجبك ، ويستخرج ضحكك ، وتقع فى حيرة من أمره ، فى جنونه وعقله ، وحكمته وسفهه ، وكياسته وحمقه ! .

والحق أن لا عجب فقد يصح القلب وتتضخم الكبد ، ويصح الرأس ويمرض القلب .

***

وهناك نوع من التضخم الكلى فى الشخصية كالتضخم الكلى فى الجسم ، فيرى صاحبها أنه مركز العالم وما عداه ليس إلا نقطاً على المحيط ، هو فى كل شىء أوحد عصره وفريد زمانه ، تميّز عن النظراء وترفّع عن الأشكال ، لا يقع النظر على مثله ، ولا يبلغ فى الوجود أحدٌ مبلغَه ، هو فى شكله أجمل مخلوق ، وهو فى عقله أكمل من فى الوجود ، وهو فى أخلاقه لا يبارَى ، وفى تصريفه للأمور

لا يُجارَى ، وفى إدارته وحزمه وعزمه ونبله وفضله أسبق الناس غير مُدافع ، وأفضلهم غير معارض ، ما فى الدنيا من محامد فهو مصدره والموحى به والمشير على الزعماء بالأخذ به ، والمتفضل عليهم بسلوك سبيله ، وما فى الدنيا من نقص فلأن الناس لم يأخذوا فيه برأيه ولم يُصغوا فيه إلى نصحه ، وما فى العالم من مشكلات ومعضلات فلأن العلماء لم يستفتوه فى حلها ولم يستعينوا به فى حل ألغازها — العالم مخلوق له ، والشمس والقمر والنجوم تنير من أجله ، والأرض تنبت خير ما عندها لمتعته ، والبحر يضحك لطلعته ، والرياض تزهر لسواد عينه ، وعلى الجملة فكل شىء منه وبه وله ، ولولا أثارة من تواضع لحَشر فنادى فقال أنا ربكم الأعلى ، ولطالب الناس بعبادته وفرض عليهم شعائر الخضوع لعظمته .

***

ثم قد يظهر مرض « تضخم الشخصية » فى بعض الأزمان فى شكل وبائى ، كما تظهر الحمى وبعض الأمراض الأخرى فى شكل وبائى أيضاً ، كالذى نرى فى كثير من شبابنا ؛ فهم فى المدارس الثانوية والعالية قد تضخمت شخصيتهم حتى « ضمرت » بجانبها شخصية المعلم والناظر والوزارة ؛ فهم الذين يقررون أن يدخلوا الدرس أو لا يدخلوا ، وأن توقع عليهم عقوبة على ذلك أو لا توقع ، وإذا دخلوا الدرس فهم الذين يقررون ما يدرس فيه وما لا يدرس ، وقد يقررون أن مزاجهم اللطيف ليس مستعدا لسماع درس فى القواعد السخيفة ، ولا التطبيقات المسئمة ، ولا المطالعة السمجة ، ولا البلاغة الهزيلة ؛ وإنما أمزجتهم مستعدة فقط لنوادر مضحكة و « نكت » لاذعة وقصص مسلية ، فإن شاء مدرسهم أن ينزل على حكمهم وإلا فالإضراب ، وله تمام الحرية فى الاختيار .

وكما نرى فى كثير من شباننا عند بدء توليهم عملا ، فتتضخم شخصيتهم حتى « تضمر » بجانبها شخصية رؤسائهم ؛ فهم لا بد أن يختاروا العمل الرئيسى بقطع

النظر عن المران والسن والأقدمية ، ولا بد أن يكون لهم مكتب رئيسى يتناسب وعملهم الرئيسى ، ولا بد أن يأمر المرءوس الشابُّ ويسمع الرئيس الشيخ .

وكان تضخم الشخصية عند شباب الجيل الحاضر « رد فعل » لضمور شخصيتهم فى الجيل الماضى ؛ فقد كانوا آلات تتحرك و « عساكر شطرنج » فى يد اللاعب .

وقد يكون سبب ذلك أن السياسيين استغلوا قوتهم وأشعلوا عواطفهم ، وأسمعوهم دائماً نغمة الإعجاب ونغمة الحقوق ، ولم يُسمعوهم أبداً نغمة العتاب ولا نغمة الواجبات ، وما زالوا ينفخون فيهم حتى تضخموا ، وأيًّا ما كان فليس المقام مقام تحليل للأسباب ، ولكن تسجيل للأعراض .

* * *

تضخم الشخصية مرض يُخل توازن النفس كما يخل تضخم عضو من أعضاء الجسم توازنه ، ويمنع صاحبه من رؤية الحقائق كما هى فى الخارج ، بل يراها كما يمليه تضخم شخصيته ، وكما يمليه جنونه بنفسه ، فما اتفق وهذا الجنون فخير وإلا فشر ؛ خير الناس فى نظره من سايره فى عقيدته وأشعل نار جنونه ، وخير الآراء عنده ما غذى شعوره بالعظمة ، وإحساسه بالنبوغ ، وأشهى الحديث إليه ما دار حول كماله هو ونقص غيره ، وعبقريته هو وسخف من عداه ! .

وصحة الشخصية تقضى كمال التوازن فلا يطغى جانب من شخصيته على جانب ، ولا تطغى شخصيته على شخصيات الناس ، وإذ ذاك يستطيع أن يقدر تقديراً صحيحاً من هو فى نفسه ، ومن هو فى بيئته ، ومن هو فى عالمه ؛ فلا تضخم ولا ضمور ، ولا تطفيف فى المكيال ولا بخس فى الميزان ، ثقة بالنفس فى غير مغالاة ، ووضعها موضعها من غير تحقير .

وكان الطبيعى أن ينظر إلى هؤلاء الذين تضخمت شخصيتهم نظرة عطف

ورحمة ، كنظرنا إلى من تضخم قلبه أو كبده أو تضخم كله ، ولـكنا نرى فى عالم تضخم الشخصيات مناظر متناقضة وأشكالاً متباينة ! .

نرى ممن أصيبوا بتضخم الشخصية من أصبحوا سخرية قومهم ، وملهاة صحبهم ، اتخذوا جنونهم دعابتهم ، وأحاديثهم عن أنفسهم هزؤهم وموضع عبثهم ؛ ولكن بجانب ذلك نرى بعض من أصيبوا بهذا المرض قد تفاعل تضخم شخصيتهم مع أحداث زمانهم ، فرفعهم هذا التفاعل إلى أرفع مكان فى قومهم ، وأحلهم محل القادة فيهم ، وموضع الأمر والنهى منهم ، وصاحب السيطرة والسلطان عليهم ، وأصبح من يهزأ بتضخم شخصيتهم خاضعاً تابعاً سميعاً مطيعاً ! .

وعلى الجملة نرى هـذا سخرية قومه لتضخم شخصيته ، وهـذا معبود قومه لتضخم شخصيته ، فهل هذا خبط عشواء كما قال زهير فى المنايا :

رأيت المنايا خبطَ عشواء من تُصِب　　تُمته ، ومن تخطئْ يُعمَّر فيهرم

أو هو قانون محكم ولـكنه معقد ، ومطَّرد ولـكنه غامض ؟

ذلك ما لا يعلمه إلا الله والراسخون فى العلم .

المسلمون سبب من أسباب
الحرب العالميـــة

للحرب أسباب عدة يستطيع أن يحصيها السياسى والاقتصادى ، ولـكنى أرى أن من أهم أسبابها المسلمين .

ذلك أنهم أصبحوا فى العصر الحديث « غنيمة أوربا » تتقسمهم وتتوزعهم ، ويُرضى بعضها بعضاً على حسابهم ، فإذا ثارت مشكلة بين دولة ودولة ، فقد يكون الحل الوحيد للخروج من هذا المأزق أن تطلق كل منهما يد الأخرى فى بلد من بلاد المسلمين تفعل فيه ما تشاء .

وكان لإنجلترا وفرنسا أكبر نصيب من هذه الغنيمة ، فكانت مصر والسودان والهند — مثلا — من حظ إنجلترا ، وتونس والجزائر ومراكش من حظ فرنسا .

ولما وضعت الحرب العظمى أوزارها ، كان من أعمال مؤتمر فرساى توزيع الغنيمة أيضاً على أوربا ، فأخذ الإنجليز فلسطين والعراق ، واستولى الفرنسيون على ساحل سوريا

هذا عدا ما فى أيدى إنجلترا وفرنسا من ممالك إسلامية صغيرة يطول عدها ، وما فى أيديهما من دول إسلامية أخرى تستقل ظاهراً وتأتمر بأمرها باطناً .

نظرت الدول الكبرى الأخرى كألمانيا وإيطاليا ، فرأت أن هذه الغنيمة لم توزع توزيعاً عادلا ، فليس لإيطاليا إلا طرابلس وبرقة ، وليس لألمانيا شىء يذكر ، وليس لأسبانيا إلا سبتة والمنطقة الخليفيـة فى مراكش ؛ فحزّ ذلك

فى نفوس من لم ينالوا حظا كبيراً من الغنيمة ، وثاروا يطلبون المزيد .

كان هذا كله مصدر قلق واضطراب من ناحيتين ، من ناحية المسلمين أنفسهم ، ومن ناحية دول أوربا بعضها و بعض .

فبعد الحرب الأخيرة شعر المسلمون بأنهم غنيمة لغيرهم ، فتحركوا يطلبون أن يكونوا لأنفسهم ، فثارت مصر ، وثار العراق ، وثارت سوريا وفلسطين ، وثارت تونس والمغرب الأقصى ، وبذلت إنجلترا وفرنسا فى هذه الثورات مجهوداً كبيراً فى إخضاع الثورات أحياناً ، والتسليم ببعض حقوق الثائرين أحياناً ، على أن الرواية لم تتم فصولا .

ومن ناحية أوربا قلقت إيطاليا وألمانيا وأسبانيا لأنها لم تربح ما ربحه غيرها ، وزاد فى قلقها واضطرابها أنها أنفقت على الحرب ما لا يحصى كثرة ، فكان ما أنفقته فى الحروب يقابله نقص فى سعادة الأهلين ورخائهم ، ورأوا أن غنائم الإنجليز والفرنسيين من المسلمين ونحوهم تسد شيئاً غير قليل من نفقاتهم ، أما هم فليس لهم موارد كموارد فرنسا و إنجلترا تسد النقص ، وتغطى العجز ، فثاروا وقلقوا واضطربوا ونادوا بألا مَعْدَى من أحد أمرين : إما توزيع الغنائم توزيعاً عادلا بحسب القوة و بحسب السكان و بحسب الكفاية ، و إما الحرب لتحقيق هذا المطلب .

لذلك كان المسلمون من حيث هم غنيمة سبباً من أسباب الحرب .

تجلت هذه الحقيقة فى سلسلة الحروب فى القرن الماضى ، وفيما عقد بعدها من معاهدات ، وتجلت فى معاهدة فرساى بعد الحرب العظمى ، إذ كان يشتمل جزء من موادها على توزيع الغنائم .

***

فعلى الذين ينشدون السلام و يبحثون عن وسائله أن يضعوا هذا فى حسابهم .

إنى أرى أن خير وسيلة لدفع هذا الخطر من هذه الوجهة أمران : أحدهما فى يد المسلمين ، والآخر فى يد الأوربيين .

أما الذى فى يد المسلمين فأن يفهموا أنهم الآن غنيمة ، خيرهم لغيرهم لا لأنفسهم ، وأنهم مزرعة ليس لهم فيها إلا العمل ، أما الثمرة فلغيرهم أطايبها ولهم فتاتها ، وأنهم بهذا الوضع كانوا شرًّا على أنفسهم وشرًّا على العالم ، شرًّا على أنفسهم فليسوا يعيشون عيشة سعيدة ، ولا شبه سعيدة ، وشرًّا على العالم لأنهم كانوا سبباً من أسباب حروبه الطاحنة ، إذ لو لم تكن غنيمة فيم القتال ؟ وإذا لم يكن شىء متنازع عليه فلم النزاع ؟

لا بد أن يفهموا أن الخير لهم وللعالم أن يكونوا ملّاكا لا مزارعين ، وأن يحصنوا ملكهم بكل ما يحصن به الممالك الأوربى أرضه .

إنه يحصنها بالقوة فى كل شكل من أشكالها ، يحصنها بقوة السلاح و بقوة العلم وبقوة الخُلُق ، يحصنها باحتقار الشهوات الفردية فى سبيل المصلحة العامة ، يحصنها بالتشريع العادل يضمن حقوق الأفراد وحقوق الأمة ، فلا بد له أن يسير على هذا النهج .

إن العالم — الآن — لا يحتمل مدنيتين مختلفتى الشكل مختلفتى العنصر ، إنه لا يحتمل مدنية قوامها القوة و بجانبها مدنيـة أخرى ترى أن خير أخلاقها التواضع ، وخير آدابها القناعة ، وخير تعاليمها الاستسلام ، إن ذلك إن حدث ازدردت الأولى الثانية وعدتها لقمة سائغة وأكلة هنيئة ، ولم تسمح لها بالوجود مستقلة ، بل نشرت عليها ظلها ، ولفتها بنقابها ، لأن الشمس لا تريد أن تسطع إلا عليها .

لا خيار للمسلمين فى نوع المدنيـة ، فإن ذلك قد كان قبل أن يصير العالم وحدة تقطعه الموجة الـكهربائية فى لحظة ، ويتصل بعضه ببعض فى لمحة ؛ فخير لهم ألا يضيعوا الوقت فى التردد ، وخير لهم أن يرسموا طريق السير فى سرعة ، ثم

يسيروا على هدى . وليس طريق السير إلا الطريق الذى سار فيه الأوربيون ، فإن خالفوه فى شىء فهو تعلمهم من غلطات من قبلهم وتجنب زللهم . وليفهموا جيداً أنهم جزء من العالم الخاضع لقوانين واحدة ومدنية واحدة ، لا وحدة مستقلة يرسمون لهم ما يشاءون ، وأن العالم السريع فى سيره المتدفق فى تيـاره لا يحتمل وقفتهم ، ولا يعبأ بترددهم .

لا أريد من ذلك ألا تكون لهم شخصية ، ولـكن شخصية كشخصية الإنجليز بجانب الفرنسيين ، أو اليابان بجانب الأمريكيين ، فهذه الشخصيات على اختلاف أنواعها تخضع لمدنية واحدة ذات عناصر أساسية متحدة .

لا أملَ لهم — وقد استضعفوا جميعاً — إلا أن يتقووا جميعاً ، ثم تكون بينهم روابط قوية كالروابط التى بين الأمم الأوربيـة المتحالفة ، وقد تجلى بدء هذه الحركة فى مثل تناصر الدول العربية فى الدفاع عن فلسطين ، فليكن هذا بدء خطة ترمى إلى التعاون والتنـاصر تزيدها الأيام قوة ، والأحداث عظمة ، والنوائب اعتصاماً .

أما الذى فى يد الأوربيين فهو أنهم جروا فى سياستهم للعالم الإسلامى أيضاً على أنه غنيمة ، وعلى هذا الأساس وضعوا كل خططهم الاقتصادية والسياسية والعلمية ؛ فأخصبوا الأرض وأجدبوا العقول ، لأن تحسين الأرض لهم وتحسين العقول عليهم ، وأضعفوا القوة الحربية لهـذه الأمم خوفاً من أن تقوم يوماً ما فى وجوههم ، وأضعفوا حركة التعليم لأن المثقفين ثقافة عالية شر عليهم ، وأفسدوهم سياسيا فضربوا بعضهم ببعض حتى لا يلتفتوا إليهم ، ومنحوا خير المناصب لمن رضى لنفسه أن يكون إمّعة ، ونحو ذلك من وجوه لا عداد لها ؛ فكانت نتيجة ذلك ضعف الغنيمة ضعفاً قاسياً .

فهل كان هذا النظر فى مصلحة أحد ؟ أظن لا . وأظن أنه لم يكن فى مصلحة

المسلمين ولا فى مصلحة الأوربيين أنفسهم ؛ فأما أنه ليس من مصلحة المسلمين فأمر بديهى لا يحتاج إلى بيان ، وأما أنه ليس فى مصلحة أوربا فأظن أن ما يكسبونه من الغنائم لا يوازى ما يضيعونه فى الحروب عليهم . إنهم كأصحاب القضايا الذين ينفقون للمحامين والمحاكم أضعاف ما يربحون إذا حكم لهم . ما قيمة استعمارهم إذا كانت سلسلة حياتهم كساقية جحا تملأ من البحر وتصب فى البحر ؟ بل ما قيمة استعمارهم إذا كان تاريخ حياتهم جمعاً وادخاراً من الغنائم والأنفس والأموال ، ثم القذف بها فى أتون كبير يأتى عليها جميعاً ؟ وهى إذا انتهت من تمثيل الرواية بدأت تمثلها من جديد .

بل ما قيمة ملايين من الجنيهات تأخذها من الغنائم كل عام لتنفقها أو أكثر منها للدفاع عنها ؟ أليس سفهاً أن ينفق المالى للمحافظة على رأس المال أكثر من رأس المال ؟

أين غاب عن عقلائهم ومفكريهم وفلاسفتهم أن هناك ضروباً من الانتفاع غير ضروب الاستغلال وإضعاف المستغل ؟ هنالك ضرب خير من الاستغلال وهو التعاون ، هو ألا يعدوا العالم الإسلامى غنيمة ، ولكن يعدونه زميلاً أو أخاً صغيراً ، يقوونه فى ماله ويقوونه فى عقله ويقوونه فى سياسته ، فإذا هو عون لهم ، وإذا هو مصدر منفعة ، وإذا هو عميل عاقل خير لهم من عبد جاهل .

إن هذا النوع من السياسة التى أنشدها يزيل سبباً كبيراً من أسباب ما بين الدول الأوربية من إحن وأحقاد تستنزف دماءهم وأموالهم ، وتؤخر مدنيتهم .

قد كان يكفى داعياً لأوربا أن تنظر هذا النظر السليم داعى الإنسانية ، وأن العالم بعد أن صار وحدة لا يحق لبعض أعضائه أن يعيش على حساب عضو آخر ، ولا أن يقوى هو على حساب إضعاف عضو آخر .

فإذا لم يكن كافياً فليذع إليه ما ترى أوربا فيه نفسها مما تجر عليها « نظرية الغنيمة » من أسوإ أثر وأوخم عاقبة .

وأظن أن قد بدأ الساسة الأوربيون هـذا أخيراً ، بدليل ما صنع الإنجليز فى مصر والعراق وإدراكهم خطأهم السابق فى سياسة الإضعاف . فهل يخطون ويخطو غيرهم من الأمم المنتفعة بالغنيمة خطوات أخرى أوسع وأرق ؟ لا بد لتحقيق ذلك من تفاعل بين قوة الشرق وعقلية الغرب .

تراجم الرجال فى الأدب العربى

تشغل تراجم الرجال فى آداب اللغة العربية أبْيَن مكان ، وتستغرق أكبر حيز ؛ بل لا نبالغ إذا قلنا إن ما نسميه اليوم « أدب اللغة » كان يدور حول تراجم الرجال من أدباء وشعراء وعلماء ، وذكر شىء من أجود ما قالوا ؛ فأقدم كتب الأدب كالأغانى إنما بنى على الأصوات المختارة ، وتدرّج منها إلى ذكر الأدباء وترجمة حياتهم ، وأهم ما عرض لهم .

وأكثر الذى نعرفه من ضروب التأليف القديم فى الأدب نوعان : نوع أسس على تراجم الرجال كالأغانى ومعجم الأدباء وطبقات الشعراء ويتيمة الدهر . ونوع أسس على المختار من المنظوم والمنثور ، كالذى ذهب إليه الجاحظ فى البيان والتبيين ، والكامل للمبرد ، والعقد الفريد لابن عبد ربه . فأما نظرة عامة فى الأدب عامة ، أو فروع من فروع الأدب — كالشعر والخطابة — وتحليله تحليلاً عميقاً مفصلاً ، فذلك ضرب لا نعلم أن الأقدمين وصلوا إليه . والحق أنهم تركوا لنا شيئاً غُفْلا يصح أن يستفاد منه بمهارة الصنعة ، وإجادة الفن ، ولم يخلفوا لنا شيئاً ناضجاً يحسن الوقوف عنده .

والسبب فى أن الأقدمين سلكوا هذين الطريقين اللذين أشرنا إليهما أنهما أسهل الطرق على المؤلف ؛ فهو فى ترجمة الرجل يذكر تاريخ ولادته ، وبعض حكايات رويت ، وحوادث عرضت ، ثم تاريخ وفاته ، وبهذا ينتهى الفصل . وفى الطريقة الثانية يختار ما نثر فى الكتب من النوع الأول وأمثالها ، ثم يربط بينها برباط قوى أو ضعيف ، فتتكون من ذلك مجموعة يصوغ لها اسماً كالبيان والتبيين ، والكامل ، والأمالى ؛ وكلا الضربين نوع من التأليف الساذج ،

وأول درجة فى سلم التأليف ؛ ولم يصل البحث فى أوربا إلى هذا النوع من التأليف الذى يحلل ويستقصى ويلم بالنظرة العامة تستغرق الموضوع من جميع جهاته إلا فى العصور الحديثة .

وفى هذا العيب نفسه وقعت كتب التاريخ العربية ، فهى إما دائرة حول السنين ، يُذكَر فى كل سنة ما حدث ، أو حول الملوك وولاتهم يذكرون ما حدث لهم وفى أيامهم ؛ فأما النظرة العامة إلى الموضوع ، والإحاطة به ، وتحليله وتعليله ، فدرجة لم يصل إليها مؤرخونا .

ولنعد الآن إلى ما نحن بصدده من تراجم الرجال ؛ فالذى يظهر لنا أن الباعث الأول على ترجمة الرجال — فى الإسلام — كان باعثاً دينيًا ، وذلك من وجهين : (الأول) أن المسلمين فى أثناء جمعهم للحديث رأوا منه قسماً كبيراً يتعلق بحياة النبى (ص) وغزواته ، وحوادث تتعلق بكبار الصحابة كأبى بكر وعمر وحروبهما وفتوحاتهما ، فكان ذلك أساساً لوضع كتب السير ؛ وقد روَوا أن أول من ألف فى سيرة رسول الله (ص) عروة بن الزبير بن العوام (٢٣ — ٩٤ هـ) ، وأبان بن عثمان بن عفان (٢٢ — ١٠٥ هـ) ، فكان عملهما فى وضع سيرة الرسول أساساً لوضع سيرة غيره من كبار الصحابة ، ثم تلاحق الأمر واتسع . (الثانى) أن علماء المسلمين لما هالتهم كثرة ما وضع كذباً على رسول الله (ص) من الأحاديث لجئوا إلى وسائل يعرفون بها صحيح الحديث من ضعيفه ، وكان من هذه الوسائل تشريح رجال الحديث من الصحابة والتابعين ، ونقدهم وتعديلهم وتجريحهم ، فتكوَّن من ذلك مجموعات من تراجم الرجال وسيرهم وشىء مما حدث لهم ، ليستفاد منه صدقهم أو كذبهم ، ثم جاء رجال الأدب فقلدوا المحدِّثين وحذوا حذوهم ، وبنوا أدبهم على هذه التراجم التى أحكموا تقليدها .

ودليلنا على أن الأدباء قلدوا المحدِّثين ، أن المحدِّثين كانوا أسبق إلى هذا

العمل تاريخاً ؛ ففى العهد الأموى نرى عروة وأباناً يكتبان سيرة النبى ، ونرى أحاديث قيلت فى جرح الرجال وتعديلهم ، ونرى فى صدر الدولة العباسية شعبة ابن الحجاج ويحيى بن سعيد القَطّان يؤلفان الكتب فى نقد المحدّثين و بيان صادقهم من كاذبهم ؛ مع أنّا لا نعلم فى هذا العصر كتاباً أدبيًا يصح أن يقال إن موضوعه تراجم رجال الأدب .

بل نرى من أقوى الأدلة على ذلك أن الصِّبغة التى اصطبغت بها كتب التراجم الأدبية صبغة محدّثين أكثر منها صبغة أدباء ، خصوصاً ما ألف منها أيام سطوة المحدّثين ككتاب الأغانى ، فإنك ترى فيه الإسناد على نمط إسناد المحدّثين ، والتعبير فى كثير من الأحيان تعبير حديث . وذلك كقوله : (أخبرنى الحسين بن يحيى عن حماد عن أبيه عن أبى عبيدة قال بلغنى أن هذا البيت (لايذهب العرف بين الله والناس) فى التوراة . . . . قال إسحق : وذكر عبد الله بن مروان عن أيوب بن عثمان الدمشقى عن عثمان بن عائشة قال سمع « كعب الحبر » رجلاً ينشد بيت الحطيئة :

من يفعل الخير لا يعدم جوازيه لا يذهب العرف بين الله والناس

فقال : والذى نفسى بيده إن هذا البيت لمكتوب فى التوراة . قال إسحق قال العمرى : والذى صح عندنا فى التوراة « لا يذهب العرف بين الله والعباد »)[١] .

فلعلك ترى معى أنك — وأنت تقرأ هذا — كأنك تقرأ قطعة من أحاديث البخارى .

ومن أكبر المظاهر التى تأثرت بها كتب تراجم الأدباء بكتب المحدّثين احتجاب شخصية المؤلف . تقرأ فى الأغانى فيغمرك بروايات عن الرجل وأحاديثه ووقائعه وأدبه وشعره ، ولكن قلّ أن تظفر منه بكلام له ، أو نقد لشعره ، أو تعليق

---

(١) الأغانى ٥١ ج ٢ .

على حادثة له ، أو نحو ذلك ، ويظهر لى أن هذا أيضاً أثر من آثار نمط المحدّثين ، فقد حصروا أنفسهم فى دائرة النقل ، نقل ماحدثوا به ، ونقل مابلغهم عن الرجل ، وذلك إن جاز فى الحديث — ومجال القول ضيق ، لأن المحدث لا يهمه من المترجم له إلا ما يدل على صدقه أو كذبه ، وتجريحه أو عدالته — فما كان يجوز فى الأدب ، ومجال القول ذو سعة ؛ وشخصية الأديب فى النقد والتحليل ، وبيان المحاسن والمساوى ، وموضع الحسن أو القبح ، لها القيمة الكبرى فى الفن الأدبى . ولكن هو التقليد للمحدثين نزع بهم هذا المنزع . وليس هذا مقصوراً على كتب التراجم ، بل هو — أيضاً — فى أصول كتب الأدب المؤلفة فى ذلك العصر ؛ فإذا قرأت فى البيان والتبيين أو عيون الأخبار لابن قتيبة لم تجد للمؤلف شخصية بارزة ، مع قدرتهما الفائقة وما لهما من بسطة فى العلم والأدب . ولو أحصيت ما للجاحظ فى البيان والتبيين لم تجد له ربع الكتاب ولا خمسه ، وإنما له الاختيار والجمع — شأن المحدّثين فى الحديث . وكذلك الشأن فى عيون الأخبار والأغانى وغيرهما .

ولعل فى هذا ما يكفى لإثبات أن الأدباء كانوا مقلدين للمحدّثين فى وضعهم للتراجم .

على كل حال كان لنا تراجم للرجال نحوا فيها مناحى مختلفة ؛ فنهم من ترجم لكل شخص ممتاز بأى نوع من أنواع المميزات ، كما فعل ابن خلّكان فى « وفيات الأعيان » ، فقد ترجم لكل عين وكما يقول هو « لأولى النباهة » ، ولم يستثن إلا الصحابة والتابعين والخلفاء ؛ فترجم للمالى والفقيه والمتصوف والشاعر والأديب والنحوى واللغوى والوالى والمشعوذ . ومنهم من اقتصر على طائفة خاصة كما فعل ياقوت فى معجم الأدباء ، فقد ترجم فيه للأدباء خاصة ، وكما فعل ابن قتيبة وابن سلام فى « طبقات الشعراء » ، وكما فعل السيوطى فى « بغية الوعاة فى تراجم

النحاة » . ومنهم من اقتصر على تراجم الأدباء فى عصر خاص كما فعل الثعالبى فى كتابه « يتيمة الدهر فى شعراء أهل العصر » الخ .

والآن نعرض لمسألة هامة وهى : هل وفَى هؤلاء المترجمون بالغرض الذى قصدوا إليه ؟

قبل ذلك يجب أن نبحث متى تكون ترجمة الحياة جيدة وافية بالغرض ؟

المترجم « واصف » لمن يترجمه ، والواصف ينبغى أن يُخرج بقلمه ولغته ما يخرجه الرسام بريشته ، بل للقلم مجال أوسع من الريشة ، فالقلم يستطيع أن يتغلغل إلى المعنويات من أخلاق وعقلية ومشاعر وصفات نفسية ، على حين أن الريشة لا تستطيع أن تصل إلى شىء كثير من ذلك ؛ نعم إن القلم يلاقى من الصعوبة ما لا تجده الريشة ، فإن الريشة مرنة مطواع أمامها ماديات ذات مقاييس خاصة ونِسَب معينة يسهل على المصور أن يراعيها ، ولكن الكاتب يعانى بقلمه فى إخراج الصورة كاملة منسقة أكبر العناء . يجب أن يكون الواصف من دقة الحس ويقظة العقل وحسن التقدير لما يهم وما لا يهم ولطف الذوق والقدرة على الإبانة بحيث يستطيع أن يصف لك الشخص الموصوف كأنك تراه ، بل أكثر من أن تراه ؛ فهو يريك من المعنويات ما لا يرى ، تريك الصورةُ الشىء دفعة واحدة ، فتستطيع أن ترى النسب بين أجزائها ، وتدرك الجمال التركيبى كما تدرك الجمال الإفرادى ، والكاتب الماهر يسلسل بين أقواله ويجمّلها بالمنطق الصحيح والأسلوب الأخّاذ ، فيسرق منك نفسك ، فلا تنتبه إلا وقد وعيت صورة الموصوف كاملة . يرى الواصف الشخص فيدرسه ويخبُره ثم يدرسه ويخبره ويجمع حوله كل ما يهمه ، ويمحصه ، حتى إذا اجتمعت له فى ذهنه صورة كاملة متناسقة تؤلف وحدة استطاع أن يبرزها بقلمه فيشرك غيره فى رؤية ما يرى . فإن كان الواصف لم يدرك أصل الموصوف جمع أخباره وحوادثه وقصصه وامتحنها

بكل ما اخترع « البحث » من وسائل للامتحان ، ثم كان شأنه معها شأن سابقها .

وهناك نوعان من التراجم يصح أن نسميهما تراجم خارجية وتراجم ذاتية ، ونعنى بالأولى تراجم يقتصر فيها المترجم على وصف المترجم له بذكر الحقائق الخارجية والوقائع التى حدثت للمترجَم من غير أن يشوبها المترجِم بشىء من أفكاره ومشاعره . والترجمة من هذا النوع ليست إلا ثَبتا للحقائق ، وهى بالمؤرخ أشبه ، أما النوع الثانى فتراجم يذكر فيها المترجِم ما وصل إليه من حقائق ويحللها ، ثم يتبعها برأيه فى المترجَم إما دفاعا عنه أو هجوماً عليه ، إما نقداً وذما وإما مدحاً وتقريظا ، إما استحسانا للمأثور من أقواله وآرائه أو استهجانا ، وهذا النوع بالأديب أليق .

وليس يترجَم من الرجال إلا من كانت له ناحية من نواحى النبوغ كالسياسة أو الأدب أو اللغة أو النحو أو الخلق أو العلم ، فواجب المترجم أن يدلنا على موضع نبوغ من يترجمه ويعطيه أكبر عنايتـه ، ويجعل القارئ يكاد يلمسه بيده ، فإن هو قصر فى ذلك فقد قصر فى أهم ركن للترجمة .

إذا نحن نظرنا — فى ضوء هذه القواعد التى ذكرناها — إلى كتب التراجم العربية وجدناها على اختلاف أنواعها معيبة من جملة وجوه ، وهى فى هذه العيوب تختلف شدة وضعفاً .

فأظهر عيب فيها أنها لم تسلك طريق البحث العلمى ؛ فقد وضعت فيها الأساطير والخرافات بجانب الحقائق من غير تمحيص ؛ وأكثر ما يكون ذلك فى تراجم رجال الدين والتصرف ، فعندهم يفقد المترجِم ملـكة النقد ، ويسلم بكل ما حكى له .

أضف إلى ذلك أن المترجم يكثر من ذكر الأقوال المختلفة ، ويتركها على عواهنها من غير أن يبذل جهداً فى تحقيقها ، والخروج منها بنتيجة يرضاها ؛ فتقرأ مثلا فى ابن خلكان قولًا يقول إن أبا تمام الشاعر المشهور من قبيلة طيئ ، وقولًا

يقول إن أباه كان نصرانيا من أهل جاسم (قرية من قرى دمشق) يقال لها تدوس العطار فجعلوه أوساً ، وقد لفقت له نسبة إلى طيئ ، ولكن أى القولين أصح ؟ وماذا بذل المؤلف من الجهد فى تحقيق هذه المسألة ؟ لا شىء من ذلك ، ولكن أقوال يرصف بعضها بجانب بعض من غير تمحيص ؛ وترى فى كتاب « الأغانى » من هذا الضرب الشىء الكثير . وقل مثل ذلك فى الوقائع التاريخية ، فهى تقال وتذكر فيها الروايات المختلفة ، ثم يقف قلم المؤلف ؛ مع أن المعقول أن جمع هذه الروايات المختلفة ليس إلا مقدمة لتمحيصها والخروج منها بنتيجة تقرّب إلى الصواب .

الحق أن النقد عند كتّاب التراجم كان ضعيفاً ، ولم يمهروا فى امتحان الحقائق وتخليص جيدها من رديئها . نعم إنا نعثر فى « وفيات الأعيان » لابن خلكان و « معجم الأدباء » لياقوت و « الأغانى » على نتف صغيرة من النقد ، تدل على دقة ملاحظة وجودة نظر ، وربما كان أفضلهم فى ذلك ابن خلكان ، ولكنها مواقف نادرة قليلة لا يصح أن يقال إنها النظام المتبع فى التأليف .

كذلك من أوضح العيوب البارزة فى هذه الكتب ، أن المؤلفين لم يستطيعوا أن يقوّموا موضع نبوغ المترجَم له فيخصوه بالشرح الوافى . قد كنت أفهم أن كتابا « كبغية الوعاة فى أخبار النحاة » يعنى فى تراجمه بهذه الناحية النحوية ، فيبين مكانة المترجَم فى النحو ، وموضع نبوغه ، وأى شىء جدد فى النحو حتى استحق أن يترجم ، ولكن قلّ أن أعثر فيه على شىء من ذلك ؛ ومثل ذلك يقال فى طبقات المحدّثين والفقهاء والأدباء !

أغرب ما فى هذا النوع عناية المترجمين بالشعر لغير الأديب والشاعر ، فترى كثيراً منهم — كابن خلكان — يبحثون للمترجَم عن بيتين أو أبيات من الشعر ينسبها إليه ، ويذكرها بجانبه ، ويجعل لها مكاناً ممتازاً فى ترجمته . ولو كان هذا

الذى يترجم له شاعراً أو أديباً لحمدنا للمترجِم هذه العناية ؛ أما والمترجَم مالى أو مشرع أو محدث أو اجتماعى ، فما قيمة بيتين أو أبيات قالها فى حياته ؟ أليس سخيفاً أن تقرأ فى ابن خلكان ترجمة الإمام الشافعى فلا ترى فيها شرحا لموضع نبوغ الشافعى ومقدرته فى التشريع ، وبماذا يمتاز عن بقية الأئمة ، وأين مكان مذهبه من الرأى والحديث ؟ ثم تراه يعنى عناية فائقة بأبيات ضعيفة يرويها له ، وهذا هو بعينه ما فعله فى ابن جرير الطبرى المؤرخ ، وطلائع ابن رزِّيك السياسى والفارابى الفيلسوف .

إنما يجب أن يذكر للشاعر شعره ، وللفقيه فقهه ، وللسياسى سياسته ، وللفيلسوف فلسفته ، ويجب أن تكون هذه الناحية هى أهم ناحية يعنى بها المترجم .

***

هذا وقد عنى المحدَثون بوضع تراجم مفردة مستقصية ، تحلل فيها الأشخاص والحوادث تحليلا دقيقاً ، ويعتمد فيها على النمط الحديث فى البحث ، ويستفاد فيها مما وصل إليه علم النفس من استكشاف وبما وضع علماء الأدب المحدَثون من أنماط . ونرجو أن يتتابع التأليف على هذا النمط ، ويتمشى فى الرقى مع الزمن ، حتى تكون لنا مجموعة قيمة من تراجم المشهورين فى العصر الإسلامى من أدباء وفلاسفة وشعراء وغيرهم ، تقرأ الترجمة فتشعر كأن المؤلف أحيا المترجَم وبعثه من جديد ، وتشعر وقد قرأت الترجمة كأنك لقيت المترجَم وعاشرته وحدثته وقرأت كتبه واستقصيت دخيلة نفسه .

الهجـــــرة

فى يوم من أيام صفر من العام الذى سمى بعدُ « عام الهجرة » ، بُثَّت الدعوة فى عظماء قريش أن يجتمعوا فى « البرلمان » لأمر خطير .

نعم ، وكان لقريش برلمان ، ولـكن لم يكونوا يسمونه هذا الاسم الأجنبى الذى يقتبسونه من غيرهم ، إنما كانوا يسمونه اسماً ظريفاً من وضعهم ، هو « دار الندوة » — يجتمعون فيه كلما حَزَبَهم أمر ، أو جَدَّ لهم حادث خطير .

ولم يكن لبرلمانهم دستور مكتوب ، إنما هو دستور متعارف ، خلقته الأوضاع والتقاليد ، ولم يكن له قانون انتخاب ، إنما يتهيأ للعضوية فيـه من أثبت بفعاله عظمته فى قبيلته ، وكل ما اشـترطوا بعدُ أن يكون العضو من قريش ، وأن يبلغ الأربعين .

وكان مكان البرلـمان داراً لقُصَىّ بن كلاب ، توارثها أعقابه من بعده ، وخصصوها لتشاورهم والتحدث فى عظائم أمورهم ، « وكانوا لا يقضون أمراً إلا فيها » ، وكانت تقع فى الجانب الشمالى من الـكعبة ، وهى الآن جزء من المسجد الحرام .

***

تم اجتماع الأعضاء فى الموعد المحدد ، وتمثلت فيه قبائل قريش برجالاتها وعظمائها ؛ هذان عُتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة يمثلان عبد شمس ؛ وهـذا أبو سفيان يمثل أُميّة ؛ وهؤلاء طعيمة بن عَدى وجُبَير بن مُطْعِم والحارث بن عامر يمثلون عبد مناف ؛ وهذا النضر بن الحارث بن كَلَدة يمثل عبد الدار ؛ وهذا أبو البَخْتَرى وزَمْعة بن الأسود وحَكيم بن حِزام يمثلون بنى أسد بن عبد العُزّى ،

وهذا أبو الحكم بن هشام يمثل بنى مخزوم ؛ إلى كثير غيرهم يمثلون القبائل القرشية كلها .

ساد السكون ، وظهر على وجوههم الجد ؛ ما الأمر الذى دُعوا إليه ؟ لقد عرفوه مجملًا ، والآن يريدون أن يعرفوه مفصلًا ، ويريدون أن يقضوا فيه قضاء حازماً حاسماً .

***

الأمر أمر محمد وصحبه ... لقد سمعنا دعوته أول أمرها فاستخففنا به وبها ، وقلنا « مجنون » أو شاعر نتربص به ريب المنون ، وظننا أن دعوته تذهب مع الريح ، فليدْع ما يدعو فليس له سميع ! وقد بدأ دعوته مسالماً ، يدعو فى رفق ولطف ويقول : « اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ ، خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ، اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ، الَّذِى عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ، عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ » ، فتركناه وشأنه ؛ ولكنه خطا بعدُ خطوة أجرأ وأفظع ، فكان يدعو سرًّا فدعا جهراً ، وسب آلهتنا ، وسفَّهَ أحلامنا ، وضلل آباءنا ؛ فطلبنا من قومه أن يكفوه عنا ، أو يخلوا بينه وبيننا ، فلم يكن هذا ولا ذاك ؛ فاتجهنا اتجاهاً آخر ، وهو أن نتركه ونعذب من اتبعه ، حتى يكون فى تعذيبهم نكال لهم وعظة لغيرهم ؛ فأوعزنا إلى كل قبيلة أن تَثِب على من فيها من المسلمين ، تعذبهم وتفتنهم عن دينهم ، فنفذت ذلك بما استطاعت من قوة ، فحبستهم وعذبتهم بالضرب والجوع والعطش ، وبرمضاء مكة إذا اشتد الحر ؛ هذا إن كان ضعيفاً — وإن كان شريفاً سفهنا حلْمه ، وفَيَّلنا رأيه ، ووضعنا من شرفه ، وإن كان تاجراً كسَّدنا تجارته ، وأهلكنا ماله ؛ فما أغنى كل ذلك شيئاً ، فالقليل من ارتد ، والكثير من أصر على دينه ، وفضّل الموت على الرجوع عنه ؛ ثم رجعنا إلى محمد نرغبه فى العدول عن دعوته وقلنا : إن كنت جئت بهـذا الحديث تطلب به مالًا جمعنا لك من

أموالنا حتى تكون أكثرنا مالاً ، وإن كنت إنما تطلب به الشرف فينا فنحن نسوّدك علينا ، وإن كنت تريد به مُلكا ملكناك علينا ، وإن كان هذا الذى يأتيك رَئِيًا طلبنا الطب لك حتى نبرئك منه . فقال : « ما بى ما تقولون ! ولكن الله بعثنى إليكم رسولًا ، وأمرنى أن أكون لكم بشيراً ونذيراً » .

رجعنا إلى تعذيب أصحابه ، فهاجروا إلى الحبشة ، ونشروا ذكر محمد فى الآفاق . وفى كل موسم حج ، تأتى قبائل العرب من كل فج ، فيتسامعون بمحمد ودعوته ، ويعرض هو نفسه على القبائل ليدخلوا فى دينه ، ويحموا دعوته ، وترجع كل قبيلة تتحدث بما رأت وما سمعت .

وأخيراً تمت الكارثة ، فقد لَبَّى دعوته الأوس والخزرج من أهل يثرب ، وأتى نقباؤهم فبايعوه فى هذا الموسم على أن يمنعوه مما يمنعون منه نساءهم وأبناءهم ، وهؤلاء أصحابه يخرجون إلى يثرب أسراباً أسراباً ، وعما قليل يتبعهم محمد .

وماذا تكون العاقبة ؟

سيتآخى من أسلم من قريش ومن أسلم من الأوس والخزرج ، وسيكونون قوة عظمى تحاربنا وتجالدنا ، والأوس والخزرج أبناء الحروب وأهل السلاح ، فإذا انضم إليهم أبناء قريش ممن أسلم مع محمد فالويل لنا ؛ سيمنعون تجارتنا ولا عيش لنا إلا بالتجارة ، وسيبثون معه الدعوة إلى القبائل الأخرى ، فيدخلون فى دينه ، ثم لا يكون لنا إلا الخزى والعار والفقر ، وهاهو ذا محمد اليوم بين أظهركم ، وغداً قوة فى يد أعدائكم .

هذا هو الموقف ، وهذه هى مسألة اليوم .

فما الرأى ؟

وقف أبو البَخْترى بن هشام فقال : « احبسوه فى الحديد ، وأغلقوا عليه باباً ،

ثم تربصوا به ما أصاب أشباهه من الشعراء الذين قبله ، زهير والنابغة ومن مضى منهم ، حتى يصيبه ما أصابهم » .

عورض هذا الرأى وردّ عليه رادّ فقال : لئن حبستموه ليخرجن أمره من وراء الباب الذى أغلقتم دونه إلى أصحابه ، فلأوشكوا أن يثبوا عليكم فينزعوه من أيديكم ، ثم يكاثروكم به حتى يغلبوكم على أمركم ، ما هذا لكم برأى !

واقتنع المجلس بفساد هذا الحل .

فوقف أبو الأسود ربيعة بن عامر وقال :

الرأى عندى أن نخرجه من بين أظهرنا فننفيه من بلادنا ، فإذا خرج عنا فوالله ما ندرى أين ذهب ولا حيث وقع ، إذا غاب عنا وفرغنا منه أصلحنا أمرنا والفتنا كما كانت .

قوبل هذا الرأى باستخفاف لاذع لظهور سخفه ، ورجم أحد الحاضرين قائله فرد عليه : « ألم تروا حسن حديثه ، وحلاوة منطقه ، وغلبته على قلوب الرجال بما يأتى به ؟ والله لو فعلتم ذلك ما أمنتم أن يَحُل على حى من العرب فيغلب عليهم بذلك من قوله وحديثه حتى يتابعوه عليه ، ثم يسير بهم إليكم حتى يطأكم بهم فى بلادكم ، فيأخذ أمركم من أيديكم ، ثم يفعل بكم ما أراد » .

اقتنع المجلس — وكان من قبل مقتنعاً — بفساد الرأى .

فقام أبو الحكم بن هشام وقال : « والله إن لى فيه رأيا ما أراكم وقعتم عليه بعدُ ، أرى أن نأخذ من كل قبيلة فتى شابا جليداً نسيباً وسيطاً فينا ، ثم نعطى كل فتى منهم سيفاً صارماً ، ثم يعمدوا إليه فيضربوه بها ضربة رجل واحد فيقتلوه فنستريح منه ؛ فإنهم إذا فعلوا ذلك تفرق دمه فى القبائل جميعاً ، فلم يقدر بنو عبد مناف — رهط محمد — على حرب قومهم جميعاً ، فرضوا منا بالعَقْل ؛ فعقلناه لهم » .

خلب هـذا الرأى لب المجلس وارتضوه وتواصوا بسرّيته حتى ينفذ ، وختمت الجلسة .

***

أبلغ النبى ذلك ونزل عليه : « وإذْ يَمكُرُ بِكَ الذين كفرُوا لِيُثْبِتُوكَ أو يقتلوكَ أو يخرجوكَ ، ويَمكُرُونَ ويَمكرُ اللهُ واللهُ خيرُ الماكرين » .

وكان أبو بكر يتهيأ للهجرة إلى المدينة كما خرج غيره من قبـل ، والرسول يأمره بالانتظار حتى يخرج معه ، فلما عزم الأمر أعدت العدة وأحكمت الخطة .

لئن خرجنا ظاهرَين لتتعقبنا قريش ، ولابد أن يلحقونا فيرجعونا ويؤذونا ؛ فلنلجأ إلى جبل ثور (على مسافة ساعة من مكة) ولنختف فى غار فيه ، ولنعفّ الأثر حتى لا يعرف مكاننا أحد .

***

لقد كانت أياماً شديدة حقا ، ثلاث عشرة سنة تمر على النبى (ص) فى جهاد متصل ، ودعوة مستمرة ، وطلب واضح أن يعدلوا عن عبادة الأصنام التى لا تنفع أحداً ولا تضر أحـداً ، إلى عبادة الله الذى بيده النفع والضر . ثم لا يظفر من قومه بعد كل ذلك إلا بهذا العدد القليل من المسلمين ، ثم هم لا يتركونه ودعوته ، ولا يكتفون بالصد عنها وعنه ، بل يعذبون أصحابه أشد العذاب ، وأخيراً يقررون قتله فيضطرونه إلى الخروج من بينهم سرا .

ما أشدها ساعة يفارق فيها أهله وقومه ووطنه ، والكعبة أحب مكان إليه ! وقد عبّر عن هذا كله إذ وقف على نشز من الأرض حين خرج من مكة ونظر إلى البيت وقال : « والله إنك لأحب أرض الله إلىّ ، وإنك لأحب أرض الله إلى الله ، ولولا أن أهلك أخرجونى ما خرجت منك » .

مرت ثلاثة أيام فى الغار وهى أشد ما تكون عليهما ، طلب مستمر من أهل

مكة ، وجُعل كبير لمن يجدهما ، واقتفاء أثر ممن اشتهر فى القيافة ، وعذاب شديد فى حياة الغار ، حتى لقد تقطرت قدما الرسول دماً ، إذ لم يتعود الحَفى والجَفْوة ، وساعة رهيبة إذ يصل القافَة إلى الغار ، ولو نظروا من عند أقدامهم لرأوهما ، وحزن شديد من أبى بكر ، وطمأنينة وثبات من النبى ، فيقول لصاحبه : « لا تَحْزَنْ إنَّ اللهَ مَعنَا » .

حتى إذا خف من قريش الطلب وقطعوا الأمل خرج النبى وصاحبه من الغار إلى المدينة فى حفظ الله .

وقاية الله أغنت عن مضاعفة　　　من الدروع وعن عال من الأُطُم

* * *

لقد خرجا من مكة أول ربيع الأول (فى يونيه سنة ٦٢٢ م) حيث يشتد الحر وتتوهج الصحراء ، وكانا يعرّجان على من يلقيان من الأعراب يتزودان بالمأكل والمشرب بمالهما :

وكان لهما على طول الطريق ذكريات وأحاديث وآمال . لقد كان موقفه من قريش كما قال القائل :

ثَوَى فى قريش بضع عشرة حِجّة　　　يُذَكِّر لو يلقى صديقاً مواتيا

ثم يكون آخر الأمر تآمر على قتله وإخراجه وأتباعه من الديار بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله ، ومرت فى ذهنهما الحوادث من بدء الوحى إلى وقتهما هذا ، ولو أثيرت عند غيره لأثارت الحفيظة والمقت ، ولكنه النبى الذى ما كان يزيد فى أشد الأوقات حرجا على قوله : « اللهم اغفر لقومى فإنهم لا يعلمون » . وانقطعت ذكريات مكة وأحاديث مكة ، وقفز الذهن إلى يثرب وأهلها ومستقبلها ومشاكلها . إن بها اليهود ، فما هم صانعون ؟ وإن بين أهلها خصومات ، فكيف تستأصل ، وإن الحالة الاقتصادية فيها سيئة ، فكيف تتسع لمن هاجر

إليها من قريش ، وإن أرضها موبوءة لم يتعودها المكيون ، فكيف تعالج . وأول كل شيء وقبل كل شيء ما مصير الدعوة ؟ ويجيب النبيّ قلبه : « لقد وعد الله — ووعده الحق — أن يُتم نوره ولو كره المشركون » .

***

هذا هو النبي صلى الله عليه وسلم يدخل يثرب ، وهاهم أشرافها يتسابق كل منهم أن يحوز الفخر بنزوله عنده ، وهذا مسجده يقام ، وهاهو الأذان يُشرّع فيجلجل صوت بلال فى المدينة ، وهاهم أهل المدينة يدخلون فى الإسلام أفواجا ، بنسائهم وذراريهم ، وهاهو رسول الله يؤاخى بين المهاجرين والأنصار ، فيكوّن منهم وحدة متماسكة على أساس التعاون فى الخير ، ونصرة الحق ، واحتمال الأذى فى سبيل الدعوة إلى الله . وهـذه المشا كل كلها تحل ، فتحل مشكلة اليهود ومشكلة الفقر ومشكلة الوباء ، ويصبح أهل المدينة أنصاراً ، يحمون الدعوة ، ويحققون ما عاهـدوا رسول الله عليه ، فيكون منهم ومن المهاجرين قوة ليس ما يدانيها فى جزيرة العرب كلها ؛ قوة إيمان تدعمها قوة سلاح ، فتنتشر الدعوة ، وتفد الوفود معلنة إيمانها ، وتفتح مكة ، ويدخل قريش فيما دخل فيه غيرهم ، بعد أن فلّت شوكتهم ، وضعفت قوتهم ، ويعم الإسـلام جزيرة العرب ، ويتلو رسول الله :

« إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللهِ وَالْفَتْحُ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللهِ أَفْوَاجاً ، فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّاباً » .

ويقف على باب الـكعبة بالقرب من دار الندوة ، حيث تآمرت قريش على قتله منذ ثمان سنوات ، فيقول : « لا إله إلا الله وحده ، صدق وعده ، ونصر عبده ، وأعز جُنده ، يا أهل مكة ! ما ترون أنى فاعل بكم ؟ » قالوا : خيراً ، أخ كريم وابن أخ كريم ، فيقول : « اذهبوا فأنتم الطلقاء » . لا يحمل حقداً ولا

ضغينة ، ولا يريد انتقاماً ، إنما يريد أن تكون كلمة الله هي العليا ، وأن تكون كلمة الذين كفروا السفلى ، وقد كان كل ذلك ، فلا غضب ولا انتقام ، وتدوّى جزيرة العرب كلها بلا إله إلا الله ، محمد رسول الله » .

***

ذهبت أيام وجاءت أيام ، وتولى عمر بن الخطاب ، ومضى على خلافته سنوات والعرب تؤرخ بالأحداث العظام ، فيقولون حدث ذلك عام الفيل ، وولد فلان بعد عام الفجار بسنة ، وهي أحداث لا تتفق وعظمة الإسلام ، ولا تصلح أن تكون تاريخ أمة عظمت فتوحها ، ومست الحاجة لضبط شؤونها وأعمالها ؛ فيجمع عمر بعض الصحابة يستشيرهم : أيّ الأحداث أولى أن يكون مبدأ التاريخ الإسلامي ؛ أولادة النبي (ص) أم وفاته أم نزول الوحي في غار حراء ؟ ويقترح « عليّ » أن يكون الهجرة ، فهي مبدأ نجاح الدعوة وانتشار الإسلام ومحق الشرك ، فكان كما قال ، وكانت الهجرة في الربيع الأول ، وكان هذا التشاور في السنة السابعة عشرة ، فأضافوا الأشهر السابقة على ربيع حتى يبدءوا بما اعتادوا به بدء السنة وهو المحرم ، وجرى الأمر على ذلك .

***

ثم تتابعت السنون ، وتتابع هلال المحرم على المسلمين ، بالسعود مرة ، وبالنحس أخرى ، وبالنعيم أحياناً ، وبالبؤس أحياناً ، ورآهم في عزهم ، ورآهم في ذلهم ، ورآهم سادة ورآهم عبيداً ، ورآهم يستيقظون وينامون ولكن لا يموتون ، وتتوالى عليهم الكوارث التي تبلى الحديد ولكن لا يبلَوْن ، وتتعاقب عليهم سِنُو الضعف حتى يُشْفُوا على الموت ثم يشفَوْن ، وحتى يندمج فيهم من عاداهم ، وينصرهم من ناواهم ، ويدخل في دينهم من حاربهم لدينهم ، وييأس من تنصيرهم من حاول تنصيرهم ، ومن تجريدهم من عزتهم من حاول أن يسلبهم عزتهم ؛

فكانوا كالمطّاط يُضغَطون فلا يتشكلون إلا ريثما ينفرون ثم يستردون مكانتهم ، ويعودون إلى عزتهم .

وها هم فى الأهلة الأخيرة ينتبهون من نوم طويل ، فيدركون موقفهم ويألمون له ، ويشعرون بالمرض بعد أن فقدوا الحس به ، ويبحثون عن الدواء فيجدونه ، ويحاولون أن يعودوا إلى مجدهم فيهتدوا للطريق .

فعسى أن يكون هلال هذا المحرم أسعد عليهم ممن سبقه ، يزدادون فيه علماً بإدراك موقفهم ، ويزدادون همة فى إصلاح ما ورثوا من آبائهم ، ويزدادون خلقاً فيوحدوا كلمتهم ويعلوا شأنهم ؛ وتأخذهم العزة فيأبون إلا أن يقفوا مع أرقى الأمم على قدم المساواة ، فيتحررون كما تحرروا ، ويبنون كما بنوا ؛ وإذا سيموا خسفاً قالوا : « لا » بملء فيهم ؛ ثم تدوّى كلمتهم فى العالم كما دوّت من قبل ، ويعتز بهم العلم والخلق والحق كما اعتزت بهم من قبل .

حقق الله الأمل .

البَرَكة

من ألذ الأشياء للباحث اللغوى مراقبته للكلمات وتطور معانيها ؛ فالكلمة يبدأ معناها ماديا ساذجاً ، ثم يأخذ فى النمو والتطور على اختلاف العصور وتقدم الزمان ؛ حتى ليعجب الناظر إذا هو وازن بين المعنى الأخير للكلمة والمعنى الأول لها ، لبُعد العلاقة بينهما ، وكلما تجلَّت لى هذه الفكرة عجبتُ من الجامدين الذين يتخذون شعارهم « ليس فى القاموس » . كأنهم يريدون أن تقف اللغة على ما كانت عليه فى القرون الأولى ، يوم دُوِّنَت المعاجم ، ويريدون أن يتجاهلوا فعل الزمان فى كل شىء ، وفى اللغة نفسها من أثر دائم وتطور مستمر . ولا زلتُ كلما كشفتُ عن مادة فى اللغة الإنجليزية فى معجم أكسفورد ، وأراه يؤرخ الاستعمالات المختلفة للكلمة الواحدة ، فيقول إنها استعملت فى معنى كذا سنة كذا ، ثم استعملت فى معنى كذا سنة كذا ، أتمنى أُمنيتين فى اللغة العربية : إحداهما أن يؤمن الناس معى أن اللغة فى تطور مستمر ، وأن من الإجرام أن يريد اللغويون قصر معانى الكلمات على ما جاء فى معاجم اللغة القديمة ، متناسين كل عمل الأجيال التى أتت بعدها . وثانيتهما أن ينشط علماؤنا فيستطيعوا أن يخرجوا لنا معجماً مؤرّخاً تدوّن فيه كل كلمة ، ومنشأ استعمالها ، وتطور معانيها مع الزمان إلى الآن .

***

خطَرَ لى هذا الخاطر وأنا أبحث فى كلمة « البركة » من أين أتت ، وكيف وصلت إلى ما نستعمله اليوم ، فنقول : « رجل مبارك » و « المرتب ليس فيه

بركة » و « ذرية مباركة » و « ذرية غير مباركة » و « زمنه مبارك » و « عمره لا بركة فيه » الخ . . . وهكذا .

وقد عجبت إذ رأيت بعض علماء اللغة يعودون بهـذه المعانى كلها إلى المعنى الأساسى وهو « برك البعير إذا أناخ فى موضع فلزمه » ثم نقله العرب من هـذا المعنى إلى معنى النمو والزيادة ، أو معنى السعادة ، كأن البعير إذا أناخ استراح ونما وسعد . واشتقوا من هذا المعنى بارك الله الشىء وبارك فيه وبارك عليـه ، أى أكثر خيره وأسعد به ، ومنه قالوا : طعام مبارك ، ومال مبارك ، ورجل مبارك ، وجاء فى القرآن الكريم : « إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ » الخ .

***

قفز ذهنى بعد ذلك من البحث اللغوى إلى البحث الاجتماعى أو البحث النظرى : ما معنى « البركة » .

يرى الناس رجلا يتقاضى مائة جنيه فى الشهر ، وليس له إلا ولد أو ولدان ، ومع ذلك مرتبه لا يكفيه ، ويستدين ، وتضطرب ماليته ، فيقولون : « إن مرتبه لا بركة فيه » . ويرون آخر مرتبه ثمانية جنيهات أو عشرة ، ومعه أربعة أولاد أو خمسة ، وهو يعيش عيشة حسنة بمرتبـه الضئيل ، لا يستدين ، ولا تضطرب ماليته ، فيقولون : « إن مرتبه فيه البركة » .

ويرون رجلين فى يد كل منهما جنيه ، فأما أحـدهما فخرج من بيته وعاد وليس معه شىء ، وذهب جنيهه فى أشياء تافهـة لا قيمة لهـا ، فيقولون : « إن جنيهه لم يكن فيه بركة » . وأما الآخر فاشترى أشياء وأشياء نافعة لنفسه ولبيته ، وعاد معه بقية من جنيهه ، فيقولون : « إن فى جنيهه بركة » .

ويومُ كل الناس أربع وعشرون ساعة ، وشهرهم ثلاثون يوما ، وأيام سنتهم متساوية ؛ ومع هذا تجد الفروق بينهم فى استخدام الزمن واسعة ؛ فهذا تمر عليه

الأيام والشهور والسنون وليس له إنتاج علمى ، ولا أدبى ، ولا مالى ، ولا صناعى ، وهذا دائم الإنتاج كثيره ، كأن أيامه سنون ، وكأن عمره مائة عمر ، فيقولون : « إن عمر الأول غير مبارك ، وعمر الثانى مبارك » .

ونرى رجلا رزق الحظوة فى أولاده ، فبناته زوجن خير الأزواج ، وأبناؤه ما شئت من استقامة ونجاح ، هذا زراعى ناجح ، وهذا عالم ناجح ، وهذا صانع ناجح ؛ ورجلا آخر خاب كل الخيبة فى أولاده ، فبناته مع أزواجهن مصدر نزاع دائم ، وقضاياهن فى المحاكم لا تنتهى ، وأبناؤه بين سكير ومقامر ومحتال ، فيقولون فى الأول : « إن فى ذريته البركة » وفى الثانى : « لا بركة له فى أولاده » .

فما هى هذه البركة ؟ أهى حجر الفلاسفة وكيمياء السعادة ، وسرٌّ مكنون كالروح ، نرى أثره ونعجز عن إدراك كنهه ؟ أم هى قوانين الطبيعة التى يشرحها عالم الاقتصاد فى شؤون المال ، وعالم الأخلاق فى شؤون الأخلاق ، وعالم التربية فى شؤون التربيـة ، وأن الأمر ليس سرا مكنوناً ، وإنما هى قوانين طبيعية مكشوفة ، لها مقدماتها ونتائجها المحتومة ، من سار على المقدمات وصل إلى النتائج المعينة حتما ، ومن لم يسر عليها لم ينل نتائجها حتماً ؟

أما بعد ، فإنى أَمْيَلُ إلى الرأى الثانى « ورزقى على الله » .

فالموظف الذى يتقاضى مائة فى الشهر ويستدين ، سبب انعدام بركته عدم سيره على قوانين الاقتصاد الطبيعية المعروفة ؛ والموظف الذى يتقاضى عشرة ويعيش عيشاً رغداً سبب بركته سيره على قوانين الاقتصاد الطبيعية المعروفة ؛ فقد وضع الاقتصاد قوانين واضحة ، تتطلب أموراً : منها أن يكون إيجار منزله بنسبة كذا من مرتبه ، وحاجات منزله كذا الخ ، وأن تقدم الضروريات على الكماليات ، وأن يحسب حساب ما يشترى ويوازن بينه وبين المال الذى ينفق فيه ، إلى غير ذلك من القوانين ؛ فكلها إذا سار عليها سائر انتظمت ماليته وكانت مباركة ، وإن لم يسر

عليها اختلت ميزانيته وكانت غير مباركة ؛ والاقتصادى يسمّى من يسير على القوانين « مقتصداً » أو سائراً على قوانين الاقتصاد ، ومن لم يسر مسرفا أو مبذراً أو مخالفاً للقوانين الاقتصادية ؛ والناس يسمون المال مباركا أو غير مبارك ، وفيه بركة أو انتزعت منه البركة ؛ والاختلاف ليس إلا فى التعبير والمعنى واحد .

وكل ما يمكن أن يقال إن العلم بهذه القوانين وعدم العلم بها ليس له كبير شأن فى الموضوع ؛ فقد يكون الرجل ماهراً فى علم الاقتصاد ، درس فى مصر ودرس فى إنجلترا ، وحاز أكبر شهادة فى الاقتصاد ، ومع ذلك لا يسير فى حياته العملية وفق قانون الاقتصاد ؛ فلا ينفعه علمه فى حياته اليومية ، وتطبق عليه قوانين الفشل حتما رغم علمه . وقد لا يدرس الرجل الاقتصاد ولم يسمع بهذا الاسم مطلقاً ، ولكنه يسير بطبيعته وفق تعاليمه ، فتطبق عليه قوانين النجاح رغم جهله بالعلم ؛ والشأن فى ذلك شأن كل القوانين الطبيعية ؛ فمن أخذ سكّراً على أنه سم لم يضره السكّر ؛ ومن أخذ سما على أنه سكر قضى عليه السم ، ولم ينفع العلم ولم يضر الجهل ؛ فالبركة وعدم البركة هى السير على قوانين الطبيعة أو عدم السير .

وعلى هذا الأساس مال الحكومة ، قد يكون مباركاً وقد يكون غير مبارك على هذا المعنى ؛ فالحكومة التى تبعثر أموالها فيما لا يفيد ، وتقدم الكمالى على الضرورى ، وتنفق الأموال الطائلة فى فتح شارع للترف ، وتغدق على المؤتمرات للشهرة ، وتتلف الأموال الكثيرة فى الإكثار من عدد الموظفين ورفع درجاتهم ، وتنشئ المشروعات الكبيرة للفخفخة قبل أن تعد العدد لفلاحيها ليشربوا ماء نظيفاً ، وقبل أن تعد العدد لعمالها ليجدوا الكفاف ، ميزانيتها لا بركة فيها ، ومعنى خلوها من البركة عدم سيرها على قوانين الاقتصاد الطبيعية . وإذا رأينا أمة أخرى ميزانيتها أقل من الأولى وهى بها أسعد من الأولى كانت ميزانيتها « فيها البركة » بهذا المعنى .

وحينئذ يكون معنى البركة التوفيق فى أن يسير المرء أو المرأة أو الحكومة حسب قوانين الاقتصاد .

والرجل ذو الذرية المباركة بركته عبارة عن أن أولاده ورثوا من آبائهم وأمهاتهم بذوراً صالحة ، ثم تربوا تربية صالحة ، فكانوا فى الحياة ناجحين موفقين ، وهذا معنى البركة ؛ فاذا هم ورثوا وراثة سيئة أو ربوا تربية فاسدة كانوا لا بركة فيهم ، والذرية المباركة وغير المباركة خاضعة لسنة الله فى خلقه وهى القوانين الطبيعية .

والعمر المبارك هو الذى عرف صاحبه كيف يستغله ، والعمر غير المبارك هو الذى جهل صاحبه كيف يستغله ، وهكذا .

***

ولكن مما لا شك فيه أن المسألة ليست بهذا القدر من البساطة والوضوح ؛ ففى الحياة أمور معقدة خفية تجعل الأمر أعقد من هذا وأصعب .

فقد يكون المرء سائراً على قوانين الاقتصاد فى دقة وإحكام كما ترسم قوانين الاقتصاد ، ومع ذلك تضطرب ماليته ، وتسوء حالته لأسباب لا دخل له فيها ، كأن يصاب هو أو أحد أفراد أسرته بمرض يتطلب مالا كثيراً فتختل ميزانيته وتذهب بركتها ، ولا دخل له فى ذلك ؛ أو يحدث حادث سماوى يتلف زراعته ، أو يصاب بكارثة مالية ليست فى الحسبان ، أو تدهمه سيارة تكسر رجله بخطأ من السائق ، أو نحو ذلك من تصاريف القدر ؛ فكل هذه وأمثالها قد تفسد عليه نظامه المالى وتربكه ارتباكاً شديداً ، مع أنه الحريص فى تصرفاته الحكيم فى تدبير ماله ؛ وكذلك نرى فى الدنيا عكس هذا ، نرى المسرف المبذر الساخر من قوانين الاقتصاد ، ومع ذلك يأتيه الرزق من حيث لا يحتسب ، فيبارك له فى معيشته رغم تبذيره ورغم القوانين الطبيعية والاقتصادية .

وكذلك الشأن فى الأولاد ، قد ينشأون خير تنشئة ، ثم يصابون بصحبة من يفسدهم ، مع أن الآباء قد بذلوا فى تربيتهم كل جهد ، وساروا على قوانين التربية بكل دقة ، والعكس صحيح . ويعجبنى فى ذلك قول الشاعر :

فموسى الذى رباه جبريل كافر وموسى الذى رباه فرعون مرسل

هذا كله صحيح ، وهذه أمور تستوجب التفكير ، وليست الإجابة عنها يسيرة ؛ ولكن ألست معى فى أن هذه أمور استثنائية فى الحياة ؟ وربما كانت هى الأخرى خاضعة لقوانين لم تستكشف بعد ؟ أليس من الخير أن نسير من القوانين على ما علم ونلتزمه ، ونؤمن بالقوانين القليلة التى لم نعرفها حتى نعرفها ؟ أو الخير أن نهمل كل القوانين لأننا نجهل بعضها ؟

أظن من الخير أن نُسَيِّر حياتنا على ما علم ، فإذا أردنا البركة فلنسر على قوانين الطبيعة ، ولا يَضيرنا أن يكون جزء من حياتنا فى يد القدر .

وعلى حسب تفسيرنا ، إن كان هذا المقال سائراً على قوانين الفن مثيراً للنظر ، ناجح الأثر ، ففيه البركة ، وإلا فلا بركة فيه ، والعلم عند الله .

فن السرور

نعمة كبرى أن يمنح الإنسان القدرة على السرور ، يستمتع به إن كانت أسبابه ، ويخلقها إن لم تكن .

يعجبنى القمر فى تقلده هالة جميلة تشع فنا وسروراً ، وبهاء ونوراً ، ويعجبنى الرجل أو المرأة يخلق حوله جوًّا مشبعاً بالغبطة والسرور ، ثم يتشرب به فيشرق فى محياه ، ويلمع فى عينيه ، ويتألق فى جبينه ، ويتدفق من وجهه .

يخطئ من يظن أن أسباب السرور كلها فى الظروف الخارجية ، فيشترط ليُسرّ مالاً وبنين وصحة ؛ فالسرور يعتمد على النفس أكثر مما يعتمد على الظروف ، وفى الناس من يشقى فى النعيم ، ومنهم من ينعم فى الشقاء ؛ وفى الناس من لا يستطيع أن يشترى ضحكة عميقة بكل ماله وهو كثير ، وفيهم من يستطيع أن يشترى ضحكات عالية عميقة واسعة بأتفه الأثمان ، وبلا ثمن .

***

مع الأسف ألاحظ أن كمية السرور فى مصر والشرق قليلة ، كما لاحظت من قبلُ أن كمية الحب فى مصر والشرق قليلة . وليست تنقصنا الوسائل ، فجونا جميل ، وخيراتنا كثيرة ، وتكاليف الحياة هينة ، ووسائل العيش يسيرة ، ومصايب الشرق من الحرب أقل منها فى الغرب ؛ ومع هذا كله لا تزال كمية السرور فى الشرق أقل .

أكبر سبب لذلك فى نظرى أن الحياة فن ، والسرور كسائر شؤون الحياة فن ؛ فمن عرف كيف ينتفع بالفن استغله واستفاد منه وحظِى به ، ومن لم يعرفه لم يعرف أن يستغله وشقى به .

أول درس يجب أن يتعلم فى فن السرور «قوة الاحتمال» ، فأكبر أسباب الشقاء رخاوة النفس وانزعاجها العظيم للشىء الحقير ؛ فما إن يصاب المرء بالتافه من الأمر حتى تراه حَرِج الصدر ، لهيف القلب ، كاسف الوجه ، ناكس البصر ، تتناجى الهموم فى صدره ، وتقض مضجعه ، وتؤرق جفنه ، وهى وأكثر منها إذا حدثت لمن هو أقوى احتمالا ، لم يلق لها بالاً ، ولم تحرك منه نفساً ، ونام ملء جفونه رضىَّ البال فارغ الصدر .

* * *

ومن أهم الأسباب فى أن أمم الغرب أقدر على السرور من أمم الشرق ، أن تاريخ الغرب الحربى متسلسل متتابع ، ومن مزايا الحروب أنها تصهر الأمم وترخص الحياة ، وتهوّن الموت ، وإذا رخصت الحياة وهان الموت رأيت المرء لا يعبأ بالكوارث إلا بقدر محدود ؛ وإذا كان لا يهاب الموت فأولى ألا يهاب ما عداه ، لأن كل شىء غير الموت أهون من الموت ، فكل أسرة أوربية لها رجال فقدوا فى الحرب أو أصيبوا فى الحرب أو ابتلوا بنوع من كوارث الحرب ، فعلمتهم الطبيعة التى تعادل بين الأشياء أن يتقبلوا هذه الرزايا بقوة الاحتمال ، ونشأ عن هذا أنهم لا ينغصون حياتهم بذكرى الرزايا ، فأولى ألا ينغصوها بتوافه الأمور .

أما أمم الشرق فقد مرّ عليهم دهر طويل لم يكونوا فيه أمماً حربية ؛ بل كانوا مستسلمين وادعين يتولى غيرهم الدفاع عن أنفسهم ، وإن حاربوا فحرب الضرورة ، وحرب الأفراد لا حرب الشعوب ؛ فاستفظعوا الموت ، وغلوا فى الحرص على الحياة ، ولم يصابوا بكوارث شعبية يستعذبون معها الموت والتضحية ، وتبع ذلك رخاوة العيش وعدم القدرة على الاحتمال ، وتهويل الصغائر ، والجزع من توافه الأمور . ولا دواء لهذا إلا التربية القوية ، وبث الأخلاق الحربية .

وسبب آخر لقلة السرور فى الشرق ، وهو سوء النظم الاجتماعية ، ففى كل بيت محزنة من سوء العلاقات الزوجية والعلاقات الأبوية ، وفى كل مصلحة أهلية أو حكومية مأساة من سوء العلاقات المصلحية ، وأحاديث الدرجات والعلاوات ، وعدم التعاون فى حمل الأعباء ، وبناء المعاملات على الفوضى والمصادفات لا النظام والقانون .

ثم عدم القدرة على خلق أسباب السرور الاجتماعية ؛ فاجتماعات المنازل التى تبعث السرور محدودة ضيقة نادرة ، وفى كثير من الأحيان تنتهى بمنغصات ؛ والملاهى العامة إما داعرة لا ترضى الذوق السليم ، ولا ترمى إلى غرض شريف ، وإما تافهة لا يجمّلها فن ولا يرقيها ذوق ؛ ومن أجل ذلك كان أشد الناس بؤساً فى الأمم الشرقية الطبقة المثقفة المهذبة التى رق ذوقها ؛ فهى لا تكاد تجد لها ملهى يتفق وذوقها إلا بعض شرائط السينما ، وهى — على قلتها — لا تشبع رغبتهم فى السرور ، ولا تكفى فى تخفيف أعبائهم فى الحياة .

***

ومع هذا كله ففى استطاعة الإنسان أن يتغلب على كل هذه المصاعب ويخلق السرور حوله . وجزء كبير من الفشل فى خلق السرور يرجع إلى الفرد نفسه ، بدليل أنا نرى فى الظروف الواحدة والأسرة الواحدة والأمة الواحدة من يستطيع أن يخلق من كل شىء سروراً ، وبجانبه أخوه الذى يخلق من كل شىء حزناً ؛ فالعامل الشخصى — لا شك — له دخل كبير فى خلق نوع الجو الذى يتنفس منه ؛ ففى الدنيا عاملان اثنان : عامل خارجي وهو كل العالم ، وعامل داخلى وهو نفسك ، فنفسك نصف العوامل ، فاجتهد أن تكسب النصف على الأقل ؛ وإذاً فرجحان كفتها قريب الاحتمال ، بل إن النصف الآخر — وهو العالم — لا قيمة له بالنسبة إليك إلا بمروره بمشاعرك ، فهى التى تلوّنه ، وتجمّله أو تقبحه ، فإذا

جلوت عينيك ، وأرهفت سمعك وأعددت مشاعرك للسرور فالعالم الخارجي ينفعل مع نفسك فيكون سروراً .

إنا لنرى الناس يختلفون فى القدرة على خلق السرور اختلاف مصابيح الكهرباء فى القدرة على الضياء ؛ فمنهم المظلم كالمصباح المحترق ، ومنهم المضىء بقدر كمصباح النوم ، ومنهم ذو القدرة الهائلة كمصباح الحفلات ؛ فغيِّرْ مصباحك إن ضعف ، واستعض عنه بمصباح قوى ينير لنفسك وللناس .

ولكن ما الوسيلة إلى ذلك ؟

مما لا شك فيه أن غلبة الحزن مرض قد ينشأ من عوامل كثيرة مختلفة ، فمن الخطأ رجوعها كلها إلى علة واحدة ؛ وإذن فمن الخطأ وضع علاج واحد للعلل كلها ، ولكن فحص كل نفس وأسباب حزنها ووضع العلاج الخاص بها لا يستطيعه إلا طبيب نفسى ماهر . أما الكاتب فلا يستطيع إلا قولًا عاما ، ووصفاً مشتركا ، وتعرضاً للمسائل العامة .

ولعل من أهم أسباب الحزن ضيق الأفق وكثرة تفكير الإنسان فى نفسه ، حتى كأنها مركز العالم ، وكأن الشمس والقمر والنجوم والبحار والأنهار والأمة والحكومة والميزانية والسعادة والرخاء ، كلها خلقت لشخصه ؛ فهو يقيس كل المسائل بمقياس نفسه ، ويديم التفكير فى نفسه وعلاقة العالم بها ، وهذا — من غير ريب — يوجب البؤس والحزن ، فمحال أن يجرى العالم وفق نفسه ، لأن نفسه ليست المركز ، وإنما هى نقطة حقيرة على المحيط العظيم ، فإن هو وسع أفقه ، ونظر إلى العالم الفسيح ، ونسى نفسه أحياناً ، ونسى نفسه كثيراً شعر بأن الأعباء التى ترزح تحتها نفسه ، والقيود الثقيلة التى تثقل بها نفسه ، قد خفت شيئاً فشيئاً ، وتحللت شيئاً فشيئاً . وهذا هو السبب فى أن أكثر الناس فراغاً أشدهم ضيقاً بنفسه ، لأنه يجد من زمنه ما يطيل التفكير فيها إلى درجة أن يجن بنفسه ؛ فإن

هو استغرق فى عمله وفكر فى أمته وفكر فى عالمه ، كان له من ذلك لذة مزدوجة ، لذة الفكر والعمل ، ولذة نسيان النفس .

ولعل من أول دروس فن السرور أن يقبض الإنسان على زمام تفكيره فيصرِّفه كما يشاء ؛ فإن هو تعرض لموضوع مقبض — كأن يناقش أسرته فى أمر من الأمور المحزنة أو يجادل شريكه أو صديقه فيما يؤدى إلى الغضب — حوّل ناحية تفكيره وأثار مسألة أخرى سارّةً ينسى بها مسألته الأولى المحزنة ؛ فإن تضايقتْ من حديث ميزانية البيت فتكلم فى السياسة ، وإن آلمك حديث « الكادر » فتكلم فى الجو ، وانقل تفكيرك كما تنقل بيادق الشطرنج .

وثانى الدروس أو ثالثها — لا أدرى — ألا تقدر الحياة فوق قيمتها ، فالحياة هينة ، وكل ما فيها زائل ، فاعمل الخير ما استطعت ، وافرح ما استطعت ، ولا تجمع على نفسك الألم بتوقع الشر ثم الألم بوقوعه ، فيكفى فى هذه الحياة ألم واحد للشر الواحد .

وأخيراً ، افعل ما يفعله الفنانون ، فالرجل لا يزال يتشاعر حتى يكون شاعراً ، ويتخاطب حتى يصير خطيباً ، ويتكاتب حتى يكون كاتباً ؛ فتصنَّع الفرح والسرور والابتسام للحياة حتى يكون التطبع طبعاً .

طب النفس

من المشاهد أن الناس يؤمنون أشد الإيمان بمرض أجسامهم ، ولا يؤمنون بمرض نفوسهم ، فإذا شعر أحدهم بمرض جسمى أسرع إلى الطبيب يصف له أعراضه ، ويستوصفه دواءه ، وينفذ أوامره مهما دقت ، ويبذل فى ذلك الأموال مهما جلّت ، ثم هو يمرض نفسيا ، فلا يأبه لذلك ، ولا يعيره عناية ، ولا يستشير طبيباً نفسيا ، ولا يعنى بدرس الأعراض ومعرفة الأسباب ، وقد يلح عليه مرض النفس ، ويصل به إلى اليأس ، فلا يسعى لعلاج ، ولا يجدّ فى معرفة دواء ، كأن نفسه أهون عليه من جسمه ، وروحه أتفه من بدنه .

ومن أجل عناية الناس بأجسامهم دون نفوسهم ؛ كان لدينا نظام شامل واف لطب الأجسام دون طب النفوس ؛ فمدرسة لتخريج الأطباء حتى للطب البيطرى ، ومعاهدُ للتشريح والتجارب ، وتخصص فى الأمراض ؛ فهذا طبيب عين ، وهذا طبيب أنف وحنجرة ، وهذا طبيب أسنان ، وهذا طبيب باطنى الخ ، وكان لكل حى طبيب أو أطباء ، ولكل مدرسة طبيب ، ووجدت المستشفيات فى أنحاء الأقطار ، وعدها الناس عملا خيريا يتبرعون لها بأموالهم ، كما عدتها الحكومات ضرورة اجتماعية ترصد لها الأموال فى ميزانياتها ، وأنشئت الصيدليات فى كل حى وكل شارع لتلبية طلبات الأطباء والجماهير فى كل وقت إسعافاً للجسم فى مرضه وفى ترفه .

وخضعت هذه النظم لسنة الارتقاء ، فهى تساير الزمان ، وتستفيد مما يؤدى إليه البحث والعلم ، وتتكيف حسب ما تقتضيه الأحوال ، وتجهز بأحدث المخترعات .

والعقل عنى به بعض هذه العناية ، فكان أطباء للأعصاب ، ومستشفيات للمجاذيب ، وبحوث وتجارب فى أمراض العقل وعلاجه .

أما النفس فحظها من ذلك كله حظ الأرنب بجانب الأسد ، فلا الناس يقدرون خطورة أمراضها ، ولا تنشأ المدارس لأطبائها ، ولا تؤسس المستشفيات لعلاجها .

مع أنى أعتقد أن آلام الناس من نفوسهم أكثر من آلامهم من جسومهم ، وأضرار المجتمعات من مرضى النفوس تفوق أضرارها من مرضى الجسوم ، وللنفس أمراض لا حصر لها ، تختلف كاختلاف أمراض الجسم إلى مرض عين ومرض معدة ومرض أمعاء ، فهناك حميات نفسية متعددة كحميات الأجسام ، وهناك ميكروبات نفسية كالميكروبات المادية ، وهناك عدوى تصيب النفوس كعدوى الأجسام — وهناك انفعالات تحرق النفس وتضنى البدن إلى آخر ما هنالك ، ولكل هذه الأمراض علاجات تختلف باختلاف المرض وباختلاف الشخص ، ولها أدوية من جنسها ، منها ما يسكن الألم ، ومنها ما يشفى المرض — وهى فى دراستها وتشخيصها وعلاجها أدق وأصعب منالا وأغمض كشفاً ، والفرق بينها وبين أمراض الجسم وعلاجه كالفرق بين الجسم والنفس .

فما أحوجها إلى أطباء مهرة ، ومستشفيات صالحة معدة ، ودراسات عميقة منتجة ، ونظم ترقى مع الزمان رقى طب الأجسام .

لعل الذى صرف الناس عن علاج نفوسهم إلى علاج جسومهم أنهم أو الكثير منهم لا يزالون يسبحون فى دائرة الحس وحده ، ولم يرتقوا إلى ملاحظة النفوس وشؤونها ؛ فإذا جرح الإنسان جرحاً بسيطاً فى جسمه هرع إلى الطبيب يعالجه ويحتاط له ، وإذا كسر عظمه ذهب إلى الطبيب ليجبر كسره ، ولكن إذا جرحت نفسه ولو جرحاً عميقاً ، وكسرت ولو كسراً خطيراً احتمل الألم من غير بحث عن

علته أو نتائجه أو طرق مداواته ، لأنه لا يزال ماديا فى إدراكه ، أوليا فى تفكيره .

أو لعل السبب أن الناس لا يؤمنون بأطباء النفوس إيمانهم بأطباء الأجسام ، فهم لا يعتقدون فى صلاحيتهم ، ويشكون كل الشك فى قدرتهم على علاجهم ، فيستسلمون للمرض النفسى كما يستسلمون لمرض جسمى استحال شفاؤه ولم يستكشف دواؤه ، إن كان هذا فعلى الطب النفسى أن يثبت قدرته ، ويبرهن على نجاحه حتى يقبل الناس عليه ويؤمنوا به .

وقد يكون السبب أن الناس يؤمنون بسهولة أمراض النفس وقدرتهم على علاجها والاشتفاء منها من غير طبيب ، فما عليه إن كان حزيناً إلا أن يضحك أو منقبضاً إلا أن يتسلى ، وهذا خطأ بين ؛ فأمراض النفوس كأمراض الجسم فيها ما يداوى بحمية ، وفيها ما يستعصى على الطبيب الماهر والخبير الحاذق .

***

لعلك تزعم أن هذه الناحية من طب النفوس لم تهمل بتاتاً ، فهناك المدارس للتهذيب ، فيها إصلاح النفوس وفيها دروس الدين والأخلاق لمعالجة الأمراض ، وهناك الوعّاظ لإرشاد الناس وعلاج النفس ، وهناك العرف والقوانين توجه الناس إلى الخير وتحذرهم من الشر ، وفى ذلك تهذيب لنفسهم وإصلاح لجوانب الشر فيهم .

ولكن يظهر لى أنها كلها مع فائدتها لا تكفى ، لأنها — من ناحية — تكاد تكون علاجاً عاما يقال لكل الأشخاص ، وتخاطب بها كل النفوس ، كالطبيب يذكر ضرر الإفراط فى الأكل ، وأضرار كثرة التدخين ، وفائدة الرياضة البدنية ، وفائدة الاعتدال فى المأكل والمشرب ، وهى قل أن تتعرض للأزمات النفسية الخاصة بكل نفس وما أحاط بها من ظروف خاصة ، ونوع النفس وما يلزم لها من علاج خاص بها ، وهى أقرب ما تكون إلى الوقاية لا إلى

العلاج ، وللاحتياط من الوقوع فى المرض لا لعلاج المرض ، فإن تعرضت لعلاج وصفت علاجاً عاما للناس على السواء ، إذ ليس فى استطاعتها — غالبا — أكثر من ذلك .

ومن ناحية أخرى أكثر ما بأيدينا منها اليوم لم يؤسس على ما وصل إليه العلم الحديث ، ولم يبن على ما استكشف من قوانين علم النفس على قلة ما استكشف منها ، فالدراسة الحديثة أبانت عن اتجاهات كانت غامضة ، وأخطاء كانت ترتكب فى تصور النفس و إدراكها وجرائمها وطرق تهذيبها ، ولا يزال علماء النفس يقرون بأنهم فى أول مراحلهم ، ولم يقولوا فى النفس إلا الكلمة الأولى ، فكان من المعقول أن يساير التهذيب ودراسة الأخلاق وعلاج النفس ما وصل إليه علم النفس وعلم الاجتماع ، كما يساير علم طب الأجسام ما يستكشف من مخترعات ، فآلات الجراحة اليوم غيرها بالأمس ، والمادة الطبية اليوم غيرها بالأمس وهكذا ولكن ذلك لم يكن .

وربما كان أقرب المناحى إلى طب النفس منحى الصوفية ، فقد كان لكل مريد شيخه يفضى إليه بدخائل قلبه وأزمات نفسه ، ووساوسه وخطراته وآلامه وتوجهاته ، والشيخ يصف لكل مريد ما يراه أنسب له وأقرب لعلاجه ، ويصف له طرقا يسلكها ، واتجاهات يتجهها وأوراداً يتلوها ، يرى أنها تشفى مرضه ، وتبرئ نفسه ، وله فى كل مريد نظرته وفراسته ، بها يشخص وبها يصف ، ولكن تكاد تقتصر هذه الحالة بين المريد والشيخ على الأزمات الدينية ، أما ما عدا ذلك من أزمات دنيوية واجتماعية ، فقلما يتناولها المريد والشيخ ، على أنه ، من لكل مريد بهذا الشيخ الدقيق النظر ، الصائب الفكر ، الصادق الفراسة ، الموفق فى تبيُّن المرض ومعرفة العلاج .

* * *

وإذا عدمنا مثل هذا « الشيخ » وحرمت مجتمعاتنا من نظم وافية شاملة للطب النفسى كالنظم الوافيـة الشاملة للطب الجسمى ، فلا أقل من أن نوجه النظر إلى أن يعنى كل شخص بناحيته النفسية عناية لا تقل عن عنايته الجسمية . فضحايا أمراض النفوس كثيرون ، وصرعى المرض لا يحصَون ، والالتفات إلى فتك هذا النوع من الأمراض ضعيف فاتر . فهناك صرعى الخوف من الموت ومن الفقر ومن الرؤساء ، وهناك صرعى الشك فى الدين وفى الحياة وقيمتها وفى كل ما يحيط بهم مما فى الأرض وما فى السماء ، وهناك صرعى الحزن لا يسرهم شىء فى الحياة ويودون أن يبكوا دائما ويسوّدون كل منظر يرونه ، ويحزنون عندما يحزن الناس ويحزنون عندما يضحك الناس ، فإذا عدموا أسباب الحزن خلقوها حتى من أعمق منابع السرور . وهكذا تتعدد الصرعى ، كصرعى السل والسرطان وما إليهما . يبدأ فيهم مكروب النفس صغيراً ، ثم ينمو شيئاً فشيئاً حتى يفترسهم ، ثم من العجيب ألا يتوجهوا قليلا ولا كثيراً إلى قتلها قبل أن تقتلهم ، وهزيمتها قبل أن تهزمهم ، كأنهم يظنون أن المرض فوق أن يعالج ، والأمر أيأس من أن يفكر فيه .

* * *

لأمراض النفس أسباب عدة : من حالة صحيـــة ، وبيئة اجتماعية ، وبذور ميكروبات تسربت إليها من كتب قرأتها ، ومقالات طالعتها ، وأحاديث سمعتها ، ومناظر رأتها ، إلى غير ذلك . ولعل أهم مرض نفسى يصيب طائفة المثقفين سببه أنهم لا يريدون أن يكونوا أنفسهم ويريدون أن يكونوا غيرهم .

لقد خلقت النفوس البشرية متشابهة فى بعض جهاتها ، مختلفة فى بعض جهاتها ، شأنها فى ذلك شأن الوجوه ؛ فكل وجه فيه عينان وأنف بين العينين وفم تحت الأنف وذقن تحت الفم ، ولـكن مع هذا الاشتراك لكل إنسان وجهه الخاص به لا يشاركه فيه غيره . وكذلك النفوس تشترك فى اللذة والألم ، وتشترك

فى أهم منابع اللذة ومنابع الألم ، وتشترك فى الغرائز الأساسية ، وما إلى ذلك . ومع هذا فلكل إنسان نفسه الخاصة ، لا يساويها فى جميع وجوهها غيرها .

ومما ألاحظه أن نفس كل إنسان إن سارت على فطرتها ، وعرفت أن تتغذى بما يناسبها ، وطلبت لها مثلا أعلى يتفق وطبيعتها ، عاشت فى الأغلب راضية مطمئنة ؛ فإن خالفت فطرتها وحاولت أن تكون غيرها ، أظلمت وأصابها الحزن والقلق والاضطراب ، وفقدت سعادتها وهناءها ، واطمئنانها ورضاءها ؛ ومحال أن تنال ما يخالف فطرتها ، كما هو محال أن يكون الوجه الأسود أبيض ، أو الأبيض أسود ، أو الطويل قصيراً ، أو القصير طويلا .

يسعد الإنسان إذا عرف طبيعته وحدوده التى يستطيع أن يصل إليها ونوع الرقى الذى يمكن أن يبلغه ؛ فإن حاول أن يكون غير ذلك كان فى الحياة « ممثّلا » لا يعيش عيشته الطبيعية ؛ فهو فقير يمثل دور ملك ، وصعلوك يمثل دور وزير ، وطفل يمثل شيخاً هرماً ، ورجل يمثل دور امرأة ، ومحال أن يوائم بين نفسه الحقيقية والدور الذى يمثله إلا بمقدار مايظهر على المسرح ؛ فإن هو حاول أن يطيل ذلك بعد دوره فجزاؤه الهزؤ به ، والسخرية منه ، وقلق نفسه ، واضطراب شأنه .

فأكثر أسباب اضطراب المثقف ناشئ من أنه غبى يريد أن يكون ذكيا ، أو ميال بطبعه إلى العزلة والانكماش يريد أن يكون وجيهاً شهيراً ، أو عالم يريد أن يكون أديباً ، أو أديب يريد أن يكون عالماً ، أو صريح يريد أن يخادع ويمالق ، أو خجِل يريد أن يكون وقحاً ، أو متزن نواحى العقل يريد أن يكون نابغاً شاذاً ... الخ . فهو يحاول ويحاول ، ثم يفشل ويفشل ؛ لأنه يكلف النفس ضد طباعها . وهذا الفشل يهز نفسه هزة عنيفة تسبب له القلق الروحى والاضطراب النفسى . هو بذلك يريد أن يكون إنسانا صناعيا وهو مخلوق انسانا طبيعيا ؛ فالتوفيق محال . فخير نصيحة لهذا وأمثاله أن تقول له : « كن نفسك ، ولا تَنْشُدْ إلا مَثَلك » .

سلمان الفارسى

كانت الدول العظمى التى تجاور العرب ، والتى لهم بها اتصال فى عهد النبى (ص) ثلاثاً : الحبشة ، والرومان ، والفرس ، يتصل بها العرب فى تجارتهم ، وفى رحلاتهم ، وفى حياتهم السياسية والاجتماعية ، فإذا أوذى المسلمون فى إسلامهم هاجروا إلى الحبشة ، وإذا رحل تجارهم إلى الشام فقد اتصلوا بالرومان ، وإذا اتصل عرب الحجاز بعرب اليمن فقد اتصلوا بمملكة كسرى . وللفرس إمارة عربية تحتضنها ، وهى إمارة المناذرة ، وللرومان إمارة مثلها تحتضنها ، وهى إمارة الغساسنة ، ولكل من المناذرة والغساسنة اتصال وثيق بالحياة الأدبية والاجتماعية والسياسية للعرب عامة .

ومن العجيب أن نرى ثلاثة من عظماء الصحابة كل ينتمى إلى أمة من هذه الأمم العظيمة ، وكل له منزلة كبيرة فى الإسلام ، وكل له دور خطير فى حياة المسلمين الأولى ! هم بلال الحبشى ، وصهيب الرومانى ، وسلمان الفارسى .

فبلال كان غلاماً حبشيا ، أسمر شديد السمرة ، نحيفاً طويلا ، وكان من المستضعفين فأعزه الإسلام ، وكان للمسلمين الأولين بمنزلة الموسيقى للجيش ، يؤذن لهم فيهيج مشاعرهم ، ويجلجل بصوته بينهم فيملؤهم روعة وحناناً ، وحماسة وقوة .

وأما صهيب الرومانى فكان أحمر شديد الحمرة ، ليس بالطويل ولا بالقصير ، وهو إلى القصر أقرب ، يرتطن لسانه عجمة رومانية ، تربى ناشئاً فى بلاد الروم ، يتكلم بلسانهم ويعيش عيشهم ، ثم دفعت به المقادير إلى مكة ، فكان من أول

الناس إسلاماً ، واصطحبه رسول الله فى الغزوات ، واختاره عمر عند موته ليصلى بالناس حتى يجتمعوا على خليفة .

وأما صاحبنا سلمان ففارسى ، نشأ نشأة فارسية ، فى قرية من قرى أصفهان ، لم يشهد نشأة الإسلام فى مكة كما شهدها بلال صهيب ، وإنما شهد النبى بعد هجرته إلى المدينة .

ولعل كلا من هؤلاء الثلاثة يمثل قومه ويصور جنسه ، فبلال شديد التحمس لدينه فى بساطة وطهارة قلب ، وهو إلى ذلك يجيد الرمى ويصيب الهدف ، يعذبه أمية بن خلف الجُمَحى فى بدء إسلامه ، ويواليه بالعذاب والمكروه ، فيحتفظ بلال بذلك فى نفسه ، حتى إذا جاء يوم بدر يرميه بلال بسهم فلا يخطئه ويميته ، وهكذا الحبشة بساطة وتحمس للعقيدة ، وإجادة للرمى .

وصهيب كان مسرفا فى المال ، وكان كذلك من أرمى الناس ، وكان لطيفاً حسن الدعابة ، ظريف الفكاهة ، وكذلك الرومان .

وكان سلمان يمثل النزعة الروحية الصوفية الزاهدة ، كما كان شأن بعض الفرس فى الإسلام .

وكان ثلاثتهم يعتزون بالإسلام ، ولا يعتزون بغيره ، فقد كانوا موالى ثم تحرروا ، والعرب شديدو الفخر بعربيتهم ، شديدو الاعتزاز بدمهم ، شديدو التغنى بحريتهم ، شديدو الأنفة على غيرهم ، فما كان لهؤلاء الموالى من غير العرب أن يفخروا بحبشية بينهم أو رومية أو فارسية ، إنما يفخرون بالإسلام وبالإسلام وحده ، فهو الذى أهدر العصبية الجنسية ، وأقام القيمة الذاتية ، ورفع شأن القيمة الدينية ، ولذلك كانوا يغضبون من هذه النعرة الجنسية ولا يحبونها ، ويرون أن هذه العظمة القبلية لا تستحق البقاء ، ويجب أن يقتل أهلها فى غير هوادة ؛ فقد رووا أن أبا سفيان مر على سلمان وصهيب وبلال فى نفر ، فقالوا : « ما أَخذَت سيوف الله

من عنق عدو الله مأخذها » ، فقال أبو بكر « أتقولون هذا لشيخ قريش وسيدهم ؟ » .

على كل حال ، كان بلال الحبشي ، وصهيب الرومانى ، وسلمان الفارسى من أبرز الشخصيات الإسلامية وأكثرها دوِيّا ، ولكن كان من حسن حظنا وحظ سلمان أن كانت الدولة العباسية دولة فارسية فى رجالها ونظامها ومؤرخيها ، فكثير ممن دونوا العلم والتاريخ من أصل فارسى ، فقدموا لنا صورة جميلة زاهية شعرية لسلمان . ولم يكن من المؤرخين الحبشى ولا الرومانى الذى يقدم لنا مثل هذه الصورة لبلال أو صهيب ، فكانت الصحف التى تروى لنا أحداث بلال وصهيب أقل جدا مما تروى لسلمان .

***

تمثل لنا هذه الصورة سلمان نشأ فى بلدة من أصفهان فى بيت غنى ، فكان أبوه دهقاناً أى رئيس إقليم ، وكان سلمان من صنف أولئك الأفراد الذين ينشأون وبين جنوبهم عاطفة دينية قوية ، يقودها عقل قوي باحث . وقد روى التاريخ لنا أمثلة كثيرة منهم ، كإبراهيم بن أدهم ، والغزالى .

ينشأ سلمان على دين وثني فيخلص له حتى يكون الموكَّل بالنار المقدسة يوقدها ولا يتركها ، ثم يجيل عقله فى هذا الدين فلا يرتضيه . ويبحث عن دين يعجبه فيهتدى إلى النصرانية ، ولكن ليست النصرانية الشعبية ، ولا النصرانية التى يحترفها رجال الدين ، إنما هى النصرانية المتبتلة التى يخلص لها بعض أفراد قلائل من رجال الدين ، فينقطعون عن العالم زهداً وورعاً ، ويتصلون بالله اتصالا وثيقاً ، ويبيعون له أنفسهم ، فيتصل سلمان بأحدهم ، ويتخرج على يده ، ثم يلتحق بثان وثالث ، كلما مات أحدهم استنصحه سلمان فيمن يتبعه من بعده . حتى إذا بلغته دعوة محمد اشتاق أن يراه ، وأن يسمع منه ، وأن يمتحن صدقه وإخلاصه . ولكن الشُّقة بين الشام ومدينة الرسول بعيدة كل البعد ، عسيرة

كل العسر ، فيمر به قوم من كلب ذاهبون إلى الحجاز ، فيسألهم أن يحملوه معهم نظير بقرات له وغنيمات فيفعلون . حتى إذا كانوا فى بعض الطريق غدروا به وباعوه رقيقاً ليهودى ، فاتصل باليهود وعرف دينهم أيضاً ، فإذا هو على علم بالوثنية والنصرانية واليهودية ، وتنقلت به أيدى اليهود ، حتى وقع فى يد رجل من يهود بنى قُرَيظة الذين يسكنون المدينة ، فتم له ما أراد ، واتصل بالنبى وامتحنه ، فعرف صدقه فأسلم ، وأعانه النبى (ص) على فك رقه فتحرر .

حتى إذا كانت السنة الخامسة للهجرة — وقد تجمعت الأحزاب على رسول الله ، من قريش وقائدها أبو سفيان ، وغطفان وقائدها عيينة بن حصن ، ومعهم يهود المدينة — رأى المسلمون أن يحتموا منهم بضرب الخندق على المدينة . ولم يكن حفر الخندق من عادة العرب فى حروبهم ، ولكنه من مكايد الفرس ، فروى المؤرخون أن الذى أشار به سلمان الفارسى .

ويخرج أميراً على جيش من جيوش المسلمين لغزو فارس فى عهد عمر ، فيحاصرون حصناً من حصون فارس ، فيقول له المسلمون : ألا نقاتلهم يا أبا عبد الله ؟ فيقول سلمان : دعونى حتى أدعوهم كما سمعت رسول الله يدعوهم . فيقول لهم : إنما أنا رجل منكم فارسى ، ألا ترون العرب تطيعنى ؟ فإن أسلمتم فلكم مثل الذى لنا وعليكم مثل الذى علينا ، وإن أبيتم إلا دينكم تركناكم عليه وأعطيتمونا الجزية عن يد وأنتم صاغرون . ويكلمهم بالفارسية فيقولون : لا نؤمن ولا نعطى الجزية . فيقول الجيش : ألا نقاتلهم ؟ فيقول : لا . فيدعوهم ثلاثة أيام إلى مثل هذا ، فإذا أصروا قاتلهم ففتحوا الحصن .

***

أظهر ما فى صورة سلمان بعد ذلك شيئان : علمه وطريقة حياته . فأما علمه فهو مساير تمام المسايرة لما رووا من تاريخ حياته ، فهو رجل تعمق فى الوثنية

حتى عرف أسرارها ووُكل بشعائرها ، ثم عرف النصرانية وأخذ عن رهبانها ، وانقطع لدراستها وتطبيقها ، وكان يتحرى المشهورين من رجالها فيرحل إليهم ويتصل بهم ، ثم وقع فى يد اليهود فرأى منهم كيف يعبدون وسمع منهم مايروون ، ثم أسلم واتصل أكبر اتصال بمنبع الإسلام فى أزهر أيامه . فكيف لا يكون بعدُ عالما ؟

وناحية أخرى من العلم وهى ما أتيح له فى حياته ، ولم يُتَح لأكثر الصحابة فى عهد النبوة ، تلك تطوافه فى أعظم الممالك المدنة قبل اتصاله برسول الله ، فقد نشأ فى فارس ورأى مدنيتها وخبر أهلها وورث دماءها ، ثم رحل إلى الشام ورأى مدنية الرومان وعرف أحوالها ، وتنقل — كما يقولون — بين الموصل ونصيبين وعمورية وغيرها . وكان إذ ذاك فى سن ناضجة ، فقد وصل إلى المدينة وأسلم وهو فى نحو الخمسين من عمره .

هذه الدراسات الدينية المختلفة ، وهذه التجارب الكثيرة المختلفة ، تجعل منه — من غير شك — فى جزيرة العرب شخصاً ممتازاً بالعلم .

لذلك روى عن على بن أبى طالب أنه سئل عن سلمان . فقال : من لكم بمثل لقمان الحكيم ؟ ذاك امرؤ منا أهل البيت ، أدرك العلم الأول والعلم الآخر ، وقرأ الكتاب الأول والكتاب الآخر .

وأما نوع حياته فقد تبع طبيعة مزاجه الذى لازمه منذ نشأته ، فاعتكف فى الوثنية ، وترهب فى النصرانية ، وتزهد فى الإسلام . وهذه النزعة هى التى جعلته يحل مكاناً بارزاً بين رجال الصوفية .

لقد آخى رسول الله (ص) بينه وبين أبى الدرداء ، ولعل سبب الإخاء ما بينهما من تشابه فى نزعة الزهد ، ولكن أبا الدرداء غالى فرأى من الزهد أن يصوم نهاره ويقوم ليله ، حتى تشكو منه امرأته ، فيقول له سلمان : إن لأهلك

عليك حقا ، فصلِّ ونم ، وصم وأفطر ، فيبلغ ذلك النبي (ص) ، فيقر سلمان على قوله .

أما سلمان فيتزوج ويظن أن العرب قد أهدروا العصبية ، فيخطب بنت عمر ، ناسياً ولاءه وناسياً أن العادات لا يمكن أن تُستأصل فجأة ، فيأتى إليه قوم عمر يرجونه أن يعدل عن هذه الخِطبة ، فيعدل ويقول : والله ما حملنى على هذا إمرته ولا سلطانه ، ولكنى قلت رجل صالح عسى الله أن يُخرج منى ومنه نسمة صالحة ، ثم يتزوج فى كِنْدة ، فإذا تزوج كره أن يفرش له وأن يؤثث له ، ويصيح فى أهل زوجته : أحولت الكعبة هنا أم هى حُمَّى ؟ ويسأله العرب على عادتهم فى الصباح : كيف وجدت أهلك ؟ فيردّ عليهم : ما بال أحدكم يسأل عن الشىء قد وارته الأبواب والحيطان ؟

كان — إذاً — يتزوج ويعمل بما أوصى به أخاه أبا الدرداء من أن لبدنه حقا ولأهله حقا ، ولكنه كأبى الدرداء لا يرى السعة فى العيش ، ولا الترف فى الحياة ، فكان شعاره دائماً ما كان يكرره : « ليكن بلاغ أحدكم من الدنيا كزاد الراكب » .

ويفتح على المسلمين ويخصص لكل منهم عطاء حسب الأسبقية فى الإسلام فيكون عطاء سلمان نحو أربعة آلاف درهم ، فيخرج عنها ويعيش من عمل يده عيشة الكفاف .

ويؤمّر على المدائن (كما يروى بعض المؤرخين) ، فلا يحفل بإمارة ولا يحيطها بمظاهر الأبهة والعظمة والسلطان ؛ بل يعيش كما كان ، يخطب الناس فى عباءة ، ويخرج على حمار عرىّ ، وعليه قميص قصير ، فيضحك من رآه ويشبهونه بلعبة ، فيبلغه ذلك فيقول لمبلّغه : دعهم فإنما الخير والشر فيما بعد اليوم .

ويكره الإمارة فيتركها ويقول : كرّهنى فيها حلاوة رضاعتها ومرارة فطامها .

ويسكن أبو الدرداء بيت المقدس ويتولى فيها القضاء ، ويدعو أخاه سلمان إلى الأرض المقدسة ، فيكتب إليه سلمان : إن الأرض لا تقدس أحداً ، وإنما يقدس الإنسان عَمَلُه ، وقد بلغنى أنك جُعلت طبيباً [1] ، فإن كنت تبرئ فنعمّا لك ، وإن كنت متطبباً فاحذر أن تقتل إنساناً فتدخل النار .

ويظل فى المدائن حتى يموت بها سنة ٣٥ هـ فى آخر خلافة عثمان ، ويزوره الأمير سعد بن مالك فى مرض موته فيقول سلمان : أيها الأمير اذكر الله عند همك إذا هممت ، وعند لسانك إذا حكمت ، وعند يدك إذا قسمت ، قم عنى . ويطلب من زوجته وهو على فراش موته أن تأتيه بصرة من مسك كان قد ادخرها ، فيأمر بها أن تُدَاف وتجعل حول فراشه ، وإذ ذاك يسلم روحه إلى خالقـه .

---

(١) يريد قاضياً . وسماه طبيباً لأن القاضى يزيل الإحن بين الناس كما يطبب الطبيب المريض .

سؤال وحيرة فى جواب

بالأمس قابلنى شاب أمريكى يحضّر لشهادة عليا فى إنجلترا ، هو مثال الجد والإخلاص لعمله ، ينتهز وجوده فى مصر فيزور مكاتبها ، ويلقى علماءها وأدباءها ، ويجول فى الشوارع يدرس ما تدل عليه ظواهر الناس ومعاملاتهم وسلوكهم من دلالات اجتماعية ، ويسمع لغة العوام ويوازنها بلغة الخواص ؛ وعلى الجملة يقضى أكثر وقته باحثاً منقباً مستفيداً ، لا يعبأ بحرّ جو ولا متاعب غربة .

وبعد كلمات التعارف المتعارفة ، وجّه إلىّ هذا السؤال :

« ما هى النزعات الجديدة للإصلاح الاجتماعى فى مصر ، وخاصة ما كان منها مؤسساً على الدين ؟ » .

سكتُّ هنيهة أفكر ، ومرّ فى ذهنى إذ ذاك جملة أشياء مرور « شريط السينما » ، مرّ فى ذهنى « قاسم أمين » ودعوته إلى تحرير المرأة ، ومرّ فى ذهنى « الجمعية الخيرية الإسلامية » ، وما قامت به من تعليم فقراء ، وإحسان إلى المحتاجين ، وبناء مستشفاها الجديد ، ومرّ بذهنى الأزهر وما مرّ عليه من وجوه إصلاح ، ومرّ بذهنى الدعوة إلى النهوض بالفلاح ، ومقدار ما لقيت من فشل أو نجاح ، ومرّ بذهنى أخيراً إنشاء وزارة منذ أيام لإصلاح الشؤون الاجتماعية .

ولكنى لا أكتم القارئ أنى شعرتُ بمرارة وانقباض شديدين ، لعل سببهما أنى أحسست نوعاً من خيبة أمل مخزونة فى نفسى وأنى كنت أؤمل أن يكون فى أعمال قومى ما ينطلق به لسانى ، وينشرح له صدرى .

إنا إلى الآن نمشى فى الإصلاح الاجتماعى ببطء شديد جدا يكاد يكون عدماً ، ونسير فيه ارتجالا لا عن دراسة علمية عميقة ، وإحصاآت دقيقة ، ووضع برنامج واف شامل نعرف فيه الخطوة الأولى والأخيرة وما بينهما .

قد كنت أفهم أن يكون لكل حزب سياسى عندنا برنامج اجتماعى بجانب برنامجه السياسى ، وأن يكون هذا البرنامج الاجتماعى أُعِد إعداداً علميا دقيقاً فى وقت فراغ الحزب ، فيكون له رأى فى الفلاح وكيف ترقى عيشته اجتماعيا ، وكيف يصل إلى كل فلاح ما يحتاجه من ماء نقى ونور نظيف ومسكن مريح ، وما موقف الحزب فى المرأة وإصلاح شؤونها وحريتها وإلى أى حد ، وفى العمال وترقية شؤونهم ، والشباب العاطلين ومشاكلهم ، وطلبة المدارس العليا واضطرابهم ، ووجوه الإحسان وتنظيمها ، ومشكلة الأوقاف وعلاجها ، ونحو ذلك من مسائل لا عَدَّ لها . وكنت أفهم أن كل حزب يكوّن له فى كل ذلك رأياً قاطعاً مفصلاً حازماً يتقدم به عند الانتخاب ويعمل به عند تولّيه الحكم .

ولكن — مع الأسف — لم يكن شىء من ذلك ؛ وقد سئلت منذ مدة من مثل هذا الشاب الأمريكى عن أهم الأسس الاجتماعية والسياسية التى تميز كل حزب فى مصر عن الأحزاب الأخرى ، فلم أحر جواباً ، وأحسست طعم المرارة والانقباض اللذين أحسهما الآن .

* * *

لقد لفت نظرى فى سؤاله ضغطه فى حديثه على الإصلاحات الاجتماعية المؤسسة على الدين الإسلامى ، وكان هذا الضغط أشد مرارة على نفسى ، لأنى التفتُّ فرأيت الاصلاحات التى عددتها من قبل على قلتها وضعفها ليس منها شىء أُسسّ على الدين وقام به رجال الدين ؛ إلا ما كان من الأستاذ الإمام فى الجمعية الخيرية .

ليسمح لى رجال الدين أن أكلمهم فى صراحة ، وليتعودوا أن يسمعوا النقد المرّ فى جرأة ، فلا يكون إصلاح حتى تكون صراحة ، وحتى تكون جرأة ، وحتى نتبادل نحن وهم الشجاعة فى القول ، والإخلاص للحق ؛ فليس شىء أحب إلىّ من أن أرى رجال الدين جديرين بأن يتزعموا حركة الإصلاح الاجتماعى بعقل واسع ودراية قوية ، لأن الإصلاح الاجتماعى إذا جاء على أيديهم كان له مزيتان كبيرتان : أولاهما أنهم إذا تزعموا الحركة أمِنًا قوة المعارضة . وثانيتهما أن الشعب المصرى والشرقى على العموم شعب متدين ، يلبى الدعوة الدينية بأسرع وأقوى مما يلبى الدعوة المدنية ، فإذا جاء الإصلاح الاجتماعى من رجال الدين كان الشعب أسرع قبولا ، وأشد تحمساً ، وأقوى إخلاصاً ؛ وقطع فى سيره فى سنة ما لم يقطعه فى سنين .

ولكن لا يتم ذلك لرجال الدين حتى يأخذوا أنفسهم بتنفيذ برنامج شاق عسير ذى مراحل : منها أن يعلموا علوم الدنيا — بجانب علوم الدين — علماً واسعاً ، فيكون لهم العلم الواسع بجغرافية البلاد وتاريخ الأمم ، والطبيعة والكيمياء ، حتى يستطيعوا إذا جلسوا مع المدنيين — إن صح هذا التعبير — أن يشعروهم بأنهم مساوون لهم فى عقليتهم وتفكيرهم ، ويزيدون عليهم فى علمهم الدينى ، ونزعتهم الروحانية . ومنها أن يفهموا الناس حتى يفهمهم الناس ، ويؤقلموا أنفسهم حسب تطور الزمان ، ويعرفوا شؤون الدنيا كما يعرفون شؤون الآخرة ، ويعرفوا أحوال قومهم فى دقيقها وجليلها كما يعرفون أحوال دينهم فى دقيقها وجليلها ، ويعرفوا نفسية الناس ونزعاتهم وتصرفاتهم حتى يحققوا ما فى كتب بلاغتهم من أن لكل مقام مقالا .

عند ذاك تتكسر الحواجز القائمة الآن فى مصر والشرق ، بين رجال الدين ورجال الدنيا ، وتحس كل طائفة أنها جزء فى جسم واحد متفاهمة متعاونة .

إنى أشعر — مع الأسف — أن علماء الدنيا فى مصر والشرق ينظرون إلى علماء الدين نظرتهم إلى رجال القرون الوسطى ، أونظرتهم إلى الآثار القديمة وتحف « العاديات » ، وعلماء الدين ينظرون إلى علماء الدنيا نظرتهم إلى المارق من دينه ، المجنون بأوربا وعظمتها ، الغافل عن مدنية المسلمين الأولين ، المضيع لقوميته ، المغرور بالقشر دون اللباب ؛ وفى هذه الأنظار ضرر كبير على الأمة ، وتمزيق لشملها وتفريق لوحدتها ، وتعديد لعقليتها .

ولا يتم هذا الإصلاح فى تكسير الحواجز إلا بما أشرت إليه وإلا باتحاد التعليم الابتدائى والثانوى لكل أفراد المتعلمين على السواء ، وأن يكون التخصص فى الدين كالتخصص فى الرياضة والطب ، لا يأتى إلا بعد المرحلة الثانية من التعليم الثانوى ، فإن أراد رجال الدين أن يحتاطوا من قبل لمن يعدونهم فى الدين ، فليكن بزيادة المعلومات لا بنقصها .

وإذ ذاك — بعد كسر هذه الحواجز ، والتقريب بين رجال الدين ورجال الدنيا ، وعلماء الدين وعلماء الدنيا ، وفهم بعضهم لبعض ، وإجلال بعضهم لبعض — يستطيع رجال الدين أن يتزعموا الحركة الإصلاحية الاجتماعية ، وأن يضعوا برنامجاً اجتماعيا مؤسساً على الدين .

وإذ ذاك أيضاً يكون مجال الإصلاح الاجتماعى الدينى أمامهم فسيحاً ؛ فأمامهم تنظيم الإحسان ، وقد وضع أساسه الإسلام ، وأمامهم إصلاح الأوقاف ، وفى إصلاحه تخفيف لكثير من الويلات ، وأمامهم إصلاح الأُسَر بما وضع أساسه القرآن ، وأمامهم تقويم المرأة وقد سارت وراء المرأة الأوربية فى زينتها ومباهجها ، وليس فى جدها وثقافتها ، وأمامهم وضع خطط مُحكمة لتثقيف النشء والمتعلمين والأمّيين ثقافة دينية عصرية تستخدم وسائل التربية الحديثة ، وأساليب المدنية الحديثة ، إلى كثير من أمثال ذلك .

وليس هذا عليهم ببعيد ، فقد قطع هذا الشوط كثير من رجال الدين المسيحى فى أوربا وأمريكا ، وكان لهم فى شؤون الإصلاح الاجتماعى ونشر الثقافة الدينية مجال فسيح ، وأثر عظيم .

***

أرجو أن يتقبل رجال الدين هذا النقد بصدر رحب ، وأن يستزيدوا منه وأن تقوم أمة منهم تجهر بمثل هذه الآراء فى الإصلاح والدعوة إلى تحقيق هذه الآمال ، وأن يوقنوا أن لا باعث له إلا حب الخير لهم وللناس .

كما أرجو أن يكون ذلك قريباً جدا ، حتى إذا سألنى مثل هـذا السائل أنطقتنى أعمالهم ، وانطلق لسانى فى عد مآثرهم ، ووجوه إصلاحهم . والله يوفقهم .

الهدم والبناء

إذا نحن أردنا أن نلخص تاريخ الإنسان منذ نشأته إلى اليوم وإلى الغد فى كلمة ، قلنا إن كل أعماله تنحصر فى الهدم والبناء . وإذا نحن أردنا مقياساً بسيطاً سهلا نقيس به الأفراد والأمم فما علينا إلا أن نجمع عمل الفرد أو الأمة فى البناء ونطرح منه عملهما فى الهدم فباق الطرح هو مقياسهما . وإذا أردنا أن نقارن بين شخصين أو أمتين نظرنا إلى مقدار باق الطرح فى كليهما فما زاد فهو أرقى ، وإذا أحببنا الدقة فى التقدير لم نكتف بتقدير الكمية فى البناء والهدم ، بل حسبنا فى ذلك نوع ما يبنى وما يهدم ، فإن قيم البناء وقيم الهدم تختلف اختلافا كبيراً بحسب نوعهما وصفاتهما وكيفياتهما ، كالذى نفعله فى البناء الحسى ، فلسنا نقدر البناء بحجمه ومساحته فقط ، بل نقدره كذلك بنوع هندسته وما إلى ذلك من أمور لا تخفى .

وقد أكثر الكتاب من القول فى البناء . فالوعاظ الدينيون ورجال الأخلاق والمصلحون ونحوهم إنما يتكلمون فى البناء ويحذرون من الهدم ، فلنأخذ نحن الآن جانب الهدم فننيره ، فكثيراً ما يكون الهدم مقدمة البناء ؛ بل ربما كان خير بناء ما سبقه الهدم التام .

فيمكننا أن نقول إن الرذائل الخلقية من كذب وظلم ، والجرائم القانونية من قتل وسرقة ، لم تعد رذائل ولا جرائم إلا لأنها هدم ، إما هدم لمرتكب الرذيلة والجريمة ، وإما هدم للمعتدى عليه ، وإما هدم لبناء المجتمع . ونحن إذا نظرنا للرذائل والجرائم من حيث هى هدم ؛ أفادنا هذا النظر فائدة جديدة فى تقويم الرذائل والجرائم ، فما كان منها أشد هدما كان أكبر جرما . ولذلك كان القتل

أفظع من السرقة ؛ لأن القتل يهدم النفس والسرقة تهدم الملكية . وقد يؤدى بنا هذا النظر إلى تعديل فى قائمة الرذائل والجرائم ، فهل من المعقول مع هذا النظر أن تعد الحكومة مجرمة إذا حصلت من الأهالى مالاً لا تستحقه ، ولا تعد مجرمة إذا لم تمد قرية بالماء الصحى مع علمها أنها تشرب سما زعافا يقضى على عدد كثير من الأرواح ويذهب فى سبيله كثير من الضحايا ؟ — ليس هذا من المعقول فى شىء لأننا إن أقررنا عملها قومنا حق الملكية بأكثر من حق الحياة ، وعددنا هدم الملكية مقدماً على هدم النفوس ؛ وليس ذلك بحق ، وأمثلة ذلك كثيرة .

بل إن هذا النظر يعدّل رأينا فى العقوبة ، فالعمل الذى يهدم أمة أشد مما يهدم شخصاً ، والذى يعرض النظام للخطر أشد مما يعرض ملكية الفرد للخطر ، والذى يسرق لأنه جائع ولأنه يريد أن يبنى لنفسه بجزء مما يهدم ملكية غيره أقل خطراً ممن يسرق لداعى الطمع والشره فيريد أن يزيد ثروته لهدم ثروة غيره ، وهكذا .

وعلى كل حال فمن الممكن أن نقول إن الجرائم فى الأمة هى عمليات من عمليات الهدم وليست كل هدم .

فلنترك الآن الجرائم والعقوبات لرجال القانون ؛ ولننظر لأعمال الهدم الأخرى فى المجتمعات .

فهناك هدم مادى لكل أمة يجتاح مقداراً كبيراً من ثروتها ، فحوادث الحريق حوادث هدم ، والأمة التى لا تحتاط لها تترك أعمال الهدم والتخريب فى ساحتها ، وكذلك كل أعمال القوى الطبيعية العنيفة الهادمة كالسيل والفيضان العالى والصواعق والرياح والعواصف . وكلما كانت الأمة أرقى كانت أكثر احتياطا وتوفيقاً فى منع أعمال الهدم الطبيعية وتوقيها .

وهناك هدم سلبى ليس أقل خطراً من الهدم الإيجابى ، وأعنى بالهدم السلبى

عدم الإنتاج مع القدرة عليه ، فالأمة التى تترك أرضاً واسعة من أراضيها بوراً قائمة بعمل الهدم السلبى ، ومثل ذلك ما إذا كان لديها مناجم لا تستغلها أو قوى طبيعية لتوليد الكهرباء لا تستخدمها أو نحو ذلك ، فكل هذه أعمال هدم سلبية لا فرق فى الضرر والأضرار بينها و بين الهدم الإيجابى .

ومن هذا القبيل أن يكون فى الأمة قوى كثيرة لا تنتج ، فالعاطلون فى الأمة قوة للهدم سلبية ، لأنهم يأكلون ولا يعملون ، ويستهلكون ولا ينتجون ، ويأخذون ولا يعوضون — وأمثال هؤلاء الأغنياء الذين لا يعملون والذين يصرفون أوقاتهم فى الكسل والخمر والميسر فهؤلاء — من غير شك — هدامون لا بناءون مهما كانت ثروتهم .

والمرضى فى كل أمة قوة هادمة ، بقطع النظر عما إذا كانوا معذورين فى مرضهم أو ليسوا معذورين ، فهذا شىء آخر غير الحقيقة الثابتة وهو أنهم هدامون ، نعم إن بعض المرضى قد مرضوا اختياراً بتصرفاتهم من إفراط فى (الكيوف) أو إهمال لقوانين الصحة ، فهؤلاء هدامون مجرمون معاً ، ومنهم من مرض رغم أنفه كمن أدركته الشيخوخة ، أو مرض مرضاً لم يكن فى وسعه أن يتجنبه ، فهؤلاء هدامون لا مجرمون .

إن كان ذلك كذلك فما بالك بقوم صناعتهم فى الأمة الهدم والتخريب ؛ كتجار المخدرات والمحرضين على الفجور ، فهؤلاء وأمثالهم هدمهم وتخريبهم مضاعف ، هم يخربون أنفسهم وغيرهم . هم مدرسة سيئة تخرج الهدامين وتسلحهم .

فإذا نحن ارتقينا من الماديات إلى المعنويات رأينا الأمر على هذا المنوال .

فمن طرق الهدم أن تكون النظم الاجتماعية فى أمة مضيعة لكفايات أفرادها كأن تعطى المناصب لذوى الحسب والنسب ، أو ذوى الملق والمداهنة ، أو نحو ذلك ، ثم تنحى عنها ذوى الكفايات ممن ليس لهم سلاح إلا علمهم وخلقهم ،

فهذا — من غير شك — عمل من أعمال التخريب المزدوج ، لأن من شغلوا هذه المناصب لا يمكنهم أن ينتجوا لعجزهم الطبيعى ، ولأن من أبعدوا عنها لا يمكنهم أن ينتجوا وقد حيل بينهم و بين الإنتاج .

ومن هذا القبيل ألاّ يكون للتعليم فى الأمة ضابط ، فلا إحصاء ولا توجيه ولا دراسة لحاجات الأمة ومقدار انتفاعها بأنواع التعليم المختلفة . فالأمة التى يكثر فيها دارسو القانون كثرة تزيد عن الحاجة ويقل فيها الزارعون والصانعون وهى إليهم فى أشد الحاجة أمة مخربة ، والأمة التى لا تسمح نظمها باكتشاف ذوى الاستعدادات الممتازة فيها وتزويدهم بما يحقق نبوغهم واستغلال نبوغهم فى خيرها أمة مخربة ، وهكذا .

وكذلك من أعمال الهدم فى الأمة أن تسود فيها أنواع من الآداب والفنون تحطم الغرائز وتميت الشخصية ، وتبيد الحيوية . فالآداب والفنون التى تنفث اليأس وتبعث على الانتحار أو الرعب ، أو التى تثير الشهوات إلى أقصى حدودها حتى إذا انغمس فيها الانسان لم يعد يصلح لعمل ، أو التى تدفع إلى الحب المائع والأخلاق المنحلة ، كلها آداب وفنون مخربة ، هى معاول للهدم لا أدوات للبناء ، وقل مثل ذلك فى روايات السينما والتمثيل وأنواع الجرائد والمجلات التى من هذا القبيل .

فإن شئت مثالا أوضح من هذا كله فى أعمال الهدم فانظر إلى (العداوات) وما تجره من تخريب ، وأعنى بها العداوات بين الأفراد والأسر ، والعداوات بين الطوائف والأحزاب ، والعداوات بين الأمم ، فأكثر هذه العداوات ليس لها غرض صحيح ترمى إليه ، وترتقى العداوات صعداً حتى تأتى بأفظع أنواع التخريب : تخريب فى النفوس وفى الأموال وفى الأخلاق وفى الحضارة . فكم جرّت العداوة بين الأفراد والأسر من سفك دماء وضياع أموال وضياع زمن فى

الانتقام ، وضياع زمن المحامى فى إحضار الدفاع والمرافعة ، وضياع زمن القضاة فى قراءة الملفات وسماع المرافعات وتحضير الأحكام ، فكل من فى المحكمة من خصوم وكتبة ومحامين وقضاة إنما يشتغلون فى الهدم ، فإن أحسنت الظن قلت إن هدمهم فى الحاضر يحفظ البناء فى المستقبل .

وكم جرت عداوة الطوائف والأحزاب من ويلات وخراب ، فكم كانت العداوات الدينية سبباً لخراب ممالك وخراب حضارات ، وكم عاق حرب الأحزاب الأمم من البناء ، فوجه كل حزب همه لهدم الحزب الآخر ، وكم انصرفت الجهود الجبارة فى عرقلة الحزب الآخر ولو أودت بالأمة ، وكم كانت هذه الجهود تأتى بخير بناء لو وجهت كلها لخير الأمة .

فإذا نحن وصلنا إلى العداوة بين الأمم — إلى الحرب — فهناك الطامة الكبرى والتخريب الفظيع والموت المبيد والفناء الذريع . وقل ما شئت من الأوصاف المرعبة والنعوت المفزعة ، فحسبك أن تقرأ ما قام به العلماء من إحصاء لما سببته حرب سنة ١٩١٤ من خسارة فى الأنفس والأموال والأخلاق لتدرك صدق ما أقول .

بل إنى لا أشك أن هذا الإحصاء ناقص لأنهم يكتفون فى الإحصاء بالخسارة الواقعة فعلا ، فما بالك لو أحصوا ما يحصل من الضرائب لتصرف فى شؤون الحرب حتى فى أوقات السلم ، وما يصرف من وقت الجند فى الاستعداد ، وتفكير رجال السياسة وأشياعهم فى الاحتياط للحرب ، وما يصيب الناس من فزع كلما ساءت الحالة الدولية ، إلى كثير من أمثال ذلك ، أليس كل هذا من أعمال الهدم والتخريب فى العالم ؟ .

قد يقولون إنك تنظر فى كل ما قلت إلى جانب واحد من جوانب المسألة ، فتنظر إلى جانب الهدم فى العداوات ولا تنظر إلى جانب البناء ، فكم أفادت

العداوة الشخصية حفزت النفوس ، وشحذت العقول ، وكم أفادت العداوات الحزبية من دراسات للمسائل و إظهار لعيوب السياسة وتوجيه الآخذين بزمام الحكم إلى وجهة صالحة ، وكم أفادت الحروب من إذكاء روح الوطنية والمنافسة بين الأمم فى التقدم ، والمنافسة بين العلماء فى الاختراع إلى غير ذلك !

ولكنى أقول إنى لم أنس كل هذا ولكن السؤال الصحيح هو : هل ما بنت أكثر مما هدمت ؟ وهل هذا البناء الذى بنت لا يمكن أن يتحقق إلا بهذه الوسائل الجهنمية ؟ إن التاجر لا يكتفى بحساب ما دخل فى مخازنه من السلع بل لا بد أن يحسب ما أنفق فى سبيلها من الثمن ، وأظن ، بل أؤكد أن الثمن الذى ننفقه فى هذه العداوات أكثر مما نربح ، وما نهدم لها أكثر مما نبنى ، خصوصاً إذا آمنا بأن العقل البشرى لم يعلن إفلاسه فى إيجاد طرق شريفة للتنافس بين الأفراد والأحزاب والأمم ، فنبنى البناء الكثير بلا هدم أو بهدم قليل ، و إلا فخبرنى بربك : أى شىء فى الوجود يساوى إفناء الملايين من الأرواح ، وبث الفزع الهائل من حين إلى حين بين نفوس البشر ، وتقطيع أكباد الأحياء حزنا على من فقدوا من أبنائهم وأزواجهم ، وما أصيبوا به فى نفوسهم وأموالهم ؟ أظن أن كل ما يطنطنون به من مخترعات — على فرض أنها لا تنتج إلا هذه الويلات — لا تساوى الدماء المسفوكة ، والأنفس الكسيرة ، والقلوب الهالعة .

محمد الرسول المصلح

كم من عظماء الرجال زالت عظمتهم أو قلت قيمتهم بمرور الزمان عليهم ، وتنبهِ الناس تنبهاً صحيحاً لأعمالهم ، ووزنهم بموازين عصرهم . ولكن محمداً (ص) ظلت قيمته قيمته ، وعظمته عظمته ، مهما اختلفت العصور ، وتغيرت الموازين ؛ بل إن الزمن ليزيد عظمته وضوحاً ، والموازين الأخلاقية الجديدة تزيد مكانته رفعة .

وكم حاول خصومه فى مختلف العصور أن ينتقصوا من قدره بشتى الأساليب ، ومختلف الأكاذيب ، فنالوا من أنفسهم ولم ينالوا منه ، وحرموا لذة الحق وبقى الحق .

وكم لمحمد من نواحى عظمة ومظاهر سمو ، ولكن لعل أروعها جميعاً ما جاء به من دعوة ، وما قام به من إصلاح .

لقد نشأ فى جو خانق ، وبيئة مضطربة فاسدة ، وحالة اجتماعية تبعث اليأس ؛ فجعل من الشر خيراً ، ومن الاضطراب أمناً ، ومن الفساد صلاحاً ؛ فالعرب قد وهبت نفسها للأصنام ، وجعلت البيت الحرام — الذى بنى ليعبد فيه الله — مباءة لثلثمائة حجر أو تزيد ، تعبدها من دون الله . ومن تنصر منهم أو تهوّد كان قد تنصر أو تهوّد بنصرانية أو يهودية فقدت روحها ، وتقسمتها المذاهب والشيع ، ودخل على تعاليمها الأولى كثير من البدع ، فلم تنجح فيهم يهودية ولا نصرانية ، والحنفاء الذين ظهروا قبيل الإسلام كان صوتهم ضعيفاً خافتاً ، عجزوا — كما عجزت اليهودية والنصرانية — أن يغيروا شيئاً من حياة العرب وعقلية العرب . ثم كانت حياتهم سلسلة سلب ونهب ، كل قبيلة وحدة بل كل فرع قبيلة وحدة ،

وكل قبيلة فى عداء مع من جاورها ، لا أمن على الحياة ، ولا أمن على المال ، لا يفقهون معنى « أمة » ، ولا يفهمون معنى لحياة سياسية أو مدنية ، ولا يعرفون معنى لعلم أو فن ؛ فلو أنت قلت إن أحداً من الأنبياء والمصلحين لم يجد من اختلال أمته وفسادها ما وجد محمد من العرب ، وإن أحداً منهم لم ينجح فى إصلاح أمته ما نجح محمد فى إصلاح العرب وغير العرب ، ما عدوت الصواب .

فى عشرين عاماً استطاع بتأييد الله أن يغير كل هذه الفوضى ، وأن يغير كل هذه المظاهر ، وفوق ذلك أن يغير هذا الروح ، فجعل من القبائل وأشباه القبائل أمة عربية واحدة ، ورد الأصنام إلى أماكنها فى الأرض ، وساوى بينها وبين أخواتها من الحجارة ، وحوّل عبادتهم إلى إله واحد فوق الأرض وفوق السماء ، وفوق المادة كلها ، هو وحده الصمد « لم يَلِد ولم يُولد ولم يكن له كفواً أحد » ، فرفع من نفوسهم المرتبطة بالحجارة ، والمتصلة بالأرض ، لتحلق فوق السماء ، ولتنظر إلى العالم كله نظرة سامية عميقة ، ولتحتقر عرض الدنيا فى سبيل نصرة الحق .

وجد نصف العرب (وهو المرأة) ضعيفاً فقواه ، مسلوب الحق فرد إليه حقه ، فهى كالرجل فى العبادات ، وهى كالرجل فى المعاملات ، ولها كالرجل كل الحقوق المدنيـة ، فأكمل بذلك ترقية النصف الآخر وجعلها أقدر على إصلاح الجيل الجديد بما نالت من حرية جديدة .

آمن الرجال والنساء بتعاليم الإسلام الجديدة يعتنقونها ويذودون عنها ، ويرون واجباً عليهم نشرها وتضحية النفس والمال فى سبيلها ، تحمسوا للدين ولكن لا كما يتحمس الرهبان فى الصوامع ، إذ هجروا دنياهم لدينهم ، بل لم يمنعهم إخلاصهم لدينهم من تحسين دنياهم ، فهم يدينون ولا ينسون نصيبهم من الدنيا ، يتاجرون ويصلّون ، ويملكون المال ويزكّون ، ويعملون للدنيا كأنهم يعيشون أبداً

ويعملون للآخرة كأنهم يموتون غداً ، يبلغون الذروة فى عالم الروح ، ويبلغون الذروة فى عالم المادة ؛ فنى عالم المادة إن حاربوا الفرس والروم غلبوهم وأزالوا ملكهم ، وفى عالم الروح إن سابقوا الأمم الأخرى فى روحانيتهم سبقوهم ، فلا وثنية ولا عبادة لصور ولا عبادة لكائن ولا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق ، ولا إله إلا الله .

***

لئن فاخر المصلحون بتعاليمهم وبدعوتهم فمحمد (ص) يحق له أن يفاخر بذلك كله وبالنتائج العملية التى وصل إليها ، فليس رسم الخطط وحده كافياً فى التباهى ، إنما المباهاة الحقة فى التنفيذ والنجاح فى التنفيذ ، وإلا فكل رجل فوق المستوى المألوف يستطيع أن يحلم بعالم خير من هذا العالم ، ويرسم لهذا العالم السعيد صوره الخلابة البديعة ، ولكن المصلح الحق من يضع الخطط الملائمة للحاضر والمستقبل ، ثم يضع الخطط الصالحة لتنفيذ ذلك كله ، ثم يصل من ذلك كله إلى الغاية . ولقد أظهر النبى (محمد) فى ذلك كله البراعة الفائقة ، فلم يكن حالماً ولكنه فكر ثم وصل ثم عمل .

كم أجهد نفسه فى التفكير وأجهد روحه فى البحث ، وكانت عزلته فى غار حراء وسيلة من وسائل تفكيره ، وفيم كان يفكر ويطيل تفكيره؟ فى سوء ما عليه العالم ، وفى سوء ما يعتقد العرب وغير العرب ، وفى سوء الحالة الاجتماعية فى العالم الذى رآه فى جزيرة العرب وفى العالم الذى رآه فى الشام . قد يكون هذا الفساد واضحاً ، ولكن ما هو الحق وأين الحق ؟ كان هذا هو زمن التفكير ونوع التفكير ، ثم اهتدى وكان الوحى إيذاناً بالهداية .

ثم كان له بعد ذلك من الله قوة فى التنفيذ لا تبارى ، يدعو إلى الحق ولا يحيد ، ويعذب من أجل الدعوة فينال العذاب من جسمه ولا ينال من نفسه ،

فهو يُضرب وهو يُرمى بالحجارة وهو يسيل دمه ، ولكن العذاب مع ذلك كله يزيد فى دعوته قوة وفى نفسه عزيمة .

ثم هو لا ييأس أبدا فإذا فشلت خطة وضع خطة ، فإذا لم تنجح خطة الطائف فليدعُ غير الطائف من الأوس والخزرج حتى يكتب له النجاح .

ثم هو شجاع فى كل ما تتطلبه الدعوة ، تتوالى عليه الأحداث وهو مطمئن ، ويتفرق عنه أهله فلا يجزع ، وتبدو عليه طلائع الهزيمة فى وقعة أحد ، وتكسر رباعيته ويشج فى وجهه وتكْلَم شفته ويسيل الدم على خده ، وينكشف المسلمون ويصيب فيهم العدو ، ويُقتل عمه حمزة ، وهو هو فى ثباته ، وهو هو فى إيمانه ، وهو هو فى أمله ، جميع الفؤاد رابط الجأش .

فلما أن أمكنه الله من عدوه لم يذكر دمه ، ولم يذكر أفاعيل خصومه ، ولم يذكر قتالهم لأهله وأصحابه ، إنما ذكر دعوته وذكر خير السبل فى الوصول الى تحقيقها ، وذكر ما يجب أن يفعل لإنجاحها ؛ فلما فتح مكة كان همه أن يدخل الكعبة ومعه بلال فيؤذن فيها ويكسر الأصنام ويقول : « جاء الحق وزهق الباطل » وهذا هو ما يذكره . أما الناس فليسوا موضع نقمته وخير أن يستجلبهم لدعوته بعفوه فيقول : « يا معشر قريش ما ترون أنى فاعل بكم؟ قالوا : خير أخ كريم وابن أخ كريم ، قال : اذهبوا فأنتم الطلقاء » ، فأسرهم بعفوه ، وترجمهم إلى قوة فعالة فى سبيل دعوته ؛ وهكذا لم نجد مثلا يجمع بين القوة والرحمة ، والصلابة والمغفرة ، والإصرار واعتدال المزاج كما رأينا فى هذه الفعال .

***

تعاليمه الإصلاحية إلٰهية خالدة ، أما شخصه فإنسان يخضع لكل قوانين الإنسان من شباب وشيخوخة وموت وغير ذلك .

وسبب خلود تعاليمه أنها إنسانية عامة ، لم تخضع فى جوهرها وأسسها الأولى لظروف الزمان ولا ظروف المكان ، فلم ينظر فيها إلى العرب وحدهم ، ولا إلى

الروم وحدهم ، ولا إلى الناس فى زمنه ، إنما نظر فيها إلى الإنسان من حيث هو إنسان ، فبقيت ما بقى الإنسان ، ولم يفرّق فيها بين عربى وغير عربى ، ولم يتميز فيها غنى عن فقير ، ولا أبيض البشرة عن أسودها ، ولا طبقة فى الشعوب عن طبقة ، ولا شرقى عن غربى ، ولم يكن فيها نعرة جنسية ، ولا نغمة أرستقراطية ، ولكن فيها أن الإنسان أخو الإنسان ، والأبيض أخو الأسود ، والرجل أخو المرأة ، والغنى أخو الفقير ، والملك أخو الرعية . وكانت كل رسالته وكل أقواله ترمى إلى غاية واحدة : ألاّ يفر الإنسان من هذا العالم بالعزلة ، ولكن يكون قوة فعالة لاستئصال الشر وفعل الخير ، وتمام الانسجام بينه وبين من يعيش معهم ، وتحقيق العدل والإحسان له ولهم ، وأن يعيش لخير نفسه وخير من معه وخير العالم ؛ يجب أن تكسر الحدود الجغرافية والحدود الصناعية والفوارق الجنسية ، وأن يعيش العالم وحده تحكمه قوانين عادلة ، وتسوده تعاليم حقة ، ويعتنق أهله عقائد صحيحة أساسها كلها الخير العام للإنسانية ، وهى إن اختلفت فى الفروع بحسب الأقاليم وبحسب البيئة الطبيعية والاجتماعية ، فلن تختلف فى الأصول التى تربط الإنسان بالله خير رباط ، وتربط الإنسان بالإنسان خير رباط ، وتخضع لحكم العقل مجرداً عن التخريف والتضليل ، ولحكم العواطف سليمة صحيحة قوية .

فأى شىء من هذه التعاليم لا يبقى ما بقى الإنسان ؟ بل أى شىء من هذه التعاليم لا تعلو قيمته كلما علا الإنسان فى قيمته ورقى فى إدراكه ؟

لقد كان كل نبى قبله يحمل مصباحاً لقومه ، فجاء محمد يحمل مصباحاً للعالم .

آمن محمد بالأنبياء جميعاً ، وبرسالتهم جميعاً ، وبإصلاحهم جميعاً ، ودعا من يؤمن به أن يؤمن بهم ، وعلّم أن الحق فى كل زمان واحد ، قد دعا إليه كل نبى قبله ، وأنه داع دعوتهم ، مرسل بمثل رسالتهم ، مطهر لما لحق تعاليمهم من الشوائب ، مصلح لما أدخله الأتباع من الفساد ، متقدم فى رسالته تقدم الزمان فى عقليته ، مبعوث إلى الكافة ، مرسل إلى العالمين .

مدرسة المروءة

طلبَ إليّ أخى الدكتور طه أن أضع له مشروعاً لمدرسة المروءة ، أبين فيه اختصاصها ومنهاجها وتبعيتها الخ . ولا بد أن أنزل على حكمه ، لأنى دعوته فأجاب ، بل كثيراً ما يجيب من غير أن أدعوه ، وكثيراً ما يلاحقنى فى مقالاتى واقتراحاتى ، فإهمال دعوته إذا جريرة لا تغتفر ، ولأن الموضوع فى ذاته جد خطير ؛ فلو ظفرنا بهذه المدرسة لأخرجت كما قال لنا : « رجالاً يرتفعون عن الصغائر كلها أشد الارتفاع ، ويتنزهون عن النقائص كلها أعظم التنزه » ، وأى شىء فى الوجود أنبل من هذه الغاية ، وأجدر منها بالقول ؟ .

ولكن هذا التكليف شاق عسير ، صادفتنى فيه عقبات جمّة أسرد لك بعضها : أولها — ما المروءة التى نريد أن ننشئ لها مدرسة ؟ لقد تعب الناس قديماً وحديثاً فى تحديد معناها ، فلم يصلوا فيه إلى قول حاسم ، وهى فى كل عقل بمعنى ، فقد عرّفها بعض اللغويين بأنها « كمال الرجولة » ، ولكنى لم أرتض هذا التعريف ، لأنه يريد أن يقصر المروءة على الرجل ، ومعاذ الله أن أوافقه على ذلك بعد أن أصبحت المرأة تخيفنا فى كل ما نقول ، فإذا لم نقل ما يرضيها غضبت ، وويل لنا إذا غضبت . وهناك آنسة وقفت لى بالمرصاد ، فكلما تحدثت حديثاً فى الراديو ، أو كتبت مقالا فى مجلة ، كتبت إلىّ تعنفنى على اقتصارى على جانب الرجل ، أو الاكتفاء بضمائر الرجال ، أو استعمال جمع المذكر السالم دون جمع المؤنث السالم ، بل ولم ترض منى بجمع التكسير الذى يشمل الرجل والمرأة على السواء ؛ فكيف لو ارتضيت هذا التعريف فى المروءة ، وهو يقول إنه كمال الرجولة

ولم يقل كمال الأنوثة ، مع أن كمال الأنوثة مروءة كـكمال الرجولة ؟ وكأن صاحب « لسان العرب » خاف خوفى فأسرع وقال : إن « المروءة هى الإنسانية » ، فأرضى الرجل والمرأة ، ونجا بجلده .

وكتب عمر بن الخطاب إلى أبى موسى الأشعرى : « خذ الناس بالعربية ، فإنه يزيد فى العقل ويثبت المروءة » ، وسئل آخر عن المروءة فقال : « ألا تفعل فى السر ما تستحى منه فى العلانية » . وقال عبد الله بن عمر : « إنَّا معشر قريش لا نعد الحلم والجود سودداً ، ونعد العفاف و إصلاح المال مروءة » ، وروى العتبى عن أبيه أنه قال : « لا تتم مروءة الرجل إلا بخمس : « أن يكون عالماً صادقاً عاقلاً ، ذا بيان ، مستغنياً عن الناس » .

ولو عددت كل ما قيل فى تعريفها لضاق المجال ؛ وأنت أعلم به منى ، فأى الأقوال نختار ، وأى الآراء نؤسس عليه بناء المدرسة ؟

ولـكن هذا الإشكال يمكن حله بأن نأخذ كل هذه التعاريف وغيرها ، ونمزجها وننخلها ونجعل منها خلاصة تكون برنامجنا ؛ وسنصل فى النهاية — فيما نظن — إلى تعريف أنها « كمال الإنسانية » .

ثم وقعت فى مشكلة أخرى ، ذلك أنى رأيت فى التاريخ حادثة خطيرة حدثت للمروءة ، وهى أن أهلها كلهم ماتوا فى زمن من الأزمان ، وأقامت المروءة عليهم الحداد ، ولبست السواد وأخذت تندبهم وتولول عليهم ، ومر بها شاعر وهى على هذا الحال فقال :

مررت على المروءة وهى تبكى   فقلت علامَ تنتحب الفتاة ؟
فقالت كيف لا أبكى وأهلى   جميعاً دون خلق الله ماتوا ؟

فقلت إذا كان أهل المروءة جميعاً قد ماتوا فكيف ننشئ مدرسة ، ومن أين نأتى بالمدرسين ؟ فإنهم إذا كانوا من أهل المروءة فقد كذبتْ المروءة فى أنهم

جميعاً ماتوا ، والكذب ينافى المروءة ، وإذا لم يكونوا من أهل المروءة فكيف يخلقون ذوى المروءات ، والشيء لا يُخلَق من لا شيء ؟ وإخواننا الأزهريون يقولون : « فاقد الشيء لا يعطيه » ؛ وبعد جهد جهيد تغلبتُ على هذه المشكلة بأن المروءة لم تكذب ، وإنما كذب الشاعر ؛ فهو لم ير المروءة بعينيه ، ولم يحدثها وتحدثه ، بدليل أن شاعراً آخر مثله وقبله قال :

إن السماحة والمروءة والندى ... فى قبة ضربت على ابن الحَشرَج

ثم مات ابن الحشرج وسقطت قبته على من فيها ، ومع ذلك بقيت المروءة حتى لقيها الشاعر الثانى فيما يزعم .

إذاً فالمروءة بحمد الله موجودة لم يمت أهلها كلهم ولم تنتحب عليهم ، فنستطيع أن نجد لها معلمين من أهلها .

***

ثم أود قبل كل شيء ، وبعد كل شيء ، أن تبعد من ذهنك الفكرة الشائعة فى المدرسة من أنها بناء ذو حجرات ومقاعد ، وحصص وأجراس ، وناظر ومفتش وفراش ؛ فقد أصبح هذا (الطقم) كله ثقيلا بغيضاً ، أخشى أن ينفرّ المروءة فتنتحب ثانية ، وقد بذلنا غير المعقول فى استرضائها وعودتها إلى الحياة .

إنما أريدها مدرسة من صنف آخر ، على حد تعبيرنا أن « مجلة الثقافة » مدرسة ، وعلى حد تعبير إخواننا المستشرقين مدرسة الشافعية ومدرسة الحنفية ، أى دراسات المذهب الشافعى والمذهب الحنفى ، وكقولهم مدرسة المعتزلة ومدرسة الشيعة ، وهو تعبير طريف أظرف ما فيه أن ينجينا من كل مشاكل المدارس الأميرية والحرة ، وينجينا من وزارة المعارف بكل قيودها .

أريدها مدرسة لها حدود أربعة هى بعينها حدود القطر المصرى شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً .

ولكن تأتى بعد ذلك مشكلة أعنف : كيف آتى بالمدرسين لكل هذا العدد ؛ وقد عجزت وزارة المعارف أن تأتى بمدرسين يسدون حاجتها ، مع أن عدد تلاميذ مدارسها لا يبلغ عشر معشار الأمة ، ومع أن لها العدد الوفير من مدارس معلمين ومعلمات ومعاهد تربية للبنين والبنات ، وغير ذلك مما لا يعلمه إلا الله ووزارة المعارف ؟ .

خطر لى خاطر جرىء لست أدرى أترتضيه أم لا ترتضيه ! .

خلاصة هذا الخاطر تنبنى على نظرية بسيطة ، وهى أنه إذا صلح الرئيس صلح المرءوس ؛ وقياساً على هذه القاعدة إذا كان الرئيس ذا مروءة أصبح المرءوس ذا مروءة ؛ وبناء على ذلك أشكّل لجنة صغيرة من ذوى المروءات وأمنحهم اختصاصاً واسعاً جدا لا تقف فى سبيله وزارة المالية بقوانينها وقيودها التى تكتف كل حركة ، وأمنح هذه اللجنة الإرادة التى لا حدّ لها فى العزل والإحالة على المعاش ، وأجعلها تستقصى أحوال كل رؤساء المصالح والدواوين ، وكل المديرين والمأمورين ، وكل العمد ومشايخ البلاد ؛ فمن ثبت لها أنه أخل بالمروءة عزلته من غير هوادة ، وأحلت محله من عرف بالمروءة . ونُبهت اللجنة إلى أن مقياس الكفاية للرياسة ليس العلم ، ولا الذكاء ، ولا الشهادة ، ولا المحسوبية ؛ ولا الحسب ، ولا النسب ؛ ولكن المروءة ، فإذا اجتمع علم ومروءة ، أو ذكاء ومروءة فذاك ، وإلا فالمروءة أولاً والمروءة وحدها .

إن فعلنا ذلك قلد المرءوسون الرئيس فى المروءة ، وقلد المأمورون المديرين ، وقلد العمد ومشايخ البلد المأمورين ، وقلد الفلاحون العمد والمشايخ ، وسرت فى البلاد كلها من أقصاها إلى أقصاها نوبة تسمى « نوبة المروءة » . وبذلك أجعل من الرؤساء معلمين للمروءة يعلمون بالمثل لا بمجرد القول .

ثم أجعل للجنة المروءة هذه اختصاصاً واسعاً فى نشر ثقافة المروءة ؛ فأحاديث

تدوّى فى الراديو تصل إلى كل أذن تشيد بأعمال المروءة ، وروايات تمثل أعمال المروءة ، وكتب تؤلف فى لغة سهلة عذبة فى سير ذوى المروءات .

وشىء آخر لا بد منه ، وهو تكوين رأى عام يتطلب المروءة ويقدرها ويقوّمها ويكون شديد الحس بها ؛ فهو يجل من أتى بأعمال المروءة ومن اتصف بها ، وهو يحتقر أشد الاحتقار من حاد عنها وارتكب ما يخل بشرفها ، مهما كان غنيا ، ومهما كان وجيهاً ، ومهما كان ذا سلطان ؛ لا كرأينا العام الذى لا يعبأ بالمروءة كما يعبأ بالمنصب ، والذى لا يعبأ بالنبل كما يعبأ بالمال ، والذى إن احتقر أعمال اللؤم ففى سره وفى خاصته ، ثم هو حريص كل الحرص على ألاّ يشعر باحتقاره اللئيم المجرم ، ولا أن يصل إلى سمعه شىء من أقواله فى احتقاره ، فهو يبطن الكره ويظهر الحب ، ويبطن الاحتقار ويظهر الإجلال .

ولأعدْ سريعاً إلى المرأة خوفا من الآنسة ؛ فماذا يكون شأن المرأة فى هذا البرنامج ؟ فى هذه المسألة قولان : قول يقول : إذا مَرُؤَ الرجل مَرُؤَت المرأة ؛ فإذا أعددنا برنامجاً لمروءة الرجل ، استتبع ذلك مروءة المرأة ؛ ولكن المرأة ترفض هذا القول بتاتا ، وترى أنه ماس بكرامتها ، وتصر على أنه إذا مَرُؤَت المرأة مَرُؤَ الرجل ؛ لأنها هى التى ترضع الجيل الجديد المروءة ، ولأنها لا ترضى أن تكون تبعاً ؛ فهذه عقلية القرون الوسطى .

إن كان ذلك كذلك فلنترك برنامج مروءة المرأة للمرأة تضعه هى ما دامت لا تقبل قول الرجل ، فذلك أقرب للعدل .

***

إن تم ذلك — يا أخى — امَّحى من مصر كل ما تشكو منه من صداقة تستغل الصديق ولا تفى للصديق ، وتقابل جميلًا بنكران ، وإحسانًا بإساءة . وامحى من الوجود رئيس يتخذ الرياسة وسيلة لإرضاء شهوته ، ويستطيل على

الناس بجبروته وسطوته ، ورأيتهم وكأنهم أنشئوا خلقًا آخر : يتبارون فى المروءة ، ويفخرون بأعمال المروءة ؛ والحكومة ترقيهم حسب ما أتوا من أعمال المروءة ، وما ظهر منهم من نبل وشرف وكرم نفس ومروءة ، ونحن إن لم نصل إلى هـذا كله دفعة واحدة ، فى بعضه رِضى لى ورِضى لك ؛ وحسْبنا أن يسير الناس إلى الغاية ، وإن لم يبلغوا الغاية .

***

تسألنى بعد ذلك : لمن نتبعها ؟ ألوزارة الشؤون الاجتماعية ؟ أم لوزارة المعارف العمومية ؟ وأظنك بعد أن تقرأ إجابتى لا ترى معنى لهذا السؤال ، فلقد جعلْتُ وزارة المعارف ووزارة الشؤون الاجتماعية وغيرها من الوزارات تبعاً لمدرستى ، فكيف أتبع مدرستى لإحداهما وأنت تعلم أن الدور فى الفلسفة محال ؟

هذا — يا أخى — ما خطر لى اليوم فى اقتراحك ، وهو كما ترى مملوء بالأشواك ؛ فإن ظهر لى جديد ، اتبعت خطة وزارة المعارف فى تعديل المناهج ؛ والسـلام .

جناية الأدب الجاهلى

أو

نقـــد الأدب العربى

(١)

كان الأدب الجاهلى صورة صادقة لحياة العرب فى جاهليتهم ؛ فحياة الجاهلى — غالبًا — حياة ظعن ورحيل ، لذلك بدأ شعره بالوقوف على الأطلال و بكاء الدِّمن ، وكان يرحل على ناقته ؛ فهو يصف رحلته و يصف ناقته ، ومن كان من الشعراء بدويا خشن العيش وصف عيشته الخشنة بألفاظه الخشنة ، ومن كان حضريا مترفا وصف عيشته المترفة بألفاظه الناعمة . موضوعات شعرهم هى موضوعات حياتهم من فخر وهجاء ، وغزل ورثاء . ومن نزل منهم منزلا ذكر اسمه وتغنى به ، فمنازل نجد للنجديين ، ومنازل تهامة للتهاميين . ومن استمتع بالخُزَامَى والعَرَار تغنى بالخزامى والعرار ، ومن صاد الوعل وصف صيده للوعل ؛ يلتزمون الحقائق ، ويصدقون التشبيه والوصف ؛ يجيدون وصف الشىء أكثر مما يجيدون وصف الحالة ، فإذا وصفوا أسداً أو ناقة أو غادة أجادوا ، ولكنهم إذا وصفوا حالة نفسية لحبيب ، أو حالة لجيشين متقاتلين ، أو فقر قوم و بؤسهم ، لم يبلغوا فى ذلك مبلغهم من وصف الشىء ؛ لأن وصف الشىء الخارجى أبسط وأيسر من وصف الحالة المعنوية أو الحالة النفسية ؛ فهذه تتطلب رقيا عقليا وقدرة على التحليل النفسى لم يصلوا إليهما .

وكانت أوزان شعرهم هى وحى نفوسهم ، منسجمة مع غنائهم ، مؤتلفة مع آذانهم .

* * *

ثم جاءت الدولة الأموية ، وكان الأدب فيها صادقاً صدق الأدب الجاهلى ، لأن كثيراً من شعرائها لم تكن حياتهم إلا امتداداً للحياة الجاهلية ، وكان الذوق فيها ذوقا عربيا يشبه الذوق الجاهلى إلا بما لطفته المدنية ، فموضوعات الحياة هى موضوعات الحياة الجاهلية ، إن كان ثم خلاف فهو أن الهجاء القبلى تحول إلى هجاء سياسى ، والحياة الخشنة تحولت عند كثير من العرب إلى حياة نعيم تشبه حياة امرئ القيس فى جاهليته ، ونغمات الشعر الموسيقية التى كانت تلذ الأمويين هى التى كانت تلذ الجاهليين .

نعم إن الإسلام كان له أثر كبير فى حياة الناس ، ولكن كان له أكبر الأثر فى أوساط الشعب ورجال العلم ورجال الأعمال وأقله فى الشعراء .

فلا عجب أن يأتى الشعر الأموى مصبوغا بالصبغة الجاهلية فى الأوزان والقوافى والموضوعات والروح .

إنما العجب أن يأتى الشعر العباسى على هذا النمط ، وكثير من الشعراء فرس ، والحياة حياة فارسية فى أكثر ألوانها ، والحالة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية مخالفة كل المخالفة للحياة الجاهلية والأموية !

لقد كان من مقتضى هذا التغير أن يأتى الشعر العباسى صورة صادقة لهذه الحياة الجديدة ، ولكن لم يكن كبير شىء من ذلك ، وعلماء الأدب يجهدون أنفسهم فى بيان المميزات الجديدة للعصر العباسى ، فلا يأتون إلا بأشياء لا أراها إلا سطحية ليست فى الصميم ، كالتنميق وكثرة الاستعارات والتشبيهات والإكثار من البديع وورود الألفاظ الأعجمية والتعبيرات العلمية ، والإكثار من الخمر والغزل

فى المذكر ونحو ذلك ، وهى فى نظرى ليست من الجوهر فى شىء ؛ إنما جوهر التغير أن يعدّلوا أوزان الشعر بما يتفق ورقى آذانهم الموسيقية ، وأن يصِفُوا أحوال عصرهم الاجتماعية والسياسية وصفا صادقا مستفيضا ، وأن يصفوا ترفهم و بؤسهم وصفا تحليليا صادقا ، وأن يتغنوا بأماكنهم وطبيعة بلادهم ، وأن يصفوا مشاعرهم هم لا مشاعر غيرهم ، وأن يفتحوا الفتوح فى الأدب حتى يكون سجلا لأفكارهم ومشاعرهم الحقة ، كما كان الشعر الجاهلى سجلا لأفكار الجاهليين ومشاعرهم الحقة وهكذا ، وهذا الضرب لا نعثر منه فى العصر العباسى إلا على القليل النادر .

أهم سبب فى هذا — عندى — جناية الأدب الجاهلى عليهم .

لقد وجد فى العصر العباسى لأول عهده معسكران ، معسكر يدعو إلى القديم وعدم الحيدة عنه ، ومعسكر يدعو إلى التجديد وعدم التقليد ؛ فكان زعماء المعسكر الأول أمثال الأصمعى ، وأبى عمرو بن العلاء ، وابن الأعرابى ، وكان هؤلاء رواة أكثر منهم أدباء ، وكانوا علماء لغة أكثر منهم نقدة أدب ؛ فغلب عليهم بطبيعة ثقافتهم أن يتعصبوا للقديم وخاصة الشعر الجاهلى ، وكان أبو عمرو بن العلاء يرفض الاحتجاج حتى بشعر الأمويين ، ولا يقر بفضلٍ للمحدَثين ، ويقول عن المحدَثين : « ما كان عندهم من حسن فقد سُبقوا إليه ، وما كان من قبيح فهو من عندهم » . وربما أعجبه شعر جرير أو الفرزدق فيقول : « لقد حسُنَ شعر هذا المولّد حتى هممت أن آمر صبياننا بروايته » .

وقرأ رجل على ابن الأعرابى أرجوزة لأبى تمام على أنها لبعض الهذليين فقال : اكتب لى هذه ، فكتبها ثم قال له إنها لأبى تمام فقال : « خَرِّقْ خَرِّقْ » ومثل هذا كثير .

وأما المعسكر الثانى فكان يدعو إلى استحسان الحسن لقديم كان أو لمحدَث ، واستقباح القبيح لقديم كان أو لمحدَث ، وكان من هؤلاء أبو نواس ، فقد نادى :

بألاّ يحق للشاعر أن يتغزل بليلى ولا هنـد إذا كانت محبوبته ليست ليلى ولا هند فيقول :

لا تبكِ ليلَى ولا تطرَبْ إلى هنـد   واشرَبْ على الوَرْدِ من حمْراء كالوَرْدِ

ولا يحق له أن يبكى الأطلال ويقف على الديار فيقول :

لا جَفَّ دمعُ الذى يبكى على حَجَرٍ   ولا صَفا قلبُ مَنْ يصْبُو إلى وتِدِ

ويقول وما أحسن ما يقول :

تصف الطلول على السماع لها   أفذو العيان كأنت فى الفهم

وإذا وصفتَ الشىء متَّبِعا   لم يخلُ من زَلَلٍ ومن وَهْم

ولـكن هذه الحرب انتهت مع الأسف بنصرة الدعاة إلى القديم . والسبب فى ذلك أنهم كانوا أكثر بالخلفاء اتصالا ، وأكثر أتباعا وأشياعا ، وأنهم من مكرهم صبغوا دعوتهم صبغة دينية ، فقالوا إن الشعر الجاهلى هو أحد المصادر فى تفسير القرآن الـكريم ، وعليه نعتمد فى شرح المفردات وبيان الأساليب ، وفاتهم أن الاحتفاظ بالشـعر الجاهلى لهذه الأغراض لا ينافى مسايرة الأدب للزمان والمـكان .

على كل حال نجحت دعوتهم ، وأخفتوا صوت مخالفهم ، وساد فى هـذا العصر تقديس الشعر الجاهلى وكل شىء جاهلى . وقد عجب الجاحظ عجبى هذا فى كتاب « الحيوان » ، فقـد ذكر أن غالب بن صَعْصَعَة كان أكرم من حاتم ، ولـكنه لم يشتهر شهرته لأن غالبا كان إسلاميا وحاتما كان جاهليا « والناس بمآثر العرب فى الجاهلية أشد كلفا » وتعجب فقال : « ما بال أيام الإسلام ورجالها لم تـكن أكبر فى النفوس وأجل فى الصدور من رجال الجاهلية مع عظم ما مَلَكَ المسلمون وجادت به أنفسهم ! » .

ومهما اختلفت الأسباب فقد كانت هـذه هى النتيجة : غلبة الأدب الجاهلى

وسطوته ، وتقييد الأدب العربى بكل القيود التى قيد بها الأدب الجاهلى ، ولعلنى لا أجد أوضح تعبيراً عن ذلك من ابن قتيبة ، مع أنه كان يزعم أنه من المجددين ، إذ يقول : « ليس لمتأخر الشعراء أن يخرج عن مذهب المتقدمين ، فيقف على منزل عامر أو يبكى عند مشيد البنيان ، لأن المتقدمين وقفوا على المنزل الداثر والرسم العافى ، أو يرحل على حمار أو بغل ويصفهما لأن المتقدمين رحلوا على الناقة والبعير ، أو يرد على المياه العِذَاب الجارية لأن المتقدمين وردوا على الأواجن الطوامى ، أو يقطع إلى الممدوح منابت النرجس والآس والورد لأن المتقدمين جَرَوا على قطع منابت الشِّيح والعَرار » .

اللهم إن هـذه دعوة لم يُفسد الأدبَ مثلُها ، فهو وأمثاله يطلبون إذا ركب الشاعر طيارة أن يتغزل فى الناقة ، وإذا شم وردا أن يتغزل فى العـرار ، وإذا سكن قصرا أن يتغزل فى الأطلال ، وإذا عشق ثريا أن يتغزل فى هنـد . فأين إذن صدق العاطفة وصدق الوصف ، وأين حرية الأديب ، وأين دعوى أن الأدب سجل الحياة ؟ .

***

مما يؤسف له أن هـذه الدعوة السخيفة لقيت نجاحا كبيراً وشلت الأدب العربى شلا فظيعا فى العصور كلها إلى اليوم .

فقـد هاجم هؤلاء الجامدون كل من حدثته نفسه بتجديد ، فإذا خرج أبو نواس عن المألوف ، ودعا إلى عدم البكاء على الدمن والوقوف على الديار ، هاجموه وسبوه ، إلى أن اضطروه فى مديحه للخلفاء أن يعدل عن رأيه ، ويقف على الديار ويصف ناقته حتى يصل إلى ممدوحه .

وإذا انحرف أبو تمام عن المألوف قليلا بابتكار بعض المعانى والتعمق فيها والتحليق بها فى الخيال ، قالوا : « إنه خرج على عمود الشعر » ، وفضلوا البحترى

عليه لأنه ألصق بهذا العمود ، حتى قضوا قضاء مبرما على كل تجديد .

كان من أثر دعوتهم هذه انعدام حركة التجديد فى الشعر ، وعدم ملاءمته لروح العصر ، وانحباسه فى قوالب تقليدية لا يتعداها ؛ حتى أصبح الناس والشعراء يلوون عقولهم ويلوون أذواقهم ، ليستحسنوا الشعر ويتذوقوه ، كما يلوى الشرقى ذوقه ليتذوق الموسيقى الأوربية ، وحتى أصبحت عيون الناس والشعراء فى أقفيتهم لا فى وجوههم ، ينظرون إلى الخلف ولا ينظرون إلى الأمام ، إذا ذكر لهم بيت من الشعر الجاهلى تهيأوا للإعجاب به قبل أن يسمعوه ، وأعجبوا به بعد أن يسمعوه ؛ وقد يكون فى ذاته سخيف المعنى ردئ اللفظ ، ولكن مَلَكَ التقديس الجاهلى عليهم أنفسهم وأذواقهم ، فاستحسنوا القبيح وأعجبوا بالسخيف ، وكان مثلهم مثل هاوى السَّجاد ، يفضل الفتلة البالية من السجادة القديمة المهلهلة على كل سجادة جديدة وإن كانت أجمل وأنفع وأصلح !

وعبادة القدم — دائما — تفسد الذوق ، وتقلب الوضع ، وتفسد التقدير ؛ فهم يعجبون جدا بقول امرئ القيس : « تقول وقد مال الغبيط بنا معا » ، ويفضلونه على كل شىء فى هذا المعنى ، ويستلطفون قوله : « خطبة مسحنفرة وطعنة مثعنجرة » على وصف كل خطبة وطعنة ، وهكذا وهكذا مما لا عدّ له .

أليس فى الإعجاب بهذه المعانى وهذه الألفاظ إفساد للذوق وإهدار للعقل ؟ .

***

لقد كان لانتصار هذا الرأى المحافظ الشديد المحافظة أسوأ الأثر فى الشعر من نواح متعددة ، من حيث الشكل ومن حيث الموضوع ، لا يسع المقام إلا أن أذكر طرفا قليلا منها .

فمن ناحية الشكل قيد الشعر بقيود الوزن والقافية كما رسمها الشعر الجاهلى ، فالبحور الجاهلية هى البحور التى سار عليها الشعر العربى كله إلى الآن إلا أشياء

قليلة ، وكذلك القافية ، مع أن البحور ليست إلا أوزانا ، والأوزان ليست إلا موسيقى ، والموسيقى تختلف باختلاف العصور ؛ فكما أن الغناء الجاهلى لا يناسبنا فكذلك كان يجب أن تكون الأوزان والقافية مسايرة للزمن ، وأن تحكّم كل أمة عربيـة أذنها الموسيقية فى الأوزان الشعرية التى تناسبها والتى لا تناسبها ، سواء وافق ذلك الأوزان الجاهلية وقوافيها أو خالفها ، أما أن نخضع آذاننا للأوزان الجاهلية والقافية الجاهلية فحسب ، فنوع من السجن لا يليق بأمة راقية تتحرر من القيود الثقيلة ، وقد جنى هذا القيد علينا جنايات كبرى تتصل بالموضوع ، فالتقيد بالقافية حرمنا من الملاحم الطويلة التى كانت عند الأمم الأخرى ، وحرمنا من القصص الطويلة الممتعة ، لأن اللغة مهما غنيت بالمترادفات لا تستطيع أن تقدم للشاعر مئات الكلمات على روىّ واحد وعلى حرف واحد ، خصوصا بعد أن قيدوا الشاعر أيضاً بألا يعيد الكلمة الواحدة إلا على مسافات بعيدة .

وكان لهذا القيد ضرر آخر لا يقل عن هذا خطراً ، وهو تحكّم الألفاظ فى المعانى ؛ فالشاعر فى كثير من الأحيان يبحث عن لفظ القافية — أولاً — ثم يبحث عن المعنى الذى يناسب القافية ، وهذا قلب للأوضاع مفسد للأدب ، لأن الواجب أن يتبع اللفظ المعنى لا المعنى اللفظ .

وأما من حيث الموضوع ، فكانت مصيبتنا فيه أعظم ، لأن تقديسنا للأدب الجاهلى حصر الشـعر العربى فى نفس الموضوعات التى صيغ فيها الشعر الجاهلى ، من مديح وهجاء ، ونخر وحماسة ، وغزل ورثاء ؛ ولم يمس الشعراء عواطفهم الحقيقية ولا حالتهم الاجتماعية إلا مسّا رقيقاً . وإلا فخبرنى : أين الشعر العراقى الذى تجد فيه الشعراء يتغنون بمناظر العراق الطبيعية ، ويصفون فيه أحداثهم الاجتماعية ؟ وأين الشعر الشامى أو المصرى أو الأندلسى الذى يشـيد بذكر مناظر الطبيعة وأحوال الاجتماع للشام ومصر والأندلس ؟ إنك تقرأ الشعر العربى ، فلا تعرف

إن كان هـذا الشعر لمصرى أو عراق أو شامى إلا من ترجمة حياة الشاعر ، أما القالب كله فشىء واحد ، والموضوع كله واحد ، مديح أو رثاء أو هجاء أو نحو ذلك مما قاله الجاهليون .

أليس عجيباً أن يفتح المسلمون بلاد الدنيا ثم لا يقول الشـعراء فى ذلك شيئاً يذكر ؟ أوليس عجيباً أن يكتسح التتار العالم الإسلامى ، ثم لا يقولون فى ذلك أيضاً شيئاً له قيمة ؟ ثم تأتى الحروب الصليبية ، وتكون عجباً من العجب ، وتستمر السنين تلو السـنين ، وتكون ملعباً للعواطف ، وتتوالى فيها الأحداث تذيب القلوب وتصهر النفوس ، ثم يتحول أكثر ما قيل فيـه إلى مدح الملوك الفاتحين أو المنتصرين ، ولا يقال إلا القليل فى المعنى السامى المجرد عن الأشخاص ؟ وكل ما يلتمس من التعليل الصحيح أن يقال إن الجاهليين لم يقولوا شعراً فى هذه المعانى فلم يقل فى ذلك من بعدهم !

أليس من السخرية ومما يستوجب الحسرة والأسى أن يترك الشعراء هذه المواقف كلها وأمثالها مما يقع تحت سمعهم و بصرهم ، فلا يحركهم إلا « قفا نبك » و « مال الغبيط » ، فإن جـددوا فى شىء فأن يكون الممدوح سيف الدولة بدل الغساسنة ، وأن يكون المـادح المتنبى بدل الأعشى ؟ .

لا . لا . اللهم إن هذا منكر لا يرضيك ، وهذه جناية قتلت الأدب العربى ووقفته أكثر من ألف سنة حيث كان والزمن سائر والعالم متغير !

هل فى ذوقنا الآن أن نبدأ الشعر فى حادثة اجتماعية بالغزل ؟ وهل فى ذوقنا نحن الآن أن نملأ الشعر بأماكن البادية ومياه البادية وجبال البادية وأودية البادية ؟ وهل فى ذوقنا نحن الآن أن نتغنى برائحة العرار والخزامى ، وأن نرعى الشيح والقيصوم ؟ لا شىء من ذلك ، ولـكنه التقليد المخجل والحرية المفقودة .

أليس مما يستوجب الهزؤ والسخرية أن يكون تقسيم البارودى للشعر فى القرن

العشرين هو تقسيم أبى تمام للشعر فى القرن الثالث ؟ .

أو ليس مضحكاً أن يترك الشعراء العراقيون والمصريون والشاميون بلادهم وأنهارهم ويتغزلوا فى نجد وغير نجد ، فابن الدمينة يقول :

« ألا يا صبا نجد متى هجت من نجد »

وابن الخياط يقول :

« أهيم إلى ماء ببرقة عاقل »

وصُرَّدُرّ يقول :

« النجاء النجاء من أرض نجد »

ومِهْيَارُ الديلمى الفارسى يقول :

تظن ليالينا عــــوّدا على العهد من بُرْقتىْ ثهمدا

إلى آخره ، إلى آخره .

***

لقد آن لنا أن نفك هــذه الأغلال كما نفك قيود الاستعمار سواء بسواء ، لأن الأدب الجاهلى يستعمر عقلنا وذوقنا ، فيشلنا شلل الاستعمار .

وآن لنا أن يكون شعر كل أمة عربية ، وأدب كل أمة عربيــة ، صدى لشعورها وسجلا لأحداثها وتغنياً بعواطفها وتوقيعاً على موسيقاها ، وآن لنا أن يكون موضوع الشعر خلجات نفوسنا وتمجيد طبيعتنا ، وتاريخ ما يحدث بين أيدينا .

وهــذا لا يكون إلا بتغيير نظرتنا إلى الأدب ، وتغيير برنامجنا فى الأدب ، والتحرر من ربقة الشعر الجاهلى ، وسيطرة الشعر الجاهلى .

وبعد فهذا موضوع من الخطر بمكان ، لعل المفكرين والقراء يطيلون فيه التفكير ، ويطيلون فيه الكتابة ، حتى نصل فيه إلى الكلمة الأخيرة .

(٢)

قدّس الناس الأدب الجاهلي تقديساً أكبر مما يستحق ، وذلك بفضل جماعة من العلماء ظهروا فى آخر الدولة الأموية وأول الدولة العباسية ، يجمعون مفردات اللغة وأساليبها وأدبها ؛ وكان عملهم هذا يستحق الإعجاب والتقدير ! ولكن ما لا يستحق الإعجاب ولا التقدير أنهم رفعوا من شأن الأدب الجاهلي ، وفضلوه على كل أدب لمحدَث أو مولد ، وأنهم وقفوا فى وجه كل مجدِّد ، وأنهم أرادوا أن ينطبع الأدب العربى بالطابع الجاهلي لا غيره ، فكان لهم — مع الأسف — ما أرادوا .

رفعوا من قيمة كل شىء جاهلي وغلَوْا فى تقديره ، فالماء الحقير فى مستنقع جاهلي أفضل فى الذكر من دجلة والفرات والنيل وكل أنهار الدنيا ، والجرادتان اللتان غنتا النعمان كان صوتهما وغناؤهما خيراً من كل صوت وغناء ، ودَوْسَر كتيبة النعمان بن المنذر أقوى جيش عرفه التاريخ ، وأيام العرب فى الجاهلية ووقائعها الحربية لا يعادلها أى يوم من أيام المسلمين ، وجبلا طيئ خير جبال الدنيا ، وحاتم الطائى لا يساوى كرمه كرم ، حتى الرذائل لا يصح أن يساوَى برذيلتهم رذيلة . فليس أبخل من مادر ، ولا أشأم من البَسُوس ، ولا أسرق من شِظاظ !

كل هذا طبع الأدب العربى على غرار الأدب الجاهلي فى كثير من شؤونه ، مع اختلاف البيئات ، ومع اختلاف العصور !

كان غزل الأدب الجاهلي حزيناً بائساً ، لأن أرض الجاهليين بائسة فقيرة ، ولأن سكانها كثيرو الرحلات وفى تنقل مستمر ، والآباء يتعيرون من اجتماع الحبيبين ؛ فما بال الغزل العباسى وغير العباسى حزيناً بائساً والخير وفير ، والحبيب

قريب ؟ بل ما بال الغزل فى الإماء حزيناً بائساً والأمة فى اليد وليس يتعير مالكوها من حب ووصال ؟ .

وكان أدباء الجاهلية يفتتحون قصائدهم بالنسيب إذا أرادوا مدحا أو أرادوا هجاء أو أرادوا أى غرض ، لأن هذا يتفق وذوقهم ؛ فما بال الأدب الذى أتى بعدُ ينحو هذا المنحى وقد تغيرت الظروف ؟ وما بال الشاعر العباسى يقصد إلى الممدوح التركى أو الفارسى فيتغزل بدعد ويهيم بدعد ، فى أبيات طوال حتى يصل إلى الممدوح وقد أضناه التعب ؟ .

وكان الشاعر الجاهلى يقطع الفيافى والقفار على ظهور الإبل ؛ فيصف عناءه ، ويصف طريقه الوعر ، ويصف هزال ناقته ، وهو فى ذلك صادق كل الصدق ؛ ولكن ما شأن مسلم بن الوليد وأبى نواس وأبى تمام والبحترى ، والممدوحُ فى بغداد والمادح فى بغداد ، والشاعر يسير على رجله خطوات ليصل إلى الممدوح ، فلماذا يحشُر فى الوسط ناقة وبيداء ونحو ذلك ؟ .

وكان الشاعر الجاهلى يخرج للبادية ، ويصعد الجبال ، ويهبط الوديان ، ويصيد الوحش ، ويرى المها والغزلان ، وعيون المها وجيد الغزلان ، فيشتق تشبيهاته مما يرى ومما يحس ويلمس ؛ ولكن أين المها فى بغداد أمام علىّ بن الجهم حين يقول :

« عيون المها بين الرصافة والجسر »

وأين المها والوعل فى مصر والأندلس ، حتى امتلأ بذلك كله شعر مصر والأندلس ؟ .

وكان الشاعر يرحل فى صحبه ، فإذا وقف على دار محبوبته استوقف أصحابه يعينونه على البكاء ؛ وقد حدث لأمرٍ ما أن قال « امرؤ القيس » الجاهلى : « قفا نبك » بصيغة التثنية ، وكان فى هذا صادقا ؛ فما بال « حافظ إبراهيم » فى مصر ،

ولا دار ولا أطلال ولا صحب ، يقول فى مدح الشيخ محمد عبده :

بكرَا صاحبيَّ يوم الإياب   وقفا بى فى عين شمس قفا بى

ويطول بى القول لو أخذت فى تعداد هذه الأشياء التى لا علة لها إلا سلطان الأدب الجاهلى على الأدب العربى .

ولعل هذا كان من الأسباب التى جعلتهم يقولون : « إن أجود الشعر أكذبه » . أفليس كل هذا كذبا فى كذب ؟ .

***

وناحية أخرى لها خطورتها ، وهى أن العربى الجاهلى انتزع صور تعبيراته وتشبيهاته ومجازاته واستعاراته من بيئته التى يعيش فيها ، فكانت صوراً صادقة وتعبيرات صحيحة وابتكارات موفقة . ثم لما أتى مَن بعدهم تأثر بهم ودرج على أثرهم ، ولم يلحظ الفرق بينه و بينهم ، وانعدام الصدق فى قوله دون قولهم .

كان العربى يعتمد على الإبل فى معيشته ، فاشتق منها ومما يحيط بها ومن طرق معيشتها كثيراً من أدبه فقال : « ألقى حبله على غاربه » و « أنا جُذَيْلُها المحكّك وعُذَيْقُها المرجَّب [١] » وقال : « الصيفَ ضيعْتِ اللبن » وقال : « أخذ الشىء برُمَّته [٢] » و « ليس فى العير ولا فى النفير » و « دون ذلك خرط القتاد » الخ الخ . فما لأدبائنا وطلبتنا وهم لا يعيشون عيشة إبل يستعملون هذه التعبيرات كلها وهى بالنسبة لهم ليست تعبيراً صادقا ، أو على الأقل لا يضيفون إليها التعبيرات المشتقة من حياتهم ؟ .

وكان العربى فى الجاهليــة يعيش عيشة اجتماعية خاصة ، عمادها اللبن والتمر والجزور ، ونباتها الشيح والقيصوم ، وحيواناتها الضب وما إليه ، وعلاقة بعضهم

---

(١) الجذيل : أصل الشجرة . والمحكك : الذى تتحكك به الإبل الجربى .

(٢) الرمة : الحبل البالى فى عنق البعير .

ببعض علاقة ارتباط بالدم فى القبيلة وعلاقة عداء مع غير القبيلة ؛ فكان من ذلك كله أدبهم وتعبيرهم وفخرهم وهجاؤهم ، ثم تغير ذلك كله ؛ تغيرت معيشة الأمم وحيوانها ونباتها ، وحلت الأمة محل القبيلة ، كما حلت الحضارة محل البداوة ؛ أفلا يكون من الحق أن يكون أدب كل أمة صورة صادقة لها ؟ .

كان العربى يقول فى المرأة : كأنها ظبى من ظباء عُسْفان ، ورِئم من آرام وَجْرَة ، ومهاة من مها الصَّريم ، وجُؤْذَر من جآذر جاسم ؛ أفيحق لنا أن نقول هذا فى تشبيه المرأة المتحضرة ؟

وكانت لهم مقاييس فى الجمال من سِمَن ورِدْف ، ولهم أوصاف خاصة بما يتصل بالجمال ، كنئوم الضحى ومكسال ؛ أليس من الحق وقد تغير المثل الأعلى لجمال المرأة أن يتغير الأدب تبعاً له ؟ .

وكانوا يقولون إن قده قدّ القناة وقوامه قوام الرمح ، وكأنه النخلة السحوق ؛ أيصح أن يظل هذا مستعملا فى الأدب وقد بطلت القناة وسمج تشبيه القد بالنخلة ؟

وكان عرب البادية يرون فى باديتهم نبت الثُّمام ، ورأوه لا يطول ، فقالوا للشىء الذى يسهل تناوله : « هو منى على طرف الثمام » فكانوا صادقين فى قولهم مصيبين فى تعبيرهم ؛ فكيف يجوز لنا ولم نر ثماما قط أن نعبر هذا التعبير إلا أن يكون تقليداً مخجلا ؟ .

وكانوا يرون الضب فى باديتهم ويلمسونه بأيديهم ، ويعرفون نوع حياته ، فكوّنوا لهم أدبا حوله ، رأوا الضبَّة تأكل أولادها فقالوا : « أعق من ضب » ، ورأوا عقد ذنبه كثيرة فقالوا : « أعقد من ذنب الضب » ، وعرفوا أنه يسكن جحره فى الشتاء فقال قائلهم :

يبارى الريحَ تكرمة ومجداً إذا ما الضب أجحره الشتاء

فكيف يسوغ لمصرى أو عراقى أو شامى أن ينطق بهذه الأقوال ، ولم ير

ضبًّا قط ، ولا رأى عقد ذنبه ، بل قد لا يعرف شيئاً عنه ؟ والأمثلة على ذلك أكثر من أن تحصى .

كان لهذا التقليد أثران سيئان جدًّا :

(أولهما) استعاراتنا وتشبيهاتنا وقفت عند الاستعارات والتشبيهات الجاهلية ؛ فقد حلت الطيارات محل الإبل ، ولا زلنا نقول : ألقى حبله على غاربه . ووجدت الأسلاك الشائكة أشكالا وألوانا ولا زلنا مولعين بحَسَك السعدان . وأمدتنا المخترعات الحديثة بألوان وألوان يمكن العقل الخصب أن يستمد منها آلافا من التشبيهات والاستعارات ، ونحن لا نزال عند « الصيفَ ضيعْتِ اللبن » . وتغير نظرنا للحياة فأصبح كرم حاتم من النوع السخيف والإسراف الممقوت ولا زلنا نقول الكرم الحاتمى . وهناك آلاف من أنواع الخيبة التى تصلح للتشبيه ، ولكن لا نزال « خُفا حنين » وحدهما هما مضرب المثل . وكم فى العالم من مجهولات يمكن التشبيه بها ولكن لم يلق نجاحا فى التعبير إلا إنه « لا يعرف من أين تؤكل الكتف » . وكم فى الدنيا من أشياء يشبه بعضها بعضاً ، ولكن ليس لشىء منها حظ كحظ « حِمَارَى العِبَادى » . وكم فى الدنيا من مؤتمرات أعدت أحسن إعداد ، وألقى فيها من موضوعات الأدب والفن ما كان غُرة فى جبين الدهر ، ولكن كل ذلك لا يستحق أن يذكر اسمه بجانب « سوق عكاظ » !

من أجل هذا كله افتقر الأدب العربى فى باب التشبيهات والاستعارات التى تجارى الزمان ، وتخترع من حوادث الأيام ، ووقفت جامدة كما تركها الأولون إلا فى القليل النادر .

والضرر الثانى أن الأدباء ينطقون بما لا يعلمون ، ويشبهون بما لا يبصرون ، ويتحدثون بما لا يفقهون ؛ وإلا فكيف يجيز الكاتب لنفسه أن ينطق بالضب وهو لم يره ، ويتغنى بريح الخزامى وهو لم يشمها ؟ وكيف يطلق الحبل على الغارب

وهذا ليس فى حياته ؟ وكيف يبكى الأطلال فى مدينة القاهرة ؟ .

إن كثيراً من الطلاب والكتاب يستعملون كل يوم فى كتاباتهم نوعا من الصيغ المألوفة ولا يفهمونها ، لأنها ليست مشتقة من حياتهم ولا تنطبق على نوع معيشتهم ، وإنما هو التقليد المعيب والجمود المخزى .

ومن غريب الأمر أن القرآن الكريم عاب الجاهلية وحقر من شأنها ، ورماها بفساد العقل وفساد الذوق ، ثم كان من مزاياه الجليلة أنه عبر تعبيرات إنسانية عالمية لا تعبيرات بيئة جاهلية ؛ ومع هذا كله أشربت النفوس حب الجاهلية ، ومجّد العلماء الأشياء الجاهلية ، واستعبد الناسَ الشعرُ الجاهلى والأدب الجاهلى ، وكان فى ذلك البلاء العظيم !

***

إن كان ما أقول حقا ، وكان ما وصفت داء ، وجب أن نضع له الدواء ، والدواء فى نظرى أشياء .

أهمها : ألا يكون فى برنامج المدارس الثانوية دراسة للأدب الجاهلى وما يشبهه ، كأدب جرير والفرزدق والأخطل ؛ وبعبارة أدق ، أن يكون لنا نوعان من الدراسة : نوع للخاصة كقسم اللغة العربية فى الجامعة والأزهر ودار العلوم ، وهؤلاء يدرسون كل شىء فى الأدب العربى قديمه وحديثه ، جاهليّه وإسلاميّه ما استطاعوا ؛ فهم يدرسون الأدب الجاهلى كما يدرس رجال الآثار الآثار القديمة ، وكما يدرس رجال التاريخ التاريخ القديم . أما غير المتخصصين كطلبة المدارس الثانوية وأشباههم فحرام أن يضيعوا أوقاتهم فى دراسة الأدب الجاهلى وهم لا يعلمون من الأدب شيئاً ، وحرام أن نلوى عقولهم وأذواقهم بالمعلقات وأشباهها ، وهم لم يتكون ذوقهم الأدبى بعد ؛ فيجب أن يقطعوا مرحلة التعليم الثانوى بدراسة نماذج من القرآن الكريم ونماذج من الأدب الحديث ومختارات سهلة عذبة من

الشعر العباسى وأمثاله ، على شرط أن يكون هذا الأخير متفقاً والذوق الحديث ، ملائماً فى موضوعاته وفنه لحياتنا الحالية ، فإن نحن قرأنا لهم شيئا من الشعر الجاهلى فعلى شريطة أن يكون سهلا عالميا لا صعبا موضعيا ؛ ولخير لهم ألف مرة أن يقرءوا أدب المعاصرين وشعر المعاصرين من أن يقرءوا للشَّنْفَرَى وتأبط شرا وجرير والفرزدق ، فإن هؤلاء المعاصرين يشعرون شعورهم ، ويكتبون بلغتهم ، ويتعرضون لموضوعات تهمهم ، ويتذوقون بذوقهم ، فإذا أكثر الطلبة من قراءة مؤلفاتهم استطاعوا أن يقطعوا مرحلة كبيرة فى سبيل رقىّ لغتهم وتكوّن ذوقهم . وليس يفيدهم شيئاً أن يضيعوا سنة أو أكثر فى دراسة مختارات من المعلقات ، وسنة أخرى فى دراسة مختارات من جرير والفرزدق والأخطل ؛ وليت الأمر اقتصر على عدم الفائدة ، بل إن ضرره محقق فى إفساد ذوقهم وضياع زمنهم .

إن الأمم الأخرى الحية كإنجلترا وفرنسا تدرس لطلبتها شيئاً من الأدب القديم ، ولكن قديمها ليس كقديمنا ، فعمر الأدب الإنجليزى والفرنسى حديث لا يمعن فى القدم إمعان الأدب الجاهلى ، بل إن نحن وقفنا عند العصر العباسى كنا أقدم منهم .

وشىء آخر ، وهو أن أدب هذه الأمم — مهما قدم — وليد حضارة تشبه حضارتهم التى يعيشون فيها ، ووليد بيئة اجتماعية هى أصل لبيئتهم الاجتماعية الحالية ، فهم إذا درسوا هذا الأدب القديم تذوقوه كما يتذوقون حضارتهم ، ووجدوا فيه موضوعات من جنس موضوعاتهم . أما الأدب الجاهلى فوليد بيئة تختلف تماما عن بيئتنا الحالية ، وتحتاج فى فهمها إلى تخصص تام لمعرفة البداوة وشؤونها وأحوالها ، حتى نستطيع أن ندرك أدبها ، وهذا القدر لم يدركه المتخصصون فكيف بالطلبة ؟

إنى أسائل رجال الأدب بإخلاص : ماذا استفاد طلبة المدارس من دراسة الأدب الجاهلى فى إنشائهم وفى معلوماتهم وفى تربية ذوقهم ؟ لا شىء إلا أن يمثلوا دور الببغاء ، يحفظون ما يلق عليهم حتى إذا نقشوه على ورق الامتحان تخففوا منه سريعاً ، ولو أنهم صرفوا هذا الزمن فى دراسة الأدب الحديث لنما الأدب الحديث وأزهر ، ورق ذوق الطلبة وأثمر .

بل إنى أذهب إلى أكثر من ذلك ، وأرى أن معاجمنا اللغوية يجب أن يكون منها نوعان أيضاً : نوع للخاصة فيه كل لفظ وكل استعمال ، ونوع للعامة نميت فيه الألفاظ الجاهلية التى لا حاجة إليها فى حياتنا ، والتى تدل على أشياء لا علاقة لها بنا ، ونخلى مكانها للألفاظ الحديثة التى نحتاجها ، لا نذكر فيها من النباتات البدوية ولا الحيوانات البدوية ولا الأدوات البدوية إلا ما لنا به علاقة ما ، ونفتح صفحاته الكثيرة لندون فيها أزهارنا ونباتنا وحيواننا وأدواتنا التى تحيا بيننا بحياتنا .

نميت العرار ونحيي الزنبق ، ونميت الكمأة ونحيي المانجو ، ونميت القوس ونحيي القنابل ، وهكذا .

بل أذهب إلى أكثر من هذا ، فأناشد الأدباء والشعراء أن يستمدوا تشبيهاتهم واستعاراتهم مما بين أيدينا من مخترعات ، وألا يستعملوا ما لا يحسون ولا يعلمون من تشبيه ، وأناشد المعلمين أن يعلموا بالخط الأحمر على الاستعمالات التى يستعملها الطلاب ولا يفهمونها ، أو يفهمونها ولا يحسونها ، فلا يجيزوا لطالب أن يقول « ألقى حبله على غاربه » ، ولا أن يقول « أندر من الكبريت الأحمر » وهم لا يعلمون ما الكبريت الأحمر ، ولا أنا أيضاً ، ولا « أعز من بيض الأنوق ، ولا الأبلق العقوق » ، ولا « عقود الجمان ، ولا قلائد العقيان »[١] ، فهى كلمات

---

(١) فى القاموس : العقيان ذهب ينبت !

ضخمة لا مدلول لها ، وليطالبوهم بأن يحركوا أذهانهم ، ويهزوا عقولهم ، فيصوغوا ألفاظهم وتعبيراتهم وتشبيهاتهم مما بين أيديهم ، فذلك أليق بالحر وأجدر بالعاقل .

إنا إن فعلنا ذلك فككنا أغلالنا ، وتحررنا من سلطان الأدب الجاهلى ، واستطعنا الجرى إلى الأمام فى أدبنا .

هذا ما أرى ، فهل يجد هذا الموضوع من رجالاتنا ما يثير أذهانهم فيؤيدوه أو ينقدوه ، حتى يتجلى فيه الصواب ، ويظهر الحق ، ويكون له نتيجة عملية فى حياتنا الأدبية ؟ .

(٣)

أرانى مضطرا قبل البدء فى هذا المقال إلى التنبيه على خطأ وقع فيه بعض الكتّاب ، وهو أنهم يرون أن الأدب العربى لا يُخدم إلا من طريق التقريظ والإفراط فى تبيين المحاسن والتغاضى عن ذكر المعايب . وغلا بعضهم فرأى أنه مقدس كل التقديس ، لا يصح أن يمس بكلمة سوء ، ولا يذكر بكلمة تجريح .

فهؤلاء وهؤلاء لا يحسنون إلى الأدب العربى بقدر ما يسيئون إليه ؛ فكل أدب فى العالم خاضع للنقد ، ولا يرقى إلا بالنقد ؛ كما أن كل أدب لا يمكن أن يحيا وينهض إلا باقتباسه من حين إلى آخر من الآداب الحديثة ، والمقارنة بينه وبينها ، حتى تُعرَف جوانب قوّته وجوانب ضعفه ، ثم يستفاد من هذه المقارنة بإدخال ما توحى إليه من إصلاح . وهذه الشواهد ماثلة أمام أعيننا ؛ فالآداب الغربية من ألمانية وإنجليزية وفرنسية وإيطالية — على عظمتها وسيرها مع الحياة — لا يزال كتّابها يجهرون بالنقد اللاذع لها ، ولا يزال كل منها فاتحاً عينيه لما يحدث فى الآداب الأخرى ، فإذا شعر بناحية قوية ظهرت فيها أخذها

وطمَّ بها أدبه ، ولم يهدأ حتى يجاريها ويباريها .

وإن مثلنا مثـل الطبيب الذى يرى المريض العزيز عليه ، فلا يمنعه حبه وإشفاقه من تشخيص المرض كما يدعو إليه العلم ويدعو إليه الحق ، ويذكر فى صراحة خطر المرض ، وإن كانت نفسه تذوب حسرات ، ويصف العلاج وقلبه يبتهل إلى الله بالنجاح ؛ ومثل هؤلاء الـكتاب مثل العجائز يدخلن على المريض فلا همَّ لهن إلا أن يكذبن ويقلن له : ما أحسن وجهك ، وما أجود صحتك ، وما أبين العافية عليك ! ونحو هذا من معسول الكلام الذى لايفيد ؛ وقد يحمل المريض على الاستنامة لقولهن ، وعدم الأخذ بوسائل الاستشفاء الصحيح .

قد كان هذا الكلام الرخيص يجوز على الناس قبل أن ينتبه العالم الشرقى لمرضه ، وأيام كان يغط فى نومه ؛ أما وقد استشعر المرض ، وأحس نفسه وحقيقة مركزه ، فقد أخذ يستوصف المصلحين ويهزأ بالمقرظين ، ويسترشد بالمنصفين ، ويحتقر المتاجرين ، ولا يعبأ إلا بالمخلصين .

***

وبعد فنعرض اليوم لناحية أخرى قصر فيها الأدب العربى لشدة تمسكه بتقليد الأدب الجاهلى وهى « أدب الطبيعة » .

ذلك أن الأدب الجاهلى — فيما نقل إلينا — لم يعن العناية الكافية بجمال الطبيعة ، فلم يتغن بجمال الأزهار ، ولا بتغريد الأطيار ، ولا بخرير المياه ، ولا بانسياب الجداول ، ولا بمحاسن النجوم ، ولا بجلال السماء ، ولا بمناظر الأرض كما ينبغى أن يتغنى .

لقد أكثر الشاعر الجاهلى من وصف ناقته ، أو وصف صيده ، أو وصف فرسه ، ولـكنه لم يكثر من وصف منظر طبيعى جميل أخذ بلبه ، أو ملك عليه نفسه .

نعم رويت بعض القصائد الجاهلية فى وصف الرياض كقول الأعشى :

ما روضة من رياض الحَزْن مُعْشِبةٌ خضراء جادَ عليها مُسْبِلٌ هَطِلُ
يضاحك الشمسَ منها كوكبٌ شَرِقٌ مؤزر بعميم النبت مُكْتَهِلُ
يوما بأطيب منها نشر رائحةٍ ولا بأحسنَ منها إذ دنا الاصُل

ولكنه — كما ترى — لم يقصد إلى جمال الروضة قصداً ، ولم يقل ما قال فيها عمداً ، إنما عمد إلى وصف من يحب ، فقال إن طيب رائحة حبيبته أطيب من ريح روضته . وتتابع الشعراء بعدُ على هذا المعنى وعلى هذا النمط .

وكذلك ورد بعض الشعر الجاهلى من هذا القبيل فى وصف جمال الروضة تبعاً لا استقلالا ، كأن يتحسر الشاعر على أيام الصِّبا يوم كان يلقى حبيبته فى مكان نَزِهٍ يصفه ، ثم تتابعت عليه أحداث الزمان فتركته خرابا .

وقد أكثروا من وصف الرعد والبرق والسحاب ، ولكنى أقرؤها فلا أشعر فيها بقلب ينبض ، ولا بعاطفة قوية ، إنما يقف فيها الشاعر عند تقييد ما يرى ، فإن تعدى ذلك فإلى تشبيه يشتقه من بيئته .

وسبب قصور الشعر الجاهلى فى هذا الباب أن الطبيعة فى هذه البيئة طبيعة قاسية ، لا طبيعة رحيمة ، وطبيعة فقيرة لا طبيعة غنية : حَرٌّ مهلك ، وبرد قارس ، وصحراء مجدبة ، وأرض شحيحة ، جبال جرداء ، وأرض صمّاء ، أو رمال لا يستقر فيها ماء .

فكيف توحى هذه الطبيعة بالتغنى بالجمال ؟ إن الطائر إذا لم يجد الغصون الناضرة ، والأزهار اليانعة ، لم يستطع أن يعيش فضلا عن أن يغنى .

وكذلك الشعور بالجمال والتغنى به ، إنما يأتى بعد الطمأنينة على العيش ، والحصول على القوت . وأرض العرب فى الجاهلية لا يتوافر فيها الرزق إلا بشِقِ الأنفس ؛ بل إن الحياة كانت فى كثير من الأحيان تعتمد على السلب والنهب والقتال ، فكيف يفرُغ الشاعر إلى التغنى بجمال الطبيعة ، وأكثر مواقفه فى

تأليب قبيلة على قبيلة ، والإشادة بمحاسن قبيلته ، والتشهير بعيوب أعدائها .

إذاً لم يكن هناك مجال كبير للالتفات إلى محاسن الطبيعة والتغنى بها . ولهم فى ذلك كل العذر ، فلا يكلف الله نفساً إلا وسعها .

ولكن ماذا حدث بعدُ ؟ .

حدث أن فتح الله الدنيا على العرب وملكوا محاسنها على اختلاف أنواعها ؛ ففى أيديهم خير الأنهار وأجمل البحار وأنزه الرياض ، وتحت بصرهم الأراضى الخصبة الجميلة والجبال المكسوة بالأشجار ، والبساتين الغنية بالثمار ، والحدائق التى تختال بالأزهار — فى أيديهم مصر بنيلها وحقولها وبحرها وسمائها ، والشام بجبالها وأشجارها ومياهها وسحرها ، وبلاد العراق بسوادها وبساتينها ودجلتها وفراتها ، وفارس بنجادها ووهادها ومنازهها وثمارها وأزهارها ، ثم كانت فى أيديهم الأندلس بطبيعتها الفاتنة وجمالها الساحر .

فهل وفى الأدب العربى هذه المناظر حقها ؟ وهل أدى للجمال الطبيعى واجبه ؟ نعم نرى أبياتاً بديعة فى الربيع لأبى تمّام والبحترى ، ونرى شعراً جميلا فى وصف الرياض والأزهار والثمار لابن الرومى ، ونجد أبياتاً متفرقة هنا وهناك فى دواوين الشعراء ، ولكنها قليلة نادرة ندرتها فى الشعر الجاهلى ، وأكثرها قيل تبعاً لا استقلالا ، كما هو الشأن فى الشعر الجاهلى ، وهى ليست إلا درراً طغت عليها الأمواج المتدفقة من شعر المديح والهجاء ، وما إليها .

إن كان للبدوى عذره فى أنه لا يكثر القول فى الطبيعة ولا يشعر بجمالها كما ينبغى ، فما عذر الحضرى والجمال وفير والمال كثير وتحصيل العيش سهل يسير ؟ لا عذر إلا أنه أسير التقليد ، لم يستطع أن يستقل فى مشاعره ولا فى تفكيره ولا فنه .

لقد كانت الأندلس أغنى بقاع المسلمين منظراً وأوفرها جمالا ، أبدعها الخالق

أيما إبداع ، وصاغها خير صياغة ، ولوّنها أجمل الألوان ، فلا يستطيع من رآها إلا أن يغنى ولا من شاهدها إلا أن تفتنه . ومن الحق أن شعراءها غنّوا أكثر من غيرهم ، وتفننوا فى ذكر محاسن الطبيعة أيما تفنن ، ونبغ فيهم أمثال ابن خفاجة الملقب بشاعر الطبيعة ، ولكنى لا أكتم القارئ أنى قرأت كثيراً من شعره وشعر غيره من الأندلسيين ، فكان شعورى نحو شعرهم أنهم أجادوا الصياغة ولم يوفقوا أن ينفخوا فيه الروح ، شعرهم تمثال بديع لا حياة فيه إلا فى القليل النادر ، شعرهم من رأسهم لا من قلبهم ، أكثر جهدهم موجه إلى البحث عن تشبيه رائع واستعارة بديعة تعجب علماء البيان ، لا نتيجة شعور يتدفق يريد أن يحتضن الطبيعة لجمالها ، ولا هو صرخة إعجاب خرجت من أعماق القلب فى بساطة فطرية ، ولا هو تمجيد للجمال وتقديس لمناظره يخر أمامه الشاعر ساجداً ، ولا هو إحساس من الشاعر باندماج الطبيعة فى نفسه واندماج نفسه فى الطبيعة حتى كأنه هو وهى ، أو هى وهو وحدة لا انفصام لها كالذى قال الحلاج :

أنا من أهوى ومن أهوى أنا ‏ ‏ نحن رُوحانِ حللنا بَدَنا

فإذا أبصرتَه أبصرتَنى ‏ ‏ وإذا أبصرتنى أبصرتَنا

كلاً ولا هو شعور بحياة الطبيعة وقوتها ونبضها كما ينبض القلب ، ولا هو شعور الظمآن يريد أن يرتوى ولا يرويه إلا جمال الطبيعة ثم هو يعل منه وينهل ، وكلما عب ازداد لذة وازداد ظمأ .

لا شىء من ذلك وإن عثرنا منه على شىء فهو القليل النادر الذى لا يروى ظمأ ، إنما أكثره من قبيل الخيال المصطنع ، يتعمق فيه الشاعر ليظفر باستعارة أو يسبح فى الآفاق ليأتى ببعض المحسنات البديعية .

***

لقد يخيل إلىّ أن من أهم أسباب النقص فى هذا الباب الموقف الذى رسم للشاعر منذ العصر الجاهلى .

لقد رُسِم للشاعر أن يكون خادم السلطات ، وبدأ بذلك فى العصر الجاهلى ، فكان الشاعر شاعر القبيلة لا شاعر نفسه ، إذ كانت السلطة للقبيلة ، فهو يدافع عنها ، ويحميها من أعدائها ، ويعبر بلسانها ، ولا يشعر لنفسه بوجود مستقل فيها ، فقلّ التعبير بأنا وكثر التعبير بِإنّا ، وحتى إذا عبر بأنا ، فقلّ أن يعنى نفسه وحدها ، وإنما يعنى نفسه وقومه .

فلما انتقلت السلطة من القبيلة إلى الخلفاء والملوك والأمراء ، وقف الشاعر الحضرى منهم موقف أسلافه من القبيلة ، فكان لا ينبغ النابغ من الشعراء إلا فى قصور الملوك والأمراء ، وقلّ أن نرى شاعراً نبغ فى غير هذه البيئة ؛ ومن أجل هذا كثر شعر المديح والهجاء وما إلى ذلك ، لأن الشاعر ليس يعبر فيه عن نفسه ، ولا هو مستقل بنفسه ، إنما هو معبر عن أغراض من يخدمهم ويسعى فى استرضائهم ، ومن حُرِم الحُظوةَ عند هؤلاء ظلّ دهره شاكياً باكياً ، يذم الزمان ، ويلعن تصاريف الدهر ، كما فعل ابن الرومى وأبو العلاء .

من أجل ذلك لو أحصينا من كان شعره خادماً للملوك والأمراء ، كانوا هم الجمهرةَ العظمى ، ومن عداهم كانوا فى غاية الندرة أمثال العباس بن الأحنف ، وجميل بثينة .

فهذا الوضع الذى وضع فيه الشعراء أنفسهم من خدمة السلطات — مقلدين فى ذلك الوضع الجاهلى — لوّن الأدب العربى بالألوان الزاهية فى بعض مواضعه ، والباهتة فى بعض مواضعه ؛ فحيث يكون الشعر فى خدمة الملوك والأمراء كالمديح والهجاء والغزل والخمر ، فهو كثير وفير ، وحيث يحتاج الشعر إلى استقلال ،

وحيث يغنى الشاعر لنفسه ، كشعر الطبيعة ، ووصف المشاعر النفسية ونحو ذلك فقليل نادر .

لم يفهم الشاعر نفسه على حقيقتها ، ولم يفهمه الناس على حقيقته ، فكلمة الشاعر تدل على أنه يشعر بالأشياء خيراً مما يشعر غيره ، وكان ينبغى أن يفهم من ذلك أنه يقول ليرضى شعوره أوّلاً ، والناس ثانياً ، ولكن كان أول الشعراء شعراء الجاهلية ، فقضت عليهم ظروفهم أن يقفوا موقف الجرائد اليوم من الأحزاب ، وأن يقفوا من قبيلتهم موقف الخطباء ؛ وهذا خطأ فى فهم معنى الشاعر ، إذ كان ينبغى أن يكون معناه من فاضت عواطفه من شعوره القوى ، فجرى ذلك على لسانه ، أو أن يكون معناه من منح عاطفة قوية وشعوراً مرهفاً يدرك به مالا يدرك غيره ، فيمزج ذلك بنفسه ، ويخرجه لنفسه وللناس فى أسلوب خاص ؛ إن كان كذلك فكان ينبغى أن يستقل بنفسه ، لا يخضع لسلطان ، ولا يوجَّه حيث يراد لا حيث يريد .

ولكن وجد الشاعر الجاهلى — مع الأسف — فى ظروف جعلته لسان القبيلة ، وكان مع الأسف الأشد أن تتابع الشعراء على هذا النمط لم يتعدوه ؛ يختلف معاوية وعلىّ ، فيكون لهذا شعراء ، ولهذا شعراء ، ويختلف عبد الملك بن مروان وعبد الله بن الزبير ، فينقسم الشعراء فيما بينهم قسمين ، كما كانوا يختلفون أيام القبائل ، وتأتى الدولة العباسية فقلّ أن ينبغ شاعر إلا فى البلاط ، ويُقبِل المعتصم على الأفشين ، فيسخّر أبو تمام شعره لمدح الأفشين ، ويغضب المعتصم على الأفشين فيسخّر أبو تمام شعره لهجاء الأفشين ، وهكذا .

أما التغنى بالطبيعة وجمالها ، وإدراك المعانى السامية للحياة والتعبير عنها ، ونحو ذلك من ضروب الفن ، فأكثرهم عنه فى شغل بعبادة السلطات واتجاههم حيثما توجههم .

لم يتغير هذا الموقف فى الشعر العربى إلا منذ سنوات ، فأخذ الشاعر يشعر بنفسه ، ويشعر لنفسه ولقرائه ، ولكنه لايزال فى مفتتح الطريق — وفقه الله .

(٤)

كان العرب فى جاهليتهم ، منحطين فى عبادتهم ، فعبدوا الأحجار من دون الله ، وقال واصفهم « كنا نعبد الحجر فى الجاهلية ، فإذا وجدنا حجراً أحسن منه نلقى ذلك ونأخذه ، فإذا لم نجد حجراً جمعنا حفنة من تراب ، ثم جئنا بغنم فحلبناها عليه ، ثم طفنا به » . وقال آخر : « كنا نعمد إلى الرمل فنجمعه ، ونحلب عليه فنعبده ؛ وكنا نعمد إلى الحجر الأبيض فنعبده زماناً ثم نرميه » .

وإذا رأوا حجراً فعلت فيه الطبيعة فعلها حتى جعلت منه شبيهاً بالإنسان ، كانوا له أكثر تقديساً وأحرّ عبادة ، فكانوا يعبدون حجراً « كجثة الرجل العظيم وهو من صخرة بيضاء ، لها رأس أسود ، وإذا تأملها الناظر رأى فيها صورة وجه الإنسان » . وكانت طيئ تعبد « القلس » « وكان أنفاً أحمر فى وسط جبلهم — الذى يقال له أجا — أسود كأنه تمثال إنسان ، وكانوا يعبدونه ويُهدون إليه ويعقرون عنده » .

ودعاهم إلى ذلك أن لم تكن لهم مهارة فنية يستطيعون بها أن يتقنوا النحت وصناعة التماثيل ، فكانوا يتلمسون ما تخرجه الطبيعة من فن فيعبدونه ، كحجر أبيض جميل ، أو شبه تمثال ، أو شبه صنم ، فما كان عندهم من تماثيل متقنة فمجلوبة من الخارج — غالباً — فيذهب بعضهم إلى أن « يغوث » كان على صورة الأسد ، وأنه مجلوب من مصر ، وأن بين آلهة المصريين صنما على صورة الأسد اسمه « يغنوت » الخ .

وكما عبدوا الأحجار عبدوا الحيوان ، قال ابن عبد البر : « إن العرب كانوا يأتون بالشاة البيضاء فيعبدونها ، فيجيء الذئب فيأخذها ، فيأخذون أخرى مكانها » ولما وفدت طيء على رسول الله (ص) قال لهم : « إني خير لكم من العُزّى ولاّتها ، ومن الجمل الأسود الذي تعبدونه من دون الله » . ولما أغار عمرو بن حبيب على بني بكر وجدهم يعبدون سَقْبا من دون الله ، فأراد إغاظتهم فنحره وأكله . وكانت لهم أصنام على شكل حيوان جلبوها من الخارج ، على شكل أسد ونَسر وفرس ويربوع .

فإذا ارتقوا من الحجر والحيوان عبدوا تمثال إنسان ، فعبدوا « أسافا ونائلة » « وهما — فيما ذكروا — صنمان ، زعموا أنهما رجل وامرأة من جُرْهُم ، فجرا في الكعبة فمسخهما الله حجرين » . ولستُ أدرى ما حملهم على عبادتهما مع شنيع فعلهما ، وهما إن استحقا شيئاً فالرجم لا العبادة .

وعبدوا اللاّت والعُزَّى ، واختلفت الأقوال فيهما ، فمنهم من قال إنهما صنمان لرجلين صالحين كان أحدهما يلت السويق للحجيج .

فإذا ارتقوا خطوة أخرى عبدوا النجوم كالشمس والمشترى والشّعرى ، ولكنهم نظروا إليها في عبادتهم نظرة مادية جامدة .

* * *

سقنا هذا لنبين أن العرب في جاهليتهم كانت نظرتهم الدينية نظرة وثنية مادية وضيعة .

وللدين أثر كبير في الأدب ، لأنه — من ناحية — مصدر كبير من مصادر الإلهام الأدبي ، ومن ناحية أخرى إذا كان الأديب ذا دين مادي وثني جامد ، تأثر أدبه بعقليته ، فخرج مثله ماديا جامداً ، وإذا كان دينه ضيق الخيال لاصقاً بالحجارة والأرض ، كان خياله في أدبه غالباً كذلك ، لأن نفسية الإنسان وعقليته وحدة لا تتجزأ ، وإن اختلفت مناحيها ومظاهرها .

من أجل هذا نرى الأدب الجاهلى فى الكثير الأغلب ماديا ، لا معنويا ولا روحيا .

فمن مظاهر ذلك ناحية التشبيهات والاستعارات فى الأدب الجاهلى ، فهى أدل ما تكون على ضعف الخيال أو قوته ، فإذا استعرضناها وجدناها مادية لاصقة بالأرض فى الأعم الأغلب ، فالجاهلى يشبّه الحيوان بحيوان مثله ، فيشبّه الناقة بالظليم ، أو بالثور الوحشى ، أو بالنعامة ، أو بالأتان ؛ ويشبّه امرؤ القيس الفرس بجلمود صخر حطه السيل من عل ، والنجومَ بالمصابيح ، وبعر الآرام بحب الفلفل ، وفرع الشّعر بقنو النخلة المتعثكل ؛ ويشبّهون السّنام بقنطرة الرومى أو بالقصر ، والسيد العظيم بفحل الإبل ، والنساء ببيض النعام ، والحرب وما يحلب منها من دماء بالناقة يحلب منها اللبن ، أو بالناقة تحمل ثم ترضع ثم تفطم ، ومثل هذا كثير ؛ وكل الشواهد تشهد بما نقول من ولوعهم بالتشبيه المادى الأرضى ؛ وقلّ أن تجد لهم تشبيهاً سماويا أو معنويا ، كما فعل غيرهم من تشبيه سرعة الفرس بالبرق أو تلألؤ السيف بلمعان الشهب ، أو جرْى الفصيل إلى أمه بدبيب الخيال الخ . وهكذا كانت تشبيهاتهم مادية أرضية من جنس دينهم المادى الأرضى .

لقد كان اليونانيون وثنيين كالجاهليين ، ولكنهم رفعوا آلهتهم من الأرض إلى السماء ، ومنحوها الحركة والحياة ، وجعلوا للحب والجمال والشعر آلهة ، وجعلوا « أفروديت » تُخلَق من أمواج البحر ، وأولدوها إله الحب ، وجعلوا له جناحين ذهبيين ، وجعلوه يحمل سهاماً حادة ، ومشاعل ملتهبة ، ونسجوا حول آلهتهم أساطير فى منتهى الخصب فى الخيال ، والبعد فى السماء ، والحركة فى الحياة ؛ وظلت هذه الخيالات والأساطير تسير سيرها وتعمل عملها فى الحياة اليونانية ، حتى حوّلها الأدب إلى قصص وتمثيل ، وحوّلها العقل إلى فلسفة .

***

ومظهر آخر من مظاهر المادية الأرضية فى الأدب الجاهلى ، وهو شعرهم فى المرأة ؛ نعم قد أكثروا من الغزل والنسيب ، وافتتحوا به قصائدهم فى كل غرض من أغراض الحياة ؛ ولكن أعمِل النظر فى أشعارهم ، وأطل التفكير فى غزلهم ، تجد أنهم لم ينظروا فى المرأة إلا إلى جسمها ؛ لقد أدركوا تمام الإدراك جمالها الحسى ، ولكنهم لم يدركوا جمالها الروحى ، أولعوا بقدها الممشوق ، وعيونها الدُّعج ، ووجهها الوردى ، وخصرها النحيل ، وردفها الثقيل ، وما شئت من أعضائها وأجزائها ؛ فأما روحها السماوى ، وجمالها الروحى ، وتعشق روح الشاعر لروحها ، والشعور بأنها مصدر وحيه وإلهامه ، فشىء لم يستطع إدراكه الشاعر الجاهلى .

لقد نظر الشعراء الجاهليون إلى المرأة كما ينظرون إلى لحم الجَزُور ، وكأس الخمر ، هى متعة جسمية لا غير ، واستفتح هذه الآراء امرؤ القيس بقوله :

كأنىَ لم أركب جواداً للذة ولم أتبطن كاعباً ذات خلخال

ولم أسبأ الزِّق الروىَّ ولم أقل لخيلى كرِّى كرَّة بعد إجفال

وقوله :

وبيضة خدر لا يُرام خباؤها تمتعت من لهوٍ بها غير مُعْجَل

فسار الشعراء على أثره يتخذون المرأة ملهاهم ، ويقرنونها بالفرس والكاس ، حتى وصل الأمر بأبى تمام فى العصر العباسى إلى أن يقول :

كانت لنا ملعباً نلهو بزخرفه وقد ينفّس عن جد الفتى اللعب

استقْرِ الشعر الجاهلى ما شئت ، واستقر ما جرى على أثره من بعد ، تلمس دائما شيئين واضحين فى أدب المرأة : العناية بتشبيه أعضائها وأجزائها ؛ فترائبها مصقولة كالسجنجل ، وجيدها كجيد الرِّيم ، وفرعها كقِنو النخلة ، وكشحها كالجديل ، وساقها كأنبوب السقى ، وهى تمشى الهوينا كما يمشى الوجى الوجل ،

ووجهها كأن الشمس ألقت رداءها عليه ، وأسنانها كالأقحوان . . . الخ الخ .
هذه هى المرأة فى ذاتها ، أما موقفه منها فالمتعة واللهو إن استطاع ، واللذة بذكرى المتعة ، أو الألم من حرمانها ، ثم لا شىء وراء ذلك .

إنى لأفهم أن يكون ذلك بعض الأدب ، وبعض وجوه النظر إلى المرأة ، أما أن يكون ذلك كل الأدب النسوى فشىء يدعو إلى الخجل ! إن وراء هذا النظر المادى الأرضى نظراً آخر روحانيا سماويا فيه المرأة ملَك كريم ، وفيه المرأة مصدر وحى وإلهام ، وفيه المرأة قلب ؛ وحول هذا كله ينشأ أدب من طراز آخر ، فيه العواطف السامية ، والمعانى الراقية ، وهذا ما لم نجده فى الشعر الجاهلى ، وقلّ أن نجده فى الشعر الإسلامى

***

ثم لكل أمة أساطير تدور حول عقائدها وتقاليدها وأحداثها وتاريخها ، وتختلف فيما بينها بقوة خيالها أو ضعفه ، وإحكام نسجها أو هلهلته . وكان للعرب الجاهليين أساطير من هذا القبيل ؛ والذى يمعن النظر فى أساطيرهم يراها أيضاً تكاد تكون مادية أرضية لا تبعد فى الخيال ولا تسبَح فى السماء ، تدور حول المعمَّرين الذين عمروا مئات السنين ، أو حول الجن وقد جسّدوها فى حية أو نعامة أو قنفذ أو أرنب أو حيوان خرافى كالغول ، أو حول المسخ كالذى زعموا أن الضب والكلاب والأرانب كانت أمما فمسخت ، وأن الصفا والمرْوة كانا رجلا وامرأة فمسخا ، أو حول النجوم كالذى زعموا أن الغميصاء وسهيلا كانا مجتمعين فانحدر سهيل فصار يمانيا وتبعته العبور فعبرَت المجرة وأقامت الغميصاء فبكت لفقد سهيل حتى غمصت « وأن الزهرة كانت امرأة حسناء فصعدت إلى السماء ومسخت كوكباً » إلى غير ذلك من الأساطير ، وكلها تدل على ضرب من الخيال محدود .

والأساطير فى الأمم مصدر كبير من مصادر الأدب القصصى ، فلما ضعف الخيال القصصى الجاهلى تبعه بعدُ ضعفُ القصص العربى .

***

رأينا من كل هـذا أن الأدب الجاهلى كان يساير الدين الجاهلى إلى حد بعيد ، وأنه كان يقف فى المستوى الذى وقفه الدين ، وأن الدين كان ماديا أرضيا فكان الأدب ماديا أرضيا كذلك .

ومن الواضح جدا أن الشعر العربى اتخذ قبلته الشعر الجاهلى قبل أى شىء آخر ؛ وأوضح الأدلة على ذلك ما هو مدوّن فى كتب الأدب وخاصة فى باب السرقات والموازنات ؛ فنجد فيها أن المعانى الأساسية للشعر الجاهلى اتُّخذت أساساً سار على نهجها الشعراء الإسلاميون ، فحوروا بعض معانيها مع احتفاظهم بالأساس ، أو حافظوا على الجوهر وغيّروا الشكل ؛ مَدَح الجاهليون بالشجاعة والكرم فكان أكثر المدح الإسلامى بالشجاعة والكرم ، حتى الملوك والأمراء الذين يجب — أول كل شىء — أن يُمدَحوا بالعدل قلّ أن يمدحوا بالعدل ، لأن الجاهلى مدح بالشجاعة والكرم . وقال امرؤ القيس :

كأنّ قلوب الطير رطباً ويابساً لدى وكرها العنّاب والحشَف البالى

وقال :

كأنّ عيون الوحش حول خِبائنا وأرحُلنا الجِذع الذى لم يثقَّب

وقال :

وقد أغتدِى والطير فى وكناتها بمنجرد قَيْدِ الأوابد هَيْكل

فأصبحت هذه وأمثالها مصدراً للكثير من الشعر العربى ، ورددوها وكرروا حتى صدّعوا ، وكما قال ابن سعيد « وهذه المعانى ولد منها شعراء المشرق والمغرب وتطارحوا فى الأخذ منها » وصار لكل شاعر من شعراء الجاهليين أبيات

محدودات ، ومعان محدودات ، يعرفها العلماء بالأدب ، هى الإمام فى الفن وهى التى حددت القوالب التى يصب فيها الشعر العربى — أصبح امرؤ القيس إمام الشعراء فى التشبيهات ، والنابغة فى الاعتذارات ، والأعشى فى الخمريات الخ .

ولقد أنصف العلماء إذ سموا المنهج الذى سار عليه الشعر العربى «عمود الشعر» وفى الحق أنه عمود متحجر ، لم يلن ولم يتغير .

ومن أشد دواعى الأسف أن الزمان قد سمح بمن خرج عن هذا العمود أحياناً وأراد أن يبنى عموداً آخر ، أو أراد أن يغير العمود إلى شجرة تنتج فروعاً جديدة ، فسُمع قوله ولم يتبع ، وصفق له بعض الناس ولم يقلد ، والتف الناس حول عمود الشعر ، وعمود الشعر وحده .

لقد ابتدع عمر بن أبى ربيعة فن القصص الشعرى وأتى فيه بالمُرقص المطرِب ثم مات ولم يعقب .

وجاء أبو تمام فأبعد فى الخيال وغاص على المعانى وعرضها بأسلوب فيه جدَّة ، فقام علماء اللغة والأدب فى وجهه وفضلوا عليه البحترى لالتزامه عمود الشعر ، فماتت طريقته من بعده .

وجاء ابن الرومى فابتدع توليد المعانى وتبسيطها واستخراج ما فيها إلى النهاية ، كما اخترع الهجاء اللاذع بالتصوير الفكه وبالفن الذى يشبه الفن اليونانى ؛ وتعصب له قوم من القدماء فقالوا : « إنه أحق الناس باسم شاعر لكثرة اختراعه وحسن توليده » ولكن مات فنه بموته وبقى عمود الشعر ، وعمود الشعر وحده .

وجاء «المعرّى» فأراد أن يحوّل الشعر إلى غذاء عقلى ونقد اجتماعى ، وينفخ فيه من روح فلسفى ، فقالوا إنه فيلسوف لا شاعر ، وإنه فى «سِقْطه» أشعر منه فى « لزومياته » ، وأخيراً سار فى طريقه وحده .

***

ثم جاء القرآن فغير العقلية العربية ، ورفع النظر من الأرض إلى السماء ، وإلى ما فوق السماء . وعلّم الناس أن يقرءوا كتاب الطبيعة فى فصوله المختلفة من إنسان ونبات وجبال وسحاب وأمطار ونجوم وسماء ، وأن يقرءوا ما بعد الطبيعة من إله فوق العالمين ، هو نور السموات والأرض ، وكشف عن العيون غطاءها ، فأصبح بصرها حديداً ؛ فنظرت إلى العالم من طيارة ، بل من أعلى من الطيارة ، ورأته وحدة متناسقة الأجزاء تخضع كلها لإرادة الله . وأعلن الثورة على النظرة المادية الأرضية التى كان ينظر بها أهل الجاهلية ؛ فكانت كل ضربة بالمعول فى صنم ثورةً على ذلك النظر ، ودوّت كلمة لا إله إلا الله فى جزيرة العرب تعلن ضياع الوثنية وعبادة المادية ؛ فلا لات ولا عُزّى ، ولا بعْل ولا هُبَل .

وكان للقرآن بجانب ناحيته الدينية ناحية أخرى أدبيـة ، فهو فى تعبيراته وتشبيهاته يتناسب كل التناسب مع دعوته ، يعالج شؤون الأرض ويرتفع بالنظر إلى السماء ، وهو فى تعبيره وتشبيهه ومجازه كذلك لا يقتصر على التعبير المادى ، ولا التشبيه المادى كالذى كان فى الجاهلية ، بل وجه النظر إلى المعانى أيضاً فى كل ضروب بيانه .

وأتى بنوع من القصص بديع فى تصويره وتعبيره ، وجعله يخدم غرضه فى وعظه وإرشاده .

ورفع شأن المرأة فجعلها إنساناً عِدْلا للرجل لا ملهاة له ، لها كل حقوق الرجل ، وعليها واجباته ، تحاسَب على عملها كما يحاسب الرجل ، وتُدعى إلى جلائل الأعمال كما يُدعى الرجال .

كان فى القرآن كل هذا وأكثر من هذا ، وكان من المعقول أن يتغير نظر الشعر فى الإسلام كما تغيرت العقائد ، وأن يرتفع نظر الشاعر الإسلامى ارتفاعه فى عقيدته ، وأن يكون له جانب روحى كجانبه المادى ، وأن يستغل قصص

القرآن فيقص هو ولو فى اتجاهات أخرى ، وأن يرى القرآن يدعو إلى العزة فيكف عن المبالغة فى المديح ، وأن يرى القرآن يدعو إلى عفة اللسان فيتحرج من الإقذاع فى الهجاء ، وأن يرى القرآن يرفع شأن المرأة فتعظم فى شعره ، ويسمو أحياناً من الكلام فى جسمها إلى الكلام فى روحها .

وإن لم يجِب أن يتغير الشعر الإسلامى كل التغير ؛ فلا أقل من أن يجعل الشاعر الإسلامى له مصدرين ؛ مصدر الشعر الجاهلى لاستغلال خير ما فيه ، ومصدر الإسلام لاستلهامه وتعديل مناهجه فى شعره .

ولكن تعال معى ننظر ماذا كان ؟ كان أن الشعر الإسلامى لم يتخذ له إماما غير الشعر الجاهلى ؛ فقالبه قالبه ، وموضوعاته موضوعاته ، وماديته ماديته ، وتشبيهاته من جنس تشبيهاته[1] ، وإن كان هناك جديد فجِدَّة فى العَرض لا فى الجوهر ، وفى الشكل لا فى الأساس ، فى رقة اللفظ بدل الخشونة ، وفى تحوير المعنى لا فى خلقه ، وفى تقصير الأوزان الشعرية أو تحويرها تحويراً خفيفاً لا فى تجديدها ، وفى اقتباس بعض التشبيهات من أدوات المدنية لا فى التحليق فى جو جديد ، وهكذا .

قد تقول إن القرآن ليس شعراً ، وإمامُ الشعر يجب أن يكون شعراً ، ومصدر الشعر يجب أن يكون شعراً ، ولم يكن أمامَ الشعر الإسلامى إلا الشعر الجاهلى ، فطبيعى أن يقلده لا غيره .

ولكن هذا صحيح فى الطبيعة القاصرة والملكات المحدودة ، أما الطبيعة النابغة والملكات المبتكرة فتستمد فنها من كل شىء ؛ من خرير الماء ، وصفير الهواء ، وحركات النسيم ، وتموجات البحر ، وتوقيعات الموسيقى ، وأحاديث العامة ، وجدال الخاصة ، وأضاحيك المغفلين والماجنين ، وأقوال الفلاسفة وخاصة

---

(١) أستثنى هنا الشعر الصوفى ، ولى رأى فيه أعرضه فيما بعد .

المفكرين ؛ فكيف لا تستطيع أن تستفيد من القرآن لأنه نثر ، إلا أن يكون مرض الكسل والهرب من مشقة الابتكار ؟ .

***

وقريب من هذا فى باب الغرابة أنه لما اختلط المسلمون بالأمم الأخرى فى العصر العباسى ، وعرضت عليهم آثار الأمم الأخرى وخاصة اليونان ، نقل الناقلون إلى اللغة العربية فلسفة اليونان وطبهم وجغرافيتهم ورياضتهم وهندستهم ؛ ولكنهم لم ينقلوا أدبهم ولا شعرهم ولا قصصهم ولا تمثيلهم ؛ فكان موقفهم غريباً إذ سمحوا للعقل أن يتغذى بأنواع أخرى من الغذاء ، ولم يسمحوا للعاطفة أن تتغذى بأنواع أخرى من الفن ! بل أمعن فى باب الغرابة أن يسمحوا بنقل نظريات فلسفية تتعارض فى صميمها مع الدين الإسلامى ، ولم يسمحوا أن ينقلوا ضروبا من الشعر والأدب اليونانى لا تتعارض مع الإسلام فى شىء ! ولقد كان يكون فى هذا التصرف بعض العذر ، لو أن منبعهم فى الشعر الذى يستقون منه منبع إسلامى ، أما ومنبعهم الوحيد هو الشعر الجاهلى الوثنى بما فيه من لات وعُزّى ، وخمر ومَيسر ، وشِرك وأوثان . فالأمر جِدُّ غريب !

أعتقد أن من أهم الأسباب فى ذلك أنه لو كان حملة لواء الأدب فى العصر العباسى عرباً خلصاً لسمحوا للآداب الأخرى أن تعرض عليهم ، ولأخذوا منها ما تستسيغه أذواقهم ، وتجيزه مداركهم ؛ ولكن كان أكثر حملة لواء الأدب أعاجم استعربوا ، والأعجمى إذا استعرب كان قصارى همه وغاية كده أن يصل فى فنه إلى العربى الأصيل ، ولا تحدثه نفسه أن يبتكر فى القديم ، أو يجدد فى الشىء الأصيل . أترى المصرى — مهما بلغ فى إتقان اللغة الإنجليزية — تحدثه نفسه أن يبتكر فى الشعر الإنجليزى ؟ أو الشامى مهما بلغ فى إجادة اللغة الفرنسية أن يبتكر فى الشعر الفرنسى ؟ إنما يبتكر فى الإنجليزية والفرنسية الإنجليزى

الأصيل والفرنسى الأصيل ، لأنه من الناحية النفسية لا يشعر فيها بعجز طبيعى ، فـكذلك الشأن فى العربى الأصيل والأعجمى الحامل لواء العربية فى العصر العباسى . وهناك من غير شك أسباب أخرى تخرج بنا عن موضوع مقالنا .

* * *

أما بعد ، فكل قارئ كريم يلحظ ما أردت من معالجة هذا الموضوع .

أردت أن يتحرر الأدب من قيوده التى تثقله ، وأن يكون الحَكَم فى أدبنا أذواقنا لا أذواق غيرنا ؛ فخير بيت عنـدى ما تذوقت أنا أنه خير بيت لا ما قال فلان — ولو كان عظيما — أنه أفضل بيت .

وأن يكون أدبنا معتمداً على شيئين : خير ما فى الماضى مما يتناسب وحاضرنا ، ويبعث على تحقيق أملنا فى مستقبلنا . ودراسة حاضرنا واشتقاق أدبنا منه ، لا أن نعيش فى أدبنا على الماضى وحده ، وعلى الماضى الذى لا يتناسب وحاضرنا ؛ فإننا إن فعلنا ذلك كان أدبنا وقفاً على طائفة الخاصة فينا ، وغزا أبناءنا فى المدارس وجمهرةَ المتعلمين منا الأدبُ الأوربى الحديث ، وأصبح الأدب العربى لا حياة له إلا فى مناهج المدارس وأسئلة الامتحانات وفئة قليلة جدا من المتخصصين ؛ وفى هذا أكبر إجرام على الأدب العربى .

أريد أدباً عربيا يلذه الطفل فى مدرسته ، والبنت فى مطالعاتها ، والشاب فى غذائه العقلى والروحى ، والـكهل الناضج ، والفتى الغر .

أريد أدباً عربيا يشاهده النظارة فى السينما ودور التمثيل ، يعرض لحياتهم اليومية وأحداثهم التاريخية ، ويصور حياتهم الاجتماعية .

أريد أدباً عربيا يعرض لأسرنا وحياتنا العامة والخاصة ونفوسنا وخلجاتها ، فيضع فى ذلك قصصاً رائعاً وشعراً بديعاً يهز نفوسنا ويلمس مشاعرنا ويحركنا نحو مثل أعلى ننشده ونسعى إليه .

أريد أدباً عربيا يُشعر كل فرد من أبناء العرب بجمال طبيعته ، ويهز قلبه لإدراك الجمال الطبيعي والجمال الصناعي ، فيرِقّ حسه وترهف نفسه ، ويحركه ذلك إلى أن يكون جميلا فى سلوكه جميلا فيما يصدر عنه ، ليؤلف مع ما يشعر به من جمال نغما متناسقاً وتوقيعاً متناغماً .

أريد شعراً عربيا يغنيه المغنى فيمثل مافى نفسه الحاضرة من حب ووطنية وإنسانية ومعان مستحدثة ومواقف مستجدة ، ويتمثل به المرء فى شتى عواطفه ومختلف شؤونه .

أريد شعراً عربيا ينشده الأطفال فى رياض مدارسهم والشبان فى ألعابهم والجنود فى معسكراتهم ، والأسرة المتدينة فى صباحها ومسائها ، والفتاة فى تغذية آمالها .

ولا يتم شىء من ذلك إذا نظرنا إلى الخلف فقط و إلى الخلف دائماً ، ولا يكون شىء من ذلك إلا إذا كسرنا عمود الشعر الذى وضعه الأدب الجاهلى ، وجعلنا بدل العمود الحجرى شجرة تنبض بالحياة ، يكون أحد فروعها فقط الشعر الجاهلى ، وأهم فروعها نتاج حياتنا الواقعية ، وآمالنا المستقبلة . ولا يكون شىء من ذلك ما دمنا نعد البيت الجاهلى خير الأبيات ، ولو كان سخيفاً ، وخير القَصص القَصص القديم لأنه ورد فى الكتب القديمة ، وأحسن الأبيات فى الغزل ما استحسنه ابن الأعرابى . ولا يكون شىء من ذلك ما دمنا نوقع الأنشودة القديمة « أن الأدب العربى كامل ليس فيه نقص ، وقوى لا يشوبه ضعف ، وبناء مكتمل لا يحتاج إلى علو ، ومتين الأساس لا يحتاج إلى دعامة » .

إنما يكون ذلك كله يوم نزن الأدب العربى ككل أدب بموازينه الصحيحة من غير عصبية ، ونصرح بالنقص فى غير خجل ، ونبنى الجديد فى غير هوادة ، ونكسّر قيود القديم فى غير رفق ؛ والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم .

(٥)

يقسم علماء المنطق العمليات العقلية إلى نوعين ، عملية تركيبية وعملية تحليلية ، ولهذا نظائر فى الحسيّات ، فإذا أنت أَلَّفْتَ من وَرْدٍ وفل وياسمين ونرجس ومنثور وبنفسج طاقة أزهار ، فهذه عملية تركيب ؛ وإذا أنت فَرَّقْتَ هذه الطاقة ، وجعلت الورد وحده والفل وحده والنرجس وحده ، فهذه عملية تحليل ؛ وإذا أنت أَلَّفت من أكسجين وإيدروجين ماء ، فهذه عملية تركيب ، فإذا حللت الماء إلى عنصريه فهذه عملية تحليل .

وفى النحو — مثلا — بناء الجمل من ألفاظ ، أو الفقرة من جُمل ، أو الفصل من فِقَر ، عملية تركيبية ؟ وتحليل الفصل إلى فِقر ، والفقرة إلى جُمل ، والجملة إلى ألفاظ ، عملية تحليلية .

وفى البلاغة — مثلا — عملية التشبيه والاستعارة عملية تركيبية ، لأنه يراد منها ضم شىء إلى شىء والحكم عليهما حكما واحداً من إحدى الجهات ، ومثل ذلك الموازنة فى باب الأدب .

***

ويُخَيَّلُ إلىّ أن الأمم فى بدء أمرها أميل إلى التركيب منها إلى التحليل ، لأن التحليل يتطلب دقة وحصافة ، وخُلُقاً علمياً أكثر مما يتطلبه التركيب ؛ والعقل البدائى يسرع فى التركيب فيخطئ فى الحكم ، لأنه يكتفى أن يرى حادثة تحدث مع حادثة أخرى ، فسرعان ما يعقد علاقة بينهما ويعممها من غير تدقيق ؛ فيرى الجاهلى — مثلا — حادثة شفاء من كَلَب ارتبطت بدم ملك ، فيعم الحكم بأن دم الملوك يشفى من الكَلَب ؛ أو يرى حادثة حدثت اتفاقاً فى أن نوعاً من الشجر اسمه العُشَر احترق وذيلَ البقر ، فأمطرت السماء ، فيعمم ارتباط هذا الحادث

بالمطر ، ويستسق المطر بتكريره ، وربط العشر فى أذناب البقر وإشعال النار فيها ، وهكذا .

ومن أجل هذا كثرت الأساطير والخرافات بين الأمم فى حالة بداوتها ، لأنها أسرعت فى التعميم من غير تحليل دقيق وامتحان لربط الحادث بالحادث .

وهذا ماحدث عند العرب فى جاهليتهم ، وحدث عند اليونان فى جاهليتهم ، فلما جاء فلاسفه اليونان كأرسطو ، رأوا أكداساً من الأحكام العامة الباطلة ، وأكداساً من الاعتقادات بارتباطات بين الأشياء زائفة ، وأساطير تعم فى غير دقة ؛ فوضع أرسطو قواعد وقيوداً للتعميات ، كمطالبته بالاستقراء التام قبل التعميم ، ونحو ذلك ، ولا يزال علماء المنطق إلى الآن يجدّون فى وضع الشروط الدقيقة لصحة التعميم .

***

يظهر لى أن هناك نوعين من الأدب متميزين كل التميز : أدب تركيبى وأدب تحليلى ؛ فالقصة التى تصف وصفاً دقيقاً حال عاشقين ، وما ينتابهما من عواطف مختلفة ، وما يعرض لنفوسهما من مواقف متباينة ، وما يجرى بينهما من أحاديث تتفق مع كل موقف ، وما يبدو من تصرفات متناقضة تبعاً لتناقض العواطف ونحو ذلك ، أدب تحليلى ؛ والمقالات الاجتماعية تعرض لشرح حال أمة فى موقف خاص من مواقفها ، وتصف المرض وصفاً دقيقاً ، وتضع العلاج فى دقة وإحكام ، أدب تحليلى ؛ وقصيدة الشاعر يصف منظراً طبيعيًّا ، ويحلل موقف المنظر من نفسه وموقف نفسه منه ، أدب تحليلى ؛ ومقال الناقد يعرض للكتاب أو المقال المنقود . فيميز ما هو أساسى منه ، وما ليس بأساسى ، ويتبين أغراضه ومراميه ، ثم يحلل هذه الأغراض ويبين ما فيها من ضعف وما فيها من قوة ، أدب تحليلى ، وهكذا .

والخطبة الوطنية العامة فى تمجيد القومية والوطنية من غير بحث مسألة خاصة ، أو دعوة إلى منهج وطنى معين ، أدب تركيبى ؛ والمقالة الأدبية التى ليس فيها فكرة أو فيها أفكار عامة ، وكل جمالها فى تشبيهها واستعارتها وسجعها وبديعها ، أدب تركيبى ؛ ومقال الناقد يبنى مقاله على أن الكتاب أو المقال المنقود يعجبه أو لا يعجبه ، وأنه ينطبق أو لا ينطبق على أصول الفن المتعارفة ، أدب تركيبى ، وهكذا .

والأدباء أنفسهم ينقسمون هذين القسمين ، فأديب تغلب عليه نزعة التركيب ، وأديب تغلب عليه نزعة التحليل .

***

إن كان هذا صحيحاً فيُخيَّل إلىَّ أن أكثر الأدب الجاهلى أدب تركيبى لا تحليلى ، ويتجلى هذا فى مظاهر مختلفة .

فإنا لو استعرضنا الشعر الجاهلى وجدنا أكثره يُعنى بتصور الأشياء صوراً عامة ، ولا يعنى فيها بالتفصيل والتدقيق ، وأروع شىء فيه جمال الاستعارة والتشبيه ؛ وقد سبق أن أشرنا إلى أن هذا كله من قبيل الأدب التركيبى ، وأشهر أبوابه فخر ومديح وهجاء ، وقد عرضت بشكل عام تركيبى ، فهى فى الأغلب فخر ومدح وهجاء للقبيلة جاءت فى معانٍ عامة مركبة ؛ فخير المدح المدح بالكرم والشجاعة من غير تحليل لجزئيات ؛ ومن خير أنواع المدح المدح بالمروءة وهو لفظ عام غير محدود ، ومن شر أنواع الهجاء الهجاء باللؤم ، وهو كذلك لفظ غير محدود ، ونستعرض باب الصفات — وكنا نظن أن هذا باب يتأتى فيه التحليل الدقيق — فلا نجد تحليلا ولكن نجد وصفاً مركباً .

نعم نجد قطعاً متفرقة هنا وهناك فيها وصف تحليلى كوصف المنخل اليشكرى :

ولقد دخلت على الفتا ة الخدرَ فى اليوم المطيرِ
الكاعبِ الحسناء تر فُلُ فى الدِّمَقْسِ وفى الحرير
فدفعتها فتدافعتْ مشىَ القطاة إلى الغدير
ولثمتُها فتنفَّستْ كتنفس الظبى الغرير
فدنت وقالت يا مُنَخَّ ل ما بجسمك من حَرُور
ما شفَّ جسمى غير حب ك فاهدئى عنى وسيرى

ووصف بعض أحداث لامرئ القيس ، ولكنها ليست كثيرة فى الأدب الجاهلى . إنما الكثير الغالب الأدب التركيبى ، وحتى هذه الأمثلة التى ذكرت من الأدب التحليلى ليست طويلة النفَس ولا مستقصية التحليل .

* * *

جاء الأدب العربى فتأثر كل التأثر بالأدب الجاهلى ، فكان أكثره أدبا تركيبيا لا أدبا تحليليا ، ونستعرضه فنرى أن فيه كل مزايا الأدب التركيبى وكل العيوب الناشئة من قلة الأدب التحليلى .

نرى الأدب العربى قد نبغ نبوغا عظيما فى باب الأمثال والحِكَم ، حتى قلَّ أن يساويه فى ذلك أدب ، لأن ذلك نتيجة حتمية للأدب التركيبى ، فهى تجمع التجارب وتركزها فى جملة موجزة قوية جميلة ؛ وكان من نبوغهم فى هذا الباب وإعجابهم به أن نقلوا حِكم اليونان إلى العربية ، مع أنهم أوصدوا الأبواب فى وجه الأنواع الأخرى من الأدب اليونانى ، وكان سيرهم فى هذا الباب احتذاء لما فعل زهير بن أبى سُلْمَى فى حكمه المشهورة ؛ وكان من نبوغهم فى الأدب التركيبى أيضاً ولوعهم الشديد بالجمل القصيرة القوية ، حتى لتكون الخطب والكتب فى كثير من الأحيان عبارة عن جمل قصيرة مركزة محكمة ، كالذى نلاحظه فى كتاب عمر بن الخطاب إلى أبى موسى الأشعرى فى القضاء ، وكخطبة زياد وخطبة

الحجاج ؛ ولو تناول الأدب التحليلى كل جملة من هذه الجمل لصاغ منها صفحات ؛ ونرى لهذا صدى فى علم البلاغة العربية ، فإنهم عنوا بالإيجاز أكثر من عنايتهم بالإطناب ، وأعجبوا بجوامع الكلم أكثر من إعجابهم بالكلام الطويل المنبسط ، بل إن بعضهم كأبى هلال العسكرى فهم أن الإطناب تكرار المعانى وطول الألفاظ وقال : « إن كتب الفتوح وما يجرى مجراها مما يقرأ على عوام النـاس ينبغى أن تكون مطولة مطنباً فيها » فكأنه يريد أن يجعل الإطناب أدب العامة والإيجاز أدب الخاصة .

وألِفَ العرب هذا النوع من الإيجاز فى التعبير حتى عدّوا عبد الحميد الكاتب الفارسى الأصل آتياً بجديد عند ما فصّل فى كتابته وأطنب .

***

وكما أن فى الأدب العربى مزايا الأدب التركيبى ؛ ففى معظمه عيوب نقص الأدب التحليلى :

نرى مظاهر ذلك فى ضعف القصة ، وقد أشرت قبل إلى بعض أسباب هذا الضعف ، وأزيد هنا هذا السبب ، فإن القصة تحتاج بجانب الخيال الواسع إلى إطناب فى الوصف ، وتحليل للموقف ، وإجادة للعَرْض المفصّل ، ولذلك كان أكثر القَصص العربى البحت — كالذى روى فى العقد والأغانى عن الأدب الجاهلى وأيام العرب ونوادر المجان والممرورين — موجزاً قصيراً يتفق وذوق العربى فى حبه الإيجاز ، وميله إلى التركيز والتركيب . أما ما عدا ذلك من قصص مطولة كألف ليلة وليلة ، فليس من أصل عربى ، أو هو من الحكايات الشعبية ، لا من الأدب الرسمى .

كما نرى مظهر ذلك أيضاً فى باب تراجم الرجال ، كالذى فى الأغانى ، ومعجم الأدباء ، ووفيات الأعيان ؛ فالناظر فى كتب التراجم العربية يمتلئْ إعجاباً

وروعة بعظم هذه الثروة وعمومها ، وعناية جامعيها ، وسلوكهم المسالك المختلفة فى التراجم ؛ ولكنه لا يعجب بها من حيث نظرها إلى المترجَم كوحدة متماسكة ذات أجزاء مفصلة منسجمة ، إنما هى حادثة هنا وحادثة هناك ، وشىء فى خُلُقه بجانب شىء فى شكله ، ثم عودة إلى شىء فى خلقه ، ثم عودة إلى شىء فى شكله ، وحوادث جزئية جمعت حيثما اتفق ، يحتاج الذى يريد الاستفادة منها أن ينظر إليها نظراً جديداً ، ويرتبها ترتيباً جديداً ، ويُعمل فيها خياله ليكمل مواضع النقص فيها ، ولم يأت هذا إلا بعد أن تثقفنا ثقافة جديدة فيها الكثير من منهج التحليل .

وما قيل فى باب التراجم يقال مثله فى كتب الأدب العربى : كالكامل ، والبيان والتبيين ونحوهما ، وكتب التاريخ : كالطبرى ، وابن الأثير . فعدم التزامها كلها منهج التحليل جعلها تعرض للأشياء والأحداث عرضاً مبعثراً ، وجعلها تستطرد استطراداً مفرطاً ، وجعلها أكداساً فيها الذهب والفضة والنحاس ، وفيها الحَبّ والتبن ، وفيها غطاء الرأس بجانب نعل القدم ؛ ولو اتبعت المنهج التحليلى لكان لها شأن آخر .

وكما نرى مظهر ذلك فى وفرة الشّعر الذى سار على نمط الشعر الجاهلى التركيبى من مدح وهجاء وفخر ، وضعفه فيما احتاج إلى التحليل ، كالوصف الدقيق المستقصى لمظاهر الطبيعة وتحليل النفس .

***

وقد يكون من الإنصاف أن نستثنى بعض أدباء العرب ، ولنمثل لذلك بأديبين فى الأدب العربى ، كان أدبهما أدبا تحليليا واضحاً ، وقد نبغا فيه نبوغا عظيما ، أحدهما شاعر ، والآخر ناثر ؛ فأما الشاعر فابن الرومى ، فهو فى شعره يعرض للفكرة أو الصورة فيحللها ويفصلها ويولدها ، حتى لا يدع لأحد بعده فيها قولا . وأما الكاتب فهو ابن خلدون فى مقدمته ، فهو يأتى بالنظرية العامة ، ولا يزال

يحللها ويضع فروضها ويقيم البراهين على صحتها ، حتى يصل فى ذلك إلى الغاية ، شأنه فى ذلك شأن الرياضى فى التدليل على نظرية هندسية .

ولكن مع الأسف لم يكن أحد منهما زعيم مدرسة ، وإنما كان معلماً من غير متعلمين ، ومغنياً لغير سامعين .

***

إنى أعتقد أن الأدب العربى مسئول إلى حد كبير عن انحطاط المسلمين فى العصور الوسطى وما بعدها من الناحية الأخلاقية والاجتماعية .

فلما ساءت حالة المسلمين بعد العصر العباسى الأول ، كان ينبغى أن يكون هناك أدب تحليلى وشعر تحليلى ، يصف حال المجتمع السيئة وصفاً دقيقاً مستقصياً ، ويشرح أسباب الفساد وعلله شرحا مستفيضاً وافياً ، ويرسم للناس المثل الأعلى الذى ينشدونه رسماً دقيقاً شافياً ، ويحث الناس على أن يثوروا على من سبَّبَ ما هم فيه من مذلة وضنك وبؤس ، وأن يبيعوا أرواحهم فى سبيل تحقيق مثلهم ؛ ولو كان ذلك لكف الظالمون عن الظلم ، وعملوا على إصلاح الفاسد ، وتحسين المجتمع ؛ ولكن تعال معى نستعرض الأدب العربى من العصور الوسطى إلى العصر الحديث ، فهل ترى ثائراً ثار بأدبه على الظالم ، وحلل موقف الناس فى بؤسهم تحليلا دقيقاً ؟ وهل ترى أديباً وصف مجتمعه وصفاً عميقاً مستقصياً ، يحرك النفوس ؟ وهل ترى شاعراً رسم المثل الأعلى للحكام والمحكومين ودعا إليه ؟ .

إنى — مع الأسف — لا أجد شيئاً من ذلك

أجد الشعراء وشعرهم مملوء بالملق لكل خليفة ، ولكل سلطان ، وكل أمير ؛ فهو الشمس ، وهو القمر ، وهو حاتم فى الجود ، وهو الأسد فى الشجاعة ؛ فأما ما أصاب الناس من ظلم على يديه ، فقد ضاع فى دراهم معدودة نالها منه الشاعر ؛ ومن خرج على الخليفة أو السلطان هجا هجاء جاهليا مركبا لا تحليليا مفصلا .

انظر إلى قول دعبل الخزاعى فى هجاء المعتصم :

ملوك بنى العباس فى الكُتب سبعة ولم تأتنا عن ثامن لهمُ كتب
كذلك أهلُ الكهف فى الكهف سبعةٌ خيارٌ إذا عُدّوا وثامنهم كلب
وإنى لأُعلى كلبَهمْ عنك رفعةً لأنك ذو ذنبٍ وليس له ذنب

فهل هذا نقد تحليلى يراد به الإصلاح ، أو هو سبّ جاهلى مركب كقولهم :

تميم بطرق اللؤم أهدى من القطا فإن سلكت سبل المكارم زلت

وهل ترى كاتباً عرض تفصيلا وتحليلا لحال الناس و بؤسهم وفسادهم ، أو ترى أن أشجعهم جمجم ولم يفصح ، وغمغم ولم يُبِنْ .

ثم قد تعرّض لنقد الحالة الاجتماعية فى عصره أبو العلاء المعرى ، ولكنه لم يحقق غرضنا من ناحيتين : من ناحية أنه فصّل فى تعديد نواحى الفساد ، ولكنه لم يحلل كل ناحية كما ينبغى ؛ قال بفساد القضاة وفساد رجال الدين وفساد الأمراء ، وفساد المرأة ، ولكنه لم يحلل تحليلا تفصيليا نواحى هذا الفساد وأسبابه وجنايته على العالم ؛ وله بعض العذر فى ذلك لأن الشعر لا يفسح المجال لهذا التحليل ؛ ولو عالج هذه الموضوعات نثراً مرسلا لتأتى له ذلك . وثانى الأمرين فى شعر أبى العلاء أنّ نزعته لم تكن نزعة إيجابية فى الدعوة إلى الثورة و إصلاح الحال ، ولكنها دعوة سلبية إلى الزهد وترك الدنيا ، ونحن إنما ننشد العمل الإيجابى والإصلاح الإيجابى والانغماس فى الحياة لمعالجتها لا الهروب منها .

***

إن المثل الأعلى لآداب الأمة يجب أن يكمُل فيه النوعان من الأدب التركيبى والأدب التحليلى . والأدب العربى فى حاجة إلى المزيد من الأدب التحليلى حتى يرق فيه القصص والوصف الدقيق المفصل والنقد العميق الواسع ونحو ذلك . ولولا نزعة الجمود على القديم والالتزام الشديد للسير على مناهج الأقدمين ، وتعمد

المحدَثين أن يصبُّوا الأدب فى نفس القوالب التى صاغها الأقدمون لكان للأدب العربى شأن غير هذا الشأن .

إن الأمم الأخرى الحية وقفت زمنا مثل موقفنا ، ولكنها بعد برهة تحللت منه ، وجارت الزمان ، وسايرت الأذواق ، واستغلت الحياة الواقعية . لقد سيطر الأدب اليونانى والأدب اللاتينى على الحياة الأدبية الأوربية كل السيطرة حينا من الزمان ، وكان كل همّ الأديب أن يحذو حذو الأدب اليونانى أو اللاتينى حذواً دقيقا ، وكلما كان التقليد أتم كانت القطعة الفنية فى نظرهم أجمل وأروع . وكان الناقد الأدبى إذا نقد قطعة أدبية قاسها بمقياسِ قُرْبِها من هذين الأدبين ؛ فكلما قربت منه كانت أجود وأرق ، وكلما بعدت كانت أضعف وأسمج ، شأنهم فى ذلك شأننا مع الأدب الجاهلى .

ثم وقفوا بعد ذلك موقفاً ينقصنا الآن ، ذلك أنهم مخضوا الأدب اليونانى واللاتينى وأخذوا زبدتهما ورموا ثُفْلهما وتناولوا هذه الزبدة فهضموها ، وزادوا إلى طعامهم هذا — القديم فى أصله ، الجديد فى استخلاصه — طعاماً جديداً مشتقا من بيئتهم ومدنيتهم وحياتهم وأحداثهم وطبيعة أرضهم ونوع معيشتهم ؛ فصنعوا من كل ذلك موائد مختلفة الألوان متعددة الطعوم تشتهيها أذواقهم وتستسيغها معدهم ، وهذا ما ينبغى أن يحدث فى أدبنا العربى حتى يحقق غايته .

يوم فى القاهرة

كان الناس قديماً يتشاءمون من نعيب البوم ونعيق الغراب ، فحق لهم اليوم أن يجددوا فيتشاءموا من نعيق صفارات الإنذار ؛ وأين البوم والغراب من صفارات الإنذار ؟ لقد كان نعيب البوم نذيراً بخراب بيت أو موت فرد ، وكان نعيق الغراب نذيراً بفراق حبيب أو رحيل قوم ؛ أما صفارات الإنذار فنذير بحصد أرواح أو دك بنايات أو نسف ذخائر ! .

ومن الواجب أن يساير الأديب حالة الناس ، فيشتق منها أدبه ، ويجدد تشبيهاته واستعاراته ، ويستعير منها خيالاته ، وكم فى مناظر الحرب من صور رائعة تهيج عواطف الأديب ، وتحرك شاعرية الشاعر ، وتمد قلم الناثر .

والناس مولعون — وخاصة فى أيام الحرب — أن يقرءوا أخبار يومهم لا أخبار أمسهم ، وأدب زمانهم لا أدب ما بَعُدَ من تاريخهم ، ويجدون غذاءهم فيما يصور عواطفهم وخلجات نفوسهم ومناحى حياتهم وما يأتلف مع ظروفهم .

لقد أتتنا هـذه الحرب بطائفة من الألفاظ والتعبيرات ، كالتابور الخامس والدبابات والهابطات والكمامات وما إلى ذلك ؛ وأتتنا بضروب من الأحداث الاجتماعيـة وصنوف من النكبات فى الأنفس والأموال والثمرات ، واضطربت نظم الحياة اليومية والسياسية والاقتصادية ؛ فما أحرى ذلك كله أن يكون غذاء صالحاً للأديب يستمد منه ويعرض له ويصدر عنه .

يجب أن يكون الفرق بين الأدب القديم والحديث كالفرق بين آلات القتال القديمة والحديثة ، والنظم السياسية القديمة والحديثة ، والحياة الاجتماعية القديمة

والحديثة ، لأن الأدب ليس إلا تصويراً لحياة يرقى برقيها ويتلون بألوانها .

***

على كل حال نعقت صفارات الإنذار لأول مرة فى القاهرة أول أمس فى الساعة الثانية صباحا ، وكانت هذه المرة جِدًّا بعد أن سمعناها مرات لَعِبا ، فهبَّ كل من فى « العمارة » من نومهم ، والظلام سائد ، فجعلوا يتحسسون السلم حتى وجدوه ونزلوا ذاهلين ؛ هذا يجر أولادَه ، وهذا يجره أولادُه ، وهذه تحمل طفلها ، وهـذه تقود أمها ، حتى اجتمعوا فى « البدروم » ، فانتحى النساء ناحية ، وانتحى الرجال ناحية ، وأخذوا يتحدثون ، فكان من ذلك كله معرض أمزجة .

هذا فلان قد غلبه الخوف فسكت ولم ينبس بكلمة ، ولم يشترك مع القوم فى قليل ولا كثير ، كان نائماً حالما ، فصار نائماً ساهماً واجماً .

وهذا فلان الذى يرى الدنيا كلها نكتة ويرى فى كل شىء جانبه المضحك ، ويستخرج منه الفكاهة اللطيفة ، لم يفارقه فى موقفه هذا مزاجه الخاص ، فأخذ يقص على الناس كيف نبهته زوجه لصفارة الخطر ، وكيف ألح عليها أن تتركه لينام ، وألحت عليه أن يستيقظ ، ويحكى ما دار بينهما من حوار ، وأنه يريد أن يموت نائما ولا يريد أن ينجو مستيقظا ، وأنها تريده حيًّا لنفسها ولأولادها لا له ، وأخيراً نزل على رأيها فنزلوا إلى المخبأ ؛ يمثل ذلك كله ويضحك فيتابعه بعض الحاضرين فى ضحكه ، وهكذا هو معين مرح لا ينضب ، يشع على من حوله الطمأنينة والسرور حتى فى أشد الأوقات حرجا ؛ يخيل إلىّ أنه سيموت يوم يموت من الضحك ، وأنه إذا شاهد عزرائيل مزح معه وبادله نكتة بنكتة .

وهذا فلان المحال على المعاش تحوّل رعبه إلى عاطفة دينية حادة ، فهو يسبّح ويحوقل ، ويتلو : « قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا — أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم فى بروج مُشيَّدة — وأفوض أمرى إلى الله — وما أصابكم من

مصيبة فبما كسبت أيديكم » إلى غير ذلك من آيات فى هذا الموضوع .

وآخران جلسا يستعرضان السياسة ، أخبار صلح فرنسا مع ألمانيا ، والأسطول الفرنسى وأثره ، وهتلر ومقاصده ، وموقف مصر من إنجلترا ، وموقفها من إيطاليا ، والوزارة الحاضرة وأخبارها ، وماذا تكسب إيطاليا من هذه الغارة . . . الخ .

وفى الجانب الآخر نساء العمارة وأطفالهن ؛ فأما الأطفال فكانوا صورة صادقة من آبائهم ، منهم من يصرخ ، ومنهم من « يلبد » فى حضن أمه ، ومنهم من ينام كأن لا شىء ؛ ودخل النساء فى حديث مشترك ذهب مذاهب شتى فى وجوب الهجرة من القاهرة ، وكل تحدث بما عزمت عليه ، وكيف انتبهت من النوم وأيقظت أولادها ، ثم الدنيا ومصائبها ، وكيف لم يعد فيها راحة .

وفيما كان الرجال والنساء فى هذه الأحاديث المتشعبة والفنون المختلفة ، إذا بصوت المدافع تطلق والانفجار يدوّى ، فتعقد الألسنة ، ويسود الوجوم ، ويسكت الناس ، وتنبح الكلاب ؛ ويلتفت بعض الحاضرين إلى سقف المخبأ هل هو متين ؟ ماذا يكون شأنه لو دك ما فوقه ؟ وإلى المنافذ ، هل يحسن أن تبقى هكذا مفتوحة ؟ هذه عملية الأعين ؛ وأما الأذن فقد أرهفت لصوت القنابل ، ما مقدار المسافة بيننا وبينها ؟ هل هى آخذة فى القرب منا أو البعد عنا ؟ ثم بدأت الألسنة تتحرك فى تثاقل :

— هل اشتريت يا أخى كمامات ؟

— لا والله .

— إنا لم نسمع فى هذه الحرب باستعمال الأعداء للغازات الخانقة حتى نحرص عليها .

— ولكنهم قد لا يستعملونها فى الغرب ، لأنها عرفت وعرف علاجها واستعد لها الناس هناك ، أما فى الشرق فقد تستعمل فمن الواجب الاحتياط لها .

— سأنظر .

— متى تذهب إلى « الفلاحين » ؟

— لا أنوى .

— لماذا ؟

— لأنى أرى الموت بالقنابل أفضل من الموت بالميكروبات .

— يمكنك أن تتقى الميكروبات بالتطعيم وغلى الماء وما إلى ذلك ، ولكن لا يمكنك أن تتقى القنابل .

— الرب واحد ، والعمر واحد .

— إن مصيبة العمر أنه واحد ، فلو كان اثنين لتشجعنا فى واحد وجبنًا فى واحد (تبسم خفيف مشوب بمرارة) .

سكتت القنابل ، وطال الانتظار ، وفرغ الناس من الكلام ، وبدأ النعاس — لا أقول يداعب أعينهم فليس الوقت وقت مداعبة — ولكنه بدأ يغزو أعينهم ، وانسللت من بين القوم إلى مضجعى فنمت ، ولم أصح إلا على صفارة الأمان .

* * *

وتلهفت على موعد الإذاعة اللاسلكية ، أستوضحها علم ما كان ليلة أمس ، فكأنها أيضاً أصابها الإغفاء من طول ما أرقت ، فمر موعد إذاعة الأخبار فى صمت عميق كأنه صمت القبور ؛ وانتظرت موعد بائع الجرائد أيضاً ، فكأنه تآمر مع محطة الإذاعة على كتم الأسرار ، فنزلت واشتريتها ، فرأيتها تأتى بما أعلم ولا تذكر شيئاً عما لا أعلم ، وكان المتكلم الوحيد الذى يأتينى بالأخبار هو الإشاعات المتضاربة المبالغة ؛ ووقفت أنتظر الترام فاذا بجانبى طائفة من باعة

الجرائد ، يفسر أحدهم هذه الغارات بالغريزة والإلهام ، لا بالعقل والمنطق ، ويرد عليه آخر فيصفعه ويجرى .

وأذهب إلى مجتمع من الناس لعمل من الأعمال ، فأسمع أحاديث طلية عن ليلة أمس : هذا رعب بيته وتشنجت بنته ، وهذا فتح الشباك لينظر هو وزوجه إلى الطيارة وقد حبستها الأنوار الكشافة فكان منظراً جميلا فى القمر الجميل ! إلى كثير من ألوان الحديث المختلفة .

***

وضرب الناس فى الأرض وعادوا سيرتهم الأولى ، حتى إذا جاء المساء وفرغنا من عملنا جلسنا إلى مقهى فى رفقة من الأصدقاء ، وأتى الغلام .

— نعم !

— بطيخ — خشاف — لبن زبادى — « سندوتش » — « شيشه » .

الجو طلق ، والهواء جميل ، والسماء صافية ، والقمر مضىء ، وأتى الفتى بكل ما طلبنا .

فأخذ هذا يكركر شيشته ، وهذا يجيل الملعقة فى خشافه ، وذلك يعمل الشوكة والسكين فى بطيخه ؛ وإذا بصفارة الإنذار تنعق ، فترك كلٌّ ما هو فيه ، وهرع إلى المقهى ، وأطفئت الأنوار ، وأغلقت الأبواب ، ولم يدر كلٌّ منا أين أصحابه ، فتفرقنا حيثما اتفق ، وجلست بجانب من لم أعرفهم ؛ فى الجانب الأيمن نكتة لطيفة ضج لها الحاضرون بالضحك ، وقام ضحكهم اليوم مقام قنابل أمس ، والمصريون لا تفارقهم النكات ، حتى فى أحرج الأوقات ؛ وفى الجانب الأيسر طائفة أكثر جدا وهمًّا ، يذكرون ما عسى أن يكون أهلهم وأولادهم فى بيوتهم ، وماذا عسى أن يتخيل أهلهم وأولادهم فيهم الآن ، ويتبادلون هذه الخيالات ،

وينادى أحدهم من ركن المقهى : يا دكتور ، اجلس بجانبى ، فإذا جد الجد أسعفتنى ! .

ولم يطل زمن الغارة ، فصفرت صفارة الأمن لتمحو ما فعلت أختها صفارة الإنذار ، وأسرع الناس إلى أهلهم يطمئنون على حياتهم ويطمئنونهم بحياتهم .

وأصبحت فأخذت القطار لشأن من الشؤون ، وتوقعت أن يكون الزمن مملا ، فقطعته بكتابة هذا الحديث الممل .

٢٣ يونيه سنة ١٩٤٠

الإصلاح الحديث

كان الإصلاح القديم يتجه إلى النتائج فيعالجها ، ويترك المقدمات غير عابئ بها ، تعمل عملها ، فتنتج النتائج نفسها .

وعلى هذا جرى وعظ الواعظ ، وتعليم المعلم ، ونصيحة الوالد ، وكثرة النواهي والأوامر ؛ وعلى هذا النمط أيضاً عولج الفقر بالتصدق على الفقير ، وعولج الإجرام بحبس المجرم ، وهكذا .

ثم رقى الإنسان فظهر أن هذا الضرب من الإصلاح على الأقل لا يكفى ، فالفقير يَسأل فيُمنح ثم يسأل فيمنح ، ففقره دائم وسؤاله دائم ، والمرض دائم ، والعلاج لم يكن شافيا ، فما دامت المقدمات هى هى فالنتيجة هى هى .

إذا كان مجموع أربعة وخمسة تسعة ، ثم استقللت التسعة فمن الحق إذا أردت زيادتها وتكثيرها أن تحافظ على مفرداتها ، فغيِّر المفردات يتغير الجمع ، وإلا فالتسعة تسعة على الرغم من كل محاولة .

وإذا لم تعجبك ثمرة شجرة فمن الأمل الخائب أن تنتظر فى المستقبل جودتها وحلاوتها ، ما دمت تحافظ على أصلها وتربتها وجوها وغذائها .

***

كل عمل من أعمال الإنسان يظنه قصير النظر نتيجة وقتية ، كان يمكن أن يكون ، وكان يمكن ألا يكون ، وكان يمكن عكسه ، فمن اليسير نهى فاعله لينتهى ، أو أمره ليأتمر ، وهذا كل ما فى الأمر .

أما بعيد النظر فيراه كثمرة الشجرة اشترك فى تكوينها — على هذا النحو دون ذاك — نوع بذرتها وغذاؤها وجوها وكل ما يحيط بها ، فمحال مع كل هذا

أن تكون غير ما هى ، ومحال أن يصدر عن الإنسان غير مايصدر عنه ، ما دامت كل مقومات العمل هى هى .

ماذا أنا ، وماذا أنت ؟

ثمرة ككل ثمار الشجر ، ونتيجة لكثير من المقدمات .

جزء جَمَادِىّ يخضع لكل قوانين الجماد التى يخضع لها التراب والحجر والماء ، وجزء عضوى يخضع لكل قوانين النبات فى مختلف البقاع ، وجزء حيوانى يخضع لكل قوانين الحيوان فى البر والبحر وفى الأرض وفى السماء ، وجزء إنسانى يخضع لكل قوانين الإنسان فى البلاد الحارة والباردة وفى جوف الصحراء وعلى ساحل البحار أو شواطئ الأنهار .

ثم يأتى بعد ذلك جزء قليل من الشخصية اسمه « أنا » واسمه « أنت » واسمه « هو » ؛ وهذه الشخصية قد غُمرت وقيدت بالجزء الأكبر من طبيعة الجماد والنبات والحيوان والإنسان .

وحتى هذا الجزء القليل من الشخصية الذى سبّب الفروق بين إنسان وإنسان قد عمل فى تكوينه عوامل لا تحصى ، اشترك فيه الأجداد من آدم وحواء — على الأقل — إلى اليوم ، واشترك فيه ما تنقّل فيه الآباء من بيئة وإقليم ، وما تدينوا من دين وما اعتنقوا من خرافات وأوهام ، وما تبدوا وما تحضروا ، وما أصابهم من رخاء أو شقاء ؛ هذا شأن القديم ، ولا يقل عنه شأن الحديث ، فنحن كالمرآة ينطبع فينا كل مايصل إلى صفحتنا ، عن طريق كل حاسة من حواسنا ومن غير حواسنا ، و بشعورنا ومن غير شعورنا ، ثم يتفاعل كل هذا القديم ، وكل هذا الجديد ، فيكون نتاجه « أنا » و « أنت » و « هو » . ومن المستحيل — مع هذا التفاعل — أن يكون « أنا » غير « أنا » و « أنت » غير « أنت » لا فى الخَلق ولا فى الخُلُق ولا فى العقل ولا فى الروح ؛ فما أنا وأنت إلا حاصل جمع

لأعداد محدودة ، أو نتيجة مزج لحرارة و برودة ؛ إن كان كذلك فكيف يكون الإصلاح ؟ .

إذا أردتُ الإصلاح فلأعمل ما أعمله إذا أردت تغيير حاصل الجمع فأغير مفرداته ، وما أعمل فى تغيير درجة الحرارة فأغير حرارة العناصر ، وما أعمل فى تغيير الثمرة بتغيير البذرة ، فإن لم أستطع فبتغيير الغذاء .

لست بمستطيع أن أغير ما فىّ من عناصر جماد أو نبات أو حيوان أو إنسان ، ولست بمستطيع أن أغيّر قوانين الوراثة ، فأين أنا وآبائى الأولون الذين صبُّوا فىّ من نفوسهم وطبائعهم وأرواحهم ، ثم تركونى وشأنى أخضع لقوانين العالم ؛ ثم إنى — كمصرى — أحمل بجانب طبيعة آبائى أعباء كل تاريخ مصر من قديم ومتوسط وحديث ، أحمل ظلم الظالمين وعدل العادلين ، ونصرة الحروب وهزيمتها وسيطرتها على الأمم وسيطرة الأمم عليها ؛ وقد رَسم كل ذلك خطوطاً فى جبين كل مصرى لا يقرؤها إلا الله والراسخون فى العلم ؛ وما أنا بمستطيع تغيير هذه الخطوط أيضاً .

ولكن بجانب دائرة غير المستطاع دائرة المستطاع ، وهو مايتجه إليه الإصلاح .

أُصلحُ المدينة التى أسكنها ، والكتب التى أقرؤها ، والروايات التى أشاهدها ، والحكومة التى تحكمنى ، والدين الذى أعتقده ، والمدرسة التى أتعلم فيها ، والمحاكم التى تحاكمنى ، والناحية الاقتصادية التى تحيطنى ، والسياسة التى تسوسنى ، فتنفعل كل هذه مع وراثتى ، فإذا نتيجة التفاعل مختلفة ، و إذا حاصل الجمع مختلف ، و إذا الإصلاح قد حدث ، و بغير هذا لا يكون إصلاح .

ناد ما شئت بإصلاح القرية وإصلاح الفلاح ، واخطب على المنابر واكتب فى المجلات واملأ أعمدة الصحف ، فالقرية القرية والفلاح الفلاح ، ولا قيمة لهذا كله إلا أن يكون توجيهاً للعمل ؛ إنما تصلح القرية ويصلح الفلاح يوم تدرس

مظاهر بؤسها و بؤسه ، وأسباب تعاستها وتعاسته ، ثم يخصص المال للإصلاح ، وتوضع ميزانية الدولة على هذا الأساس ، وتعالج كل معضلة بإزالة أسبابها .

ومن الغفلة أن تحاول أن تتقى الفجور بإنشاء مكتب الآداب ، وتترك أسبابه وعلله كما هى ، من فقر و إثارة غريزة وميل إلى العيش الناعم ، وما إلى ذلك من أسباب .

وعالج الفقر بالتصدق على الفقير فسيظل فقيراً ، وسيظل الاستجداء كما هو ؛ ولكن تعرّف أسباب فقر الفقير ، فإن كان بطالة فأوجد له عملا ، و إن كان عجزاً فأوجد له ملجأ ، و إن كان سوء تصرف فعالج سوء التصرف بتعليمه حسن التصرف ، يقل الفقر و ينقطع السؤال .

كم وعظ يذهب هباء ، وكم نصيحة تضيع سدى ، لأن الواعظ أو الناصح واجه النتائج وترك المقدمات ، وتعرض لحاصل الجمع أو الضرب وترك المفردات ، فكان مثله كمثل من ظن أنه بوعظه و إرشاده يستطيع أن يمنع القط أن يؤذى فأراً ، أو الذئب أن يمس حملا .

إنما منهج الإصلاح الحديث أن يسير وراء المرض يتعرف علله ، ثم يجتهد أن يزيل العلل فيزول المرض .

يرى المصلح الحديث أن الجريمة أو سوء الحال لم يأت عفواً فلا يعالج عفواً ، إنما أتى من عوامل متعددة ، فما بقيت العوامل بقى الإجرام ، و بقى سوء الحال ؛ فإذا تغيرت الظروف والبيئة انقطع الإجرام وحسن الحال .

يتلخص الإصلاح الحديث فى الإيمان بقانون السببية ، و بأنه شامل للظواهر الطبيعية ، فحسن الأخلاق وسوءها ، والإجرام وعدمه ، والغنى والفقر ، وحال القرية ، وحال الفلاح ، والفجور والعفة ، كل أولئك ينطبق عليها قانون السببية ، كما ينطبق على الأجسام المادية التمدد بالحرارة والانكماش بالبرودة ، ونحو ذلك من قوانين .

***

كان النمط القديم فى الإصلاح يقول : « أطعم الجائع » ، والنمط الحديث يقول : « لا يكن جائع » ، والنمط القديم يقول : « تصدق على الفقير » ، والنمط الحديث يقول : « امح الفقر » ، والنمط القديم يقول : « احبس المجرم » ، والحديث يقول : « اجتث عوامل الإجرام » ، والقديم يقول : أصلح الفلاح وحسّن القرية » ، والحديث يقول : « ارصد فى الميزانية المال لشرب الفلاح ماء نقيا ، وعلمه ليطالب بحقوقه ، واعدل فيما يصيبه ويصيب المالك ، وشرّع القوانين حتى يصل إليه ما يكفيه ، ورقّ عقله حتى يعرف كيف ينفق ما يصل إلى يده » تحسن معيشته .

نمط الإصلاح القديم يعتمد على البلاغة والخطابة ، ونمط الإصلاح الحديث يعتمد على « معامل » كمعامل الطبيعة والكيمياء ، فيه تحليل للظواهر الاجتماعية حتى تعرف أسبابها ، وفيه درس عميق وإحصاء دقيق ، وفيه تشخيص للمرض ، ووضع للمريض تحت الأشعة ، وإجراء لتجارب العلاج ، ورصد للنتائج ، ثم تنفيذ للعلاج حسب ما أرشد إليه البحث والدرس والفحص .

وعلى الجملة فالنمط القديم ينظر إلى ثمرة الشجرة ؛ والنمط الحديث إلى جذور الشجرة .

فى غار حِـــــراء

فى غار حراء — وهو غار يقرب من ثلاثة أمتار فى مترين فى قمة جبل على يسار السالك من مكة إلى عرفة — كان محمد وهو فى سن الأربعين قبيل الرسالة يتحنث .

كان محمد فى هذه الأيام يألف العزلة ، « ولم يكن شىء أحب إليه من أن يخلو وحده » .

« وكان يخرج إلى شعاب مكة و بطون أوديتها » .

« وكان يقضى شهراً مجاوراً فى غار حراء » .

هكذا تقول كتب السيرة .

فيم كان يفكر ؟ وما الذى كان يطلب ؟ وما هذه الحالة النفسية الجديدة التى استولت عليه ؟ وما الذى جعله يهرب من النـاس وقد كان بهم أنيساً ؟ يسعد بالوحدة ، ويسعى إلى العزلة ، ولا يطمئن إلا إلى نفسه وتفكيره ! وما الذى جعله يختار قمة جبل يشرف منه على العالم حوله فتسبح نفسه فى التفكير من غير أن يحدها حد أو يقف بها عند غاية ؟

ما هذه الأفكار التى كانت تملأ نفسه شهراً فلا يمل التفكير ، ولعله كان يود أن يبقى كذلك أشهراً لولا واجب أهله وواجب عشيرته ؟ .

ولـكن هل لنا أن نتساءل هذه الأسئلة ؟ وإذا سألناها فهل فى استطاعتنا أن نجيب عنها ؟ .

هل فى استطاعة الجاهل أن يشرح أفكار الفيلسوف ؟ وهل فى مكنة من

لا يحسن الرياضة أن يتخيل ما يفكر فيــه الرياضى ؟ وهل للنملة أن تتساءل فيم يفكر الإنسان ؟ .

ولــكن ما حيلة الإنسان وقد خلق طموحا إلى أقصى حد وأبعد غاية ، ولم يقنع فى باب المعرفة بشىء ، لم يقنع بالأرض ففكر فى السماء ، ولم يقنع بالظاهر ففكر فى الباطن ، بل لم يقنع بآثار الله فأراد أن يعرف ذات الله ، وهيهات هيهات !

***

أكبر الظن أن « محمداً » فى هذه الفترة ، وعلى الأخص فى غار حراء كان فى حيرة ما أشدها من حيرة ، عبر الله عنها بقوله « ووجدك ضالا فهدى » .

لقد عرف قومه فلم يعجبه دينهم ، ولا نوع حياتهم ، ولا كفرهم ولا إيمانهم ولا أخلاقهم ؛ وسافر إلى الشام فرأى فيها مدنية الرومان بما لها وأعمالها التجارية وترفها ونعيمها ودينها الرسمى ومظاهره ، فلم يعجبه شىء من ذلك . لقد رآهم يعيشون كما يعيش السمك يأكل بعضه بعضاً ، أو كما تعيش الذئاب والشياه فى حظيرة واحدة . رحماك اللهم ! ما هذه الحيرة الشاملة ؟ لا البداوة بسذاجتها ونظامها أعجبته ، ولا الحضارة بترفها وزخارفها أعجبته . لم يعجبه ما رأى من وثنية ، ولم يعجبه ما رأى من نصرانية . فأين الحق ؟ .

لقد اطمأن إلى شىء واحد هو أن كل ما رأى ضلال ؛ وحيّره شىء واحد هو سؤاله أين الهُدَى .

حالة نفسية إذا تملكت نفساً مرهفة وشعوراً دقيقاً ملــكت نفسه وغمرت قلبه ؛ فخلا له أن يعتزل الناس لأنهم يحولون بينه و بين تفــكيره ، ولم يقطعون عليه سلسلة مشاعره .

لقد جرب العزلة الساعة واليوم فوجدها تفتح قلبه وتريح نفسه ، ووجد فيها مفتاحا لحيرته ، واتجاها لهدايته ، فبالغ فيها حتى بلغت الشهر !

إن الناس وضوضاءهم ومناظر حياتهم يُضْنون نفسه فليهرب منهم ، وإن منظر الطبيعة بجمالها وبهائها ورونقها ليحيي نفسه فليطمئن إليها . يتعاقب عليه فى عزلته الليل والنهار فيجد فى كلٍّ غذاء نفسه : هذا الليل فى أعلى الجبل بسكونه وهدوئه ، وسمائه ونجومه ؛ والعالم حوله كله نائم ، وهو يناغى النجم ، ويشاطره الاضطراب والحيرة ، وهذا النهار — فى أعلى الجبل أيضاً — يشرف منه على العالم من تحته ، فيهزأ بالناس وسخافاتهم هزؤا مشوبا برحمة ، واستخفافا ممزوجا بعطف .

كل ذلك وأكثر من ذلك كان يخفق له قلب محمد فى غار حراء .

لقد عرف الباطل ، ويريد أن يعرف الحق ؛ وأدرك الضلالة ويريد أن يدرك الهدى ؛ ولم يحب ما عليه الناس ، ولكن يريد أن يعرف ما ينبغى أن يكون عليه الناس .

هذا الظلام فأين النور ؟ وهذا العمى فأين البصر ؟ وهذا ما يجب ألا يكون ، فأين ما يجب أن يكون ؟ .

***

لقد طلب الحق — فى غار حراء — بعد أن تهيأت نفسه ، واستعدت روحه ، وكملت مشاعره ، وتُوجت بالحيرة ، فكانت حيرته إرهاصاً لليقين ، وضلاله إرهاصاً للهدى .

لم يطلب الحق من طريق الشعر ؛ فالشاعر يتخيل ثم يخال ، والشاعر يخلق ما لم يكن ولا يدرك ما يجب أن يكون ، والشاعر يغنّى لنفسه — أولا — ولا بأس أن يَسمع الناس ، والشاعر يعيش فى جو خيالى يخلقه بنفسه لنفسه ، وليس هذا من النبوة فى قليل ولا كثير . ولم يطلب الحق من طريق الفلسفة أو العلم ، فكلاهما عبْدُ المنطق ، عبد الألفاظ ، عبد الكتب ، عبد النصوص ؛ وقُصارَى أمرهما أنهما عبدان للعقل ، والعقل معيب مغرور مضل ؛ ولكل إنسان عقله ،

ولكل إنسان تفكيره ، ولكل إنسان منطقه وقضاياه .

إنما طلب محمد الحق من طريق أسمى من ذلك كله ، وأرفع من ذلك كله : طلبه من طريق القلب ، وأعلن أنه لم يطلب علماً ولكن طلب إيماناً ، فأعلن أنه أمى وفخر بأميته ، لأن القلب فوق اللغة ، وفوق الكتابة والقراءة ، وفوق العلم ، وفوق المنطق ؛ وهو القدر المشترك بين الناس ، لا يؤمن بحدود اللغة والجنس ، ولا يؤمن بحدود اللسان والألوان .

من أجل هذا لم يذهب — وقد حار — إلى معلم يعلمه الكِتاب ، ولا إلى مثقَّف بالكتب والأديان ، وإنما فضل على ذلك كله غار حراء حيث الطبيعة — على فطرتها — مفتوحة أمام قلبه ، وحيث يتصل هو وهى بربها وربه .

لقد اهتدى إلى الصراط المستقيم ، واتجه اتجاه الأنبياء ، لا اتجاه الشعراء والعلماء ، وتهيأ للأمر العظيم ، فلمعت فى قلبه الشرارة الإلهية ، كما يتهيأ السحاب فيلمع البرق .

لقد أضاءت له هذه الشرارة الإلهية كل شىء ، وكانت رسالته من جنس هدايته ؛ فرسالته أن يبعث الحياة فى القلب ، ويبعث الضوء إلى النفس ، كالقمر يستمد نوره من الشمس ، ثم يعكس أشعته الجميلة على الناس ، يشترك فى الاهتداء به العالم والجاهل ، والذكى والغبى ، والفيلسوف والعامى ، على اختلاف فيما بينهم ، لأن لديهم جميعاً قدراً مشتركا من القلب صالحاً للاهتداء .

وليست العقول مسايرة فى الرقى والانحطاط للقلوب ، فقد يكون مريضُ القلب صحيح العقل ، وقد يكون صحيحُ القلب مريض العقل ، ومقياس صحة الاستفادة من النبوة صحة القلب لا صحة العقل ؛ فلذلك آمن بلال قبل أن يؤمن عمرو بن العاص ، وأسلمت جارية بنى مؤمل قبل أن يسلم أبو سفيان .

***

كانت فترة غار حراء الحد الفاصل بين محمد بشراً ، ومحمد بشراً رسولا . لقد صعد إليه إنسانا حائراً ، وهبط منه إنسانا نبيا ، مهتديا مطمئنا . صعد شاكا ، وهبط مؤمناً . لمع فى قلبه النور الإلهى فإذا كل شىء حوله شفاف يراه بقلبه ويكشفه بنوره .

نزل من الغار يدعو الناس أن يستضيئوا بضوئه ، وأن يُحيوا قلبهم من حياة قلبه ، وأن يسمعوا لصوت الله على لسانه ، وأن يروا عظمة الله فى كل أثر من آثاره

***

أى شهر كان هذا الشهر ؟ لو وزن به الزمان لَوَزَنه . وأى مكان غار حراء ؟ لو فاضل كلّ مكان لفَضَله .

قانون الرّحّالة

منذ نحو ألف عام نبغ فى بيت المقدس عالم جليل اسمه أبو عبد الله محمد بن أحمد المقدسى ، نظر فرأى أن العلماء قد سبقوه فى اختراع العلوم وترتيبها ، ثم خلف من بعدهم خلف شرحوا ما دونوا ، واختصروا ما طولوا ، فعز عليه ألا يبتكر كما ابتكروا ، وألا ينفرد بشىء كما انفردوا ، وعاف أن يكون صدى لغيره ، يجمع ما فرقوا ، أو يفرق ما جمعوا ، فأخذ يستعرض جوانب نقصهم حتى يكملها ، ونواحى أغفلوها حتى يبتكرها . قال : « فرأيت أن أقصد علماً أغفلوه ، وأتفرد بفن لم يذكروه » ، ذلك أنه رأى المملكة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى لم توصف وصفاً كافياً شافياً ، لا من ناحية جغرافيتها ، من مفاوز وبحار ، وبحيرات وأنهار ، ومدن وأمصار ، ونبات وحيوان ، ولا من ناحيتها الاجتماعية « من اختلاف أهل البلدان فى كلامهم وأصواتهم ، وألسنتهم وألوانهم ، ومذاهبهم ، ومكاييلهم وموازينهم ، ونقودهم وصروفهم ، وصفة طعامهم وشرابهم ، ومعرفة مفاخرهم وعيوبهم ، ومعادن السعة والخصب ، ومواضع الضيق والجدب » .

ورأى — كما قال — أن ذلك علم لا بد منه للتاجر والمسافر ، والملوك والكبراء ، والقضاة والفقهاء .

نعم قد اتجه بعض العلماء قبله إلى هذا الباب ، ولكنه رأى أنهم قصروا وما أنصفوا ، فمنهم من نقل فى كتبه ما سمع من أفواه الناس واكتفى بذلك ، ومنهم من اقتصر على المصوَّر الجغرافى وشرحه ، ومنهم من اقتصر على ذكر المدن المشهورة .

وعلى كل حال فقد استعرض كل ما أُلِّف قبله فى هذا العلم فلم يرتضه .

فانتدب مؤلفنا نفسه لهذه المهمة ، وإكمال هذا النقص ، وإحراز قصب السبق ، ورسم لنفسه خطة محكمة أتم إحكام ، دقيقة أكمل دقة ، حتى ليصح — بحق — أن تعد « قانون الرحالة » فهو يقول : « إنى أسست هذا الكتاب على قواعد محكمة وأسندته بدعائم قوية » ؛ ولكن ما هى هذه القواعد المحكمة التى وضعها ؟ .

فأول كل شىء قرر أن يرحل إلى الأقطار الإسلامية ويشاهدها بنفسه ففعل ، فإذا دخل بلدة درسها أتم درس ، وعلى حد تعبيره « ذاق هواءها ، ووزن ماءها » ولقى علماءها ، وخدم ملوكها ، وجالس القضاة والفقهاء ، واختلف إلى الأدباء والقراء ، وخالط الزهاد والمتصوفين ، وحضر مجالس القصاصين ، وتاجر فيها ، وعاشر أهلها ، ومسح إقليمها ، ودار على تخومها ، وفتش عن مذاهب سكانها ، ودقق النظر فى ألسنتهم وألوانهم .

وفى الحق أن الرجل كان فى عمله المثل الأعلى للرحالة ، فقد عمل كل مايمكن عمله لدراسة البلاد والوقوف على عاداتها وأحوالها . ولا أدل على ذلك من أن أتركه يتكلم إلى القراء عما عمله فى هذا الباب قال :

« لم أترك شيئاً مما يلحق المسافرين إلا وقد أخذت منه نصيباً ، فقد تفقهت وتأدبت ، وتزهدت وتعبدت ، وفَقَّهْتُ وأدَّبْتُ ، وخطبت على المنابر ، وأذّنت على المنائر ، وأممت فى المساجد ، واختلفت إلى المدارس ، وتكلمت فى المجالس ، وأكلت مع الصوفية الهرائس ، ومع الخانقائيين الثرائد ، ومع النواتى العصائد ، وطُردت فى الليالى من المساجد ، وتهت فى الصحارى ، وسحت فى البرارى ، وصدقت فى الورع زماناً ، وأكلت الحرام عياناً ، وصحبت عُبّاد جبال لبنان ، وخالطت حيناً السلطان ، وملكت العبيد ، وحملت على رأسى بالزنبيل ، وأشرفت

مراراً على الغرق ، وقُطع على قوافلنا الطرق ؛ وخدمت القضاة والكبراء ، وخالطت السلاطين والوزراء ، وصاحبت فى الطرق الفساق ، وبعت البضائع فى الأسواق ، وسُجنت فى الحبوس ، وأُخذتُ على أنى جاسوس ، وعاينت حرب الروم فى الشوانى ، وضرب النواقيس فى الليالى ، ونزلت فى عَرْصة الملوك بين الأجلة ، وسكنت بين الجهال فى محلة الحاكة ، وكم نلت العز والرفعة ، ودُبِّر فى قتلى غير مرة ، ولبست خلع الملوك وأمروا لى بالصلات ، وعريت وافتقرت مرات ، ورُميت بالبدع ، واتهمت بالطمع ، واتبعنى الأرذلون ، وعاندنى الحاسدون ، وسُعى بى إلى السلاطين ، ودخلت حمامات طبرية والقلاع الفارسية ، ورأيت يوم الغوارة وعيد بربارة . ولقد ذهب لى فى هذه الأسفار فوق عشرة آلاف درهم ، سوى ما دخل علىّ من التقصير فى أمور الشريعة ، ولم تبق رخصة مذهب إلا وقد استعملتها ، وما سرت فى جادّة وبينى وبين مدينة عشرة فراسخ إلا فارقت القافلة وانفتلت إليها لأنظرها ، وربما اكتريت رجالا يصحبوننى ، وجعلت مسيرى فى الليل لأرجع إلى رفقائى ، ومثل هذا كثير ، وإنما ذكرت هذا القدر ليعلم الناظر فى كتابنا أننا لم نضعه جزافاً ، ولا رتبناه مجازاً . فكم بين من قاسى هذه الأسباب وبين من صنف كتابه فى الرفاهية ووضعه على السماع » .

هذا برنامجه فيما شاهده . أما ما لم يشاهده فبرنامجه فيه « أن يسأل ذوى العقول من الناس ، ومن لم يعرف بالغفلة والالتباس ، وأن يسأل عن الشىء الواحد جماعة مختلفة فما اتفقوا عليه أثبته ، وما اختلفوا فيه نبذه ، وما حكوه ولم يقبله عقله أسنده إلى من رواه أو قال فيه « زعموا » .

وهذا منتهى الصدق والإنصاف ، والدقة والتحرى .

وجاءته فكرة « الخرائط » فعملها فى كتابه ، بل جاءته فكرة الخرائط الملونة واختيار الألوان المناسبة فقال :

« ورسمنا حدودها وخططها وحررنا طرقها المعروفة بالحمرة ، وجعلنا رمالها الذهبية بالصفرة ، وبحارها المِلْحة بالخضرة ، وأنهارها المعروفة بالزرقة ، وجبالها المشهورة بالغبرة ، ليقرب الوصف إلى الأفهام ، ويقف عليه الخاص والعام » .

غير أن هذه الخرائط — مع الأسف — لم تصل إلينا مع كتابه .

وقد ساح فى جزيرة العرب والعراق والشام ومصر والمغرب ثم فى بلاد فارس والسند والهند ، ودوّن ما شاهده حسبما وضع من قواعد ، وألف فى ذلك كتابا سنة ٣٧٥ هـ سماه « أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم »(١) .

وقد لخص رأيه فى الأقاليم التى زارها ، فى جملة فى ثنايا الكتاب فقال : « أظرف الأقاليم العراق ، وهو أخف على القلب ، وأحد للذهن ، وبه تكون النفس أطيب ، والخاطر أدق ، وأوسعها فواكه ، وأكثرها علماء وأجلة « المشرق »(٢) . وأكثرها صوفا وقزًّا ودخلا على قدره الديلم(٣) . وأجودها ألباناً وأعسالا ، وألذها أخبازاً وأمكنها زعفراناً الجبال(٤) . وأسفلها قوماً ، وشرّهم أصلا وفصلا خوزستان . وأحلاها تموراً وأوطؤها قوماً كرمان . وأكثرها فانيذا وأرززا ومسكا وكفّاراً السند . وأكيسها قوماً وتجاراً . . . فارس ؛ وأشدها حرا وقحطا جزيرة العرب . وأكثرها بركات وصالحين وزهاداً ومشاهد ، الشام . وأكثرها عبّاداً وقراء وأموالا ومتجراً وحبوبا ، مصر . وأخوفها سبلا وأجودها خيلا وأوسطها قوماً أقور(٥) . وأجفاها . . . وأكثرها مدناً وأوسعها أرضا المغرب » .

وقال فى موضع آخر : « لم أر أطمع من أهل مكة ، ولا أفقه من أهل يثرب ،

---

(١) طبع فى مدينة « ليدن » سنة ١٩٠٦ م .
(٢) يريد بالمشرق الدولة السامانية .
(٣) يطلق الديلم على الإقليم الذى فيه جرجان وطبرستان .
(٤) يريد بالجبال الإقليم الذى يشمل الرى وهمذان وأصفهان وقاشان الخ . .
(٥) أقور : هى الجزيرة بين الموصل والفرات .

ولا أعف من أهل بيت المقدس ، ولا آدب من أهل هَرَاة ، ولا أذهن من أهل الرى ... ولا أصح موازين من أهل الكوفة ، ولا أحسن من أهل حمص وبخارى ، ولا أحسن لِحًى من الديلم ، ولا أشرب للخمور من أهل بعلبك ومصر ، الخ ... فإن سأل سائل : أى البلدان أطيب ؟ نظر ، فإن كان يطلب الدارين ، قيل له بيت المقدس ، وإن كان يطلب النعمة والحيازة والرخص والفواكه ، قيل له كل بلد أجزاك ، وإلا فعليك بخمسة أمصار : دمشق ، والبصرة ، والرى ، وبخارى ، وبلخ . ومن أراد التجارة فعليه بعدن أو عُمان أو مصر » .

وقال فى موضع ثالث : « واعلم أن بغداد كانت جليلة فى القديم ، وقد تداعت الآن للخراب ، واختلت وذهب بهاؤها ، ولم أستطبها ولا أعجبت بها ، وإن مدحناها فللمتعارف ، وفسطاط مصر اليوم كبغداد فى القديم ، ولا أعلم فى الإسلام بلداً أجل منه » الخ .

ولما جاء مصر فى رحلته أعجب بالفسطاط ، وقال إنه لم ير فى الأمصار آهل منه ، وأعجب بما فيه من كثرة العلماء ، وقال ليس فى الإسلام أكبر مجالس من جامعه (جامع عمرو) وقد سرّته أطعمته وحلواه ، وكثرة بقوله وفواكهه ، وأعجبته نغمة أهله بالقرآن ، ودهش من كثرة المراكب فى النيل ، ومن كثرة المصلين فى المساجد ، ولكنه لم تعجبه كثرة البراغيث بها ، وانتقد عدم عناية المصريين بالنظافة ، وازدحام مساكنهم بالسكان ، وكثرة الكلاب فيها ، كما انتقد شرب الخمور ، وانتشار الفجور ، وكثرة السباب .

وحدثنا أن أهل الشام يعيبون على أهل مصر ثلاثة : « أن مطرهم الندى ، وطيرهم الحدى ، وكلامهم رخو مثل النسا » .

***

وأيا ما كان فقد نخالفه و يخالفه المحْدَثون فيما وصف من مزايا الأقاليم وعيوبها ، ولكن عذره أنه وصف ما شاهد ، كما وصف أثر هذه المشاهد فى نفسه ، وقد يكون اختلاف رأينا عن رأيه اختلاف زمان ، فزماننا قد تغيرت فيه الأوضاع والأوصاف عما كانت فى زمنه ، وألف سنة ليست بالقليلة فى تغيير الشعوب .

وعلى كل فأهم ما للرجل برنامجه الدقيق الذى وضعه والتزمه ، ولا يزال إلى الآن فى نظرى المثل الأعلى للرحالة ، وقل أن يفوقه فيه الرحالة المحدثون . فمن منهم من يفعل ما فعل ، فيبيع فى الأسواق ليعرف الحالة التجارية للبلاد التى رحل إليها ، ويخدم ليعرف حال القصور ، ودخائل البيوت ، ويخالط التجار ويأكل ما كلهم ليتعرف عاداتهم ، ويتشكل — كما قال — بكل الأشكال إلا الكُدية ؟

اللهم إن هذا — فى بابه — لعظيم !

أسباب الضعف فى اللغة العربية

(١)

رددت الجرائد والمجلات الشكوى من ضعف الطلبة وخريجى الجامعة فى اللغة العربية — ولا شك أنها مسألة لا يصح أن تمر من غير أن يتداولها الكتّاب بالشرح والتعليل ، ويقلبوها على وجوهها المختلفة ، حتى يصلوا إلى علاج حاسم .

أما إن الطلبة ضعاف جدا فى اللغة العربية فأمر لا يحتاج إلى برهان . فأكثرهم لا يحسن أن يكتب أسطراً ولا أن يقرأ أسطراً من غير لحن فظيع يكاد يكون بعدد الكلمات التى يكتبها أو يقرؤها ؛ وهم إذا خطبوا أو قرءوا أو كتبوا أو أدوا امتحاناً رأيت وسمعت ما يثير العجب ويبعث الأسف . وأما أن الضعف فى اللغة العربية نكبة على البلاد فذلك أيضاً أمر فى منتهى الوضوح ، لا لأن اللغة العربية لغة البلاد ، والضعف فيها ضعف فى القومية فقط ؛ بل لأنها اللغة التى يعتمد عليها جمهور الأمة فى ثقافتهم وتكوّن عقليتهم ؛ فاللغة الأجنبية التى يتعلمها طلاب المدارس الثانوية والعالية ليست هى عماد الثقافة للبلاد ، وليست هى التى تكوّن أكبر جزء فى عقليتنا ، إنما الذى يقوم بهذا كله هو اللغة العربية التى نتعلمها فى الكتاتيب ورياض الأطفال ، وندرس بها العلوم المختلفة فى المدارس الابتدائية والثانوية والعالية . فالضعف فى اللغة العربية ضعف فى الوسيلة والنتيجة معاً ، على حين أن الضعف فى اللغة الأجنبية فى كثير من الأحيان ضعف فى الوسيلة فقط ، ولهذا أعتقد أن معلم اللغة العربية فى المدارس على اختلاف أنواعها عليه أكبر واجب وأخطر تبعة ، وبمقدار قوته وضعفه تتكون — إلى حد كبير — عقلية الأمة .

وبعد ، فما هى الأسباب التى نشأ عنها هذا الضعف ؟

عندى أن الأسباب ترجع إلى أمور ثلاثة : طبيعة اللغة العربية نفسها ، والمعلم الذى يعلمها ، والمكتبة العربية .

فأما طبيعة اللغة العربية فهى صعبة عسرة إذا قيست — مثلا باللغة الإنجليزية أو الفرنسية . ويكفى للتدليل على صعوبتها ذكر بعض عوارضها : فهى — مثلا — لغة معربة ، تتعاور أواخرَها الحركاتُ من رفع ونصب وجر وجزم حسب العوامل المختلفة ؛ ولا شك أن اللغة المعربة أصعب من اللغة الموقوفة ، أعنى التى يلتزم آخرها شكلا واحداً فى جميع المواضع ، ومع جميع العوامل ، كاللغة الإنجليزية والفرنسية .

وهى صعبة كذلك من ناحية أن حروفها وحدها لا تدل على كيفية النطق بها ، بل لا بد لصحة النطق من الضبط بالحركات أو المران الطويل ، على عكس اللغات الأوربية التى تدل كتابتها على كيفية النطق بها فى أكثر مواضعها . والضبط بالشكل عسير فلا نستعمله فى الجرائد والمجلات ولا فى أكثر الكتب الأدبية قديمها وحديثها .

وهى صعبة — أيضاً — من ناحية الاختلاف الكثير فى الفعل الثلاثى ، فله أشكال كثيرة لا يمكن إخضاعها لضوابط حاسمة ، وكصيغ جموع التكسير ، فهى كثيرة وضوابطها قلما تطّرد ، وكنظام العدد والمعدود فإنه معقد تعقيداً شديداً حتى لا يجيده إلا الخاصة وأشباههم .

كل هذا ونحوه يجعل اللغة العربية صعبة المنال ، وإتقانها يحتاج إلى مران كثير ومجهود كبير من المتعلم والمعلم .

ولست أعرض هذا لبيان ما إذا كانت هذه الأعراض مظهراً من مظاهر رقى اللغة أو ضعفها فإن هذا لا يعنينى الآن ، وأما الذى يعنينى فهو تقرير صعوبة

اللغة العربية وحاجتها الشديدة إلى عناية كبرى لتذليل صعوباتها ، ورسم أقرب خطة للتغلب عليها ، حتى يحذقها المتعلم من أقرب سبيل .

***

فإذا نحن وصلنا إلى المعلم فقد وصلنا إلى نقطة شائكة ، ذلك لأننا اعتدنا دائماً أن ننقل النقد فى الأمور العامة إلى مسائل شخصية ، ونحوّل الكلام فى المبادئ العامة إلى فئات وأحزاب ، ونسىء الظن بالناقد ، فإن كان من فئة خاصة ظنوا أنه يدافع عن فئته ، وأنه يريد تنقص غيره . فهل يسمح لى المعلمون بأن أصارحهم القول مؤكداً أن لا غرض لى إلا الإخلاص للحق ؟

إن كان كذلك فإنى أصدقهم القول بأن جزءاً كبيراً من ضعف اللغة العربية يرجع إليهم . ولست أنكر أن منهم أفذاذاً نابغين يصح أن يكونوا المثل الذى ننشده ، ولكن المنطق عودنا أن يكون حكمنا على الكثير الشائع لا على القليل النادر .

فالحق أن دار العلوم والأزهر وكلية الآداب لم تستطع أن تخرج المعلمين الأكفاء الذين نتطلبهم والذين تتطلبهم اللغة العربية للأخذ بيدها والنهوض بها ، ومحاربة الضعف الفاشى فيها .

فأما دار العلوم فقد تأسست ، والذى دعا وزارةَ المعارف إلى إنشائها أنها أحست عجز الأزهر عن أن يمدها بالمعلمين الصالحين لها ، إذ رأت الأزهر تنقصه — إذ ذاك — الثقافة الحديثة والعلم بمناهج التربية والتعليم ، وقد نجحت الوزارة فى تحقيق هذا الغرض إلى حد كبير ، وأخرجت رجالا نهضوا باللغة العربية إلى حد ما ، وأحسنوا التدريس على خير مما كان يدرسه الأزهريون ، ولكن دار العلوم كانت سادَّة لحاجة الأمة فى السنين الأولى من إنشائها ، ثم تقدمت الأمة فى ثقافتها ووقفت دار العلوم حيث كانت ، فأصبحت لا تؤدى رسالتها

كاملة ، وأصبح خريج دار العلوم لا يحذق الأدب القديم ولا الأدب الحديث ، ولا يستطيع تغذية الشعب بالأدب الذى هو فى حاجة إليه ، ولا له من المهارة فى الوسائل ما يستطيع بها أن ينهض بالطلبة النهوض اللائق ، ولا هو يساير الزمن فى ثقافته حتى يخضع الطلبة لشخصيته القوية ؛ ودليل ذلك أمور كثيرة : منها ضعف المكتبة العربية وهو ما سأبينه بعد ؛ ومنها عجز معلمى اللغة العربية عن تشويق الجمهور والطلبة إلى القراءة العربية ، حتى إنا نرى الناشئ لا يكاد يستطيع القراءة فى الكتب الأجنبية حتى يهيم بها ويفضلها ألف مرة على المطالعة العربية ؛ ومنها نظر الطلبة فى صميم نفوسهم إلى أن اللغة العربية مادة ثانوية ، وإن وضعت فى المناهج فى أوائلها ؛ ومنها أن ثقافة الجمهور فيما يتعلق بالتاريخ الإسلامى والأدب العربى والمعلومات العامة التى تتصل بذلك ضعيفة إلى حد بعيد ، والمسئول عنها — كما أسلفنا — هم معلمو اللغة العربية لأنها لغة البلاد وعليها يعتمد فى تكوين العقلية ، إلى كثير من مثل هذه الأسباب .

وأما الأزهر من ناحية اللغة العربية ، فهو الآن وليد دار العلوم ، والمشرف على تعليم اللغة العربية فيه هم خريجوها ؛ فقصاراه أن يبلغ من الرقى ما بلغته مدرسة دار العلوم فى تعليمها ونظمها ومناهجها حتى يحل محلها ؛ ويكفى هذا برهاناً على أنه لا يحقق الغرض الذى نرمى إليه .

وأما قسم اللغة العربية فى كلية الآداب فكذلك ناقص ضعيف ، فهو يعلم طرق البحث الجامعى ، وهذا يضطره إلى أن يتوسع فى مسألة وأن يهمل مسائل ، فلا يخرج الطالب دارساً لكل ما ينبغى أن يدرس . أضف إلى ذلك أنه يعتمد فى طلبته على طائفة تخرج أكثرها من المدارس الأميرية وحصلوا على شهادة الدراسة الثانوية ، وهؤلاء لا يصلحون صلاحية تامة لدراسة اللغة العربية إلا بعد عهد طويل لا تكفى له سنو الدراسة الجامعية ؛ ذلك أن اللغة العربية — إلى

الآن — متصلة اتصالا وثيقاً بالدين ، ولا يمكن أن يحذقها ويستطيع أن يفهم كتبها القديمة إلا من بلغ درجة عالية فى فهم القرآن والحديث والفقه وأصول الفقه والتاريخ الإسلامى ، والطلبة الذين تأخذهم الجامعة لهذا القسم لم يثقفوا هذه الثقافة ، ولا تستطيع الجامعة أن تكمل هذا النقص مهما بذل المدرسون من الجهد . ومن أجل هذا ترى أن طلبته بينما يجيدون نهج البحث فى المسائل إذ يقصرون فى مسائل تعد فى نظر الأزهر ودار العلوم مسائل أولية وهى فى الواقع كذلك .

***

إذن من الحق أن نقول إن المعاهد التى تدرس اللغة العربية فى مصر تعجز عن إخراج المعلم الكفء ، ومن العجيب أن توجد هيئات ثلاث لتحضير معلمى اللغة العربية والبلد لا يحتاج إلا إلى هيئة واحدة ؛ ثم كل هذه الهيئات معيب لتوزع قواها ، ولو وحدت القوى فى هيئة واحدة لاستطاعت أن تخرج خير نموذج للمعلم ، ولكن يعصف بهذه الفكرة الصالحة تعصب كل فئة لنفسها ، وتدخل السياسة عند حلها فضاعت بذلك المصلحة العامة .

***

ويتصل بأمر المعلمين مسائل كانت هى الأخرى سبباً فى الضعف ، وهى مناهج الدراسة والامتحانات والتفتيش .

فمناهج تدريس اللغة العربية متحجرة برغم ما يبدو من مدنيتها وأناقتها . خذ — مثلا — منهج قواعد اللغة العربية والبلاغة تجد أنهما إلى الآن لا يزالان هما بعينيهما منهجي سيبويه والسكاكى على الرغم من زخرفتهما ، فالتقسيم الذى قسمه سيبويه فى النحو ، والتعاريف التى وضعها ، والمصطلحات التى ذكرها هى هى فى كتب المدارس اليوم . وكل ما حدث حتى فى الكتب التى ألفت منذ سنوات قليلة — هو ذكر الأمثلة الرشيقة وتبسيط الشرح ، ولكن لم يبذل مجهود موفق فى معالجة

النحو على أساس جديد كضم مسائل متعددة إلى أصل واحـد حتى يسهل على الطلبة فهمها وتحصيلها . وكوضع مصطلحات جديدة أقرب إلى الفهم ونحو ذلك . وحسبنا دليلا على ذلك ما نراه فى أجروميات اللغات الحية الأخرى ؛ فأجرومية اللغة الفرنسية أو الإنجليزية اليوم تخالف — فى الجوهر — ما كانت عليه منذ عشرين سنة فضلا عن قرن وقرنين .

ومصيبتنا فى البلاغة أعظم ، فبرامجنا لا توحى بلاغة ، ولا تربى ذوقاً ؛ وإلا فقل لى بربك ما ذا تفيد دراسة « الفصل والوصل » على هذا المنهج إلا تكرير مصطلحات فارغة ككمال الاتصال ، وكمال الانقطاع ، وشبه كمال الانقطاع ، وشبه كمال الاتصال ؟ وأخبرنى أى أديب يراعى ذلك عند كتابته ، ومتى كانت هذه المصطلحات الفارغة وسيلة لرقى الذوق الأدبى ؟

وليست برامجنا فى الأدب بأقل سوءاً من هذين ، فإنا نضع فى البرنامج أول الأمر مسائل فلسفية وقواعد فى النقد وتاريخ الأدب فى العصور المختلفة قبل أن يلم الطالب بمجمهرة كبيرة من الأدب يقرؤها ويحفظها ويتذوقها ، وبذلك نقدم له نتائج من غير مقدمات ، ونصعده على السطح من غير سلم .

والذين يضعون البرامج يكلَّفون وضعها فى أسبوع أو أسبوعين أو شهر أو شهرين . وماذا على وزارة المعارف لو كلفت من يضع لها البرامج المستقبلة فى سنتين أو أكثر على ألا توضع إلا بعد دراسة عميقة ، ثم تنشر فى الجرائد والمجلات وتتقبل الاعتراضات عليها ويعمل بالصالح منها ، ثم تثبت الوزارة العمل بها عهداً طويلا حتى تتم تجربتها ؟

ثم الامتحانات أمرها غريب ! فمع هذا الضعف الذى نسمعه فى كل مكان تظهر نتيجة الامتحانات فى اللغة العربية باهرة ، والسقوط فيها نادر ؟ فشىء من شيئين : إما أن تكون الشكوى فى غير محلها ، وهذا مالا يسلم به عاقل ، أو تكون

الامتحانات على غير وجهها ، وهذا ما يقوله كل عاقل . وسبب هذا السوء فى الامتحان كثير فنظريات النحو واسعة تحتمل أن يكون لكل خطأ تأويل من الصواب ، ومنها عدم تقدير ورقة الامتحانات فى جملتها حتى يصح أن يسقط الطالب إن أتى بخطأ شنيع فى موضع ولو أصاب فى مواضع أخرى ؛ ومنها الرحمة والشفقة فى التصحيح ، وأؤكد أن لو زالت هذه الرحمة سنة من السنوات وأدرك الطالبُ ما تعامَل به ورقته من الحزم فى الامتحان لخدم هذا الموقف اللغة العربية فى المدارس جملة سنين .

ثم التفتيش ؛ والمفتش معذور ، فهو كالقاضى يطبق مواد القانون ولا يشرعها ، فعليه أن ينظر كم موضوعاً إنشائيا كتبه الطلبة ، وهل هـذا يتناسب مع العدد المقرر فى السنة ، وهل ترك المدرس كلمة خطأ فى كراسة الطالب من غير أن يصححها ، وهل أساء المدرس إساءة كبرى فاستعمل كلمة «التيليفون» و«الراديو» أو على العموم استعمل كلمة ليست فى « القاموس المحيط » أو « لسان العرب » فأما هل نجح المدرس فى تعليمه اللغة العربية لطلبته ، وما الوسائل التى استعملها ، وهل تقدم الطلبة فى القراءة والكتابة فأمر فى المنزلة الثانيـة ؛ وأما ما ينبغى أن يدرس هنا أو لا يدرس ، وما العوامل فى الرقى باللغة العربية — على العموم — فأمر يرجع فى الأغلب إلى المشرع لا إلى المفتش .

نعود — بعد — إلى الأسباب الأخيرة من أسباب ضعف اللغة العربيـة . وهى مسألة « المكتبة العربية » فالحق أنها مكتبة ضعيفة فاترة ، هى مائدة ليست دسمة ولا شهية ولا متنوعة الألوان . والحق أيضاً أن القائمين بإحضارها لم يجيدوا طهيها ؛ فدار العلوم — وقد أتى على إنشائها أكثر من خمسين عاماً خرجت فيها الألوف من أبنائها — هل أجادت فى إخراج الكتب النافعة المختلفة الألوان والموضوع ؟ أو هى قصرت كل التقصير فأخرجت من الكتب ما لا يتفق

وعدد خريجيها ومنزلتهم فى الحياة الاجتماعية والأدبية ؟ .

والأزهر — وهو أقدم عهداً وأعرق أصلا — لم يشترك فى التأليف الحديث اشتراكا جديا ، ولم يساهم بالقدر الذى كان يجب عليه ، ولم يعرف عقلية الناس فى العصر الحديث حتى يخرج لهم ماهم فى أشد الحاجة إليه .

وكلية الآداب — وإن قصر عهدها — لم تؤد رسالتها فى هـذا الموضوع كاملة ، واتجهت أكثر ما اتجهت إلى الثقافة الخاصة لا العامة .

فمكتبتنا فى كل نواحيها ناقصة من ناحية الأطفال ، ومن ناحية الجمهور ، ومن ناحية المتعلمين . وحسبك أن تقوم بسياحة فى مكتبة أفرنجيـة وأخرى فى مكتبة عربيـة لترى الفرق الذى يحزنك ، ويبعث فى نفسك الخجل والشعور بالتقصير .

ماذا يقرأ الطفل فى بيته وفى عطلته ؟ وماذا تقرأ الفتاة فى بيتها ؟ وأين الروايات الراقية التى يصح أن نضعها فى يد أبنائنا و بناتنا ؟ وأين الكتب فى الثقافة العامة التى تزيد بها معلومات الجمهور ؟ وأين الأدب القديم المبسط ؟ وأين الأدب الحديث المنشأ ؟ الإجابة عن هذه الأسئلة يعرفها كل قارئ لمقالتى . وواضح أن اللغة لا ترقى بكتبها فى قواعد النحو والصرف والبلاغة بمقدار ما ترقى بالكتب الأدبية ذوات الموضوع .

سيقول المعلمون : وماذا نصنع وليس العيب عيبنا ، فوزارة المعارف ترهقنا بالدروس ، وترهقنا بنظام الكراسات وتصحيحها ، و بنحو ذلك حتى لا نجد وقتاً لترقية نفوسنا والازدياد فى معلوماتنا فضلا عن المساهمة فى تضخيم « المكتبة العربية » والمشاركة فى إصلاح جوانب النقص منها .

ذلك حق ، ولكنه ليس ردا على ما أقول ، فإنى فى هـذا المقال أكتفى باستعراض الأدواء استعراضاً خاطفاً سريعاً من غير أن أعنى كثيراً بتحديد المسئول .

(٢)

قرأت فى الصحف وصفاً لعلاج قيل إن مكتب التفتيش فى وزارة المعارف اقترحه ؛ وخلاصته زيادة الحصص للغة العربية ، وتوسيع مكتبة التلميذ . وأظن أن هذا علاج ليس كافياً ولا شافياً ، وأنه لا يلاقى المرض فى الصميم ، وأنه لا يقدم فى الموضوع ولا يؤخر ، فلو ضاعفنا الحصص والمعلم على حاله من النقص ، والمنهج كما هو من الضعف ، لم نصل إلى نتيجة ولم تتحسن حالة المرض .

إنما العلاج الحقيقى فى إصلاح المعلم وما إليـه من منهج وامتحان وتفتيش ، فالمعلم الآن تخرجه ثلاثة معاهد : دار العلوم والأزهر وقسم اللغة العربية فى كلية الآداب . وكلها معيبة كما أبنت ، فلا بد للاصلاح من توحيد تلك الجهود الموزعة ، والاقتصار على معهد واحد يسلح بكل أنواع الأسلحة الملائمة .

وعندى أن أصلح معهد لذلك هو « دار العلوم » ، فتاريخها القديم فى التعليم ، وسبقها الأزهر فى هـذا الباب ، يجعلان المصلحة فى بقائها ؛ وكذلك صبغتها الدينية ، وما بين اللغة العربية والدين من صلة وثيقة يجعلها أصلح من قسم اللغة فى كليـة الآداب ، ولـكنها فى شكلها الحاضر غير صالحة ، بل لا بد لصلاحيتها من أمور .

(١) فصلها عن « وزارة المعارف » وجعلها معهدا تابعا للجامعة أسوة لها بكل المدارس العليا التى كانت تابعة للوزارة كالمعلمين والهندسة والزراعة والتجارة . فالجامعة أوسع حرية وأكثر استقلالا ، والحرية والاستقلال أصلح للنمو العلمى والرقى العقلى .

(٢) إعادة النظر فيها من جديد : فى نظامها وبرامجها ، فلم تعد أساليبها التى كانت صالحة منذ عشرين عاماً صالحة الآن ؛ على أن يشرف على وضع هـذه

النظم جماعة من خيرة رجال مصر ثقافة وعقلا وسعة تفكير وعلماً بمناهج التربية .

(٣) أن تكون الدراسة فيها مقصورة على المواد العلمية ، و بعد الانتهاء يدرس المتخرج سنة أو سنتين أساليب التربية فى معهد التربية .

(٤) أن يعاد إنشاء تجهيزية دار العلوم لتغذى دار العلوم ، ويعاد تنظيمها على خير مما كانت ، فيتوسع فيها فى الدراسة الدينية من قرآن وتفسير وحديث وما إلى ذلك ، وتدرس فيها لغة أجنبية حتى يخرج الطالب منها مساوياً للطالب فى المدارس الثانوية الأخرى ومتفوقاً فى اللغة العربية والدين الإسلامى ، وخريجو هذه المدرسة يغذون دار العلوم وقسم الفلسفة فى كلية الآداب ونحو ذلك ، ويكون فى دار العلوم دروس فى اللغة الأجنبية أيضاً تتم ما درسه الطلبة فى المدرسة الثانوية .

(٥) تكون الدراسة فى دار العلوم دراسة قاسية شديدة دقيقة ، فى الانتقال وفى الامتحان ، فلا يسمح لضعيف ولا متوسط الكفاية أن يخرج من هذه المدرسة لأنها ستكون — على ما أعتقد — أفعل مدرسة فى رقى الأمة وتكوين عقليتها والنهوض بحياتها .

هذا هو فى نظرى أهم علاج لضعف اللغة العربية ، فالحصة من هذا المعلم الكفء خير من مائة حصة من معلم غير كفء .

***

ويلى هذا فى الإصلاح إصلاح برامج التعليم ؛ فمناهج اللغة العربية وخاصة فى المدارس الثانوية تحتاج إلى ثورة تقلبها رأساً على عقب تبسط فيها المصطلحات ، وتحذف منها الأبواب العقيمة ويقتصر فيها على ما ينتج استقامة اللسان والقلم ، ويترك ما عدا ذلك للخاصة .

ولو ألف فى وزارة المعارف هيئة فنية « مراقبة » للبرامج ووضعها وطريقة

تنفيذها لكانت أفضل من كل المراقبات الأخرى لأن هذا هو العمل الأساسى للوزارة وما عداه تبع له .

وليس عمل برنامج اللغة العربية فى المدارس الابتدائية والثانوية من الأمور السهلة ، فهو يحتاج إلى دراسة المناهج السابقة من أول وضعها ، ويحتاج إلى دراسة المناهج للغات الحية الأخرى فى الأمم المختلفة للاستفادة منها والاتصال بتلاميذ المدارس فى مراحلهم المختلفة لمعرفة مقدار عقليتهم وهكذا .

ثم الامتحان له كبير أثر فى ضعف اللغة ، لأن التلاميذ عندنا اعتادوا أن يقرءوا للامتحان ، ويتعلموا للامتحان ، وبقدر صعوبة الامتحان والتشديد فيه تكون عناية الطلبة .

والامتحان فى اللغة العربية معيب من وجهين : من وجهة ورقة الامتحان فإنها فى أغلب شأنها نظرية لا عملية وتعتمد على الذاكرة والحفظ أكثر مما تعتمد على التفكير والعمل ، واللغة أداة للتعبير ، والغاية منها تقويم القلم واللسان فيجب أن يرمى الامتحان إلى هذه الغاية ؛ أما أن تكون الأسئلة فيما هو التشبيه الضمنى ، وما هى الاستعارة المكنية ، وأثر الثقافة اليونانية فى الثقافة العربية ، فأسئلة لا يصح أن تكون فى المرحلة الأولى ولا الثانية من التعليم ، إنما تكون بعد أن يستكمل الطالب الجانب العملى .

وكذلك من جهة التصحيح ، فقد استولى على مصححى اللغة العربية نوع من العطف أشبه ما يكون بالعطف على المجرم فلا يعاقب ، وبعطف الأم الجاهلة على ابنها فلا تؤدبه .

والمصححون يبنون تساهلهم على فكرتين باطلتين : أولاهما أن اللغة العربية هى اللغة الأصلية فلا يصح أن يرسب الطلبة فيها ، وهذا خطأ ، لأن لغتنا الأصلية هى اللغة العامية لا اللغة العربية الفصحى وشتان ما بينهما ، ولو كانت هى لغتنا

الأصلية ما شكونا هذا الضعف ؛ وثانيتهما غلبة الرحمة عليهم وقد أبنا ضررها .

وليس أدل على فساد الامتحان من حسن النتيجة المئوية مع ضعف الطلبة ضعفاً نضجّ منه جميعاً بالشكوى . أمن المعقول أن نلمس هذا الضعف ثم تكون نسبة النجاح فوق الثمانين فى المائة فى أكثر السنين ؟

كل هذا جعل التلاميذ يهزءون باللغة العربية ولايعيرونها التفاتاً ، ويحترمون اللغة الأجنبية والرياضة لأن الاحترام عندهم تابع لنسبة النجاح ، فكلما كانت النسبة قليلة كانت العناية بالعلم أقوى ؛ وليس ينسى أحد منا العبارة التى تدور على ألسنة الطلبة وهى أنهم إذا سمعوا طالباً يجتهد فى استذكار اللغة العربية قالوا له : « وهل يسقط أحد فى العربى ؟ » .

ثم لهم طريقة فى التصحيح ليست صحيحة ، فهم لا يقومون الورقة ككل ، ولكن يجزئونها جزيئات صغيرة ثم يضعون درجة على كل جُزَىء ، فيحدث أن الطالب يأتى بأخطاء شنيعة تدل على الجهل التام ومع ذلك ينجح ، حتى يخيل إلىّ أن التلميذ إذا أعرب « فى البيت » فى حرف جر والبيت مفعول به منصوب لأعطوه ٥٠ ٪ على صحة إعرابه « فى » وخطئه فى إعرابه « البيت » .

أنا كفيل بأن سنة واحدة توضع فيها ورقة الامتحان عملية أكثر منها نظرية ، ويشدد فيها فى التصحيح شدة حازمة تساوى الشدة فى تصحيح الرياضة واللغة الأجنبية ، كافية فى أن يوجه الطلبة عنايتهم الكبرى للغة العربية فيزول الضعف وتحسن النتيجة .

ولا ننسى أن التفتيش بعد ذلك له أثره ، فلو حدد الغرض منه لبانت قوته الحالية أو ضعفه ، فليس المفتش جاسوساً يضبط الجريمة ، ولا هو عدّاد يعد موضوعات الإنشاء والتمرينات ، ولا غرضه الأول أن يقول إن كلمة كذا ليست فى القاموس ، كلا ولا غرضه الأول أن يكتب عن المدرس أنه جيد أو ممتاز أو

ضعيف ، إنما مهمته الأولى حسن توجيه المعلمين إلى تحقيق الغرض من دراسة اللغة العربية والوصول بالطلبة والمدرسين والكتب والمناهج إلى أرقى حد مستطاع ، وبمقدار تحقيق هذا الغرض أو عدم تحقيقه يكون الحكم على قيمة التفتيش .

إذا أصلح المعلم والمنهج والامتحان والتفتيش صلحت اللغة العربية فى المدارس . وهـذا هو العلاج الوحيد الصحيح ، أما ما عداه فعلاج غير حاسم ولا ناجع .

من وحى البحر أيضا

من نهاية « اللسان » فى « رأس البر » جلست أرقب اللانهاية فى البحر .

كان الوقت وقت غروب الشمس .

ولا أدرى لماذا كلما رأيت غروب الشمس فى البحر ، وددت لو خليت جسمى ، وحلت بنفسى فى مَلَك ذى أجنحة ، أو طائر قوى يصل بى إلى حيث هذا المنظر بشمسه وشفقه ، فأحتضنه وأتحد به ، وأفنى فيه كما يفنى الفراش فى النار ، وأشعر بشعوره معنى الأزلية والأبدية ، وأشهد فى مرآته أحداث الزمان ، وتقلبات العصور .

إيه هذا المنظر ! لقد شهدْتَ خلق آدم ، وحوار إبليس ، وشهدت الإنسان الأول فى سذاجته ، ومغاراته وكهوفه ، وشهدت كل خطوة يخطوها فى تقدمه ، فيعثر أحياناً ، ويهتدى بعد أن يلجّ به العثار أحياناً ، وشهدته يبنى الحضارة ويهدمها ليبنى خيراً منها ، شهدت المدن تتكون شيئاً فشيئاً ، وتشاد عليها الحضارات شيئاً فشيئاً ، شهدت الأهرام وهى تبنى ، ورمسيس وهو يحكم ، وبابليون وهى تنشأ ، وشهدت ميلاد كل مدنية ، وموت كل مدنية ، ونظرت إلى العلم وهو فى مهده ، والفلسفة وهى فى بدئها ثم ريعانها ، وشهدت كل الأحداث على هذه الهنة الصغيرة التى تسمى « الأرض » ، ولم تكن كل هذه المشاهدات إلا فى لحظاتك الأخيرة من عمرك الطويل الأزلى ، هزأت بها كلها لأنك شاهدتها وليدة صغيرة فلم توقرها كبيرة ، شهدتها كلها وأنت شيخ هرم ، فماذا رأيت فى صباك وشبابك وكهولتك إذا كان كل هذا قد رأيته فى لحظة من شيخوختك ، على أنك ما شخت وما هرمت ، فأنت فى شيخوختك أنت فى صبوتك ، وأنت

فى شبابك لم ينل منك كرّ الغداة ومرّ العشى ، لأنك أنت فاعل الغداة ، وفاعل العشى .

وعلى الجملة لم يكن تاريخ الإنسان إلا جزءاً هيناً من تاريخك ، بل ما تاريخ الأرض كلها منذ بدء تكونها إلى اليوم إلا خطفة البرق من حياتك الطويلة ، وما الأرض والإنسان إلا لون واحد من ألوانك التى لا عداد لها ، ومنحة من منحك التى لا تحصى ، وفوق هذا وذاك سبحان ربى وربك .

***

هذا الإنسان المتناهى يُعجَب بهذا البحر اللامتناهى ، وهذا الأفق اللامتناهى أيضاً ، ولكن . لا ، ليس الإنسان متناهياً محدوداً ، فإنْ تناهى طوله وعرضه ، وحُدَّ مدى بصره ، فله الخيال الذى لا يتناهى ، والذى يطابق الأفق والبحر والسماء وما إلى ذلك مما لا يتناهى ، بل قد يلف الخيال كل هذه الأشياء ، ولا يزال فضفاضاً واسعاً يسع أمثالها وأمثالا مع أمثالها .

وفى هذا الجسم المحدود نفس لا محدودة أعمق من هذا البحر ، وأرفع من هذه السماء ، وأغمض مما وراء هذا الأفق ، وأعجب مما يقع عليه البصر أو يحيط به الخيال ، تهيج كما يهيج هذا البحر ، وتهدأ كما يهدأ ، وتحوى الدرر والأصداف كما يحوى ، وتتكسر موجاتها كما تتكسر موجاته ، وترغى وتزبد كما يرغى ويزبد وتطالعك بالجمال والعنف ، كما يطالعك بالجمال والعنف ، وهى فى كلياتها أزلية أبدية أكثر مما هو أزلى أبدى ، وعزت شمائلها وخصائصها على العلم أكثر مما عز ، فلما توافقا فى هذه الصفات تآلفا .

***

غريبة هى اللغة ، لم تعبأ بالعظم والسعة ، ولم تعبأ بامتداد اللانهاية ، فأرادت أن تنتقم من هذه السعة وهذه اللانهاية ، فاختزلت اللفظ الدال عليها اختزالا ،

طوّلت ومططت فى الحرباء — مثلا — وهى الدويبة الحقيرة ومنحتها خمسة حروف كاملة ، ومدت كلتها مدا لايتناسب وخلقتها ، وأتت إلى الممدود بطبيعته فقصرته. هذا البحر الفسيح إلى أبعد مدى ، العميق إلى أبعد مدى ، المملوء بالأعاجيب إلى أبعد مدى ، ضنت عليه بألفاظها وامتدادها ، فوضعت له كلمة مجزوءة مخطوفة من ثلاثة حروف فقط ، وهكذا فعلت فى « النفس » العميقة إلى ما لا نهاية ، الرفيعة إلى ما لا نهاية ، المتقلبة الأشكال والألوان إلى ما لا نهاية ، وقل مثل ذلك فى العقل والأفق وغير ذلك .

لا . لا ، إنها كانت ماهرة كل المهارة ، فأما ما حصرته فسمته فى سهولة ويسر ، وأما ما لم تحصره ، فلم تقف أمامه طويلا تقيسه وتقدره وتعيا بتسميته ، فليس لها من الزمن والفراغ ما يمكنها من القياس والتقدير ، وإنما وضعت بطاقة صغيرة على جزء منه صغير ليدل صغيره على كبيره ، وجزؤه على كله ، كما يفعل المؤلف فى عنوان الكتاب ، أو كما يفعل التاجر فى لصق بطاقة باسم البضاعة ونوعها على ثوب من الصوف ، طويل ملفوف ، ثم جاء الخيال فارتبط بالكلمة وأكمل نقصها وقوى عجزها ومد قصرها .

***

فى حضرة اللانهاية ومناظرها يشعر الإنسان بالتسامى والرقى ، ويشعر بلذة التغير من حياة مادية كلها أكل وشرب وشهوات ، وتشع عليه اللانهاية من نفسها فيحن إلى اللامادية ، ويسبح فى التجرد ، ويحتقر ما هو متقلب فيه أثناء حياته اليومية ، وتلمع فى نفسه لمعات برق مضيئة يود لو طالت ، ولكنها لا تطول فسرعان ما تجذبه أرضيته إلى الأرض ، وماديته إلى المادة .

فى هذه المواقف تتحرك العاطفة الدينية ، فهذه اللانهاية الصغرى تذكر الإنسان باللانهاية الكبرى ، وهذه الأزلية الأبدية المحدودة نوعاً ما تذكر بالأزلية

الأبدية المطلقة ، وهذه ضعة الإنسان أمام جلال البحر والشمس والأفق وما إليها ، تذكره بضعة هذه كلها أمام خالقها ، وتجرُّدُ النفس أمام هـذه المناظر يطمعها فى الخلود ، على حين أن انغماسها فى المادة يبعث فيها الشره لتنعم أكثر ما يمكن من النعيم قبل أن يدركها الموت ، ثم هذا الغموض فى هذه المناظر يذكرنا بالموضوعات الدينية التى دقت عن الفكر وسبح فيها الخيال ، كالنعيم المقيم ، والعذاب الدائم ، والجنة والنار ، واللوح والكرسى والعرش ، وما إلى ذلك .

أمام هذه المناظر الجليلة ، والمناظر الجميلة ، والمناظر اللانهائية ، تنبعث صرخة من أعماق القلب « هنا موضع سجود » .

تذكرنا بهـذه اللانهاية كل حواسنا ، فنشعر بها فى رؤيتنا للسماء ولمعان نجومها ، والبحر وتكسرات أمواجه المتتابعة المتلاصقة ، ونشعر بها عند دقات الساعة فى سكون الليل ، وفى الموسيقى الجميلة السامية العلوية ، وندركها فى حضرة الله فى الصلاة الحقة ، ونحسها فى رؤية الموت .

وهى فى كل أشكالها وأوضاعها رهيبة ، لا يأنس إليها إلا من مرن عليها ، وحاول خوض غمارها ثم ارتد ، وما زال بها حتى آنسها وأنس بها ، وهى رهيبة لأنها مجهولة ، والمجهول مخوف ، وهى عظيمة والعظيم مرهوب ، وهى غامضة ، والغموض ظلام ، والظلام مرعب ، وهى جليلة لأنها تشعر الإنسان بحقارته ، وبقصر عمره فى جانب طول عمرها ، وبضعفه بجانب قوتها .

لذلك هرب من اللانهاية إلى التحديد ، فسكن إلى المنزل لأنه يأويه من الفضاء ، وأنس بالمسجد يحدد شيوعه ، ويحصر شروده ، وحصر نفسه فى دوائر محدودة فراراً من اللامحدودة ، حتى فى عقله قد حكمه بالتعريفات لئلا يسبح فى

الخيال ، وجسّم المعانى ، وتمسك بالعادات والشعائر والتقاليد هرباً من اللامحدود واستئناساً بالمحدود .

***

فإذا نعمنا بك أيها الفضاء ، وأيتها السماء ، وأيها البحر فى تموجاته ، وأيها الأفق بحمرته ، وأيتها الشمس فى دمائها ، فلذة التغير ، ولذة إلى حين ، ثم نعود سيرتنا الأولى نعيش فى الحدود ، ونبحث عن الحدود ، ونألف الحدود .

***

وعرف صغارى مكانى ، فأتوا إلىّ يدعوننى أن أريهم « مدينة الملاهى » فشعرت بما يشعر به من كان فى ماء ساخن ثم غمس فى ماء بارد .

« رأس البر »